غُرَرُ الخَصَائِصِ الوَاضِحَة
وَعُرَرُ النَّقَائِصِ الفَاضِحَة

كتاب شامل لأطراف متباينة من فنون الأدب والحكمة
يهدف إلى تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس

تأليف

الإمام العلامة أبي إسحاق جمال الدين
محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي
المعروف بالوطواط
المتوفى ٧١٨ هـ



ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهارسه
إبراهيم شمس الدين

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

غرر الخصائص الواضحة

وعرر النقائص الفاضحة

كتاب شامل لأطراف متباينة من فنون الأدب والحكمة
يهدف إلى تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس

تأليف

الإمام العلامة أبي إسحاق جمال الدين
محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي
المعروف بالوطواط
المتوفى ٧١٨ هـ

ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهارسه
إبراهيم شمس الدين

دار الكتب العلمية
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت لبنان

Title : ǦURAR AL-ḪAṢĀʾIṢ AL-WĀḌIḤAH
WAʿURAR AL-NAQĀʾIṢ AL-FĀḌIḤAH
(A book in letters and wisdom)
classification: *literature*
Author : Jamāluddīn al-Waṭwāṭ
Editor : Ibrāhīm Šamseddīn
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 712
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب: غرر الخصائص الواضحة
وعرر النقائص الفاضحة
التصنيف : أدب
المؤلف : جمال الدين محمد بن إبراهيم الوطواط
المحقق : إبراهيم شمس الدين
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات: 712
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى

ISBN 2-7451-5244-0 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5244-2 (13 dig)
90000
9 782745 152442

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quobbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٨١٠ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

تعتبر القصة والأثر الأدبي من أقدر الأساليب على تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس، وتمثيل الأخلاق، ورسم خَلَجات النفوس، كما أنها إذا شَرُف غرضها، ونَبُل مقصدها، وكَرُمَت غايتها، تهذّب الطِّباع، وترقّق القلوب، وتدفع الناس إلى الاقتداء بالمُثُل العُليا، من الإيمان والواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار.

وهذا هو مقصد أبي إسحٰق برهان الدين الكتبي، المعروف بالوطواط، في كتابه (غرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة)، إذ يقول في مقدمته: «. . .فإني لمّا رأيت تغاير معاني الأخلاق دالاً على تباين معاني الأعراق، والنفوس تتفاوت في ميلها إلى أغراضها على حسب اختلاف جواهرها وأعراضها، حَداني غرض اختلج في سرّي، وأمل اعتلج في صدري على أن أجمع كلامًا في المحامد والمَذامّ المتخلّقة بها نفوس الخَوَاصّ والعَوامّ، وأجعله كتابًا يُغني اللّبيب عن الخليل والنّديم ويُخبر بالحديث والقديم. . .».

والحقيقة فقد وُفّق المؤلّف في غايته هذه، فهو كتاب مُمتِع، وسَمِيرٌ مُؤنِس يشدّك إليه، ويأخذ بمجامع قلبك، فلا تجد سبيلاً للخلاص من رفقته ومعاشرته، لأنه يجمع بين دفّتيه كلّ ما يُنَمّي الروح، ويهذّب الأخلاق، ويصقل الفكر والضمير، وكلّ ما تعلقه النفس وتتمسك به وترتاح إليه.

وهذا الكتاب شامل لأطراف متباينة من فنون الأدب والحكمة والقول، فإن المؤلّف، كما صرّح في تقديمه للكتاب، كان يهدف إلى تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس، بعد أن فقدت في عصره الذي عاش فيه كثيرًا من مقوّماتها وأُسس بنائها بفِعْل الظروف التي ساعدت على التهتّك والمجون والتحلّل من القِيَم الإسلامية

الخَيِّرة، فضلًا عن شيوع كثير من العادات والتقاليد التي لا تمُتُّ إلى العقيدة السّمحاء بصلة.

وكان المؤلِّف يجمع ويرتِّب الكثير من الأقوال والأشعار والقصص ضمن أبواب شاملة لجوامع الكَلِم، بحيث نرى الباب يبتدىء إما بذِكْر آيات من القرآن الكريم تتناسب وموضوع الباب، ثم يُتبِعها بأحاديث للرسول ﷺ في الموضوع نفسه، ثم يُتبِعهما بعد ذلك بكثير من الحِكَم والقصص والأشعار والطرائف التي لا تُخالِف المغزى المقصود من إثباته.

أما عملنا في هذا الكتاب:

أولاً: وضعنا ترجمة مختصرة للمؤلِّف.

ثانيًا: بذلنا ما أمكننا من الجهد في مقابلة ومقارنة النصوص التي أوردها المؤلِّف في كتابه، والتي أخذها من مصادر التراث.

ثالثًا: وضعنا في حواشي الكتاب شرحًا لِما في متنه من غريب اللغة أو صعب المُتَناوَل منها، استنادًا إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

رابعًا: خرَّجنا معظم الشواهد الشعرية في مَظانها، مع وضع البحور لكل الأشعار.

خامسًا: خرَّجنا معظم الأحاديث النبوية استنادًا إلى كتب الحديث المعتبرة.

وأخيرًا نرجو أن يكون عملنا هذا خالصًا لوجه الله تعالى، ولله الكمال وحده، وهو وليُّ التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

ترجمة المؤلِّف[1]

هو محمد بن إبراهيم بن يحيىٰ بن علي الأنصاري الكتبي، جمال الدين، المعروف بالوطواط، من أهل مصر، وُلِد في ذي الحجة سنة ٦٣٢ هـ ـ ١٢٣٥ م، كان أديبًا ماهرًا عارفًا بالكتب، وكانت حِرفته الوراقة وبيع الكتب، وجمع مجاميع أدبية، وهو صاحب الرسائل المشهورة المعروفة بعين الفتوّة ومرآة المروءة، كتب له عليها ابن النحاس، وابن عبد الظاهر، وابن النقيب، والسراج الوراق، والنصير الحمامي، والعلم العراقي، وابن العفيف، وابن دانيال، وغيرهم، وله يقول ابن دانيال وقد رمد:

ولم أقطع الوطواط بخلاً بكحله ... ولا أنا مَن يعيه يومًا تردد
ولكنه ينبو عن الشمس طرفه ... وكيف به لي قدرة وهو أرمد

وفيه عمل ابن عبد الظاهر التقليد المشهور الذي كتبه لابن غراب بإمرة الطيور، أوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ [النمل: الآية ٣٠]، فتلعّب فيه بالوطواط تلعّبًا عجيبًا.

توفي الوطواط في العشر الأخير من رمضان سنة ٧١٨ هـ ـ ١٣١٨ م، وله ست وسبعون سنة، وذكره السروجي في مشايخ العز ابن جماعة.

له من المصنّفات:

١ ـ تعليقة (حواشٍ) على الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري.

---

(١) انظر ترجمته في:

١ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

٢ ـ آداب اللغة ٣/ ١٣٢.

٣ ـ الفهرس التمهيدي ص ٥٢٠.

٤ ـ هدية العارفين ٦/ ١٤٣.

٥ ـ معجم المطبوعات ١٩٢٠.

٦ ـ الأعلام ٥/ ٢٩٧.

٢ ـ الدرر والغرر. ذيل على أخبار شعراء الأندلس لابن عربي.

٣ ـ غرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة (وهو الذي بين أيدينا).

٤ ـ فتى الفتوّة ومرآة المروءة (هكذا اسمه في هدية العارفين وفي الدرر الكامنة: عين الفتوّة ومرآة المروءة).

٥ ـ مناهج الفكر ومباهج العِبَر، في الكيمياء والطبيعة والحيوان والنبات، ستة مجلدات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل اللِّسان، عنوان عقل الإنسان، وآلة تطهّر سرّ الجنان، بفصيح العبارة وصريح البَيان، وصلاته وسلامه على سيِّدنا محمّد المُجْتبى من سرّة عدنان، المبعوث بجوامع الكلم الشاملة لأنواع البَيان، الباهرة بفصاحتها عقول ذوي الفِطَن والأذهان، والمخصوص بمحاسن الشِّيَم المتمِّمة لمكارم الأخلاق ومزايا الإحسان، والحائز في حَلبات الاصطفاء قَصَبات الرّهان، وعلى آله وصَحْبه فروع شجرته الباسقةِ الأفنان، وفراقد سماء رسالته أعيان السادات وسادات الأعيان، صلاةً وسلامًا دائمين ما دام طرف القلم مُقادًا بِعَنان البَنان.

وبعد؛ فإني لمّا رأيت تغايُرَ معاني الأخلاق دالًّا على تباين مباني الأعراق، والنفوس تتفاوت في مَيْلِها إلى أغراضها على حسب اختلاف جواهرها وأعراضها، حَدَاني غرضٌ اختلج في سرّي وأملٌ اعْتَلج في صدري، على أن أجمع كلامًا في المحامد والمذامّ، المتخلِّقة بها نفوس الخواصّ والعوامّ، وأجعله كتابًا يُغْني اللَّبيب عن الخليل والنديم، ويُخْبر بالحديث والقديم، فشمَّرت عن ساقِ الجدِّ، وحسَرْت عن ساعدِ الكَدِّ، وعمدت إلى حِسان الكُتُب، المجموعة في ضروب الأدب، فتصفَّحت مضمونها، وتلمّحْتُ فنونها، واستفتحت عيونها، واسْتَبَحْتُ أبكارها وعونها، وجمعت في هذا الكتاب من زواهر أسدافها[1]، وجواهر أصدافها، مِلَحُ فكاهات جَلَتْ عرائس المعاني في حُلَلٍ موشّاة، وأظهرت نفائس المحاسن في أنواعٍ من البَراعة مُغَشَّاة، وأزاهر بيان يغدو المتلفّظ بها غايات، ويروح المتحفِّظ بها صاحب آيات، وجعلته شاملًا لمصائد شواردها، ناهلًا من الفضائل أعذب مواردها، محتويًا من إحراز الألفاظ على دُرَرٍ منظومةٍ تستفتح النواظر بلمحات سلكها، ومن أسرار المعاني على سُرَرٍ مختومةٍ تستَرْوِح الخواطر

(١) السُّدْفة: الظلمة، وإرسال شيء على شيء غطاءً له، يقال: أسدفت القناع: أرسلته.

بنفحات مسكها. [الطويل]

أحـاديـثٌ لـو صِيـغَـتْ لأَلْهَـتْ بـحُسْنـهـا

عـن الـدُّرِّ أو شُـمَّـت لأغْـنَـت عـن الـمسـكِ[١]

وكسوته من الأخبار بزّة رفيعة، وأبدعت فيما أودعت فيه من الفكاهات الرائقة البديعة، من نوادر مطربات، وأبيات مهذّبات، هي للأوراق شموس مشرقات، ولآلىء أنوارها بارقات، ألفاظها أرقّ من النّسيم، وأرْوَق من التسنيم.

مفرد[٢]: [الطويل]

كما أزهرت روضات حسن وأثْمَرت فأضْحَتْ وعجم الطَّيْر فيها تغرّدُ

وجنَّبْتُه خرافات الأخبار، ومطوّلات الأسمار، لئلا تسأمه عند المطالعة النفوس، ولئلّا يكون ذكرها وضحًا في غُرر الطُّروس، وجعلته ستّة عشر بابًا، تُسْفر عن وجه الإبداع نقابًا، وجعلتها متضادّة لتضادّ الأخلاق والشِّيَم، وتباين الأقدار والهِمَم. كل باب يشتمل على ثلاثة فصول، في ثلاثة معانٍ، تفكّ بلطائفها من أدْهَم الهمّ كل قلبٍ عانٍ، وهذه الفصول قلائد أجناس، فصّلت بلآلىء أنواعها، ومعاهد إيناس، نُصِبت أشراكُ النفوس برباعها، فجاءت فصولًا تُعبّر عن حِسان فنونها ومعانيها، وتغبرّ في وجه عائبها وشانيها، وقدّمت في أبواب المحامد فصلًا في مدائحها، ليتنسّم المتأمّل عُرْف اليمن من فواتحها، وأتْبَعته فصلًا ثانيًا فيما ذكر عن المتخلّقين بها من أزهار خمائل الأخبار، وأبكار عقائل الأفكار، الفائقة باختبارها دُرَر الأمثال السّائرة، الرائقة في اختيارها، فهي عن غُرَر المفاخرة سافرة، وعزّزت بثالث في ذمّ ما مُدِح من الأخلاق، لسببٍ يطرأ عليها إذ البدر يطرأ عليها الخسوف والمحاقّ، والشّيْء بالشيء يُعرف فيُذكر، بعد أن كان يُجْهَل ويُنْكَر، فربّما تجاذبت الأحاديث أذيالها، فطلبت من المنمّق أشكالها؛ ولا غرو، فالحديث كما يُقال شجون، وأحْسنه ما جذل جدّه برقيق الهزل مقرون، على أنني لم آلُ جهدًا في إضافة كل شيء إلى ما يشاكله ويُلائمه

(١) البيت بلا نسبة في المنتحل لأبي منصور الثعالبي، ص ١٦، (الموسوعة الشعرية).

(٢) البيت لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أبـيـن ضـلـوعـي جـمـرة تـتـوقّـدُ على ما مضى أم حسرةٌ تتجدّدُ

ويُضاهيه في المعنى ويُساهمه، ممّا يجري في هذا الأُسلوب، ولا يخرج عن المقصود والمطلوب.

ورتّبت فصول أبواب المذامّ على العكس مِن أبواب المحامد والمآثر، وأطلعت في دياجي مساويها من محاسن المُلَح الأنجم الزّواهر، ترتيبًا لا يَرْتاب في جودته أريب، وتقريبًا يُؤمَن به من كلّ ما يُريب، فأبوابه على اختلافها بائتلافها في الحُسْن نظائر، وبعضها لبعض ضرائر، إن ازْدَهى الحسن بابًا منها بتقسيمه ووصفه، تنفس الآخر عن حُسْن ترصيعه وطِيب عُرْفه.

مفرد[١]: [الكامل الأحذ]

ضدّان لما استجمعت حسنًا والضدّ يظهر حُسْنه الضدُّ

وسدّدته جهدي رجاء أن يُصِيب صمي الآمال والأعراض، وخوفًا أن تصرفه النُّفوس عند النقد بالصدّ عنه والإعراض، ووسَمْته بغُرَر الخصائص الواضحة، وعُرَر النقائص الفاضحة، اسمٌ يكون لحلّة أدبه طرازًا معلَمًا، وبمكنون أسراره معلنًا ومعلّمًا؛ إذ الكتاب لا يُعْلم ما في باطنه، إلّا مِن سِمَة عنوانه، كما أن الإنسان يعلم ما في قلبه من لفتات وجهه، وفلتات لسانه. وأنا راغب لمن وقف على هذا الكتاب، من سُراة الأعيان والكتاب، القاطفي أزهار الآداب من جِنان الخواطر، العاطفي نفار الألباب في عَنان النوادر أن لا يفوّق لهدف الاختيار سهم الاختبار، وأن يحدّق إليه بصر الاعتقاد عند الانتقاد، فأيّ جواد لا يَكْبو، وأيّ مهنّد لا ينبو، ومع هذا فإنّ لسان التقصير، عن القيام بالعُذْر قصير، والمصنّف وإن استعان في تنقيح ما ألّف بمالك وعقيل، معرّض لطاعن وحاسد، إلّا أن يُتاح له عذر ومقيل.

مفرد[٢]: [الطويل]

وإنــي لأرجــو أن يُـفَـخَّـم أمــره من الناس حرّ شأنه الصَّفح والسَّتْرُ

---

(١) البيت لأبي الشّيص الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

هــل بــالـطـلـول لـســائـلٍ ردُّ أو هــل لــهـا بـتـكـلُّـمٍ عـهْـدُ

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

والله أسأل أن يُكسبه دلّا معشقًا، يكون به لداء القلوب محظيًا، ويُكسِيه حسنًا ورونقًا، حتى يكون بعيون العقول مرعيًا، وللأفهام مرضيًا، وبه أستعين على سبيل الرّشاد فيما نَحَوْت، فهو المُعِين بهدايته لتحقيق ما رجَوْت.

ولمّا انتهى بنا جواد قريحتنا إلى غاية البيان عن المُراد، وحازَ قَصْب السّبق في مضمار النُّطق بالسّداد، رأينا صوابًا أن نعقّبه بذكر مقدّمة في حضّ الإنسان على الدّأب في طلب المعالي، ليظفر بالحظّ الأوفر من الشّرف المتعالي تكون أسًا لما قصدنا فيه التحرير، والتّحْبير من الكشف عن ماهيّة الأخلاق وحقيقة معانيها، وكيفية صورها ومبانيها، بقولٍ شافٍ، وتلخيص كافٍ، وهو مما اخترناه من كلام الحكماء الأعلام، أُولي البصائر والأحلام.

قالوا: الخلق عادة للنفس يفعلها الإنسان بلا رويّة، وهي نوعان: جميلٌ محمود، وقبيحٌ مذموم؛ والأخلاق المحمودة وإن كانت في بعض الناس غريزة، فإنّ الباقين يمكن أن يصيروا إليها بالرياضة والألفة، ويرتقوا إليها بالتدرّب والعادة، فإنّهم وإن لم يكونوا على الخير مطبوعين، صاروا به متطبّعين، والفَرْق بين الطبع والتطبّع أنّ الطّبْع جاذبٌ منفعل، والتطبّع مجذوب مفتعل، تتّفق نتائجهما مع التكلّف، ويفترق تأثيرهما مع الاسترسال، وقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادة الحسنة ولا الأخلاق الجميلة، ونفسه مع ذلك تتشوّف إلى المنقبة، وتتأفّف من المَثْلبة، لكن سلطان طبعه يَأْباه عليه، واستعصاؤه مع تكلّف ما نُدِب إليه، يختار العطل منها على التحلّي، ويستبدل الحزن على فواتها بالتسلّي، فلا ينفعه التأنيب، ولا يردعه التأديب، وسبب ذلك على ما قرّره المتكلّمون في الأخلاق، أن طبع المطبوع أملك للنفس التي هي محلّه لاستيطانه إيّاها، وكثرة إعانته لها، والأدب طار على المحلّ غريب فيه؛ قال الشاعر في ذلك[١]: [الوافر]

إذا كان الطّباع طِباعُ سوءٍ   فليس بنافعٍ أدبُ الأديبِ

(١) البيت بلا نسبة في كتاب القوافي لأبي يعلى التنوخي، ص ٩٤. والمحاسن والأضداد للجاحظ، ص ٦٤.

وقال آخر[١]: [الطويل]

ومَنْ يبتدع ما ليس من خيم نفسه   يدعه ويغلبه على النّفس خيمُها

وأمّا الذي يجمع الفضائل والرذائل، فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسّطة الحال بين اللُّؤم والكرم، وقد تُكْتسب الأخلاق من معاشرة الأخلّاء، فإنّ صلاحها من معاشرة الكِرام، وفسادها من مخالطة اللّئام، وربّ طبع كريم أفسدته معاشرة الأشرار، وطبع لئيم أصلحته مصاحبة الأخيار.

وقد ورد عن النبيّ ﷺ أنه قال: «يُحْشَر المَرْء على دين خليله، فلينظر أحدكم مَنْ يُخالِل»[٢]. وقال عليّ رضي الله عنه لولده الحسن: الأخ رقعة في ثوبك، فانظر بِمَ ترقعه. وقال بعض الحكماء في وصية لولده: يا بنيّ احذر مقارنة ذوي الطّباع المرذولة لئلّا يسرق طباعك من طباعهم، وأنت لا تشعر؛ ثم أنشد[٣]: [الرمل]

واصحب الأخيار وارغب فيهم   ربّ مَنْ صاحبته مثل الجربْ

فإذا كان الخليل كريم الأخلاق حسن السيرة، طاهر السّريرة، فَبِه في محاسن الشّيَم يُقْتدى، وبنجم رُشْده في طرق المكارم يُهْتَدى، وإذا كان سيّء الأعمال خبيث الأقوال، كان المغتبط به كذلك؛ ومع ذلك، فواجب على العاقل اللّبيب، والفَطِن الأريب، أن يُجْهِد نفسه حتى يَحُوز الكمال بتهذيب خلائقه، ويكتسي حُلَل الجمال، بدماثة شمائله، وحميد طرائقه، ويكدّ في الهواجر، ويسهر الليالي، إلى أن يرتقي شرفات المجد والمعالي، فقد قيل: من شمّر عن ساق الجدّ، وَجَدَ مفتاح الجدّ. ومِنْ كلام الثعالبي: لا يحصل بَرْد العيش إلّا بحرّ النَّصَب. ولله درّ الوزير أبي القاسم الحسين بن عليّ المغربي، حيث قال[٤]: [مجزوء الوافر]

سأعرض كلّ منزلة   يعرض دونها العَطَبُ

---

(١) البيت لكُثيِّر عَزّة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

عَفَتْ غيقةٌ مِن أهلها فحريمُها   فبرقة حِسْمَى قاعها فصريمُها

والبيت بلا نسبة في لسان العرب (خيم)، وتاج العروس (خيم).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٦، والترمذي في الزهد باب ٤٥، وأحمد في المسند ٢/٣٠٣، ٣٣٤.

(٣) البيت لمسكين الدارمي في ديوانه ص ٢٢، من قصيدة مطلعها:

أنا مسكين لمن يعرفني   لوني السّمرة ألوان العربْ

(٤) الأبيات في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمة الوزير المغربي.

فإن أسلم رجعت وقد ظَفِرت وأنجح الطَّلبُ
وإن أعطب فلا عجب لكلّ مَنِيَّة سَبَبُ

وقال عمرو بن العاص: المَرْء حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت، وإن وضعها اتّضعت. وقال الشاعر(١): [الطويل]

وما الحُرّ إلّا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعلِ

وقال بعض الحكماء: النفس عروف غروف، نفور ألوف، متى ردعتها ارتدعت، ومتى حمّلتها حملت، وإن أهملتها فسدت. وقال الشاعر(٢): [الطويل]

صبرت على اللذّاتِ حتى تولّت وألزمت نفسي هجرها فاستمرّتِ
وجرّعتها المكروه حتى تجرّدت ولو حمّلته جملة لاشمأزّتِ
وما النَّفس إلّا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تاقت وإلا تسلّتِ
وكانت على الآمال نفسي عزيزة فلما رأتْ عزمي على التّرْك ولّتِ

وقال آخر(٣): [الكامل]

والنَّفس راغبةٌ إذا رغَّبْتها وإذا تُرَدّ إلى قليلٍ تقنعُ

وقالوا: الفخر بالنفس والأفعال، لا بالأعمام والأخوال. وقالوا: الشّرف بالهِمَم العالية، لا بالرِّمم البالية. وقال عامر بن الطُّفَيْل(٤): [الطويل]

وإنّي وإن كنت ابن فارس عامر وفي السرّ منها والصّريح المهذَّبِ
فما سوَّدَتْني عامر عن وراثة أبَى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ
ولكنني أحمي حِماها وأتّقِي أذاها وأرمي من رَماها بمقنبِ

(١) البيت للمقنع الكندي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
ولا تجعل الأرض العريض محلُّها عليك سبيلاً وعثة المتنقَّلِ
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيت لأبي ذُؤَيب الهذلي في الدُّرر ٣/١٠٢، وشرح أشعار الهذليّين ١/٧، وشرح اختيارات المفضل ص ١٦٩٣.
(٤) الأبيات لعامر بن الطفيل في الحيوان ٢/٩٥، وخزانة الأدب ٨/٣٤٣، ٣٤٤، والشعر والشعراء ص ٣٤٣.

وقال أبو الطيِّب المتنبي[١]: [الخفيف]

لا بقومي شُرِّفت بل شُرِّفوا بي   وبجَدِّي فخرت لا بجدودي

وقالوا: كُنْ عصاميًا لا عظاميًا، ومعناه لا تفتخر بشرف آبائك، ولكن بما يُؤْثر من أبنائك، وعِصام المشار إليه كان رجلًا سوقة، ثم صار حاجبًا للنُّعمان بن المنذر، فسُئِل عن سبب وصوله إلى هذه المنزلة العالية، والرُّتبة الحالية، فقال[٢]: [الرجز]

نفس عصام سوَّدت عصاما   وعلَّمَتْه الكرَّ والإقداما
وصيَّرَتْه ملكًا هُماما

وقالوا: شرف الأعراق يحتاج إلى شرف الأخلاق، ولا حَمْد لمن شَرُف نسبه وسَخُف أدبه.

يُحكى في هذا أنَّ رجلًا من بني هاشم تخطَّى رِقاب النّاس في مجلس أحمد بن أبي دؤاد، فقال له أحمد: يا بنيّ الأدب ميراث الأشراف، ولستُ أرى عندك مِن سلفك ميراثًا، فاستحسَنَ كلامه مَنْ حضر مجلسه. شاعر[٣]: [الكامل]

وإذا افتخرْتَ بأعظم مقبورة   فالناس بين مُكذِّبٍ ومصدِّقِ
فأقِمْ لنفسك في انتسابك شاهدًا   بحديث مجدٍ للقديم محقّقِ

آخر[٤]: [الوافر]

إذا ما الحيّ عاش بذكر ميِّتٍ   فذاك الميِّت حيٌّ وهو ميّتُ
ومَنْ يَكُ بيته بيتًا رفيعًا   وهدّمه فليس لذاك بيتُ

ابن الرومي[٥]: [الطويل]

وما الحسب الموروث لا دَرَّ دَرّهُ   يفيد الفتى إلا بآخر مكتسبْ

---

(١) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:
كم قتيلٍ كما قُتلتُ شهيدِ   ببياض الطلى وورد الخدودِ
(٢) الرجز لعصام بن شَهبر في تاج العروس (شهبر)، وبلا نسبة في لسان العرب (عصم)، ومقاييس اللغة ٢/ ١٧٥، ٤/ ٣٣٤.
(٣) البيتان لكشاجم في ديوانه، وهما بيتان منفردان (انظر الموسوعة الشعرية).
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٥) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

فلا تتّكل إلّا على ما فَعَلْته ولا تحسبنّ المجد يُورَث بالنّسبْ
وليس يَسد المَرْء إلّا بنفسه وإن عدّ أباءً كرامًا ذوي حَسَبْ
إذا المَرْء لم يُثْمر وإن كان شعبه من المثمرات اعتدّه الناس في الحطبْ

وقال آخر يهجو رجلًا شريفًا(١): [البسيط]

مَنْ كان يعمر ما شادت أوائله فأنت تهدم ما شادوا وما سمكُوا
ما كان في الحقّ أن تأتي فِعالهم وأنت تحوي من المِيراث ما تركُوا

وقال آخر(٢): [الطويل]

يزيّن الفتى أخلاقه ويُشِينه وتُذْكَر أخلاق الفتى وهو لا يدري

وقال أبو تمّام حبيب بن أوْس الطائيّ(٣): [الطويل]

وإني رأيت الوسم في خلق الفتى هو الوَسْم لا ما كان في الشّعر والجلدِ

وقال أبو الطيب مقتفيًا أثره ومصدّقًا فأخبره(٤): [الطويل]

وما الحُسْن في وجه الفتى شرفًا له إذا لم يكن في فعله والخلائقِ

وقال بعض مَنْ له في الحكمة فصل المقال، منبّهًا على ما تُدْرَك به رتبة الكمال، الإنسان التامّ مَنْ نَزَع نفسه عن نفسه، ربقة المساوي والملاوم، وبذّ بمجده المساوي والمقاوم، وهذا الحدّ قلّما ينتهي إليه إنسان، وإذا انتهى الإنسان إلى هذا كان بالملائكة أشبه منه بالناس؛ لأنّ الإنسان مضروب بأنواع الشرّ، مُسْتَوْلٍ عليه وعلى طبعه ضروب النقص والكمال، وإن كان بعيدًا لا يُنال، فإنه ممكن؛ وذلك أنّ الإنسان إذا صَرَف عزيمته وأعطى الاجتهاد حقّه كان ممكنًا، وهو أن يكون راغبًا بجميع مناقبه وخصائصه، متيقّظًا لصرف معايبه ونقائصه، واردة طرائقه شرعة المكارم الصافية، رافلة خلائقه في أبراد المحامد الضافية،

---

(١) البيتان لسهل بن هارون في الحماسة المغربية، للجراوي ص ٧٧٠.
(٢) البيت لأبي الغول الطهوي في التذكرة السعدية، ص ٢٢١.
(٣) البيت في ديوان أبي تمّام، مِنْ قصيدة مطلعها:
شهدتُ لقد أقوت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وشائعُ من بردِ
(٤) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:
تذكّرت ما بين العذيب وبارقٍ مجرّ عوالينا ومجرى السوابقِ

مستعملًا كل فضيلة، متجنباً كل رذيلة، مجتهدًا في بلوغ القصوى، وقَمْع النفوس عمّا تُحبّ وتَهوى، عاشقًا لصورة الجمال، مستلذًا بمحاسن الخِلال، يرى الكمال دون محلّه، والتَّمام أقلّ أوصافه ونبله، فقد قيل: قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة، وقد أمكنه أن يكون إنسانًا أو إنسانًا، وقد أمكنه أن يكون ملكًا. قال المتنبّي(١): [الوافر]

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا ... كنَقْص القادرين على التَّمامِ

وقال عليّ بن مقلة(٢): [الكامل]

وإذا رأيت فتًى بأعلى قِمَّةٍ ... في شامخ من عزّة المترفّعِ
قالت لي النفس العروف بفضلها ... ما كان أولاني بهذ الموضعِ

والمنهج القويم المُوصِل إلى الثّناء الجميل أن يستعمل الإنسان فكره وتمييزه فيما ينتج عن الأخلاق المحمودة والمذمومة منه ومن غيره، ومن أخذ نفسه بما استحسن منها واستملح، وصَرَفها عمّا استهجن منها واستقبح، فقد قيل له: كفاك تهذيبًا وتأديبًا لنفسك، ترك ما كرهه الناس من غيرك. وقيل لعيسى عليه السلام: من أدّبك؟ قال: ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل فتجنّبته(٣): [المتقارب]

إذا أعجبتك خِلال امرىء ... فكُنْه تكن مثل مَنْ يُعْجِبكْ
وليس على المَجْد والمَكْرمات ... إذا جئتها حاجبٌ يحجبكْ

وقالوا: مَنْ نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رَضِيَها لنفسه، فذلك هو الأحمق بعينه(٤): [السريع]

لا تَلُمِ المرء على فعله ... فأنت منسوبٌ إلى مثلِهْ
من ذمَّ شيئاً وأتى مثله ... فإنما دلّ على جهلِهْ

---

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
ملوكما يجلّ عن الملامِ ... ووقعُ فعاله فوق الكلامِ
(٢) البيتان في مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لليافعي ص ١٥٧٣ (الموسوعة الشعرية).
(٣) البيتان لأحمد بن أبي طاهر في المنتحل للثعالبي، ص ١٩٦.
(٤) البيتان بلا نسبة في جمهرة الأمثال للعسكري ص ٤٤٩، في المثل: «تنهانا أُمّنا عن الغيّ وتغدو مثله».

ويقال: الإنسان يضارع الملك بقوّة الفكر والتمييز، ويضارع البهيمة بقوّة الشهوة والغذاء، فمن صَرَف هِمَّته إلى رتبة الفكر والتمييز حتى يرى بهما عاقبة فعله، فحقيق أن يلحق بالملائكة فيسمّى ملكًا لطهارة أخلاقه، ومن صَرَف هِمَّته إلى رتبة القوّة الشهوانيّة بإيثار اللذّة البدنية يأكل كما تأكل الأنعام، فحقيق أن يلحق بالبهائم، فيصير إمّا غمرًا كثَوْر، أو شرهًا كخنزير، أو ضريًا ككلب، أو حقودًا كجمل، أو متكبّرًا كنمر، أو روّاغًا كثعلب، أو جامعًا لذلك كشيطان؛ ولقد صدق من قال(١): [الكامل]

وإذا الفتى ساس الأمور بعِلْمه وأُعِين بالتأديب والتَّهذيبِ
سَمَتْ الأُمور به فيبرز سابقًا في كل حالٍ مشهد ومغيبِ

اللّهمّ كما خلقت الإنسان بقدرتك في أحسن تقويم، وأعلَيْته باختصاصك له ذروة التكريم، وهدَيْته بإرادتك نجدَيْ الخير والشرّ، وصرّفته بقضائك في عنانَيْ النَّفْع والضرّ، روّض اللّهمّ جوامح نفوسنا إلى اقتفاء أثر الأكارم، واقتناء ما يبعث على حمدها من صُنُوف المكارم، وذُدْ اللّهمّ سوائم طباعنا عن مراتع الملاوم، ومرابع ما يتوجّه به علينا لوم اللّوائم، فإليك الخذلان والعَوْن، وبِيَدك أزِمّة المكان والكون، وهذا أوان انشقاق كمائم هذا الكتاب، عمّا أكنّته من زهرات الآداب، واهتصار أفنان فنونه الدانية القِطاف، المتّسقة بأنواع التّحف والألطاف.

الباب الأول: في الكرم، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في وصف الأخلاق الحِسان، المتخلّقة بها نفوس الأعيان.

الفصل الثاني: في ذكر الصنائع والمآثر، المُفْصِحة عن أحساب الأكابر.

الفصل الثالث: في ذمّ التخلّق بالإحسان، إذا لم يُوافق القلب اللّسان.

الباب الثاني: في اللُّؤم، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في ذمّ مَنْ ليس له خلاق، وما اتّصف به من قبيح الأخلاق.

الفصل الثاني: في ذكر الفعل والصَّنيع، الدالَّيْن على لُؤم الوَضِيع.

الفصل الثالث: في أنّ مَنْ تخلّق باللُّؤم انتفع، وعلا على الكِرام وارتفع.

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

الباب الثالث: في العقل، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في مدح العقل وفَضْله، وشرف مكتسبه ونُبْله.

الفصل الثاني: في ذِكْر أنواع الفعل الرّشيد، الدالّ على العقل المشيد.

الفصل الثالث: في أنّ هفوات العقال، لا يُغْضى عنها ولا تُقال.

الباب الرابع: في الحمق، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في ذمّ الجهالة والجنون، وما اشتملا عليه من الفنون.

الفصل الثاني: في ذكر النوادر الصادرة، عن مجانين البادية والحاضرة.

الفصل الثالث: في احتجاج الأريب المتحامق، على أنّ الحمق أزكى الخلائق.

الباب الخامس: في الفصاحة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في أن الفصاحة والبيان، أزْيَن ما تحلّت به الأعيان.

الفصل الثاني: فيما يتحلّى به ألباب الأُدباء، من بلاغات الكُتّاب والخُطباء.

الفصل الثالث: في أنّ معرفة حِرْفة الأدب، مانعة من ترقّي أعالي الرُّتب.

الباب السادس: في العيّ، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: فيما ورد عن ذوي النّباهة، في ذمّ العيّ والفهاهة.

الفصل الثاني: فيمن قصر باع لسانه، عن ترجمة ما في جنانه.

الفصل الثالث: في أنّ اللّسِن المكثار، لا يأمن من آفة الزّلل والعثار.

الباب السابع: في الذكاء، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في مدح الفِطَن والأذهان، المُعظّمة من قدر المُهان.

الفصل الثاني: في ذِكْر البداهة البديعة، والأجوبة المفحمة السّريعة.

الفصل الثالث: فيمن سبق بذكائه وفِطْنته، إلى ورود حِياض مَنِيّته.

الباب الثامن: في التغفّل، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في ذمّ البلادة والتغفّل، من ذوي التعالي والتنزّل.

الفصل الثاني: فيمن تأخّرت منه المعرفة، ونوادر أخبارهم المستظرفة.

الفصل الثالث: في أن أنواع التغفّل والبَله، ستورٌ على الأوْلياء مسبله.

الباب الخامس عشر: في الأُخوّة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في مدح اتّخاذ الإخوان، فإنهم العدد والأعوان.

الفصل الثاني: فيما يدين به أهل المحبّة، مِنْ شرائع العوائد المستحبَّة.

الفصل الثالث: في ذمّ الثقيل والبغيض، بما استحسن من النَّثر والقريض.

الباب السادس عشر: في العُزْلة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ذمّ الاستئناس بالناس، لتلوّن الطِّباع وتنافي الأجناس.

الفصل الثاني: فيما يحضّ على الوحدة والاعتزال، من ذَمِيم الخلائق والخِلال.

الفصل الثالث: فيما يُختم به هذا الكتاب، من دعاء نرجو أن يُسْمع ويُجاب.

الباب الأوّل

في الكرم

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من الباب الأوّل

في وصف الأخلاق الحِسان المتخلّقة بها نفوس الأعيان

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: الآية ٣٤]، وقال رسول الله ﷺ: «ليس في الميزان أثقل عند الله من الخُلُق الحسن، وما حسَّن الله خلق رجل وخلقه فأدخله النار»[(١)]. وقال عليّ كرّم الله وجهه: نِعْم الحَسَب الخلق الحسن. وقال الحسن البصري: سِعَة الأخلاق مِنْحةٌ من الله، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا مَنَحه خُلُقاً حسنًا. وقال عليه الصّلاة والسلام: «مَنْ لانَتْ كلمته، وجبت محبَّته، وحَسُنت أحدوثته، وظمئت القلوب إلى لقائه، وتنافست في مودَّته»[(٢)]. وقالوا: أحسن الشّيَم، ما تُشام منه بارقة الكرم. وأوصى حكيم ولده، فقال: يا بنيّ إنَّ مكارم أخلاقك، تدلّ على شرفك وطِيب أعراقك. سُمِع بعض الأعراب يقول لولده[(٣)]: [الرجز]

بـنـي إنّ الـبـرّ شـيء هـيّـنُ وجـهٌ طـلـيـقٌ وكـلامٌ لـيّـنُ

وفي بعض الكتب القديمة: الأخلاق الصالحة ثمرات العقول الراجحة. وقالوا: مَنْ حَسُنَت أخلاقه، دُرَّت أرزاقه. وقيل لبعض الأُدباء: متى يبلغ الرجل

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في البرّ باب ٦٢، وأحمد في المسند ٦/٤٤٢، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٢.
(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ٢/٣٩٤، وعلي القاريّ في الأسرار المرفوعة ٣٥٩
(٣) الرجز لابن عمر في عيون الأخبار لابن قتيبة ص ١٧١٦، ولسفيان بن عيينة في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ص ٨٨٧.

ذروة الكمال؟ قال: إذا اتّقى مَنْ خلقه، وجادَ بما رزقه، واختار مِنَ القول أصدقه، وحَسُنَ في كلِّ الأحوال خَلْقه، فذاك الذي أنهج إلى الكمال طُرُقَه. ويقال: إنّ في التوراة يقول الله تعالى: يا موسى ليكن وجهك بسّامًا وكلامك ليّنًا تكن أحبّ إلى الناس وإليّ ممن يعطيهم الذهب والفضّة. وقال ابن الرومي[١]: [البسيط]

لـه مـحـيّـا جـمـيـل يـسـتـدلّ بـه ... عـلى جمـيـل ولـلـبـطـنـان ظـهـرانُ
وقـلّ مَـنْ أضـمـرت خـيـرًا طـويّـتـه ... إلّا وفـي وجـهـه لـلـخـيـر عـنـوانُ

وما أصدق قول القائل[٢]: [الوافر]

ومـا اكـتـسـب الـمـحـامـد طـالـبـوهـا ... بـمـثـل الـبِـشْـر والـوجـه الـطَّـلِـيـقِ

وفي بعض الآثار المرويّة عن ابن عباس: أنَّ موسى عليه السلام قال: يا ربّ أمْهَلت فرعون أربعمائة سنة يكذّب رسلك، ويجحد آياتك؛ فأوحى الله إليه: إنّه كان حَسَن الخلق، سهل الحجاب، فأحببت أن أكافِئه.

وعلى ذكر الحجاب وإن لم يكن من الباب

كانت العرب تقول: ما شيء أضيَع للملكة وأهلك للرّعيّة من شدّة الحجاب للولي، ولا أهْيَب للرعيّة والعُمّال من سهولة الحجاب؛ لأنّ الرعية إذا وثقت من الوُلاة بسهولة الحجاب أحْجَمت عن الظُّلم، وإذا وثقت بشدّة الحجاب تهجَّمَتْ على الظُّلم، وركب القويّ الضعيف، فخير خِلال الوُلاة سهولة الحجاب.

وصف أخلاق أهل الوفاق

فلان خُلْقه كنسيم الأسحار، على صفحات الأنوار. أخلاقٌ قد جمعت الحرية أطرافها، وفرشت المروءة أكنافها. أخلاقٌ تجمع الأهواء المتفرّقة على محبّته، وتؤلّف الآراء المشتّتة في مودّته. أخلاقٌ هي المِسْك لولا فأرته[٣]، والورد

---

(١) البيتان في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:
أجـنـت لـك الـوجدَ أغصانٌ وكثبانُ ... فـيـهـنّ نـوعـان تـفّـاحٌ ورمّـانُ
(٢) البيت لمحمّد بن حازم الباهلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
وغـرْزة مـرّةٍ مـن فـعـل غـرٍّ ... وغـرْزةُ مـرّتـيـن مـن فـعـل مـوقِ
(٣) فأرة المسك: وعاؤه.

لولا مرارته، والماء لولا إسراعه إلى الكَدَر، والرَّوْض لولا حاجته إلى المطر قد جمع شرف الأخلاق، إلى طِيب الأعراق[١]: [الوافر]

لـه خـلـقٌ عـلـى الأيـام يـصـفـو   كـمـا رَقَّـتْ عـلـى الـزَّمـنِ الـعـقـارُ

آخر[٢]: [الكامل]

خلق سهول المكرمات سهوله   وتَـوعُّـر الأيـام مـن أوعـارِه
إنْ لاح فـهـو الـصُّـبـح فـي أنـوارِه   أو فـاح فـهـو الـرَّوْض فـي نـوّاره

المتنبّي[٣]: [الطويل]

صَفَتْ مثل ما تصفو المُدام خلاله   ورَقَّتْ كما رقَّ النسيم شمائلُهْ

آخر[٤]: [البسيط]

مـوفَّـق لـسـبـيـل الـرُّشـد مـتَّـبـع   يـزيـنـه كـل مـا يـأتـي ويـجـتـنـبُ
تَسْمُو إليه عيون كلّما انفرجت   للناس وجهة الأبواب والحُجُبُ
لـه خـلائـقٌ بِـيـضٌ لا يـغـيّـرهـا   صَرْف الزّمان كما لا يصدأُ الذّهبُ

عيون من مكارم الأخلاق الدالَّة على طِيب الأعراق

قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ لأُتَمِّم مكارم الأخلاق»[٥]، وهو ما أوصاه به ربّه عزّ وجلّ في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩]، فلمّا امتثل أمر ربّه، وناطقه بشِغاف قلبه، أثنى على فِعْله بقوله تنويهًا بفضله الجسيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: الآية ٤]، ولهذا قال عليه الصّلاة والسّلام: «ألا أدلّكم على خير أخلاق أهل الدنيا: مَنْ وصل مَنْ قطع، وعفا عمّن

(١) البيت بلا نسبة في المحبّ والمحبوب للسري الرفّاء ص ٨٤٤، ورواية عجز البيت فيه:
كـمـا تـصـفـو عـلـى الـزمـن الـعـقـارُ
(٢) البيتان للسريّ الرفّاء في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
مـا سـرّه أنْ ذاع بـين أسـراره   مـا غـيـب الـكـتـمـان فـي إضـمـارِه
(٣) البيت ليس في ديوان المتنبّي، وهو للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
هَبِ الدار ردّت رجع ما أنت قائلُهْ   وأبْدَى الجواب الربع عمّا تسائِلُهْ
(٤) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٩٤.
(٥) أخرجه بنحوه مالك في حسن الخلق حديث ٨، وأحمد في المسند ٢/ ٣٨١.

ظلمه، وأعطى مَنْ حرمه»[١]. وقال الحسين بن مطير يفتخر[٢]: [الوافر]

أحبّ مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفح عن سِباب الناس حلمًا وشرّ الناس مَنْ يهوى السِّبابا
ومَنْ هاب الرِّجال تهيَّبوه ومَنْ حقَّر الرجال فلن يُهابا

وقال الأحنف بن قيس ـ واسمه الضحاك، وقيل صخر لبنيه ـ: ألا أدلّكم على المَحْمدة: الخُلُق السحيح[٣]، والكفّ عن القبيح. وقال أكثم بن صيفيّ لولده: يا بنيّ ذلّلوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها على المحامد، وعلّموها المكارم، ولا تُقِيموا على خلقٍ تذمّونه من غيركم، وصِلُوا من رغب إليكم، وتخلّقوا بالجُود يلبسكم المحبّة، ولا تعتقدوا البخل، فتتعجّلوا الفقر. وقيل لحممة بن رافع الدَّوْسيّ: مَنْ أكرم الناس؟ قال: مَنْ إذا قَرُب مَنَح، وإذا بَعُد مَدَح، وإذا ظُلم صَفَح، وإذا ضُويق سَمح. وقالوا: مِنَ الأخلاق التي تُزيِّن ولا تُشِين، وتحضّ على المكرمات، وتُعين نشر البِشْر وتَرْك الكبر، ونصر الحرّ، وسلامة الصَّدر. وقال جعفر بن محمد الصادق: خير السادة أرْحَبهم ذراعًا عند الضِّيق، وأعْدَلهم حلمًا عند الغضب، وأبسطهم وجهًا عند المسألة، وأرحمهم قلبًا إذا سلط، وأكثرهم صفحًا إذا قدر. وقال عامر العدواني: يا معشر عدوان، الخير ألوف عروف، وإنه لن يُفارق صاحبه حتى يُفارقه، وإني لم أكن سيّدكم حتى تعبّدت لكم. وقال يزيد بن المهلّب: استكثروا من الحمد، فإن الذمّ قلّما ينجو منه أحد، ومَنْ رغب في المكارم صبر على المكاره، واجْتَنب المحارم. ويقال: المكارم موصولة بالمكاره، فمن أراد مكرمة احتمل مكروهًا. وقال أبو الشِّيص[٤]: [الكامل]

عِشْق المكارم فهو معتمدٌ لها والمكرُمات قليلةُ العُشَّاقِ

---

(١) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ٣/ ١٥٤، وعبد الرزّاق في المصنف ٢٠٢٣٧، والمتقي الهندي في كنز العمّال ٤٣٣٢١، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ١٥٥.

(٢) الأبيات بلا نسبة في زهر الأكَمْ لليوسي، ص ٧٤٠.

(٣) سحّ الإنسان يسحّ سحًا: سمن غاية السّمن، وسحّ الماءُ ونحوه: سال من أعلى إلى أسفل، والسحّاء: الدائمة الصبّ.

(٤) الأبيات في ديوان أبي الشّيص الخزاعي، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

وأقام سوقًا للثناء ولم يَكُنْ سوق الثناء يُعَدّ في الأسواقِ
بثَّ الصنائع في البلاد فأصبحت يجبى إليه مكارم الأخلاقِ

وقال أبو الطيّب المتنبّي(١): [الوافر]

تلذّ له المروءة وهي تؤذي ومَنْ يعشق يلذّ له الغرامُ

ولله درّ القائل(٢): [الكامل]

الحمدُ شهدٌ لا يُرى مشتاره يَجْنيه إلّا من نقيع الحنظلِ
غلّ لحامله ويحسبه امرؤ لم يُوهِ عاتقه خفيف المحملِ

وقال عليّ بن الفضل(٣): [الرجز]

لو قَرُب الدُرّ على جلّابه ما نجح الغائص في طلّابِه
ولو أقام لازمًا أصدافه لم تكن التّيجان في حِسابِه
ما لؤلؤ البحر ولا مرجانه إلّا وراء الهَوْل مِنْ عبابِه
من يعشق العَلياء يلقى عندها ما لَقِيَ المُحبُّ مِنْ أحبابِه

وقال الشاعر(٤): [الطويل]

دعيني أنَلْ ما لا يُنال مِنَ العُلا
فصعب العُلا في الصَّعب والصعب في السَّهلِ
تريدين إدراك المعالي رخيصةً
ولا بدّ دون الشُّهد من إبر النَّحلِ

---

(١) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:
فؤاد ما تسلّيه المدامُ وعمرٌ مثل ما تهبُ اللئامُ

(٢) البيتان لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
ليس الوقوف بكُفءِ شوقك فانزلِ تبلُل غليلاً بالدموع فتبلُلِ

(٣) الرجز لصردر بن صربعر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
قد رجع الحقّ إلى نصابِهِ وأنت من كلّ الورَى أوْلَى بهِ

(٤) البيتان للمتنبّي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
كدعواك كلٌّ يدّعي صحّة العقلِ ومن ذا الذي يدري بما فيه من جَهْلِ

وقال الأشعث بن قيس، واسمه معديكرب لقومه: إنما أنا رجلٌ منكم ليس لي فضلٌ عليكم، ولكني أبسط لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأحفظ حريمكم، وأقضي حقوقكم، وأعُود مريضكم، وأُشيّع جنائزكم، فمن فعل مثل هذا فهو مثلي، ومن زاد عليه فهو خيرٌ منّي، ومن قَصُر عنه فأنا خيرٌ منه. قيل له: وما هذا؟ قال: أحضّكم على مكارم الأخلاق.

ومن روائع عادات السادات ووشائع سادات العادات

السّخاء والنجدة والمروءة، فالسخاء التبرّع بالنائل، قبل إلحاف السّائل؛ والنجدة الذبّ عن الجار، والإقدام عند الكريهة؛ والمروءة حفظ الرجل دينه وإحراز نفسه عن الدَّنَس، إلى غير ذلك من الأخلاق الجميلة التي هي بالمدح كفيلة، وسنذكر جملة منها فيما سيأتي.

وقيل: أسباب السؤدد سبعة: العقل، والحلم، والصيانة، والصّدق، والعلم، والسّخاء، وأداء الأمانة؛ وأضيف إلى ذلك: الصبر، والتواضع، والعفاف، تلك عشرة كاملة، هي لمحاسن الشِّيَم شاملة. وقال ابن عمر: ما رأيت بعد رسول الله ﷺ في الصحابة أسؤد من معاوية، فقيل له: أهو خيرٌ من أبي بكر وعمر؟ قال: هما خيرٌ منه وهو أسؤد منهما لحِلْمه وجُوده؛ فإنّا معشر قريش نعدّ الحلم والجود السؤدد. ويُحْكى أن رجلًا رأى معاوية وهو صغير يلعب مع الصّبيان، فقال: إني أظنّ هذا الغلام سيسؤد قومه، قالت أمّه هند: ثَكِلْته إن كان لا يسؤد إلّا قومه. وقيل: السيّد من أوْرى ناره، وحمى معاره، ومَنَع جاره، وأدرك ثأره. وقال النبيّ ﷺ: «اضمنوا لي ستًّا أضمن لكم الجنّة: اصدقوا إذا حدّثتم، وغضّوا أبصاركم، وأوْفوا إذا وعدتم، وأدّوا الأمانة إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم»[1].

وذُكِر أنّ عبد الملك بن مروان دخل على معاوية وعنده عمرو بن العاص، فسلّم ثم جلس، فلم يلبث أنْ قام، قال معاوية: ما أكمل مروءة هذا الفتى، قال عمرو: إنه أخذ بأخلاقٍ أربعة وترك أخلاقًا أربعة، أخذ بأحسن البِشر إذا لقي،

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٣٣، ٣٢٣، والحاكم في المستدرك ٤/٢٥٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٤٨٧٠، والمتقي الهندي في كنز العمّال ٤٣٥٣١، ٤٣٥٣٣.

وبأحسن الحديث إذا حدّث، وبأحسن الاستماع إذا حدّث، وبأيْسَر المؤنة إذا حُولف، وترك مزاح مَنْ لا يثق بعقله، وترك مجالسة مَنْ لا يرجع إلى دينه، وترك مخالطة لِئام الناس، وترك مِنَ الكلام كلّ ما يُعْتذر منه. وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: بِمَ بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ قال: إن شئت أخبرتك بخلّةٍ واحدة، وإن شئت بخِلّتين، وإن شئت بثلاث؛ قال: فما الخِلّة؟ قال: كان أقوى الناس على نفسه، قال: وما الخِلّتان؟ قال: كان موقي الشرّ ملقي الخير، قيل: فما الثلاث؟ قال: كان لا يحسد ولا يبخل ولا يبغي. وقال رجل للأحنف: بِمَ سوّدك قومك، وما أنت بأشرفهم بيتًا، ولا بأصبحهم وجهًا، ولا بأحسنهم خلقًا؟ قال: بخلاف ما فيك يا ابن أخي، قال: وما ذاك؟ قال: بتركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يَعْنيك.

وقال عبد الملك لبنيه: كلّكم يترشح لهذا الأمر، ولن يصلح له إلّا مَنْ كان له سيف مسلول، ومالٌ مبذول، ولسانٌ معسول، وعدلٌ تطمئنّ إليه القلوب، وأمنٌ تستقرّ به في مضاجعها الجنوب. وقيل لقيس بن عاصم المنقريّ: بِمَ سُدْت قومك؟ قال: ببذل القِرى، وترك المِرا، ونصرة المولى. وروى عليّ رضي الله عنه قال: لمّا أتينا بسبايا طيىء كانت في النساء جارية هيفاء، سمراء كحلاء لمياء، خميصة الخصر، هضيمة الكشح، مصقولة المتن، فلمّا رأيتها أُعْجبت بها، فلمّا تكلّمت أنْسَتْني بمقالها ما رأيته من جمالها، فكان من كلامها أنْ قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإنْ رأيت أن تمنّ عليّ وتخلي عني ولا تشمّت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيّد قومها، إنّ أبي كان يحمي الذمار، ويفكّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويفشي السلام، ولا يرد طالب حاجة أبدًا، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «مَنْ أبوها»؟ قالوا: حاتم طيء، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «لو كان أبوها مسلمًا لترحّمنا عليه، خلّوا عنها، فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق»، ثم قال للمسلمين: «ما حازت أسنّتها، وحَوْته أعِنّتها غير التهيئة والإبضاع، فلو فعلوا لفعلت»، فقالوا: يا رسول الله أمرنا لأمرك تَبَع، فاصنع ما بدا لك، فقال: «أُعلي أصحابي، وأهلك أعدائي، وأبدل الأنصار بالمضاضة غضاضة»[١]، وأطلقها رسول الله ﷺ فخرجت إلى أخيها عدي، وكان بدَوْمة الجندل، فقالت: ائت هذا

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتين ٧/ ٩٤.

الرجل قبل أن تعلّقك حبائله، فإني رأيت هديًا ورأيًا ستغلب به أهل الغلب، رأيت خصالًا أعجبتني، رأيته يحبّ الفقير، ويفكّ الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف حقّ الكبير، وما رأيت أحدًا أجْود منه ولا أكرم ﷺ.

وقال معاوية: لا ينبغي للمَلِك أن يكون كذّابًا ولا حديدًا ولا بخيلًا ولا جبانًا ولا حسودًا، فإنه إن كان كذابًا ووعد بخير لم يُرْجَ، أو أوعد بشرّ لم يُخَف، وإن كان حديدًا مع القدرة هلكت الرعيّة، وإن كان بخيلًا لم يناصحه أحد، ولا تصلح الولاية إلّا بالمناصحة، وإن كان جبانًا اجْتَرأ عليه عدوّه وضاعت ثغوره فذلّ، وإن كان حسودًا لم يشرّف أحدًا، ولا يصلح الناس إلّا بأشرافهم. ويقال: ليس للملك أن يغضب؛ لأنّ القدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب؛ لأنّ أحدًا يستردّه حديثًا ولا أحد يُكْرِهه على ما يريد، وليس له أن يكون حقودًا؛ لأنّ خطره عظيم عن المجازاة. وقال عبد الله بن طاهر: لا ينبغي للملك أن يَظْلم وبه يُسْتَدفع الظُّلم، ولا أن يعجل ومنه تُلْتمس الأناة، ولا أن يبخل ومنه يتوقّع الجُود. وقالوا: ينبغي للملك أن يكون سخيًا لا يبلغ التبذير، وحافظًا لا يبلغ البُخْل، وشجاعًا لا يبلغ التهوّر، ومحترسًا لا يبلغ الجُبن، وقائلًا لا يبلغ الهذر، وصموتًا لا يبلغ العيّ، وحليمًا لا يبلغ العجز. وقال أسماء ابن خارجة: لا أُشاتم أحدًا ولا أردّ سائلًا، فإنما هو كريم أسدّ خلّته، أو لئيم أستر عرضي منه.

وروى البيهقي في كتابه شعب الإيمان بإسناده عن عائشة رضي الله عنها، أنّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل، ولا تكون في ابنه، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيّده، يقسمها الله لمن شاء من عباده: صِدْق الحديث، وصدق البأس، وأن لا يُشْبع وجاره وصاحبه جائعان، وإعطاء السائل، والمواساة بالنّائل، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصِلة الرّحم، والتذمّم للجار، وقَرْي الضيف، ورأسهنّ الحياء»[(١)]. ومن أخلاقهم: صَوْن الوجه بقناع الحياء، وعقل اللّسان عن اللّجاج والمِراء. الحياء دليل الدّين الصحيح، وشاهد الفضل الصّريح، وسِمَة الصلاح الشامل، وعنوان الفلاح الكامل، مَنْ كان فيه نظم قلائد المحامد ونسّق وجمع من خِلال الكمال ما افترق.

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٥١٢٩.

قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء خُلُقًا، وخُلُق هذا الدِّين الحياء»[١]، وقال رسول الله ﷺ: «الحياء مِنَ الإيمان، والإيمان في الجنّة»[٢]، وقال: «الحياء لا يأتي إلّا بخير»[٣]، وقال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ الله حقّ الحياء»، قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مَنْ حفظ الرأس وما وَعَى، والبطن وما حوى، وذكر الموت والبلا، وترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخرة على الأُولى؛ فمن فعل ذلك فقد اسْتَحْيا مِنَ الله حقّ الحياء»[٤]. فالحياء اسمٌ جامع يدخل فيه الحياء من الله تعالى؛ لأنّ ذمّه فوق كل ذمّ، ومدحه فوق كل مدح. وقال يزيد بن عليّ: إنّي لأستحي من الله تعالى أن أُفضي إليه بشيءٍ أخفيه من غيره. والحياء مِنَ الناس يكون بكفّ الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح. ويُرْوَى عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مِنْ تقوى الله اتّقاء الناس»[٥]. وقيل: هو أن يستحيي منهم في سرّه كما يستحْيِي منهم في جَهْره. وقيل: مِنَ المروءة أن لا تعمل شيئًا في السرّ يُسْتحيا منه في العلانية. وكان يقال: أحْيوا الحياء بمجالسة مَنْ يُسْتحيا منه. وقال النبيّ ﷺ لأُبيّ: «عليك بالحياء والأنفة، فإنك إن اسْتَحْيَيْت مِنَ الغضاضة اجتنبت الخساسة»[٦]. وأمّا استحياء الرجل من نفسه، فهو أن لا يأتي في الخلاء إلّا ما يأتي في الملا. وكان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خُدْرِها[٧]، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه. وكان عثمان بن عفان قد خُصّ من الحياء بأجلّ السهام، ومُنِح منه بأوفر الأقسام، وشهد له رسول الله ﷺ بأنه تستحي منه الملائكة الكِرام. قال الإمام مالك رضي الله عنه: إنه أوّل من ضرب الأبنية في السفر. وقالوا: مَنْ لا يَسْتحيي من نفسه، فجديرٌ أن لا يستحيي من غيره. وقالوا في حدّه: الحياء التوقّي من فِعْل المساوىء خوف الذمّ. ويقال: الحياء خوف المُستحيي من تقصير يقع به مِنْ غير

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/٣٨٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٧٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٥٩، والترمذي حديث ٢٠٠٩، ٢٦١٥، وابن ماجه حديث ٤١٨٤، وأحمد في المسند ٢/٩، ٥٠١.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٦٠، وأحمد في المسند ٤/٤٢٧.

(٤) أخرجه الترمذي حديث ٢٤٥٨، وأحمد في المسند ١/٣٨٧، والحاكم في المستدرك ٤/٣٢٣، والطبراني في المعجم الكبير ٣/٢٤٦.

(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يديّ.

(٦) الحديث لم أجده.

(٧) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٢، ٧٧، والمناقب باب ٢٣، ومسلم في الفضائل حديث ٦٧، وابن ماجه في الزهد باب ١٧، وأحمد في المسند ٣/٧١، ٧٩، ٨٨، ٩١، ٩٢.

مَنْ هو أفضل منه. وقال عمرو بن بحر الجاحظ: الحياء لباسٌ سابغ، وحجابٌ واق، وسَتْر مِنَ العيب، وأخو العفان، وحليف الدّين، ورقيب مِنَ العصمة، وعين كالئة تذود عن الفحشاء، وتَنْهى عن ارتكاب الأرجاس، وسببٌ إلى كلّ جميل. وقالوا: من عفَّت أطرافه حَسُنَت أوصافه. ويقال: لا تَرْضَ قول امرىء حتى ترضى فِعْله، ولا ترض فعله حتى ترضى عقله، ولا ترض عقله حتى ترضى حياءه، فإنَّ ابن آدم مجبولٌ على أشياء مِنْ كرم ولُؤْم، فإذا قوي الحياء قَوِي الكرم، وإذا ضَعُف الحياء قَوِي اللُّؤم. وقال بشّار بن بُرْد[١]: [الوافر]

وأعرض عن مطاعم قد أراها ... فأتركها وفي بطني انْطِواءُ
فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياءُ

وقال بعض الأعفّاء[٢]: [الوافر]

ورُبّ قبيحة ما حالَ بيني ... وبين ركوبها إلّا الحياءُ
فكان هو الدَّواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياءُ فلا دواءُ

وقالوا: لا يزال الوجه كريمًا ما دام حياؤه، ولم يَرْق باللّجاج ماؤه. وقالوا: حياة الوجه بحيائه، كما أنَّ حياة الغرس بمائه. وقال ابن المعتزّ في كتاب الأدب: مَنْ كساه الأدب ثوبه، سَتَرَ عن الناس عيبه. وقالوا: فلان يتحدّر من أسارير وجهه ماء الحياة، وينير لألاء غرّته حنادس الظلماء. وقال الفرزدق في عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم[٣]: [البسيط]

يُغْضي حياء ويغضى من مهابته ... فلا يكلّم إلا حين يبتسم

ليلى الأخيليّة في توبة الحميري[٤]: [الكامل]

ومخرّق عنه القميص تخاله ... وَسْط البُيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللّثام رأيته ... تحت اللّواء على الخميس زعيما

---

(١) البيتان في ديوان بشار بن بُرْد، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لعليّ بن الجهم في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا رزق الفتى وجهًا وقاحًا ... تقلّب في الأمور كما يشاءُ

(٣) البيت في ديوان الفرزدق ٢/ ١٧٩، من قصيدة مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ

(٤) البيتان في ديوان ليلى الأخيلية ص ١١٠، من قصيدة مطلعها:

لما تخايلت الحمول حَسِبْتها ... دومًا بأيلة ناعمًا مكموما

ولابن المعتز(١): [الكامل]

ويظلّ صباغ الحياء بخدّه تعبًا يصفر تارة ويورّدُ

وقال آخر(٢): [الطويل]

كريمٌ وغضّ الطرف بعض صفاته ويدنو وأطراف الرّماح دَوَانِ

جوامع مدائح الأخلاق والشِّيَم المتحلّية بها ذوو الأصالة والكرم

مدح أعرابيّ رجلًا، فقال: كان والله تعب في المكارم غير ضالٌ في طرقها، ولا متشاغلٌ بغيرها عنها. وقال آخر: فلان لو وجد الكرم في يد غيره لعلم أنه ضالّة له. ومدح أعرابيّ رجلًا، فقال: كان والله صحيح النَّسَب، مُحْكم الأدب، من أيّ أقطاره أتيته انثنى إليك بكرم فعال، وحُسْن مقال. وذكر أعرابيّ رجلًا، فقال: كأنّ الألسن والقلوب ريضت له فلا تنعقد إلّا على ودّه، ولا تنطق إلّا بثنائه وحَمْده. وقالوا: فلان من شجر يختلف ثمره، ومِنْ ماءٍ لا يأتلف كدَره. وسأل يحيىٰ بن خالد رجلًا عن أبيه الفضل، فقال: تركته وماء الحياء يتحدّر من أسارير وجهه، وسيول الجُود سائلة من فروج أنامله، ولآلىء العلم منتثرة من مسارب منطقه.

نظم هذه الكلمات إبراهيم بن هلال الصابي في أبيات يمدح بها الوزير المهلّبي(٣): [البسيط]

له يدٌ برعت جودًا بنائلها ومنطقٌ درّه في الطّرس منتشرُ

فحاتم كامن في بطن راحته وفي أناملها سحبان مستترُ

وقال زرعة بن سنان مادحًا(٤): [الطويل]

مآثره غرّ وأيامه زهر وطلعته بدرٌ وراحته بحرُ

(١) البيت في ديوان ابن المعتزّ، من قصيدة مطلعها:

يا من يجود بموعد من حظّه ويصدّ حين أقول أين الموعدُ

(٢) البيت لأبي الشّيص الخزاعي في ديوانه، وهو مطلع القصيدة، وللراعي النميري في ديوانه، وهو أيضًا أوّل بيت من بيتين، والبيت الثاني:

وكالسيف إن لاينه لاين متنه وحدّاه إنْ خاشنته خشنانِ

(٣) البيتان للصابىء في المنتحل للثعالبي، ص ٩.

(٤) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وهذا غاية في التقسيم. وقال ديك الجنّ يفتخر بمثل ذلك[١]: [البسيط]

إنّ العُلا شيمي والبأس من نقمي ... والمجد خلط دمي والصدق حشو فمي

وقال النّمر بن نوار مفتخرًا[٢]: [البسيط]

لا يعلم اللامعات اللائحات ضحى ... ما تحت كشحي ولا يعلمن أسراري

ولا أخوان ابن عمّي في حليلته ... ولا البعيد نَأى عنّي ولا جاري

وقال آخر يفتخر بنفسه، وكان دميم الخلق، أي قصيرًا[٣]: [الطويل]

ألم تعلمي يا عمرك الله أنّني ... كريمٌ على حين الكرام قليلُ

إذا كنت في القوم الطّوال فضلتهم ... بعارفةٍ حتى يُقال طويلُ

فإن لم يكن جسمي طويلًا فإنّني ... له بالفِعال الصّالحات وصولُ

وقال ابن حبيب التميمي[٤]: [الطويل]

إذا ما رفيقي لم يكن خَلْف ناقتي ... له مركب فضل فلا حملت رحلي

ولم يَكُ من زادي له نصف مزوّدي ... فلا كنت ذا زادٍ ولا كنت ذا رحلِ

شريكين فيما نحن فيه وقد أرى ... عليّ له فضلًا بما نال مِنْ فضلي

آخر[٥]: [الطويل]

وما أنا بالساعي بفضل زمامها ... لتشرب ماء الحَوْض قبل الرّكائبِ

وما أنا بالطاوي حقيبة رحلها ... لأبعثها خفًّا وأترك صاحبي

إذا كنت ربًّا للقلوص فلا تَدَعْ ... رفيقك يمشي خلفها غير راكبِ

أنِخْها وأرْدِفْه فإن حملتكما ... فذاك وإنْ كان العقاب فعاقبِ

---

(١) البيت في ديوان ديك الجنّ الحمصي، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان للنمر بن تولب في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) الأبيات لبشر الفزاري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

وعاذلةٌ هبّت بِلَيْلٍ تَلُومني ... ولم يغتمرني قبل ذاك عذولُ

(٤) الأبيات للمغيرة بن حبناء في ديوانه، من ثلاثة أبيات وهي هذه.

(٥) الأبيات لحاتم الطائي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ومرقبة دون السماء علوتها ... أقلّب الطرف في فضاء سباسبِ

وقال مالك بن نُوَيْرة الفزاري[(١)]: [البسيط]

لا يبعد الله قومًا إن سألتهم أعطوا وإن قلت يا قوم انصروا نَصَروا
وإن أصابهم نعماء سابغةً لم يبطروها وإن فاتتهم صبروا
والكاسرون عظامًا لا جِبَار لها والجابرون عظامًا ليس تنكسرُ

وقال مروان بن أبي حفصة يمدح آل معن بن زائدة من أبيات[(٢)]: [الطويل]

هُمُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجْزَلُوا
ولا يستطيع الفاعلون فِعالهم ولو أحْسَنوا في النائِبات وأجْمَلوا

والأسباب المانِعة من السيادة سبعة:

الحداثة، والبخل، والزّنا، والظُّلم، والحُمْق، والفَقْر، والكذب. واعتبرت هذه الأسباب فوجدتها قد تفرّقت في الأعيان الأماثل، والسّرات الأفاضل.

أمّا الحداثة، فقد ساد أبو جهل وما طرّ شاربه، ودخل دار النّدوة وما اسْتَوَت لحيته.

وأمّا البخل، فقد ساد أبو سفيان وكان أبخل من نار الحباحب، وقيل: من أبي حباحب.

وأمّا الزّنا، فقد ساد عامر بن الطُّفَيْل وكان أزنَى من قرد.

وأمّا الظُّلم، فقد ساد كُلَيْب بن وائل، وكان أظلم من حيّة.

وأمّا الحُمْق، فقد ساد عُيَيْنَة بن حصن، وكان أظلم من دغة.

وأمّا الفقر، فقد ساد أبو طالب وعتبة بن ربيعة، وكانا أفلس من ابن المذلّق.

ولا يُعرف في العرب والعجم كذّاب سادَ قط إلّا المُهلّب بن أبي صفرة، فإنه كان أكذب من فاختة، وكان إذا أخذ في الحديث يقول أصحابه: راح يكذب.

---

(١) الأبيات بلا نسبة في لسان العرب (دجا)، وتاج العروس (دجا).

(٢) البيتان في ديوان مروان بن أبي حفصة، من قصيدة مطلعها:

كأنّ التي يوم الرحيل تعرّضت لنا من ظباء الرمل أدماءُ معزلُ

شرح ما ذُكِر مِنَ الأمثال الواقعة في هذا المثال

أمّا سيادة أبي جهل ودخوله دار النّدوة، فكانت دار النّدوة نادي سادات قريش لا يدخلها إلا مسوّد. وأمّا قولهم: أبخل من أبي حباحب على أحد الرّوايتين، فهو رجلٌ من العرب كان لبُخْله يوقد نارًا ضعيفة، فإذا أبصرها مستضيء أطفأها، وعلى الرواية الأخرى: فهي النار التي تقدحها الخيل بحوافرها، وتُوصف بالبخل لقلّتها وعدم الانتفاع بها. وأمّا قولهم: أزنى من قرد، فهو قرد بن عمرو بن معاوية الهذلي، وقيل: هو الحيوان المعروف. وأمّا قولهم: أظلم من حيّة، فلأنها لا تتّخذ لنفسها بيتًا، بل كل حجر أمّته هرب أهله منه وتركوه لها. وأمّا قولهم: أحْمق من دغة، فإنها مارية بنت مغنج وهو ربيعة بن عجل، ومِنْ حُمْقها أنها تزوّجت وهي صغيرة في بني العنبر بن تميم، فحملت فلما أضرّ بها المخاض ظنَّت أنها تُريد الخلاء، فبرزت إلى بعض الغيطان فوضعت، فاستهلّ الوليد فانصرفت إلى الرّحل تظنّ أنها أحدثت، فقالت لضرّتها: يا هنتاه أيفغر الجعر فاه؟ قالت: نعم، ويدعو أباه، ثم مَضَتْ الضرَّة وأخذت الولد إليها وربَّته، وبنو العنبر يُعَيَّرون بذلك ويُعْرفون ببني الجعراء.

وأمّا قولهم: أفقر من ابن المذلق، فهو رجل من بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة لم يكن يجد بِيتة ليلة وأبوه وأجداده يُعْرفوه بالإفلاس، وفي أبيه يقول الشاعر(١): [الطويل]

فإنك إن ترجو تميمًا ونفعها ... كراجي النَّدى والعُرْف عند المذلّقِ

ويُرْوى بالذّال المهملة.

وأمّا قولهم: أكذب من فاختة فلان حكاية صوتها هذا زمان الرطب تقول ذلك والطلع لم يطلع.

قال بعضهم(٢): [مجزوء الرجز]

أكذب من فاخته ... تصيح عند الكرْبِ
والنخل غير مطلع ... هذا أوان الرطب

(١) البيت بلا نسبة في المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ١/ ٢٧٥، ومجمع الأمثال ٢/ ٨٣، وجمهرة الأمثال ٢/ ١٠٧، والدرّة الفاخرة ١/ ٣٢٧، ٣٣٢، والمرصّع ص ٢٧٧.

(٢) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (وسط)، وتاج العروس (وسط).

وقالوا: عشر خصال في أُناس أقبح منها في غيرهم: الفسق في الملوك، والكذب في القضاة، والخديعة في العلماء، والغضب في الأبرار، والغدر في الأشراف، والسَّفه في الشيوخ، والمرض في الأطبّاء، والتهزّي في الفقراء، والشحّ في الأغنياء، والفخر في الأعزّاء.

الفصل الثاني من الباب الأوّل

في ذكر الصنائع والمآثر المفصحة عن أحساب الأكابر

قال خالد بن صفوان: كان الأحنف بن قيس يفرّ من الشرف، والشرف يتبعه. لمّا تولّى عبد الله بن طاهر بن الحُسَين خراسان بعد موت أبيه من قِبَل الواثق دخل عليه عبد الله بن خليد بن سعد المعروف بأبي العُمَيْثل بقصيدة يمدحه فيها ويهنّئه بالولاية، فجاء منها قوله(١): [الكامل]

يا مَنْ يؤمّل أن تكون خِصاله ... كخِصال عبد الله أنصت واسمعِ
اصدق وعفّ وبرّ وانصف واحتمل ... واكْفُف وكافِ ودارِ واحلم واشجعِ
والطف ولِنْ واشتدّ وارفق واتّئِد ... واخزم وجدّ وحامِ واحمل وادفعِ
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي ... وهُدِيت للنّهج الأسدّ المُهَيِّعِ

آخر(٢): [البسيط]

إن كنت ترغب في شأوِ الكرام فسِرْ
في الناس بالفضل والدّين الذي شرّعوا
حافظ إذا غدروا واشجع إذا جَبِنُوا
واحلم إذا جَهِلُوا وابذل إذا منعوا

فمن مآثر ذوي الكرم في النجار(٣) الذبّ عن النَّزيل وحفظ الجار

كما قيل: الكريم يرعى حقّ اللّحظ، ويتعهّد حُرْمة اللفظ. وقالوا: وجه الكريم جَنّة، وكَنَفه جُنّة. كان بعض الهاشميّين إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك قد

---

(١) الأبيات في ديوان أبي العميثل الأعرابي، من قصيدة مطلعها:
قالت ركعتَ فقلت إنّ وراءكم ... أنْ قد كبرتُ ومن يعمّر يركعِ
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٣) النّجار: الأصل والحسب.

اخترتني جارًا، واخترت داري دارًا، فجناية يدك عليّ دونك، فاحتكم عليّ حكم الصبي على أهله. وهذا مثلٌ تضربه العرب في التزام ما يُحكم به عليها، وذلك أنّ الصبي إذا كان عزيزًا في أهله حمله الدَّلال على طلب ما يستحيل وجوده ويصعب مرامه، فهم أبدًا يَسْعون في تحصيل أغراضه وآرابه، ليظفروا برضاه ويقدّموا على أترابه. وكان حارثة بن مرّ يسمّى مُجيرًا، وذلك أنه نزل بفنائه جراد، فغدا أهل الحيّ إليه ليدفعوه عنهم، فمنعهم منه وقال لهم: ما تريدون منه؟ قالوا: نريد قتله، فإنه نزل بجوارك، فقال: أمّا إذا سمّيتموه جاري فوالله لا تَصِلُون إليه أبدًا، وطردهم عنه. وكان ثور بن شحمة العنبري يسمّى مُجير الطير، فكانت الطير لا تُصاد بأرضه ولا تضارّ. وحُكِي أن زيادًا الأعجم وفد على المهلّب فأكرمه وأنزله على أبيه، فجلسا يومًا يشربان في بستان، فغنّت حمامة على فنن فطرب لها زياد، فقال له حبيب: إنها فاقدة إلْف كنت أراه معها، فقال زياد: هو أشدّ لشوقها، ثم أنشد[1]: [الوافر]

تـغنّـي أنـت فـي ذممـي وعـهـدي ... وذمّـــة والـــدي أن لا تُـــضـــاري
وعـشّـك أصـلحـيـه ولا تـخـافـي ... عــلى زغــب مــصــغــرة صــغــار
فــإنــك كــلّـمــا غــنّـيْـت صـوتًـا ... ذكــرت أحــبّـتــي وذكــرت داري
فــأمّــا يــقــتــلوك طــلبــت ثــأرًا ... لأنــك يــا حــمــامــة فــي جــواري

فضحك حبيب، ثم قال: يا غلام هلمّ القوس، فجاء بها فنزع لها بسهم فأصابها، فوقعت ميتة، فنهض زياد مغضبًا وقال: أخفرت أبا بسطام ذمّتي وقتلت جاري، وشكاه إلى المهلب فغضب على حبيب، وقال: أمّا عَلِمْت أنّ جار أبي لبابة جاري، وذمّته ذمّتي، والله لألزمنّك دية الحرّ وأخذ له من ماله ألف دينار، فقال فيه من أبيات ذكر القصة فيها، جاء منها قوله[2]: [الطويل]

فـللّه عـيـنًـا مَـنْ رأى كـقـضـيّـة ... قضى لي بها شيخ العراق المهلّبُ
قـضـى ألـف ديـنـار لـجـار أجَـرْتـه ... مِنَ الطَّيْر إذ يبكي شجاه ويندبُ

ولمّا وُلّي صالح بن علي مصر من قِبَل ابن أخيه أبي العباس السفاح خرج عليه رجاء بن رَوْح بفلسطين مع عمّه الحكم بن ضبعان، وكان على شرطة مصر،

---

(١) الأبيات والخبر في المستجاد من فَعَلات الأجواد للقاضي التنوخي، ص ٢٧٩.
(٢) انظر الحاشية السابقة.

فأرسل إليهم أبا عَوْن ومحمد بن أشعث الخزاعي بعسكر فهَزَما الحكم، وبلغ صالح بن عليّ أنَّ رجاء بن رَوْح دخل مصر واستجار بمحمد بن معاوية فأجاره، فأرسل إليه فحضر، فقال: ألم أُكرمك؟ ألم أشرّفك؟ قال: بلى، قال: فكان جزائي منك أن أجَرْت عدوّي؟ قال: وما ذاك أيّها الأمير؟ قال: رجاء بن روح وابنه، قال: أصْلَحَ الله الأمير اخْتَر واحدة من اثنتين لي فيهما براءة إمّا أن أُثلج صدرك بيمين أو تُرْسل رجلًا من ثقاتك يفتّش منازلي، قال: وتحلف؟ قال: نعم، فأحْلَفه بطلاق زوجته وعتق عبيده ومشيه إلى مكّة راجلًا حافيًا، فحلف له ثم انصرف إلى منزله، وأعْلَم زوجته فاعتزلت عنه، وقالت له: لا تنقطع عني لئلا يشعر بك، فلما عُزِل صالح عن مصر ورجع إلى بغداد أظهر محمد بن معاوية طلاق زوجته، وأعتق رقيقه، ومشى إلى مكّة كما شرط عليه.

ولمّا كان يوم فتح مكّة لجأ الحارث بن هشام إلى منزل أمّ هانىء أخت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مستجيرًا بها، فدخل عليها عليّ فخبّرته الخبر، فأخذ السيف ليقتله، فقالت أمّ هانىء: يا ابن أمّ قد أجَرْته، فلم يلتفت إلى قولها، فوثبت فقبضت على يديه، وقالت: والله لا تقتله وقد أجَرْته، فلم يقدر عليّ أن يرفع قدمه عن الأرض وجعل يتفلّت منها فلا يقدر، فدخل النبيّ ﷺ إليها، فقالت: يا رسول الله ألا ترى أني أجَرْت فلانًا، فأراد عليّ أن يقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أجَرْنا مَنْ أجَرْتِ ولا تُغْضبي عليًا، فإنّ الله يغضب لغضبه، أطلقي عنه»(١)، فأطلقت عنه، فقال عليه الصّلاة والسلام: «يا عليّ غَلَبَتْك امرأة»، فقال: والله يا رسول الله ما قدرت أرفع قدمي من الأرض، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «لو أنّ طالبًا ولد الناس كانوا شُجّاعًا».

ومِنْ أحسن ما يُحْكى في هذا الباب: أهدر المهديّ دم رجلٍ كان يسعى في فساد دولته، وجعل لمن يقتله أو يأتيه به مائة ألف درهم، فاختفى الرجل زمانًا ثم ظهر مستنكرًا خائفًا يترقّب، فبَصُرَ به رجلٌ في بعض دروب بغداد فعرفه وأخذ بيده، وقال: بِغْيَة أمير المؤمنين، فاجتمع الناس عليه وجَهِدوا على أن يُطْلقوه منه

---

(١) أخرج الجزء الأول من الحديث: «قد أجَرْنا مَنْ أجرتِ يا أمّ هانىء» مسلم في صلاة المسافرين حديث ٨٢، وأبو داود حديث ٢٧٦٣، وأحمد في المسند ٦/ ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥.

فلم يقدروا، فمرّ به وهو في تلك الحالة معن بن زائدة، فناداه: يا أبا الوليد أجِرْني أجارك الله، فوقف الرجل وقال للرجل الذي تعلّق به: ما شأنك؟ قال: بِغْية أمير المؤمنين الذي جعل لمن يقتله أو يأتيه به مائة ألف درهم، فقال معن لبعض غلمانه: انزل عن دابّتك واحمله عليها وانطلق به إلى منزلي، فقال الرجل: أتَحُول بيني وبين بِغْية أمير المؤمنين؟ فقال معن: اذهب إلى أمير المؤمنين وأخبره أنه عندي، فذهب الرجل وأوْصل الخبر إلى المهديّ، فبعث إليه من يُحضره، فركب معن وقال لمن خلفه مِنْ غلمانه في منزله: لا يخلص إلى هذا الرجل أحد وفيكم عين تطرف، فلمّا دخل على المهدي سلَّم فلم يردّ عليه السلام، وقال له: أتُجِير عليّ؟ قال: نعم، قال: ونعم أيضًا؟ فقال معن: يا أمير المؤمنين لقد قتلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفًا في أيام كثيرة عُرِف فيها بلائي وعنائي، فما رأيتموني أهْلًا لأن يُوهَب لي رجلٌ واحد استجار بي، فأطرق المهديّ مليًّا ثم رفع رأسه وقد سُرِّي عنه، وقال: لقد أجَرْنا مَنْ أجَرْت يا أبا الوليد، فقال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يَصِلَه فيكون قد أحْياه وأغْناه، فقال: قد أمَرنا له بخمسين ألفًا، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ صلات الخلفاء تكون على قدر جنايات الرَّعيّة، وإن ذنب الرجل عظيم، فأجْزِل له الصِّلة، قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم، قال: عجّلها له، فإن خير البرّ عاجله، فعُجّلت فأخذها وانصرف بها إلى الرجل، ولم يرَ المهدي وجهه.

والمثل المضروب في هذا الباب: جارٌ كجارِ أبي دؤاد؛ وذلك أنّ أبا دؤاد نزل بكعب بن مامة، وكان كعب إذا جاوره رجل قام له بما يُصْلحه وأهله وحماه ممّن يقصده، وإن هلك له شيء أخْلفه عليه، وإن مات واراه التراب، فجاوره أبو دؤاد الإياديّ فتعلّم منه، فكان يفعل بجاره ما فعل كعب به، فضُرِب به المثل ونُسِي كعب.

قال عليّ بن العباس بن جُرَيْج الروميّ[1]: [الطويل]

هو المَرْء أمّا ماله فمحلّل   لعافٍ وأمّا جاره فمحرّمُ

---

(١) البيت في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

خصيم الليالي والغواني مظلَّمُ   وعهد الليالي والغواني مذمَّمُ

وقال شبيب ابن البرصاء[١]: [الطويل]

وجاراتنا ما دُمْن فينا عزيزة كأرْوى ثبير لا يحلّ اصطيادُها
يكون علينا نقضها وضمانها وللجارِ إن كانت تريد ازديادُها

وقال مروان بن أبي حفصة[٢]: [الطويل]

هُمُ المانِعون الجار حتى كأنّما لجارهم فوق السِّماكين منزلُ

ولآخر[٣]: [البسيط]

الباذلون الندى والناس باخلة والمانِعون وحقّ الجار يُحترمُ

ومِنْ صنيع مَنْ زكت في الكرم أرومه صون المضيم بنفسه من عدوّ يرومه

ورد في بعض الآثار: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود اسمع منّي والحقّ أقول، مَنْ لَقِيَني بحسنة واحدة حكّمته في رحمتي، قال داود: يا ربّ وما تلك الحسنة؟ قال: من فرّج عن مكروب كُرْبته. وقال رسول الله ﷺ: «من فرّج عن أخيه كربة من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كُرْبة من كُرَب الآخرة، والله في عَوْن العبد ما دام العبد في عون أخيه»[٤].

ويقال: مِنْ كفّارات عظائم الذنوب: إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب. وقيل: أفضل المعروف إغاثة الملهوف. ومِنْ أمثالهم: رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمّك؛ فمن الأخبار في ذلك: ما حُكِي أنّ حاتمًا الطائي مرّ بأرض عَنَزة فناداه أسير: يا أبا سفّانة[٥] أكلني القدّ والأسار والقمل، فقال: ما أنا بأرض قومي، وقد أخطأت إذ نوهّت باسمي، ولا معي ما أُفديك به، ثم قال للذي هو في يده: خلّ

---

(١) البيتان في ديوان شبيب ابن البرصاء، من قصيدة مطلعها:
يدلّ علينا الجار آخر قبله وأحلامنا معروفة وسدادُها

(٢) البيت في ديوان مروان بن أبي حفصة، من قصيدة مطلعها:
كأنّ التي يوم الرحيل تعرّضتْ لنا من ظباء الرمل أدماءُ معزلُ

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم باب ٣، ومسلم في البرّ حديث ٥٩، والذكر حديث ٣٨، وأبو داود في الأدب باب ٣٨، ٦٠، والترمذي في الحدود باب ٣، والبرّ باب ١٩، والقرآن باب ١٠، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/٩١، ٢٥٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤.

(٥) السفانة مشدّدة بنت حاتم قاله المجد.

عنه سبيله واجعلني في القدّ مكانه، ففعل وبعث إلى قومه فأتوه بما فدى به نفسه. وذُكِر أن بني كلب بن وَبرة أغاروا على حيٍّ مِنْ أحياء العرب، فقتلوا منهم عشرة أنفس غَيْلة فاستنجدوا عليهم، وقالوا: إمّا الثأر وإمّا الدِّيات، فسألوهم المُهْلة في ذلك إلى أجل، فأجابوا فخرج بنو كلب يسألون قبائل العرب المعونة حتى قدموا أرض تميم، فقروا ماء ماء وحيّا حيّا، فلم يجدوا أحدًا يدفع عنهم ولا يُعينهم، وكانوا زهاء مائة نفس، فمرّوا بعطارد بن حاجب بن زُرارة بن عديّ فسألوه ذلك، فقال: قولوا شعرًا وخذوها، فلم يكن فيهم مَنْ يقول شعرًا، فتركوه ومضوا، فأتوا على بني مجاشع فمرّوا بوادٍ قد امتلأ إبلًا وبه صعصعة جدّ الفرزدق، وهو بفناء إبلٍ له فسألوه القِرى، فقال: لكم البَذْل قبل القرى، ما الذي جئتم فيه؟ فأخبروه بأمرهم، فأعطاهم عشر ديات ثم أنزلهم وأضافهم، فقالوا: أرشدك الله من سيّد أرَحْتَنا من طولِ التّعب، ولو عرفناك لقصدناك؛ وصعصعة هذا أوّل من ترك وَأْد البنات، وفداهنّ بماله وكفّت العرب عن وأدهنّ من بعد.

وممّا يُمْتَزج بما ذكرناه امتزاج اللبن بالماء القراح، ويتعلّق به تعلُّق الأنام بالرّاح، ما حكاه الجهشياريّ في كتاب الوزراء أنه لما تفرّق الأمر عن مروان بن محمد الجعدي طلب عبد الحميد بن يحيىٰ كاتبه، وكان صديقًا لعبد الله بن المقفّع، ففاجأه الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيّكما عبد الحميد؟ فقال كُلّ واحد منهما: أنا، خوفًا أن ينال صاحبه مكروه، وخَشِيَ عبد الحميد أن يُسْرِعوا إلى ابن المقفّع بما يكره، فقال لهم: تثبّتوا فإنّ في عبد الحميد علامات يُعْرف بها، فأرسلوا إلى مرسلكم مَنْ يستوصفها منه، فأيّنا وجدتموها فيه فخذوه، ففعلوا فوصف له عبد الحميد بعلامات اشتمل عليها بدنه، فأُخذ وحُمِل إلى العباس السفّاح، فولّى عقوبته عبد الجبار بن عبد الرحمٰن، فكان يَحْمي له طشتًا ويضعه على رأسه، فلم يزل يفعله به ذلك حتى مات، وقيل غير ذلك، وأنا ذاكره فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقريبٌ من هذه الحكاية ما حكاه صاحب المُسْتجاد قال: لمّا أُحْرِق جامع مصر ظنّ المسلمون أنّ النصارى أحرقوه، فأحرقوا لهم خانًا كانوا يبيعون فيه الزيت، فقبض السلطان على جماعة مِنَ الذين أحرقوا الخان، وكتب رقاعًا فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد، ونثرها عليهم، فمن وقعت في يده رقعة فعل به ما فيها، فوقعت في حجر رجل رقعة فيها القتل، فلما قرأها بكى، وقال: والله لولا

أمّ لي ما بالّيت، فالتفت إليه شابّ كان إلى جانبه، فقال له: في رقعتي الجلد ولا أمّ لي، فخذ رقعتي وادفع إليّ رقعتك، فأبى عليه فأقسم أن لا بدّ، ففعلا فقُتل هذا وجُلِد هذا.

وحكى الزبير بن بكار في كتابه الذي سمّاه الموفقيات، قال: استشهد باليرموك الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فأتوا بماء وهم صرعى وفيهم رمَق فتدافعوه كلّما دُفِع إلى رجلٍ منهم قال: اسقِ فلانًا، حتى ماتوا ولم يشربوه.

مسلم بن الوليد يمدح مَنْ هذه خُلُقه[1]: [البسيط]

يَجُود بالنّفس إنْ ضنّ الجواد بها والجَوْد بالنفس أقصى غاية الجُودِ

وقال عمارة بن حمزة[2]: [الكامل]

ينسى مضرّته لنفع صديقه لا خَيْر في شرف إذا لم ينفعِ

البحتري[3]: [الطويل]

يَخُونك ذو القربى مرارًا وربّما
وفَى لك عند العهد مَنْ لا تناسبُه

وحَسْب الفتى مِنْ نصحه ووفائه
تمنّيه أن يُؤْذَى ويَسْلم صاحبُه

آخر[4]: [مجزوء الكامل]

قومٌ إذا حالفتهم لم تَخْشَ نائبة الصروف
وإذا وصلت بحبلهم حبلًا أمِنْت من المَخُوف

---

(١) البيت في ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني)، من قصيدة مطلعها:
لا تدع بي الشوق إني غير محمودِ نهى النُّهى عن هوى الهَيْف الرعاديدِ
(٢) البيت لعمارة في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ص ٨٦٤.
(٣) البيتان ليسا في ديوان البحتري، وهما لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان منفردان (انظر الموسوعة الشعرية).
(٤) البيتان بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي ص ٥٢٤.

وقال أبو نواس الحسن بن هانىء الحكمي يمدح الأمين بحسن العهد والتذمّم[١]: [الطويل]

أخذت بحبلٍ من حِبال محمّد أمِنْت به من طارق الحدثانِ
تغطّيت من دهري بفضل جناحه فعيني ترى دَهْري وليس يَراني
فلو تسأل الأيام عني لما دَرَتْ وأين مكاني ما عَرَفْنَ مكاني

ومن أمتن أسباب الحسب والديانة وفاء العهد وأداء الأمانة

قالوا: الوفاء أفضل شمائل العبد، وأوضح دلائل المجد، وأقوى أسباب الإخلاص في الودّ، وأحقّ الأفعال بالشكر والحمد. وقالوا: الوفاء أتمّ حميد الخلال، ومُنْتهى غاية الكمال، تمسّ الحاجة إليه، وتجب المحافظة عليه، ولقد صار رسمًا دارسًا، وحلّة لا تجد لها لابسًا، ومَنْقبة قلّ أن تجد فيها مُسْتأنسًا، ولله درّ من قال[٢]: [المنسرح]

وصادق الودّ صادق الخبر مُغْري برعي العهود مصطبرِ
هذا الذي لا أزال أسمعه وما له في الزمان من أثرِ
لو أنّ كفّي بمثله ظفرت قاسَمته في المتاع والعمرِ

وقالوا: من صَحِبَ الناس بلسانٍ صادقٍ، وعامَلهم بحُسْن الخلائق، وألْزَم نفسه رَعْي العهود والمواثق، فقد أرْضَى المخلوق والخالق. ويقال: بالوفاء تَمْلك القلوب، وتُسْتدام الإلفة بين المُحِبّ والمحبوب. وقالوا: مَنْ تحلّى بالوفاء، وتخلّى عن الجَفاء، فذلك من إخوانِ الصّفاء، ولقد أحْسن مَنْ قال[٣]: [الطويل]

إذا أنت محّضت المودّة صافيًا ولم تَرَ عن وصل الصديق مجافيًا
ووفَيْت بالعهد الذي خانه الورى ولم أرَ مخلوقًا على العهد باقِيا
فقد حُزْت أسْباب المكارم كلّها وجدّدت للعليا رسومًا عوافيا

---

(١) الأبيات في ديوان أبي نوّاس، من قصيدة مطلعها:
لمن طللٌ لم أشجه وشجاني وهاجه الهوى أو هاجه لألوانِ
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٣) الأبيات لم أجدها.

وقالوا: الوفاء ضالّة كثيرٌ ناشدها، قليلٌ واجِدُها؛ كما قيل: الوفاء من شِيَم الكِرام، والغَدْر من خلائق اللّئام. وقالوا: إذا تُرِكَ الوفاء، نزل البلاء. ويقال: مَنْ أودع الوفاء صدور الرّجال مَلِكَ أعناقهم.

ومِنْ أمثالهم في ذلك: أوْفَى من السَّمَوْأل، وهو السموأل بن عادياء بن حياء اليهودي صاحب قصر تيماء المسمّى بالأبلق الفَرد. ومن خبره: أنّ امرأ القيس كان قاصدًا للشأم، فأوْدع السّموأل أدراعه وكراعه، فمات امرؤ القيس بأنقرة، فقصد السموأل بعض ملوك غسّان يطلب منه ما كان أودعه امرؤ القيس عنده، فأبَى أن يُسلِّمه له، فقال: إنْ لم تُسلِّمه ذبحت ولدك، وكان قد أسره عند نزوله على القصر، فقال: أجّلني الليلة، ثم جمع أهله واستشارهم فكلٌّ أشار إليه بأن يدفع إليه ما طلبه منه، فلما أصبح قال له: ليس إلى دفعها سبيل، فافعل ما بدا لك، فذبح الملك ولده ورحل عنه، ثم إن السّموأل وافى الموسم بالأدراع فدفعها لورثة امرىء القيس. وفيه يقول الأعشى يخاطب شُرَيْح بن السموأل بن عادياء، وقيل: شُرَيْح بن حصن بن السموأل، وقيل: شُرَيْح بن عمران بن السموأل مِن أبيات[١]: [البسيط]

كُنْ كالسَّموأل إذ طاف الهُمام به ... في جحفل كسواد الّليل جرّارِ
بالأبلق الفَرِد من تيماء منزله ... حصنٌ حصينٌ وجارٌ غير غدّارِ
فسامه خطّتي خسف فقال له ... قُلْ ما بدا لك إنّي مانعٌ جاري
فقال ثكلٌ وغدرٌ أنت بَيْنهما ... فاخْتَرْ وما فيهما حظٌّ لمختارِ
فشكّ غير طويل ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانعٌ جاري
فقال تقدّمه إذ رام يقتله ... أشرف سموأل فانظر في الدم الجاري
أأقتل ابنك صبرًا أو تجيء بها ... طوعًا فأنكر هذا أيُّ إنكارِ
فشكّ أوداجه والصدر في مضضٍ ... عليه منطويًا كاللّذع بالنارِ
واختار أدراعه من أن يُسَبّ بها ... ولم يكن عهده فيها بختّارِ
وقال لا أشتري عارًا بمكرمةٍ ... فاختار مكرمة الدنيا على العارِ
والصّبر منه قديمًا شيمة خلق ... وزِنْده في الوفاء الثّاقب الواري

---

(١) الأبيات في ديوان الأعشى ص ٢٢٩، من قصيدة مطلعها:

شريح لا تتركني بعدما علقت ... حبالك اليوم بعد القدّ أظفاري

وفي ذلك يقول السموأل مفتخرًا(١): [الوافر]

وَفَيْت بأدرع الكندي إنّي ... إذا ما خانَ أقوامي وفيتُ
وأوصى عاديًا يومًا بأنْ لا ... تخرّب يا سموأل ما بنيتُ
بنى لي عاديًا حصنًا حصينًا ... وماء كلّما شئت اشتفيتُ

والملك هو الحارث بن شمر الغساني.

وحدّث الكنديّ في كتابه أخبار الأُمراء بمصر، قال: لما وُلّي المطّلب بن عبد الله إمارة مصر مِنْ قِبَل المأمون خوّفه أهل مصر من إبراهيم بن نافع الطائي قبل الوصول إليه أنْ يثب عليه فطلبه المطلب، فلم يقدر عليه واتّهم به جماعة من قوّاد مصر، وكان هُبَيْرة بن هشام صاحب شرطة مصر يَعْرف المكان الذي اختفى فيه، وكان إبراهيم بن نافع قد أودع ماله عند هبيرة بن هشام فسعى بهُبَيْرة إلى المطلب، فأحضره وقال له: ادفع إليّ ما أودعه عندك إبراهيم، فقد بلّغني الثقة أنّ ماله مُودَعٌ عندك، وإن لم تَجِئْني به أخذت ما فيه عيناك، فأنكر فأوجعه ضربًا وهو يزيد إنكارًا، فلمّا طال على المطلب جحود هُبَيْرة وخاف عليه التّلف تركه، ثم لمّا سكن عن إبراهيم الطلب أخرجه هُبَيْرة من مصر سرًّا، ثم أرسل إليه ماله بعد ذلك مع التجّار، وفيه يقول سعيد بن عنين(٢): [الطويل]

لعمري لقد أوفى وزاد وفاؤه ... هُبَيْرة في الطائيّ وفاء السَّمَوْألِ
وَقاه المنايا إذ أتته بنفسه ... وقد بَرُقَت في عارضٍ متهلّلِ

أُتِيَ الحجّاج بقومٍ ممن خرج عليه، فأمر بهم فضُرِبت أعناقهم، وأُقيمت صلاة المغرب وقد بَقِيَ من القوم واحد، فقال لقتيبة بن مسلم: انصرف به معك حتى تغدو به عليّ، قال قتيبة: فخرجت والرجل معي، فلما كنّا ببعض الطريق قال لي: هل لك في خير؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إني والله ما خرجت على المسلمين ولا اسْتَحْلَلْت قتالهم، ولكن ابْتُلِيت بما ترى وعندي ودائع وأموال، فهل لك أن تخلّي سبيلي وتأذن لي حتى آتي أهلي وأردّ على كل ذي حقّ حقّه وأُوصي، ولك

---

(١) الأبيات في ديوان السموأل بن عادياء، من قصيدة مطلعها:
عفا من آل فاطمة الخبيتُ ... إلى الإحرام ليس بهنّ بيتُ
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

عليّ أن أرجع حتى أضع يدي في يدك، قال قتيبة: فعَجِبْت له، وتضاحكت لقوله، قال: فمضَيْنا هُنَيْهة ثم أعاد عليّ القول، وقال: إني أعاهد الله لك على أن أعود إليك، قال قتيبة: فوالله ما ملكت حتى قلت له: اذهب، فلمّا توارى عني شخصه أسقط في يدي، فقلت: ماذا صنعت بنفسي، وأتيت أهلي مهمومًا مغمومًا فسألوني عن شأني فأخبرتهم، فقالوا: لقد اجترأت على الحجّاج، فبِتْنا بأطول ليلة، فلما كان عند أذان الغداة إذا الباب يُطْرَق فخرجت فإذا بالرجل، فقلت: أرجعت! قال: سبحان الله جعلت لك عهد الله عليّ فأخونك ولا أرجع، فقلت: أمَا والله إن استطعت لأنفعنك، وانطلقت به حتى أجْلسته على باب الحجّاج ودخلت، فلما رآني قال: يا قتيبة أين أسيرك؟ قلت: أصلح الله الأمير بالباب، وقد اتّفق لي معه قصة عجيبة، قال: ما هي؟ فحدَّثْته الحديث فأذن له فدخل، ثم قال: يا قتيبة أتحبّ أن أهبه لك؟ قلت: نعم، قال: هو لك، فانصرف به معك، فلما خرجت به قلت له: خذ أيّ طريق شئت، فرفع طرفه إلى السماء وقال: لك الحمد يا ربّ، وما كلّمني بكلمة، ولا قال لي أحسنت ولا أسأت، فقلت في نفسي: مجنون والله، فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءني وقال لي: جزاك الله خيرًا أمَا والله ما ذهب عني ما صنعت ولكن كرهت أن أشرك مع حمد الله حمد أحد.

ولمّا تفرّق الأمر عن مروان بن محمد وأيْقَن بزوال مُلْكه وغلبة بني هاشم عليه، قال لكاتبه عبد الحميد بن يحيىٰ: إني قد احتجت أن تكون مع عدوّي، فتُظْهر لهم الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إليك تمنعهم منك وتدعوهم إلى حُسْن الظنّ بك، فإنِ استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلّا فلا تعجز عن حفظ حُرْمتي بعد وفاتي، فقال عبد الحميد: إنّ الذي أمَرْتني به أنفع الأمرين لك وأضرّهما بي وما عندي إلّا الوفاء حتى يفتح الله لك أو أُقتل معك، ثم أنشد(١): [الطويل]

أُسِرّ وفاءً ثم أُظهر غدرةً ... فمن لي بعُذْرٍ يشمل الناس ظاهِرُهْ

فأمسك عنه ساعة وأعاد عليه القول ثانية، فقال: والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس، فلم يزل معه حتى قُتِل؛ وذلك في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة وله تسع وخمسون سنة، وقُتِل ببُوصير قرية

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

من صعيد مصر، وهو آخر ملوك بني أُمية، وكانت دولتهم[١] ثلاثًا وتسعين سنة وأحد عشر شهرًا وأيّامًا، وهرب عبد الحميد إلى قرية تُعْرف بالأشمونين فاختفى بها، فدلّ عليه وحُمِل إلى أبي العباس السفّاح بأمان فلم يَحْظَ عنده، وقال الجهشياري قُتِل، وقد ذُكِر آنفًا.

ومن أحسن ما تُطْرب به الأسماع، ويلطف به كثيف الطّباع، ما يُحْكى أنّ معاوية بن أبي سفيان تزوّج ميسون بنت بحدل ونقلها من البدو إلى الشأم، وكانت كثيرة الحَنِين إلى أُناسها والتذكّر لمسقط رأسها، فأنْصت لها يومًا فسمعها تُنْشد[٢]: [الوافر]

لَبَيْت تخفق الأرياح فيه ... أحبّ إليّ من قَصْرٍ مُنيفِ
ولُبْس عباءة وتقرّ عيني ... أحبّ إليّ من لُبْس الشُّفوفِ
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحبّ إليّ من أكل الرّغيفِ
وأصوات الرّياح بكل فجٍّ ... أحبّ إليّ من نَقْر الدُّفوفِ
وكلبٌ يَنْبح الطرّاق دوني ... أحبّ إليّ من قطٍّ أُلوفِ
وبكر يتبع الأظلال صعبٌ ... أحبّ إليّ من بغلٍ زفوفِ
وخرق من بني عمّي نحيف ... أحبّ إليّ من عِلْجٍ عنيفِ
خشونة عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العَيْش الظّريفِ
فما أبغي سوى وطني بديلًا ... فحَسْبي ذاك مِنْ وطنٍ شريفِ

فلمّا سمع معاوية الأبيات قال: ما رَضِيَتْ بي بنت بحدل حتى جعلتني عِلْجاً عنيفًا، ثم طلّقها وردّها إلى أهلها. ويقال: مِنَ الوفاء تشوّق الرجل لإخوانه وحنينه إلى أوطانه، وتلهّفه على ما مضى من زمانه. وقالوا: الكريم يحنّ إلى جنابه، كما يحنّ الأسد إلى غابه. ويقال: من علامة الكريم أن تكون نفسه إلى مولده توّاقة، وإلى مسقط رأسه مشتاقة. شاعر[٣]: [الطويل]

أحبّ بلاد الله ما بين منعج ... إليّ وسلمى أن يجود سحابُها

(١) مدّة دولة بني أُميّة.
(٢) الأبيات في خزانة الأدب ٨/ ٥٠٣، ٥٠٤، والدُّرر ٤/ ٩٠.
(٣) البيتان بلا نسبة في رسائل الجاحظ ص ٨٩٥، ورواية البيت الأوّل فيه:
أحبّ بلاد الله ما بين صارةٍ ... إلى غطفان إذ يصوب سحابُها

بلاد بها نِيطت على تمائمي وأوّل أرض مسَّ جلدي ترابها

وقالت الحكماء: أرض الرجل ظِئْره، وداره مهده، والغريب كالغرس الذي زايل أرضه، فهو ذاوٍ لا يَنْمى وذابل لا يَنْضر، وفِطْرة الرجل معجونة بحبّ الأوطان، مجبولةٌ على تذكّر ماضي الزّمان، وقد ذكر ابن الرُّومي السبب المُوجِب لحبّ الأوطان بقوله[١]: [الطويل]

وحبّب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصّبا فيها فحنّوا لذلكا

وقالوا: ليس في الحيوان السائح أشدّ وفاء من الفاختة، فإنها إذا مات إلفها لا تزال تندبه، ولا تألف غيره حتى تموت.

ومِنْ أحاسن فعلات الأشراف الاتّصاف بالعدل والإنصاف

فالعدل قوام الدنيا والدِّين، وسبب صلاح المخلوقين، وله وُضِعت الموازين، وهو المرغوب المألوف، المؤمّن من كل مَخُوف، به تألّفت القلوب، والتَأَمَت الشعوب، وظهر الصّلاح، واتّصلت أسباب النّجاح، وانعقلت عُرَى اليُمْن والفلاح، وشمل الناس التناصف، والتواصل والتعاطف، وهو مأخوذ من الاعتدال الذي هو القوام والاستواء، المتجانبان للمَيْل والالتواء، وهو ميزان الله في أرضه الذي يُوفِي به الحقوق، ويَرْأَب به الصدوع والفتوق. وحقيقته وضع الأمور في مواضعها: لا تُوضع الشدّة مكان اللِّين وبضدّ ذلك، ولا السيف مكان السوط وبالعكس من ذلك، وإلى هذا أشار المتنبّي في قوله[٢]: [الطويل]

ووضع النّدى في موضع السيف بالعدى
مضرّ كوضع السيف في موضع النّدى

والإنصاف هو استيفاء الحقوق واستخراجها بالأيْدي العادلة والسياسات الفاضلة، وهو والعدل تَوْأمان نتيجتهما علوّ الهِمّة، وبراءة الذمّة باكتساب

---

(١) البيتان في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:
أعوذ بحقويك العزيزين أن أرى مقرًّا بضيم يترك الوجه حالِكا
(٢) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:
لكلّ امرىءٍ من دهره ما تعوّدا وعادة سيف الدولة الطّعن في العِدَا

الفضائل، واجتناب الرذائل، فالإنصاف استثمار، والعدل استكثار، فيصير الملك بالإنصاف مستثمرًا، وبالعدل مستكثرًا، وما نقص مُلْك من إنصاف، ولا جاه من إسعاف. وقد قيل: من عدل في سلطانه، استغنى عن أعوانه. وقيل: عدل السلطان أنفع للرَّعيّة من خَصْب الزّمان. وروى الثقاة بأسانيد حسنة عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «عدل ساعة خير من عبادة ستّين سنة»(١). وعن عبد الرحمٰن بن عمرو بن العاص أنّ رسول الله ﷺ قال: «المُقْسِطون على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمٰن بما أقسطوا في الدنيا»(٢). وقال حكيم لبعض الملوك: أيّها الملك إنما فخرك بإظهار عدلك، وإيثار فضلك، لا بجمال بزّتك، وتمكّن عزّتك، وفراهة مركبك، وكثافة موكبك. ويقال: المُلْك يبقى على العدل والكفر، ولا يبقى على الإيمان والجور، وإليه أشار الشاعر بقوله(٣): [البسيط]

عليك بالعدل إن وُلّيت مملكةً ... واحذر مِنَ الجُور فيها غاية الحذرِ

فالمُلْك يبقى على عدل الكفور ولا ... يبقى مع الجُور في بدوٍ ولا حضرِ

دخل عمر بن الخطاب على أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما فسلّم فلم يردَّ عليه، فقال لعبد الرحمٰن بن عوف: أخاف أن يكون قد وجد عليَّ خليفة رسول الله ﷺ، فكلّم عبد الرحمٰن أبا بكرٍ في ذلك، فقال: إنه أتاني وبين يديَّ خصمان قد فرغت لهما سمعي وبصري وقلبي، وعلمتُ أن الله سائلي عنهما وعمّا قالا وعمّا قلت. ويقال: إذا عدل السلطان في رعيّته ثمّ جارَ على واحدٍ لم يَفِ عدله بجوره. ويقال: حقّ على مَنْ ملّكه الله على بلاده، وحكّمه في عباده، أن يكون لنفسه مالِكًا، وللهوى تاركًا، وللغَيْظ كاظمًا، وللظلم هاضمًا، وللعدل في حالتَيْ الرّضا والغضب مُظْهِرًا، وللحقّ في السرّ والعلانية مؤثرًا، وإذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته، والقلوب محبّته، وأشرق بنور عدله زمانه، وكَثُر على عدوّه

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ١٦٧، والمتّقي الهندي في كنز العمال ١٤٦٢٣، بلفظ: «عدل يوم أفضل من عبادة ستّين سنة».

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٢/ ٢٠٣، والحاكم في المستدرك ٤/ ٨٨، والمتّقي الهندي في كنز العمال ١٤٦١٩، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٨٧، ٨٨.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

أنصاره وأعوانه، ولقد صدق من قال[١]: [الوافر]

لــكــلّ ولايـــة لا بـــدّ عـــزل وصـرف الـدّهـر عـقـد ثـم حـلُّ
وأحـســن سـيـرة تـبـقـى لـوالٍ عــلى الأيّـام إحـســان وعـدلُ

وقال عمرو بن العاص: مَلِكٌ عادل خير من مطرٍ وابل. وكان كسرى يقيم رجلين من موابذته عن يمينه وشماله إذا أراد النظر في أمور الناس، فكان إذا زاغ حرّكاه بقضيب معهما، وقالا له والرّعيّة يسمعون: أيّها الملك أنت مخلوق لا خالق، وعبد لا مولى، وليس بينك وبين الله قرابة، أنْصِف الخلق وانظر لنفسك. ويقال: إنه كتب ثلاث رِقاع في إحداها: أمسك غضبك فإنك لست بإله، وإنّك ستموت ويأكل بعضك بعضاً؛ وفي الثانية: ارحم عباد الله يرحمك الله؛ وفي الثالثة: احمل عباد الله على الحقّ، فإنه لا يَسَعهم إلّا ذلك؛ وكان إذا جلس للناس عامّة لينظر في أُمورهم قام بعض الحُجّاب على رأسه وبيده الرّقاع، فإذا رآه غضب على أحد ناوله الرُّقعة الأُولى، فإن رآه تمادى على غضبه ناوله الثانية، فإن لم ينتهِ ناوله الثالثة. وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يأمر عُمّاله أن يوافوه في الموسم، فإذا اجتمعوا قال: يا أيها الناس إني لم أستعمل عُمّالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أعراضكم، ولا من أموالكم شيئاً، إنما استعملتهم ليحجزوا بينكم ويردّوا عليكم فَيْئكم، فأيّكم كانت له عندي مظلمة فليقم.

وصف أعرابيّ أميرًا عادلًا، فقال: هو عالم برعيّته عادل في أقْضِيَته، عارٍ من الكِبَر، قابلٌ للعذر، سهل الحجاب، متحيّزًا إلى الصواب، رفيقٌ بالضعيف، مكرّم للشريف، غير مُجافٍ للقريب، ولا مُخيف للغريب. وكان شمس المعالي قابوس بن وشمكير عادلًا في ملكه، كان لا يؤتى بمفسد إلّا أقام الحقّ عليه، ولو أنه أقرب الناس إليه.

وقّع جعفر بن يحيىٰ إلى بعض عُمّاله: أنْصِف مَنْ وُلّيت أمره وإلّا أنصفه منك من وُلّي أمرك. ووقّع أخوه الفضل: بِئْس الزّاد إلى المعاد التعدّي على العباد. وسأل عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة عن حال رعيّته مع العمّال، فقال: رأيت الظالم مقهورًا، والمظلوم منصورًا، والغنيّ موفورًا، والفقير مبرورًا، فقال: الحمد لله

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الذي وهب لي من العدل ما تطمئنّ إليه قلوب رعيّتي. وتعرّض له متظلّمٌ في بعض الطُرق، فوقف له وأزال شكايته، فقيل له: هلّا صبرت حتى يستقرّ بك المنزل، فقال: الخير سريع الذهاب، وخشيت أن أفوته بنفسي وإنما هي فرصة قدّمت فيها الحزم، واستصحبت الحزم. قال شاعر يمدح متوليًا اتّصف بهذه الخلّة من الرؤساء الجلّة[1]: [السريع]

لا تقدح الظنّة في حكمه ... شيمته عدل وإنصافُ
يمضي إذا لم تلقَه شبهة ... وفي اعتراض الشكّ وقّافُ

وممّا اتّفق على مدحه الأوائل والأواخر تواضع مَنْ حاز الفضائل والمفاخر

قالوا: ينبغي لمن عَظُم قدره، وامتثل نهيه وأمره، وانتشر في الخافقين ذكره، أن يكون للإعجاب مطرحًا، وعن الكبر منتبذًا ومنتزحًا، فإنّ هِمّة الرجل العاقل الفاضل شريفة عليّة، وباختفار ما أُوتيت من رئاسات الأعمال والأموال مليّة. قال ذو النون: مَن تطأطأ لقي رطبًا، ومَنْ تعالى لقي عطبًا. وقال عروة بن الزبير: التواضع من مصائد الشرف، وكلّ نعمة محسود عليها إلّا التواضع. ويقال: التواضع في الشرف أشرف من الشرف.

ويقال: اسمان يتّفق معناهما ويفترق لفظهما: التواضع والشرف. وكان رسول الله ﷺ يجيب دعوة الحرّ والعبد والأَمَة والمسكين، ويقول: «لو دُعِيت إلى كراعٍ لأجبت»[2]، وكان يخصف النعل، ويحلب الشاة، ويركب الحمار ردفًا، ويرقّع الثوب، ويطحن مع الخادم إذا أعْيَت، ويأكل معها ويحمل بضاعته من السوق ويسلّم مبتدئًا ويصافح الغنيّ والفقير، ويخالط أصحابه ويحادثهم ويمازحهم ويلاعب صبيانهم ويجْلسهم في حجره، وما دعاه أحدٌ من أصحابه، ولا من أهل بيته، إلّا قال: لبيك، وقال: «لا تفضّلوني على يونس بن متّى، ولا ترفعوني فوق قدري فتقولون فيّ ما قالت النصارى في المسيح: إنّ الله اتّخذني عبدًا قبل أن

(١) البيتان بلا نسبة في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي، ص ٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في الهبة باب ٢، والنّكاح باب ٧٣، ومسلم في النّكاح حديث ١٠٤، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٤، ٤٧٩، ٤٨١، ٥١٢.

يتّخذني رسولًا»(١)، وكان ﷺ لا يأكل متكئًا، ويأكل الخبيص ويقول: «إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»(٢).

وقال البراء بن عازب: رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق ينقل التراب حتى وارى التراب صدره، وكان ينقل اللّبن على عاتقه مع أصحابه عند بناء مسجده بالمدينة، هذا ولسان فخره ينزع عن الإبانة عن علوّ قدره، فيقول: «أنا سيّد ولد آدم ومَنْ دونه تحت لوائي، أنا أوّل مَنْ تنشقّ عنه الأرض، لست كأحدكم إني أظلّ عند ربي يطعمني ويسقيني»(٣)، شرف صرفت أمانيّ الآمال عن بلوغ مداه، وتقطّعت دونه أيدي الطمع فلا تصل إلى علاه، ولمّا وُلّي أبو بكر الخلافة، قال: إني ولّيتكم ولست بخيركم، فلما بلغ كلامه الحسن البصري قال: بلى، ولكن المؤمن يهضم نفسه. وسُئِل بعض التابعين: هل رأيت أبا بكر؟ قال: نعم، رأيت ملكًا في زيّ مسكين. وقال ابن عباس: كان أبوبكر كثيرًا ما ينشد(٤): [البسيط]

إذا أردت شريف الناس كلّهم ... فانظر إلى ملك في زيّ مسكينِ
ذاك الذي حَسُنَت في الناس قالته ... وذاك يصلح للدنيا وللدِّينِ

آخر(٥): [البسيط]

إنّ السعيد الذي تمّت سعادته ... فتًى يفرّ من الدنيا إلى الدينِ
يصدّ بالطرف منه عن زخارفها ... فيغتدي ملكًا في زيّ مسكينِ

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٢/ ١٠٥، وابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٥/ ٢١٤، والمتّقي الهندي في كنز العمال ٤٠٧٠٨، ٤٠٧٩٣.

(٣) أخرجه بنحوه أبو داود حديث ٤٦٧٣، وأحمد في المسند ٢/ ٥٤٠.

(٤) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لتجدعنّ المنايا كل عرنينِ ... والسلق يفني بتحريك وتسكينِ

ورواية البيت الثاني في الديوان:

ذاك الذي عظمت في الله حرمته ... وذاك يصلح للدنيا وللدِّينِ

وهذا الخبر فيه شكّ والتباس، فأبو العتاهية متأخّر عن أبي بكر الصدّيق؛ إذ توفي أبو بكر سنة ١٣ هـ، وتوفي أبو العتاهية سنة ٢١١ هـ، فكيف يتمثّل أبو بكر بشعر لم يُقال بعد؟

(٥) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

وقال المرار بن المنقذ العدوي[١]: [البسيط]

يا حبّذا حين يمسي الريح باردة ... وادي الأضاء وفتيان بها هضمُ
مخذّمون كرام في مجالسهم ... وفي الرجال إذا صاحبتهم خدمُ
وما أُصاحب من قومٍ فأذكرهم ... إلا يزيدهم حبّاً إليّ همُ

وكان رضي الله عنه إذا مُدِح قال: اللّهمّ أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللّهمّ اجعلني خيرًا مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. وروي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه نادى يومًا: الصلاة جامعة، فلمّا اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيّها الناس لقد رأيتموني وأنا أرعى على خالات لي مِن بني مخزوم يقبض لي القبضة من التمر أو الزبيب، فقال عبد الرحمٰن بن عوف: ما أردت على أن قصرت على نفسك، فقال: ويحك يا ابن عوف خلَوْت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أُعرّفها قدرها. واشترى أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه تمرًا بدرهم فحمله في ردائه، فسأله بعض أصحابه حمله عنه، فقال: أبو العيال أحقّ بحمله. وحكى الشعبي قال: ركب زيد بن ثابت فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه، فقال: لا تفعل يا ابن عمّ رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد: أرِني يدك فأخذها وقبّلها، وقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهلِ بيت نبيِّنا. ودخل بعض الشعراء على الحسن بن زيد فأنشده[٢]: [المنسرح]

الله فــرد وابــن زيــد فــرد

فقال بفيك الأثلب ألا قلت:

الله فــرد وابــن زيــد عــبــد

ونزل عن سريره وألصق خدّه بالأرض. وكان عبد الله بن عمر إذا سافر مع قوم يحتطب لهم ويطبخ لهم ويستقي لهم ويُؤذّن لهم. وكان أبو هريرة خليفة مروان بن الحكم على المدينة يحتطب ويأتي بالحزمة الحطب على ظهره يشقّ بها

---

(١) الأبيات بلا نسبة في لسان العرب (خدم)، وتهذيب اللّغة ٧/ ٢٩٠، وكتاب العين ٤/ ٢٣٥.
(٢) الشطر والخبر في ربيع الأبرار للزمخشري، ص ٢٨٥٠.

السوق، ويقول: جاء الأمير جاء الأمير، حتى يعلم الناس به فينصرفون إليه في حوائجهم. البحتري مادحًا(١): [الوافر]

دنَوْت تواضعًا وعلوت قدرًا فشاناك انحدارًا وارتفاعُ
كذاك الشمس تبعد أن تُساما ويدنو الضوء منها والشعاعُ

ولآخر(٢): [الطويل]

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تَكُ كالدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجوّ وهو وضيعُ

كان ابن مسعود إذا مشى خلفه أحد قال: أخّروا عني نعالكم، فإنها ذلّة للتابع، وفتنة للمتبوع. ولما ولّي عليّ بن عيسى الوزارة وذلك في سنة ثلاثمائة رأى الناس يمشون حوله كما كانوا يمشون حول الوزراء قبله، فالتفت إليهم وقال: إنّا لا نرضى لعبيدنا أن يفعلوا هذا معنا، فكيف نكلّفه قومًا أحرارًا لا إحسان لنا عليهم؟ ومنعهم من المشي في ركابه، فكأنما عناه أبو تمام حبيب بقوله(٣): [الكامل]

متبذّلٌ في القوم وهو مبجّل متواضع في الحيّ وهو معظّمُ

وقال الحسن: أربعةٌ لا ينبغي لشريف أن يأنف منهنّ: قيامه عن مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على فرسه، وخدمته لمن يأخذ من علمه. وقال عبد الله بن مسعود: رأس التواضع أن تبدأ بالسلام مَنْ لقيت، وأنْ تَرْضى بالدُّون من المجلس. وقال عبد الله بن شدّاد: أربعة مَنْ كُنَّ فيه فقد برىء من الكِبَر: مَن اعتقل العنز، وركب الحمار، ولَبِس الصوف، وأجاب دعوة الدُّون مِنَ الرجال.

---

(١) البيتان في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:
فدَتْك أكفّ قوم ما استطاعوا مساعيك التي لا تُستطاعُ
(٢) البيتان لنجم الدّين الغزيّ في نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، للمحبي، ص ٨١٠.
(٣) البيت في ديوان أبي تمّام، من قصيدة مطلعها:
أرضٌ مصرّدةٌ وأخرى تثجم منها التي رُزِقَتْ وأخرى تُحْرَمُ

ومما يدلّ على شرف الأُبوّة إلزام النفس بأنواع المروّة

قال بهرام بن بهرام: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها. وقال بعض البلغاء: المروءة جامعة لأشتات المبرّات، جالبة لأسباب المسرّات، دالّة على كرم الأعراق، باعثة على مكارم الأخلاق، ناظمة لقلائد الفوائد، عاقلة لشوارد المحامد. وقال بعض الحكماء: المروءة سجيّة، جُبِلت عليها النفوس الزكيّة، وشِيمة طُبِعَت عليها الطِّباع الكريمة. وقالوا: أوْلى الناس بالمروّة، مَنْ له نبوّة النبوّة.

وقد جمع الله تعالى متفرّقاتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: الآية ٩٠].

وجمعها النبيّ عليه الصّلاة والسلام على نوع آخر، فقال: «مَنْ عامل الناس فلم يظلمهم، ووعدهم فلم يخلفهم، وحدّثهم فلم يكذّبهم، فهو ممن كَمُلَت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوّته، وحَرُمت غيبته»[(١)].

وجمعها بعضهم على نوعٍ آخر، فقال: بابٌ مفتوح، وخيرٌ مَمْنوح، وسِتْر مرفوع، وطعام موضوع، ونائلٌ مبذول، وكلام معسول، وعفاف معروف، وأذى مكفوف. وجمعها آخر فقال: مروءة الرجل صِدْق لسانه واحتمال عثرات إخوانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكفّ الأذى عن جيرانه.

وقال أعرابيّ: والله لولا أنّ المروءة ثقيل محملها شديد مؤنتها ما ترك اللّئام للكرام منها شيئا. وقالوا: المروءة الظاهرة، الثياب الطاهرة؛ كما قال يزيد بن المهلّب لولده: كُنْ أحسن ما تكون في الظاهر حالًا، أقلّ ما تكون في الباطن مآلًا. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويكره البؤس والتباؤس»[(٢)]. وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: إنّ الله جميل يحبّ الجمال. وقالوا: مروءة الرجل أن لا يلبس ثوب شُهرة؛ كما قال بعض الظرفاء: كُلْ ما اشتهت نفسك، والبس ما يلبسه أبناء جنسك، ولقد أحسن بعض الشعراء حيث نظم هذه الكلمات يخاطب بها إنسانًا لبس ثوب شُهرة، فقال[(٣)]:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان، ٢/ ٣٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ٢٨١٩، وأحمد في المسند ٢/٢١٣، والحاكم في المستدرك ٤/١٣٥.

(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ١١٧٧.

[الكامل]

إنّ العيون رَمَتْك إذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباسُ
أمّا الطعام فكُلْ لنفسك ما اشتهت واجعل لباسك ما اشتهاه الناسُ

وقالوا: التعرّي البارح خير من الزيّ الفاضح. وقال عبد الملك بن صالح: ليس من لباس السادات ذوي المروّات ذوات الألوان، فإنها من لباس الغلمان والنسوان. قال الشاعر(١): [السريع]

قل للذي يخرج عن شكله ليرتقي أسباب أوعارِ
كيف ترجى أن تَنال العُلا ولم تُبالِ الدهر مِن عارِ
مَنْ فارق المعهود من زيّه فذاك لا كاسٍ ولا عارِ

ورأى إنسان على أبي طاهر الخبزأرزي ثوبًا حسنًا فلامه في ذلك وعنّفه، فأنشد(٢): [الطويل]

عليّ ثياب فوق قيمتها فلس وفيهنّ نفس دون قيمتها الإنسُ
فثوبك صبح تحت أذياله دجى وثوبي ليل تحت أذياله شمسُ

فكلّ من افتخر بمجده من الأكارم ومدح أسماله، ورأى اكتساءه حُلَل المكارم أنمى لقدره وأسمى له اقتدى بالعتابي في هذا المذهب، وتختّم بفصّه المذهّب، وذلك أنه دخل على يحيىٰ بن خالد في سمل، وكان لا يبالي ما لبس فعابه عليه، فقال: يا أبا عليّ خزى الله مَنْ يرفعه هيّناه: جماله وماله، حتى يرفعه أكبراه: همّته ونفسه، وأصغراه قلبه ولسانه. قال شاعر في المعنى الذي نحاه(٣): [الكامل]

لا تنظرنّ إلى الثياب فإنّني خلق الثياب من المروءة كاسي

وقال أبو عفّان وأجاد في النحو الذي أراد(٤): [البسيط]

تعجّبت درّ من شيبي فقلت لها
لا تعجبي قد يلوح الفجر في السّدفِ

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيت بلا نسبة في بهجة المجالس، ص ١١٨٢.
(٤) البيتان بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلاني الزوزني، ص ١٥.

وزادها عـجـبًـا إذ رحـت فـي سـمـل
ومـا درت درّ أن الـدرّ فـي الـصَّـدفِ

ولآخر في المعنى[١]: [البسيط]

يـا هـذه كـم يـكـون الـلّوم والـفـنـدُ لا تُـنْـكـري رجـلًا أثـوابـه قـددُ
إن يمس منفردًا فالسيف منفرد والـلّيـث مـنـفـرد والـبـدر مـنـفـردُ
أو كنت أنكرت طمريه وقد خلقا فـالـبحر من فوقه الأقـذاء والـزَّبدُ
إن كـان صـرف الـلّيـالي درّ بزغـتـه فـبـيـن طـمـريـه مـنـه ضـيـغـم لـبـدُ

ومن المروءة التطيّب، فإنه ورد عن مكحول أنه قال: مَنْ نظّف نفسه قلّ همّه، ومن طاب ريحه زاد عقله، ومَنْ جمع بينهما ظهرت مروءته. وقيل: مِنَ الظرف والكرم الاستقصاء في التبخّر. وكان ﷺ يُعْرف خروجه من منزله برائحة المِسك، وكان إذا سلك طريقًا عَرَف السائل عنه أين يمّم لطيب ريحه. وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا اجتاز في طريق قال الناس: لطيمة مسك أو ابن عباس؛ لطيب ريحه. قال الشاعر[٢]: [الكامل]

ويـفـوح مـسـكًـا طـيـب ريـح ثـيـابـه وكـذاك ريـح الـمـاجـد الـوهّـابِ

الفصل الثالث من الباب الأول

في ذم التخلّق بالإحسان إذا لم يوافق القلب اللّسان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: الآيتان ٢، ٣]. وقال رسول الله ﷺ: «إنّ ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا»[٣]. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: مَنْ تخلّق بما ليس من خُلُقه، فهو منافق. وقال ابن مسعود: مَنْ كان كلامه لا يوافق فعله، فإنّما يوبّخ بذلك نفسه. وقيل: ما الدخان بأدلّ على النار من ظاهر الرجل على

(١) الأبيات لجذل بن أشمط العبدي في التذكرة السّعدية، للعبيدي، ص ٦٣.
(٢) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٣٥٨٠.
(٣) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب، باب ٥٢، وأبو داود في الأدب باب ٣٤، والترمذي في البرّ باب ٧٨، والدارمي في الرّقاق باب ٥١، ٥٢.

باطنه. وقال زهير بن أبي سلمى[١]: [الطويل]

ومهما تكن عند امرء من خليقة ... وإنْ خالَها تُخفى على الناس تُعْلمِ

وقال آخر[٢]: [البسيط]

كل امرىء راجع يومًا لشيمته ... وإن تخلَّق أخلاقًا إلى حينِ

وقال بعض الحكماء لتلميذٍ له: يا مَنْ باطنه منظورًا لحقّ، وظاهره منظورٌ لخلق، حسِّن ما شِئْت لما شئت. وقالوا: ما أقبح بالإنسان أن يقول ما لا يفعل، وما أحسن الفعل ابتداء قبل القول، فإنّ مَنْ مات محمودًا أحسن حالًا ممّن عاش مذمومًا. وقال أكثم بن صيفي: فَضْل القول على الفعل دناءة، وفضل الفعل على القول مكرمة. ويقال: أحسن المقال ما صُدِّق بحُسْن الفِعال. وكان رجل يُكثر الثناء على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه بلسان لا يوافقه القلب، فقال له رضي الله عنه يومًا وقد ألحّ عليه في الثناء: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك؛ فانظر إلى هذه الفراسة المفترسة لحبّات القلوب، المكشوف لها الغطاء عن خفيّات الغيوب. وقال بعض الحكماء: لأن يكون لي نصف لسان ونصف وجه على ما فيهما من قبح المنظر وسوء المخبر أحبّ إليّ مِنْ أن أكون ذا وجهين، وذا لسانين، وذا قولين مختلفين. وقال أرسطوطاليس: وجهك مرآة قلبك، فإنه يظهر على الوجوه ما تُضمِره القلوب. وقالوا: العيون طلائع القلوب، وقد أولع الشعراء بنضم هذا المعنى كثيرًا؛ فمن ذلك قول بعضهم[٣]: [البسيط]

إنّ العيون لتُبْدي في نواظرها ... ما في القلوب من البغضاء والإحنِ

وقال آخر[٤]: [البسيط]

تُريك أعينهم ما في صدورهم ... إن الصدور يؤدّي سرّها النظرُ

---

(١) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٢، من قصيدة مطلعها:

أمِنْ أمّ أوفى دمنة لم تكلّم ... بحومانة الدرّاج فالمتثلّمِ

(٢) البيت لخفاف بن ندبة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

يا من لقلب شديدِ الهمّ محزونِ ... أمسى تذكّر ريّا أمّ هارونِ

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

(٤) البيت لم أجده.

آخر[١]: [البسيط]

عيناك قد دلّتا عينيّ منك على ... أشياء لولاهما ما كنت أدريها
تظلّ في نفسك البغضاء كامنةً ... والقلب يُضمِرها والعين تُبْدِيها
والعين تعرف مِنْ عيني مُحَدِّثها ... إن كان مِنْ حزبها أو مِنْ أعاديها

ويقال: العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئًا في السرّ فضحه في العلانية. وقالوا: حقيقة النفاق اختلاف السرّ والعلن، واختلاف القول والعمل. وقال أبو سعيد الجرجانيّ: لا ينبغي أن يكون حُسْن القول تمهيدًا لقُبْح الفعل. لام الشعبيّ واسمه عامر بن شراحيل عبد العزيز بن مروان على تقصيرٍ في الخطبة لمّا كان عاملًا على مصر، وتَرْكه استعمال البلاغة مع القدرة عليها، فقال: إني لأستحيي من الله أن أقول بلساني على منبري خلاف ما أعلمه من قلبي. وكتب رجل إلى صديق له: أمّا بعد، فعِظِ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك. وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصّلاة والسّلام: يا عيسى عِظْ نفسك، فإنِ اتّعظت فعِظِ الناس.

وممّا يعاب من خلال الإنسان
أن يكون بديع مقال اللّسان بعيد مجال الإحسان

قال عليه الصّلاة والسّلام: «ليس الملق من أخلاق المؤمنين»[٢]. ابن المعتز: مَنْ كَثُر ملقه لم يُعْرف بِشْره. ذمّ أعرابيّ قومًا، فقال: قلوبهم أمرّ من الدّفلى، وألسنتهم من العسل أحلى. وقال الشاعر[٣]: [الطويل]

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكنّ حُسْن القول خالفه الفِعْلُ

(١) البيتان الثاني والثالث بلا نسبة في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١٣١٢، ورواية البيت الثاني فيه:

يا صاح في قلبه البغضاء راكدةٌ ... فالنفس تكتمها والعينُ تُبْديها

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يديّ.

(٣) البيت لعبد الله بن همام السلولي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أفاطم قد طال التدلّ والمطلُ ... أجدّك لا صرمٌ جليٌّ ولا وصلُ

وقال ابن جبير[١]: [البسيط]

الناس شبه ظروف حشوها صبر وفوق أفواهها شيءٌ مِنَ العسلِ
تحو لذائقها حتى إذا انكشفت له تَبيَّن ما تحويه من زَغَلِ

وقالوا: فلان يُبْدي وجه المطابق الموافق، ويُخْفي نظر المسارق المنافق. قال شاعر[٢]: [البسيط]

يا أيها المتحلّي غير شيمته ومن شمائله التبديل والملقُ
ارجع إلى خلقك المعروف دَيْدنه إنّ التخلّق يأتي دونه الخلقُ

وقالوا: شرّ الناس مَنْ هو في الظاهر صديق موافق، وفي الباطن عدوّ منافق. قال شاعر[٣]: [الطويل]

لعمرك ما ودّ اللّسان بنافع إذا لم يكن أصل المودّة في القلبِ

وقال رجل لعليّ رضي الله تعالى عنه: علّمني السلام على الإخوان، فقال: لا تبلغ بهم النفاق، ولا تقصر بهم عن الاستحقاق. ولقد صدق صالح بن عبد القدّوس في قوله[٤]: [الطويل]

وأكثر من تلقى يسرّك قوله ولكن قليل من يسرّك فعلُه
وقد كان حُسْن الظنّ بعض مذاهبي فأدّبني هذا الزمان وأهلُه

وقال آخر وبالغ في الذمّ[٥]: [الطويل]

لم يَبْقَ في الناس إلا المَكْر والمَلَق شوك إذا اختبر وأزهر إذا رمقوا
فإن دعاك إلى ائتلافهم قدر فكُنْ جحيمًا لعلّ الشوك يحترقُ

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان للعرجي في العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي، ص ١٤٠١.
(٣) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ ص ٣٠٣، ورواية العجز فيه:
إذا لم يكن أصل المودّة في الصدرِ
(٤) البيتان في ديوان صالح بن عبد القدّوس، وهما بيتان منفردان.
(٥) البيتان للإمام الشافعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

آخر[١]: [مجزوء الكامل]

خلّ النفاق لأهله وعليك فانتهج الطَّريقا
واذهب بنفسك لن ترى إلا عدوّاً أو صديقا

آخر[٢]: [المتقارب]

يُرِيك النصيحة عند اللُّقا ويُبْرِيك في السرّ بري القلمْ
فبتّ حبالك مَنْ وصله ولا تكثرنْ عليه النَّدمْ

ومما يلحق بهذا أنّ عمل الرياء سالب عن صاحبه جلباب الحياء

الرّياء من الكبائر، وأخبث السرائر، شهدت بمقته الآيات والآثار، وتواردت بذمّه القصص والأخبار. قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله لا يقبل عملًا فيه مثقال ذرّة من رياء»[٣]. وأمّا الحياء: فهو من ثلاثة أوجه: مِن الله، ومِن الناس، وحياء المرء من نفسه فإنه من استحيا من الله ولم يستحي من الناس فقد استهان بالناس، ومن استحيا من الناس ولم يستحيي من الله فقد استهان بالله، ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فليس لنفسه عنده قدر، وويلٌ لمن أرضى الله بلسانه وأسخطه بقلبه. وكان أبو مسلم الخولانيّ يقول: ما علمت منذ كذا وكذا سنة عملًا أبالي أن يراه الناس إلا حاجة الرجل إلى أهله، وحاجته إلى الخلاء. وقال الحسن البصري: لأن تطلب الدنيا بأقبح ما تطلب به أحبّ من أن تطلبها بأحسن ما تطلب به الآخرة. وقال الفتح بن خاقان: كنت يومًا أُلاعب المتوكّل بالنَّرْد، فاستُؤْذن لأحمد بن أبي دؤاد فأذن له، فلما قرب منا هممت برفعها، فمنعنى المتوكّل وقال: كيف أُجاهر الله بشيء وأستره عن عباده. وكان الشّبلي إذا رأى من يدّعي التصوّف يقول: ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب، وقد خاب مَنِ افترى. وقال شاعر يذمّ المُرائين منهم[٤]: [السريع]

قد لبس الصوف لترك الصَّفا مشايخ العصر لشرب العصير
الرقص والتنهاد من شأنهم شرّ طويل تحت ذيل قصير

(١) البيتان لإبراهيم بن العباس في المذاكرة في ألقاب الشعراء، للنشابي الإربلي، ص ٢٨١.
(٢) البيت الأوّل بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ١٥٧.
(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٦٣، بلفظ: «لا يقبل الله عملاً فيه مثقال ذرّة من رياء».
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر(١): [مجزوء الرمل]

أظهروا للناس نُسْكًا وعلى المنقوش داروا
وله صاموا وصلّوا وله حجّوا وزاروا
إن يكن فوق الثُّريَّا ولهم ريش لطاروا

ولآخر يحضّ على الاعتزال عن هؤلاء(٢): [مجزوء الكامل]

لا تصحبنّ عصابةً حلقوا الشوارب للطمعْ
يبكوا وجلّ بكائهم ما للفريسة لا تقعْ

قال ثابت البناني: دخلت على داود الطائي، فقال لي: ما حاجتك؟ قلت: زيارتك، قال: ومن أنا حتى أُزار، ليس من العباد أنا لا والله ولا من الزهّاد أنا لا والله، ثم ضرب بيده على لحيته وأقبل على نفسه يوبّخها، وقال: كنت في زمن الشباب فاسقًا ثم تبت فصرت مُرائيًا، والله إنّ المُرائي لشرّ من الفاسق. ويقال: كان الناس يراؤون يفعلون لا بما يقولون، فصاروا يراؤون بما يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا يراؤون بما لا يقولون ولا يفعلون. ذمّ البديع الهمدانيّ قاضيًا بالرّياء، فقال: قد بيّض لحيته بسواد صحيفته، وأظهر ورعه ليُخْفي طمعه، وقصر سباله ليظهر سرباله، وتغشى محرابه ليغطّي حرابه، يبرز في ظاهر أهل السّمت، وهو في باطن أهل الصمت. شاعر(٣): [الوافر]

تصنّع كي يقال له أمين وما معنى تصنّعه الأمانَهْ
ولم يرد الإله به ولكن أراد به طريقًا للخيانَهْ

آخر(٤): [الكامل]

ودع التّواضع فاللّباس مجونًا فالله يعلم ما تكنّ وتكتمُ
فرثاث ثوبك لا يزيدك رفعة عند الإله وأنت عاصٍ مجرمُ

---

(١) الأبيات لمحمود الورّاق في ديوانه، من قصيدة مِنْ أربعة أبيات هذه مطلعها، والبيت الرابع:
وله قاموا وقالوا وله حلّوا وساروا
(٢) البيتان بلا نسبة في أمالي ابن الشجري ص ٢٠٩٩، ومحاضرات الأُدباء، للراغب الأصبهاني ص ٣٧١٧.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان لم أجدهما.

ويقال: أربعة لا يعتدّ بهنّ: زهدًا لخصيّ، وتوبةً لجنديّ، وشكوى المرأة، وتقوى الأحداث. صلّى رجل صلاة خفيفة، فقيل له: أقصرت الصلاة؟ قال: لا بل هي صلاة ليس فيها رياء. نظر أبا أُمامة الباهليّ رجل في المسجد وهو ساجد يبكي، فقال: نِعْم الرجل أنت لو كان هذا في بيتك(١).

ومن ظرف الحكايات وتُحَف الفكاهات

عمَّن كان له من الرياء غرّة فاضحة ومن عدم الحياء سِمَة لائحة

وفد على عمر بن عبد العزيز بلال بن أبي بردة، فجعل يصلّي ويطيل الصّلاة، فقال عمر للعلاء: ترى ذلك تصنّعًا؟ فقال العلاء: أنا آتيك بخبره يا أمير المؤمنين، فأتى إلى داره بين العشاءين فوجده يصلّي، فقال له: خفّف فإنَّ لي إليك حاجة، فخفّف وسلّم وقال: ما الحاجة؟ فقال له العلاء: تعرف محلّي مِنْ أمير المؤمنين، فإن أنا أشرت بك عليه في ولاية العراق، فما تجعل لي؟ قال: لك عليّ عمالتَيْ سنة، وكان مبلغ ذلك عشرين ألف درهم، فسأله العلاء أن يكتب له بذلك شرطًا على نفسه، فكتب له، فأتى العلاء بالشرط إلى عمر، فقال: إنه غرّنا بالله فكدنا نغترّ، وكدنا نظنّه ذهبًا، فلما سبكناه وجدناه خبثًا.

وأُدخل على المنصور رجل أراد أن يوليه قضاء ناحية من العراق قد جعل السجود بين عينيه كركبة الجمل، فقال له المنصور: إن كنت أردت الله بهذا، فما ينبغي لنا أن نشغلك عنه، وإن كنت أردتنا فما ينبغي لنا أن ننخدع لك، ولم يولّه شيئاً. مرَّ بعض المُرائين بابن مزداد وهو جالس على باب داره وبين عينيّ الرجل سجادة عظيمة، وكان ابن مزداد شيخًا ابن ثمانين ومقعدًا من ثلاثين سنة، فقال: امرأتي طالق إن كان في إستي من القعود ما في جبهة هذا من السجود.

وضع بعض المُرائين بين عينيه سجادة ودلكها بنواة وشدَّ عليها ثومًا وبات بها، فزاغت العصابة عن مكانها وصارت في ناحية صدغه، فاتّسم فقيل لولده: كيف أصبح أبوك؟ قال: أصبح ممن يعبد الله على حرف. وقال ظريف من الشعراء

(١) كذا الخبر بالأصل، جعل الكاتب أبا أمامة الباهلي مفعول به منصوب، والرجل فاعل مرفوع، وبهذا يكون القائل الرجلُ لأبي أُمامة الباهلي. ولعلّ السّياق الصحيح للجملة هكذا: نظر أبو أُمامة الباهلي رجلاً في المسجد وهو ساجد يبكي، فقال: نِعْمَ الرجل أنت لو كان هذا في بيتك.

لمراءٍ يتهكّم به في معرض الوصيّة[١]: [الكامل]

شمّر ثيابك واستعدّ لقابل واحكُكْ جبينك للقاء بثومِ
وامشِ الدّبيب إذا مشيت لحاجة حتى تصيب وديعة ليتيمِ

وبلغ الرشيد قول أبي نوّاس[٢]: [البسيط]

يا أحمد المرتجى في كلّ نائبةٍ قُمْ سيدي نعص جبار السمٰواتِ

وقوله[٣]: [الطويل]

ألا فاسْقِني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ

وقوله[٤]: [البسيط]

ما جاءنا أحد مُذْ مات يُخبرنا في جنّة جسمه قد كان أو نارِ

فقال: هذا كلام زنديق، وأمر الفضل بن الربيع بحبسه فحبسه وتناساه زمانًا، فأظهر التوبة، وكتب إلى الفضل من الحبس بهذه الأبيات[٥]: [الخفيف]

فارعوى باطلي وأقصر جهلي وتبذّلت عفّة وزهادَةْ
بركوع أزيّنه بخشوع واصفرار مثل اصفرار الجرادَةْ
لو تراني شبّهتني الحسن البصـ ـريّ في حال نسكه أو قتادَةْ
التسابيح في ذراعي والمصـ ـحف في لبّتي مكان القلادَةْ
فإذ شئت أن ترى ظرفة تعـ ـجب منها مليحة مستجادَةْ
فادع بي لا عدمت تقويم مثلي وتأمّل بعينك السجادَةْ

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٢) البيت في ديوان أبي نوّاس، من قصيدة مطلعها:
لا أستزيد حبيبي من مواتاتي وإن عُنفتُ عليه في الشّكاياتِ
(٣) البيت في ديوان أبي نواس، وهو مطلع القصيدة.
(٤) البيت في ديوان أبي نواس، برواية:
ما جاءني أحدٌ يخبر أنّه في جنّةٍ مُذ مات أو في نارِ
ومطلع القصيدة:
ومليحة بالعذلِ تحسبُ أنّني للعذل أترك صحبة الشطّارِ
(٥) الأبيات في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:
أنت يابن الربيع ألزمتني النسـ ـك وعوّدتنيه والخير عادَةْ

تـرء أثـرًا مـن الـصـلاة بـوجـهـي تُـوقِـن الـنـفـس أنـهـا مـن عـبـادَهْ
لـو رآهـا بـعـض الـمُـرائـيـن يـومًـا لاشـتـراهـا يـعـدّهـا لـلـشـهـادَهْ
ولـقـد طـال مـا شـقـيـت ولـكـن أدركـتـنـي عـلـى يـديـك الـسـعـادَهْ

فلما وصلت الأبيات إلى الفضل ضحك منها وكلّم فيه الأمين فأطلقه، ولمّا أُطلق من حبسه كتب إلى الفضل يشكره على جميل فعله.

الباب الثاني

في اللؤم

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذمّ مَنْ ليس له خلاق وما اتّصف به من الأخلاق

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: الآيات ١١ - ١٣]، هذه النقائص كلّها يجمعها سوء الخلق. وقيل: إنّ سوء الخلق شؤم يجذب صاحبه في الدنيا إلى العار، وفي الآخرة إلى النار. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن الشُّؤم، فقال: «الشؤم سوء الخلق»[1]. وقال عمر بن الخطاب: إذا كان في الإنسان عشر خصال تسعة منها صالحة وواحدة هي سوء الخلق أفسدت هذه الخصلة تلك التّسعة. شاعر[2]: [الطويل]

وكم مِنْ فتى أزرى به سوء خلقه   فأصبح مذمومًا قليل المحامدِ

وقالوا: مَنْ ساءت أخلاقه، طاب فراقه. وقالوا: سوء الخلق يدلّ على خبث الطبع ولؤم العنصر، ويكاد سيّء الخلق أن يُعَدّ من البهائم. وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الخلق السيّء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[3]. ورُوِيَ عنه ﷺ أنّه قال: «إنّ سوء الخلق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه، والزمام في يد شيطان يجرّه إلى النار»[4]، أخرجه البيهقيّ في شعب

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٨٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٤١٣، والسيوطي في الدرّ المنثور ٢/ ٧٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١٠٣.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ٢/ ٧٣، وابن كثير في تفسيره ٦/ ٣٤٨.

(٤) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ٢/ ٧٣، بلفظ: «إن سوء الخلق يفسد العمل كما يُفسد الخلّ=

الإيمان. وقالوا: فلان له خلق خلق، وشأن شائن، وشيمة مشؤومة، وخيم وخيم، وطبع طبيع.

فمن مساوىء أخلاقهم الذَّميمة نقل الأقدام بالسعاية والنميمة

قالوا: النّميمة من الخِصال الذّميمة، تدلّ على نفسٍ سقيمة، وطبيعة لئيمة مشغوفة بهَتْك الأستار، وإفشاء الأسرار. وقال بعض الحكماء: الأشرار يتبعون مساوىء الناس ويتركون محاسنهم، كما يتبع الذباب المواضع الألمة من الجسد ويترك الصحيحة. وقالوا: لم يَمْشِ ماشٍ شرّ من واشٍ، والساعي بالنّميمة يهلك نفسه، ومَنْ سعى به ومَنْ سعى إليه، كما حُكِي أنّ عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان العتبيّ رأى رجلًا يسعى برجلٍ عند صديقٍ له، فقال له: نزّه سمعك عن استماع الخنى، كما تُنَزّه لسانك عن التكلّم به، فإنّ السامع شريك القائل، وإنما نظر شرّ ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردّت كلمة ساعٍ إلى فيه لسعد رادّها كما شقي قائلها، والنمّام شرٌّ مِنَ الساحر، فإنّ النمّام يفسد في الساعة الواحدة ما لا يفسد الساحر في المدّة الطويلة. أتى رجل عبد الله بن عباس وهو والي البصرة من قِبَل عليّ رضي الله عنه بنميمة، فقال له: إن شئت سألنا عمّا جِئْت به، فإن كنت صادقًا مقتناك، وإن كنت كاذبًا عاقبناك، وإن شئت أقلناك؛ فقال: إن شئت أن تفعل فافعل. شاعر(١): [المتقارب]

تَوخَّ مِنَ الطُّرقِ أوساطَها ... وعَدِّ عن الجانبِ المشتبِهْ
وسمعكَ صُنْ عن سماعِ القبيحِ ... كصَوْنِ اللّسانِ عن النُّطقِ بِهْ
فإنّكَ عندَ سماعِ الحديثِ ... شريكٌ لقائلِه فانتبِهْ

وقال أبو الأسود الدُّؤلي(٢): [الكامل]

لا تَقبلنَّ نميمةً بَلَغتْها ... وتحفَّظنَّ من الذي أنبأكها
إنّ الذي ألقى إليكَ نميمةً ... سينمّ عنكَ بمثلِها قد حاكَها

= العسل».

(١) الأبيات لمحمود الورّاق في ديوانه، من قصيدة من أربعة أبيات هذه أوّلها، والبيت الرابع:
فكم أزعج الحرصُ من طالبٍ ... فوافى المنيّة في مطلبِهْ

(٢) البيتان في ديوان أبي الأسود الدّؤلي، من قصيدة مطلعها:
أكْرِمْ صديق أبيك حيث لَقِيته ... وأحبُ الكرامة من بدا فحَباكَها

هذا منظوم قول الناس: مَنْ نمّ لك نمّ عليك. وسعى رجل برجلٍ عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبًا، فأنت داخل تحت تحكم هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: الآية ٦]، وإن كنت صادقًا فأنت من هذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾ [القلم: الآية ١١]، وإن شئت عفونا عنك. وقال بعض الملوك لولده: لِيَكُنْ أبغض رعيّتك إليك أشدّهم كشفًا لمعايب الناس، فإنّ للناس معايب وأنت أحقّ بسترها، وأنت إنما تحكم بما ظهر لك، والله يحكم فيما غاب عنك، واكره للناس ما تكره لنفسك، واسْتُر العورة يستر الله عليك ما تحبّ ستره، ولا تُصْغِ إلى تصديق ساعٍ، فإنَّ الساعي غاشّ، وإن قال قول نصيح. وقال أرسطاطاليس: النميمة تهدي إلى القلوب البغضاء، ومن نقل إليك نقل عنك. وقالوا: أشرّ من النميمة قبولها؛ لأنّ النميمة دالّة والقبولة إجازة، وليس من دلّ على شيء كمن قبله وأجازه. وقال المهديّ: ما الساعي بأعظم عورة، ولا أقبح حالًا من قابل سعايته، ولا يخلو أن يكون الساعي حاسد نعمة، فلا يشفي غيظه أو عدوًا فلا يعاقب له عدوّه لئلّا يشمت به. ولقد أحسن بعض الشعراء الظرفاء في قوله[1]: [الكامل]

لا تسمعنّ مِنَ الحسود مقالة لو كان حقًّا ما يقول لما وشى

وقال آخر يذمّ صديقًا له نمّامًا[2]: [الطويل]

وصاحب سُوء وجهه لِيَ أوجه وفي فمه طبل بسرّي يضربُ
ولا بدّ لي منه فحينًا يغصني وينساغ لي حينًا ووجهي يقطبُ
كماءٍ بدرب الحاجّ في كلّ منهلٍ يذمّ عليّ ما كان منه ويشربُ

وقال السريّ الرفاء يذمّ نمّامًا[3]: [الطويل]

أنمّ بما استودعته من زجاجة يرى الشيء فيها ظاهرًا وهو باطنُ

---

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٢) الأبيات لعبد الله بن المعتزّ في المنتحل، لأبي منصور الثعالبي، ص ٢٥٩.
(٣) البيت في ديوان السريّ الرفّاء، من قصيدة مطلعها:
رأيتك تبري للصديق نوافذًا عدوّك من أوصابها الدّهر آمنُ

وقال ابن وكيع في المعنى[١]: [الوافر]

ينمّ بسرّ مسترعيه لؤمًا ... كما نمّ الظلام بسرّ نارِ
أنمّ مِنَ النصول على مشيبٍ ... ومِنْ صافي الزجاج على عقارِ

ولقد أحسن محمد بن شرف القيرواني في قوله يصف نمّامًا[٢]: [البسيط]

وناصتٍ نحو أفواه الوَرَى أذنًا ... كالقعب يلفظ منها كل ما سقطا
يظلّ بالقول والأخبار مجتهدًا ... حتى إذا ما وعاها زقّ ما لقطا

والنميمة والكذب رضيعا لبان وفي مشوار الدناءة فرسا رهان

قال أبو حيان التوحيدي: الكَذِب شعار خلق، وأدب سيّء، وعادة فاحشة، وقلّ مَن استرسل معه ألا ألفه، وقلّ مَنْ أَلِفَه إلّا أذلّه. وأوصى بعض الحكماء ولده، فقال: إيّاك والكذب، فإنه يُزْري بقائله وإن كان شريفًا في أصله، ويذلّه وإن كان عزيزًا في أهله. وقالوا: ثنتان لا يجتمعان: الكذب والحياء. أرسطاطاليس: فضل الناطق على الأخرس بالنطق، وزين النطق بالصدق. وقال بزرجمهر: الكاذب والميّت سواء، فإنه إذا لم يُوثق بكلامه بطلت حياته. وقال معاوية يومًا للأحنف وقد حدّثه: أتكذب؟ قال: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب شَيْن. وقال بعض الأعراب: عَجِبت من الكذّاب المشيد لكذبه، وإنما هو يدلّ الناس على عيبه ويتعرّض للعقاب من ربّه، فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادّة، إنْ قال حقًا لم يصدّق، وإن أراد خيرًا لم يوفّق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، الدالّ على فضيحته بمقاله، فما صحّ من صدقه نسب إلى غيره، وما صحّ من كذب غيره نسب إليه. ويقال: الكذب جماع النفاق، وعماد مساويء الأخلاق، عار لازم، وذلّ دائم، يخيف صاحبه من نفسه وهو آمن، ويكشف ستر الحسب عن لُؤمه الكامن. قال الشاعر[٣]: [البسيط]

إن النموم أعطى دونه خبري ... وليس لي حيلة في مفتري الكذبِ
لا يكذب المرء إلّا مِنْ مهانته ... أو عادة السُّوء أو مِنْ قلّة الأدبِ

---

(١) البيتان في ديوان ابن وكيع التنيسي، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان في ديوان ابن شرف القيرواني، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، لأبي منصور الثعالبي، ص ٥٩٤.

ويكفي في ذمّ الكذب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾ [النحل: الآية ١٠٥]، وقول رسول الله ﷺ: «إنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنّة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار»[(١)]. وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأنْ يضعني الصدق ـ وقلّما يفعل ـ أحبّ إليّ مِنْ أن يرفعني الكذب ـ وقلّما يفعل. وقيل: لا يجوز أن يكذب الرجل لصلاح نفسه، فإنّ ما عجز الصّدق عن إصلاحه كان الكذب أوْلى بفساده. ولقد صَدَق مَنْ قال[(٢)]: [البسيط]

عَوّد لسانك قولَ الصدق تَحْظَ به ... إنّ اللّسان لما عَوّدت مُعْتادُ
موكل بتقاضي ما سَنَنْتَ له ... في الخير والشرّ فانظر كيف ترتادُ

ويكفي في معرّة الكذب أنّ مَن عُرِف به مُقِت إذا نطق، وكُذّب وإن صدق. قال رجل لأبي حنيفة: ما كذبت قطّ؟ فقال له أبو حنيفة: أمّا هذه فواحدة أشهد عليك بها. وقال الأصمعي لرجل كذاب: أصدقت قطّ؟ قال: نعم، قيل له: عجب! قال: خفت أن أقول لا فأصدّق. وقيل لبعض الحكماء: أيّما أشرّ الكذّاب أو النمّام؟ فقل: الكذّاب؛ لأنه يخلق عليك، والنمّام ينقل عنك. شاعر[(٣)]: [مجزوء الكامل]

لي حيلة فيمن ينمـ ... ـمّ وليس في الكذاب حيلهْ
مَنْ كان يخلق ما يقو ... ل فحيلتي فيه قليلَهْ

ومن ظريف أخبار الكذبة: أنّ رجلًا من آل الحارث بن ظالم، قال: لقد بلغني أنّ الحارث غضب يومًا فانتفخ في ثوبه فبدر من ثوبه أربعة أزار، ففقأت أربعة أعين من عيون جلسائه. شاعر[(٤)]: [الوافر]

حلفت بربّ مكّة والمصلّى ... وأيدِ الواقفين على عكاظِ
لا كذب ما يكون إذا تألّى ... وشدّدها بأيمانٍ غلاظِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٦٩، ومسلم في البرّ حديث ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، وأبو داود في الأدب باب ٨٠.

(٢) البيتان بلا نسبة في لباب الآداب لأسامة بن منقذ، ص ٥٠٠.

(٣) البيتان لمحمود بن مروان بن أبي الجنوب في ربيع الأبرار، للزمخشري ص ٢٣٥٣.

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وآفة الكذب النسيان؛ كذا ورد في النبأ المأثور والخبر المشهور. قال الشاعر(١): [الطويل]

إذا عُرِف الكذّاب بالكذب لم يزل لدى الناس كذّابًا وإنْ كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا ذهن إذا كان حاذقا

ومن مستقبح خلائق اللوم الصراح اللسان البذيء والوجه الوقاح

قال النبيّ ﷺ: «شرّ الناس الذين يُكرَمون اتّقاء لسانهم»(٢). وقال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه: ما استَبّ رجلان إلّا غلب ألأمهما. وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الداء: الخلق الدنيّ، واللّسان البذيّ. وقالوا: اللّئيم بعد الغنى جنّة، والوقاحة جنة، فوجهه صلب، ولسانه خلب. وقالوا: الفاقة خير من الصفاقة. وقال أبو حيّان: إنّ الخصم إذا كان الهوى مركبه، والعناد مطلبه، فلن يفلح معه ولو خرجت اليد بيضاء وانقلبت العصا حيّة. قال بعض الشعراء يهجو معاندًا(٣): [الكامل]

تراه معدًّا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب مُوكلُ

وقالوا: الوقاحة في الرجل تدلّ على لُؤم نجره(٤)، وخَساسة قدره، وقلّة خيره، وكثرة شرّه. وقال الشاعر(٥): [البسيط]

صلابة الوجه لم تغلب على أحد إلا تكمل فيه الشرّ واجتمعا

وقال بعضهم في ذمّه أوقاحًا(٦): [البسيط]

لو أنّ أكفانهم من حرّ أوجههم قاموا إلى الحشر فيها مثل ما رقدوا

---

(١) البيتان لم أجدهما.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٨، والترمذي في البرّ باب ٥٩، بلفظ: «شرّ الناس مَنْ تركه الناس اتّقاء شرّه» أو «فحشه».
(٣) البيت لأمية بن أبي الصّلت في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
غذوتك مولودًا وعلتك يافعًا تعلُّ بما أحني عليك وتنهلُ
(٤) النجر: الأصل.
(٥) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٦) البيت لأبي بكر التميمي في الحماسة المغربية، للجراوي، ص ٧٧١.

ولأبي العبر في مثل ذلك، وأحسن في قوله[١]: [الكامل]

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة ... فأقدَّ منها حافرًا للأشهبِ

أنشدنا ناصر الدين حسن الكنانيّ عُرِف بابن النّقيب لنفسه في أوقاح، فقال[٢]: [الكامل]

تعالى الله خالقها وجوهًا ... فما أخْفَتْ من الحيوان حالا

لقد صلبت وخفت من حياء ... وغيّر خلقها حتى استحالا

وجوه لَيْت لي منها حذاء ... وَلَيْت لبغلتي منها نِعالا

وقال الناجم يهجو[٣]: [الخفيف]

لك عرضٌ مثلّم من قواريـ ... ـرٍ ووجهٌ ململمٌ من حديدِ

ليم بعضهم على الوقاحة، فقال: الوجه ذو الوقاحة مِنَ الوجوه الوقّاحة، يَفِيء على صاحبه الأنفال، ويفتح له الأقفال، ويلقطه الأرطاب، ويلقّمه ما استطاب، ويُجَسّره على قول المنطيق، وييسّر له فِعْل ما لا يطيق؛ ثم أنشد[٤]: [الوافر]

إذا رزق الفتى وجهًا وقاحًا ... تقلّب في الأمور كما يشاءُ

وقال جعفر الصادق: إنّ الله يبغض السبّاب الطعّان المتفحّش. قال الشاعر[٥]: [السريع]

مَنْ لم يكن عنصره طيّبًا ... لم يخرج الطّيّب مِنْ فِيهِ

كلّ امرىء يشبهه فعله ... ويرشح الكوز بما فيهِ

أصل الفتى يُخْفَى ولكنّه ... مِنْ فعله يظهر خافيهِ

---

(١) البيت بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ١٠٧٧.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيت بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ١٠٧٧.
(٤) البيت لعلي بن الجَهْم في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.
(٥) البيتان الأوّلان لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

جماع ما يتخلّق به الأنذال مِنَ الشِّيَم والخِلال

قال بعض الحكماء: أربعة من علامات اللّؤم: إفشاء السرّ، واعتقاد الغدر، وغَيْبة الأحرار، وإساءة الجوار. وسأل عبد الملك بن مروان الحجّاج بن يوسف عن خلقه فتلكّأ، وأبى أن يُخبره، فأقسم عليه أنْ لا بدّ، فقال: حسود كنود لجوج حقود، فقال عبد الملك: ما في إبليس شرّ من هذه الخصال؛ فبلغ ذلك خالد بن صفوان، فقال: لقد انتحل الشرّ بحذافيره، ومرق من جميع خلال الخير بأسره وتأنّق في ذمّ نفسه، وتجرّد في الدّلالة على لُؤم طبعه، وأفرط في إقامة الحجّة على كفره، وخرج مِنَ الخِلال المُوجبة لرضا ربّه. وقال أبو تمام[١]: [الوافر]

مُساوٍ لو قسمن على الغواني   لـما أمـهـرن إلّا بـالـطّـلاقِ

وقال رسول الله ﷺ: «أربعة مَنْ كُنَّ فيه فهو منافق: مَنْ إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا ائتُمِن خان»[٢]. وقالوا: اللّئيم كذوب الوعد، خؤون العهد، قليل الرفد. وقالوا: اللّئيم إذا استغنى بطر، وإذا افتقر قنط، وإنْ قال أفحش، وإن سُئِل بخل، وإن سأل ألْحف، وإن أُسْدِيَ إليه صنيع أخْفاه، وإن اسْتُكْتِم سرًّا أفشاه، فصديقه منه على حذر، وعدوّه منه على غرر.

ومما اخترناه في غدر اللّئام من دُرَر الأهاجي والمذامّ

ذمّ أحمد بن يوسف الكاتب بني سعيد بن مسلم بن قتيبة، فقال: محاسنهم مساوىء السفل، ومساويهم فضائح الأمم، ألسنتهم معقودة بالعيّ، وأيديهم معقولة بالبخل، أعراضه أغراض الذمّ؛ فهم كما قيل[٣]: [البسيط]

لا يكثرون وإن طالت حياتهم   ولا تَبيد مخازيهم وإن بادوا

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

دَعْ ابن الأعمش المسكين يبكي   لـداءٍ ظـلّ مـنـه فـي وثـاقِ

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٤، والمظالم باب ١٧، ومسلم في الإيمان حديث ١٠٦، وأبو داود في السنّة باب ١٥.

(٣) البيت للطرماح في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أخبرت ضبّة تهجوني لأهجوها   ولو حدوا كحداء القَيْن ما عادوا

وذمّ أعرابيّ قومًا، فقال: أولئك قوم سُلِخَتْ أقفاؤهم بالهجاء، ودُبِغَت جلودهم باللُّؤم؛ فلباسهم في الدُّنيا الملامة، وفي الآخرة النَّدامة. وذمّ أعرابيّ قومًا، فقال: أولئك قوم هم أقلّ الناس ذنوبًا إلى أعدائهم، وأكثرهم تجرّيًا على أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويفطرون على الفحشاء. وكان عيسى بن فرخان شاه يتيه على أبي العيناء في حال وزارته، فلما انصرف عنها لقي أبا العيناء في بعض السِّكك، فسلَّم عليه سلامًا خفيًا، فقال أبو العيناء لغلامه: مَنْ هذا؟ قال: أبو موسى، فدنا منه حتى أخذ بعنان بغلته، وقال: لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كنت أخطأت فيك النعمة لقد أصابت فيك النّقمة، ولَئِن كانت الدُّنيا أبْدت قبائحها بالإقبال عليك لقد أظهرت محاسنها بالإدبار عنك، ولله المِنَّة إذ أغنانا عن الكَذِب عليك ونزَّهنا عن القول الزور فيك، فقد والله أسأت حمل النعمة وما شكرت حقّ المُنعم، ثم أطلق يده من عنانه ورجع إلى مكانه، فقيل له: يا أبا عبد الله لقد بالغت في السبّ، فما كان الذَّنب؟ فقال: سألته حاجة أقلّ من قيمته، فردَّني عنها بأقبح مِنْ خلقته. قال بعض الأعراب: نزلت بذاك الوادي فإذا ثياب أحرار على أجسام عبيد، إقبال حظّهم إدبار حظّ الكرام. أخذ هذا المعنى شاعر، فقال(١): [الوافر]

أرى حللًا تُصان على رجال وأعراضًا تُذال ولا تُصانُ
يقولون الزَّمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزَّمانُ

وسُئِل بعض البلغاء عن رجلٍ، فقال: هو صغير القدر، قصير الشرّ، ضيّق الصدر، لئيم النجر، عظيم الكبر، كثير الفخر. وسُئِل آخر عن رجل، فقال: لو قذف على الليل لُؤمه، لانْطَمست منه نجومه. وسُئِل آخر عن رجلٍ، فقال: يكاد يُعدّي بلؤمه، كلّ من تسمّى باسمه. وقال حجاج بن هارون: والله ما له في الشرف أسباب متان، ولا في الخير عادات حِسان. وذمّ أعرابيّ رجلًا فقال: هو عبد البدن، حرّ الثياب، عظيم الرّواق، صغير الأخلاق، الدهر يرفعه، وهِمّته تضعه. وذمّ آخر رجلًا فقال: أمّا الوجه فدميم، وأمّا الخُلق فذميم، وأمّا الخيم فوخيم، أمّا العرض فزنيم، أمّا الحسب فلئيم. وقال الجاحظ: فلان لا تنجع فيه الرقى، ولا

(١) البيتان بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٤٤.

تنفذ فيه الحِيَل، ولا يهزّه المدح، ولا يُحْزنه الذمّ، ولا يُخْجله التقريع، ولا يذلّه التوبيخ، ولا يرحم المظلوم، فإن استرحمته ازداد غلظةً، ولا يرقّ لفقير، وإن تعرّض له قتله جوعًا. وقال آخر: فلان غثّ في دينه، قذر في دنياه، رثٌّ في مروءته، سمجٌ في هيئته، منقطعٌ إلى نفسه، راضٍ عن عقله، بخيل بما وسّع الله عليه، كتوم لما آتاه الله من فضله، حلّاف لجوج إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف، لا ينصف الأصاغر، ولا يعرف حقّ الأكابر. وأنشد لابن قادوس[١]: [البسيط]

تأنّست بذميم الفعل طلعته ... تأنس المقلة الرمداء بالظلمِ

وقالوا: فلان كالشجرة التي قلّ ورقها، وكثر شوكها، وصَعُب مُرْتقاها.

قال الشاعر يهجو قومًا لِئامًا[٢]: [البسيط]

هم الكُشُوث فلا أصلٌ ولا ثمر ... ولا نسيم ولا ظلٌ ولا ورقُ
جفوا من اللُؤم حتى لو أصابهم ... ضوء السُهى في ظلام الليل لاحترقوا
لو صافحوا المُزن ما ابتلّت أناملهم ... ولو يخوضون بحر الصّين ما غرقوا

ومن محاسن التلفيق في الذمّ: فلان له كَيْد مخنّث، وحسد نائحة، وشره قوّاد، وذلّ قابلة، وملق داية، وبخل كلب، وحرص نبّاش، ونَتن جورب، ووحشة قرد.

قال ابن حجاج في مثل ذلك[٣]: [المنسرح]

نسيم حش وريح مقعدة ... ونفث أفعى ونتن مصلوبِ

وله يهجو[٤]: [الخفيف]

نعمة الله لا تُعاب ولكن ... ربما استقبحت على أقوامِ
لا يليق الغني بوجه أبي يعـ ... ـلى ولا نور بهجة الإسلامِ
وسخ الثوب والعمامة والبر ... ذون والوجه والقفا والغلامِ

---

(١) البيت لأبي تمام في نهاية الأرب للنويري، وليس في ديوانه.
(٢) البيت الأوّل بلا نسبة في مجمع الأمثال، للميداني، ص ٨٩٦، في المثل: «أذلّ من فقع بقرقرة».
(٣) البيت في محاضرات الأُدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٠٢٦.
(٤) الأبيات للعطوي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ومن التلفيق: فلان يروغ من الحقّ روغان الثعلب، ويُثمره إلى الأدناس شره الخنزير، ويستسلم إلى عدوّه استسلام الضبع، ويدبّ إلى الشرّ دبيب العقرب، وينام عن الخير نوم الفهد، ويجبن عن القرن جبن العصفور، ويخبط في الجهل خَبْط الناقة. ابن عروس يهجو(١): [الكامل]

كم قال منتقدوك أحمر زائف ماذا أقول وقد عصيت الناقدا
ولقد عرضتك يا زنيم بدرهم فيمن يزيد فما وجدت مزايدا
سافر بطرفك هل ترى لك شاكرًا أو ذاكرًا أو حاسدًا أو حامدا

آخر(٢): [الكامل]

أمّا الهجاء فدق عرضك دونه والمدح فيك كما علمت جليلُ
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عُززت به وأنت ذليلُ

الفصل الثاني من الباب الثاني

في ذكر الفعل والصنيع الدالَّين على لُؤم الوضيع

قال رسول الله ﷺ: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأُولى: إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت»(٣). وقال الشاعر(٤): [الطويل]

إذا لم تَصُنْ عرضًا ولم تَخْشَ خالقًا وتستحي مخلوقًا فما شئت فاصنعِ

وقالوا: فلان لا يستحي من الشرّ، ولا يحبّ أن يكون من أهل الخير، فلو أفلتت كلمة سوء لم تُنْسَب إلّا إليه، وإن رُفِعَت لعنة لما وقعت إلّا عليه. وسُئِل معاوية عن السُّفَلة، فقال: الذي ليس له فعل موصوف، ولا نَسَبٌ معروف؛ كما قال بعض الأعراب وقد سُئِل عن رجلٍ، فقال: عليه كل يوم قسامة من فعله تشهد عليه بلؤم أصله، وشهادات الأفعال أصدق من شهادات الرّجال. وقال بعض

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان لدعبل الخزاعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والأدب باب ٧٨، وأبو داود في الأدب باب ٦، وابن ماجه في الزُّهد باب ١٧، ومالك في السفر حديث ٤٦، وأحمد في المسند ٤/ ١٢١، ١٢٢، ٥/ ٢٧٣.
(٤) البيت بلا نسبة في المستطرف، ص ٧٣٧.

العارفين: أفعال المَرْء شهود لواصفيه. وسُئِل محمد بن الحسن عن السَّفلة، فقال: مَنْ يبخل بقطعه الحجام، ويفعل في الطريق فعل الطغام. وقال الأصمعيّ: السَّفلة مَنْ لا يبالي بما قال أو قيل له. وقال يحيىٰ بن أكثم: السَّفلة الذي لا يعيبه ما صنع. وقال أبو مسلم: ألأم الأعراض عرض لم يرتع فيه مدحٌ ولا ذمّ. وسمع الأحنف رجلًا يقول: لا أُبالي مُدِحْت أو ذُمِمْت؟ فقال: يا هذا استرحت من حيث تعب الكرام.

فمن فعلات من خلع في اللؤم الرسن المكافأة بالقبيح عن الفعل الحسن

مِنْ أمثال العرب في ذلك: أكْفَر من ناشرة؛ وذلك أنّ همام بن مرّة كان قد أخذ ناشرة من أمّه لما مات أبوه وضاقت بتربيته ذرعًا فربّاه وأحسن إليه، فلما بلغ الحلم هجاه هجوًا قبيحًا فنهاه عنه، فتركه حتى نام واغتاله. وحكى الأصمعيّ أنّ أعرابيًا ربّى جرو ذئب وجعل يغذّيه بلبن شاة له حتى كَبُر، فخرج معها يومًا للرّعي كعادته فحرّكته الطبيعة الذِّئبيّة، والنفس الذّئبيّة على افتراس الشاة، فلمّا رأى الأعرابي الشاة فريسة، أنشد[١]: [الوافر]

عقرت شويهتي وفجعت قومي ... بشاتهم وأنت لها ربيبُ
غذيت لبانها ونشأت معها ... فمن أنباك أنّ أباك ذيبُ
إذا كان الطباع طباع سوء ... فليس بنافعٍ أدبُ الأديبُ

وأغار خيثمة بن مالك الجعفي على بني القَيْن فاسْتاق منهم إبلًا فأطلقوا خلفه الأعنّة، فلم يقدروا عليه ولا وصلوا إليه، فنادوه وقالوا له: إن أمامك مفازة ولا ماء معك وقد فعلت جميلًا، فانزل ولك الذمام والخباء فنزل، فلما اطمأنّ وسكن أخذته سنة فنام، فوثبوا عليه وقتلوه.

ومما يستغرب منه ويُستعجب في هذا الباب ويُسْتعذب

لمّا حارب الحجّاج عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث برز من أصحاب عبد الرحمٰن عبد الله بن سواد الحارثي وطلب المبارزة، فبرز إليه بعض أصحاب الحجاج فقتله عبد الله، ثم عاد فطلب المبارزة، فخرج إليه آخر فقتله، ثم عاد

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

فطلب البراز فخرج إليه آخر فقتله، ثم عاد وطلب البراز فقال الحجاج للجراح بن عبد الله الحكمي: اخرج إليه، فخرج فقال له عبد الله وكان صديقًا له: ما أخرجك؟ قال: ابتليت بك، قال: فهل لك في خير؟ قال الجراح: وما هو؟ قال: أنهزم لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنت عنده: وأمّا أنا فأحتمل مقالة الناس في انهزامي حُبًا لسلامتك، فإني لا أحبّ قتل مثلك من قومي، قال: إفعل، فحمل الجراح على عبد الله فاستطرد به عبد الله وتبعه الجرّاح يريد قتله، فصاح بعبد الله غلام له، وكان ناحية عنه وكان معه إداوة، وقال له: يا سيدي إنّ الرجل يريد قتلك، فعطف على الجراح فضربه بعمود على رأسه فصرعه، فقال له: يا جراح بِئْس ما جزيتني به أردت لك العافية وتريد قتلي، انطلق فقد تركتك للصداقة التي بيني وبينك، فشتّان ما بين الفعلين.

قصد أبو بكر الخوارزمي الصاحب بن عباد ومدحه بقصيدة، قال فيها(١): [الطويل]

وما خلقت كفاك إلّا لأربع ... عوائد لم يخلق لهنّ يدانِ
لشكرك أفواه وتنويل نائل ... وتغليب هندي وأخذ عنان

فلمّا بلغ إلى هذا البيت قال له: لم تذكر القلم وهو آلة الكاتب، وبه تقدّم ورأس، فقال قصيدة مدحه بها جاء منها(٢): [مجزوء الرجز]

يدٌ تراها أبدًا ... فوق يد وتحت فمِ
ما خلقت بنانها ... إلّا لسيفٍ وقلمِ

فخلع عليه كل ملبوسه وخلع عليه كلّ مَنْ كان في مجلسه من الثياب موافقة للصاحب، فحصلت له مائة جبّة، فلم يُرْضه ذلك وانصرف، فهجاه بقوله(٣): [البسيط]

لا تحمدنّ ابن عباد ولو مطرت ... كفاه بالجود حتى جازت الدّيما
لكنها خطرات من وساوسه ... يُعْطي ويمنع لا بخلًا ولا كرما

---

(١) البيتان لأبي الضياء الحمصي في يتيمة الدّهر، للثعالبي، ورواية عجز البيت الأوّل فيه:
وما في عباد الله مثلك ثاني

(٢) البيتان لأبي الفيّاض سعد بن أحمد الطبري في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٢٢٧.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

واتّفق إنْ مات الخوارزمي عقب قوله هذه الأبيات، فلمّا بلغ الصّاحب موته قال[١]: [الطويل]

سألت بريدًا من خراسان مُقبِلًا أمات خوارزميكم قال لي نعمْ
فقلت اكتبوا بالجصّ من فوق قبره ألا لعن الرحمٰن من يكفر النّعمْ

ومما يدلّ على خبث نجار اللّئيم الغدر بمن يركن إليه ويستنيم

قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين رفع لكل غادر لواء، وقيل: هذه غدرة فلان»[٢]. وقالوا: مَنْ نقض عهده ومَنَع رفده، فلا خير عنده. وقالوا: العذر يُصْلح في كثيرٍ من المواطن ولا عذر لغادر ولا خائن. شاعر[٣]: [الكامل]

أخلق بمن رضي الخيانة شيمة أنْ لا يرى إلّا صريع حوادثِ
ما زالت الآراء تلحق بؤسها أبدًا بغادر ذمّة أو ناكثِ

وقالوا: الغدر من صغر القدر. ويقال: من تعدّى على جاره، دلَّ على لؤم نجاره. وقال عليّ رضي الله عنه: الوفاء بأهل الغدر غدر، والغدر بأهل الغدر وفاء. ذُكِر أنّ عيسى عليه السلام مرّ بإنسان يطارد حيّة، وهي تقول له: والله لَئِن لم تذهب عنّي لأنفخنّ عليك نفخة أقطعك بها قطعًا، فمضى عيسى وعاد فوجد الحيّة في جؤنة الرجل محبوسة، فقال لها: ويحك أين ما كنت تقولين؟ قالت: يا روح الله إنه حلف لي وغدر وأنَّ سُمّ غدره أقْتَل له من سُمّي. أغرق الناس في الغدر عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معديكرب، فإنّ عبد الرحمٰن غدر بالحجّاج لما ولّاه بلاد خراسان، وادّعى الخلافة وقاتله، وكانت بينهم ثمانون وقعة، وكان آخرها دائرة السوء عليه. وغدر محمد بن الأشعث بأهل طبرستان، وكان عبيد الله ولّاه إيّاها، فصالح أهلها على أنْ لا يدخلها ثم عاد إليهم غادرًا، فأخذوا عليه الشعاب وقتلوا ابنه أبا بكر. وغدر الأشعث بن قيس ببني الحارث بن كعب غزاهم فأسروه، ففدى نفسه بمائتي بعير فأعطاهم مائة وبقيت عليه مائة، فلم

(١) البيتان في ديوان الصاحب بن عباد، وهما بيتان منفردان.
(٢) أخرجه البخاري في الجزية باب ٢٢، والأدب باب ٩٩، والحيل باب ٩، والفتن باب ٢١، ومسلم في الجهاد حديث ٨، ١٠ ـ ١٧.
(٣) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ٢٢٣٨.

يؤدّها لهم حتى جاء الإسلام، فهدم ما كان في الجاهلية. وكان بين قيس بن معديكرب وبين مراد عهد إلى أجل، فغزاهم في آخر يوم من الأجل، وكان يوم الجمعة، فقالوا له: إنّه لا يحلّ لنا أن نُقاتل يوم السبت، فأخَّرهم، فلما كان صبيحة السبت قاتلهم فقتلوه وهزموا جيشه. وغدر معديكرب بمهرة وكان بينه وبينهم عهد إلى أجل، فغزاهم ناقضًا لعهدهم، فقتلوه وفتقوا بطنه وملؤوه بالحصا.

ومما ينزع لباس الحسب والصّيانة رفول[1] المرء في أطمار الخيانة

قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[2]. وقال ﷺ: «لا تزال أُمّتي بخير ما لم تَرَ الأمانة مغنمًا، والصدقة مغرمًا»[3]. ومن الحكايات في هذا الباب ما يُحكى أن شهر بن حَوْشب، وكان من أجلّة القرّاء وأصحاب الحديث دخل على معاوية وبين يديه خرائط قد جُمِعَت لتوضع في بيت المال، فقعد على إحداها ومعاوية يراه، فلما رفعت الخرائط فُقِد مِنْ عددها خريطة، فأعلم الخازن بذلك معاوية، فقال: هي محسوبة لكم ولا تسألوا عن أخذها؛ وفيه يقول الشاعر[4]: [الطويل]

لقد باع شهر دينه بخريطة ... فمن يأمن القرّاء بعدك يا شهرُ

كان للمأمون خادم يسرق طسه الذي يتوضّأ فيه، فقال له يومًا: هلّا إذا سرقت تأتيني بما تسرقه فأشتريه منك، قال: فاشترِ مني هذه، وأشار إلى التي بين يديه، قال: بكم هي؟ قال: بدينارين، قال: على أنْ لا تسرقها، فقال: نعم، فأعطاه دينارين ولم يعد الخادم يسرق شيئًا لِمَا رأى من حلمه عنه. وقال المنصور لعامل بلغه عنه خيانة: يا عدوّ الله وعدوّ أمير المؤمنين وعدوّ المسلمين أكَلْت مال الله وخُنْت خليفة الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين نحن عيال الله وأنت خليفته والمال مال الله، فمن أين نأكل إذًا؟ فضحك منه، وأطلقه وأمر أن لا

(١) رَفَلَ يرفل رفلاً: جرّ ذَيْله وتبختر في سيره.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.
(٣) أخرجه بنحوه الترمذي في الفتن، باب ٣٨.
(٤) البيت للحصين بن حمال في ديوانه، وهو أحد بيتين، والبيت الثاني:

أخذت به شيئًا طفيفًا وبعته ... من ابن جونبوذ إن هذا هو الغدرُ

يولّى عملًا بعدها. سرق رجل في مجلس أنو شروان جام ذهب وهو يراه، لما فقده الشرابيّ قال: والله لا يخرج أحد حتى يُفَتّش؟ فقال أنو شروان: لا تتعرّض لأحد فقد أخذه مَنْ لا يردّه، ورآه مَنْ لا ينمّ عليه. وأودع بعض التجار عند قاضي معرّة النعمان وديعة وغاب عنها مدّة، فلمّا جاء طالبه بها فأنكرها فتشفع إليه برؤساء بلده في ردّها، فلم يزالوا به حتى أقرّ بها وادّعى أنها سُرِقت من حرزه، فاستحلفه فحلف فعمل فيه ابن الدُويرة الشاعر المعرّي أبياتًا منها[١]: [الكامل]

لا يصدق القاضي الخؤون إذا ادّعى ... عدم الوديعة من حصين المودعِ
إن قال قد ضاعت فيصدق أنها ... ضاعت ولكن منك يعني لو تعي
أو قال قد وقعت فيصدق أنها ... وقعت ولكن منه أحسن موقع

وقال ابن حجّاج[٢]: [الوافر]

وأدعوهم إلى القاضي عساهم ... إذا وقع الجحود يحلفوني
وأضيع ما يكون الحقّ عندي ... إذا عزم الغريم على اليمينِ

آخر[٣]: [الطويل]

إذا حلّفوني بالغموس منحتهم ... يمينًا كسحق إلا لحميّ الممزّقِ
وإن أحلفوني بالعتاق فقد دَ ... رَى سحيم غلامي أنه غير معتقِ
وإن أحلفوني بالطلاق رددتها ... على خيرِ ما كانت كأن لم تطلقِ

وقف بعض المجان على قبر سارق، فقال: رحمك الله، فلقد كنت أحمر الإزار حادّ السكين، إن نقبت فجرذ، وإن تسلّقت فسنور، وإن استلبت فحدأة، وإن ضربت فقاض، ولكنك اليوم وقعت في زاوية سوء، وليس كل حبس تُحْبَس فيه إلى التّناد على أموال العباد.

---

(١) الأبيات لابن الدويدة في نهاية الأرب، للنويري، ص ٢٢٤٨.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٣) الأبيات بلا نسبة في اللآلي في شرح أمالي القالي للبكري، ص ٣٠٥.

ومن الصّنيع الدالّ على لؤم الأُصول
مَنْ كان بسيف جوره على العباد يصول

قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[١]. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «أعْتى الناس على الله، وأبغض الناس إلى الله، وأبعد الناس من الله رجلٌ ولّاه الله تعالى من أُمّة محمد شيئًا فلم يعدل فيهم»[٢]. وقال سفيان الثوريّ: لأنْ تَلْقى الله تعالى بسبعين ذنبًا فيما بينك وبينه أهْوَن عليك من أنْ تلقاه بذنبٍ واحد فيما بينك وبين العباد. ويقال: مَنْ طال عدوانه زال سلطانه. وقال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم. ويقال: الظلم يجلب النقم، ويَسْلب النّعم. وقالوا: مَنْ ظُلِم مِنَ الملوك، فقد خرج من كرم الحرية والملك إلى دناءة العبودية والملك. ويقال: ليس شيء أسرع إلى تغيير نعمة وتعجيل نقمة من الإقامة على الظّلم. وفي الخبر: «يقول الله تعالى: اشتدّ غضبي على مَنْ ظلم من لا يجد له ناصرًا غيري»[٣]. وقالت الحكماء: شرّ الملوك الأفّاك السفّاك. وقال أبو منصور الثعالبي: أخْلَق بالملك الظلوم أن يصير غصّة للمُرائين، وعِظَة للرّاوين. وقالوا: الظّلم أسرع إلى تبديل النّعم، وتعجيل النقم من الطيور إلى الأوكار، ومن الماء في الانحدار. وقالوا: سبع خطوم خيرٌ مِن والٍ ظلوم. كان زياد ابن أبيه ممّن استطال بجوره وعسفه في ولايته عراقي البصرة والكوفة، فلما ذلّ له مَنْ فيهما كَبُرت عليه نفسه واستقلّهما لها، فكتب إلى معاوية: إني قد ضبطت العراقَيْن بيميني وبقيت شمالي فارغة، فجمع له معاوية الحجاز واتّصلت ولايته بالمدينة، فاجتمع أهل المدينة في مسجد رسول الله ﷺ، فلاذوا بقبره يسألون الله تعالى الإقالة منه، ورفع عبد الله بن عمر يديه، وقال: اللّهمّ اكفنا شمال زياد كما كفَيْتنا يمينه، فطعن فيها فشاور شريحًا في قطعها، فقال له: رزق مقسوم وأجل معلوم وإني أكره إن كانت لك مدّة أن تعيش أجذم، وإن حمّ أجلك أن تلقى الله مقطوع اليد، فإذا سألك لِمَ قطعتها؟ فتقول: بغضًا للقائك وفرارًا من قضائك،

---

(١) أخرجه مسلم في البرّ حديث ٥٦، ٥٧، والدارمي في السِّيَر، باب ٧٢، وأحمد في المسند ٢/ ٩٢، ١٠٦، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٦، ١٥٩، ١٩١، ١٩٥، ٤٣١، ٣/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٦.

(٣) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور، ١/ ٣٥٣.

فتركها فلمّا خرج شريح من عنده لامه الناس، فقال: إنه قد استشارني، والمستشار مؤتمن، ولولا أمانة المشورة لوددت أن الله قطع يده يومًا ورجله يومًا وسائر أعضائه يومًا يومًا، وزاره شريح بعد ذلك، فلمّا خرج من عنده قال له مسروق: كيف تركت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى، فأوّل قوله: فإذا هو يأمر بالوصية وينهى عن البكاء عليه، ومات من تلك سنة ثلاث وخمسين في رمضان، وكان مولده عام الهجرة ودُفِن في أرض الكوفة، وسنأتي على نتف من مولده ونسبه فيما يلي هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

ومن المفرطين في العسف والعنف يوسف بن عمر الثقفيّ قلّدة هشام بن عبد الملك العراق، وكان شيطانًا مريدًا، وجبّارًا عنيدًا، سفّاكًا للدماء معروفًا بالظلم والغشم، ولمّا قلّده أمره بالقبض على خالد بن عبد الله القسريّ، فسار إليه حتى هجم عليه، وهو في قصره على حين غفلة من أمره، فأخذه ثم رقي المنبر وقال: يا أهل العراق إنّ الحجاج كان دخانًا أنا ناره، ولهبًا أنا شراره، فعليكم بالطاعة العائدة بجزيل الثواب، وإيّاكم والمخالفة المُوجبة لوشك العقاب، وقد أعذر من أنذر، ثم نزل. يُحْكى عنه أنّه دخل دار الضرب، فعاير درهمًا فوجده ناقصًا حبّة فضرب فيها الأُمَناء والصنّاع عشرة آلاف سوط. وكان الفضل بن مروان وزير المعتصم ظالمًا غاشمًا متبجّحًا بالظلم، متجبّرًا متكبّرًا، كان المعتصم يقول: الفضل بن مروان أسخط الله وأرضاني، فسلّطني الله عليه. دخل عليه الهيثم بن فراس الشاعر متظلّمًا من بعض عمّاله، فصرف وجهه عنه ولوى عِطْفه، فخرج من عنده وهو يُنْشد[1]: [الطويل]

تجبّرت يا فضل بن مروان فانتظر ... فقبلك كان الفضل والفضل والفضلُ
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ... أبادهم التغيير والموت والقتلُ
فإن تكُ قد أصبحت في الناس ظالمًا ... ستودى كما أُودي الثلاثة من قبلُ

فلما سمع الفضل أبياته، قال: ما الذي عنى بقوله؟ فقيل: إنه أراد الفضل بن يحيىٰ، والفضل بن سهل، والفضل بن الربيع؛ فتغيّر وجهه ولم يلبث إلّا أيامًا يسيرة حتى قُبِض عليه. وفيه يقول بعض الشعراء من أبيات هي قوافيها على ألفاظ الفضل المتّفقة مبانيها، المختلفة معانيها، ولقد أبدع وأجاد

(١) البيتان الأوّلان في المستطرف، للأبشيهي، ص ٥٠٩.

فيها[١]: [الطويل]

نصحت فأخلصت النصيحة للفضل ... وقلت فبيَّنت المقالة للفضلِ
ألا إن في الفضل بن يحيىٰ لعبرةً ... إنِ اعتبر الفضل بن مروان بالفضلِ
وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر ... إنِ ازدجر الفضل بن مروان بالفضلِ
وللفضل في الفضل بن سهل مواعظ ... إن اتّعظ الفضل بن مروان بالفضلِ
إذا ذكروا يومًا وقد صِرْت رابعًا ... ذكرت بقدر السّعْي منك إلى الفضلِ
فأبق جميلًا من حديث تكونه ... ولا تدع المعروف والأخذ بالفضلِ
فإنك قد أصبحت للناس قائمًا ... وصرت مكان الفضل والفضل والفضلِ

من أبياتٍ كثيرة أتيت منها على ما مسّت الحاجة إليه، ووقع الاختيار عليه.

وقال شاعر في نكبته[٢]: [البسيط]

لا تغبطنّ أخا الدنيا بمقدرة ... فيها وإنْ كان ذا عزٍّ وسلطان
يكفيك من غير الأيام ما صنعت ... حوادث الدّهر بالفضل بن مروان
إنّ الليالي لم تُحسن إلى أحدٍ ... إلّا أساءت إليه بعد إحسان

وصف بعض البُلغاء عاملًا للمأمون، فقال: يا أمير المؤمنين ما ترك فضّة إلّا فضّها، ولا ذهبًا إلّا ذهب به، ولا علقًا إلّا علّقه، ولا ضيعة إلّا أضاعها، ولا غلّة إلّا غلّها، ولا عرضًا إلّا عرض له، ولا ماشية إلّا امتشّها، ولا جليلًا إلّا أجْلاه، ولا دقيقًا إلّا دقّه، ولا رقيقًا إلّا أرقه؛ فضحك منه وصرفه عن أهل ناحيته. ووصف بعضهم عامل ولاية، فقال: والله ما الذّئب في الغنم بالقياس إليه إلّا من المصلحين، ولا السوس في الخرز من الصيف إلّا من العادلين، ولا يزدجرد الأثيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلّا من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولا فرعون في بني إسرائيل إذا قابلته به إلّا من الملائكة المقرّبين. ووصف آخر عامل ولاية، فقال: كان يجبي خراج الوحش، ويأخذ جزية السمك، ويطلب زكاة الملائكة، ويلتمس جمع الريح، ويروم القبض على الماء، وحصر الحصا، وكَيْل الأنهار، وتحصيل الهباء، ولَئِن كانت النّعمة عظمت على قوم خرج عنهم، لقد

(١) الأبيات لدعبل الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها البيت الأول.
(٢) الأبيات بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٥٧٩.

جُلّت المصيبة بقوم نزل فيهم. وذمّ البديع الهمداني قاضيًا ووصفه بالظلم، فقال: قاضٍ لا شاهد عندَه، أعدل من السكر والجام، يدلي بهما إلى الحكّام، ولا وليّ أصدق لديه من الصفر الذي يرقص على الظفر، ولا وثيقة أحبّ إليه من غمزات الخصوم على الكيس المختوم، ولا وكيل أعزّ عليه من المنديل والطبق، في وقتَيْ الفلق والغَسَق، وأقسم لو أنّ اليتيم وقع بين الأُسود، بل الحيّات السُّود، لكانت سلامته منها أيسر من سلامته من أصحابه، ما ظنّك برجل يعادي الله في الغَلَس، ويبيع الدِّين بالثمن البخس، ولصٍّ لا ينقب إلّا خزائن الأوقاف، وكردي لا يغير إلّا على الضّعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلّا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلّا بين العدول والشهود. قيل لبعض الأعراب: أيّما أحبُّ إليك: أن تَلْقى الله ظالمًا أو مظلومًا؟ قال: ظالمًا، قيل له: وَيْحك، ولِمَ؟ قال: ما عذري إذا قال لي خلقتك سويًا قويًا لم تستعد، وأنشد بيت زهير بن أبي سلمى(١): [الطويل]

ومَنْ لا يذُذْ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظْلمِ

ومن معايب من رغب عن المكارم إلقاء الحشمة في ارتكاب المحارم

كما يُحكى أن نصر بن سيّار مرّ بأبي الهندي، وكان شريفًا في قومه وهو يميل سكرًا، فقال له: أفسدت شرفك، فقال أبو الهنديّ: لو لم أفسد شرفي لم تكن أنت والي خراسان. وكان يزيد بن معاوية يلقّب بالسكران لكثرة انهماكه على شرب الخمر ولقُبَ أيضًا يزيد الخمر، بلغه أن المسور بن مخرمة يرميه بشرب الخمر، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يحد المسور حدّ القذف، ففعل، فقال المسور(٢): [الطويل]

أتشربها صرفًا تطنّ دنانها أبا خالد والحدّ يضرب مسورُ

وكان له قردٌ يُكْنى أبا قيس يحضره مجلس شرابه ويطرح له متّكأً ويسقيه فضلة كأسه، واتّخذ له أتانًا وحشية قد ريضت له وذلّلت وصنع لها سرج لجام من

(١) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى، من قصيدة مطلعها:

أمِنْ أمّ أوفى دمنة لم تكلّمِ بحومانة الدّراج فالمتثلّمِ

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ذهب يركبه بهما عليها ويسابق بها الخيل يوم حلبة الرهان، فجاء يومًا سابقًا وتناول القصبة التي هي الغابة ودخل الحجرة قبل مجيء الخيل، وعليه قباء وقلنسوة من الحرير الأحمر، وفيه يقول بعض شعراء الشام[١]: [الطويل]

تمسّك أبا قيس بفضل زمامها فليس عليها إن سقطت ضمانُ
ألا مَنْ رأى القرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين أتانُ

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك ماجنًا زنديقًا مسهزئًا مستخفًّا مستهينًا بالخاصّة والعامّة، مُدْمنًا للخمر متلاهيًا باللَّهْو واللَّعب، مصرًّا على ارتكاب الفواحش، مشتغلًا بخلاعته عن النظر في أُمور المسلمين والقيام بحقوق الخلافة وأمور المملكة وأحوال الرَّعيّة، وفيه يقول القائل[٢]: [الوافر]

مضى الخلفاء بالأمر الحميد وأصبحتِ المذمّة للوليدِ
تشاغل عن رعيّته بلهوٍ وخالف قول ذي الرأي السَّديدِ

ذكر ثقات المؤرّخين أن المؤذّن أذّن يومًا للصلاة وهو في لهوه، فأمر جارية من جواريه الفواسق أن تعتمّ وتتلثّم وتصلّي بالناس، فخرجت على هذه الصفة وصلّت بهم. وبَلَغ من تهكّمه بالشريعة أنه كان يفطر في رمضان والشاهد عليه ما يقال إنه من شعره[٣]: [الوافر]

ألا من مبلّغ الرحمٰن عنّي بأنّي تارك شهر الصيامِ

وقوله[٤]: [السريع]

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكرِ
نشربها صرفًا وممزوجةً بالسّخن والبارد والفاترِ

وحُكي أنه استدعى أشعب الطامع من المدينة وألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب، واقترح عليه صوتًا يرقص به، فلمّا فعل ذلك أعطاه ألف درهم، وقيل: إنه

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٢) البيتان ليزيد بن أبي مساحق السلمي في الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني.
(٣) البيت في ديوان الوليد بن يزيد، وهما بيتان منفردان، والبيت الثاني:
فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعامي
(٤) البيتان في ديوان الوليد بن يزيد، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت الثاني في الديوان:
نشربها صرفًا وممزوجةً بالسخن أحيانًا وبالفاترِ

لمّا دخل عليه أخرج له ذكره منعظًا، وقال له: هل رأيت مثل هذا؟ قال: لا، قال: فاسجد له، فسجد؛ وهو القائل يخاطب المصحف وقد جعله هدفًا حين تفاءل منه، فخرج قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: الآية ١٥][١]: [الوافر]

أتـوعَـد كـلّ جـبـار عـنـيـد ... فـهـا أنـا ذاك جـبّـار عـنـيـدُ
إذا مـا جـئـت ربّـك يـوم حـشـر ... فـقـل يـا ربّ مـزّقـنـي الـولـيـدُ

والسبب في قوله هذا: أنه لمّا رأى حالته قد انحلّ نظامها، ودولته مُدْبرة وقد نفدت أيّامها، فتح المصحف ينظر فيه فألًا، فخرج له: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ [إبراهيم: الآية ١٥] الآية.

ومن قوله يخاطب المصحف فعل من بدّل وحرّف[٢]: [الوافر]

تخوّفني الحساب ولست أدري ... أحقًّا ما تقول مِن الحسابِ
فقل لله يمنعني طعامي ... وقل لله يمنعني شرابي
تلاعب بالنبوّة هاشميّ ... بلا وحي أتاه ولا كتابِ

فمنعه الله طعامه وشرابه، كما أراد في مقاله، وسلّط عليه مَنْ قتله، وهكذا عادة الله في أمثاله، فقُتِل يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الأُولى سنة ستّ وعشرين ومائة بالنجراء، وهو قصر على ستّة أميال من تدمر، وله من العمر اثنتان وأربعون سنة، وقيل: تسع وثلاثون وأشهر، وكانت مدّة خلافته سنة وشهرين وعشرين يومًا، وحُمِل رأسه إلى دمشق وعلّق بها وقُرِن به دفّ وطنبور، ولم يزل أثر الدم على الجدران إلى أن قدمها المأمون سنة خمس عشرة ومائتين، فأمر بحكّه.

وكان والبة بن الحباب مِنَ الخلعاء المستهزئين، وهو الذي ربّى أبا نوّاس وأدّبه يُحْكى عنه أنه كشف يومًا عن فقحته فقبّلها فضرط على لحيه، فقال له: ويلك ما هذا؟ فقال: أمّا سمعت المثل: جزاء مقبل الوجعاء ضرطة، فزاد كلامه عجبًا به.

---

(١) البيتان في ديوان الوليد بن يزيد، وهما بيتان منفردان، ورواية عجز البيت الثاني في الديوان:
فـقـل يـا رب خـرّقـنـي الـولـيـد
(٢) الأبيات في ديوان الوليد بن يزيد، وهي ثلاثة أبيات منفردة، مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

يُحْكى أنّ جماعةً اجتمعوا في مجلس المطيع بن إياس يشربون الخمر، فأقاموا على ذلك ثلاثة أيام، فقال لهم يحيىٰ بن زياد ليلةً وهم سكارى: وَيْحكم ما صلّينا منذ ثلاثة أيام، فقوموا حتى نصلّي، فقام مطيع فأذَّن وقال للقينة: تقدَّمي وصلّي بنا واقرئي في صلاتك(١): [مجزوء الرمل]

علق القلبُ الرَّبابا بعدما شابت وشابا

فتقدَّمت وصلَّت وكانت بلا سراويل وعليها غلالة رقيقة يظهر سائر جسدها منها، فلمّا سجدت انكشف سترها وبدا هنها، فوثب إليه مطيع وقبّله ثم قال(٢): [المتقارب]

ولما بدا هنها جاثمًا كرأسِ حليقٍ ولم يعتمدْ
سجدت عليه فقبّلته كما يفعل العابد المجتهدْ

فقطعوا صلاتهم بالضحك وعادوا لما نُهُوا عنه. ومِنْ أشعارهم قول أبي نوّاس(٣): [مجزوء الرمل]

إنما الدنيا غلامٌ وطعامٌ ومدامْ
فإذا فاتك هذا فعلى الدُّنيا السلامْ

فبُؤسًا لهم، ألم يعلم عاقلهم وجاهلهم بأنّ الله يرى، وأنّ بيده نواصي ما ذرأ وبرأ، ولكن غرّهم الإمهال، حتى ظنّوا أنه إهمال، فبدّلنا الله من سنة الغفلة يقظة الطاعة، وألهمنا من العمل ما نفوز بأجره إلى قيام الساعة، آمين.

ومن خلائق العريق في الوضاعة أخذ النفس بالتكبّر والرقاعة

قال الشافعي: أظلم الناس لنفسه اللّئيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخفّ بالأشراف، وتكبّر على ذوي الفضل. وقال أبو مسلم: ما ضاع إلّا

(١) البيت للوليد بن عقبة في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان في ديوان ابن إياس الكناني، وهما بيتان منفردان، ورواية البيتين في الديوان:

ولمّا بدا فرجها جاثمًا كرأسِ حليق ولم يعتمدْ
سجدت إليه وقبّلته كما يفعل الساجد المجتهدْ

(٣) البيتان ليسا في ديوان أبي نوّاس، وهما لسيف الدين المشدّ في ديوانه، وهما بيتان منفردان. ورواية البيتين في الديوان:

إنما الدنيا مدام وفتاة وغلامْ
فإذا ما عزّ هذا فعلى الدنيا السلامْ

وضيع، ولا فاخر إلّا لقيط، ولا تعصّب إلّا دخيل. وقال عمر: ما وجد أحد في نفسه كبرًا إلّا لمهانة يجدها في نفسه. ويقال: الإعجاب يغطي سائر المحاب، ويكفي في ذمّ الكبر قول الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦]، قال ابن عُيَيْنة: حرَمهم فِهْم القرآن. قال بعض البلغاء: الكبر مِنْ أخبث سرائر القلوب، وأعظم كبائر الذنوب، لا يرى صاحبه أبدًا إلّا فظًا غليظًا، ولا يرى لأحد سواه في الفضل حظًا حظيظًا، وكفى به شيمة مشؤومة، وخلّة مذمومة، أهلكت الأكابر حديثًا وقديمًا، وعاد الكريم من الرجال ذميمًا مليمًا. وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّة مَنْ في قلبه مثقال ذرّة مِنْ كِبَر»[1]. وكان يُقال: مَنْ جَهِل قدر نفسه فهو بقدر غيره أجهل، ومَنْ أنِفَ من عمل نفسه اضطرّ إلى عمل غيره. وقالوا: مَنْ قلّ لبّه، كَثُر عجبه. وقال أزدشير بن بابك: ما الكبر إلّا فضل حمق، لم يدرِ صاحبه أين يضعه فصرفه إلى الكبر. وقال الشاعر[2]: [البسيط]

وقل لمعتصم بالتّيْه من حمق ... لو كنت تعرف ما في التّيه لم تَتُهِ
التّيْه مفسدة للدين منقصةٌ ... للعقل منهكةٌ للعرض فانتبه

آخر[3]: [الطويل]

رأيت الفتى يزداد نقصًا وذلّة ... إذا كان منسوبًا إلى العجب والكبرِ
ومَنْ ظنّ أنّ العجب مِنْ كبر همّة ... فإني رأيت العجب من صغر القدرِ

وأنشد الإمام محيي الدين محمد ـ عُرِف بحامي رأسه ـ النحويّ لنفسه[4]: [الطويل]

ومعتقدٌ أن الرياسة في الكبر ... فأصبح ممقوتًا به وهو لا يدري
يجرّد ذيول الفخر طالب رفعة ... ألا فاعجبوا مِنْ طالب الرفع بالجرّ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧، ١٤٩، وأبو داود حديث ٤٠٩١، والترمذي حديث ١٩٩٨، ١٩٩٩، وابن ماجه حديث ٥٩، ٤١٧٣، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٩، ٤٥١.
(٢) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٦١٧.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان لم أجدهما.

وقال معاوية: إنّ التواضع مع البخل والجهل، أزين بالرجل مِنَ الكبر مع البذل والعقل، فيا لها حسنة غطّت سيئتين كبيرتين، ويا لها من سيّئة غطّت على حسنتين عظيمتين. وقالوا: مَنْ أصاب حظًا مِنْ جاه فأصاره إلى كبر وترفّع أعلم الناس أنه دون تلك المنزلة، ومَنْ أقام على حاله أعلمهم أنّ تلك المنزلة دونه، وأنها دون ما يستحقّ. مرّ المهلب بن أبي صفرة على مطرّف بن عبد الله وهو يتبختر في جبّة خزّ، فقال: يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال المهلّب: أمَا تعرفني؟ فقال له: ومَنْ أنت؟ قال: أنا المهلّب، قال: نعم أعرفك، أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت فيما بين هذا وهذا تحمل العذرة. نظم بعضهم هذه الكلمات، فقال(١): [المنسرح]

عَجِبْت من معجبٌ بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذرَهْ
وفي غدٍ بعد حسن طلعته ... يصير في اللحد جيفة قذرَهْ
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين جنبيه يحمل العذرَهْ

ولآخر(٢): [البسيط]

يا مظهر الكبر إعجابًا بصورته ... انظر خلاك فإنّ البَيْن تثريبُ
لو فكّر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبّان ولا شيبُ
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة ... بأربع هو بالأقذار مضروبُ
أنفٌ يسيل وأذن ريحها سهك ... والعين مرمصة والثغر ملعوبُ
يا ابن التراب ومأكول التراب غدًا ... أقصر فإنك مأكولٌ ومشروبُ

ومن ظريف ما يُذكر مِن أخبار المتكبّرين ما يُحكى أن علقمة بن وائل الحضرميّ قدم على النبيّ ﷺ فيمن وفد عليه من سادات العرب، فأمر رسول الله ﷺ معاوية أن ينطلق به إلى منزل رجل من الأنصار ليُنْزله عنده، وكان منزله بأقصى المدينة، قال معاوية: فخرجت معه وهو راكب ناقته، وأنا أمشي في ساعة قَيْظ يشوي الوجوه وليس لي حذاء، فقلت له: أردفني خلفك، فقال: لست من أرداف الملوك، قلت: إني ابن أبي سفيان، قال: قد سمعت ذلك من رسول الله ﷺ،

(١) الأبيات لابن بسام البغدادي، وهي أبيات منفردة.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

قال: قلت: فألق لي نعليك، قال: لا تقبلان قدميك، ولكن امْشِ في ظلّ ناقتي، فكفاك ذاك شرفًا وأنّ الظلّ لك لكثير، قال معاوية: فما مرّ بي مثل ذلك اليوم قطّ، والله لخلته أنه من جهنم، ثم أدرك سلطاني فلم أواخذه، بل أجلسته معي على سريري هذا.

وحُكِي أن عمارة بن حمزة وكان متكبّرًا جدًّا دخل على المهديّ يومًا، فلما استقرّ به مجلسه قام رجل كان المهدي قد أعدّه ليتهكّم بعمارة، فقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال: مَنْ ظلمك؟ قال: عمارة هذا غصبني ضيعتي، وكانت مِنْ أحسن ضياع عمارة، فقال المهديّ: قم فاجلس مع خصمك، قال: يا أمير المؤمنين ما هو لي بخصم إن كانت الضّيعة له فلست أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له ولا أقوم من مجلس شرّفني به أمير المؤمنين، فلما خرج الرجل وانفضّ المجلس سأل عمارة عن صفة الرجل وما كان لباسه، وأين كان موضع جلوسه؟ فلم يعلم. وكان من تَيْهه أنه إذا أخطأ يمرّ في خطئه تكبّرًا عن الرجوع ويقول: نقض وإبرام في ساعة واحدة الموت أهْوَن منه. وقال ابن عبدوس الجهشياري: كان عمارة أعور دميمًا استعمله المنصور على الخراج وكور دجلة والأهواز وكور فارس، وقلّده المهدي ذلك أيضًا. وكان عبد الدولة بن جهير وزير المستظهر بالله متكبّرًا كثير الكبر يكاد يعدّ كلامه عدًّا، وكان إذا كلّم رجلًا كلامًا يسيرًا هنيء ذلك الرجل بكلامه. ومِنَ الكبر المستبشع والتّيْه المستشنع ما يُحْكى أنّ ثوابة دعا أكارًا فكلّمه، فلمّا فرغ من كلامه دعا بماء وتمضمض به استقذارًا لمخاطبته. وأنشد لبعض المتكبّرين مفتخرًا[1]: [الطويل]

أتيه على جنّ البلاد وأنسها ... ولو لم أجد خلقًا لتهت على نفسي
أتيه فما أدري مِنَ التّيْه مَنْ أنا ... سوى ما يقول الناس فيّ وفي جنسي
فإن زعموا أني من الإنس مثلهم ... فما لي عيب غير أني من الإنسِ

ولابن صابر[2]: [الخفيف]

أيّها المدّعي الفخار دع الفخـ ... ـر لدى الكبرياء والجبروتِ

---

(١) الأبيات بلا نسبة في عيون الأخبار لابن قتيبة، ص ٧٣٦.

(٢) الأبيات في ديوان ابن صابر المنجنيقي، من قصيدة من أربعة أبيات، والبيت الرابع:

وكذاك النعام يلتقم الجمـ ... ـر وما الجمر للنعام بقوتِ

نسج داود لم يفد ليلة الغا ... ر وكان الفخار للعنكبوتِ
وبقاء السمند في لهب النا ... ر مزيل فضيلة الياقوتِ

وصف البديع الهمداني متكبّرًا، فقال: كأنّ الدُّنيا خاتم في خنصره، وحساب خراجها في بنصره، وكأنّ الشمس تطلع من جبينه، والغمام يندي من يمينه، وكأنّ كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته. وقال آخر: كان العجب شقيقه، والبَذْخ رفيقه، والنُّفخ أليفه، والصلف حليفه. وقال جعيفران يهجو سعيد بن مسلم بن قتيبة[1]: [السريع]

أمّ سعيد لم ولدتيه ... ملوّثًا بالكبر والتِّيهِ
ليتك إذ جئت به هكذا ... حين خريتيه أكلتيهِ

آخر[2]: [البسيط]

كبر بلا نسب تيه بلا حسب ... فخر بلا أدب هذا من العجبِ

والهجو الفظيع القبيح قول بعض الشعراء في أبي جعفر العباس بن الحسن[3]: [السريع]

إنّ ابن عباس أبا جعفر ... يبذل للنائك أوراكه
تراه من تيه ومن نخوة ... كأنه ناك الذي ناكه

وليم بعض المتكبّرين على الإعجاب، فقال: التواضع يُكْسب المذلّة، والإفراط في المؤانسة يُوجب المهانة، وأنشد[4]: [الطويل]

ونفسك أكرمها فإنك إن تهن ... عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

وقال في معناه صالح بن عبد القدّوس[5]: [الطويل]

إذا ما أهَنْتَ النفس لم تَلْقَ مكرمًا ... لها بعدما عرّضتها لهوانِ

---

(١) البيتان بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٣٠٨٦.
(٢) البيت بلا نسبة في زهر الأكم، لليوسي، ص ٦٠٩، ورواية البيت فيه:
تيهٌ بلا نسبٍ كبرٌ بلا حسبٍ ... فخرٌ بلا أدبٍ هذا من العجبِ
(٣) البيتان لأبي محمد ابن أبي الشباب في يتيمة الدهر للثعالبي، ص ٣١٩٧.
(٤) البيت لحاتم الطائي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أتعرف أطلالاً ونؤيًا مهدّما ... كخطك في رقّ كتابًا منمنما
(٥) البيت في ديوان صالح بن عبد القدّوس، وهو مطلع القصيدة.

آخر(١): [الطويل]

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها وجدّك لم تكرم على أحدٍ بعدي

واعتذر متكبّر عن كبره بقوله(٢): [الطويل]

وما لي وجه في اللئام ولا يد ولكنّ وجهي في الكِرام عريضُ
أهشّ إذا لاقيتهم وكأنني إذا أنا لاقيت اللئام مريضُ

الفصل الثالث من الباب الثاني

في أنّ مَنْ تخلّق باللؤم انتفع وعلا على الكِرام وارتفع

قال سعيد بن المسيّب: الدنيا نذلة تميل إلى الأنذال، وقال: لو لم يزهد في الدنيا إلّا لأنها في يد الأنذال؛ لكان ينبغي لنا ذلك لهوانها على الله. وقال الشافعي في ذمّ الدّهر وسوء معاملته لسراته، وسقياه لهم أكواب حسراته(٣): [الكامل]

مِحَنُ الزّمان كثيرةٌ لا تنقضي وسروره يأتيك كالأعيادِ
ملك الأكابر فاسترقّ رقابهم وتراه رقًّا في يدِ الأوغادِ

ابن الرومي(٤): [الوافر]

رأيت الدّهر يرفع كل وغدٍ ويخفض كل ذي شيم شريفَهْ
كمثل البحر يغرق كل حيٍّ ولا ينفكّ يطفو فيه جيفَهْ
أو الميزان تخفض كل وافٍ وترفع كل ذي زِنَةٍ خفيفَهْ

آخر(٥): [الوافر]

رأيت الدهر بالأشراف يكبو ويرفع راية القوم اللئامِ
كأنّ الدّهر موتور خفور يطالب حقّه عند الكرامِ

---

(١) البيت بلا نسبة في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٢٧٥.
(٢) البيتان للسحيمي في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢/ ٢٣٧.
(٣) البيتان في ديوان الشافعي، وهما بيتان منفردان.
(٤) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٥) البيتان بلا نسبة في الفوائد والأخبار، لابن دريد، ص ٢٢.

وقال أُسامة بن منقذ[١]: [البسيط]

شغل الزّمان بأهل النقص يرفعهم حتى يثمر للورّاث ما خزنوا
ألهاه رفع لئام الناس فهو على ذوي المكارم والإفضال مضطغنُ

آخر[٢]: [الكامل]

يا دهر صافيت اللّئام ولم تزل أبدًا لأبناء الكِرام معاندا
وعرفت كالميزان ترفع ناقصًا أبدًا وتخفض لا محالة زائدا

آخر[٣]: [الخفيف]

قل لدهرٍ من المكارم عطل يا قبيح الفِعال جهم المحيًا
كم رفيع حططتّه في حضيضٍ ووضيع ألحقه بالثريًا

آخر[٤]: [الخفيف]

عجبًا للزمان يرفع حرًا ما لديه ويمنح المال نذلا
فهو مثل الميزان يرفع ما خفّ ويهوي في الوزانة سفلا

ولقد أحسن الآخر في قوله[٥]: [الطويل]

سألت زماني وهو بالخفض مُولع وبالجهل محفوفٌ وبالنقص مختصُّ
فقلت له هل من طريقٍ إلى العُلا فقال طريقان الوقاحة والنقصُ

ويقال: اتضاع الأعالي بارتفاع الأسافل، وإذا ارتفعت الأراذل هلكت الأفاضل. وقال قيس بن زهير: أربعة لا يُطاقون: عبدٌ ملك، ونذل شبع، وأمَة ورثت، وقبيحة تزوّجت. وقال أردشير: ما شيءٌ في انتقال الدُّول أمرّ من رفع

---

(١) البيتان في ديوان أُسامة بن منقذ، من قصيدة مطلعها:
كم تقصد الماجدين الفاضلين وكم علّم الكرماء البخلَ يا زمنُ
(٢) البيتان للسري الرفّاء في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ورواية البيتين في الديوان:
يا دهر صافيت اللّئام مساعدًا لهم وجانبْت الكرام مُعانِدا
فغدَوْت كالميزان يرفع ناقصًا فينا ويخفض لا محالة زائدا
(٣) البيتان بلا نسبة في كتاب عُقَلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٧٣.
(٤) البيتان بلا نسبة في البديع، لأُسامة بن منقذ، ص ٣٣٥.
(٥) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وضيع إلى مرتبة شريف، فإنّ الوضيع إذا ارتفع تكبّر، وإذا تموّل استطال، وإذا تمكّن صال. وقالوا: سوء القتل ولا رياسة النذل.

ولنرجع إلى خبر أبي بكر الخوارزمي الذي ورد به شرعة الإنصاف، وحسم فيه بين العقلاء مادّة الخلاف، قال: لا صغير في الولاية والعمالة، ولا كبير مع العطلة والبطالة، وإنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بواليها، ومِطْية تحسن وتقبح بممتطيها، والصدر بمن يليه، والدّست بمن يجلس فيه، والأعمال بالعمّال، كما أنّ النساء بالرجال. ويؤيّد هذا أنّ الرشيد بلغه أنّ موسى بن عيسى الهادي، وكان أميرًا على مصر مِنْ قِبَله، عازمٌ على خلعه، فقال: والله لأعزلنّه بأخسّ مَنْ على بابي، وقال ليحيىٰ بن خالد: اطلب لي كاتبًا عفيفًا يصلح لعمل مصر واكتم خبره، فلا يشعر به موسى حتى يفجأه، فقال: قد وجدته، قال: مَنْ هو؟ قال: عمر بن مهران، وكتب له بخطّه كتابًا إلى موسى بتسليم العمل إليه، فسار وليس معه غير غلام أسود اسمه أبو درّة على بغل استأجره ومعه خرج فيه قميص ومبطنة وشاش وطيلسان وخفّ، فلما وصل إلى مصر نزل خانًا فأقام فيه ثلاثة أيام يبحث عن أخبار البلد وعمّن فيه من العمّال، وأخبر مَنْ كان بجواره في الخان أنه قد ولّي مصر واستعمل منهم كاتبًا وحاجبًا وصاحبًا وشرطيًا، وقلّد آخر بيت المال، وأمر مَنْ تَبِعه ووثق به أن يدخل معه على موسى، فإذا سمعوا حركة في دار الإمارة قبضوا على الديوان، فلما أبرم أمره بكّر إلى دار الإمارة، فأذِنَ موسى للناس إذنًا عامًا، فدخل في جملتهم ومَنْ اتّفق معه وموسى جالسٌ في دسته والقوّاد بين يديه وكلّ مَنْ قُضِيَتْ حاجته ينصرف، وعمر جالسٌ والحاجب ساعة بعد ساعة يسأله عن حاجته وهو يتغافل حتى خفّ الناس، فتقدّم وأخرج كتاب الرشيد ودفعه لموسى فقبّله ووضعه على رأسه ثم فتحه وقرأه فانتقع لونه، وقال: السّمع والطاعة، ثم قال: أقرىء أبا حفص السلام، وقل له: كُنْ بموضعك حتى نتّخذ لك منزلًا ونأمر الجند يستقبلونك، قال: أنا عمر بن مهران، وقد أمرني أمير المؤمنين أن أقيمك للناس وأنصف المظلوم منك، وأنا فاعلٌ ما أمرني به أمير المؤمنين، فقال له موسى: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم، قال: لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي ملك مصر، واضطرب المجلس فقبض على الديوان، فبلغ موسى الخبر فنزل عن فرشه وقال: لا إلٰه إلّا الله هكذا تقوم الساعة، ما ظننت أنّ أحدًا بلغ من الحيلة والحزم ما بلغت تسلّمت مني العمل وأنت في مجلسي، ثم

نهض عمر إلى الدّيوان ونظر فيه وأمر ونهى وعزل وولّى، وكان بمصر قوم يدافعون الخراج فأحضر أشدّهم مدافعة فطالبه فاستمهله، ثم طالبه الثانية فاستمهله، فلمّا كان في الثالثة فاستمهله فحلف أيمانًا مؤكّدة لا يستأديه إلّا في بيت المال ببغداد، ووكل به مَنْ أشخصه إلى بغداد، فخاف الناس مِنْ مثل ذلك، فلم ينكسر من الخراج بعدها درهم.

وإنما ذكرنا هذه الحكاية لما فيها من التنبيه على أنّ الرتبة النفيسة إذا وَلِيَها ذو القدر الحقير والنفس الخسيسة لا يكون ذلك قادحًا في جلالتها، ولا مغيّرًا لها حالتها، وإنما ذلك بحسب ما ينظر إليها الزمان، فربما نظر إليها بسعد أو نظر إليها بحرمان، فإن سعدت وليها مَنْ هو أكبر منها، وإن حرمت تولّاها مَنْ يصرف السّعد عنها.

ذِكْر مَنْ نال المراتب السَّنيّة من ذوي الأعراق الدَّنيّة

ونقتصر منهم على ذكر ثلاثة، وهم: زياد والحجّاج بن يوسف وأبو مسلم، وإنّما اقتصرنا على هؤلاء لأنهم أقاموا دُوَل مَنْ كانوا نوّابهم من الخلفاء، فزياد لمعاوية، والحجّاج لعبد الملك بن مروان، وأبو مسلم لبني العبّاس.

فأمّا زياد، فقيل فيه: زياد ابن أبيه، وقيل: زياد بن عبيد الثقفيّ، وقيل: زياد ابن سميّة، وقيل: زياد بن أبي سفيان، وإنّما قيل ابن أبيه لاختلاف الناس فيمن يُنْسب إليه، وسمية كانت عند كسرى فوهبها لأبي الخير، قيل: من أقيال حِمْيَر، فدخل بها الطائف فمرض فطبّه الحارث بن كلدة طبيب العرب فنجع فيه طبّه، فوهب له سمية فولدت له نفيعًا، ويكنى أبا بكرة ونافعًا، ثم كانت تحت عبد لصفية بنت عبد الله بن أسد بن علاج الثقفيّ، وكان يسمّى عبيدًا فولدت له زيادًا، ويقال: إنّ أبا سفيان واقعها على كُرْهٍ منها في حال سكره، وكانت بغيًا فحملت منه بزياد، وقيل لعبيد: إنه لفراشك، فكان عُبَيْد يُكنى به. وروى ابن عبد البرّ أنّ زيادًا اشترى عبيدًا بألف درهم، وأعتقه فكان يغبط بذلك.

وأمّا السبب في إضافة أبي سفيان زيادًا إلى نفسه وإلحاقه به ما ذُكِر أنّ عمر بن الخطاب بعث زيادًا في إصلاح فساد وقع في اليمن، فلما رجع من وجهته خطب خطبة لم يسمع الناس مثلها، فقال عمرو بن العاصي: لو كان هذا الغلام قرشيًا لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: والله إني لأعرف مَنْ وضعه في رحم أمّه،

فقال له أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه: ومَنْ هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا، فقال له عليّ رضي الله عنه: مهلًا يا أبا سفيان، فقام وأنشد[١]: [الوافر]

أمَا والله لولا خوف شخص ... يراني يا عليّ مِنَ الأعادي
لأظهر أمره صخر بن حرب ... ولم تكن المقالة عن زياد
ولكني أُحاذر خيف كفّ ... لها نقم ولفتى عن بلادي
فقد طالت مجاملتي ثقيفًا ... وتركي فيهم ثمر الفؤاد

وكانت من أبي سفيان فلتة، فذلك الذي حمل معاوية على إلحاق زياد بأبي سفيان، وذلك في سنة أربع وأربعين وشهد عنده زياد ابن أسماء، ومالك بن ربيعة، والمنذر بن الزبير على إقرار أبي سفيان بأنه ولده، وكان أبو بكرة يقول: ما رأت سمية أبا سفيان قطّ. ولمّا ألحق معاوية زيادًا بأبيه دخل مروان بن الحكم عليه، فأنشده قول أخيه عبد الرحمٰن فيه[٢]: [الوافر]

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... فقد ضاقت بما يأتي اليدانِ
أتغضب أن يقال أبوك عفّ ... وترضى أن يُقال أبوك زاني
فاشهد أنّ آلك من زياد ... كآل الفيل من ولد الأتانِ
وأشهد أنها حملت زيادًا ... وصخر من سمية غير داني

وهذا الشعر يؤيّد قول أبي بكرة، ويُرْوى أنها ليزيد بن مفرغ الحميري، وأوّلها[٣]: [الوافر]

ألَا أبلغ معاوية بن صخر ... مغلغلة من الرجل اليماني

وقال يزيد[٤]: [المنسرح]

إنّ زيادًا ونافعًا وأبا ... بكرة عندي من أعجب العجبِ
هم رجال ثلاثة خلقوا ... في رحم أُنثى وكلّهم لأبِ
ذا قرشي كما يقول وذا ... مولى وهذا بزعمه عربي

---

(١) الأبيات لأبي سفيان بن حرب في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة يزيد بن المفرغ.
(٢) الأبيات ليزيد بن مفرغ في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.
(٣) انظر الحاشية السابقة.
(٤) انظر الحاشية ما قبل السابقة.

وهذا يشير إلى أنّ الثلاثة أولاد الحارث بن كلدة. وليزيد يهجو عباد بن زياد[1]: [الطويل]

أعباد ما للؤم عنك محوّل ولا لك أمّ من قريش ولا أبُ
وقل لعبيد الله ما لك والد بحقّ ولا يدري امرؤ كيف ينسب

وسأل رجل الشعبيّ: هل تجوز الصلاة خلف ولد الزّنا؟ فقال: نحن منذ ثلاثين سنة نصلّي خلفه، ونرجو من الله القبول ـ يعني زيادًا ـ وقال زياد لرجل: يا ابن الزانية، فقال: أتسبّني بشيء شُرّفت به أنت وآباؤك. قال المدائنيّ: قدم زياد البصرة مع أخويه أبي بكرة ونافع وهو غلام، وكان يكتب بالقلمين العربي والفارسي، فاستكتبه المغيرة بن شعبة وأجرى له كل يوم درهمين: درهم عن القلم العربي ودرهم عن القلم الفارسي، ثم ترقّت به الحال وظهرت مراتبه وانتهى أمره إلى أن ادّعاه معاوية أخًا وولي فارس لعليّ رضي الله عنه، ثم احتمل مالًا وهرب إلى معاوية وجمع له معاوية العراقين، وهو أوّل مَنْ جُمِعَا له وجُمِعا بعده لابنه عُبَيْد الله، ولمصعب بن الزُّبير، ولمسلمة بن عبد الملك، ولعمر بن هُبَيْرة وليزيد بن هُبَيْرة، ولم يُجمعا لأحد غير هؤلاء في أيّام بني أُميّة.

ومنهم كليب ثقيف الحجّاج ذو المراء في سفك الدماء واللّجاج

ولؤم الحجّاج من قِبَل رضاعه ومكاسب آبائه. قيل: إنّ أمّ الحجّاج واسمها الفارعة بنت مسعود الثقفية كانت قبل أن يتزوّجها يوسف عند المغيرة بن شعبة، فدخل عليها يومًا حين أقبل من صلاة الغداة، وهي تتخلّل، فقال: يا فارعة لَئِن كان هذا التخلّل من أكل اليوم إنك لنهمه، وإنْ كان من أكل البارحة فإنك لقذرة، انصرفي فأنت طالق، فقالت: سخنت عينك ما هو من ذا ولا من ذاك، ولكني استكت فتخلّلت من سواكي، فاسترجع ثم خرج فلقي يوسف بن الحكم بن عقيل، فقال: إني قد نزلت اليوم عن خير نساء بني ثقيف، وحدّثه بالقصة فتزوّجها فولدت له الحجّاج مشوّهًا لا دبر له، فثُقِب دبره، وأبَى أن يقبل الثدي من المراضع وأعياهم أمره، فيقال: إنّ إبليس تصوّر لهم على صورة الحارث بن كلدة وأشار

(١) البيتان في ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، من قصيدة مطلعها:
ألا طرقتنا آخر الليل زينبُ سلامٌ عليكم هل لما فات مطلبُ

عليهم أن يُذبح جدي أسود يولغوه دمه يومين وفي الثالث يُذبح له اثنين ويولغوه من دمه ويطلوا وجهه بما بقي منه، فإنه يقبل الثدي، ففعلوا ذلك، فأقبل على ثدي أمّه فأكسبه الرّضاع الأوّل لؤمًا والرّضاع بغير الطباع، فكان في كبره سفاكًا للدماء، فلما بلغ أشدّه صار هو وأخوه معلّمين بالطائف، وفيه يقول مالك بن الخرّيت يهجو الحجّاج[١]: [الطويل]

فلولا بني مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبدًا من عبيد زيادِ
زمان هو العبد المقرّ بذله ... يراوح صبيان القرى ويغادي

وقال آخر يذكر تعليمه الصّبيان[٢]: [المتقارب]

أينسى كُلَيْب زمان الهُزال ... وتعليمه سورة الكوثرِ
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهرِ

هكذا رواه جميع الإخباريين، والصواب ما ذكره الحموي في كتاب البلدان له، قال: الكوثر قرية في الطائف كان الحجّاج معلّمًا بها، وأنشد شاهدًا على ذلك[٣]: [المتقارب]

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه صبية الكوثرِ

وعلى هذا يكون اسمه كُلَيْبًا وهو الأوْلى به، وقد تقدّم منه الولوغ. وقال آخر[٤]: [المتقارب]

كليب تعاظم في أرضكم ... وقد كان فينا صغير الحضرِ

ورأيت في بعض كتب التواريخ: أنّ الحجاج لما احتضر قال لمنجّم كان عنده: هل ترى ملكًا يموت؟ قال: نعم ولست به، إني أرى ملكًا يموت يسمى كُلَيْبًا، قال: أنا والله كليب، بذلك كانت أمّي تسمّيني.

وممّا يؤيّد ما ذكرنا من لُؤمه ما كتب به إلى عبد الملك بن مروان لمّا أراد قتل أنس بن مالك رضي الله عنه: أمّا بعد؛ فإنك طفت لك الأمور، وعلوت فيها

---

(١) البيتان في الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص ٣٨٠، والكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٨٢٤.
(٢) البيتان في الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٨٢٤.
(٣) انظر الحاشية السابقة.
(٤) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

حتى تعدّيت طورك وتجاوزت قدرك، وركبت داهية دهماء أردت أن تزورني بها، فإن سوّغتكها نصبت قدمًا، وإنْ لم أفعل رجعت القهقرى فلعنك الله أخفش العينين، منقوص الجاعرتين، ممسوح الساعدين، أصكّ الرجلين، أراك قد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدّناءة واللُّؤم، فاذكر مكاسب آبائك بالطائف؛ إذ كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم، ويحفرون الآبار بأيديهم، وايم الله يا ابن المستفرثة بعجم الزبيب لأغمرنّك غمر اللّيث الثعلب، ولأركضنّ بك ركضة تدخل بها في جعس أمّك، فإذا أتاك كتابي هذا فكُنْ لأنس أطوع من عبدٍ لسيّده، وإلّا أصابك مني سهم مشكل، ولكل نبأ مستقرّ وسوف تعلمون.

وصف الحسن البصري الحجّاج، فقال: أتانا أخيفش أعيمش يخطر في مِشْيته ويصعد المنبر، فيقوم عليه حتى تفوته الصلاة، لا مِنَ الله يتّقي، ولا مِنَ الناس يستحي، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصّلاة أيها الرجل، هيهات دون ذلك السيف والسّوط.

وفيه يقول الأحمر بن سالم وأحسن[1]: [الطويل]

ثقيف بقايا من ثمود وما لهم … أب ما جدّ من قيس عيلان ينسبُ
وأنت دعيّ يا ابن يوسف فيهم … زنيم إذا ما حصلوا متذبذبُ

ويقال: إنّ الحجاج طلبه فهرب إلى هيت، فأخذه عامله عليها فقتله وأحرقه وذراه في الريح. وجرى بينه وبين بعض الخوارج مشاجرة، فقال له الخارجيّ: لو لم يكن مِنْ لُؤم أبيك إلّا أنه ولد مثلك لكفاه، فأمر به فقُتِل. وقال الحجّاج يومًا لعبد الملك: لو كان رجل من ذهب لكنته، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني لم تلدني أمة بيني وبين حوّاء إلّا هاجر، فقال له عبد الملك: لولا هاجر كنت كلبًا من الكلاب.

وأوّل ولاية تولّاها تبالة، فلمّا رآها استقلّها فرجع عنها، فقالوا في المثل: أهون من تبالة على الحجّاج. وأوّل أمره ومصيره إلى روح بن زِنْباع وتضمّن ما اتّفق مِنْ أمره معه وكيفية وصوله إلى عبد الملك في المجلدة الثالثة من التذكرة.

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وفي كتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء لأبي حيان التوحيدي في سبب تولية الحجّاج العراق، قال العتبي: لمّا اشتدّت شوكة أهل العراق على عبد الملك بن مروان خطب الناس، وقال: إنّ نيران أهل العراق قد علا لهبها، وكَثُر حطبها، فجمرها حارّ، وشهابها وارٍ، فهل مِنْ رجل ذي سلاح عتيد، وقلب حديد، أبعثه لها؟ فقام الحجاج وقال: أنا يا أمير المؤمنين، قال: ومَنْ أنت؟ قال: الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن عامر، فقال له: اجلس، ثم أعاد الكلام فلم يقم أحد غير الحجّاج، فقال: اجلس، ثم أعاد الكلام فلم يقم أحد غير الحجّاج، فقال: كيف تصنع إن ولّيتك؟ قال: أخوض الغمرات، وأقتحم الهلكات، فمن نازعني حارَبْته، ومَنْ هرب مني طلبته، ومَنْ لحقته قتلته، أخلط عجلة بتأنٍ، وصفوًا بكدر، وشدّة بلين، وتبسّمًا بازورار، وعطاء بحرمان، ولا على أمير المؤمنين أن يجرّب فإن كنت للأوصال قطّاعًا، وللأرواح نزّاعًا، وللأموال جمّاعًا، وإلّا فليستبدل بي؛ فقال عبد الملك: مَنْ تأدّب وجد بغيته، اكتبوا له كتابه.

ومنهم ذو الأصل الدَّنيء والنفس الأبيّة
أبو مسلم صاحب الدّعوة العباسية

كان أبو مسلم واسمه عبد الرحمٰن بن مسلم عبد العيسى بن معقل فباعه لأخيه إدريس جدّ أبي دلف، واسمه قاسم بن عيسى بن إدريس العجلي، وكان قهرمانًا، فجلس إدريس في الكوفة، وأبو مسلم معه يخدمه، فرأى بكر بن هامان من أبي موسى حذقًا وكيسًا، فقال لإدريس: ما هذا الغلام؟ فقال: مملوكٌ لي، قال: بِعْه لي، قال: هو لك، قال: لا بدّ من ثمنه، قال: هو لك بما شئت، فأعطاه أربعمائة درهم وأخذه وبعث به إلى إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس المنعوت بالإمام، فدفعه إبراهيم إلى موسى السرّاج، فسمع منه وحفظ عنه، وما زال قدره ينبل حتى أرسله إبراهيم بالدعوة لبني العباس، وذلك في سنة ثمان وعشرين ومائة، وله من العمر إحدى وعشرون سنة، وقدم إلى خراسان يدعو الناس إلى طاعتهم في أوّل يوم من رمضان سنة تسع وعشرين، فنزل قرية من قرى مرو ووثب دعاته، فقال الناس: رجل من بني هاشم قد ظهر له حلم ورواء ووقار وسكينة، فانطلق فِتْية من أهل مرو ونساك، وكانوا يبطلون الفتنة فأتوا أبا مسلم في عسكره فسألوه عن نسبه، فقال: خبري خير لكم من نسبي، ثم سألوه عن أشياء

من الفقه، فقال: إن أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خيرٌ لكم من هذا، ونحن إلى دعوتكم أحوج منّا إلى إجابة مسئلتكم فاعفونا، فقالوا: والله ما نعرف لك نسبًا وما نظنّك إلا تبقى قليلًا وتقتل، وكان كذلك.

ومِنَ الدليل على لُؤم أصله ما نقم عليه به أبو جعفر المنصور، وهو أنه كتب إليه يخطب منه أمينة بنت عليّ بن عبد الله بن عباس، وزعم أنه ابن سليط بن عبد الله، فقال له المنصور عند تقريعه بذنوبه لمّا أراد قتله: لقد ارتقيت لا أمّ لك مرتقًى صعبًا تقرّ على نفسك أنك دعيّ، ثم ترغب في بنات العباس. ونقم عليه أيضًا أنه كتب إليه أيام خلافته: عافانا الله وإياك، فبدأ بنفسه في الدعاء. ولمّا أراد المنصور قتله استشار مسلم بن قتيبة في ذلك، فقال: لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا، فقال: حسبك يا أبا أُمية قد أصبت الغرض، ثم استدعاه ولم يأذن لأحد معه، فلما دخل عليه وأخذ مجلسه سأله أن يريه سيفه، فلما تناوله منه جعل يذكره فعلاته التي نقمها عليه وهو يعتذر عنها، ثم ركضه برجله فوثب عليه المرصدون لقتله فقتلوه، وأخرج إلى قوّاده وجنوده بالجوائز والخلع فقسمت بينهم، ثمّ رمى برأسه إليهم، فتفرّقوا ورجعوا قائلين: مضى مولانا بالدّراهم إنّا لله وإنّا إليه راجعون؛ وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائة. وكان مولده على رأس المائة، وفيه يقول أبو دُلامة واسمه زيد بن الجون يهجوه[1]: [الطويل]

أبا مجرم ما غيّر الله نعمة ... على عبده حتى يغيّرها العبدُ
أفي دولة المهديّ حاولت غدره ... ألا إنّ أهل الغدر آباؤك الكردُ
أبا مجرم خوّفتني بك فانتحي ... عليك بما خوّفتني الأسد الوردُ

وقد تقدّمت ترجمته وكيفية ما قتله المنصور في المجلدة الثالثة من التذكرة التوحيدية، وخطب المنصور لما قتله، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أيّها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة، إلى وحشة المعصية، ولا تسرّوا غشّ الأئمّة، فإنّ أحدًا لا يسرّ سريرة إلّا ظهر ذلك عليه في فلتات لسانه وصفحة وجهه وبوادر نظره، إنّا لم نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدّين حقّه، إنه مَنْ نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه خبء هذا الغمد، وأنّ أبا مسلم بايع لنا على أنه من نكث بيعتنا

(١) الأبيات في ديوان أبي دلامة، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

فقد أباح دمه لنا ثم نكث هو، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيرنا، ولم يمنعنا رعاية الحقّ له من إقامة الحقّ عليه.

وإنّما اقتصرت على ذكر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم لعظيم ما ارتكبوه من الجرائم التي نهى الله عن فعلها، وأكّد في التحذير منها، وبالغ في الوعيد عليها وهي قتل النفس بغير حقّ، واستباحة حريم مالها التي حُرْمته كحرمتها، وهذا لا يرضى فعله كفرة أهل الكتاب، ولا مَنْ يعتقد أنّ إلى الله المرجع والمآب.

وممّا ينبغي أن يُلحق بهذا الفصل
تسلّي من خفضه الزمان من أهل الفضل
بقلّة الكرام وكثرة اللّئام وتقلّب الأحوال على مدى الأيّام

قال رسول الله ﷺ: «الناس كإبل مائة لا يكاد يوجد فيها راحلة»[١]. وقالوا: الكِرام في اللّئام، كالغرّة في جبهة الفرس، أو كالرقمة في يد الدابّة. ويقال: لا يكاد يوجد كريم، حتى يُخاض إليه ألف لئيم. قال السَّمَوْأل بن عاديا اليهودي[٢]: [الطويل]

تـعـيّـرنـا أنّـا قـلـيـل عَـدِيـدُنـا ... فـقـلـت لـهـا إنّ الـكـرام قـلـيـلُ
ومـا ضـرَّنـا أنّـا قـلـيـل وجـارنـا ... عـزيـز وجـارُ الأكـثـريـن ذلـيـلُ

وقال ابن المعتزّ: إذا خرفت الدولة وقَرُب زوالها، هبطت بالأخيار ورفعت درج الأشرار. وقال أبو طالب يحيىٰ بن أبي الفرج المعروف بابن زيادة البغدادي الكاتب[٣]: [الخفيف]

بـاضـطـراب الـزمـان تـرتـفـع الأنـ ... ـذال فـيـه حـتـى يـعـمّ الـبـلاءُ
وكـذا الـمـاء سـاجـيًـا إذا حـرّك ... ثـارت مـن قـعـره الأقـذاءُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ٣٩٩٠، وعبد الرزاق في المصنف ٢٠٤٤٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٣١.

(٢) البيتان في ديوان السّموأل بن عادياء، من قصيدة مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللُّؤم عرضه ... فـكـلّ رداء يـرتـديـه جـمـيـلُ

(٣) البيتان لابن زياد في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ٨٤١.

وكأنّ عليّ بن الحسين بن عليّ الوزير المغربي لمح هذا المعنى بقوله[١]: [المتقارب]

إذا ما الأمور اضطربن اعتلى سفيه يُضام العُلا باعتلائه
كذا الماء إن حرّكته يد طفا عكر راسب في إنائه

ومِنْ أحسن ما ورد في هذا الباب ما حُكِيَ أنّ المعتصم لمّا أراد أن يشرف أشناس التركي عقب فتح بابك أمر أصحاب المراتب أن يترجّلوا له، فكان فيمن ترجّل الحسين بن سهل، فرآه حاجبه يمشي ويعثر فبكى رحمةً له، فقال له: لا يهمنّك ما تراه إنّ الملوك شرّفتنا ثم شُرّفت بنا. ولمّا عزل قتيبة بن مسلم وكيعًا عن رئاسة بني تَيْم قال شاعرهم[٢]: [الوافر]

فإن تَكُ قد عزلت فلا عجيب ضياء الشمس يمحوه الظلامُ

وقال آخر يسلّي معزولًا[٣]: [الكامل]

عزلوه كالذهب المصفّى لا ترى حالًا مغيّرة له عن حالِ
لم يعزلوا الأعمال عنه وإنّما عزلوا العفاف به عن الأعمالِ

آخر[٤]: [الكامل]

إنّ الولاية لا تتمّ لواحدٍ إن كنت تنكر ذا فأيْن الأوّلُ
لا تجزعنّ فلكل والٍ معزل فكما عُزِلت فعن قليل تعزلُ

ومِنْ أحسن ما قيل في تسلّي معزول قول محمد بن يزيد الأمويّ في مالك بن طوق[٥]: [الطويل]

لِيَهْنِك إنْ أصبحت مجتمع الحمد وراعي المحامي والمعالي عن المجدِ
وإنك صُنْت الناس فيما وليته وفرّقت ما بين الغواية والرشدِ

(١) البيتان في ديوان الوزير المغربي، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيت بلا نسبة في نفحة الريحانة، للمحبي، ص ١٠٢٢.
(٣) البيتان لابن المفجع في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٥٥٠.
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) الأبيات لأبي تمام في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٥٢٣، وليست في ديوانه.

فلا تَحْسب الأعداء عزلك مغنمًا ... فإنّ إلى الأحرار عاقبة الوردِ
وما كنت إلّا السيف جرّد في الوَغى ... بأحمد سلا ثم ردّ إلى الغمدِ

آخر(١): [المنسرح]

ما اختلف اللّيل والنهار ولا ... دارت نجوم السّماء في الفَلَكِ
إلّا لنقل النعيم من ملك ... قد انقضى ملكه إلى ملكِ

عليّ بن الجهم(٢): [السريع]

للدّهر إدبار وإقبالُ ... وكلّ حالٍ بعدها حالُ
وصاحب الآثام في غفلةٍ ... وليس للأيام إغفالُ
كم أبلَتْ الدنيا وكم جدّدت ... مني وكم تغني وتغتالُ
تشهد أعدائي بأنّي فتى ... قطاع أسياف ووصالُ
لا يملك الشدّة عزمي ولا ... يبطرني جاهٌ ولا مالُ

وقال رسول الله ﷺ: «إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلّا وضعه، ولا يضع شيئًا إلّا رفعه»(٣). كتب مفلس على خاتمه: اصبر فالدهر دُول.

راجز(٤): [الرجز]

وإنما الدنيا دولْ ... كراحل قيل نزلْ
ونازل قيل رحل

وقال عليّ رضي الله عنه: ما قال الناس لشيءٍ طوبى إلّا وقد خبأ له الدهر يوم سوء. وقال مطرّف: لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك وطيبه، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وأنشدت لابن الأعرابي(٥): [الرمل]

ربّ قومٍ رتعوا في نعمةٍ ... زمنًا والعيش ريّان غدقْ

---

(١) البيتان بلا نسبة في الروض المعطار في خبر الأقطار، لابن عبد المنعم الحميري، ص ١٧٥٠.
(٢) الأبيات في ديوان علي بن الجهم، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٣) أخرجه أبو داود حديث ٤٨٠٢، والدارقطني في سننه ٣٠٣/، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٤.
(٤) الرجز بلا نسبة في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٥٣١.
(٥) البيتان بلا نسبة في نور القبس، للحافظ اليغموري، ص ٦٢٤، ولباب الآداب، لأسامة بن منقذ، ص ٦٣٢.

سكت الدهر طويلًا عنهم ثم أبكاهم دمًا حين نطقْ

ويقال: لا يقوم عزّ الولاية بذلّ العزل. ويقال: العزل طلاق الرّجال. قال ابن المعتزّ[(١)]: [الوافر]

وذلّ العزل يضحك كل يوم وينقر في قفا الوالي المدلّ

وله[(٢)]: [مجزوء الكامل]

كم تائه بولاية وبعزله ركض البريدُ
سكر الولاية طيب وخمارها صعب شديدُ

ابن زياد[(٣)]: [البسيط]

لا تغبطنّ وزيرًا للملوك وإنْ أحلّه الدهر منهم فوق رتبتِهْ
واعلم بأنّ له يومًا تمور به الأر ض أطربًا كما مارت لهيبتِهْ
هارون وهو أخو موسى وناصره لولا الوزارة ألم يأخذ بلحيتِهْ

ولآخر[(٤)]: [الوافر]

تنحّ عن الوزارة لا تردْها فكل الخير فيما لا تريدُ
ألست ترى وزيرًا كلّ يومٍ يُباع متاعه فيمن يزيدُ

ومِنْ أعجب ما يُحْكى في تنقّل الأحوال: أنّ ثقل الفضل بن الربيع كان يُحمل على ألف بعيرٍ، ثم رُؤِي ثقله في زنبيل وفيه أدوية لعلّته تُنقل من مكان إلى مكان، ورُؤِي ثقل الحسن بن سهل في زنبيل فيه نعلان وقميصان واصطرلاب، ثم

(١) البيت في ديوان ابن المعتزّ، من قصيدة مطلعها:
شخوص ولاية كشخوص عزلٍ على دهشٍ وعزّ مثل ذُلّ
ورواية البيت في الديوان:
ووجه العزلِ يضحك كل يومٍ ويطيزُ في قفا الوالي المدلّ

(٢) البيتان في ديوان ابن المعتزّ، وهما بيتان منفردان.

(٣) الأبيات لابن زيادة، يحيى بن أبي الفرج سعيد بن أبي القاسم هبة الله، في وفيات الأعيان، في ترجمته.

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

رُؤِي ثقله على ألف بعير. قال بعضهم(١): [البسيط]

هي المقادير تجري في أعِنَّتها فاصبر فليس لها صبر على حالِ
يومًا تريش خسيس الحال ترفعه إلى السماك وطورًا تخفض العالي

وتغيّر أبو جعفر المنصور على وزيره أبو أيوب المرزباني، فقال(٢): [الطويل]

ألا لَيْتَني لم ألْقَ ما قد لقيته وكنت بأدنى عيشة الناس راضيا
رأيت علوّ المرء يدعو انحطاطه ويضحي وسيط الحال من كان ناجيا

ولهذا قيل: الفقر مع الأمن خيرٌ مِنَ الغِنى مع الخوف. وقال بعضهم مسلّيًا عن العطلة(٣): [الطويل]

لعمرك ما طول التعطّل ضائر ولا كل شغل فيه للمرء منفعَهْ
إذا كانت الأرزاق في القُرْب والنّوى عليك سواء فاغتنم لذّة الدعَهْ
وإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ألا ربّ ضيق في عواقبه سعَهْ

آخر(٤): [مخلع البسيط]

كُنْ بخمول النفوس قانع لا تطلب الذكر في المجامعِ
فلن يزال الفتى بخير ما لم تشر نحوه الأصابعِ

ابن مقلة يقول عندما نُكِب(٥): [المتقارب]

زمان يمرّ وعيش يمرّ ودهر يكرّ بما لا يسرّ
وحال يذوب وهمّ ينوب ودنيا تناديك أنْ ليس حرّ

(١) البيتان لإسحق الموصلي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان لأبي أيوب الموريناني، سليمان بن داود، في الوافي في الوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.
(٣) الأبيات بلا نسبة في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي، ص ٢٩٦.
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) البيتان لم أجدهما.

آخر[١]: [المتقارب]

وأحسن ما استشعر المسلمو ... ن عند النّوائب حلم وصبرُ
ولله في كلّ ما يأتني ... وأُبلَى به منه حمدٌ وشكرُ

سمع أعرابي يقول: هذا غنيّ لولا أنه فناء، وعلا لولا أنه بلاء، وبقاء لولا أنه شفاء. وقيل لابن الجهم بعدما صودر: ما تفكر في زوال نعمتك؟ قال: لا بدّ من الزوال فلأنْ تزول وأبقى خيرٌ من أن أزول وتبقى. وقيل لأعرابيّ: صِفْ لنا الدهر، فقال: الدّهر سلوب لما وهب، وهوب لما سلب؛ كالصبي إذا لعب.

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الباب الثالث

في العقل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب

في مدح العقل وفضله وشرف مكتسبه ونبله

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [قٓ: الآية ٣٧].

سُئِل الحسن بن سهل: ما حدّ العقل؟ فقال: الوقوف عند الأشياء قولًا وفعلًا. وسُئِل آخر، فقال: الإصابة بالظنون، والتلمّح فيما كان وما يكون، ومراده في القسم الثاني التجربة. وقالوا: هو دَرْك الأشياء على ما هي عليه من حقيقة معانيها، وصحّة مبانيها. وقيل لحكيم: ما مقدار العقل؟ فقال: ما لم يُرَ كاملًا في أحد، فلا يُعرف له مقدار. وقالوا: لكلّ شيء غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة والطّيب. واختلف الحكماء أيضًا في ماهيّته، كما اختلفوا في حدّه، فقال بعضهم: هو نور وضعه الله طبعًا، وغرزه في القلب كالنور في العين، وهو البصر؛ فالعقل نورٌ في القلب، والبصر نور في العين، وهو ينقص ويزيد، ويذهب ويعود، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور، كذلك يُدرك بنور العقل كثيرٌ مِنَ المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦]، وقال النبيّ ﷺ: «ليس الأعمى من عمى بصره، ولكنّ الأعمى من عَمِيَت بصيرته»[1].

---

(١) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ٤/ ٣٦٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٢٠، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٣٥.

وقال بعض الحكماء: العقل غريزة لا يقدر أحد أن يصفها في نفسه ولا في غيره، ولا يُعْرف إلّا بالأقوال والأفعال الدالّة عليه، وعلى كل حال فلا سبيل أن يُوصف بجسم ولا لون ولا عرض ولا طول. وقال العتبيّ واسمه عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان: العقل عقلان: عقلٌ تفرّد الله بصنعه وهو الأصل، وعقلٌ يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع، فإذا اجتمعا قوّى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة. البصر أخذه من هذه الأبيات وتُنْسب إلى أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه ورضي عنه[١]: [الهزج]

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموعُ
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يَكُ مطبوعُ
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوعُ

ويُفْهم من فحوى ما ذكرناه أنّ العقل في القلب، وهذا القول هو الموجود بصحة النظر، والمعلوم من جهة الأثر. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: الآية ٤٦]. ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «العقل في القلب يفرق بين الحقّ والباطل»[٢]. وقال بعضهم: هو في الدماغ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه. وقال عمرو بن العاصي: يثغر الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، وينتهي عقله لثمان وعشرين، ويبلغ أشده لخمس وثلاثين، وما بعد ذلك تجارب. وقال بعضهم: كل شيء مفتقرٌ إلى العقل، والعقل مفتقر إلى التجارب، وقال بعضهم؛ مَنْ طال عمره نقصت قوّة بدنه وزادت قوّة عقله. وقال بعض الحكماء: أربعة تحتاج إلى أربع: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودّة، والعقل إلى التجربة. ويقال: هرم السنّ شباب العقل. وقال البستيّ[٣]: [الخفيف]

ما استقامت قناة رأيي إلّا ... بعد ما عوّج المشيب قناتي

(١) الأبيات في ديوان عليّ بن أبي طالب، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يديّ.
(٣) البيت في زهر الآداب، للحصري القيرواني، ص ٥٣٥، والتمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ١٧٥.

ما اخترناه من محاسن الكلم وأسناها
في أنّ العقل أشرف المواهب وأسماها

قال ابن عباس رضي الله عنه: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقلت لها: يا أمّ المؤمنين أرأيت الرجل يقلّ قيامه ويكثر رقاده، والآخر يكثر قيامه ويقلّ رقاده، أيّهما أحبّ إليك؟ قالت: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني، فقال لي: «أحسنهما عقلًا»، قلت: يا رسول الله إنما سألتك عن عبادتهما؟ فقال: «يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما، إنما يسألان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدُّنيا والآخرة»[1]. ورُوِيَ عنه عليه الصّلاة والسلام، أنّه قال: «الجنّة مائة درجة: تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس»[2]. وروى البراء بن عازب أنّ النبيّ ﷺ قال: «لكلّ شيء وثيقة ومحجّة واضحة، وأوثق الناس مطيّة وأحسنهم دلالة ومعرفة بالحجّة الواضحة أفضلهم عقلًا»[3]. وقال بزرجمهر: الإنسان صورة فيها عقل، فإن أخطأه العقل ولزمته الصورة، فليس بإنسان. قال المتنبّي[4]: [الكامل]

لولا العقول لكان أدنى ضَيْغَم أدنى إلى شرف من الإنسانِ

وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: إني لأعجب ممن رزق العقل كيف يسأل الله معه شيئًا آخر. وقالت عائشة رضي الله عنها: أفلح مَنْ جعل الله له عقلًا. وقال مطرف: ما أُوتي العبد بعد الإيمان بالله تعالى أفضل من العقل، ويقال: ما تمّ دين امرىء حتى يتمّ عقله، وما استودع الله رجلًا عقلًا إلّا استنقذه به يومًا ما. وقال الأصمعيّ: لو صوّر العقل لأضاء معه الليل، ولو صوّر الجهل لأظلم معه النهار. وقال بزرجمهر: العقل كالمسك إن خبّأته عبق، وإن بعته نفق. وقالوا: كل شيء إذا كَثُر رخص إلّا العقل، فإنه إذا كَثُر غلا، ولو بِيع لما اشتراه إلّا العُقَلاء لمعرفتهم بفضله. وقال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء، ودواء القلب

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات، ١/ ١٧٦.
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٣٩.
(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٤) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أوّلٌ وهي المحلّ الثاني

العقل؛ ولكل حرث بذر، وبذر الآخرة العقل؛ ولكل شيء فسطاط، وفسطاط الأبرار العقل»[١]. ويقال: العقل وزير رشيد، وظهير سعيد، مَنْ أطاعه نجّاه، ومَنْ عصاه أرداه. وقال بعضهم يصف العقل[٢]: [السريع]

لله درّ العقل مِنْ رائدٍ وصاحب في العُسْر واليُسْرِ
وحاكمٌ يقضي على غائبٍ قضيّة الشاهد للأمرِ
وإن شاء في بعض أحواله أن يفصل الخير من الشرّ
فذ وقوي قد خصّه ربّه بخالص التقديس والطُّهرِ

آخر[٣]: [البسيط]

العقل حلّة فخر من تسربلها كانت له نسبًا تُغْني عن النَّسَب
والعقل أفضل لما في الناس كلّهم بالعقل ينجو الفتى مِنْ حومة الطلب

ومن قولهم في أن مَنْ وهب الله له عقلًا كُسِيَ من المناقب حلّة لا تبلى

قال أبو هريرة رضي الله عنه: لو ازددت كل يوم مثقال ذرّة من عقل ما باليت ما فاتني من أنواع التطوّع. وقال وهب: مَثَلُ العقلاء في الدنيا مثل الليل والنهار لا تقوم الدنيا إلّا بهما، فكذلك المرء في الدنيا لا حظّ له إلّا إذا كان عاقلًا. وقيل لأنو شروان: أيّ الناس أوْلى بالسعادة؟ قال: أنقصهم ذنوبًا، قيل: فمن أنقصهم ذنوبًا؟ قال: أتمّهم عقلًا. وقالوا: إذا كان العقل في النفس اللّئيمة كان بمنزلة الشجرة الكريمة في الأرض الذّميمة يُنْتفع بثمرها على خبث المغرس، فاجتنِ ثمر العقل وإن أتاك من لِئام الأنْفُس؛ وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه في قوله لولده الحسن رضي الله عنه: خذ الحكمة أنّى أتتك، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق، فلا تزال تختلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صاحبها. وقال سعيد بن جبير: لم تَرَ عيناي أفضل من فضل عقل يتردّى به

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٢) الأبيات لبشر بن المعتمر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أما ترى العالم ذا حشوة يقصر عنها عددُ القطرِ
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الرجل، إنِ انكسر جبره، وإن صرع أنعشه، وإن ذُلّ أعزّه، وإن اعْوَجَّ أقامه، وإن عَثُر أقاله، وإنِ افتقر أغْناه، وإن عُرْيَ كساه، وإن غوى أرشده، وإن خاف أمَّنه، وإن حزن أفرحه، وإن تكلّم صدّقه، وإن أقام بين ظهراني قوم اغتبطوا به، وإن غاب عنهم أسِفوا عليه، وإن بسط يده قالوا: جواد، وإن قبضها قالوا: مقتصد، وإن أشار قالوا: عالم، وإن صام قالوا: مجتهد، وإن أفطر قالوا: معذور. قال الشاعر(١): [الطويل]

وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فليس مِنَ الخيرات شيء يقاربُه
يزيّن الفتى في الناس صحة عقله ... وإن كان محظورًا عليه مكاسبُه
وشَيْن الفتى في الناس قلّة عقله ... وإن كَرُمت أعراقه ومناسبُه
إذا أكمل الرحمٰن للمرء عقله ... فقد كَمُلت أخلاقه ومآربُه

آخر(٢): [المنسرح]

ما وهب الله لامرىء هِبَةً ... أشرف من عقله ومن أدبِهْ
هما حياة الفتى فإن عُدِما ... فإنّ فقد الحياة أجمل بِهْ

آخر(٣): [الطويل]

يعدّ رفيع القوم مَنْ كان عاقلًا ... وإن لم يكن في قومه بحسيبِ
وإن حلّ أرضًا عاش فيها بعقله ... وما عاقل في بلدةٍ بغريبِ

وقال طاوس: ما قلادة نظمت من درّ وياقوتٍ بأزْيَن لصاحبها مِنَ العقل، ولو ناصح المرء عقله لأراه ما يزيّنه مما يُشِينه، فالمغبون مَنْ أخطأ حظّه مِنَ العقل.

---

(١) الأبيات لابن دريد في ديوانه، من خمسة أبيات هذه مطلعها، والبيت الخامس:
يعيش الفتى بالعقل في كل بلدةٍ ... على العقل يجري علمه وتجاربُهْ
وكذلك الأبيات للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، من ستة أبيات. وهي أيضًا لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، من ستّة أبيات، والبيت السادس:
ومن كان غلّابًا بعقلٍ ونجدةٍ ... فذو الجدّ في أمر المعيشة غالبُهْ
(٢) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ١٩٧٩.
(٣) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٩٣٩.

ما أثبتناه مِنَ الكلام الرائع الرائق فيما يمتاز به العاقل من المائق

قال بعض أهل العلم: إنّ آدم عليه السلام لمّا أُهبط إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بثلاثة أشياء: بالدّين والعقل وحُسْن الخلق، وقال: إن الله يخيّرك واحدًا من هذه الثلاثة، فقال: يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاء في الجنّة، ثم مدّ يده إلى العقل وقال: لذينك اصعدا، قال: لا نصعد، قال: أتعصياني؟ قالا: لا نعصيك، ولكنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان. وقال رسول الله ﷺ: «للعاقل عشر خصال يُعْرف بها: يحلم عن ظلمه، ويتواضع لمن دونه، ويسابق إلى برّ مَنْ هو فوقه، وينتهز الفرصة إذا أمكنته، لا يفارقه الخوف ولا يصحبه العنف يتدبّر ثم يتكلّم فإذا تكلّم غنم، وإذا سكت سَلِم، وإذا اعترضت له فتنة اعتصم بالله»[(١)]، وقال أبو عبادة مادحًا[(٢)]: [الطويل]

غريب السّجايا ما تزال عقولنا مدلهمةٌ في خلّة من خِلالِهْ
عداه الحِجى في عنفوان شبابه وأقبل كهلًا قبل حين اكتهالِهْ

وقالوا: مِنْ علامة العاقل ثلاثة: تقوى الله، وصدق الحديث، وترك ما لا يعني. وفي حكمة داود: على العاقل أن يكون عالمًا بأهل زمانه، مالكًا للسانه، مُقبِلًا على شأنه. وقال بعض الحكماء: أربعة دلّ على صحة العقل: حبّ العلم، وحُسْن الحلم، وصحة الجواب، وكثرة الصواب. وقالوا: إن أردت أن تعرف عقل الرجل في مجلس واحد، فحدّثه في خلال حديثك بما لا يكون، فإن أنكر فهو عاقل، وإن صدّق فهو أحمق. وقالوا: لا تجد العاقل يحدّث مَنْ يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعدْ بما لا يستطاع إنجازه. وقال لقمان لابنه: لا يتمّ عقل امرىء حتى يكون فيه عشر خصال يكون الكبر منه مأمونًا، والرُّشد فيه مأمولًا، وفضل ما لديه مبذولًا، لا يصيب من الدنيا إلّا القوت، التواضع أحبّ إليه من الشرف، والذلّ أحبّ إليه من العزّ، لا يَسْأم مِنْ طلب المعالي، ولا يتبرّم بطلب الحوائج إليه، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثيره من نفسه، وأن يرى جميع أهل الدنيا خيرًا منه وأنه شرًّا منهم، وهذه الخصلة تشيّد مجده،

---

(١) أخرجه ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٢٥، بلفظ: «للعاقل خمس خصال...».

(٢) البيتان في ديوان البحتري ٣، من قصيدة مطلعها:

عذيري من واشٍ بها لم أواله عليها ولم أخطر قلاها ببالِه

وتكبت ضدّه، وتُغْلي قدره، وتُطيّب في العالمين ذكره. وقالوا: العاقل إذا والى بذل في المودة نصره، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيستعين مواليه بعقله، ويعتصم معاديه بعدله. وقال المهلّب بن أبي صفرة، واسمه ظالم بن سراقة: يعجبني أن أرى عقل الرجل زائدًا على لسانه، ولا يعجبني أن أرى لسانه زائدًا على عقله. وقالوا: زيادة العقل على اللّسان فضيلة، وزيادة اللّسان على العقل رذيلة، والله أعلم.

شوارد مجموعة في احتياج ذوي العقل والحلم إلى اكتساب فضيلتي الأدب والعلم

أمّا الأدب، فقال بزرجمهر: العقل يحتاج إلى مادّة الأدب، كما تحتاج الأبدان إلى قُوتها من الأطعمة. وقالوا: عقلٌ بلا أدب فقرٌ، وأدبٌ بلا عقل حتف. وقالوا: عقلٌ بلا أدب كشجاع بلا سلاح. وقالوا: لا عقل إلّا بأدب، ولا أدب إلّا بعقل. وقال أفلاطون: عقلٌ بلا أدب كالشجرة العاقر، والعقل مع الأدب كالشجرة المثمرة. وقال بزرجمهر: الأدب صورة العقل، فحسّن صورة عقلك كيف شِئْت. ابن المقفّع: كما أنّ الأدب لا يكمل إلّا بالعقل، فكذلك لا يَكْمُل العقل إلّا بالأدب. وقالوا: احرص أنْ لا يكون أدبك أغزر من عقلك، فإنّ مَنْ زاد أدبه على عقله كان كالراعي الضعيف في الغنم الكثيرة. ويقال: أدّبوا أولادكم صغارًا تقرّ أعينكم بهم كبارًا. شاعر[١]: [البسيط]

قد ينفع الأدب الأحداث في صغر ... وليس ينفع بعد الكبرة الأدبُ
إنّ الغصون إذا قوّمتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قوّمتها الخشبُ

وقال عبد الملك بن مروان: لاعب ولدك سبعًا، وأدّبه سبعًا، واستصحبه سبعًا، فإن أفلح فألق حبله على غاربه، ولا عِبْرة بقول مَنْ قال[٢]: [السريع]

قولا لمن ينصح ابنًا له ... يردّد القول لتهذيبهْ
ضيع الوقت بلا طائل ... فيكثر القول ويهزي بِهْ

(١) البيتان لسابق بن عبد الله البربري في ديوانه، ولصالح بن عبد القدّوس في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

كـــله إلـــى الله وتـــدبـــيـــره ثـــم إلـــى الـدّهـــر وتـــجـــريـــبِـهْ
فـــإنـــمـــا الأقـــدار لا بـــدّ أن تـأتـي بـمـا خـط وتـجـري بِـهْ

فليس كما قال؛ فإنما الهمل في الإمهال، ولا عذر له في الإهمال، وعود الصبا أبدًا آمنًا أن يحتاج إلى الشفيف، وطيش الشباب سريع الحراك فلا غناء له عن التوقيف. ويُحكى أنّ أبا الأسود كان له ولد فترك الصلاة يومًا، ومضى يلعب بالكلاب مع الصّبيان، فكتب إلى مؤدّبه رقعة وأرسلها معه مختومة، يقول فيها[1]: [الكامل]

تـرك الـصـلاة لأكـلـب يـسـعـى بـهـا نـحـو الـفـراش مع الغـواة الأرجسِ
فـلـيـأتـيـنـك غـاديًـا بـصـحـيـفـة كـتـبـت كـمـثـل صـحـيـفـة المـتـلمّسِ
فـإذا أتـــاك مـــعـــذرًا بـــمـــلامـــة فـعِـظْـنَـه مـوعـظـة الـلّـبـيـب الأكْـيسِ
وإذا هـــمـــمـــت بـضـربـه فـبـدرّة وإذا بـلـغـت بـه ثـلاثًـا فـاحـبـسِ
واعـلـم بـأنـك مـا فـعـلت فـنـفـسـه مـع مـا تـجـرّعـنـي أعـزّ الأنـفـسِ

وأمّا العلم؛ فقدره كبير، وفضله كثير، ويكفي في شرفه أن رسول الله ﷺ قال: «خُيّر سليمان بين الملك والمال والعلم، فاختار العلم فأُعطي الملك والمال لاختياره العلم»[2]. قال بعض الحكماء: إذا اجتمع العقل والعلم في رجل فقد استطاب المَحيا، وسما إلى الدرجة العليا، وجمع الآخرة والدنيا. وقالوا: العلم أفضل مكتسب، وأكرم منتسب، وأشرف ذخيرة تُقتنى، وأطيب ثمرة تُجْتنى، وبه يتوصّل إلى معرفة الحقائق، ويتوصّل إلى رضا الخالق، وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها، وأكرم فروعه وأزكاها، لا يضيع أبدًا صاحبه، ولا يفتقر كاسبه، ولا يخيب طالبه، ولا تنحطّ مراتبه. وقال معاذ بن جبل: تعلّموا العلم فإنّ تعليمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والوزير عند الخلاء،

(١) الأبيات ليست في ديوان أبي الأسود الدُؤلي، وهي لشريح بن الحارث القاضي، في ديوانه، وهي خمسة أبيات منفردة.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمّال ٢٨٧٨٣، ٢٨٩١٠.

والقريب بين الغرباء. شاعر[١]: [البسيط]

أجلّ ما يُبْتغى يومًا ويُكْتسب ... ويُجْتنى من حُلا الدنيا ويُنْتخبُ
علمٌ شريف عميمُ النَّفْع قد رفعت ... لحامليه بآفاق العُلا رُتَبُ
إن عاشَ عاشَ جميلًا ساميًا أبدًا ... لا يُسْتضام ولا يُنْسى فيُجْتنبُ
وإن تمّت فثناء شائع حسن ... بعده رحمة ترجى وترتقبُ

آخر[٢]: [البسيط]

العلم أعلى مِنَ الأمْوال منزلةً ... لأنه حافظ والمال محفوظُ

وقالوا: العلم عزٌّ لا يبلى جديده، وكنز لا يفنى مزيده. وقال ابن المقفّع: تعلّموا العلم، فإن كنتم ملوكًا فقتم، وإن كنتم أوساطًا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم. وقالوا: لو لم يكن من شرف العلم إلّا أن الملوك حكّام على الناس، والعلماء حكّام على الملوك لكفى بذلك شرفًا. وقال بعضهم[٣]: [الكامل]

العلم فيه جلالة ومهابة ... والعلم أنفع من كنوز الجوهرِ
تفنى الكنوز على الزّمان وصَرْفه ... والعلم يبقى باقيات الأعصرِ

ويحتاج طالب العلم إلى ستّة أشياء: فراغ وجِدّه وجدّ وأستاذ وطول عمر ومعونة من الله تعالى، وهذا ملاكها الذي لا بدّ منه، ولا غناء لأحد عنه.

نظم ذلك الشاعر، فقال[٤]: [الطويل]

أصخ لي فليس العلم إلا بستة ... سأنبيك عن مجموعها ببيانِ
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وإرشاد إستاذ وطول زمانِ

وقالوا: العلم ميت يحييه الطلب، فإذا حيي فهو ضعيف يقوّيه الدرس، فإذا قوي بالدرس فهو مُحتجب تظهره المناظرة، فإذا ظهر فهو عقيم نتاجه العمل.

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ١٠٧٧.
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

شاعر[١]: [المنسرح]

العلم مِنْ شرطه لمن خدمه أن يجعل الناس كلّهم خَدَمَهْ
وواجب حفظه عليه كما يحفظ ما عاش ماله ودمَهْ
ومن حوى العلم ثمّ أودعه غير محبّ له فقد ظلمَهْ
وكان كالمبتني البناء إذا تمّ له ما أراده هَدَمَهْ

الفصل الثاني من الباب الثالث

في ذكر الفعل الرشيد الدالّ على العقل المشيد

قالوا: العقل أصل لكل محمود مِنَ الأخلاق، فإذا عدم الأصل فلا بقاء للفرع مع عدم الأصل. وقيل للحسن بن عليّ رضي الله عنهما: متى يكون العاقل عاقلًا؟ قال: إذا عقله عقله عمّا لا ينبغي، فهو عاقل. وقال عليّ بن عبيدة الزنجاني: العقل ملك والخصال الحسنة رعيّته، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخَلَل إليها. وقال بعض الحكماء: الملائكة روحٌ وعقل، والبهائم نفسٌ وهوى، والإنسان يجمع الكل ابتلاء، فإن غلب الروح والعقل على النفس والهوى فضل الملائكة، وإن غلبت النفس والهوى على الروح والعقل فضلت البهائم، فالعاقل من ذاد عن مراتع الهوى نفسه، وكفّها عن شهوات تقرّب إليه رمسه. قال رسول الله ﷺ: «حبّك الشيء يُعْمي ويصمّ»[٢]. وقالوا: «الهوى خادع للألباب، صارف عن الصواب، صاحبه أعمى مبصر أصمّ سميع». وقالوا: الهوى أشأم دليل، وألأم خليل، وأغشم والٍ، وأغشّ مُوالٍ، يكذب العيان، ويقلب الأعيان، ويجلب الهوان. وقال أبو بكر بن دريد[٣]: [الرجز]

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا

(١) الأبيات للشافعي في الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار، للسيوطي، ص ٥٨، وليست في ديوانه.
(٢) أخرجه أبو داود حديث ٥١٣٠، وأحمد في المسند ٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠.
(٣) الرجز في ديوان ابن دريد، من قصيدة مطلعها:
يا ظبية أشبه شيء بالمَها ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وقال بعض الصالحين: الهوى مركبٌ ذميم، يسير بك في مضلّات الفِتَن، ومرتع وَخِيم يقعدك في مواطن المحن، ويُعلّقك في حبائل الإحن، ويقال: مَنْ كان لعنان هواه أملك كان لطرق الرّشاد أسلك، ويقال: بغلبة سلطان العقل على الهوى يُنال السؤدد. وقال شاعر[١]: [الكامل]

واعلم بأنّك لن تسود ولن ترى طرق الرّشاد إذا اتّبعت هواكا

آخر[٢]: [الطويل]

إذا أنت لم تَغْصَ الهوى قادك الهوى
إلى كلّ ما فيه عليك مقالُ

ويقال: عبد الهوى أذلّ من عبد الرقّ. وقالوا: أعقل الناس مَنْ عصى مراده، ولم يَعْطِ الهوى قياده. شاعر[٣]: [مجزوء الكامل]

إنَّ الرَّدى تَبَع الهوى ومِنَ الهوى حلو ومرُّ
اقنع بعيشك تَرْضَه واملك هواك وأنت حرُّ

وقال عليّ بن الحسين المغربي[٤]: [المجتث]

ما للمطيع هواه من الملام ملاذُ
فاخْتَرْ لنفسك إمّا عرض وإمّا التذاذُ

وقال الحكيم لولده: اعْصِ هواك وأطِعْ مَنْ شِئْت.

قال بعضهم[٥]: [الطويل]

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد ثكلته عند ذاك ثواكلُه
وقد أشْمَتَ الأعداء حقًّا بنفسه وقد وجدت فيه مقالًا لا عواذلُه

---

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٢) البيت بلا نسبة في الفاضل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٢١٣؛ والكامل في اللغة والأدب، للمبرد أيضًا، ص ٦٥٧.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان في ديوان الوزير المغربي، وهما بيتان منفردان.
(٥) البيتان بلا نسبة في التذكرة السعدية، للعبيدي، ص ٢٣.

آخر وأجاد[١]: [الطويل]

إذا ما دَعَتْك النّفس يومًا لشهوة وكان عليها للحرام طريقُ
فخالف هواها ما استطعت فإنّما هواها عدوّ والخلاف صديقُ

وقالوا: كَمْ مِنْ عقلٍ أسير، عند هوى أمير. شاعر: [الطويل]

وعاص الهوى المُرْدي فكم من محلّق إلى النّجم لما أنْ أطاع الهوى هوى

ولبعضهم[٢]: [الطويل]

وما يزع النفس اللّجوج عن الهوى مِنَ الناس إلا حازم الرأي كاملُهْ

وقالوا: أعدل الناس مَنْ أنصف عقله مِنْ هواه، ومنع نفسه مما يكون سببًا لبلواه، ولحظ الأشياء بعين فكره وإضماره، فعلم من ورود الأمور عاقبة إيراده وإصداره، فيحسن بأفعاله حمد الأوداء، ويأمن في ماله كَيْد الأعداء؛ كما حُكِي أن نصيبًا دخل على عبد الملك بن مروان فتغدّى معه، فلما رأى عبد الملك ظُرْفه وأدبه، قال له: هل لك فيما نتنادم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين لوني حائل، وشعري مغلغل، وخلقي مشوّه، ووجهي قبيح، ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي لا لشرفِ أبٍ ولا كرم أمّ، وإنما بلغته بعقلي ولساني، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تَحُول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة عندك، فأعفاه، وما أحسن قول الخبزأرزي مشيرًا إلى قول نصيب[٣]: [المتقارب]

أرى الكأس تُذْهِب عقل الفتى فيذهل عن كلّ مستمتعِ
ولولا ابتهاجي بكم لم أكُنْ لأشرب أكثر مِنْ أربعِ
وقالوا سرور فقلت السرور بأن تتركوني وعقلي معي

وقال آخر[٣]: [الكامل الأحذ]

رطلان لا أزداد فوقهما في الشرب إن حضروا وإن وحدي
فليغتفر لي مَنْ ينادِمُني إني أحبّ عواقب الرّشدِ
وأريد ما يقوى به بدني وأجانب الأمر الذي يردي

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وعلى ذكر ما ينتج من شرب الخمر من زوال الذّهن وذهاب العقل، فحسن قول مَنْ قال: الخمر مصباح السرور، ولكنها مفتاح الشرور، وقول أبي الفضل الميكاليّ[(١)]: [الخفيف]

عيّرتني ترك المُدام وقالت   هل جفاها مِنَ الرجال لبيبُ
هي تحت الظلام نور وفي الأكـ   ـباد بردٌ وفي الخدود لَهيبُ
قلت يا هذه عدلت عن النصـ   ـح وما للرّشاد فيك نصيبُ
إنها للستور هَتْك وفي الألـ   ـباب فتك وفي المعاد ذنوبُ

وقال رجل لابنه وهو يتعاطى الشراب: احذره، فإنه قَيْء في شدقك، أو سلح على عقبك، أو حدّ في ظهرك. وقال الحصنكي ذاكرًا لهذه العيوب[(٢)]: [المديد]

ونديم بتّ أعذله   ويرى عذلي مِنَ العبثِ
قلت إنّ الخمر مخبثة   قال حاشاها مِنَ الخُبْثِ
قلت منها القَيْء قال نعم   شرفت عن مخرج الخبثِ
قلت للأزمات تشربها   قال طيب العيش في الرّفثِ

وقريبٌ من هذا ما حُكِي أن الحجّاج وفد على الوليد بن عبد الملك، فلمّا كان بعد أيام وقد أخذا يتجاذبان أذيال المذاكرة، فقال له الوليد: هل لك في الشراب؟ قال: يا أمير المؤمنين ليس محظورًا مداخلة أمير المؤمنين، ولكني أمنع أهل عملي منه وأكره أن أخالف قول العبد الصالح لقومه، وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنها، فاستحسن ذلك منه وأعفاه. وقال إسحـٰق بن إبراهيم الموصلي: دخلت على الهادي فقال: غنّني صوتًا أطرب منه ولك حكمك، فغنّيته[(٣)]: [الطويل]

وإنّي لتعروني لذكراك هزّة   كما انتفض العصفور بلّله القطرُ

(١) الأبيات في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٢٥١٦.
(٢) الأبيات للخطيب الحصكفي في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.
(٣) البيت لأبي صخر الهذلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
إذا قلت هذا حين أسلو يهيجني   نسيم الصّبا من حيث يطلع الفجرُ

فقال: أحسنت والله، وضرب بيده إلى دراعته فشقّ منها ذراعًا، فقال: زدني، فغنّيته[1]: [الطويل]

فيا حبّها زدني جوًى كلّ ليلة ويا سلوة الأحباب موعدك الحشرُ

فقال: أحسنت، ثم ضرب بيده إلى دراعته فشقّ منها ذراعًا آخر، فقال له: زدني، فغنّيته[2]: [الطويل]

هجرتُك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبرُ

فقال: أحسنت، وشقّ باقي دراعته من شدّة الطرب ثم رفع طرفه إليّ، وقال لي: تمنّ واحتكم، فقلت: أتمنى عين مروان، قال إسحٰق: فرأيته وقد دارت عيناه في رأسه حتى خلتهما جمرتين، ثم قال: يا ابن اللخناء، أتريد أن تشهرني بهذا المجلس وتجعلني سمرًا وحديثًا يقول الناس أطربه فوهبه عين مروان، أمَا والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحة عقلك، لألحقتك بمن غبر من أهلك، ثم أطرق إطراق الأفعوان، فرأيت ملك الملك بيني وبينه ينتظر أمره فيّ، ثم رفع رأسه ودعا بإبراهيم بن ذكوان وقال له: خذ بيد هذا الجاهل وأدخله بيت المال، فإن أخذ ما فيه فدعه وإيّاه، قال إسحٰق: فدخلت وأخذت ما يساوي عين مروان أضعافًا.

وما أحسن ما قال بعض البلغاء يصفُ إنسانًا بصيرًا بالعواقب: فلان يُعْرَف من مبادىء الأحوال خواتيم الأعمال، ومِنْ صدور الأُمور إعجاز ما في الصدور. وقال آخر: فلان يرى العواقب في مرآة فكره فلا يشتبه عليه نفعه بضرّه.

نادرة: قيل لبعض المجانين: هل لك في الشراب؟ فقال: إنّ العاقل يشرب الخمر حتى يتشبّه بي، فأنا إذا شربته فبِمَن ذا أتشبّه. وأحسن منها ما يُحكى: أنّ أعرابيًا راود امرأة عن نفسها فأنعمت له، فلما قعد بين شعبتيها قام عنها ولم يَقْضِ وطرًا، ولا عفى مِن غرضه أثرًا، فقالت له: يا هنّاه ما الذي عراك وقد بلغت مناك، فقال: إنّ رجلًا يبيع جنّة عرضها السمٰوات والأرض بأصبعين بين فخذيك لقليل الخبرة بالمساحة. والعاقل مَنِ اهْتَدى بمشورة نُصَحائه، وكشف لهم عن مستور أغراضه وأنحائه. قال الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]، فهذا الخطاب لمحمد ﷺ ليعلم

---

(١) انظر الحاشية السابقة. (٢) انظر الحاشية ما قبل السابقة.

أصحابه ما في المشورة من البركة لا لحاجة منه لرأيهم؛ إذ هو المؤيّد في حركاته وسكناته بالوحي مِنْ ربه، والمستغني بما يلقى في روعه من الرأي المُصيب عن آراء صحبه. قال الحسن البصريّ: إنّ الله عزّ وجلّ لم يأمر نبيّه ﷺ لحاجة به إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعرّفهم ما بالمشورة مِنَ البركة. وقال عليه الصّلاة والسلام: «المشورة حصنٌ من النّدامة وأمْنٌ مِنَ الملامة»[١]. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجلٌ ينظر في الأُمور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها، ورجلٌ متوكّل لا يتأمّل فإذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأي وقَبِل قولهم، ورجلٌ حائرٌ بائر لا يأتم رشدًا ولا يطيع مُرْشدًا. وقالوا: مادّة العقل مِنَ العقول، كمادّة الأنهار مِنَ السيول. وقال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه: نِعْم المؤازرة المشورة، وبِئْس الاستعداد الاستبداد. وقال حكيم لولده: يا بنيّ إنّ رأيك إنِ احتجت إليه وجدته نائمًا ووجدت هواك يقظان، فإيّاك أن تستبدّ برأيك فيغلبك حينئذٍ هواك. وقالوا: الخطأ مع الاستشارة أحمد مِنَ الإصابة مع الاستبداد. ويقال: إذا استخار العبد ربّه واستشار صديقه واجتهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضي الله في أمره ما أحبّ. وقالوا: مَنِ استغنى برأيه فقد خاطر بنفسه. وقالوا: عليك بالمشورة فإنها تأمر بالتي هي أحسن، وتهدي للّتي هي أقوم. وقالوا: لا تستبدّ بتدبيرك، ولا تستخفّ بأميرك، فمن استبدّ بتدبيره زلّ، ومَنِ استخفّ بأميره ذلّ. وقالوا: مَنْ شاور الأخلاء أمِنَ مِنْ كَيْد الأعداء. ومِنْ أمثالهم: زاحم بعود أو دَعْ. وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر مِنْ أبيات[٢]: [المتقارب]

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبًا ولا تعْصِه
وإن ناصح منك يومًا دنا ... فلا تنْأ عنه ولا تُقْصِه

ولآخر[٣]: [الكامل]

إنّ اللّبيب إذا تفرّق أمره ... فتق الأُمور مناظرًا ومشاورا
وأخو التكبّر يستبدّ برأيه ... وتراه يعتسف الأُمور مخاطرا

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) البيتان من قصيدة، تُنسب لصالح بن عبد القدوس، وطرفة بن العبد، وعبد الله بن معاوية، انظر دواوينهم، ومطلع القصيدة:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً ... فارسل حكيمًا ولا توصِهِ

(٣) البيتان لمحمود الورّاق في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

بشار بن برد[١]: [الطويل]

إذا بلغ الرَّأي المشورة فاسْتَعِنْ ... برأي نصيح أو نصاحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإنّ الخوافي قوّة للقوادم
وما خير كفّ أمسك الغلّ أختها ... وما خير سيف لم يؤيّد بقائم

آخر[٢]: [الكامل]

لا تحقرنّ الرأي وهو موافق ... حكم الصواب إذا بدا مِنْ ناقصِ
فالدرّ وهو أجلّ شيء يُقْتَنى ... ما حطّ رتبته هوان الغائصِ

آخر[٣]: [البسيط]

شاور سواك إذا نابَتْك نائبة ... يومًا وإن كُنت مِنْ أهل المشوراتِ
فالعين تلقى كفاحًا دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآةِ

آخر[٤]: [المتقارب]

تأنّ وشاور فإنّ الأُمو ... ر منها مضيء ومستغمضِ
فرأيان أفضل مِنْ واحدٍ ... ورأي الثلاثة لا يُنْقضِ

قال بزرجمهر: أفره الدواب لا غنى له عن السوط، وأعقل النساء لا غِنى لها عن الزّوْج، وأدهى الرجال لا غنى له عن المشورة.

فمن يُعْتَمد عليه في المشورة مَنْ تكون النفس بآرائه مسرورة

قالوا: لا تدخل في مشورتك بخيلًا في عطاء فيقصر بك، ولا جبانًا في حرب فيخوّفك، ولا حريصًا في بذل فيصدّك، فإنّ البخل والجبن والحرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظنّ بالله. قيل: استشار زياد رجلًا، فقال: حقّ المستشار أن يكون ذا عقلٍ وافر، واختبار متظاهر، ولا أراني كذلك.

---

(١) الأبيات في ديوان بشار بن بُرد، من قصيدة مطلعها:

أبا مسلم ما طول عيشٍ بدائم ... ولا سالمٌ عمّا قليل بسالمِ

(٢) البيتان للطغرائي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان لفتيان الشاغوري في ديوانه، ولناصح الدين الأرجاني في ديوانه، وهما بيتان منفردان في الديوانين.

(٤) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري.

قال الشاعر[١]: [الوافر]

خصائص مَنْ تشاوره ثلاث ... فخذ منها جميعًا بالوثيقَهْ
وداد خالص ووفور عقل ... ومعرفة بحالك في الحقيقَهْ
فمن حصلت له هذي المعاني ... فتابع رأيه والزم طريقَهْ

وقال آخر[٢]: [المتقارب]

إذا الأمر أشكل إنفاذه ... ولم تَرَ منه سبيلًا نجيحا
فشاور لأمرك في ستره ... أخاك اللّبيب الشفيق النّصيحا

آخر[٣]: [الكامل]

وإذا الأمور عليك يومًا أشكلت ... فاعمد لرأي أخ نصيح مرشدِ
واحفظ نصيحة من بدا لك ودّه ... وبرأي أهل الخير جهدك فاهتدِ

آخر[٤]: [الطويل]

فما كلّ ذي ودّ بموليك نصحه ... ولا كل مؤت نصحه بلبيبِ
ولكن إذا ما استجمعا عند واحدٍ ... فحقّ له من طاعة بنصيبِ

وقال الأحنف بن قيس: لا تشاور المعزول، فإن رأيه مغلول. وقالوا: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يُروى، ولا الأسير حتى يُطلق، ولا المقلّ حتى يجد، ولا الراغب حتى ينجح. وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوّك فجرّد له النصيحة؛ لأنه قد خرج بالاستشارة من عداوتك إلى موالاتك. ولما نوى ابن أبي مريم قاضي مروان أن يزوّج ابنه استشار جارًا له مجوسيًا، فقال: سبحان الله يستفتونك وأنت تستفتيني؟ قال: لا بدّ أن تشير عليّ، فقال: إن كسرى رئيس

---

(١) الأبيات لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديه.
(٣) البيتان لم أجدهما.
(٤) البيتان ينسبان لأبي الأسود الدُّؤلي، وابن عبد ربّه الأندلسي، وبشار بن برد. ومطلع القصيدة في ديوان أبي الأسود الدُّؤلي:

أمنت على السرّ امرءًا غير حازم ... ولكنّه في النصح غير مُريبِ

ومطلع القصيدة في ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي:

أيقتلني دائي وأنت طبيبي ... قريبٌ وهل من لا يرى بقريبِ

وهما بيتان منفردان في ديوان بشار بن برد.

الفرس كان يختار المال، وقيصر رئيس الروم كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار النَّسب، ومحمّدًا نبيّكم كان يختار الدِّين، فانظر بمن تقتدي. وقالوا: لا تشاور بخيلًا في صِلةٍ، ولا جبانًا في حربٍ، ولا شابًا في جارية. وقال بعض الحكماء: عليكم بمشورة مَنْ حلب ضرع دهره، ومرّت عليه صروف خيره وشرّه، وبلغ مِنَ العمر أشدّه، ومن التجربة أورى زنده، ولذلك كانت العرب تقتدي برأي الشيوخ، وتعتمد في النَّوازل على مشورة الكُهُول؛ لما يوجد فيهم من أصالة الرّأي وإصابة الحدس وصحة النظر مع ما مُنِحوا مِنْ حُسْن الاختبار، وسَمْت الوقار. وقد عدل قوم عن هذا المرتع، ونزعوا غير هذا المَنْزِع، فجعلوا للشباب أيسر الأقسام مِنْ توقّد الفِطْنة، وأوفر السّهام من نشاط النفس وقوّة المِنَّة، فربما قَصُرت عن مقاومتهم الكهول، ولجأت إليهم في كثير من تنقيح الفروع والاصول، لتوفّر غريزة العقل فيهم، وحدّة الخاطر التي تُرْشدهم إلى الصواب وتُهْديهم؛ ولهذا قال الشاعر[1]: [الوافر]

رأيت العقل لم يكن انتهابًا ولا يقسم على عدد السّنينا
ولو أنّ السنين تقسّمته حوى الآباء أنصبة البنينا

وكان بعض الحكماء يقول: عليكم بآراء الأحداث ومشورة الشبّان؛ لأن لهم أذهانًا تقدّ القواصل، وتحطّم الذوابل. وقالوا: آراء الشبّان خَضِرة نَضِرة لم يهصر غصنها هرم، ولا أذوى زهرها قدم، ولا خَبَا مِنْ ذكائها بطول المدّ ضرم؛ وقال الشاعر[2]: [الطويل]

عليكم بآراء الشباب فإنّها نتائج ما لم يبلّه قدم العهدِ
فروع ذكاء تستمدّ من النّهى بأنور في الآراء من قمر السّعدِ

ومِنْ أحسن ما قيل في مدح شابّ غزير العقل، كثير الفضل، طاهر الفعل قول الشاعر[3]: [الكامل]

أدركت ما فات الكهول من الحِجَا في عنفوان شبابك المستقبلِ
وإذا أمرت فلا يقال لك اتّئِدْ وإذا قضيت فلا يقال لك اعدلِ

---

(١) البيتان بلا نسبة في زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري القيرواني، ص ٤٣٨.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أكثرت في لوم المحبّ فأقلِلِ وأمرت بالصبر الجميل فأجملِ

وقيل: بل العاقل مَنْ أخذ بالاستبداد في الأمور، وأجراها مختارًا على حكم القضاء المقدور. قال المهلّب بن أبي صفرة: لو لم يكن في الاستبداد بالرأي إلّا صون السرّ وتوفير العقل؛ لوجب التمسّك به. وقال بزرجمهر: أردت نصيحًا أثق به فما وجدت غير فكري، واسْتَضأت بنور الشمس والقمر فلم أستضىء بشيءٍ أضوأ من نور قلبي. وقال عليّ بن الحسين رضي الله عنهما: الفِكْر مرآة تُرِي المؤمن سيّئاته فيقلع عنها، وحسناته فيُكْثِر منها، فلا تقع مقرعة التقريع عليه، ولا تنظر عين العواقب شزرًا إليه. وقال عبد الملك بن صالح: ما استشرت أحدًا قطّ إلّا تكبّر عليَّ وتصاغرت له ودخلته الغرّة ودخلتني الذلّة، فعليك بالاستبداد فإنّ صاحبه جليلٌ في العيون، مهيب في الصدور، وإنك متى استشرت تضعضع شأنك، ورجفت بك أركانك، وما عزّ سلطان لم يُغْنه عقله عن عقول وزرائه، وآراء نصحائه، فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب واشتبهت لديك المسالك؛ وأنشد[1]: [الطويل]

فما كلّ ذي لبّ بمؤتيك نصحه ... ولا كلّ مُؤْتٍ نصحه بلبيبِ

وقال عبد الله بن طاهر: ما حكّ ظهري مثل ظفري، ولأن أخطىء مع الاستبداد ألف خطأ أحبّ إليّ مِنْ أن أستشير، فألْحظ بعين النقص والتقصير.

وما أصدق قول القائل[2]: [البسيط]

ليس احتيالٌ ولا عقلٌ ولا أدبٌ ... يجدي عليك إذا لم يسعد القدر
ولا تـوانٍ ولا عجزٍ يضرّ إذا ... جاء القضاء بما فيه لك الخير

وعلى المستبدّ أن يتروّى في رأيه، فإنّ أفضل الرّأي ما أجادت الفكرة نقده، وأحكمت التروية عقده. وقالوا: كل رأي لم تتمخّض به الفكرة ليلة كاملة، فهو مولود لغير تمام. شاعر[3]: [الطويل]

إذا كنت ذا رأي فكُنْ ذا إناءة ... فإنّ فساد الرأي أن تتعجّلا
وما العجز إلّا أن تشاور عاجزًا ... وما الحزم إلّا أن تهمّ فتفعلا

---

(١) تقدّم البيت مع تخريجه قبل قليل. (٢) البيتان للعتبي في ديوانه، وهما مطلع القصيدة.
(٣) البيتان لعيسى بن عليّ في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٥٦٧.

وقال شاعر في مستبدّ[١]: [الكامل]

ذهب الصّواب برأيه فكأنّما آراؤه خُلِقت من التّأييدِ
وإذا دجا خطب تبلّج رأيه صبحًا من التّوفيق والتسديدِ

وقالوا: فلان الخير معقود في نواصي آرائه، واليُمْن مُنقادٌ في نواحي أنحائه، فلان إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظلام الأمر. وقال ابن العميد: العاقل مَنِ استنتج في كل أمرٍ خاتمته، وعلم من كل بدء عاقبته، وطالع بقلبه من كل غصن ما يُخفى منه، ومِنْ كل زرعٍ ما يُحْصَد عنه. ولله مَنْ قال مادحًا إصابة الرأي[٢]: [الطويل]

وذو يقظات مستمرّ مريرها إذا الدّهر لاقاها اضمحلّت نوائبُهْ
بصير بأعقاب الأمور كأنّما يخاطبه مِنْ كل أمرٍ عواقبُهْ
وأين يفرّ الحزم منه وإنّما مُرائي الأُمور المشكلات تجاربُهْ

وقال أبو عبادة البحتريّ في سليمان بن عبد الله[٣]: [البسيط]

يريك بالظنّ ما فاق اليقين به إذا تلبس دون الظنّ إيقانُ
كأنّ آراءه والحزم يتبعها تريه كلّ خفيّ وهو إعلانُ
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تَنَمْ عينه فالقلب يقظانُ

ومنها[٤]: [البسيط]

يرى العواقب في أثناء فكرته كأنّ أفكاره بالغيب كُهّانُ
لا فكرة منه إلّا تحتها عمل كالدّهر لا دورة إلّا لها شانُ

وله[٥]: [البسيط]

يريك بالظنّ ما قلّ اليقينُ به والشاهدان عليه العَيْن والأثرُ
كأنه وزمام الدُّهر في يده يرى عواقب ما يأتي وما يَذَرُ

---

(١) البيتان لمحمد بن إدريس الطائي، في معجم الشعراء، للمرزباني، ص ٧١٨؛ ولأبي تمام الطائي في ربيع الأبرار، للزمخشري، وليس في ديوانه.

(٢) الأبيات لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أهِن عَوادي يوسف وصواحبُه فعزمًا فقدمًا أدرك السُّؤل صاحبُهْ

(٣) الأبيات ليست في ديوان البحتري. (٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) البيتان ليسا في ديوان البحتري، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر(١): [الوافر]

بـديـهـتـه وفـكـرتـه سـواء إذا مـا نـابـه الـخـطـب الـخـطـيـرُ
واحـزم مـا يـكـون الـدهـر يـومًـا إذا عـجـز الـمـشـاور والـمـشـيـرُ

والعاقل مَنْ نصب من تحيله الحبائل
واقتنص بها شوارد المطالب والوسائل

قالوا: بالحيلة يستنزل الطير من جوّ السماء، ويستخرج الحوت من جوف الماء؛ فمن المحكيّ في ذلك ما ذكر أنّ رجلين وثبا على أحدِ مرازبة كسرى أنوشروان فقتلاه، ولم يعرفا فخشي إنْ هو لم يقتلهما به كان ذلك عارًا عليه وعجزًا يُنْسَب إليه، فقال في مجمع من الناس: إنّ مَنْ قتل المرزبان لعظيم القدرة، شديد البأس، ولو ظهر لجازَيْناه بما يستحقّ ورفعناه على الناس، فلمّا بلغهما كلامه ظهرا وأقرّا، فقال أنوشروان: إني مُجازيكما بما تستحقان، فإنه لا يكون جزاء من قتل سيّده وغدر به إلّا القتل، وأما رفعكما على الناس فإني أصلبكما على أطول جذع أجده، ثم أمر ففعل بهما ذلك. وأحسن منها حيلة عملت على الإسكندر فخفي عليه الصواب في التخلّص منها، وهي ما حُكِي عنه أنه كان لا يدخل مدينة عنوةً إلا هدمها وقتل مَنْ فيها، فقدم على مدينة كان فيها مؤدّب له، فخرج إليه فأعظمه وأكرمه وأكبره، ثم قال له: ما جاء بك؟ قال: أيها الملك إنّ أحقّ مَنْ زيّن لك أمرك وأعانك عليه لأنا، وإنّ أهل هذه المدينة أبوا طاعتك وطمعوا فيك لمكاني منك، وأحبّ أن لا تشفعني فيهم وأن تُخالفني في كل ما أسألك فيه مِنْ أمرهم، فلمّا سمع الإسكندر مقالته ظنّ ذلك نصحًا له، وأن غرض المعلم وافق غرضه وسُرّ بذلك، فلما رأى المعلم سروره طلب منه العهد على ذلك فعاهده، فلمّا استوثق منه ذلك قال: أيها الملك إني أرى من الرأي أن تهدم هذه المدينة وتَقْتل أهلها، فقال الإسكندر: لا سبيل إلى ذلك، ولا بدّ من مخالفتك، قال: فارتحل عنها إذًا، فارتحل.

---

(١) البيتان لأشجع السلمي في ديوانه، من ثلاثة أبيات هذه مطلعها، والبيت الثالث:

وصـدرٌ فـيـه لـلـهـمّ اتّـسـاعٌ إذا ضـاقـت بـمـا تـحـوي الـصـدورُ

والبيتان أيضًا لسلم الخاسر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

بـقـاء الـديـن والـدنـيـا جـمـيـعًـا إذا بـقـي الـخـلـيـفـة والـوزيـرُ

والبيتان لعليّ بن الجهم في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث نفسه عند أشجع السلمي.

أمر عمر بن الخطاب بقتل الهرمزان، فشكا العطش فأُتي بإناء فيه ماء، فلما تناوله أظهر رعشة في يده يُوهم أنها من خوفٍ، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشرب، فرمى الإناء من يد فكسره فأمر عمر بقتله، قال: أوَ ليس قد أعطيتني الأمان؟ قال: متى؟ قال: ألست قلت: لا بأس عليك حتى تشرب ولم أشرب، فقال عمر: قاتَله الله أخذ منّا الأمان ولم نشعر.

ومن ظريف الحِيَل ما حُكِي أنّ سلمان الفارسي خطب بنتًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأجابه إلى تزويجه فشقّ ذلك على ولده عبد الله وشكاه إلى عمرو بن العاص، فقال له: أنا أردّه عنك، فقال: إن ردَدْته بما يكره غضب أمير المؤمنين، فقال لك: عليَّ أن أردّه راضيًا ثم أتى سلمان فضرب بين كتفيه، وقال: هنيئًا لك أبا عبد الله هذا أمير المؤمنين يتواضع بتزويجك بنته، فالتفت إليه مغضبًا، وقال: إني متواضع والله لا أتزوّجها. وأسر معاوية عمرو بن أوس الأَوْدي، وكان مِنْ أصحاب عليّ يوم صفّين فقدّمه للقتل، فقال: لا تقتلني فإنك خالي، فقال: مِنْ أين أنا خالك ولم يكن بيننا وبين أود صهارة؟ فقال: إن أخبرتك يكن نافعي عندك؟ قال: نعم، قال: أليست أختك أمّ حبيبة زوجة النبيّ ﷺ أمّ المؤمنين؟ قال: بلى، قال: فأنا ابنها وأنت أخوها، فاستظرف قوله وخلّى سبيله. وحاصر سعد بن أبي وقاص حصن تَيْماء فطلب مَنْ فيه الأمان فأجابهم إلى ذلك، فلمّا تسلّمه قتل كلّ مَنْ فيه إلّا رجلًا واحدًا. وعزم معن بن زائدة على قتل جماعة من الأُسراء، فلما مثلوا بين يديه قام أصغر القوم، وقال: أيّها الأمير أتقتل أسراك وقد جاعوا وعطشوا، فأمر لهم بطعام وشراب، فلما أكلوا وشربوا قام إليه، وقال: أيّها الأمير أتقتل أضيافك، فحلم عليهم وخلّى سبيلهم. ولما قُبِض على ابن المقفّع وكل به رجل يعذّبه في مال طلب منه، فلما طال عليه ذلك وخشي على نفسه التلف اقترض من صاحب العذاب مائة ألف درهم، فكان بعد ذلك يرفق به خوفًا على ماله.

واقتحم رجل على الأحنف بن قيس مجلسه فلطمه، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: لطمني رجل من تميم، فأقسمت أن أقتصّ من سيّدهم، فقال له الأحنف: لم تبرّ في يمينك ولست بسيّد تميم، وإنما سيّدهم حارثة بن قدامة، فذهب الرجل إليه فوجده بين قومه فلطمه فأمر بقطع يده فقُطِعَتْ، فيقال: ما قطع يده إلّا الأحنف الذي جرّأه على غيره ولم يؤدّبه على فعله، وإنْ كانت هذه الحكاية

ليست جارية على المعهود من حلم الأحنف، فإنّ النفوس الشريفة تأبى الاسترسال في الاحتمال لما يحصل في حقّها من إهمال الجهال، كما قال أبو تمام حبيب بن أوْس الطائي معتذرًا عمّن أحوجه الذبّ عن سيادته إلى الخروج عن عادته[١]: [الوافر]

إذا أحوجت ذا كرم تخطّى إليك ببعض أخلاق اللّئام
وما خرق اللّئيم وإن تعدّى بأبلغ فيك من حِقْدِ الكرام

ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا العراق، وضمّ إليه روح بن زنباع، فلما دخل العراق أغري بالشراب وثقل عليه ابن زنباع، فقال يومًا: مَنْ يحتال لي فيه؟ فقال ثمامة الباهلي: أنا، ثم صار إلى دهليز روح وكتب على حائطه[٢]: [البسيط]

يا روح مَنْ لزنابير محرّشة إذا يقال لأهل المغرب الباغي
إنّ الخليفة قد شالت نعامته فاحتل لنفسك يا روح بن زنباغ

فلما قرأه ما ظنّ إلّا أن بعض الجنّ كتبهما، فعدا إلى بشر فاستأذنه في الرجوع إلى الشام، فامتنع بشر من الإذن له، وجعل يسأله أن يقيم فأبى فأذن له، فلمّا دخل على عبد الملك قال: الحمد لله على سلامتك يا أمير المؤمنين، قال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر فقال له: سخر بك بشر وأهل العراق لما ثقلت عليهم، فاحتالوا للراحة منك. وقدّم قوم غريمًا لهم إلى قاضٍ وادّعوا عليه بمال، فصدّقهم فأمره القاضي أن يدفع لكل ذي حقّ حقّه، فقال: إنّ لي ريعًا وقد حان استغلاله، فإن رأوا أن يؤجّلوني أيامًا حتى أستغلّه وأؤدّي إليهم حقوقهم، فلا بأس؛ فسألهم القاضي ذلك، فقالوا: والله ما نعلم له سبَدًا ولا لبدًا، فقال له القاضي: اذهب فقد فلسك غرماؤك. وحُكِي أنّ رجلًا أراد الحجّ فأودع عند رجل مالًا، فلمّا رجع طلبه منه فجحده أيّاه، فأتى إياسًا القاضي فأخبره، فقال له: لا تعلم أحدًا أنك جئتني وعُدْ إليّ بعد يومين، ثم دعا إياس ذلك الرجل المُودع عنده، وقال له: إنه قد تحصل عندنا مال لأيتام وأريد دفعه إليك ليكون وديعةً في حِرزك فحصّن بيتك

---

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام الطائي، والبيتان للبحتري في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٧٧٥، وليسا في ديوانه.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وانتخب أقوامًا ثقات يحملونه معك، فرجع الرجل وأصلح منزله ثم دعا إياس صاحب المال، وقال له: انطلق إلى صاحبك واطلب منه مالك، وقل له: إن أنت لم تردّه عليّ شكوتك للقاضي، فذهب الرجل إليه وطلب منه المال فردّه عليه، فأخبر الرجل إياسًا بذلك، فقال: ربما كانت الحيلة وسيلة إلى دَرْك المطلوب، ولم يعاود إياسًا ذلك الرجل المُودع عندما فيما وعده به.

والحازم مَنْ أضاف إلى تاج رئاسته عقودًا من جواهر سياسته

فإنهم قالوا: مَنْ طلب الرئاسة، فليصبِرْ على مضض السياسة. ويقال: إذا صحّت السياسة، ثبتت الرئاسة. وصف أنوشروان سياسته، فقال: لم أهزل في أمر ولا نهي، ولم أخلف في وعيد ولا وعد، وأعاقب للأدب لا للغضب، وأثيب للغنى لا للهوى، فأودعت قلوب الرعيّة هيبة لا يشينها منهم هلع، ومحبة لا يشوبها فيهم طمع، وعممت بالقول، وحذفت الفضول. وقال أردشير لأصحابه وقد سعى عنده بإنسان: إنما أملك الظواهر لا النيّات، وأحكم بالعدل لا بالرّضا، وأفحص عن الأعمال لا عن السّرائر. ومن كلامه: لا سلطان إلّا برجال، ولا رجال إلّا بمال، ولا مال إلّا بعمارة، ولا عمارة إلّا بعدل. وقالت الحكماء: أسْوَس الملوك لرعيّته مَنْ قاد أبدانها بقلوبها، وقلوبها بخواطرها، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرّهبة. وقالوا: قلوب الرعية خزائن ملكها، فما أودعها من شيء فليعلم أنه فيها. وقال بزرجمهر: العقل حديقة سياجها الشريعة، والشريعة سلطان يجب لها الطاعة، والطاعة سياسة يقوم بها المُلْك، والملك راعٍ يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمعه الرَّعيّة، والرَّعية سواد يستعبدهم العدل، والعدل أساسٌ به قِوام العالم. وقالوا: ينبغي للملك أن يتفقّد أمر رعيّته في كل شهر، وأمر خاصّته في كل يوم، وأمر نفسه في كل ساعة. وقال أبو منصور الثعالبي: إذا كان الملك واضح ميسم العدل، فارش مهاد الفضل باسط جناح البرّ، منبت نور المحبّة، ممتدّ ظلّ الهيبة، مالك عَنان السياسة، فقد أرّخ الزمان بحسن آثاره، وشقّ على الملوك شقّ غباره. ومِنْ كلام بعض البلغاء: خير الملوك من كفى وكفّ، وعفا وعفّ. وقال الشاعر في بعض ولاة بني مروان[1]: [الطويل]

إذا ما قضيتم ليلكم بمنامكم   وأفنيتم أيّامكم بمدامِ

(١) الأبيات لأبي الوفا الدمياطي، في تتمّة يتيمة الدهر، للثعالبي، ٥/٨٨.

فمن ذا الذي يغشاكم في ملمّةٍ ومن ذا الذي يلقاكم بسلامِ
رضيتم مِنَ الدنيا بأيسر بلغة بلثم غلام أو بشرب مُدامِ
ألم تعلموا أنّ اللّسان مُوكّلٌ بمدح كرام أو بذمّ لِئامِ

ويقال: ينبغي للملك أن يعمل بخصال ثلاثة: تأخير عقوبة المُسِيء، وتعجيل ثواب المُحْسن، والعمل بالأناة فيما صدت له؛ فإنّ في تأخير العقوبة إمكان العفو، وفي تعجيل ثواب المُحسن المسارعة بالطاعة، وفي الأناة انفساح الرأي واتّضاح الصواب. وسأل المأمون رسول الروم لمّا قدم عليه عن سيرة ملكهم، فقال: بذل عرفه، وسلّ سيفه، فاجتمعت عليه القلوب رغبةً، ولجأت إليه رهبةً، سهل النّوال، حزن النّكال، فالرجاء والخوف معقودان في يده؛ قال له: فكيف حكمه؟ قال: يردع الظالم، ويَحْنو على المظلوم، فالرّعيّة اثنان: راضٍ ومغتبط؛ قال: فكيف هَيْبته فيهم؟ قال: يتصوّر في القلوب فتخشع له الأبصار، فقال له المأمون: لله أبوك لقد أحسنت فيما وصفت. وما أحسن قول معاوية لمسلم بن زياد لمّا ولّاه خراسان: إن أباك كفاك أخاه عظيمًا، وقد استكفيتك صغيرًا، فلا تتكلن على عذرٍ مني فقد اتّكلت على كفاية منك، وإيّاك مني قبل أن أقول إيّاي منك، فإن الظنّ إذا أخلف مني فيك أخلف منك فيّ، وأنت في أدنى حظّك فاطلب أقْصاه، وقد أتعبك أبوك فلا ترينّ نفسك. وقال أنوشروان: الناس ثلاث طبقات، نسوسهم ثلاث سياسات: طبقة هم خاصّة الأبرار نسوسهم بالعطف واللّين والإحسان، وطبقة هم خاصّة الأشرار نسوسهم بالغلظة والعنف، وطبقة هم العامّة نَسُوسهم بالشّدّة واللّين كَيْلا تخرجهم الشّدّة ولا يبطرهم اللّين. وقال عبد الله بن طاهر[1]: [الطويل]

إذا كنتم للناس أهل سياسة فسوسوا كِرام الناس بالرّفق والبَذْلِ
وسوسوا لِئام الناس بالذُّلّ يَصْلُحوا على الذلّ إنّ الذلّ أوفق للنّذلِ

وقال معاوية بن أبي سفيان: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أنّ بيني وبين العامّة شعرة لما انقطعت؛ قيل له: وكيف ذاك؟ قال: إن جذبوها أرْخَيْتها، وإنْ أرخوها مددتها. وكان زياد إذا ولّى رجلًا عملًا، قال له: خذ عهدك فاخْتَر لنفسك إنْ وجدناك أمينًا ضعيفًا

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٥٠٩.

استبدلنا بك لضعفك، وسلمتك من معرّتنا أمانتك، وإن وجدناك قويًا خائنًا استعنا بقوّتك، وأحسنًا على خيانتك أدبك، وإن جمعت علينا الجرمين، جمعنا عليك المضرّتين، وإن وجدناك قويًا أمينًا زِدْنا في عملك، ورفعنا ذكرك، وأوطأنا عقبك. وقالوا: إذا كان للمحسن من الحقّ ما لا يقنعه، وللمسيء من أليم العذاب ما يقمعه، بذل المحسن النصح رغبة، وانقاد المسيء إلى الحقّ رهبة. ولا ينبغي لأحدٍ من الملوك أن يعدل عن قول أردشير بن بابك المستفاد منه، والمستفاض عنه، وهو قوله لبعض موابذته: اعلم أن الملك والدين أَخَوان تَوْأمان لا قوام لأحدهما إلّا بالآخر؛ لأن الدين هو أمن الملك وعِماده، والملك هو قائم سيف الدين ونجاده، ولا بدّ للملك من أُسّ، ولا بدّ للدين من حارس، فإن مَنْ لا حارس له ضائع، ومَنْ لا أُسَّ له مهدوم. واعلم أنه يجب على الملك وعلى الرَّعيّة أن لا يكون للفراغ عندهم موضع، فإن التضييع في فراغ الملك، وفساد الملك من فراغ الرعية. ويقال: شيئان إن صَلُح أحدهما صَلُح الآخر: السلطان والرَّعيّة. وقال المأمون: أَسْوَس الملوك مَنْ ساسَ نفسه لرعيّته فأسقط عنه مواقع حجّتها، وقطع مواقع حجّته عنها. كان الرشيد في بعض غزواته، فألحّ عليه الثلج ليلة، فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين أمَا ترى ما نحن فيه من الجهد والنَّصَب ووَعْثاء السفر، والرَّعيّة قارّة وادعة نائمة، فقال: اسكت فللرَّعيّة المنام وعلينا القيام، ولا بدّ للراعي من حراسة الرعية، وتحمّل الأذيّة، وإليه أشار بعض مُدّاحه[(١)]: [الكامل]

غَضِبْت لغضبتك الصوارم والقنا ... لـمـا نـهـضـت لـنـصـرة الإسلامِ
نـامـوا إلـى كَـنَـف بـعـد لـك واسعٌ ... وسـهـرت تـحـرس غـفـلـة الـنـوّامِ

والعاقل مَنْ شغله عيبه عن عَيْب مَنْ سواه
ولم يطع في جواب السَّفيه أمير هواه

قال رسول الله ﷺ: «طُوبَى لمن شغله عَيْبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل مِنْ ماله، ورحم أهل الذلّة والمَسْكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»[(٢)]. وقال عليه

(١) البيتان للشريف الرضيّ الموسوي، في المتحل، للثعالبي، ص ٥٤٤.

(٢) أخرجه الزُبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/٤٣٨، ٤٦٥، ٥٤٨؛ والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٤٤٤.

الصّلاة والسلام: «لا تتبّعوا عورات المسلمين، فإنّ مَنْ تتبَّع عورة أخيه المسلم تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته يُوشك أن يَفْضحه ولو في رحله»[1]. وقال أكثم بن صيفي: اسْتُر عَيْب أخيك لما تعلم من نفسك. وقالوا: أحمق الناس مَنْ أنكر مِنْ غيره ما هو مُقيمٌ عليه. قيل للربيع بن خُثَيْم: ما لك لا تعيب أحدًا؟ قال: لست عن نفسي راضيًا فأتفرّغ لعيوب الناس ومذامّهم. وقالوا: مَنْ أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون، ومن تتبّع مساوىء العباد فقد نَحِلَهم عرضه. قال الشاعر[2]: [البسيط]

لا تكشفنْ من مساوي الناس ما سَتَروا ... فيكشف الله سترًا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تُعِبْ أحدًا منهم بما فيكا

وما أحسن قول القائل[3]: [الطويل]

إذا شئت أن تَحيا سليمًا مِنَ الأذى ... ودينك موفور وعرضك صينُ
فلا ينتطق منك اللّسان بسَوْأةٍ ... فللناس سوءات وللناس ألسنُ
وعينك إن أبدت إليك مساوئًا ... لقوم فقل يا عين للناس أعينُ
فعاشر بإنصاف وكُنْ متودّدًا ... ولا تَلْقَ إلّا بالّتي هي أحسنُ

وقالوا: فلان يصمّ أذنه عن الفحشاء، ويُخْرِس لسانه عن التكلّم بها. وقال الشاعر يمدح[4]: [الطويل]

غنيّ عن الفحشاء أمّا لسانه ... فعفّ وأمّا طرفه فكليلُ

آخر[5]: [الطويل]

كريمٌ له عينان عينٌ عن الخنا ... تنام وأخرى في المكارم تسهرُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤٢١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٩٣، والسيوطي في الدرّ المنثور ٦/٩٣.

(٢) البيتان لمحمود الوزاق في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

واستغنِ بالله عن كل فانٍ به ... غني لكل وثق بالله يكفيكا

(٣) الأبيات للإمام الشافعي في ديوانه، من قصيدة من أربعة أبيات.

(٤) البيت بلا نسبة في التذكرة الفخرية، لبهاء الدين الإربلي، ص ٦٤١.

(٥) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر(١): [الطويل]

وإذا تـواخـاك امـرؤ بـقـبـيـحـه فـأجِـبْـه بـالإحـسـان والإجـمـالِ

حُكِيَ أنّ رجلًا عابَ رجلًا عند المأمون، فقال له المأمون: قد استدللنا على كثرة عيوبك بما تذكر مِنْ عيوب النّاس؛ لأنّ طالب العيوب إنما يطلبها بقدرِ ما هي فيه لا بقدر ما فيه منها؛ وقال الشاعر(٢): [الطويل]

أرى كـلّ إنـسـانٍ يـرى عَـيْـب غـيـره ويُـعْـمـى عـن الـعَـيْـب الـذي هـو فـيـهِ

ومـا خـيـر مـن تـخـفـى عـلـيـه عـيـوبـه ويـبـدلـه بـالـعـيـب عَـيْـب أخـيـهِ

وقالت رابعة العدويّة: الإنسان إذا نصح لله في نفسه أطلعه الجبار على مساوىء عمله، فيتشاغل بها عن خَلْقه.

والعاقل من جعل إغضاءه عن المساوي
حصنًا إليه من ذمّ اللّئام ياوي

يقال: ربما سخط العاقل فيبدي الرضا، ويغضي مثل جمر الغضا. وقيل لبزرجمهر: مَنْ أعقل الناس؟ قال: مَنْ لم يجعل سمعه غرضًا لسماع الفحشاء، وكان الغالب عليه التغافل. وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: مَنِ امْتَطى زمام التغافل ملك زمام المروءة. وقالوا: أشرف الكرم تغافلك عمّا تعلم. ويقال: التغافل مِنَ الكرام، يمنحهم الإجلال والإكرام. أنشد الباخرزي في الدمية لأبي الفضل عبد الله بن محمد الحيري رحمه الله تعالى(٣): [الكامل]

يـا مـن يـعـرّض بـالـخـنـا مـتـوهّـمًـا جـهـلـي بـه مـهـلًا فـإنـك جـاهـلُ

كـم مـرّة أغـضـيـت مـنـك عـلـى قـذًى لـولا الـنُّـهـى لـرأيـت مـا أنـا فـاعـلُ

---

(١) البيت لم أجده.

(٢) البيتان بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٥٦١؛ وروضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٢٤٢؛ وعقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري، ص ١٠٤؛ ولسعدون المجنون في فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، ص ٨٥٩، في ترجمته.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر(١): [الطويل]

ويشتمني النذل اللئيم فلا أرى كفؤًا لعرضي عرضه فأُجامله
أجرّ له ذيلي كأني غافلٌ أُضاحكه طورًا وطورًا أُخاتله

وقيل لبعضهم: مَنِ العاقل؟قال: الفَطِن المتغافل. قال الشاعر(٢): [الكامل]

أغرِض عن العوراء إنْ أسمعتها واسكت كأنك غافلٌ لم تسمعِ

ولبعضهم مُعْربًا بكرمه، ومعرّفًا بشِيَمِه(٣): [الطويل]

وإني لأغضى عن أُمورٍ كثيرةٍ ومِنْ دونها قطع الحبيب المواصلِ
وأعرض حتى يَحسب الناس أنني جَهِلت الذي آتي ولستُ بجاهلِ

آخر(٤): [الطويل]

وأغضي عن العوراء حتى يقال لي بأُذنيه وقرٌ عندها حين ينطقُ
حياءً وإكرامًا لعرض أصونه ولا خير في عرضٍ يظلّ يمزقُ

آخر(١): [مخلع البسيط]

دعي ملاحاة مَنْ هَجاني يا نفسُ إن تغفلي تُصاني
إذا حكيت البذا عليه فما هجاني سوى لساني

وأمّا ما قيل في التغاضي والاحتمال والكفّ عن جواب قبيح المقال

قالوا: أغفل الناس مَنْ لم يتجاوز الصمت في عقوبة السَّفيه. وقال بعض الحكماء: السكوت عن السَّفيه جواب، والإعراض عنه عقاب. قال الشاعر(٥):

---

(١) البيتان لم أجدهما.
(٢) البيت بلا نسبة في كتاب الأمثال، لأبي عبيد بن سلام، ص ٢١٢.
(٣) البيتان لابن كناسة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
إذا المرء يومًا أغلق الباب مرتجًا ليستر أمرًا كنت كالمتغافلِ
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) البيتان للإمام الشافعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

[الوافر]

إذ نطق السّفيه فلا تُجِبْه ... فخيرٌ مِنْ إجابته السكوتُ
فإن جاوبته فرَّجت عنه ... وإن خلَّيته كمدًا يموتُ

وقال بعضهم[١]: [الكامل]

لا ترجعنّ إلى السفيه حكاية ... إلّا جواب تحيّة حياكها
فمتى تحرّكه تحرك جيفةً ... تزداد نتنًا ما أردت حِراكها

آخر[٢]: [الطويل]

أرى الكفّ عن شتم السّفيه تكرّمًا ... أضرّ به من شتمه حين يشتمُ

وقالوا: إذا سَكَتَّ عن الجاهل فقد أوسعته جوابًا، وأوجعته عذابًا. ويقال: ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: حليمٌ من أحمق، وبرٌّ من فاجر، وشريفٌ من دَنِيء. شاعر[٣]: [الطويل]

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا ... أصبت حليمًا أو أصابك جاهلُ
فأصبحت إمّا نال عرضك جاهل ... سفيه وإمّا نلت ما لا تحاولُ

وقال بعض الأعراب يمدح قومه[٤]: [الطويل]

تخالهم صمًّا وعميًا عن الخنا ... وخُرْسًا عن الفحشاء عند التهاجرِ
ومرضى إذا لوقوا حياءً وعفّةً ... وعند الحفاظ كاللّيوث الجوادرِ

---

(١) البيتان لأبي العتاهية في الكشكول، لبهاء الدين العاملي، وليسا في ديوانه، وبلا نسبة في أمالي ابن الشجري، ص ١٢٠٦.

(٢) البيت للمؤمّل بن أميل المحاربي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أقاتلتي هندٌ وقتلي محرمٌ ... أمَا فيكم يا أيها الناس مسلمُ

(٣) البيتان لأوس بن حجر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

يا راكبًا إما عرضت فبلغن ... يزيد بن عبد الله ما أنا قائلُ

ولزهير بن أبي سلمى في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لسلمى بشرقي القنان منازلُ ... ورسم بصحراء اللبيين حائلُ

ولكعب بن زهير في ديوانه، من بيتين، هما:

وليس لما لا يركب الهوى بغيةٌ ... وليس لرحل حطّه الله حاملُ
إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخِنا ... أصبت حليمًا أو أصابك جاهلُ

(٤) الأبيات ليحيىٰ بن زياد الحارثي في ديوانه، وهي أربعة أبيات.

لهم دلّ إنصاف ولين تواضع وعفوٌ عن الموالي وحسن تصابرِ
تَخالُ بهم داء يخافون عاره وما وَصَمهم إلّا اتّقاء المعاذرِ

والعاقل من قنع من الدنيا باليسير وحصل فيها من التقوى زادًا للمسير

وصف رسول الله ﷺ الدنيا، فقال: «مَنْ صحّ فيها سقم، ومن سقم فيها برم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى عنها فتن، حلالها حساب، وحرامها عقاب، ومتشابهها عتاب، مَنْ طلبها فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن بَصُر بها بصرته، ومن نظر إليها أعمته»[١]. ووصف ابن السَّماك الدنيا، فقال: مَنْ نال منها مات فيها، ومَنْ لم ينل منها مات عليها. ووصف محمد بن تومر الدنيا، فقال: لحظة بين عدمين فيها شركاء متشاكسون. وقال حكيم: الدنيا تُطْلب لثلاثة أشياء: للغنى وللعزّ وللراحة، فمن قنع استغنى، ومن زهد فيها عزّ، ومن قلّ سعيه استراح. وقال عيسى عليه السلام: أنا الذي كبّيت الدنيا على وجهها، وجلست على ظهرها، فليس لي زوج تموت ولا دار تخرب. وقال ابن السمّاك: مَنْ جرّعته الدنيا حلاوتها بمَيْله إليها، جرّعته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها. وقال عليّ رضي الله عنه: الدُّنيا والآخرة كالمشرق والمغرب، إن قَرُبت مِنْ أحدهما بعدت عن الآخر. ويُروى عنه أنّه قال: الدنيا والآخرة ضرّتان متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، ثم قال: لا بل أُختان ولا يمكن الجمع بين الأختين. وقال عليه الصّلاة والسلام: «لَدُنياكم هذه أهْوَن في عيني من عراق جرو في يد مجذوم»[٢]. ويقال: عين الدَّهر تطرف بالمساوىء، والخلائق نيام بين أجفانها. وقال بعض المستقيلين منها، وأحسن[٣]: [المنسرح]

أفٍّ لدنيا ليست تواتيني إلّا بنقضي لها عرى ديني
عيني لجنبي تدير مُقْلتها تريد ما ساءها لتُرْديني

مرّ محمد بن واسع على قوم فسأل عنهم، فقيل له: هؤلاء الزهّاد، قال: وما قدر الدنيا حتى يُزْهَد فيها. وقال عليّ رضي الله عنه: الدنيا جيفة فمن أرادها

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) ينسب القول لعليّ بن أبي طالب، ولفظه: «والله لدنياكم أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم». انظر ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٥٥.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

فليصبر على مخالطة الكلاب. وقال منصور بن عمّار: الدنيا أوّلها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء. وقال لقمان لابنه: يا بنيّ بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا، ولا تَبِعْ آخرتك بدُنْياك فتخسرهما جميعًا. وقال الفضيل بن عياض: لو عُرِضت عليّ الدنيا بحذافيرها حلالًا لا أُحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تُصِيب ثوبه. وقال: جُعِل الخير كلّه في بيت، وجُعِل مفتاحه الزُّهد في الدنيا. وقال يوسف بن أسباط: إنّ الدنيا لم تُخْلَق ليُنْظَر إليها، إنما خُلِقت ليُنْظر بها إلى الآخرة. وقال إبراهيم بن أدهم: مساكين الأغنياء طلبوا الراحة فعدموها، ووجدها الزهّاد فلزموها.

ومن المنظوم في ذلك(١): [البسيط]

تبًّا لطالب دنيا لا بقاء لها ... كأنما هي في تصريفها حلمُ
صفاؤها كدرٌ سرّاؤها ضررٌ ... أمانها غدرٌ أنوارها ظلَمُ
شبابها هَرِمٌ راحاتها سقَمٌ ... لذّاتها ندمٌ وجدانها عدمُ
لا يستفيق من الإنكاد صاحبها ... لو كان ما منحت ما ضمنت إرمُ
فخلّ عنها ولا تَرْكَنْ لزَهْرتها ... فإنها نِعَمٌ في طيّها نقمُ
واعمل لدارِ نعيمٍ لا نفاد له ... ولا يُخاف به موتٌ ولا هرمُ

وقال بعض الزهّاد، وأحسن(٢): [الطويل]

ومن يحمد الدنيا لشيء يسرّه ... فسوف لعمري عن قليلٍ يلومُها
إذا أدْبَرت كانت على المَرْء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرًا همومُها

آخر(٣): [السريع]

يا خاطب الدنيا إلى نفسه ... لنته عن خطبها تسلمِ
إنّ التي تخطب غرّارة ... قريبة العرس مِنَ المأتمِ

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وقال أحمد بن عبد ربّه صاحب العقد(١): [الطويل]

ألَا إنَّما الدُّنيا غضارة أيْكة إذا اخضرَّ منها جانب جفّ جانبُ
هي الدار ما الآمال إلّا فجائعٌ عليها وما اللّذّات إلّا مصائبُ
فكم سخنت بالأمس عينٌ قريرةٌ وقرّت عيونٌ دمعها الآن ساكبُ
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

وذُكِرَت الدنيا عند الحسن البصري، فقال(٢): [الطويل]

ألَا إنَّما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيشٍ لا يكون بدائمِ
تأمّل إذا حاولت بالأمس لذّة فأفنَيْتها هل أنت إلّا كحالمِ

آخر(٣): [الرمل]

إنما الدُّنيا كظلٍّ زائلٍ طلعت شمس عليه فاضمحلّ
كان في دارٍ سواها داره علّلته بالمُنَى ثم ارتحلْ

آخر(٤): [الطويل]

لعمرك ما الدُّنيا بدارِ إقامةٍ ولكنها دارُ انتقالٍ لمن عقلْ
إذا رفعت حطّتْ وإنْ هي أحسنت أساءت وإنْ أعطت فأيّامها دُوَلْ

آخر(٥): [السريع]

مَزمومةٌ بالهمّ مخطومة سمُّ زعاق سمّ أخلافها
ولم تزل تقتل ألّافها أفّ لقتّالةِ أُلّافِها

---

(١) الأبيات في يتيمة الدهر، للثعالبي، ٢/ ٩.

(٢) الأبيات لابن عبد ربّه الأندلسي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:
وما الموت إلا شاهدٌ مثل غائب وما الناس إلا جاهل مثل عالمِ

(٣) في ديوان عليّ بن أبي طالب بيتان قريبان منهما، وهما:
إنما الدنيا كظلٍّ زائلٍ أو كضيف بات ليلاً فارتحلْ
أو كطيف قد يراه نائمٌ أو كبرقٍ لاح في أفقِ الأملْ

(٤) البيت الأول للخريمي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٥) البيتان لكاتب البرامكة أنس بن أبي شيخ، في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

ويقال: ليس الزَّاهد في الدنيا مَنْ زهد فيها وقد أعرضت عنه، وانبثّت منه ولم تمكّنه من متاعها، وضاقت عليه مع اتّساعها، وهو مضطرّ إلى ذلك لظهور عسرته، ونفود يسرته، وإنّما الزاهد في الدنيا مَنْ أقبلت عليه، وحشدت فوائدها إليه، وحَسُنت له في ذاتها، وأمكنته من لذّتها فأعرض عنها وزهد فيها. شاعر[1]: [الطويل]

إذا المَرْء لم يزهد وقد جُمِعَتْ له ضروبٌ مِنَ الدنيا فليس بزاهدِ

ويُرْوى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنّما الزاهد في الدنيا مَنْ يكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك»[2].

وما أكثر إنصاف مَنْ قال[3]: [الطويل]

نزاع بذكر الموت في حال ذكره ونعترض الدنيا فنلهو ونلعبُ
ونحن بَنُو الدنيا خلقنا لغيرها وما كان مِنْها فهو شيء محبّبُ

وقال بعض البُلغاء: صاحب الدنيا ساكن راحل، وأيّامه مراحل، وأنفاسه رواحل، صاحب الدنيا بين فرحة، وترحة، وحبرة، وعبرة، صاحب الدنيا بين العسل والصابّ، والصحة والأوصاب. حُكِي أنّ سليمان بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز، وقد أعجبه سلطانه: كَيْف ترى ما نحن فيه؟ فقال عمر: سرورٌ لولا أنه غرور، وحرم لولا أنه عدم، وملك لولا أنه هلك، وحياة لولا أنه موت، ونعيم لولا أنه عذاب أليم؛ فظهر في وجه سليمان الكآبة من كلام عمر ولم ينتفع بنفسه بعد ذلك، وتوفي في سنة ثمان وتسعين وهو ابن خمس وأربعين سنة، وكانت ولايته سنة ستّ وتسعين.

---

(1) البيت لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
قفوا جدّدوا من عهدكم بالمعاهدِ وإنْ هي لم تسمع لنشدان ناشدِ
ورواية البيت في الديوان:
إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له بعصفرها الدنيا فليس بزاهدِ
(2) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(3) البيتان لمحمد بن وهب الشاعر، في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

الفصل الثالث من الباب الثالث

في أنّ هفوات العقّال لا يُغْضى عنها ولا تُقال

كما قيل(١): [الكامل]

لا يحقر الرجل الرفيع دقيقة ... للسّهو فيها للوضيع معاذر
ذو العلم يعسر أن تُقال عثاره ... وتُقال عثرته الجهول العاثر

ولسليمان بن عبد الملك فيما قصدناه كلام هو النّور اللائح، والهادي إلى الطريق الواضح؛ وهو قوله: السكوت عمّا يعنيك خيرٌ من الكلام فيما يضرّك، والسكوت عمّا لا يضرّك خيرٌ من الكلام فيما لا يعنيك. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: زلّة الرجل تُجبر، وزلّة اللّسان لا تُبْقي ولا تذر. قال بعضهم(٢): [الطويل]

يموت الفتى من عثرةٍ مِنْ لسانه ... وليس يموت المرء مِنْ عثرة الرِّجلِ

وقالوا: طعن اللّسان أنفذ من طعن السّنان، وجُرْح الكلام أصعب مِنْ وقع السّهام. وقالوا: رُبّ لسان أتى على إنسان.

ذكر مَنْ ارسل سهمًا مِنْ فِيه فأصاب مقتل ولم يكد يخطئه

حُكِي أنّ رجلًا من الفرس وقف إلى شيرويه لما قتل أبرويز، فقال: الحمد لله الذي قُتِل أبرويز على يدك وملّكك ما كنت أحقّ به منه وأراحنا من عتوّه وكبره وتجبّره وبخله وجهله، فإنه كان يأخذ بالإحْنة، ويقتل بالظنّة، ويخيف البريّ، ويذلّ السريّ؛ فلما سمع شيرويه كلامه قال للحاجب: احمله إليّ، فلما مثله بين يديه قال: كم كان رزقك؟ قال: ألفين، قال: والآن؟ قال: ما زيد شيئًا، قال: فما دعاك إلى الوقوع فيه، وإنما ابتداء نِعْمتك من عنده ولم ترع له ذلك، وأمر بنزع لسانه من قفاه. ولما ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسين بالمدينة في أيام أبي جعفر المنصور دخل عليه سديف بن ميمون، فأنشده أبياتًا يحرّضه فيها على

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

فلا تكثرنّ القول في غير وقته ... وأدمن على الصّمت المزيّن للعقلِ

إظهار الدعوة ويطعن في دولة بني العبّاس، يقول فيها[١]: [البسيط]

إنّا لنأمل أن ترتدّ ألفتنا ... بعد التبعّد والشّحناء والإحَنِ
وتنقضي دولة أحكام قادتها ... فينا كأحكام قوم عابدي وَثَنِ
فانهض ببيعتكم ننهض ببيعتنا ... إنّ الخلافة فيكم يا بني حسنِ

فبلغت المنصور الأبيات، فكتب فيه إلى عبد الصمد بن عليّ، وكان عامله على مكّة، فأخذه وقطع يديه ورجليه وجدع أنفه، فلم يَمُت فدفنه حيًا. وكان دعبل الخزاعي هجّاء للملوك جسورًا على أعراضهم متحاملًا لا يبالي ما صنع حتى عُرِف بذلك واشتهر، فصنع على لسانه بكر بن حماد الباهري ممّن كان دعبل يُؤذيه ويهاجيه أبياتًا يهجو فيها المعتصم وذكر قومٌ أنّها له، وهي[٢]: [الطويل]

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم يَأْتِنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... كرامٌ إذا عدوا وثامنهم كلب
وما أنت عندي في الوفاء ككلبهم ... لأنك ذو ذنب وما أذنب الكلب

فبلغت المعتصم الأبيات فأمر بطلبه، فهرب إلى زويلة بلد السودان بناحية المغرب، فمات بها، وقيل: بالأهواز؛ وقيل لدعبل: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: لا والله، ولكن من حشا الله قبره نارًا ـ يعني إبراهيم بن المهدي ـ أشاط بدمي لما هجَوْته بقولي فيه، وهو خليفة[٣]: [السريع]

يا معشر الأعراب لا تقنطوا ... خذوا عطاياكم ولا تسخطُوا
فسوف نعطيكم شريجية ... لا تدخل الكيس ولا تُربطُ
والمعبديات لقوّادكم ... وما بهذا أحد يُغبطُ
وهكذا يرزق أصحابه ... خليفة مصحفه البربطُ

وكان المعتصم يلقّب بالثمانيّ؛ لأنه اتّفق له عدد الثمانية في كثيرٍ من أُموره، وُلِد في شعر شعبان وهو الثامن من شهور السنة، وهي سنة ثمان وسبعين ومائة، وهو ثامن بني العباس مولدًا، وثامنهم ولايةً، وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية

---

(١) الأبيات في العمدة، لابن رشيق القيرواني، ص ١٢٦.
(٢) الأبيات ليست في ديوان دعبل الخزاعي، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الأبيات في ديوان دعبل الخزاعي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

أشهر، وعمره ثمانًا وأربعين، وغزواته وفتوحاته ثمان، وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمان بنين، وثمان بنات، وترك ثمانمائة ألف دينار ومثلها دراهم إلى غير ذلك من عدد الثمانية.

رجع ما انقطع: ذكر أبو القاسم الإيادي أنّ جماعة من بني أُميّة دخلوا على أبي العباس السفّاح، وفيهم الغمر بن هشام بن عبد الملك، فألحّ إليه أبو العباس بالنظر، فلما رأى الغمر ذلك منه أنشده[1]: [الخفيف]

عبد شمس أبوك وهو أبونا ... لا نناديك من مكان سحيقِ

والقرابات بيننا واشجات ... محكمات العُرى بعقدٍ وثيقِ

فأعجبه ذلك منه، وأجلسه معه على السّرير وأقعد أصحابه يمينًا وشمالًا، وقال لهم: إني أُريد أن أخلطكم بنفسي وأستخلصكم لها، فشكروه على ذلك، فبينما هم يتحدّثون إذ دخل عليهم سديف، فأنشد السفّاح القصيدة التي أوّلها[2]: [الخفيف]

عمر الدين فاستبان مليًّا

حتى أتى على آخرها، فقال السفّاح: يا ابن هشام، كيف ترى شاعرنا؟ فقال قولًا معجلًا لحينه: وأرباب بني أُمية إن شاعرنا لأشعر من شاعركم، وأكثر بيانًا وأفصح لسانًا، فقال السفّاح: وما قال شاعركم؟ فقال[3]: [البسيط]

لو تحمل البخت والأفيال مثقلة ... أحلامهم تركت عقرى الأباهيرِ

لا يعبثون إذا سجت جحافلهم ... زين المجالس فرسان المنابيرِ

فاحمرَّت عينا السفّاح وهاجت به حمّة كانت فيه قد سكنت، ثم ضرب على فخذ الغمر، وقال[1]: [الكامل]

طمعت أُميّة أن تجاوز هاشمًا ... عنها ويذهب زيدها وحسينُها

كلّا وربّ محمد ومليكه ... حتى يبيد كفورها وحرونُها

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الشطر لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان لم أجدهما.

ثمّ قال: قوموا إلى مقصورتكم، ثم دعا بثلاثة وسبعين رجلًا من أهل خراسان، فأعطاهم الخشب وقال: اشدخوهم، فشدخوهم عن آخرهم، قال سديف: والله ما خرجت من الأنبار حتى رأيتهم معلّقين بعراقيبهم قد نهشت الكلاب رؤوسهم.

ولمّا بنى زياد بيضاء البصرة، وهي أوّل بناء بُني بالجصّ والآجر بالبصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس ما يقولون فيها ويُبَلِّغوه ويأتوه بالقائل، فأُتي بإنسان قيل إنه لما رآها تلا قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٢٨، ١٢٩]، فقال زياد: ما حملك على هذا؟ قال: لم يكن أيها الأمير هذا عن قصد، وإنّما خطرت على قلبي فتلاها لساني، فقال: والله لأعملنّ فيك بباقي الآية: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشُعَرَاء: الآية ١٣٠]، وأمر به فبنى عليه ركن مِنْ أركانها. وكان أحمد بن يوسف الكاتب كثير السقطات وكان يُجالس المأمون، وكان المأمون إذا تبخّر لا يستقصي البخور، وتخرج المجمرة بما يبقى فيها، فتوضع تحت الرجل، والرجل من الجلساء إكرامًا لهم واعتناءً بهم، فجاءت النوبة يومًا لأحمد بن يوسف، فقال: هاتوا المردود، فسمعه المأمون فقال: ألنا يقال هذا! ونحن نجيز رجلًا واحدًا من خدمنا بعشرة آلاف درهم وأكثر؟ وَيْحك إنما قصدنا إكرامك أن أكون أنا وأنت اقتسمنا بخورًا واحدًا، ولا يَأْبى الكرامة إلّا لئيم؛ ثم أمر المأمون أن يطرح في المجمرة ثلاث مثاقيل مِنَ العنبر، ويبخّر بها أحمد ويدخل رأسه في طوقه حتى ينفذ ريحها، ففعل به ذلك وهو يستغيث فلا يُغاث حتى احترق دماغه، وقام من المجلس إلى منزله فمات من ليلته.

وممّن أسقط مِنَ العُقلاء في كلامه فكان سببًا مؤكّدًا للومه وإيلامه

ذو الرمّة فإنّه وصف لعبد الملك بن مروان ذكاؤه وجودة شعره، فأحبَّ أن يراه، فأمره بإحضاره، فلما دخل عليه استنشده، فأنشده قصيدته المذهبة وافتتحها بقوله[1]: [البسيط]

ما بال عينك منها الماء ينسكب ... كأنه من كلا مفريه ينسربُ

(١) البيت في ديوان ذي الرمّة، وهو مطلع القصيدة، وفي الديوان: سَرِبُ، بدل: ينسربُ.

واتّفق أنْ كانت عينا عبد الملك يسيلان دائمًا، فظنّ أنه عرّض به فغضب، فقال له: ما لك يا ابن اللَّخناء ولهذا السؤال؟ ثم قطع إنشاده وأمر بإخراجه، فأقام حتى أذن للشعراء مرّة ثانية فدخل معهم وقد غيّر ما قال أوّلًا، وأنشده: [البسيط]

ما بال عيني منها الماء ينسكب

حتى انتهى إلى قوله[١]: [البسيط]

كحلاء في برجٍ صفراءُ في نَعَجٍ كأنها فضّة قد مسّها ذهبُ

فأجازه وأكرمه، وقال له: لو أنها قيلت في الجاهلية لسجدت لها العرب.

ودخل أبو النجم الشاعر على هشام بن عبد الملك مع الشعراء، فأنشده أرجوزته التي أوّلها[٢]: [الرجز]

الحمد لله الوَهُوب المُجزلِ

حتى انتهى إلى قوله يصف الشمس: [الرجز]

وهي على الأفق كعين الأَحْولِ

ولم يقل الأحول وقطع إنشاده وارتجّ عليه وعلم أنها زلّة عاقل، فخشي أن تكون غفلة جاهل؛ لأنّ هشامًا كان أحول، فقال له هشام: وَيْلك أتْمِم البيت، وأمر بوجء عنقه وإخراجه من الرّصافة؛ ولمّا مات عبد الملك بن مروان وذلك في النصف من شوّال سنة ستّ وثمانين وكان عمره يومئذ ستين سنة وأيّامًا، وقيل: اثنين وستّين، وكانت مدّة خلافته إحدى وعشرين سنة وأيّامًا سجّاه ابنه الوليد، فأنشده هشام أخوه[٣]: [الطويل]

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بُنيان قوم تهدّما

فلطمه الوليد على فمه، وقال: اسكت يا ابن الأشجعيّة، فإنك أحول أكشف تنطق بلسان شيطان.

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) الرجز في ديوان أبي النجم العجلي، وهو مطلع القصيدة.

(٣) البيت لعبدة بن الطبيب في ديوانه، ص ٨٧، من قصيدة مطلعها:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحّما

ودخل جُرير بن عطية الخطفي على عبد الملك بن مروان بعد ما منعه من الدُّخول عليه كراهة فيه وفي شعره، فأنشد(١): [الوافر]

أتصحو أم فؤادك غير صاحي عشيّة همّ قومك بالرَّواحِ

فقال له: بل فؤادك يا ابن اللَّخناء، فحصر جرير وخرج خائبًا، وفي هذه القصيدة يقول مادحًا بما لم يَأتِ أحد بمثله(٢): [الوافر]

ألستم خير مَنْ ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحِ

خاصم رجلًا خالد بن أبي صفوان، وكان قد كُفَّ بصره، فترافعا إلى بلال بن أبي بردة، وكان أمير الكوفة وقاضيها، فقضى على خالد، ثم مرّ به مركب بلال فسأل: مَنْ هذا؟ قالوا: بلال، فقام خالد وهو يقول(٣): [الطويل]

سحابة صيف عن قليل تقشع

فسمعه بلال، فقال له: والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب برد، ثم أمر به فضُرِب مائتي سوط وأمر بحبسه، فقال له خالد: عَلام تفعل بي هذا ولم أجنِ جناية؟ فقال بلال: يخبرك بذلك باب مصمت وأقياد ثقال وقيم يقال له حفص، ثم ضرب الدهر ضرباته، فنكب بلال بعد ذلك وأحضره يوسف بن عمر الثقفيّ عامل هشام في قيوده، وكان خالد جالسًا عنده، فقال له: أيّها الأمير إن بلالًا عدوّ الله ضربني وحبسني ولم أفارق جماعة، ولا خلعت يدًا مِنْ طاعة؛ ثم التفت إلى بلال وقال: الحمد لله الذي أذلّ سلطانك، وهدّ أركانك، وأزال جمالك، وغيّر حالك، فوالله لقد كنت شديد الحجاب مستخفًا بالشريف مظهرًا للمعصية، فقال بلال: يا خالد إنما استطلت عليّ بثلاث: الأمير عليك مقبل وعني مُعْرض، وأنت طليق وأنا عانٍ، وأنت في وطنك وأنا غريب، فأفحمه.

(١) البيت في ديوان جرير، وهو مطلع القصيدة.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) صدره:

أراها وإنْ كانت تحبّ كأنّها

والبيت للكميت بن زيد في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.

ومن الهفوات الجارية مجرى التطيّر المُؤذن لفظها بالزوال والتغيّر

قال علوية: كنت مع المأمون لمّا خرج إلى الشأم فدخلنا دمشق، وجعلنا نطوف فيها على قصور بني أُمية، فدخلنا قصرًا من قصورها فوجدناه مفروشًا بالرّخام الأخضر كلّه، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي روضة قد جمعت فيها أنواع الأشجار، وفي القصر من أجناس الأطيار، وما يُغْني صوتها عن العود والمزمار، فاستحسن المأمون ما رأى وعزم على الصبوح، فدعى بالطعام والشراب، فأكلنا وشربنا؛ ثم قال: غنّني بأطيب صوت وألذّه فلم يمرّ بخاطري غير هذا الصوت(١): [المنسرح]

لو كان حولي بنو أُمية لم ينطق رجال أراهم نطقوا

فنظر إليّ مغضبًا، وقال: عليك وعلى بني أُمية لعنة الله، فعلمت أني قد أخطأت، فأخذت أعتذر من هفوتي، وقلت: يا أمير المؤمنين أتلومني أن أذكر بني أُمية وزرياب عبدهم كان يركب في مائتي غلام ومملوك له وملك ثلاثمائة ألف دينار إلى غير ذلك من الضّياع والأثاث، وأنا عبدكم أموت جوعًا، فقال: ما وجدت شيئًا تذكرني به نفسك غير هذا، ثم سكت ساعة وقال: اعدل عن هذا وغنّني بما اقترحت عليك، فلم يحضرني غير هذا الصوت(٢): [الكامل]

الحين ساق إلى دمشق ولم أرضى دمشق لأهلها وطنا

فرماني بالقدح فأخطاني، وقال: قُمْ إلى لعنة الله وحرّ سقره، ثم قام وركب، فكان آخر عهدي به حتى مات، ومات المأمون لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، وكانت خلافته منذ قُتِل الأمين محمد عشرين سنة وأشهرًا، وله من العمر ثمان وأربعون سنة، ومات المعتصم أيضًا في هذا العمر، وكانت ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر، وكذلك عمر عبد الله بن طاهر، وتوفي في ربيع الأوّل سنة ثلاثين ومائتين، وكانت مدّة إمارته بخراسان تسع عشرة سنة؛ ولما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه مع جمع من أعيان جلسائه وندمائه

---

(١) البيت لعبيد الله بن قيس الرقيّات في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

تمنعني وادكار نصر بني عمي إذا حلّ جاري الرهقْ

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، وفي الديوان: «بلدا» بدل: «وطنا»، ومطلع القصيدة:

إنّ الخليط مودعوك غدا قد أجمعوا من بينهم أفدا

سرورًا به، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم، فقام إسحٰق بن إبراهيم الموصلي وأنشده قصيدة يهنّئه فيها أوّلها(١): [الكامل]

يـا دار غـيّـرك الـبـلى ومـحـاك يـا لـيـت شـعـري مـا الـذي أبـلاك

فتطيّر المعتصم وتغامز الناس، وعَجِبوا من بادرته وهفوته مع علمه وفهمه وطول خدمته للملوك، وقام المعتصم من ذلك المجلس متطيّرًا، فذُكِر أنه لم يعد إليه بعد.

ومن قبيح ما وقع لأبي نواس الذي أساء فيه أدبه وخالف به مذهبه

ما حُكِي أنّ جعفر بن يحيىٰ البَرْمكيّ بنى دارًا وتأنّق فيها وانتقل إليها، فدخل عليه أبو نواس مع مَنْ دخل إليه مِنَ الشعراء لهنائها؛ فأنشده(٢): [الطويل]

أدار الـبـلى إن الـخـشـوع لـبـادي عـلـيـك وإنـي لـم أخـنـك ودادي
فـمـعـذرة مـنـي إلـيـك بـأن تـري رهـيـنـة أرواح وصـوت غـوادي
ولا أدرأ الـضـرّاء عـنـك بـحـيـلة فـمـا أنـا مـنـهـا قـائـل بـسـعـادي
فإن كنت مهجور القنا فما رُمْت ندًا لهجر عن قوس المنون فؤادي
فإن كنت قد بدّلت بؤسًا بنعمةٍ فـقـد بـدّلـت عـيـنـي قـذى بـرقـادِ

وختمها بقوله(٣): [الطويل]

سـلامٌ عـلى الـدنـيـا إذا مـا فـقـدتـم بـنـي بـرمـك مـن رائـحـيـن وغـاد

فتطيّر جعفر لها وأظهر الوجوم، ثم قال: نعيت إلينا أنفسنا يا أبا نوّاس، فلم تكن إلّا مدّة يسيرة حتى أوقع بهم الرّشيد. وزعم بعض أهل التاريخ: إن أبا نوّاس قصد التشاؤم لهم لشيءٍ كان في صدره من الممدوح؛ وسبب ذلك أنّ أبا نوّاس دخل عليه يومًا فلم يهشّ له ولم يُدْنِ مجلسه وكلح في وجهه، ثم دخل مسلم بن الوليد فهشّ له وأدنى مجلسه وأقبل عليه، فحمل أبا نوّاس وأغراه الحسد فعمل

(١) البيت في ديوان إسحٰق الموصلي، وهو مطلع القصيدة.
(٢) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) انظر الحاشية السابقة.

هذه القصيدة على طريق التطيّر، وقال المبرّد في الروضة: إنّ أبا نواس عملها في الفضل بن يحيىٰ.

وحكى الصابي في كتاب الهفوات أنّ شرف الملك أبا سعيد الوزير جلس يوم عيد والناس يدخلون عليه يهنّؤونه ويمدحونه، فأنشده أحد الشعراء من قصيدة يعاتبه[١]: [المنسرح]

وأنت حصني الذي ألوذ به فما له قد تهدّمت شُرَفُهْ

فتطيّر من ذلك لمناسبة شرفه بشرف الملك في لقبه، ثم أنشد آخر قصيدة أوّلها[٢]: [البسيط]

عقد الصيام بيوم الفطر محلول فقدّم الكأس فالقنديل معزولُ

فازداد تطيّره وعجب الحاضرون من سوء ما اتّفق، فلما كان السابع من شوّال قُبِض عليه.

مَنِ استدرك هفوة لسانه مِنَ العقلاء ورد بالاعتذار عنه ما نزل به مِنَ البلاء

يُحْكَى أنّ المنصور قال: حججت سنة إحدى وأربعين ومائة، وأنا خليفة ماشيًا لنذرٍ لزمني، فانفردت عن الناس، فإذا أنا بأعمى كنت أعرفه يتردّد إلى مروان بن محمد، فسلّمت عليه وأخذت بيده، فقال: مَنْ أنت؟ قلت: رفيقك إلى الشام، وأنت تريد مروان بن محمد؛ فردّ عليّ السلام وأنشد[٣]: [الكامل]

آمت نساء بني أُميّة منهم وبناتهم بمضيعة أيتامُ
نامت جدودهم وأسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود نيامُ
خلت المنابر والأسرّة منهم فعليهم حتى الممات سلامُ

فقلت له والغضب مُسْتَوْلٍ عليّ، والرفق به مشير إليّ: كم كان مروان أعطاك؟ قال: أغناني حتى لا أسأل أحدًا بعده أبدًا، ملّكني الغلمان والجواري

---

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت لم أجده.

(٣) الأبيات للكميت في البيان والتبيين، للجاحظ ٢/ ٢٤٢، وليست في ديوانه، وهي لأبي العباس الأعمى في الأغاني ١٥/ ٥٨، ومروج الذهب ٣/ ٢٩٥.

والمال والعقار، قلت: وأين ذاك؟ قال: بالبصرة، قال المنصور: فلولا أنّ حق الصحبة منعني عنه كنت هَمَمْتُ به وشفيت نفسي منه، فقلت له: أتعرفني؟ قال: ما أثبتك معرفة ولا أنكرك مِنْ سوء، قلت: أنا المنصور، فأسقط في يده ووقعت عليه الرّعدة، ثم قال: يا أمير المؤمنين أقلني جُبِلت القلوب على حبّ مَنْ أحسن إليها، فأقلته وانصرفت، ثم طلبته بعد ذلك ليسامرني فلم أجده، فكأنّ البيداء أبادته، قال أبو الفرج الأصبهاني: وهذا الأعمى هو أبو العباس بن السائب بن فروخ من بني اللّيث، وقيل: من بني الدِّيْل بن بكر له في بني أُمية مدائح أجزلوا له بها المنائح، فمنها قوله[1]: [الوافر]

وكلّ خليفة ووليّ عهد ... لكم يا آل مروان الفداءُ
إمارتكم شفاء حيث كنتم ... وبعض إمارة الأمراء داءُ
وكنتم تحسنون إذا ملكتم ... وغيركم إذا ملكوا أساؤوا
هم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأيديهم وأعينهم سماءُ

ولّى عمر رضي الله عنه رجلًا من قريش عملًا، فبلغه عنه أنّه قال[2]: [الخفيف]

اسقني شربة ألذّ لديها ... واسق بالله مثلها ابن هشامِ

فعزله، فلما قدم عليه قال له: أنت القائل ـ وأنشده البيت ـ؟ قال: نعم، والقائل بعده[3]: [الخفيف]

عسلًا باردًا بماء سحاب ... إنني لا أحبّ شرب المُدامِ

فقال له عمر: قاتلك الله كذا قلت، وردّه إلى عمله.

وأتي عبد الملك بمصقلة بن هبيرة الشيباني، وكان ممّن أخذ مع الخوارج فأمر بقتله، وقال: ألست القائل[4]: [الطويل]

ومنّا سويد والبطين وقعنب ... ومنّا أمير المؤمنين شبيبُ

---

(١) الأبيات لأبي العباس الزبيري، في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٥٢٣.
(٢) الخبر والشعر في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٢٣٣.
(٣) انظر الحاشية السابقة.
(٤) البيت لعتبان بن أصيلة، في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
لعمري لقد نادى شبيب وصحبه ... على الباب لو أن الأمير يجيبُ

فقال: يا أمير المؤمنين إنما قلت أمير - وفتح الراء - فاستحسن ذلك منه وأطلقه؛ فانظر إلى حذق هذا الرجل سكن جأشًا بحركة أمدّ غمزة من أجلها بالبركة، وذلك بفتح الراء من كلمة، وجعل الهمزة حرف النداء، والمنادى المضاف منصوب أبدًا، وقبل هذا البيت[١]: [الطويل]

ألا أبلغ أمير المؤمنين رسالةً   وذو النُّصح ما ترعاه منك قريب
فإنك ألا ترض بكر بن وائل   يكن لك يومٌ بالعراق عصيب
فإن يَكُ منكم كان مروان وابنه   وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنّا سويد... البيت.

وقال الحجّاج لعبد الرحمٰن بن أبي بكرة: ما مالك؟ قال: لقد ختمت على ألف ألف درهم، ثم إنّ عبد الرحمٰن بن أبي بكرة شعر بزلّة لسانه وخاف عائلة الحجّاج، فتداركها مسرعًا وقال: ولقد أصبحت وما أملك إلّا خاتمي.

وأُتي المأمون برجلٍ ادّعى النبوّة، فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا أحمد النبيّ، فقال له: لقد ادّعيت زورًا، ثم أمر به ليُضرب لمّا رأى الرجل الأعوان قد أحاطت به، قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبيّ، فهل تذمّه أنت؟ فتدارك المأمون ما بقي من رمق المِنّة بالمنّة، وأورى له زند المحبة بالمِحْنة، وهذا الفنّ كثير لا يُحْصَى، ولا يعزّ وجوده عند الاستقصاء.

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

الباب الرابع
في الحمق

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب
في ذمّ الجهالة والجنون وما اشتملا عليه مِنَ الفنون

قال رسول الله ﷺ: «لا تزوّجوا الحمقاء، فإنّ صحبتها بلاء، وفي ولدها ضياع»[1]، وفي حديثٍ آخر: «لا تسترضعوا الحمقاء، فإنّ لبنها يغيّر الطِّباع»[2]. وقال عمر رضي الله عنه: لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلّا خرج الولد مائقًا. حدّ الحمق: قالوا: هو قلّة الإصابة، ووضع الشيء في غير الموضع الذي وُضِعَ له. وقيل: هو فقدان ما يُحْمَد مِنَ العاقل. وقال أبو يوسف: الناس ثلاثة: مجنون، ونصف مجنون، وعاقل؛ فأمّا المجنون، فأنت منه في راحة لترك الاختلاط به، وأمّا نصف المجنون فأنت معه في تعب لضرورتك إليك، وأمّا العاقل فقد كُفِيت مُؤْنته.

فمن قولهم في ذمّ الحمق وإظهار خافيه وأنه داء عُضال لا يمكن تلافيه

إن رسول الله ﷺ قال: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى؛ إذ حرمه أعزّ الأشياء عليه وهو العقل»[3]. وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصّلاة والسلام: أتدري لِمَ رَزَقْت الأحمق؟ قال: لا يا ربّ، قال: ليعلم العاقل أنّ طلب الرزق ليس بالاجتهاد. وقيل: مَنْ لا عقل له لا دين له، ومَنْ لا دين له لا آخرة

---

(١) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة ١٣، وابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/٢١٣، والفتني في تذكرة الموضوعات ١٢٧.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزّوائد ٤/٢٦٢.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

له. وقال الشعبي: إذا أراد الله أن يُزيل عن عبدٍ نعمته، فإنَّ أول ما يُغيّر منه عقله. وقالوا: الحمق داء دواؤه الموت. وقال الشاعر(١): [البسيط]

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يُداويها

وقال بعض الحكماء: لو جاز لوم الأحمق على أن يعقل جاز لوم الأعمى على أن يُبصر. ورُوِيَ أنَّ عسى عليه السلام أُتي بأحمق ليداويه، فقال: أعياني دواء الأحمق ولم يُعْيِني مداواة الأكْمَه والأبرص. وقال الشاعر(٢): [الخفيف]

وعلاج الأبدان أيسر خطبًا حين تعتلّ مِنْ علاج العقولِ

وقال معلم موسى الهادي له في معرض التقريع له: يا أحمق، فهشم أنفه، فسأله أبوه المهدي عن السبب، فقال: قال لي يا أحمق، ولو قال لي يا مجنون لاحتملته. وقال الشعبي: خطب الحجاج يوم جمعة فأطال، فقام إليه رجل أعرابيّ، وقال: إنَّ الوقت لا ينتظرك وإن الربّ لا يعذرك، فأمر به فحبس فأتاه أهله، وقالوا: إنه مجنون، فقال الحجّاج: إن أقرّ بالجنون خلّيت سبيله، فجاء إلى الرجل أهله وسألوه أن يُقِرّ له بالجنون، فقال: لا والله ولا أزعم أنَّ الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ الحجّاج كلامه فعظم في نفسه وأطلقه. وقال الأصمعيّ: قلت لغلام مِنْ أبناء العرب: أيسرّك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق؟ قال: لا والله، قلت: ولِمَ؟ قال: أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تُذْهب مالي ويبقى حُمْقي. وقال سعيد بن عمّار: مكتوب في التوراة أنَّ مَنْ صنع لأحمق معروفًا، فهو خطيئة مكتوبة عليه. وقيل: إذا قيل لك: إنَّ فقيرًا استغنى، أو غنيًا افتقر، أو حيًا مات، أو ميتًا عاش، فصدّق؛ وإذا بلغك أنَّ أحمق استفاد عقلًا، فلا تصدّق. وقالوا: الأحمق تتمنّى أمّه لو ثكلته، وتتمنّى زوجته أنها عدمته، ويتمنى جاره منه الوحدة، ويريد جليسه منه الوحشة.

ومما اخترناه من حكم أولى التجارب في ذمّ التعرف بمن هو للنهي محارب

قول عبد الله بن عباس رضي الله عنه: مجامعة العاقل في الغلّ والوثاق خير من مجامعة الجاهل على السندس والإستبرق. وقال الأحنف بن قيس: إني

(١) البيت بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٦٩.
(٢) البيت بلا نسبة في أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص ١٨.

لأجالس الأحمق ساعة، فأتبيّن ذلك في عقلي. وقال لقمان لابنه: لا تُعاشر الأحمق وإن كان ذا جمال، فإنه كالسيف حسن مخبره قبيح أثره. وقال الجاحظ: لا تُجالس الحمقى، فإنه يعلق بك من مجالستهم يومًا من الفساد ما لا يعلق بك من مجالسة العقلاء دهرًا من الصّلاح، فإنّ الفساد أشدّ التحامًا بالطبائع. وقال بزرجمهر: مقاساة الأحمق عذاب الروح. وقال مسلم بن قتيبة: لا تطلب حاجتك إلى أحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك، فسكوته خير من نطقه، وبُعْده خيرٌ مِنْ قُرْبه، وموته خير من حياته. وقالوا: العاقل مرجوّ خيره على كل حال، والأحمق مخوف شرّه على كل حال. وقالوا: صُحْبة العاقل في لجج البحار وأهوال القفار ألذّ من صحبة الجاهل بين جنّات وأنهار، وألوان أطعمة وثمار. وقالوا: صُحْبة الأحمق غدر، ومجاورته خطر، والبعد عنه ظفر. وقال الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هجران الأحمق قُرْبة إلى الله تعالى. وقال ابن المعتزّ: إنّ الأحمق ضالّ مُضِلّ، إن أونس تكبّر، وإن أوحش تكدّر، وإن استنطق تجلّف، وإن ترك تكلّف، مجالسته تضرّ، وموالاته تغرّ، ومقارنته شقاء، ومفارقته شفاء. وقال عليّ بن بسام[1]: [الكامل]

لا تيأسنّ من اللّبيب وإن جفا ... واقطع حبالك مِن حبال الأحمقِ
فعداوة مِنْ عاقل متجمّل ... أولى وأسلم من صداقة أخرقِ

وقالت الحكماء: العاقل يضلّ عقله عند مجاورة الأحمق. وقالوا: مثل الأحمق كالثوب الخَلِق، إنْ رفأته من موضع تخرّق من موضعٍ آخر. وقال مسكين الدارميّ[2]: [الرمل]

اتّق الأحمق لا تصحبه ... إنما الأحمق كالثوب الخَلِقْ
كلّما رقّعت منه جانبًا ... حرّكته الريح وهنًا فانخرقْ
أو كصدع في زجاجٍ فاسد ... هل ترى صدع زجاج يرتتقْ
وإذا عاتبته كي يَرْعوي ... زاد جهلًا وتمادى في الحمقْ

وقالوا: الأحمق كالرمل المنهار، كلّما قوّمت منه جانبًا انهار عليك جانبٌ آخر.

(١) البيتان في ديوان ابن بسام البغدادي، وهما بيتان منفردان.
(٢) الأبيات في ديوان مسكين الدارمي، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

ما يستدلّ به من ذميم الخلائق على خافي حمق الأهوج والمائق

قالوا: مما حكمت به التجربة أنّ مَنْ طالت قامته وصَغُرت هامته وانسدلت لحيته، كان حقيقًا على مَنْ يراه أن يُقْرِئه عن عقله السلام. ابن الرومي يهجو اللّحى[١]: [الخفيف]

إن تُطِلْ لحية عليك وتعرض ... فالمخالي مخلوقة للحميرِ
علّق الله في عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعيرِ
لو رأى مثلها النبيّ لأجرى ... في لحى الناس سنّة التقصيرِ

وقال آخر[٢]: [السريع]

صاحبنا الخياط ذو لحية ... كأنها في عرضها والكمالْ
ملحفة للّهو مضروبة ... ووجهه من فوقها كالخيالْ

في التوراة: إنّ اللّحية مخرجها من الدماغ، فمن أفرط عليه طولها قلّ دماغه، ومَنْ قلّ دماغه قلّ عقله، ومن قلّ عقله فهو أحمق. وقالت أعرابية لقاضٍ قضى عليها: صَغُر رأسك فبعُد فهمك، وانسدلت لحيتك فانشمر عقلك، وما رأيت ميتًا يقضي بين حيين غيرك. وقال المأمون: إذا طالت اللّحية تكوسج العقل. وقال مسلمة بن عبد الملك يومًا لجُلَسائه: يُعْرف حمق الرجل في أربع: طول لحيته، وبشاعة كنيته، وإفراط شهوته، ونقش خاتمه؛ فدخل عليهم رجل طويل اللحية، فقال لهم: أمّا هذا فقد أتاكم بواحدة، فانظروا أين هو من الثلاث؛ فقيل له: ما كنيتك؟ قال: أبو الياقوت، قيل: فما نقش خاتمك؟ قال: وتفقد الطير، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: الآية ٢٠]، قيل: فأيّ الطعام أحبّ إليك، قال: الجلنجبين، وهو الورد المربّى، فأنشد مسلمة[٣]: [البسيط]

ما بعد كنيته وطول لحيته ... ونقش خاتمه شكٌ لمعتبرِ

---

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وممّن شهر بالعقل النافر وعرف بالحمق الوافر

المعلّمون: قال الجاحظ: قسم الله الحمق مائة جزء، فجعل منه تسعة وتسعين جزءًا في المعلمين، والجزء الآخر في سائر الناس. وقال الشاعر[١]: [الطويل]

كفى المرء نقصًا أن يُقال بأنه ... معلّم صبيان وإن كان فاضلا

آخر[٢]: [البسيط]

وإن أحمق خلق الله كلّهم ... مَنْ كان بالفصل والتعليم مشتغلا
الله صاغهم حمقى وكوّنهم ... نوكى وأوجدهم بين الورى سفلا
ذاعت حماقتهم في الناس واشتهرت ... بين البرية حتى أصبحوا مثلا

وحكى الجاحظ، قال: مررت بمعلّم شاب حسن الهيئة، فجعلت أُصعّد نظري ففهم عني، وأنشدني[٣]: [مجزوء الكامل]

ما طار تحت الخافقيـ ... ـن أقلّ عقلًا من معلّمْ
ولقد جلسنا في الصنا ... عة من قريب ربّ سلّمْ

فكأنما ألقم في حجرًا، فانصرفت وتركته. وكان الجاحظ كثيرًا ما ينشد: [الطويل]

وكيف يُرْجى العقل والرأي عند مَنْ ... يروح على أنثى ويغدو على طفل

ومِنْ أمثالهم: أحمق من معلّم، ومن راعي ضأن. قال المتنبي[٤]: [السريع]

يموت راعي الضأن في جهله ... ميتة جالينوس في طبّهِ

والنساء: قالوا: لا تدع أم صبيّك تؤدّبه، فإنه أعقل منها وإنْ كانت أسنّ منه، بل أدّبه بزجرك وهذّبه بهجرك. ويقال: عقل مائة صبيّ بعقل معلم، وعقل مائة

---

(١) البيت بلا نسبة في محاضرات الأُدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٣١.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان بلا نسبة في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ١٨٠٢.
(٤) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
آخر ما الملك مُعزى به ... هذا الذي أثّر في قلبِهِ

معلم بعقل خصيّ، وعقل مائة خصيّ بعقل امرأة. ويكفي في ذمهنّ قول رسول الله ﷺ: «ناقصات عقل ودين»[(١)]، وقوله لمّا بلغه أنّ الفرس ملّكوا عليهم بوران: «لن يفلح قوم ولّوا عليهم امرأة»[(٢)].

والخصيان: قال الجاحظ: في الخصيّ عشر خصال متضادّة: لم يخرج من ظهر مؤمن، و يخرج من ظهره مؤمن، وهو أكثر الناس غيرة وأشدّهم قادة، وهو أضعف الناس معدة وأشرههم على الطعام، وهو أسوأ الناس أدبًا ويُعلّمهم الأدب، وهو أغزر الناس دمعةً وأقساهم قلبًا، ما خلا مع رجل إلّا حدّثته نفسه أنه امرأة، ولا خلا مع امرأة إلّا حدّثته نفسه أنه رجل. بعض الشعراء يذمّ الخصيان[(٣)]: [الخفيف]

ليس حمد الخصيان في الناس إلّا ... شدّة الصبر عند سدّ الفقاحِ
معشر أشبهوا القرود ولكن ... خالفوها في خفّة الأرواحِ

وقد بالغ المتنبّي في هجو كافور الإخشيدي وتعداد معايبه وأوصافه، فلا حاجة إلى ذكرها في هذا المختصر، ولا بدّ من إيراد شيء منها؛ فمن ذلك قوله[(٤)]: [البسيط]

من أيّة الطُّرْق يأتي نحوك الكرمُ ... أين المحاجم يا كافور والجلمُ
جار الأُولى ملكت كفاك قدرهمُ ... فعرّفوا بك أنّ الكلب فوقهمُ
لا شيء أقبح مِنْ حرٍّ له ذكر ... تقوده أمة ليست لها رحمُ

وقوله[(٥)]: [البسيط]

العبد ليس لحرّ صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الحرّ مولودُ

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض باب ١٦، والزكاة باب ٤٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٣٢، وأبو داود في السنّة باب ١٥، والترمذي في الإيمان باب ٦، وابن ماجه في الفتن باب ١٩، وأحمد في المسند ٢/٦٧، ٣٧٣، ٣٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٨٢، والفتن باب ١٨، والترمذي في الفتن باب ٧٥، والنسائي في القضاة باب ٨، وأحمد في المسند ٥/٤٣، ٥١، ٣٨، ٤٧.

(٣) البيتان لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
قل لنجح أخطأت باب النجاح ... بل تعاطيته بلا مفتاحِ

(٤) الأبيات في ديوان المتنبي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٥) الأبيات في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
عيدٌ بأيّة حالٍ عدت يا عيدُ ... بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ

لا تشتر العبد إلّا والعصا معه إنّ العبيد لأنجاس مناكيدُ
من علم الأسود المخصيّ مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيدُ
أم أذنه في يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردودُ
أولى اللئام كفًا بغير مقدرة فلا جميل ولا عفو ولا جودُ
وذاك أنّ الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السودُ

قبّح الله الشعراء ما أقلّ حفاظهم وأكثر ما تتفاوت بالكذب في المدح والذمّ ألفاظهم، يقول هذا بعد أن قال فيه وقد وصف خيلًا أركبها إليه(١): [الطويل]

فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلّت بياضًا خلفها ومآقيا
قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقلّ السواقيا

لقد باع مِنَ الوفاء علقًا خطيرًا، واعتاض من الطمع شيئًا يسيرًا، وحالَ بينه وبين العهد الوفاء، وكان يضايق نفسه في اختيار المتاع، ويسامحها في اختيار المُبتاع، ويخلع خلعة تساوي بدرة، على عرض يساوي نقرة، ويزفّ كريمة من كرائم شعره إلى مَنْ لم تقم عنه كريمة، ولم يُعرف له قيمة، لو رأى الطمع في بحر النار لدخله، ولو أتاه الدّرهم من دُبُر كلب لأخذه وما غسله؛ فلا جرم أنّ الناس كما استحسنوا قوله، استقبحوا فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجّبوا من غدره، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته، ويعطي ثم يسترجع عطيّته، فكم حرّ سلبه لخاءه، وكم عرض جرّد عنه كساءه، ومِنْ صحفة أكل منها ثم شرق فيها، ومن طوية زهدها ثم عكف عليها.

وصف بعضهم الخصيان مادحًا لهم، فقال: هُمُ الأُمناء على الحرم، البُعَداء عن التُّهَم، ولهم التظرُّف والتلطُّف، والوقاء وقلّة الضحك، وهم طراز الملك وجمال الدول وعنوان النّعم، وكثيرًا ما أدّبوا أولاد الملوك، وهذّبوهم وعرّفوهم طريق السياسات ودرّبوهم.

والحاكة، يقال: الحمق عشرة أجزاء: تسعة منها في الحاكة، وواحد في سائر الناس. وقالوا: لو أنّ للحائك قرنًا لنطح به. وسأل رجل الأعمش عن

(١) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

الصّلاة خلف الحائك، فقال: لا بأس بها على غير وضوء، قيل: فما تقول في شهادته؟ قال: تُقْبل مع شاهدين عدلين. وقال الحسن البصريّ: مَنْ نظر في طراز حائك لم يرجع إليه عقله أربعين يومًا، والسبب في زوال عقولهم ما ذكر أنّ مريم عليها السلام ذهبت تطلب عيسى، وكان قد ضلّ منها، فلقيت حائكًا فسألته: كيف أخذ؟ فدلّها على غير الطريق التي سلك، فقالت: اللّهمّ توّهه فلا يوجد إلّا تائهًا، وفي رواية أنّها قالت: اللّهمّ اجعلهم سفلة الناس وأقلّهم عقلًا. قيل لرجل مِنَ الحاكة: هل في بلدكم حائك؟ قال: لا، قيل: فمن ينسج ثيابكم؟ قال: كلّ منّا ينسج ثوبه لنفسه، قيل له: فإذًا كلّكم حاكة. قالوا: فلان مجنون وأجنّ منه لا يكون، فلان إذا رأيته نسيت مجنون بني عامر.

طرف مما ذمّ به أهل الجهالة المتمسّكون بعُرى الغواية والضلالة

يُحْكى أنّ أبا الأسود الدُؤلي قال: إذا أردت أن تقهر عالمًا، فأحضره جاهلًا. وقالوا: لا معيبة أعظم من الجهل، ولا صاحب أخذل منه. وقالوا: لا مصيبة أعظم من الجهل. وقالوا: الجهل في القلب كالأكلة في الجسد. وقال بزرجمهر: العالِم كبير وإنْ كان صغيرًا، والجاهل صغير وإنْ كان كبيرًا. وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: الأدب عند الجاهل كالماء في أصول الحنظل، كلّما ازداد ريًا ازداد مرارة. وقال وهب بن مَنْبه: يقال إن الجاهل إذا تكلّم فضحه عيبه، وإذا سكت فضحه جهله، لا علم نفسه يُغْنِيه ولا علم غيره ينفعه، إنْ قال لم يُحْسن، وإن قيل له لم يفقه. وذمّ أعرابيّ رجلًا، فقال: إن أعرضت عنه اغتمّ، وإن أقبلت عليه اغترّ، وإن حلمت عليه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عنك. البشامي يهجو جاهلًا[1]: [السريع]

لنا جليسٌ تاركٌ للأدبْ — جليسه من نوكه في تعبْ
مخالف يغضب حال الرّضا — عمدًا ويرضى عند حال الغضبْ
كأنه من سوء تأديبه — أسلم في كتّاب سوء الأدبْ

وقال بزرجمهر: الجاهل عدوّ نفسه، فكيف يكون صديق غيره؟ وسُئِل أبو العَيْناء عن مالك بن طَوْق، فقال: لو كان في بني إسرائيل ووقعت قصّة البقرة ما

(١) البيتان الأول والثالث لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان منفردان، والأبيات بلا نسبة في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي، ص ٢٣٧.

ذُبح غيره. شاعر يهجو جاهلًا[١]: [الخفيف]

ليس يدري مِنَ الجهالة مَنْ ذا   دوّر البعر في بطون الجمالِ

آخر[٢]: [الطويل]

يظنّ بأنّ الخمل في القطف نابت   وأنّ الذي في باطن التين خردلُ

وقالوا: فلان لا يعرف اليمين من الشمال، ولا الجنوب من الشمال، ولا السماء من الأرض، ولا الطول من العرض، ينظر إلى العلم نظر المغشيّ عليه مِنَ الموت، إن أصاب أحجم، وإن أخطأ صمّم. وقالوا: فلان خطؤه بعد اجتهاد، وصوابه عن غير اعتماد. وقال الشاعر[٣]: [الطويل]

يصيب ولا يدري ويخطىء وما درى   وكيف يكون النّوك إلّا كذلكا

وقالوا: الجهل رأس الفضائح ومعدن القبائح ومضمار العثار، وهو الدليل على غلظ الطبع وجمود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذِّهن وكذب النفس وخبث الطّويّة. ويقال: أشدّ حوادث الدنيا عالم يجري عليه حكم جاهل. وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عالم وأرادت عقوبته حبسته مع جاهل. شاعر[٤]: [الكامل]

وإذا بليت بجاهلٍ متهكّم   يجد المحال مِنَ الأُمور صوابا
أوْلَيْته منّي السكوت وربما   كان السكوت عن الجواب جوابا

وفي منثور الحكم: مَنْ عُرِف بالجهل، فهو لكل قبيحة أهل. وقالوا: لا يُرى الجاهل إلّا مُفرِطًا أو مُفَرّطًا، يُسيء عمدًا ويُحسن غلطًا. وقيل لبزرجمهر: ما لكم لا تُعاقبون الجهّال على أن يعقلوا؟ فقال: إنّا لا نكلّف العُمْي بأن يُبْصروا، ولا الصمّ بأن يسمعوا. وقال بعض الحكماء: عمى الجهل أشدّ من عمى العين؛ لأنّ الأعمى يتوقع أن يعثر فيما ارتفع من الأرض، أو يسقط فيما انخفض منها،

(١) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٢.
(٢) البيت بلا نسبة في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٦١٨.
(٣) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٠٠.
(٤) البيتان للناشىء الأصغر، في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إني ليهجرني الصديق تجنّبًا   فأريه أن لهجره أسبابا

والجاهل ربما عثر فيما لا يستقيل منه، ووقع فيما لا مخرج له عنه. ابن الرومي[1]: [البسيط]

كالنور عقلًا ومثل التّيس معرفة فلا يفرّق بين الحقّ والفندِ
الجهل شخصٌ يُنادى فوق هامته لا تسأل الربع ما في الربع مِن أحدِ

وقالوا: الجاهل يجني على نفسه، وليس شيءٌ أحبّ إليه منها. استأذن رجلٌ من ثقيف على الوليد وعنده عبد الله بن جعفر الصادق، وهما يلعبان بالشطرنج، فستر عبد الله الشطرنج، فلما دخل الرجل وسلّم سأله الوليد عن حاله فأخبره، ثم قال له: أقرأت القرآن؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، شغلني عنه أُمور وهنّات، قال: أرويت من الحديث شيئًا؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: أتعرف الفقه؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، فكشف عن الشطرنج وقال: شاهك يا أبا جعفر، فقال عبد الله: لو رفعت؟ فقال: العب فما عندك أحد.

ومن صفات مَنْ عُدِم خلال النهى واعتراه في عقله اختلال فوهى

إن تكلّم عجل، وإن حدّث وهل، وإن استنزل عن رأي نزل، وإن حمل على باطل فعل. ومِنْ علاماته: الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، وإفشاء السرّ، والثقة بكلّ أحد، وأن لا يعرف صديقه من عدوّه. ومن علاماته: العجلة والخلفة والتواني والضياع والتفريط والغفلة والسهو. ومن علاماته: إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن فرح أشر، وإن بكى خار، وإن ضحك نهق، وإن أعطيته كفرك، وإن أعطاك منّ عليك. وقالوا: مِنْ علامات المائق: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب، وتحريك الرأس إذا مشى، وإذا اعتبرنا هذه الخِلال الرّذِلة وجدناها في كثير من الناس، فلا نكاد نعرف العاقل مِنْ كَثْرة الالتباس؛ كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «ليس مِنْ أحدٍ إلّا وفيه حمقة، فَبِها يعيش»[2]. وقال وهب بن منبه: خُلِق ابن آدم أحمق، ولولا ذلك لما هنّأه العيش.

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي، وهو من قول عليّ بن أبي طالب. انظر أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص ١٩.

نادرة: قيل لبهلول: عُدّ لنا المجانين، فقال: هذا يطول، ولكني أعدّ العقلاء. نظر إلى هذا المعنى بعض الشعراء، فقال وأجاد[١]: [الوافر]

وما بقيت من اللذات إلَّا ... محادثة الرجال ذوي العقولِ
وقد كانوا إذا ذكروا قليلًا ... فقد صاروا أقلَّ مِنَ القليلِ

الفصل الثاني من الباب الرابع

في ذكر النوادر الصادرة عن مجانين البادية والحاضرة

فمن شُهِر منهم بالمُلَح وعُرِف واستحسن كلامه النادر واستُظْرِف

جعيفران، واسمه جعفر، وإنما صغر للتَّحبيب، وهو القائل في نفسه[٢]: [المجتث]

ما جعفر لأبيه ... ولا له بشبيه
أضحى لقوم كثير ... فكلّهم يدّعيه
هذا يقول بني ... وذا يخاصم فيه
والأمّ تضحك منهم ... لعلمها بأبيه

وقال: إنّ هذه الأبيات وضعها في دعبل، فيكون قوله: ما دعبل لأبيه؛ والرواية الأولى هي التي رواها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني، وكان جعيفران متشيّعًا، قيل له يومًا: اشتم فاطمة وخذ درهمًا، قال: لا بل أشتم عائشة وآخذ نصف درهم. واستقبلته امرأة صبيحة فبدر إليها وقبّلها، فأكبّ الناس عليه يضربونه فأنشد[٣]: [مجزوء الخفيف]

علّقوا اللحم للبزا ... ة على ذروتَيْ عدنْ

---

(١) البيتان للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في ديوان جعيفران الموسوس، وهي أربعة أبيات منفردة.

(٣) الأبيات ليست في ديوان جعيفران الموسوس، وهي لأبي بكر الشبلي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة، ورواية الأبيات في الديوان:

طرحوا اللحم للبزا ... ة على ذروتي عدنْ
ثم لاموا البزاة إذ ... خلعوا عنهم الرسنْ
لو أرادوا صلاحنا ... ستروا وجهك الحسنْ

ثم لاموا المحب فيـ ـه على خلعه الرَّسَنْ
لو أرادوا عفافه نقبوا وجهها الحسنْ

ووقف على عليّ بن إسمٰعيل الهاشمي، فقال له: أعطني درهمًا، فأمر الغلمان بطرده فطردوه فولّى، وهو يُنشد[1]: [السريع]

قد زعم الناس ولم يكذبوا أنك من غير بني هاشمِ

فقال لغلمانه: ردّوه وأعطوه درهمين، فأخذهما وانصرف وهو يُنشد[2]: [السريع]

قد كذَّب الله أحاديثهم يا هاشميّ الأصل من آدمِ

وحكى الجاحظ قال: كان جعيفران يماشي رجلًا فدفعه الرجل على كلب، فقال له: ما هذا؟ قال أردت أن أقرنك به، قال: فمع من أنا منذ الغداة؟ وتشاجر رجلان في رجل ادّعياه، قال أحدهما: هو من طفاوة، وقال الآخر: هو من بني راسب، وتحاكما إلى جعيفران، فقال: ألقوه في الماء، فإن طفا فهو من طفاوة، وإن رسب فهو من بني راسب، قال النسّابون راسب بن سدعان بطن من الأزد، وطفاوة من ولد أعصر وهو منبه بن سعد بن قيس عيلان، وهذه الحكاية نسبها الميدانيّ في كتاب الأمثال لهبنقة الليثي المضروب به المثل في التغفّل والحمق.

ومن مشاهير مجانين الكوفة البهلول ذو العقل السقيم والذهن المفلول

وُلِد لإسحٰق بن محمد الصباح بنت، فساءه ذلك وامتنع من الطعام والشراب، فدخل عليه بهلول وقال: أيها الأمير ما هذا الجزع والحزن جزعت لخلق سويّ وهبه الملك العليّ، أيسرّك أن يكون مكانها ابن وأنه مثلي؟ فضحك الأمير ودعا بالطعام والشراب، وأذن للناس بالدخول عليه للهناء. ومرّ بهلول بقوم في أصل شجرة يستظلّون بفَيْئها، فقال بعضهم لبعض: تعالوا حتى نسخر من بهلول، فلما اجتمعوا إليه، قال أحدهم: يا بهلول تصعد هذه الشجرة وتأخذ من الدّراهم عشرة؟ قال: نعم، فأعطوه الدراهم فصرُّها في كمّه، ثم قال: هاتوا سلّمًا،

(١) البيت لجعيفران الموسوس في عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ١٧٨، وليسا في ديوانه.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

فقالوا: لم يكن في شرطنا سلّم، قال: كان في شرطي دون شرطكم. وسُئِل عن مسألة من الفرائض وهي رجل مات وخلف ابنًا وبنتًا وزوجة ولم يترك مِنَ المال شيئًا، فقال: للابن اليُتم، وللبنت الثكل، وللزوجة خراب البيت، وما بقي من الهمّ فللعصبة. وحمل عليه الصبيان يومًا فألجؤوه إلى دارٍ مفتوحة فولجها فوجد فيها قومًا وبين أيديهم مائدة فيها من أنواع الأطعمة ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، فرجع وغلق الباب ودخل وهو يقرأ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب. وتبعه الصّبيان يومًا آخر، فالتجأ إلى دار بعض العلويّين، فرأى رجلًا ضخمًا بضفيرتين، فقال: يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مُفْسِدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًا، فخرج الرجل وأغلق الباب وحماه من الصّبيان. وحمل عليه الصبيان يومًا، فألجؤوه إلى مضيق، فشدّ عليهم بالقصبة، وهو يقول[1]: [البسيط]

إذا تضايق أمر فانتظر فرجًا ... فأضيق الأمر أدناه مِنَ الفرجِ

وسمع البهلول مجنونًا يقول يوم عيد: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم، فلطم وجهه وقال: ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه. وقال له الرشيد يومًا: مَنْ أحبّ إليك؟ قال: مَنْ أشبع بطني، قال: إني أشبعك، فهل تحبّني؟ قال له: الحب لا يكون بالنّسيئة. وأحضره يومًا وأجلسه في صحن الدار وجلست أمّ جعفر حيث لا يراها، وعيسى بن جعفر جالس مع الرشيد، فقال له الرشيد: عدّ لنا المجانين؟ فقال: أوّلهم أنا، والثاني هذه ـ وأشار إلى أمّ جعفر ـ فقال له عيسى: يا ابن اللّخناء تقول هذا لأُختي؟ قال بهلول: وأنت الثالث يا صاحب العربدة، فقال الرشيد: أخرجوه، فقال بهلول: وأنت الرابع. وقال رجل لبهلول: قد أمر الأمير لكل مجنون بدرهمين، فقال له: امْضِ وخذ نصيبك لئلّا يفوتك. وقيل: أيما أفضل أبو بكر أو عليّ؟ قال: أمّا وأنا في كندة فعليّ، وإذا كنت في بني ضبّة فأبو بكر، وكندة في الكوفة من غلاة الشيعة، وبنو ضبّة أهل نصب وهم أصحاب الجمل.

---

(١) لأبي العتاهية بيت قريب منه، وهو:

خير المذاهب في الحاجات أنجحها ... وأضيق الأمر أدناه من الفرجِ

والبيت من قصيدة مطلعها:

الناس في الدّين والدنيا ذو فرج ... والمال ما بين موقوف ومختلجِ

نبذ مما يجلب التسلّي لقلب المحزون
من الفكاهات المحكيّة عن عليان المجنون

ذُكِر أنه وصف للمأمون فأمر بإحضاره، فلما مَثُل بين يديه ازدراه وأمر به أن يجلس في مجالس العامّة، ثم قال له: ما اسمك؟ قال: عليان، فضحك منه، فقال عليان: إن تسخروا منّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون، فهابه المأمون وعظم في عينه بها. ومرّ به رجل وهو يأكل تمرًا والصبيان يؤذونه، فقال للرجل: انظر إلى هذا التمر مِنْ رحمة الله، وهؤلاء الصّبيان من عذاب الله. وتولّع الصبيان به يومًا، قال له رجل هل لك في طردهم عنك؟ قال: نعم، وأنت منهم. ورآه رجل وهو يأكل تمرًا في السوق، فقال له: يا عليان أتأكل في السوق؟ قال: مَنْ جاع في السوق أكل في السوق. ورآه مَنْ لا يعرفه، فقال له: أنت مجنون؟ فقال: كل الناس مجانين، ولكن حظي أوفر. وقال له رجل: ما الذي صيّرك إلى ما أرى؟ قال: محتوم القضا. وقال له مَنْ لا يعرفه: أغريبٌ أنت؟ قال: أمّا عن العقل فنعم، وأمّا عن البلد فلا. وأدخل بهلول على الرشيد وعنده عليان، فكلّمهما فأغلظا له في القول وأمر بالنطع والسيف، فقال عليان: كنّا مجنونين فصرنا ثلاثة، فضحك الرشيد وعفا عنهما. ومات أبوه وخلف ستمائة درهم، فأخذها القاضي وحَجَر عليه ليختبر عقله، فجاءه بعد مدّة فقال له: إنك حجرت عليّ لمّا علمت أني مُصاب في عقلي، وأنا جائع فادفع لي مائتي درهم حتى أقعد بها في أصحاب الخلقان أبيع وأشتري، فإن رأيت مني رشدًا جنحت إلى الباقي، وإن أتلفتها كان الذي أتلفت أقلّ مما بقي، فأعطاه مائتي درهم فأخذها ولزم الحيرة حتى أنفقها، ورأى القاضي بعد ذلك، فقال: يا عليان ما صنعت بالدّراهم؟ قال: أنفقتها، فليزن القاضي أعزّه الله من ماله مائتي درهم ويردّها إلى الكيس، حتى يرجع المال إلى ما كان عليه.

طُرَف من لطائف أخبارهم الأنيقة
ونُتَف من لطائف نوادرهم الرّشيقة

حُكِيَ أنّ ثمامة بن أشرس قال: بعثني الرشيد إلى دار المجانين لأُصلح ما فسد من حالهم، فرأيت فيهم شابًا حسن الزي، كأنه صحيح العقل، فقال لي: يا ثمامة إنك تقول إنّ العبد لا ينفكّ من نِعْمة يجب الشكر عليها، وبلية يجب الصبر

لديها، وأنت تُبيح المطبوخ، أرأيت لو سكرت ونمت وقام إليك غلامك وأولج فيك مثل ذراع البكر، فقل لي أهذه نعمة يجب الشكر عليها، أو بلية يجب الصبر لديها؟ قال ثمامة: فلم أدرِ بماذا أجيبه، فقال: مسألة، قلت: ما هي؟ قال: متى يجد النائم لذّة النوم، إن قلت في حال نومه فمُحال، وإن قلت إذا استيقظ فبعيد أن يجد لذّة شيء انقضى ومضى، فبهت لا أحير جواباً؛ فقال: مسألة أخرى، قلت: وما هي؟ قال: إنك تزعم أنّ لكلِ أمّة نذيرًا، فما نذير الكلاب؟ قلت: لا أدري، فقال: أما الجواب عن المسألة الأولى، فيجب أن تقول: النّعم ثلاثة: نعمة يجب الشكر عليها، وبلية يجب الصبر لديها، وبلية يجب الصبر عنها؛ فهذه من القسم الثالث، وهي البلية التي يجب الصبر عنها. وأمّا المسألة الثانية، فالجواب عنها أنها مُحال، لأنّ النوم داء ولا لذّة مع وجود الداء. وأمّا المسألة الثالثة، وأخرج من كمّه حجرًا وقال: إذا عدا عليك كلب فهذا نذيره، ورماني بالحجر فأخطأني، وأصاب الأسطوانة، فلما رآه قد أخطأني قال: فإنك النذير يا أيها الكلب الحقير، فعلمت أنه مجنون وأنّ عقله مُصاب، فتركته وانصرفت وقنعت من الغنيمة بالإياب.

وكان في بني أسد مجنون يسمى لغدان، فمرّ بقوم من بني تَيْم الله بن ثعلبة فعبثوا به، فقال: يا بني تيم الله ما أعلم في الدنيا خيرًا منكم، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنّ بني أسد ليس فيهم مجنون غيري، وقد قيّدوني وسلسلوني، وكلّكم مجانين وليس فيكم مقيّد. وكتب بعض المجانين إلى قيساوة: كتابي إليك لثلاث ساعات من ليلة الميلاد التي صبحها يوم المهرجان ودجلة تطفح بالماء هيا هيا والحجارة لا تزداد إلا كثرة والصبيان قلّلهم الله وبدّد شملهم لا يزدادون إلّا وقاحة، فإن قدرت أن لا تبيت إلّا وحولك حجارة فافعل، واستعمل قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠].

وركب بختيشوع المتطبّب مع المأمون، فتعلّق به مجنون وقال: أيها الطبيب جسّ نبضي فجسّه، وقال له: ما تشتكي؟ قال: الشبق، فقال له: خذ مسواك أراك وأدخله من وراك، فإنه صالح لذاك؛ فرفع المجنون فخذه وضرط، وقال: خذ هذا جزاك حتى نجرّب دواك، فإن كان صالحًا لذاك شكرناك وزِدْناك، ولا يكون لنا طبيب سواك، فخجل بختيشوع وضحك المأمون مِنْ كلام المجنون. ووقف صباح

الموسوس على قوم فسألهم شيئًا، فردّوه فولّى وهو ينشد[١]: [السريع]

أسأت إذ أحسنت ظنّي بكم والحزم سوء الظنّ بالناس

وقال بعضهم: رأيت مجنونين يتنازعان رغيفًا يؤثر كل واحد منهما صاحبه به وهما يتقاسمان عليه، فقلت لهما وأنا أظنّ أني أربح عليهما: أنا آكله إن لم تأكلاه، فقال أحدهما: يا أحمق إن معه أدمًا لا يسوغ إلّا به، قلت: وما هو؟ قال: ضيق الخنق، ووجْء العنق، فولّيت عنهما فقالا: يا مجنون لولا غضاضة الأدم لأكلناه منذ حين. وسمع أبو الصقر المجنون سقاء يصيح في يوم حرّ: هذا يوم يسقى فيه الماء، فقال وأيّ يوم يُطعم فيه الخبز. وحكى عليّ بن الجهم الشاعر، قال: مررت بمجنون والناس مجتمعون عليه يعبثون به، فلمّا رآني قصدني دونهم وأخذ بعنان بغلتي، ثم أنشد[٢]: [مجزوء الكامل]

لا تحفلنّ بمعشر الـ ـهمج الذين تراهمُ
فوحقّ من أبلى بهم نفسي ومَنْ عافاهمُ
لو قِيس موتاهم بهم كانوا همو موتاهمُ

ثم جال بطرفه في الحلقة، رأى فيها شابًا مليح الوجه حسن الهيئة، فوثب إليه ومزّق ما كان عليه، ثم نظر إليّ وأنشد[٣]: [مجزوء الكامل]

هذا السعيد لديهم قد صار بي أشقاهمُ

ووقف بعض المجانين على باب مسجد فبال، فأرادت العامّة ضربه، فقال لهم: أرأيتم لو بال هٰهنا حمار، أكنتم ضاربيه؟ قالوا: لا، قال: فهبوني حمارًا، فإنه لا عقل لي، فرقّوا له وأطلقوه. وقال المبرّد: دخلت دار المجانين فوقفت تجاه مجنون وأخرجت لساني، فحوّل وجهه عني، فجئت إلى الناحية التي حوّل وجهه إليها وأخرجت لساني، فحوّل وجهه إلى ناحية أخرى فجئت إليه وفعلتُ مثل ذلك، فلمّا أضجرته رفع رأسه إلى السماء، وقال: انظر يا بّ مَنْ حلّوا ومَنْ ربطوا.

---

(١) البيت للعباس بن الأحنف في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
يا فوز يا منية عبّاسِ قلبي يفدي قلبك القاسي
(٢) الأبيات في العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي، باب شعراء المجانين.
(٣) انظر الحاشية السابقة.

ما اختير من شعرهم الرقيق الجزل
المنظوم في سلكه جواهر الجدّ والهزل

حدّث ابن حبيب في كتابه الذي صنّفه في أخبار عقلاء المجانين بإسناده إلى أبي إسحٰق إبراهيم الأيلي، قال: رأيت غورثًا المجنون يومًا خارجًا من الحمام والصّبيان قيام يضربونه ويؤذونه، وهو يبكي، فقلت له: ما خبرك يا أبا محمد؟ قال: آذاني هؤلاء الصّبيان، أما يكفيني ما أنا فيه مِنَ العشق والجنون؟ قلت: ما أظنّك مجنونًا، قال: بلى والله وعاشق، قلت: وهل قلت في عشقك شيئًا؟ قال: نعم، ثم أنشد(١): [الطويل]

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو ... فهذا له حدّ وهذا له حدُّ
وقد سكنا تحت الحشى وتحالفا ... على مُهجتي أن لا يفارقها الجهدُ
وأيّ طبيب يستطيع بحيلةٍ ... يعالج من داءين ما منهما بدُّ

قال الأيلي: فولّيت عنه، قال: قف واسمع ما أقول، فإنّ شرح غرامي على الخليّ يطول، فوقفت فأنشد(٢): [الوافر]

جنون ليس يضبطه الحديد ... وحبّ لا يزول ولا يبيدُ
فجسمي بين ذاك وذا نحيل ... وقلبي بين ذاك وذا عميدُ

ثم قال: انصرف ما سمعته يكفيك. وأخذ يومًا بيد المتّهم بعشقه، فقال له المعشوق رجاء الخلاص منه: كيف أصبحت؟ فقال(٣): [الكامل الأحذّ]

أصبحت منك على شفا جرف ... متعرّضًا لموارد التّلفِ
وأراك نحوي غير ملتفتٍ ... منحرفًا عن غير منحرفِ
يا مَنْ أطال بهجره أسفي ... أسفي عليك أشدّ من تلفي

وحُكِيَ أيضًا أنّ هارون الرشيد مرّ بدير في ظاهر الرقّة، فلما أقبلت مواكبه أشرف أهل الدّير ينظرون إليه، وفيهم مجنون مسلسل، فلمّا رأى هارون رمى بنفسه بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين قد قلت فيك أربعة أبيات أفأنشدك إياها؟ قال:

---

(١) الأبيات في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٢٣٥.
(٢) البيتان في عقلاء المجانين، ص ٢٣٦. (٣) انظر الحاشية السابقة.

نعم، فأنشده[١]: [مجزوء الكامل]

لحظات طرفك في العدا تُغنيك عن سلّ السيوفِ
وغريم رأيك في النُّهى يكفيك عاقبة الصُّروفِ
وسيول كفّك بالنّدى بحرٌ يفيض على الضّعيفِ
وضياء وجهك في الدُّجى أبهى من البدر المُنيفِ

ثم قال: يا أمير المؤمنين هات أربعة آلاف درهم أشتري بها كبيسًا وتمرًا، فقال هارون: تُدْفع له، فحُمِلت إلى أهله. وحُكِيَ أيضًا: قال إدريس بن إبراهيم اللخمي: سمعني مجنون أُنشد في يوم غَيْم[٢]: [الطويل]

أرى اليوم يومًا قد تكاثف غَيْمه وإقتامه فاليوم لا شكّ ماطرُ

فقال بديهًا من غير رويّة[٣]: [الطويل]

وقد حجبت فيه السحائب شمسه كما حجبت ورد الخدود المعاجرُ

ومرّ إبراهم بن المدبر بالأهواز وقد صرف عنها، فتعرّض له ماني الموسوس واسمه محمد بن القاسم فأخذ بلجام بغلته، وقال[٤]: [الرمل]

ليت شعري أيّ قوم أجدبوا فأغيثوا بك من طول العجفْ
نظر الله إليهم دوننا وحرمنا الذّنب قد سلفْ
يا أبا إسحٰق سِرْ في دِعَةٍ وامْضِ محمودًا فما عنك خلفْ
إنما أنت سحاب هاطلٌ حيثما صرّفه الله انصرفْ

فأمر له بستّمائة درهم.

ونظر إليه إنسان وهو يأكل تمرًا ويبلع نواه، قال له: لِمَ لا ترمي نواه؟ قال: هكذا وزن عليّ. وقيل له: في كم يصير الإنسان مجنونًا؟ فقال: على قدر الصّبيان. ومِنْ شعره[٥]: [الخفيف]

زعموا أنّ من تشاغل باللـ ـذّات يومًا عن حبّه يتسلّى

---

(١) الأبيات في عقلاء المجانين، ص ٢٧٤. (٢) انظر عقلاء المجانين، ص ٢٧٧.
(٣) انظر الحاشية السابقة.
(٤) الأبيات في المذكرة في ألقاب الشعراء، للنشابي الإربلي، ص ٤٢٦.
(٥) الأبيات لابن الزيات في ديوانه، من قصيدة من أربعة أبيات، مطلعها:

ليت شعري عن أملح الناس دلاً أمقيمٌ لنا على العهد أم لا

كذبوا والذي تُساق له البُدْ نُ ومن دار بالطواف وصلّى
إنّ نار الهوى أحرّ من الجمـ ـرِ على قلب عاشقٍ يتقلّى

وأخبار ماني أحلى من مسامرة الأماني، لكن استيفاؤها ربما يخرج عن الغرض، ويبدّل جوهر ما شرطناه بالعرض.

وحكى المبرّد قال: خرجنا من بغداد إلى واسط، فمِلْنا إلى دير هرقل ننظر إلى المجانين، فنظرنا إلى فتى منهم ناحية عنهم، فملْنا إليه، وسلّمنا عليه، فلم يردَّ علينا السلام، فقلنا له: ما تجد؟ فقال[1]: [أحذّ الكامل]

الله يعلم أنني كَمِدُ لا أستطيع أبثّ ما أجدُ
روحان لي روحٌ تضمنها بلدٌ وأخرى حازها بلدُ
وأرى المقيمة ليس ينفعها صبرٌ وليس يفوتها جلدُ
وأظنّ غائبتي كشاهدتي بمكانها تجد الذي أجدُ

فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى شيء ليرمينا به فولّينا هاربين، فقال: سألتكم بالله إلّا ما رجعتم حتى أنشدكم، فإن أحسنت قلتم أحسنت، وإن أسأت قلتم أسأت، قال: فرجعنا، فقلنا له: قل، فأنشدنا[2]: [البسيط]

لمّا أناخوا قُبَيْل الصُّبح عَيْسهم ورحّلوها وسارت بالدعى الإبلُ
وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو إليّ ودمع العين ينهملُ
وودّعت ببنان زانها عنم ناديت لا حملت رجلاك يا جملُ
وَيْلي مِنَ البَيْن ويل حلّ بي وبها مَنْ نازل البَيْن جدّ البَيْن وارتحلوا
يا حادي العيس عرّج كي نودّعهم يا راحل العيس في تِرْحالك الأجلُ
إني على العهد لم أنقض مودّتهم يا ليت شعري لطول الدّهر ما فعلوا

قال: فقلنا له: ماتوا، فصاح وقال: وأنا والله أموت، واستلقى على ظهره وتمدّد فمات، فما بَرِحنا حتى دفنّاه رحمة الله عليه.

(١) الأبيات لشمروخ في ديوانه، وهي أربعة أبيات منفردة.
(٢) الأبيات لماني الموسوس في ديوانه، والقصيدة من ستة أبيات، وهي هذه.

الفصل الثالث من الباب الرابع

في احتجاج الأريب المتحامق على أنّ الحمق أزكى الخلائق

قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٦]، عبّر بالأفئدة وهي القلوب عن العقول لأنها مقرّها. وقال النبيّ ﷺ: «يُحاسب الله الناس على قدر عقولهم»[١]، وفي طريقٍ آخر: «إنّ الله يحاسب كل امرىء على مدار عقله»[٢]. وفي بعض الآثار: ما جعل الله لرجل عقلًا وافرًا إلّا احتسبه عليه من رزقه، وقيل: مَنْ زِيد في عقله نقص مِنْ رِزْقه.

ما قيل في انّ لذاذة العيش لا تحصل إلّا بالجهالة والطَّيْش

ذُكِر أن بعض الحكماء سُئِل: مَنْ أقرّ الناس عينًا وأحسنهم حالًا وأطْيبهم عيشًا وأنعمهم بالًا؟ فقال: مَنْ كُفِيَ أمر دنياه ولو لم يهتمّ لآخرته. أخذه المتنبّي، فقال[٣]: [الكامل]

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ... عمّا مضى فيها ولا يتوقّعُ
ولمن يغالط في الحقيقة نفسه ... ويسومها طلب المحال فتطمعُ

ولأبي بكر الكاتب[٤]: [السريع]

من رُزِقَ الحمق فذو نعمةٍ ... آثارها واضحة ظاهرَهْ
يحطّ ثقل الهمّ عن نفسه ... والفكر في الدنيا وفي الآخرَهْ

وقال حكيم: ثمرة الدنيا السرور، ولا سرور للعقلاء. وقال الشاعر[٥]: [السريع]

الروح والراحة في الحمق ... وفي زوال العقل والخرقِ
فمن أراد العيش في راحةٍ ... فليلزم الجهل مع الحمقِ

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يديّ.
(٢) الحديث لم أجده.
(٣) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
الحزن يقلق والتجمّل يردعُ ... والدمعُ بينهما عصيّ طيّعُ
(٤) البيتان لأبي علي كاتب بكر في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٠.
(٥) البيتان بلا نسبة في عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٦١.

ومِنْ أمثالهم: ما سُرّ عاقل قطّ. وقولهم: الهمّ والعقل لا يفترقان. وقولهم: استراح مَنْ لا عقل له. وقال بعض الحكماء: العاقل في ربقة مَنْ عقله تحجبه عن اللذّات، وتصدّه عن الشهوات، فمتى جرى على حكم البشرية، فأطاع هواه واتّبع غرضه ومُناه. قيل: زلّة عاقل وهفوة ذاكر، فنعوذ بالله من شرّهما ونرغب إلى الله في الكفاية منهما. وقال الشاعر(١): [الطويل]

أرى العقل بؤسًا في المعيشة للفتى ولا عَيْش إلّا ما حباك به الجهلُ

وقالوا: الجاهل لا ينال أغراضه ويظفر بآرابه ويطيع قلبه ويجري في عنان هواه، وهو بريء من اللّوم سليم من العَيْب، تُغْفر زلّاته، وتتعمّد هفواته. وقال آخر: الجاهل رخيّ الذرع، خالي البال، عازب الهمّ، حسن الظنّ، لا يخطر خوف الموت بفكره، ولا يجري ألم الإشفاق على ذِكْره. وقالوا: الجهل مطيّة المسرّة والمراح، ومسرح الفكاهة والمزاح، وحليف الهوى والتصابي، صاحبه في زمام من عهدة اللوم والعتب، وأمان مِنْ قوارص الذمّ والسبّ. وقال الشاعر(٢): [الخفيف]

ورأيت الهموم في صحّة العقـ ـل فداوَيْتها بإمراض عقلي

وقال المغيرة بن شعبة: ما العيش إلّا في إلقاء الحشمة.

ومِنْ احتجاج مَنْ أطلق نفسه من عِقال العقل والقى عصاه عامدًا في تِيْداء الجهل

قول بعضهم: لمّا كان العقل في المعنى ذائدًا عن الآراب، وحائلًا دون الأعراض، جعل اسمه مأخوذًا من لفظة العقال، فكم بين الطّليق والعاني ولين المعقود من الشارد، وهل من يتصرّف على اختياره ويُجيب داعي أهوائه كمن يُقسر ويُخصر، ويُكره ويُجبر. وقالوا: لو لم تكن فضيلة الجهل غير الإقدام وورود الحمام؛ إذ هما عين الشجاعة والبسالة، وسببان لتحصيل الرفعة والجلالة؛ وقال

---

(١) البيت للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ضمان على عينيك أني لا أسلو وأن فؤادي من جوًى بك لا يخلو

(٢) البيت بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ٢٢٢٧.

شاعرهم[١]: [البسيط]

ما لي وللعقل لا استصحبته أبدًا ... فالعقل ينزل دار الذلّ والهَوْنِ
لقد تعاقلت دهرًا لا أرى فرجًا ... ومذ تحامقت صار الناس يدنوني

وقال يحيىٰ بن أكثم: ما رأيت العقل قطّ إلّا خادمًا للجهل. وقالوا: كم عاقل أخّره عقله، وجاهل صدّره جهله. وقال الشريف أبو يعلى بن الهبارية[٢]: [الطويل]

تجاهلت لما لم أرَ العقل شافعًا ... وأنكرت لما كنت بالعلم ضائعا
وما نافعي عقلي وفضلي وفطنتي ... إذا بتّ صفر الكفّ والبطن جائعا

وما أحسن قول عبد الله بن المعتزّ في هذا المعنى مع زيادة للمصنّف: العقل كالمرآة المصقولة يرى صاحبها فيها مساوىء الدنيا، فلا يزال في صحوه مهمومًا متعذّر السرور حتى يشرب الخمر، فإن أكثر منها غشيه الصدأ كله حتى لا تظهر تلك المساوىء فيفرح ويمرح. والجهل كالمرآة الصديّة لا يرى صاحبها إلّا مسرورًا أبدًا قبل الشرب وبعده.

من هنا للمصنّف: فالعاقل يستدعي حالة الجهل إلى نفسه لترادف الهموم عليه في العواقب، والغرض في اكتساب المحامد والمناقب، فإذا ضاق بها ذرعًا، ولم يستطع لردائها نزعًا، احتال على ذهابها بالشراب ليخلّ عنه عقال الهموم والأتراح بأيدي المسرّات والأفراح. ومن مستطرف ما نظم في هذا المعنى قول أبي معاذ بشار بن بُرْد[٣]: [الرجز]

لما رأيت الحظّ حظّ الجاهلِ ... والعَيْش في الدنيا لغير العاقلِ
رحلت عيسًا من كرائم بابلِ ... فغدوت من عقلي ببعد مراحلِ

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، ص ٥٥٥.

(٣) الرجز في ديوان بشار بن برد، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت الثاني في الديوان:

رَحَلت عنسًا من شراب بابلِ ... فبتُّ من عقلي على مراحلِ

ومِنْ أحاسن أقوالهم في أنّ العقل طريق إلى العنا وسدّ يمنع صاحبه من الوصول للغنى

رُوِيَ عن الإمام محمد ابن الحنفية رضي الله عنه أنّه قال: وكل الله الجهل بالغنى، والعقل بالحرمان؛ ليعتبر العاقل، وليعلم أن ليس له من الأمر شيء. وفي مثل هذا يقول نصر بن أحمد المعروف بالخبزأرزي[١]: [البسيط]

سبحان مَنْ قدّر الأشياء منزلها   وصيّر الناس مرفوضًا ومرموقا
فعاقلٌ فطن أعْيَت مذاهبه   وأحمق جاهلٌ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة   وصيّر العالم النحرير زنديقا

قال رجل لبزرجمهر: تعال نتناظر في القدر، قال: وما أصنع بالمناظرة؟ رأيت الظاهر فاستدللت به على الباطن، رأيت الأحمق مرزوقًا، والعاقل محرومًا، فعلمت أنّ التدبير ليس من العِباد. وقيل: أعجب الأشياء نجح الجاهل، وكداء العاقل، حتى قيل: لو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم.

قال حبيب بن أوس الطائي[٢]: [الطويل]

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل   ويكدى التي في دهره وهو عالمُ
فلو كانت الأرزاق تجري على الحجى   هلكن إذًا من جهلهنّ البهائمُ

المتنبّي[٣]: [الكامل]

ذو العقل يشقى في النعيم بفضله   وأخو الحماقة في الشقاء ينعمُ

---

(١) الأبيات لعمرو القصافي، في طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص ٧٦٠؛ وللواسطي في الأمل والمأمول، للجاحظ، ص ١٩.

(٢) البيت في ديوان أبي تمّام، من قصيدة مطلعها:
ألم يأن أن تروي الظماءُ الحوائمُ   وأن ينظم الشمل المشتّت ناظمُ

(٣) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
لهوى النفس سريرة لا تُعلمُ   عرضًا نظرتُ وخلتُ أني أسلمُ
ورواية البيت في الديوان:
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

آخر(١): [الكامل]

العقل ليس بمسعد خلقًا إذا ما عال حتى يسعد المقدورُ
وحكومة الأيام يسعد جاهل فيها ويشقى العالم النحريرُ

آخر(٢): [الكامل]

لو كانت الأرزاق يدركها الفتى بجلادة أو قوّة وشراسِ
لأخذت أفضلها ببارع همّتي وبمنطقي وبحيلتي ومراسي
لكنها قسم وليس بمدرك ما لم يقدّره إله الناسِ

حدّث ابن حبيب في كتابه عقلاء المجانين، قال: حدّث سعيد بن علي بن عطاف، قال: كان عندنا رجل عاقل ظريف أديب يسمّى عامرًا، وكان مع كثرة أدبه محرومًا، فقيل لي: إنه قد تحامق، فجعلت أتطلّبه حتى ظفرت به في بعض الطرق والصبيان حوله يضحكون منه، فقلت: يا عامر ما هذه الحالة؟ فأنشد عجلًا ومرتجلًا(٣): [المنسرح]

يا عاذلي لا تلم أخا حمق يضحك منه فالحمق ألوانُ
حمقت نفسي لكي أنال غنى فالعقل في ذا الزّمان حرمانُ

وكان الحمدوني الشاعر يتحامق فعذله بعض أصحابه على ذلك، فقال: حماقة تعولني خير من عقلٍ أعُوله. ثم أنشد(٤): [الخفيف]

عذلوني على الحماقة جهلًا وهي من عقلهم ألذّ وأحلى
حمقي اليوم قائمٌ بعيالي ويموتون أن تعاقلت دلّا

ومن المنظوم في أنّ من أفعال الزمان إلباس العقلاء أسمال الحرمان

أبو يعلى بن الهبارية(٢): [الكامل]

الجهل أروح للفتى من عقله يُمسي ويُصبح آمنًا مسرورا

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) انظر كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٥٨.
(٤) البيتان للحمدوي الشاعر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

ترك العواقب جانبًا عن فكره | وسعى رواحًا في الهوى وبكورا
والعقل يعقله على حسراته | ويصدّه فيردّه محسورا
وتراه مهتمًّا كثيرًا غمّه | يحيا أسيرًا أو يموت فقيرا
لما علا الجهّال في أيّامنا | ورقوا ونالوا منزلًا وسريرا
أخفيت علمي واطّرحت فضائلي | علّي أكون إذا جهلت أميرا

آخر(١): [الكامل]

دَعْ عنك عقلي فالعقول مخارق | لا ينفع الإنسان إلّا جهلُه
كم عاقلٌ أمسى عقالًا عقله | دون المُنَى وغدًا فضولًا فضلُه

آخر(٢): [الطويل]

ولمّا رأيت الدّهر أحمق جاهلا | يصيب ولا يدري ويخطي ولا يدري
يُنيل ويُعطي الأحمق الغمر سُؤله | ويقصد أبناء الفضائل بالعسرِ
فيمنعهم منَ القرى ويذودهم | إذا ورد النُّوكى تحامقت للدّهرِ

عبد القاهر الجرجاني(٣): [مخلع البسيط]

كَبِّر على العقل يا خليلي | ومِلْ إلى الجهل مَيْل هائمِ
وكُنْ حمارًا تَعِشْ بخيرٍ | فالسّعد في طالع البهائمِ

آخر(٤): [الخفيف]

طاب عَيْش الرقيع في ذا الزّمان | والجهول الغفول والصفعانِ
فاغتنم حمقك الذي أنت فيه | تَحْظَ بالمكرمات والإحسانِ

---

(١) البيتان لم أجدهما.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان في ديوان عبد القاهر الجرجاني، وهما بيتان منفردان.
(٤) البيتان لأبي الربيع محمد بن علي الصفار البلخي، في عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٦١.

آخر[1]: [الوافر]

إذا كــان الــزمــان زمــان حُـمْــقٍ ... فــإنّ الــعــقــل حــرمــان وشــومُ
فكُنْ حمقًا مع الحمقى فإنّي ... أرى الدنيا بدولتهم تدومُ

آخر[2]: [الخفيف]

إنّ عامًا فيه تسربلت خزًا ... وتردّيت في الرجال البرودا
لزمان أبدى النّحوس إلى النا ... س وأخفى عن العيون السّعودا

آخر[3]: [السريع]

قد كَسَد العقل وأصحابه ... وفتحت للجهل أبوابُه
فاستعمل الحمق تَكُنْ ذا غِنًى ... فقد مضى العقل وأربابُه

آخر[4]: [الطويل]

تحامقْ مع النُّوكى إذا ما لقيتهم ... ولا تَلْقَهم بالعقل إنْ كنت ذا عقلِ
وخلّط إذا لاقيت يومًا مخلّطًا ... يخلط في قول صحيحٍ وفي فعلِ
فإني رأيت المَرْء يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يَسْعد بالعقلِ

آخر[5]: [الطويل]

أرى زمننا نوكاه أسعد أهله ... ولكنما يشقى به كل عاقلِ
مشى فوقه رجلاه والرأس تحته ... فكبّ الأعالي بارتفاع الأسافلِ

وقال بعض ظرفاء الأدباء، وهو أبو الحسن المائق[6]: [الهزج]

طلبت الرزق بالحذق ... مِنَ الغرب إلى الشرقِ
فلم يكسبني العقل ... سوى البُعْد مِنَ الخَلْقِ

---

(١) البيتان بلا نسبة في عقلاء المجانين، ص ٦٢.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان لم أجدهما.
(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) البيتان بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٨٩٦.
(٦) الأبيات لم أجدها.

فـأدبـرت عـن الـعـقـل وأقـبـلت عـلى الـحـمـقِ
فـخـاف الـنـاس أشـعـاري وقـالـوا أحـمـق الـخـلقِ
وجـاء الأبـيّ الـجـحـش بـمـا شـاء مـن الـرّزقِ
فـمـن لامَ عـلى الـحـمـق فـقـد حـادَ عـن الـحـقّ

ومما ذُكِر أنّ الحافظ أجدى لصاحب الحجا وأهدى في طرق مآربه من نجوم الدجى

ما حَكى أهل التجارب، فإنهم قالوا: العقل وسوء الحظّ كالعلّة، والمعلول لا مفصل لأحدهما عن الآخر. وقالوا: إفراط العقل مضرّ بالجدّ. وقيل: استأذن العقل على الجدّ فحجبه، فقال: اذهب أنت بي لا أنا بك. قال شاعر[1]: [الخفيف]

عِـشْ بـجـدّ ولا يـضـرّك نـوك إنـمـا عـيش مـن تـرى بـالـجـدودِ

آخر[2]: [البسيط]

لا تـنـظـرنّ إلـى عـقـل ولا أدب إن الـجـدود حـديـقـات الـحـمـاقـات

آخر[3]: [الكامل]

الـجـدّ أنـهـض بـالـفـتـى مِنْ عـقـلـه فـانهض بجدّك في الحوادث أو ذرِ
مـا أقـرب الأشـيـاء حـين يـسـوقـهـا قـدر وأبـعـدهـا إذا لـم تـقـدرِ

آخر[4]: [الطويل]

متى ما ترى الناس الغنيّ وجاره فـقـيـر يـقـولـوا عـاجـز وجـلـيـدُ
وليس الغنى والله من حيلة الفتى ولـكـن أحـاظ قـسـمـت وجـدودُ

(١) البيت في أخبار أبي القاسم الزجاجي، له، ص ٩٨.
(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان للحكم بن عبدل في ديوانه، والبيت الثاني هو مطلع القصيدة.
(٤) البيتان لعبد الرحمٰن بن حسان الأنصاري، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

آخر[(١)]: [الكامل]

لا تنظرنّ إلى الجهالة والحجا وانظر إلى الإدبار والإقبال
كم من صحيح العقل أخطأه الغِنى وعديم عقلٍ فازَ بالأموال

ودَعَتْ أُم الإسكندر لولدها، فقالت: رزقك الله حظًا يخدمك به ذوو العقول، ولا رزقك عقلًا تخدم به ذوي الحظوظ. وخُيِّر رجل بين أمرين، فأبَى أن يختار وقال: أنا بجدّي أوْثَق منّي بعقلي. ومِنْ أمثالهم: أن تجدّ فلا تكدّ. قال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرّي[(٢)]: [الكامل]

لا تطلبنّ بغير حظّ رتبة قلم البليغ بغير حظّ مغزلُ
سكن السِّما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزلُ

وقال بعضهم[(٣)]: [الكامل]

قالوا أقمت وما رزقت وإنما بالسير يكتسب اللّبيب ويُرْزقُ
فأجبتهم ما كل سَيْر نافع الحظّ ينفع لا الرحيل المقلقُ
كم سيرة نفعت وأخرى مثلها ضرّت ويكتئب الحريص ويخنقُ
كالبدر يكتسب الجمال بسيره وبه إذا حرم السعادة يمحقُ

آخر[(٤)]: [البسيط]

لا يوجد الرزق بالإمعان في الطّلب ولا بكدٍّ ولا حرصٍ ولا تعبِ
بل الحظوظ التي تعلو بصاحبها لا بالخطوط التي في سائر الكتبِ
كم من غلام أديب فيصل ذكر شهم مهيب كحدّ السيف ذي الشُّطبِ
يُمْسي ويضحي من الإفلاس في تعب يقلب الكفّ بالنيران والَّلهبِ
وآخر جلف طبع لا خلاق له مذبذب العقل ثورًا مُنْتن الذّنبِ
لا يعرف الميم مِنْ واو إذا كتبا ولا يميّز بين التين والعنبِ
قد أقبلت نحوه الأيام ضاحكة وأخدمته اللّيالي كل ذي حسبِ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان ليسا في ديوان أبي العلاء المعرّي، وهما لحمدون بن الحاج السلمي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) الأبيات لابن الهبارية في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.
(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وللشافعي رضي الله عنه[١]: [الكامل]

بالجدّ يدنو كل أمرٍ شاسع والجدّ يفتح كل باب مغلقِ
فإذا سمعت بأن مجدودًا حوى عودًا وأثمر في يديه فحقق
وإذا سمعت بأنّ محرومًا أتى ماء ليشربه فغاض فصدقِ
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم أقطار السماء تعلقِ
لكنّ من رزق الحجا حُرِم الغنى ضدّان مفترقان أيّ تفرّقِ
ومِنَ الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللّبيب وطيب عيش الأحمقِ
وأحمق خلق الله بالهمّ امرؤ ذو همّة يبلى برزق ضيقِ
فلربّما مرّت بقلبي ضجرة فأودّ منها أنني لم أخلقِ

وقال: إذا أقبل جدّ المرء فالأقدار تُسْعده، والأوطار تساعده، وإذا أدبر فالأيام تُعاديه، والنحوس تراوحه وتغاديه. ويُروى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنّ السعادة لتلحظ الحجر فيدعى ربا»[٢]، وإلى هذا أشار حبيب بن أوس في قوله[٣]: [الكامل]

وإذا تأمّلت الجبال وجدتها تشرى كما تشرى الرجال وتُغدمُ

وقال آخر، وهو أبدع ما قيل في هذا الباب[٤]: [الكامل]

وإذا السعادة لاحظتك بعينها نَمْ فالمخاوف كلهنّ أمانُ
واصطد بها العنقاء فهي حبائل واقْتَدْ بها الجوزاء فهي عَنانُ

وقال ابن نباتة[٥]: [الطويل]

ألا فاْخشَ ما يرجى وجدّك هابطٌ ولا تَخْشَ من شيء وجدّك رافعُ
فلا نافع إلّا مع النّحس ضائر ولا ضائر إلّا مع السّعد نافعُ

---

(١) الأبيات في ديوان الشافعي، مع الاختلاف في ترتيبها، ومطلع القصيدة:
فإذا سمعت بأن مجدودًا حوى عودًا فأثمر في يديه فصدّقِ
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٣) البيت ليس في ديوان أبي تمام، وهو بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ١٣١.
(٤) البيتان للقاضي الفاضل في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٥) البيتان في ديوان ابن نباتة السعدي، من قصيدة مطلعها:
أسؤال هذا الدهر ما أنا قانعٌ سألتكم بالله كيف المطامعُ

آخر(١): [الطويل]

إذا كنت مرموقًا بعين سعادة فلا تَخْشَ يومًا من رجوع الكواكبِ
فإنّ الذي قد قرّب الله سعده بعيد لعمري من صروف النّواقبِ

ومن الظريف المطبوع في هذا الباب قول محمد بن شرف القيرواني(٢): [الوافر]

إذا صَحب الفتى جدّ وسعد تحامَتْه المكاره والخطوبُ
ووافاه الحبيب بغير وعدٍ طفيليًا وقاد له الرقيبُ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان في ديوان ابن شرف القيرواني، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:
وعد الناسُ ضرطة غناء وقالوا إن فسا قد فاح طيبُ

الباب الخامس

في الفصاحة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب

في أنّ الفصاحة والبيان أزين ما تحلّت بهما الأعيان

قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرّحمٰن: الآيات ١ - ٤]. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ من البيان لسحرًا»(١).

حدّ البيان: قال الجاحظ في كتابه الذي سمّاه البيان والتبيين: البيان اسم جامع لكل كلام كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب عن الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقة اللفظ، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان. وقيل لجعفر بن يحيىٰ بن خالد البرمكي: ما البيان؟ فقال: أن يكون الاسم محيطًا بمعناك كاشفًا عن معزاك. وقال آخر: خير البيان ما كان مصرّحًا عن المعنى ليسرع إلى الفهم تلقنه، وموجزًا ليخفّ على اللسان تعاهده.

فما ورد عن جهابذة هذا العقيان مدح موهبتي الفصاحة والبيان

قول ابن المعتزّ: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وقال سهل بن هارون: البيان ترجمان اللّسان، وروض القلوب. وقال بعض الأعراب لولده: عليك بالفصاحة في منطقك، فإنها مع صواب لفظك كالريش البهيّ في حسن الصورة. ويقال: من عُرِف بفصاحة اللّسان لحظته العيون بالوقار. وقال هشام بن

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ٤٧، والطب باب ٥١، ومسلم في الجمعة حيث ٤٧، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، والترمذي في البرّ باب ٨١.

عروة: ما أحدث الناس مروءة أعجب إليّ من الفصاحة. وقال بعض البلغاء: الفصاحة أوثق شاهد عدل على اجتماع شمل الفضل، وأقوى دليل على استكمال الذكاء والنّبْل، لم تزل تشيد لأهلها في ربوع المجد فخرًا، وترفع لهم في مراتب العلوم ذكرًا، وربما سوَّدت غير مسوّد، ورفعت من الحضيض الأوهد إلى محل النسر والفرقد. ويقال: بالفصاحة والبيان استولى يوسف عليه السلام على مصر وملك زمام الأُمور، وأطلعه ملكها على الجليّ من أمره المستور، فإنّ العزيز لمّا رأى فصاحة لسانه وحُسْن بيانه، أعلى مكانه وأعظم شانه.

ومما يتميّز به نوع الإنسان فصاحة المنطق وذلاقة اللّسان

قال بعض الحكماء: الكلام حدّ الإنسان الحيّ الناطق. وقالوا: الصّمت منام، والكلام يقظة. وقال عبد الملك بن مروان: إنّ الكلام قاض يحكم بين الخصوم، وضياء يجلو الظلام حاجة الناس إلى موادّه كحاجتهم إلى موادّ الأغذية. وقال: حدّ الإنسان أنه ناطق، فمن كانت رتبته في النطق أبلغ كان بالإنسانية أخلق. وقال أبو الفرج الببغا في رسالة له مدح فيها الكلام: الحيوان كلّه متساوٍ بنعت الحركة والنموّ، فالإنسان والبهيمة باشتمال هذا الوصف عليهما سيّان، وإنما فضل العالم الإنسيّ بالنطق المترجم عن مراد العقل المُظْهر للحكمة من القلب إلى العقل، فإذا صحّت بهذه القاعدة أنّ الإنسان بفضيلة النُّطق أشرف مصنوع وأفضل مطبوع، فقد وجب أن يكون أكمل هذا الجنس فضلًا، وأحمد هذا العالم فعلًا، ومَنْ كان قسطه بفضيلة النطق موفورًا، فمحلّه من ربع البلاغة معمورًا. وقال أيضًا: مَنْ زعم أنّ الصمت أشرف مرتبة وأرفع منزلة من الكلام فقد حكم على الكلام بالنقصان، وأحلّ العيّ محل البيان، ولو كان الصّمت أفضل من الكلام لتعبّدنا الله به فيما انتدبنا له بالإلهام، وكان توحيد الله بحجج العقول في غنًى عن واسطة أو رسول. وقيل لبعض الحكماء: أيّما أفضل: الصمت أو النطق؟ فقال: إنّ الله تعالى بعث أنبياءه بالنطق لبيان الحجّة، وإنك تمدح الصمت بالنطق ولا تمدح النطق بالصمت، وما عبّرت به عن شيء فهو أفضل منه. وقال مِنْ فضل الناطق على الصامت أنّ الناطق يهدي ضالاً، ويُرْشد غاويًا، ويُعَلّم جاهلًا. وقيل لزيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم: الصمت خير أم الكلام؟ فقال: لعن الله المساكتة، فما أفسدها للّسان، وأجلبها للعيّ، والله للماراة أسرع في

هدم العيّ من السنان في نبش العرفج. وقال آخر: الصمت مفتاح السلامة، ولكنه قفل الهمّ. وقال الشاعر[(١)]: [الكامل]

خلق اللّسان لنطقه وكلامه لا للسلكوت وذاك حظّ الأخرسِ

فإذا نطقت فكن مجيبًا سائلًا إنّ الكلام يزين ربّ المجلسِ

وقالوا: اللّسان عضو إنْ مرّنته مرن، وإن تركته حرن. وقالوا: اللّسان إذا كَثُرت حركته، رقّت عذبته؛ كالرِّجْل إذا عُوِّدت المشي سَعَتْ. وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللّسان إلّا صورة ممثلة، أو بهيمة مرسلة، أو حالة مُهْملة. وقال أيضًا: لسان الفتى أوجه شفعائه، وأنفذ سلاحه على أعدائه، به يتّصل الودّ، وينحسم الحقد. شاعر[(٢)]: [الكامل]

لسان الفتى نصفٌ ونصف فؤاده ولم يبق إلّا صورة اللّحم والدم

وقال بعض البلغاء: مغرس الكلام القلب، وزارعه الفكر، وقيمه العقل، وزهره الإعراب، وثمره الصواب، وجانيه اللّسان.

ومما شرف به اللّسان من خصائص الإحسان

قالوا: اللّسان جوهر الإنسان، مِنْ خصائصه أنّ الله رفع قدره على سائر الأعضاء فأنطقه بتوحيده، وألهمه لتمجيده؛ ومِن خصائصه أنه أداة يظهر بها البيان، وظاهر يخبر عمّا بطن في الجنان، وحاكم يفصل بالخطاب، وناطق يردّ الجواب، وواصف تُعْرف به الأشياء، وواعظ يُنْهى به عن الفحشاء، وشاهد يُسأل به عن الغائب، وشافع تدرك به المطالب، ومونّق يلهي الخاطر ومؤنس يُزيل وحشة النافر، ومعزّ تسكن به غلّة الخليل، ومزيّن يدعو إلى الجميل، وزارع ينبت الوداد، وحاصد يذهب الضغائن والأحقاد.

---

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٨٣.

(٢) البيت للأعور الشني في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألم تر مفتاح الفؤاد لسانه إذا هو أبدى ما يقول من الفمِ

والبيت لزياد الأعجم في ديوانه، من بيتين أوّلهما:

وكائن ترى من صامت لك مُعجب زيادته أو نقصه في التكلّمِ

ومما ينال به الخامل أعلى الرّتب التحلّي بأنواع جواهر الأدب

الأدب نوعان: نفسيّ وكسبي، فالنفسي بتوفيق الله يهبه الله لمن يريد، وهو ما كان من محاسن الأفعال الدالّة على كرم الطِّباع، والكسبيّ ما استفادته الأنفس من أحاسن الأقوال الآخذة بأعِنّة القلوب والأسماع، وهو الذي ترجمت عليه في هذا الموضع، ليقع ذكره في النفوس أحسن موقع لترمقه لأجله العيون بالإجلال، وتتجمّل النفوس به لمَيْلها إليه بتتابع الإدلال، وهو الظرف في اللّسان، الكائن عن الاشتغال بفنون علوم الآداب الحِسان؛ كالنحو واللّغة ونظم الشعر وإفشاء النثر وما يتعلّق بذلك من علم البديع والمعاني والبيان، وما ذكرناه فهو الذي نال به حماد الراوية والأصمعي وإسحٰق الموصلي العُلا من الخلفاء، والجوائز من الوزراء، وسمّوا تشريفًا لهم بالجُلَساء والنُّدماء. قال أكثم بن صيفيّ: الرجل بلا أدب شخص بغير آلة، وجسد بلا روح. وقال بزرجمهر: الأدب شريف لا ينطبع إلّا في مثله. وقال الأحنف: لكل شيء ذؤابة، وذؤابة الشرف الأدب. وقال أنوشروان: عَجِبت لمن يشهره الأدب كيف تدعوه نفسه إلى مَكْرمة. وقال بعض الأعراب لولده: عليك بالأدب، فإنه يرفع العبد المملوك حتى يجلسه في مجالس الملوك. وقال عبد الملك لبنيه: تأدّبوا فإن كنتم ملوكًا بررتم، وإن كنتم أوساطًا فُقْتم، وإن أعوزكم المعاش عشتم، استفيدوا من الأدب ولو كلمة واحدة. وقال بعض الأعراب: تعلّموا الأدب، فإنه زيادة في الفضل، ودليل على العقل، وصاحب في الغربة، وأنيسٌ في الوحدة، وجمالٌ في المحافل، وسببٌ إلى دَرْك الحاجة. وقال المأمون: والله لأن أموت طالبًا للأدب خيرٌ من أن أموت قانعًا بالجهل. ويقال: ذكِّ قلبك بالأدب كما تُذَكَّى النار بالحطب. وقال الخليل بن أحمد: مَنْ لم يكتسب بالأدب مالًا، اكتسب به جمالًا. وقال آخر: الأدب أكرم الجواهر طبيعة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرّغائب الجليلة، وينحج القصد والوسيلة، فألبسوه حلّة، وتزيّنوه حلية، فإنه أنفق معاش، وأجمل رياش. وقال الشعبي: الأدب للفقير مال، وللغنيّ جمال، وللحكيم كمال.

ومما ذكر أنّ التحلّي بالآداب يلحق الدنيء بذوي الأحساب

قالوا: من قعد به نسبه، نهض به حسبه. وقالوا: مَنْ تأدّب وليس له حسب ألحقه الأدب بأهل الرُّتَب. وقد يُسْتغنى بالأدب عن الحسب؛ كما حُكِيَ عن سيبويه

قال: تكلّم رجل بين يدي المأمون فأحسن، فقال له المأمون: ابن مَنْ أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، فقال: نِعْم الحسب الذي انْتَسَبْت إليه. ولهذا قيل: المَرْء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يُولد، وبآدابه لا بثيابه، وبفضيلته لا بفصيلته، وبعقله لا بعقائله، وبأنبائه لا بآبائه، وبكماله لا بجماله. قال الشاعر[١]: [المنسرح]

كـن ابـن مَـنْ شِـئْت واتّـخـذ أدبًا   يُغْنيك محموده عن النَّسَبِ
إنّ الـفـتـى مَـنْ يـقـول هـا أنـا ذا   ليس الفتى مَنْ يقول كان أبي

وقال بزرجمهر: مَنْ كَثُر أدبه كَثُر شرفه وإنْ كان وضيعًا، وبَعُدَ صِيته وإن كان خاملًا، وساد وإن كان غريبًا، وكَثُرت حوائج الناس إليه وإنْ كان فقيرًا. وقالوا: مَنْ دأب في طريق الأدب أدرك حاجته، وملك ناصيته، ونَبُل قدره، ونَبُه ذكره. قال الشاعر[٢]: [السريع]

لـكـل شـيء زيـنـة فـي الـوَرى   وزيـنـة الـمـرء تـمـام الأدبْ
قـد يُـشْـرف الـمـرء بـآدابـه   فينا وإن كان وضيع الحسبْ

وما أحسن قول بعض الأعاجم يفتخر ويعتذر[٣]: [المنسرح]

ما ليَ عقلي وهمّتي حسبي   مـا أنـا مـولـى ولا أنـا عـربـي
وإذا انـتـمـى مُـنْـتَـمٍ إلـى أحـدٍ   فـإنّـنـي مـنـتـم إلـى أدبـي

ويقال: حُسْن الأدب يَسْتر قبيح النَّسب. وقالوا: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والنَّسب. ويقال: الأدب يَنُوب عن الحسب، ولا ينفع حسب بلا أدب. شاعر[٤]: [البسيط]

كم من خسيس وضيع القدر ليس له   في العزِّ بيت ولا ينمى إلى نسب
قد صار بالأدب المحمود ذا شرف   عالٍ وذا حسب محض وذا نشب
يـعـلي الـتـأدّب أقـوامًا ويـرفـعـهـم   حتى يساووا ذوي العَلْياء في الرُّتَبِ

---

(١) البيتان لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

فـلـيـس يـغـنـي الـحـسـيـب نـسـبـتـه   بـلا لـسـان لـه ولا أدبِ

(٢) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ١٠٦.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ١٠٢٧.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ذِكْر مَنْ دأب في طلب الأدب فنال به أعلى المناصب والرُّتب

يكفي دليلًا على ما ذكرناه، وأنموذجًا لما وصفناه، حال أحمد بن أبي دؤاد في ترقّيه إلى بقاع المجد، من الحضيض الوهد. يُحْكى أنه كان يختلف إلى مجلس بشر المريسيّ في حالةٍ رثّة، وهيئة رديئة وينصرف عنه في قائم الظهيرة معلّقًا محبرته متأبّطًا دفتره، فيقيل عند أخٍ له؛ فلما وجّه المأمون المعتصم إلى مصر التمس من بشر رجلًا من أصحابه يكونُ في صحبة المعتصم يوليه على المظالم ويكتب إليه أخباره، فقال: يا أمير المؤمنين معنا قوم لهم فقه، ولكن لم يجمعوا إليه الأدب ومعرفة أمور السلطان، ثم وصف له أحمد ابن أبي دؤاد؛ قال إنه جمع إلى فقه أدبًا وبيانًا وعقلًا، فأرسل إليه وقلّده المظالم ففعل، ثم حلّ من المعتصم محلاً عظيمًا لاختياره له أيام مقامه بمصر معه.

ومنهم الفضل بن سهل ذو الرئاستين، كان أهل بيته مجوسًا وتجّارًا وصنّاعًا، فيهم الدهقان وبائع الخمر، فبلغ به الأدب إلى أرفع الرّتب. ذُكِر عنه أنه كان يتقلّد بسيفين أحدهما أحمر الجفر مكتوب عليه: رئاسة الحرب، والآخر أسود الجفر مكتوب عليه: رئاسة التدبير، ولهذا سمّي ذو الرئاستين، وصحب الفضل المأمون في حداثته أيام أبيه الرشيد، وهو مجوسي فغلب عليه، وحمله على إيثار الأدب وطلب الحكمة، وكان الفضل يعلم أحكام النجوم، فأخبره أنه يرى في طالعه أنه يلي الخلافة سلبًا، وأنّ تدبيره يبعد عنه شرقًا وغربًا، فبلغ الرشيد شأنه وخبره فهدر دمه فاستتر حينًا، ثم بدا له أن يظهر، فأتى الرشيد وهو في الحلبة، فمثل بين يديه، وهو يقول: أعوذ يا أمير المؤمنين برضاك مِنْ سخطك، وأعترف بالذنب وأسلم لله على يدك، فقال الرشيد: مَنْ هذا؟ قالوا: المجوسي الذي هدرت دمه، فقال: قد وهبناك دمك إذا سلمت له فإياك ومعاودة ما بلغنا عنك.

ومنهم محمد بن عبد الملك الزيّات، قال له العلاء بن أيوب يومًا، وقد دارت بينهما محاورة في مناظرة: ليس هذا كيل الزّيت ولا عدّ الجوز، قال له: بالتجارة تعيّرني قد كنت تاجرًا وكنت متأخّرًا فقدّمني الله بالأدب، وأصارني بعد التجارة إلى الوزارة وليس المعيب مَنْ كان خسيسًا فارتفع، وإنما هو مَنْ كان شريفًا فاتّضع، ولو كنت عامَلْتك معاملة الفضل بن سهل وأذللتك كما أذلّك لم تُقدم عليّ بمثل هذا القول الذي لم ينفعك، فقد كنت تدخل دار الخلافة تلوذ بالجدران،

وتتبّع الأفياء، ناكس الرأس، غضيض الطرف خوفًا منه، لكني رفعتك في المجلس فوق مَنْ هو أرفع منك، وقدّمتك على مَنْ هو متقدِّم عليك؛ فقال له العلاء: مهلًا إنما قلت كلمة مَقُولة، وتمثّلت بمثل مضروب لم أعتمد به، فأمّا قولك: إني كنت ألوذ بالجدران وأتبع الأفياء خوفًا من الفضل، فقد كان ذلك ولكني لم أكن أراك هناك، وإنّ أوْلى الناس أن لا يعيّر أحدًا باستخفاف الفضل لأنت. فقال ابن الزيّات: هذا شرّ من ذلك ونهض من مجلسه، وقال: احجبوه عني، فكان العلاء يأتي بابه كل يوم، فيقف حتى ينصرف الناس ثم يمضي، فلما رأى ابن الزيّات صبره وأدبه صالحه وخالصه.

وأراد العلاء بقوله: فإنّ أوْلى الناس أن لا يعيّر أحدًا باستخفاف الفضل لأنت: أنّ الفضل رأى على ابن الزيّات سوادًا فأمر بتمزيقه عليه، وقال: لا تتشبّه أصحاب السلطان وأرباب المراتب، ثم لم تطل مدّة الأيام واللّيالي حتى قلّد ابن الزيّات الوزارة، وجلس الفضل بن سهل بين يديه. وكان ابن الزيّات مليًا بعلم الأدب كاتبًا شاعرًا لا يشقّ في شيء منها غباره، ولا تدرك آثاره.

يُحكى في سبب تقدّمه بعد أن كان يتولّى قهرمة الدار، ويُشرف على المطبخ أنه ورد على المعتصم كتاب البريد يخبر فيه أنّ بلاد الجبل نزل بها مطر عظيم كَثُر منه الكلأ، فقال المعتصم لأحمد بن عمارة، وكان متقلّد العرض عليه: ما الكلأ؟ قال: لا أدري، فقال المعتصم: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أخليفة أمّي وكاتب عاميّ؟ ثم قال: مَنْ قرأ لنا الكتاب فعرّف بمكان محمد بن عبد الملك الزيّات فطلبه، فلما مثل بين يديه قال له: ما الكلأ؟ قال: النبات كلّه رطبه ويابسه، فالرطب خاصة يقال له العشب، واليابس خاصة يقال له الحشيش، ثم اندفع في وصف النبات من ابتدائه إلى انتهائه، فهذا هو السّبب لما ذكرناه.

ومن مادح أهل هذه الصناعة الآخذين بأعِنّة الفصاحة والبراعة

وصف مسلم بن بلال بني العباس، وقد سُئِل عنهم فقال: أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون، وبلسان النبوّة ينطقون. ومدح خالد بن صفوان رجلًا ببراعة المنطق، فقال: كان والله جزل الألفاظ، عزيز مقال اللّسان، فصيح مآخذ البيان، رقيق حواشي الكلام، بليل الريق، قليل الحركات، ساكن الإشارات. ومدح أعرابي رجلًا، يقال: فلان أخذ بزمام الكلام فقاده أسهل مقاد، وساقه أجمل مساق،

فاسترجع به القلوب الجامحة، واستصرف به الأبصار الطامحة. ووصف ابن المقفّع بليغًا، فقال: ما زالت ينابيع حكمه تترقرق في مغابن الآذان حتى أعشبت بها القلوب عقولًا، وقد ألمّ بهذا المعنى المتنبّي في قوله[١]: [الكامل]

نطق إذا ما القول حطّ لثامه أعطى بمنطقه القلوب عقولا

ولأبي إسحٰق الصابي في الوزير أبي محمد المهلّبي رحمه الله تعالى[٢]: [الكامل]

قل للوزير أبي محمّدٍ الذي قد أعجزت كل الورى أوصافه
لك في المحافل منطق يشفي الجوى ويسوغ في أدب الأريب سلافه
فكأنّ لفظك لؤلؤ متنخّل وكأنما آذاننا أصدافه

قيل: فلان إذا أنشأ وشى، وإذا عبر حبر، فلان إذا أنشأ انتثرت زاهرات الآداب مِنْ عذوبة لسانه، وإذا أنشد حرّك ذا الوقار طربًا بإحسانه، لله درّ فلان ما أسبط لسانه، وأطول عنانه، وأفصح بيانه، وأجود افتنانه.

أبو عبادة البحتري يصف بليغًا[٣]: [الكامل]

حكم فسائحها خلال بنانه متدفّق وقليبها في قلبِه
كالرّوْض مؤتلفًا بحُمْرة نَوْره وبياض زهرته وخضرة عشبِه
وكأنها في السّمع معقودٌ بها شخص الحبيب بدا لعين محبِّه

ولبعض شعراء العصر[٤]: [الطويل]

مقال تفدّيه أوائل وائل وتفديه أحقابًا أعارب يعربِ
هو الزّهر الغضّ الذي في كمامه أو اللؤلؤ الرّطب الذي لم يثقّبِ

---

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
في الخد أن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا
(٢) الأبيات في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٢٧٧.
(٣) الأبيات في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:
من سائل لمعذرٍ عن خطئهِ أو صافح لمقصّرٍ عن ذنبِهِ
(٤) البيتان لبهاء الدين زهير في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
لك الله من والٍ وليّ مقرّبِ فكم لك من يوم أغرّ محبّبِ

آخر(١): [المنسرح]

قول هو الماء لذ مطعمه وكل قولٍ سواه كالزَّبَدِ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه(٢): [الطويل]

إذا قال لم يترك مقالًا لقائلٍ بملتقطات لا ترى بينها فصلا

كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع لذي إربة في القول جدًا ولا هزلا

آخر(٣): [الطويل]

كلامٌ كوقع القطر في المحل يشتفي به من جوى في باطن القلب لاصق

الفصل الثاني من الباب الخامس

فيما يتحلّى به ألباب الأدباء من بلاغات الكتّاب والخطباء

ولنورد أمام هذا الفصل نبذة يسيرة في حدّ البلاغة وأقسامها، والطريق الذي يوصل سلوكه إلى معرفة نقصها أو تمامها. قال العتابي: واسمه كلثوم بن عمرو: البلاغة إظهار ما غمض عن الخلق، وتصوير الباطل في صورة الحقّ. وقال عليّ بن عيسى الرماني: أبلغ الكلام ما حَسُن إيجازه، وكَثُر إعجازه، وتساوت صدوره وأعجازه. وقالوا: البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ. وقيل لبعض البلغاء: مَنِ البليغ؟ قال: الذي إذا قال أسرع، وإذا أسرع أبْدَع، وإذا أبدع حرّك كل نفس بما أوْدع. وقالوا: لا يستحقّ الكلام اسم البلاغة حتى لا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك. وقال عبد الحميد بن يحيىٰ كاتب مروان الحمار: البلاغة ما رضيته الخاصّة وفَهِمَته العامّة.

---

(١) البيت لابن نباتة السعدي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

نحن بقايا طعن القنا القصد وراسيات العزاء والجلدِ

(٢) البيتان في ديوان حسان بن ثابت، من قصيدة مطلعها:

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه رأيت له في كل أحواله فضلا

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

والعرب سباق حلبة البيان يعترف لهم بذلك فصحاء كلّ زمان

قال بعضهم: نحن أُمراء الكلام فينا وشجت عروقه، وعلينا تدلّت غصونه، فنحن نجني منها ما احْلَوْلى وعذب، ونترك ما امْلَوْلَح وخبث. وقال الجاحظ: ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع، ولا آنق في الأسماع، ولا أقود للطّباع، ولا أفتق للّسان، ولا أجود تقويمًا للبيان من كلام الأعراب الفصحاء العقلاء. وسُئِل بعض البلغاء: أيّما أشرف العرب أو العجم؟ فقال: العرب أحلى وأحلم وأعلى وأعلم وأقوى وأقوم وأنكى وأنكر وأذكى وأذكر وأعطى وأعطف وأحصى وأحصف وأبلى وأبلغ وأسمى وأسمح وأشرى للفخار وأشرف وأنفى للعار وآنف. وسأل كسرى الحارث بن كلدة لمّا وفد عليه: ما الذي يُحْمد من أخلاق العرب، ويُحْفَظ من مذاهبهم؟ فقال لهم: أنفس سخيّة، وقلوب جريّة، وعقول صحيحة، وأنساب صريحة، يمرق الكلام مِنْ أفواههم مروق السّهم من الرّمية أعذب من الماء، وأرقّ من الهواء يطعمون الطعام، ويضربون الهامّ، عزّهم لا يُرام، وجارهم لا يُضام، ولا يروّع إذا نام.

فمن وشائع ألفاظهم البارعة وبدائع معانيهم الرائعة

ما يُحْكى أن أعرابيًا قال عند ضجره في طلب الرّزق: والله لقد تقلّبت بي الأسباب وقرعت جميع الأبواب، واضطربت غاية الاضطراب، وسافرت حتى بلغت منقطع التراب، ورضيت من الغنيمة بالإياب، فما رأيت الحرمان إلّا فائضًا، والنجح إلّا غائضًا. واعترضت أعرابية المنصور بطريق مكّة بعد موت السفّاح، فقالت: يا أمير المؤمنين قد أحسن الله إليك في الحالتين، وأعظم عليك النّعم في المنزلتين، سلبك خليفة الله، وأفادك خلافة الله، فاحتسب عند الله ما سلبك، واشكر له ما منحك. ووقف أعرابيّ على قوم يسألهم، فقال: يا أرباب الوجوه الصّباح، والعقول الصّحاح، والصدور الفساح، والنفوس السماح، والألسن الفصاح، والمكارم الرباح، هل فيكم مَنْ يسمع كلامي، فيعذرني مِنْ مقامي. ووقف أعرابيّ بقوم، فقال: يا قوم أشكو إليكم زمانًا كَلِح لي بوجهه، وأناخ عليّ بكلكله، بعد نِعْمةٍ من البال، وثروةٍ من المال، وغبطةٍ مِنَ الحال، اعتورتني جديداه بنبال مصائبه، عن قسيّ نوائبه، فما تركا لي ثاغية أجتدي ضرعها، ولا راغية أرتجي نفعها، فهل فيكم مُعِين على صرفه، أو معد على حيفه، فردّوا عليه ولم

ينيلوه شيئًا، فولّى عنهم وهو يقول(١): [الرجز]

قد ضاع مَنْ يأمل مِنْ أمثالكمْ جودًا وليس الجود مِنْ أفعالكمْ
لا بارك الله لكم في مالكمْ ولا أزاح السُّوء عن عيالكمْ
فالموت خيرٌ من صلاح حالكم

ومِنْ كلامهم في الأوصاف: وصف أعرابيّ امرأة، فقال: هي السّقم الذي لا برء منه، والبُرْء الذي لا سقم معه، أسهل مِنَ الماء، وأبْعَد مِنَ السّماء. ووصف آخر امرأة، فقال: كاد الغزال يكونها؛ لولا ما نقص منه وتمّ منها. وقال آخر: سبقنا الحيّ وفيهم أدوية السّقام، فقرأن بالحدق السّلام، وخرست الألسن عن الكلام. وقال آخر: خرجت حين انحدرت النجوم وسالت أرجلها، فما زلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر. وأرسل أعرابيّ ولده في حاجة، فرجع خائبًا فسأل عن سبب خيبته، فقال: أتيت سوق الظمأ، فبكت السماء وضحك البرق وقهقه الرعد، فخفت الهاطلة فرجعت. وصف أعرابيّ مصيبة، فقال: إنها مصيبة تركت سود الرؤس بيضا، وبيض الوجوه سودا. وقيل لبعض الأعراب: هل عندكم في البادية طبيب؟ قال: كلا إن حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار. وقيل لأعرابيّ: كيف حالك؟ فقال: أمزّق ديني بالذُّنوب، وأرقعه بالاستغفار. وقيل لأعرابيّ: ما لك مِنْ فلان؟ قال: وجهٌ صبيح، وصدرٌ فسيح، وقلبٌ نصيح، ونسبٌ صريح، وخلق سحيح، وسعي نجيح، ووعد مُريح.

ملح مِنْ بدائع الفاظ الكتاب الأفاضل الهادي
حلال سحرها بحرام سحر بابل

ولنورد أمام ذلك كلامًا في فضل الكتابة كافيًا، وللكتاب من أدواء الخمول شافيًا. قلت: الكتاب ساسة الملك وعِماده، وأركان قراره وأطواده، بأقلامهم تُبْسط الأرزاق وتُقْبض الآجال، وبأحلامهم تُصان المعاقل إذا عجز عن صونها الرجال. وقالوا: الكاتب مالك الملك يصرّفه بقلم الإنشاء حيث شاء. وقالوا: لو أنّ في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة بالكل صناعة. قالوا: الكتابة طب الأدب وفلك الحكمة، ولسان ناطق بالفضل، وميزان يدلّ على رجاحة العقل. وبالكتاب

(١) الخبر والرجز في العقد الفريد، لابن عبد ربّه.

قامت السياسة، والرئاسة، وإليهم ألقى تدبير الأعنّة والأزِمّة، وعليهم يُغتم في حصر الأموال، وانتظام شتات الأحوال. شاعر[١]: [البسيط]

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضبٍ ثم استمدّوا بها ماء المنيّاتِ
نالوا بها مِنْ أعاديهم وإن بعُدوا ما لا يُنال بحدّ المشرفياتِ

آخر[٢]: [الكامل]

قومٌ إذا خافوا عداوة امرىء سفكوا الدما بأسِنّةِ الأقلامِ
ولضربة منْ كاتب ببنانه أمضى وأنفذ مِنْ رقيق حُسامِ

قال ابن المقفّع: الملوك أحوج إلى الكتّاب من الكتّاب للملوك. ومن فضل الكتابة أن صاحب السيف يُزاحم صاحب القلم في قلمه، ولا يزاحمه الكاتب في سيفه.

فمن موجز بلاغتهم ومعجز صياغتهم

ما كتب به للنبيّ ﷺ من كتاب: أمّا بعد، فكأننا في الثقة بك منك، وكأنك في الرقّة علينا منا؛ لأنّا لم نرجك في أمرٍ إلّا نِلْناه، ولا خِفْناك عليه إلّا أمِنّاه. ومن بليغ مكاتبتهم ما كتب به يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد وقد بلغه تلكّؤه في بيعته: أمّا بعد؛ فإني أراك تقدّم رِجلًا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّهما شئت، والسّلام.

ومنها ما كتب به عبد الحميد لرجل بالوصاية على إنسان: حقّ موصل هذا الكتاب إليك كحقّه عليّ إذ رآك موضعًا لأمله، ورآني أهلًا لحاجته، وقد أنجزت حاجته، فحقّق أمله.

ومنها ما ذكر أنّ المأمون قال لعمرو بن مسعدة: اكتب إلى عاملنا فلان كتاب عناية بإنسان في سطرٍ واحد، فكتب هذا كتاب واثق بمن كتب إليه معتن بمن كتب له: ولن يضيع بين الثقة، والعناية حامله.

---

(١) البيتان بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة ابن الدهان الموصلي.

(٢) البيتان بلا نسبة في المحاسن والمساوىء، لإبراهيم البيهقي، ص ١٦.

ومِنْ بدائعها ما كتب به أبو بكر الخوارزمي جوابًا عن هدية: وصلت التحفة ولم يكن لها عيب إلّا أنّ باذلها مُسْرف في البرّ، وقابلها مقتصد في الشكر، والسرف مذموم إلّا في المجد، والاقتصاد محمود إلّا في الشكر والحمد.

وكتب ابن العميد إلى محمد بن يحيىٰ يستعطفه من رسالته: وما أحسبنا اشتركنا إلّا في الاسم فقط، وشتّان بين محمد ومحمد، فلو كنّا السماكين لكنت الرمح وكنت الأعزل، ولو كنّا النّسرين لكنت الطائر وكنت الواقع، ولو كنّا السّعدين لكنت السعود وكنت الذابح؛ أخذه من قول الفرزدق(١): [الطويل]

وقد تلتقي الأسماء في الناس والكِنى كثيرًا ولكن لا تُلاقي الخلائقِ

وكتب أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني إلى بديع الزمان يستعطف أيضًا: إني خدمت مولاي والخدمة رقّ بغير إشهاد، وناصَحْته والمناصحة للمودّة أوثق عِماد، ونادَمْته والمُنادمة رضاعٌ ثان، وطاعَمْته والمُطاعمة نسب دان، وسافرت معه والسفر والأخوّة رضيعا لبان، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنيت عليه والثناء من الله بمكان، وأخلصت له والإخلاص مشكور بكلّ لسان.

وكتب أبو العَيْناء إلى أبي الوليد يستجديه: مسّنا وأهلنا الضرّ، وبضاعتنا الودّ والشكر، فإن لم تعطنا فلسنا ممن يلمزك في الصّدقات، فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون. وأبو العيناء كما قال فيه محمد بن مكرم، وقد سُئِل عنه: مَنْ زعم أنّ عبد الحميد أكتب من أبي العَيْناء إذا أحسّ بكرم أو شرع في طمع، فقد ظلم. وبعث ملك الروم إلى المعتصم كتابًا يتوعّده فيه ويتهدّده، فأمر الكتاب أن يكتبوا جوابه، فكتبوا فلم يعجبه ممّا كتبوا شيئًا، فقال لبعضهم: اكتب بسم الله الرحمـٰن الرحيم، أمّا بعد؛ فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عُقْبى الدار.

ومِنْ محاسن لطائفهم ما حُكِي أنّ الرشيد قال ليحيىٰ بن خالد: إني أردت أن أجعل الخاتم الذي في يد الفضل إلى جعفر، فاحتشمت منه فاكفنيه؛ فكتب يحيىٰ إلى الفضل: قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله قدره، وأنفذ أمره أن ينقل خاتمه من

---

(١) البيت في ديوان الفرزدق، من قصيدة مطلعها:

سرت ما سرت من ليلها ثم واقفت أبا قَطَنٍ غير الذي للمخارقِ

يمينك إلى شمالك؛ فأجاب الفضل: قد سمعت ما قال أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه، ولا غَرُبت عني رتبة طلعت عليه، فانظر إلى هذه المآثر والمكارم التي هي للجباه غُرَر، وللثغور مباسم.

ومِنْ مُلَحهم ما كتبه أبو العبر، وهو أحمد بن محمد بن عبد الله الهاشمي تقليدًا لأبي العجل: يا أبا العجل وفّقك الله وسدّدك، وإلى كل خير أرشدك، وليتك خراج ضياع الهواء، ومساحة الفضاء، وكيل ماء الأنهار، وعدّ ورق الأشجار، وطرار الأوبار، وصدقات البوم، وقسم الشوم، بين الهند والرُوم، وأجريت لك من الأرزاق، ما يقوم بأودك في الإنفاق، بُغْض أهل حمص لأهل العراق، وأمرتك أن تجعل عيالك بنيسان، وإصطبلك بهمدان، ومطبخك بحران، وبيت مالك بسجستان، وديوانك بغانه، ومجلسك فرغانه، وخلعت عليك خفّي حنين، وقميصًا من شَيْن، وسراويل من دين، وعمامة من سخنة عين، وحملتك على حمار مقطوع الذنب والأذنَيْن، مكسور اليدين والرّجْلين، فدُرْ في عملك كل يوم مرتَيْن، واحمد الله على ما ألهمنا فيك، وقابلنا بالشكر على ما نُوليك.

ولنذكر من كلام الخطباء ذوي البراعة واللّسن ما كان ذا لفظ بديع ومعنى حسن بعد أن نورد في شرف الخطابة والخطباء كلامًا يمتزج بالقلوب امتزاج الماء بالصَّهباء

قال الله تعالى في حقّ داود عليه السلام مبيّنًا عن شرف ما أجزل له في العطاء وأطاب: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [صَ: الآية ٢٠]. ذكر أنّ فصل الخطاب هو: أمّا بعد، في الخطبة وأنه أوّل مَنْ قالها. وقالت العرب: إنّ أوّل مَنْ قالها قس بن ساعدة الإيادي. وأوّل من خطب لقمان بعد داود عليه السلام وبه يُضرب المثل في الحكمة والموعظة الحسنة.

وفي الحديث: «أن شُعَيْبًا خطيب الأنبياء»(١). وفي المثل: أخطب من قس هو قس بن ساعدة الإيادي، ولإياد وتميم شرف ليس لأحد من العرب؛ لأنّ النبيّ ﷺ روى كلام قس وموعظته بعُكاظ، وهذا استناد تعجز عنه أمانيّ الرّجال، وتنقطع دونه الآمال، وبذلك كان خطيب العرب قاطبةً.

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

وأما تميم، فإنّ النبيّ ﷺ سأل عمرو بن الأيهم عن الزبرقان، واسمه حصين بن بدر، فأجابه بكلام مدحه فيه بما فيه، فلم يرض الزبرقان باقتصاره على ما قاله، ورأى أنّه غضّ منه وأنها عثرة لا تقال، فقال في الحالة الراهنة كلامًا ذمّه فيه بما فيه، فصدّق في الأوّل ولم يمنّ في الثاني، فعجب رسول الله ﷺ لسرعة فهمه، وتحرّيه الصدق في مدحه وذمّه، وقال في وصف كلامه ما هو به أحرى عطفًا على قوله للبيد: «إن من الشعر لحكمًا، وإنّ مِنَ البيان لسحرًا»(١)، قال قيس بن عامر يمدح قومًا بالخطابة(٢): [الكامل الأحذّ]

خطباء حين يقوم قائلهم ... بِيض الوجوه مصاقع لسنُ

وقال آخر يفتخر بقومه في المعنى(٣): [الطويل]

وإنّي من قومٍ كرام أعزّة ... لأقدامهم صيغت رؤوس المنابرِ

وقال أبو العباس الأعمى واسمه السائب ابن فروخ مادحًا لبني أُمية بالخطابة في المعنى أيضًا(٤): [الخفيف]

خُطباءُ على المنابر فرسا ... ن عليها وقالة غير خُرْسِ
لا يُعابون صامتين وإن قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بلبسِ

والخطابة جزالة اللفظ وشدّة المعارضة. وقال الجاحظ: رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام وحليها الأعراب، وبهاؤها تخيّر اللفظ، والمحبة مقرونة بالإيجاز. وقال ابن أبي دؤاد: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق بغضّ، والنظر في عيون الناس عيّ، ومسّ اللحية هلك، والخروج مما بُني عليه أول الكلام إسهاب.

ولرسول الله ﷺ الخُطَب التي حكمت فصاحتها بالعيّ لقس، والفهاهة لسحبان، ورجعت خاسئة عن مجاراتها في ميدان البلاغة سوابق الأذهان، غير أنّا

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.
(٢) البيت في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/ ١٩٢؛ وديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٣٠٤.
(٣) البيت للعتبي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
رأين الغواني الشّيْب لاح بعارضي ... فأعرضن عني بالخدودِ النواضر
(٤) البيتان في ديوان أبي العباس الأعمى الملكي، من قصيدة مطلعها:
ليت شعري أفاح رائحة المسـ ... ـسكِ وما إن أخال بالخَيْف نفسي

نورد منها في هذا المكان قطرة من سحابها الصائب لنصيب الغرض المقصود، إصابة الهدف في السهم الصائب.

خطب عليه الصّلاة والسّلام، فقال: «أيّها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وأن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، ألا وإنّ المؤمن بين مخافتين بين أجلٍ قد قُضِي لا يدري ما الله صانعٌ فيه، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الهرم، ومن الحياة قبل الموت؛ فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلّا الجنّة أو النار»[1]، فيا لها كلمات لو صادفت سمعًا واعيًا، وقلبًا لجناب الله داعيًا.

وخطب أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه عند موت النبيّ ﷺ، وقد غشي المسلمين بمصيبتهم به ما غشيهم، فقال: أيّها الناس مَنْ كان يعبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، إنّ الله اختار لنبيّه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتاب الله وسنّته، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرّق بينهما أنكر، ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤] الآية، ثم قال: أشهد إنّ الكتاب كما أنزل، وأنّ الحديث كما حدّث، وأنّ الله حيٌّ لا يموت، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وكان إذا فرغ من خطبته يقول: اللّهمّ اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيّامي يوم لقائك.

وكان عمر يقول آخر خطبته: اللّهمّ لا تدعني في غُمْرة، ولا تأخذني على غرّة، ولا تجعلني مِنَ الغافلين.

وخطب عليّ رضي الله عنه قال: أمّا بعد؛ فإنّ الدنيا قد آذنت بوداع، وأنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع، وأنّ المضمار اليوم وغدًا السباق، فاعملوا لله في الرّغبة كما تعملون له في الرّهبة، وأنّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى، وطول الأمل.

---

(١) انظر الخطبة والحديث عند القرطبي في تفسيره ١٨/١١٦.

وخطب معاوية رضي الله عنه في يوم شديد الحرّ، قال: بعد التحميد، إنّ الله خلقكم فلم ينسكم ووعظكم فلم يهملكم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢].

وخطب يزيد بن معاوية بعد موت أبيه، قال: الحمد لله ما شاء صنع، مَنْ شاء أعطى ومَنْ شاء مَنَع، ومن شاء خفض ومَنْ شاء رفع، إنّ أمير المؤمنين معاوية كان حبلًا من حبال الله تعالى، مدّه ما شاء أن يمدّه، ثم قطعه حين أراد قطعه، وكان دون مَنْ قبله، وخَيْر مَنْ بعده، ولا أزكيه عند ربّه وقد صار إليه، فإن يَعْفُ عنه فبرحمته، وإن يعاقبه فبذنبه، وقد ولّيت الأمر بعده، ولست أعتذر من جهل ولا آسى على طلب علمٍ، وعلى رسلكم إذا كره الله شيئًا عسّره، وإذا أراد أمرًا يسّره.

وخطب سليمان بن عبد الملك، فقال: ألَا إنّما الدنيا دار غرور ومنزل باطل، تُضْحك باكيًا، وتُبْكي ضاحكًا، وتُخِيف آمنًا، وتُؤمن خائفًا، وتُفْقر مثريًا، وتثري فقيرًا، اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كَيْد الشيطان كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفّس، وظلام الليل إلى عسعس.

وخطب عمر بن عبد العزيز، فقال: أيّها الناس أصلحوا سرائركم تَصْلح لكم علانيتكم، وأصلحوا دنياكم تَصلح لكم آخرتكم، وإن امرءًا ليس بينه وبين آدم أبٌ حيّ لعريق في الموتى. وكان يقول في آخر خطبته: اللّهمّ إنّ ذنوبي عظمت عن أن تُحْصَى، وهي صغيرة في جنب عفوك، فاعف عنّي. وخطب في زواج، فقال: الحمد لله ذي الكبرياء، وصلّى الله على سيّدنا محمد خاتم الأنبياء، أمّا بعد؛ إنّ الرغبة منك دعَتْك إلينا، والرهبة منا فيك أجابَتْ، وقد زوّجناك على كتاب الله وسنّة رسوله، إما إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان.

وخطب السفّاح لمّا قُتِل مروان وبُويع، فقال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٢٨] الآية، ثم قال: نكص بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، ماذا يقول زعماؤكم؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفًا من النار، إذًا يقول الله وفاء بما وعد لكل ضعف ولكن لا تعلمون، أمّا أنا فقد غفرتُ لكم الزلّة، وبسطت لكم الإقالة، وعدت بفضلي على نقصكم، وبحُلْمي على جَهْلكم، فليسكن روعكم ولتطمئنّ بكم داركم، ولتعظكم مصارع أولئكم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

وخطب المنصور، فقال: أحمد الله وأستعينه وأتوكّل عليه وأشهد أن لا إلـٰه إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، أيّها الناس اتّقوا الله، فقام إليه رجل وقال: أذكّرك من ذكّرتنا به، وأنت في ذكره يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: مرحبًا مرحبًا، لقد ذكرت جليًا، وخوّفت عظيمًا، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم، والموعظة منّا بدت، ومن عندنا خرجت - وفي رواية، قال: سمعًا وطاعة لمن سمع عن الله وذُكّر به - وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، لقد ضللت إذًا وما أنا مِنَ المهتدين، ثم التفت إلى الرجل وقال وأما أنت يا قائلها فوالله ما الله أردت بهذا، ولكن ليقال قام فلان فقال، فعُوقِب فصبر، وأهْون بها من قائل لو كانت وأنا أنذركم أيّها الناس أختها، فإنّ الموعظة الحسنة علينا نزلت، وفينا ثبتت، ثم قال: رحم الله امرأً نظر في دنياه لآخرته فمشى القصد، وقال القصد وجانب الهجر، ثم أخذ بقائم سيفه وقال: إنَّ بكم داء هذا شفاؤه وأنا زعيم لكم بشفائه، فليعتبر عبد قبل أن يُعْتبر به، فما بعد الوعيد إلّا الإيقاع، وإنما يفتري الكذبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله.

وخطب المأمون في يوم عيد، فقال: أيها الناس عظم قدر الدارين، وتباين جزاء العالمين، وطالت مدّة الفريقين، الله الله إنه الجدّ لا اللعب، والحقّ لا الكَذِب، وما هو إلّا الموت والبعث والميزان والحساب، والصّراط والقصاص، والثواب والعقاب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومَنْ هوى قد خاب، الخير كلّه في الجنّة، والشرّ كله في النار.

فللّه هذه الكلمات ما أجْلاها لصدّ الذنوب، وأحلاها واقعًا في القلوب، ولم تزل خلفاء بني العباس يخطبون على المنابر في الجُمَع والأعياد، وآخر مَن فعل ذلك منهم الراضي.

خطب العمال: قال الشعبي: ما سمعت أحدًا يتكلّم إلّا تمنّيت أن سكت مخافة أن يخطىء إلّا زيادًا، فإنّه كان لا يزداد إكثارًا إلّا ازداد حسنًا، خطب، فقال: أيّها الناس لا يمنعنكم سوء ما تعلمون أن تنتفعوا منّا بأحسن ما تسمعون، فإنّ الشاعر يقول(١): [البسيط]

اعمل بقولي ولا تنظر إلى عملي   ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

---

(١) البيت للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهو مطلع القصيدة. ورواية البيت في الديوان:

اعمل بعلمي وإن قصّرت في عملي   ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

كذا وقعت لي هذه الحكاية، ثم وجدت بعد ذلك في بعض التعاليق هذا البيت منسوبًا للخليل بن أحمد، ويجوز أن يكون الخليل أنشده متمثّلًا به - والله أعلم - وقال بعد إنشاده البيت: اسمعوا قولي هذا وَعُوه، فإنّما عليّ ما حملت وعليكم ما حملتم.

وخطب مصعب بن الزبير لمّا قدم العراق واليًا عليه من قبل أخيه عبد الله، فقال: بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ [القصص: الآيات ١ - ٣]، وأشار بيده نحو الشام والحجاز والعراق، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: الآية ٤]، وأشار بيده نحو الشام - يريد عبد الملك بن مروان - ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص الآيتان: ٥، ٦]، وأشار نحو الحجاز - يريد أخاه عبد الله - ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: الآية ٦]، وأشار نحو العراق - يريد أجناد عبد الملك - وكان الحجّاج مِنَ الفصحاء البلغاء، قال الشعبيّ: كنت ممن شاهده على المنبر ما رأيت أحدًا أبيَن من الحجّاج، إن كان ليَرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم عليه حتى أقول في نفسي إني لأحسبه صادقًا، وإني لأظنّهم كاذبين.

خطب، قال: أمّا بعد؛ فإنّ الله كتب على الدنيا الفناء وكتب على الآخرة البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا فناء لما كتب عليه البقاء، فلا يغرنْكمْ شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، وأقصروا طول الأمل بقصر الأجل. قال الشعبي: كلام حكمة خرج عن قلبٍ خرب.

وخطب سليمان بن عليّ بالعراق لمّا قتلت الأمويون، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٠٥، ١٠٦]، قضاءٌ مبرم وقول ﴿فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ [الطارق: الآيتان ١٣، ١٤]، الحمد لله الذي صدق عبده، وأنجز وعده، و﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: الآية ٤٤] الذين اتّخذوا الكعبة غرضًا، والفيْء إرثًا، ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: الآية ٩١]، لقد جاءهم ما كانوا به يستهزءون، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾

[الحج: الآية ٤٥]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢]، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب والسنّة واعتدوا واستكبروا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٥]، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: الآية ٤٤]، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: الآية ٩٨].

وخطب داود أخوه بالمدينة، فقال: أيّها الناس حتام يهتف بكم صريخًا، أما آن لراقد أن ينتبه، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: الآية ١٤]، أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال، هيهات منكم وكيف بكم والسوط والسيف مشيم؛ ثم أنشد[1]: [الكامل]

حتى تبيد قبيلة وقبيلة ويعضّ كل مثقف بالهامِ
ويقمن بات الخدور حواسرًا يمسحن عرض نواصي الأيتامِ

قال الجاحظ: داود وسليمان من أفصح خطباء بني هاشم، كانا في البيان فرسَيْ رهان، ألا إنّ داود فتق لسانًا، وأروق بيانًا، وكان لا يتقدّم في تحرير خطبة قط.

وواجب أن يكون بهذا الفصل لاحقًا، ذمّ من ظلّ بمستثقل التقعير ناطقًا. قال رسول الله ﷺ: «أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيقهون»[2]. قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الثرثارون الذين يتكلّمون بالكلام تكلّفًا وتجاوزًا وخروجًا عن الحدّ من قولهم: نهر ثرثار لكثرة مائه، والمتفيهقون تأكيد وهو مأخوذ من قولهم: فهق الغدير يفهق إذا امتلأ. وقال بشر بن المعتمر: إيّاك والتقعير، فإنه يسلّمك إلى التعقيد، فتستهلك معانيك، ويمنعك من إصابة مراميك. وقال بعض البلغاء: أحذركم والتعمّق في القول والتكلّف، وعليكم بمحاسن الألفاظ والمعاني المستخفّة المستملحة، فإنّ المعنى المليح إذا كسى لفظًا حسنًا وأعاره البليغ مخرجًا سهلًا، كان في قلب السامع أحلى ولصدره أملى. وقال بعض الحذّاق: إيّاك والنحو بين العامّة، فإنه كاللّحن بين الخاصّة. وما أحسن قول أبي عمرو بن العلاء في نحو هذا المعنى[3]: [المتقارب]

لعمرك ما اللّحن من شيمتي ولا أنا عن خطإ اللّحنُ
ولكنني قد قسمت الكلام أخاطب كلًّا بما يحسنُ

---

(١) البيتان في العقد الفريد، لابن عبد ربّه.
(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في البرّ باب ٧١، وأحمد في المسند ٤/ ١٩٣، ١٩٤.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

وقالوا: خير الكلام ما لم يكن عاميًا سوقيًا، ولا عربيًا وحشيًا. وقال أبو الأسود الدُؤلي لولده: يا بنيّ إذا كنت في قوم فلا تكلّمهم بكلام لم يبلغه سنّك فيستثقلوك، ولا بكلام هو دونك فيزدروك ويحتقروك.

فمن بوارد نوادر المتقعرين وشوارد بوادر المتفيهقين

ما حُكِي عن أبي علقمة النحوي أنه هاج به دم فأُتي بحجام، فقال: يا هذا اشدد قصب المحاجم، وأرهف ظبّة المشارط، وأسرع الوضع، وعجّل النَّزع، وليكن شرطك وخزًا، ومصك نهزًا، ولا تكرهن آتيًا، ولا تردنّ آبيًا؛ فقال له الحجام: جُعِلت فداك إنّ هذه الصنعة لا أُحسنها، وهذه حرب لا يشبّ نارها ولا يشقّ غبارها إلّا عمرو بن معديكرب، ثم تركه وانصرف ولم يحجمه. ومِنْ أظرف ما يُنْسَب إليه ما يُحكى عنه أنه هاج به يومًا مرار فسقط على وجهه، وأقبل قوم يعضّون إبهامه، وقوم يؤذّنون في أُذنه ظنًا منهم أنه مصروع، فلما أفاق من غمرات غشيته رآهم محدقين به، فقال: ما لي أراكم تتكأكؤن عليّ تكأكأكم على ذي جنّة، افرنقعوا عني؛ فقال بعضهم لبعض: دعوه فإن جنّيته تتكلم بالهنديّة.

اشترى الفضل بن الحباب جارية فوجدها ضيقة المسلك، فقال: يا جارية هل من بساق أو بزاق أو بصاق؛ لأنّ العرب تبدل السين صادًا وزايًا، فقالوا: صقر وسقر وزقر؛ فقالت الجارية: الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى رأيت حري قد صار ابن الأعرابي يقرأ عليه اللغة. وأتى رجل بعض الولاة، قال: أعزّ الله الأمير إنّ لي ابن أخ أشرًا بطرًا قد انضوى إلى كلّ سكّير وخمير عمد إلى عود فنحته وإلى معي فقضبه، فطنّ وطنطن حتى فطن به، فأحبّ عقوبته حتى ينتهي عن ذلك، فتقدّم الأمير بإحضاره، فلمّا مثل بين يديه قال له: يا ابن أخي ألم أطعمك ألذّ الطعام؟ ألم أسقك أطيب الشراب؟ قال: بلى يا عمّ، قال: ما لك والتعدّي أضجعوه وجئوا عنقه، فالتفت إليه الشاب وقال: والله يا عمّ لوقع السياط على بدني أحب إليّ من وقع كلامك في أُذني، فضحك منه الأمير وأطلقه. أنشد العجاج وأعرابي حاضر عند الوليد بن عبد الملك[1]: [الخفيف]

أمْسَتِ الغانيات ترمي صدودًا وأراني للغانيات مصيدا

---

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

فقال الأعرابيّ للعباس بن الوليد: تنحّ عنه لئلا تسقط عليك من فِيه كلمة فتشدخك. ومن أجل هذا النادر استثقل التقعير أهل الرشاقة في الألفاظ والحلاوة، وقادوا طباعهم إلى اللّطافة والطلاوة، فقالوا: متى كان اللفظ كريمًا في نفسه، متخيّرًا في جنسه، وكان سليمًا من التقعير والتعقيد، حبّب إلى النفوس واتّصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشّت له الأسماع وارتاحت إليه القلوب، وخفّ على ألسنة الرواة حمله، وشاع في الآفاق ذكره. ومدحوا التارك للتقعير، فقالوا: فلان لم يَرْضَ بالتكليف مذهبًا، ولا اتّخذ التصنّع مركبًا، وقالوا: فلان له ألفاظ لا يشوبها كدر العيّ، ولا يطمس رونقها التكلّف، ولا يمحو طلاوتها التفيهق، أعذب من الماء، وأبعد من السماء.

الفصل الثالث من الباب الخامس

في أنّ معرفة حرفة الأدب مانعة من ترقّي أعالي الرُّتب

قال رسول الله ﷺ: «ما ازداد الرجل حِذْقًا في صنعة إلّا كان ذلك نقصًا مِنْ رزقه»[(١)]. وقالوا: المتقدّم في الحذق، متأخر في الرّزق. وقالوا: حرفة الأدب أعدى لصاحبها من الجَرَب. وقالوا: الرّزق عند ذوي الأدب أروغ من ثعلب. ومن أمثال عوامّ بغداد: جهل يعولني خيرٌ من علم أعوله. وقال الخليل بن أحمد: إذا كَثُر الأدب قلّ خيره، وإذا كَثُر خيره كثر ضَيْره. وقال أبو بكر الخوارزمي في هذا المعنى[(٢)]: [الهزج]

وإنْ سـرّك حـرمـان ... بـه تـصـبـح مـقـليّـا
فـكـن ذا أدب جـزل ... وكُـنْ مـع ذاك نـحـويّـا

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) البيتان لأبي هفّان المهزمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا مـا شئت أن تـحـظى ... وأن تـلـبـس فـوهـيّـا

ورواية البيتين في الديوان:

وإنْ سـرّك أن تـشـقـى ... وأن تـصـبـح مـقـلـيًّـا
فـكـن ذا نـسـبٍ ضـخـمٍ ... وكُـنْ مـع ذاك نـحـويًّـا

ويقال: حرفة الأدب لا يسلم مِنْ حرمانها أديب. وقالوا: التأديب تعذيب. وأنشد الخليل بن أحمد[١]: [البسيط]

ما ازددت من أدب حرفًا أسرّ به إلّا تزايدت حرفًا تحته شومُ
إنّ المقدّم في حذق بصنعته أنى توجّه فيها فهو محرومُ

وقال ابن رشيق[٢]: [الكامل]

أشقى بجدّك أن تكون أديبًا أو أن يرى فيك الورى تهذيبا
إن كان مستويًا ففعلك أعوج يومًا وإن أخطأت كنت مصيبا
كالفصّ ليس يبين معنى نقشه حتى يكون بناؤه مقلوبا

ابن طباطبا[٣]: [الطويل]

أليس عجيبًا أنني مع تسبّبي وشعري ما أعطيت جدًا ولا حدّا
وإنّي إذا ما زرت قومًا مسلّمًا حجبت فظنّوا أنني أبتغي رفدا
وقد طال إفلاسي وأحسب مثريًا فأصبحت لا يجدى عليّ وأستجدي

آخر[٤]: [البسيط]

قالوا أديب فأين المال قلت لهم قوسي بلا وتر سهمي بلا فوقِ
مَنْ لا يكون له جدّ يساعده تكون آدابه كالنفخ في البوقِ

ولما خلع المقتدر بُويع عبد الله بن المعتز بن المتوكّل ولقب المرتضي بالله أدركته حرفة الأدب، فلم يقم في الخلافة غير يومين ثم اضطرب حبله، وهطل عليه طلّ الحرمان ووبله، فهرب إلى دار ابن الجصّاص التاجر، فاختفى عنده ثم أخرج منها إلى القضاة والشهود العدول ميتًا بعد أيام يسيرة، وذلك في يوم

(١) البيتان في ديوان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهما بيتان منفردان.
(٢) الأبيات في ديوان ابن رشيق القيرواني، وهي ثلاثة أبيات منفردة، ورواية الأبيات في الديوان:
أشقى لعقلك أن تكون أديبا لو أن يرى فيك الورى تهذيبا
ما دمت مستويًا ففعلك كلّه عوجٌ وإن أخطأت كنت مُصيبا
كالنقش ليس يصح معنى ختمه حتى يكون بناؤه مقلوبا
(٣) الأبيات في ديوان ابن طباطبا العلوي، وهي ثلاثة أبيات منفردة، والبيت الثالث فيه إقواء.
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الخميس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة ستّ وتسعين ومائتين، قال فيه ابن بسام من أبيات يرثيه بها[١]: [البسيط]

لله درّك مِـنْ مـيـت بـمـضـيـعـة ... ناهيك في العلم والآداب والحسبِ
مـا فـيـه لـولا ولا لـيـت فـتـنـقـمـه ... وإنـمـا أدركـتـه حـرفـة الأدبِ

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى، قال لي أبي: إذا كتبت كتابًا فألحن فيه، فإنّ الصواب حرفة والخطأ نحج. أخذه بعض الشعراء فنظمه في قوله[٢]: [السريع]

إن كـنـت يـومًـا كـاتـبًـا رقـعـةً ... تبغي بـهـا نـجـح وصـول الـطـلـبْ
إيّـاك أن تـعـرب ألـفـاظـهـا ... فـتـكـتـسـي حـرفـة أهـل الأدبْ

وقال أبو عبيدة: مَنْ أراد أن يأكل الخبز بأدبه، فَلْتَبْكِ عليه البواكي. ولقد أجاد أبو إسحٰق الصابي في قوله[٣]: [البسيط]

قـد كـنـتُ أعـجـب مـن مـالـي وكـثـرتـه ... وكـيـف تـغـفـل عـنـي حـرفـة الأدبِ
حتى انثنت وهي كالغضبا تلاحظني ... شـزرًا فـلـم تـبـق لـي شـيـئًـا مـن الـنّـشـبِ
واسـتـيـقـنـت أنـهـا كـانـت عـلـى غـلـط ... واسـتـدركـتـه وأفْـضَـتْ بـي إلـى الـحـربِ
الضبّ والنون قد يرجى اجتماعهما ... وليس يُرْجى اجتماع الفضل والذّهبِ

والسبب في حرمان الأدباء موهبة الحظ وخمول النجباء

ما ذكره بعض المنصفين منهم في قوله: إنّ ذا الأدب لا يزال متسخّطًا على دنياه ذامًّا لحاله؛ لما يرى من مَيْل الزّمان للئامه وجهّاله، فهو لا يمدحهم لعلمه بقصورهم عن إدراك منظومه، ولا يُثاب إمّا بجهل ممدوحه وإمّا من إفراط بخله الناتج عن لَؤْمه. وقيل للحسن البصري: لِمَ صارت الحرفة مقرونة بمن جعل العلم والأدب شعارًا، والثروة بمن كساه الجهل والحمق عارًا؟ فقال: ليس القول كما قلتم، ولا الأمر كما زعمتم، ولكنكم طلبتم قليلًا في قليل فأعجزكم، طلبتْم المال وهو قليل عند أهل العلم والأدب وهم قليل، ولو نظرتم إلى مَنْ تحارف مِنْ أهل

---

(١) البيتان في ديوان ابن بسام البغدادي، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الأبيات في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ١٥٨.

الجهل لوجدتموهم أكثر إقتارًا، والمال عنهم أشدّ نفارًا. وقال أبو الحسن عليّ المعروف بابن البغل متضجّرًا من الخمول(١): [الكامل]

الدهر ضدّ ذوي الفضائل كلهم … حتى كأنّ عدوّه من يفهمُ
لو كنت أجهل ما علمت لسرّني … جهلي كما قد ساءني ما أعلمُ
كالصّعو يرتفع في الرّياض وإنّما … حبس الهزار لأنه يترنّمُ

آخر(٢): [السريع]

يطوي لأهل الفضل دون الوَرى … مصائب الدُّنيا وآفاتها
كالطَّيْر لا يحبس مِنْ بينها … إلّا التي تطرب أصواتها

الخدلجي(٣): [الخفيف]

قل عنّي غناء عقلي وديني … ودخولي في العلم من كلّ باب
أدركتني وذاك أعظم دائي … حسنات من حِرْفة الآداب

آخر(٤): [الخفيف]

قد عقلنا والعقل شرّ وثاق … وصبرنا والصبر مرّ المذاقِ
إنّ مَنْ كان فاضلًا كان مثلي … فاضلًا بعد قسمة الأرزاقِ

وربما أعدت حرفة الأدب أهل الوراقة
فاظلّتهم منها سحائب الحرمان والفاقة

قال أحمد بن عبد الله بن حبيب المعروف بأبي هفان: سألت ورّاقًا عن حاله، فقال: عَيْشي أضيَق من محبرة، وجسمي أدقّ من مسطرة، وجاهي أوهى من الزجاج، وحظّي أشدّ سوادًا من العفص إذا خلط بالزاجّ، وسوء حالي ألزم لي من الصمغ، وطعامي أمرّ من الصبر، وشرابي أكدر من الحبر، والهمّ والألم

(١) الأبيات لناصح الدين الأرجاني في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) البيتان بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة ناصح الدين الأرجاني.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان لابن دانيال الموصلي في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ٢٩٢، وديوانه، وهما بيتان منفردان.

يجريان في علقة قلبي مجرى المداد في شقّ القلم؛ فقلت: يا أخي لقد عبّرت ببلاء عن بلاء؛ فأنشد[(١)]: [الكامل]

المال يستر كل عيب في الفتى والمال يرفع كل وغد ساقطِ
فعليك بالأموال فاقصد جمعها واضرب بكتب العلم وجه الحائطِ

آخر[(٢)]: [مجزوء الكامل]

إنّ الوراقة والتفقـ ـه والتشاغل بالعلوم
أصل المذلة والإضـ ـاقة والمهانة والهموم

وأنشدت لأبي النصر بن أبي الفتح كشاجم[(٣)]: [الخفيف]

غبط الناس بالكتابة قومًا حرموا حظّهم بحسن الكتابَهْ
وإذا أخطأ الكتابة حظّ سقطت تاؤه فصارت كآبَهْ

وقال إسحٰق بن إبراهيم بن حمدويه المعروف بالحمدوي[(٤)]: [البسيط]

ثنتان من أدوات العلم قد ثنتا عنان حظّي عما رُمْت من نعمِ
وحبرت لي صحاف الحبر محبرة تذود عني سوام المال والنّعمِ
والعلم يعلم أني حين آخذه لعصمتي نافر خلوّ من العصمِ

سمع بعض مجان الأدباء رجلًا يقول: لا خير في علم لا يدخل مع صاحبه الحمام، فقال: نعم، إلّا أنه متى لم يكن معه دانق يخرج به بقي رهنًا. ابن صادة الأندلسي[(٥)]: [الكامل]

أما الوراقة فهي أنكد حرفة أغصانها وثمارها الحرمانُ
شبّهت صاحبها بإبرة خائط تكسو العراة وجسمها عريانُ

---

(١) البيتان بلا نسبة في النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، في أحداث سنة ٨٢ هـ، سلطنة الملك الأشرف برسباي.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان في يتيمة الدهر للثعالبي ١/٣٥٥.
(٤) الأبيات في ديوان الحمدوي، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:
أما الدواة فأدمى جرمها جسدي وقلم الحظ تحريف من القلم
(٥) البيتان لأبي محمد ابن سارة في المطرب في أشعار أهل المغرب، لابن دحية الكلبي، ص ١١٤.

وأنشد أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي في اليتيمة لأبي حاتم الوزاق[١]: [الكامل الأحذّ]

إنّ الوراقة حرفة هزلت   محرومة عيشي بها زمنُ
إن عشت عشت وليس لي أكل   أو مت مت وليس لي كفنُ

وقال الشريف أبو يعلى بن الهبارية من قصيدته المخمسة التي أوّلها[٢]: [مجزوء الرجز]

حيّ على خير العمل

يذمّ الوراقة:

تبًّا لربّ المحبرَهْ   يا ويله ما أدبرَهْ
وعيشه ما أكدرَهْ   ورزقه ما أقترَهْ

إن لم تصدّقني فسل

آخر[٣]: [الرجز]

أدمى البكا عينيّ والمآقي   وظلّت ذا همّ وذا احتراقِ
ما إن أرى في الأرض والآفاق   أزرى ولا أشقى من الوراقِ
إذا بدا في القمص الأخلاق   يفرح بالحبر والأوراقِ
كفرحة الجنديّ بالأرزاقِ

آخر[٤]: [الوافر]

هربت من الوراقة ملء شوطي   فردّنيَ الزمان إلى الوراقه
وترك المرء حرفته فرارًا   لأمر ليس يدريه حماقه

---

(١) البيتان في يتيمة الدهر، للثعالبي، ٤/٥١٠، ورواية صدر البيت الأوّل فيه:
إن الوراقة حرفة مذمومةٌ
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الرجز لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

السبب في حرمان ذوي النّباهة فقدان أهل الفضل والوجاهة

يُرْوَى أنّ عائشة بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما ذكرت يومًا قول لبيد[١]: [الكامل]

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجربِ

وقالت: لله أبوه ما كان أشعره لقد صدق، قالوا: وكيف يا أمّ المؤمنين؟ قالت: كان أحدهم إذا علم من أخيه خلّة سدّها من حيث لا يعلم، ثم ذهب أولئك وجاء قوم كان أحدهم إذا علم من أخيه خلّة سدّها من حيث يعلم، ثم جاء مِنْ بعدهم قومٌ إذا علم أحدهم من أخيه خلّة أحبّ أن يسأله فإذا سأله أعطاه، ثم جاء مِنْ بعده قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلّة أحبّ أن يسأله فإذا سأله منعه ثم بعد ذلك يفضحه، فيقول: جاء فلان يسألني فلم أعطه، ولله درّ القائل[٢]: [مجزوء الرمل]

لا يغرّنّك اللّباسُ ليس في الأثواب ناسُ
هم وإن نالوا الثّريّا بخلاء وخِساسُ
كل من يدعى رئيسًا هو في الخسّة راسُ
كم يد تصلح للقطـ ـع فتُفدى وتُباسُ

آخر[٣]: [الوافر]

علام تحرّكي والحظ ساكنْ وما قصرت في طلبي ولكنْ
أرى نذلًا تقدّمه المساوي على حرٍّ تؤخره المحاسنْ

جحظة[٤]: [الكامل الأحذّ]

لي حاجة لو أنها قُضِيَتْ لعشت في خيرٍ وظلٍّ ظليلْ
حياة مَنْ مات وموت الذي ليس إلى إحيائه من سبيلْ

---

(١) البيت في ديوان لبيد بن ربيعة العامري، من قصيدة مطلعها:

طرب الفؤاد وليته لم يطربِ وعناه كرى خلّة لم تعقبِ

(٢) الأبيات لفارس المعروف بطلّق، في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، ص ٨١٢.

(٣) البيتان لفتيان الشاغوري في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٤) البيتان في ديوان جحظة البرمكي، وهما بيتان منفردان.

دخل بعض الظرفاء على يحيىٰ بن خالد بن برمك، وهو في السجن يريد زيارته، فقال له: ما تشتهي؟ فقال: أنا أرى إنسانًا، فأخذ الرجل المرآة وأراه وجهه فيها، فشكر له ذلك ثم أنشده[١]: [البسيط]

ما أكثر الناس بل ما أقلَّهُمُ ... الله يعلم أنّي لم أقل فندا
إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

وقيل لسعيد بن المسيب، وكان في عينيه ماء: ألا تقدح عينيك؟ فقال: حتى أنظر بهما إلى مَن. ومثل ذلك ما قاله أبو العيناء معتذرًا عن عماه[٢]: [مخلع البسيط]

قالوا العمى منظرٌ قبيحٌ ... قلت بفقدي لكم يَهُونُ
والله ما في الأنام حرّ ... تأسى على فقده العيونُ

وسأل رجل من رجل حمارًا عارية، فأخرج له إكافًا، وقال له: اجعله على مَنْ شئت. ومرّ رجل بصديق له فرآه واقفًا على الطريق، فقال له: ما وقوفك هٰهنا؟ فقال: . . .[٣]. وقيل لأبي العيناء: هل بقي من يلقى؟ قال: نعم في البئر. ومرّ ببعض السكك فحبسه إنسان يريد العبث به، قال له أبو العيناء: مَنْ أنت؟ قال: ابن آدم، فأقبل يسلّم عليه سلام مستوحش، وقال: عجب والله ما ظننت إلّا أنّ هذا النسل قد انقطع، يشير إلى ضياعه من أهل زمانه.

وقال الشاعر[٤]: [الكامل]

المادحون اليوم أهل زماننا ... أولى من الهاجين بالحرمانِ
ذهب الذين يهزّهم مدّاحهم ... هزّ الكماة عوالي المرّانِ
كانوا إذا مدحوا رأوا ما فيهم ... فالأريحيّة منهم بمكانِ

وقال بشار بن برد: لقد عشت في زمان وأدركت أقوامًا لو اختلقت الدنيا ما تجمّلت إلّا بهم، وأنا الآن في زمان ما أرى فيه عاقلًا حصيفًا، ولا فاتكًا ظريفًا،

(١) البيتان لدعبل الخزاعي ولعلي بن أبي طالب في ديوانيهما، وهما فيهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان لبشار بن برد في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) بياض في الأصل.
(٤) الأبيات لابن الرومي في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

ولا ناسكًا عفيفًا، ولا جوّادًا شريفًا، ولا خادمًا نظيفًا، ولا جليسًا خفيفًا، ولا مَنْ يساوي على الخبرة رغيفًا؛ وأنشد[١]: [الطويل]

فما النّاس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعرفُ

ابن الرومي[٢]: [السريع]

أَيِسْتُ مِنَ دهري ومِنْ أهله ... فليس فيهم أحدٌ يرتضى
إن رُمْت مدحًا لم أجد أهله ... أو رُمْت هجوًا لم أجد عرضا

وله[٢]: [الخفيف]

قيل لي لِمَ ذممت كلّ البرايا ... وهجَوْت الأنام هجوًا قبيحا
قلت هِبْ أنني كذبت عليهم ... فأروني مَنْ يستحق المَدِيحا

بعض العرب[٣]: [الكامل]

ذهب الذين إذا رأوني مُقْبِلًا ... هشّوا إليّ ورحبوا بالمُقْبلِ
وبقيت في خلف كان حديثهم ... وَلَغ الكلاب تهارشت في المنزلِ

ابن منير الطرابلسي[٤]: [الكامل]

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة ... باب الدّواعي والبواعث مُغْلقُ
فسد الزّمان فلا كريم يُرْتجى ... منه النّوال ولا مليح يُعْشَقُ

ابن الهبارية[٥]: [الكامل]

خذ جملة البلوى ودَعْ تفصيلها ... ما في البرية كلّها إنسانُ
وإذا البياذق في الدُّسوت تفرزنت ... فالرأي أن تتبيذق الفرزان

---

(١) البيت لهدبة بن الخشرم في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
ظننت به ظنًّا فقصّر دونه ... فيا ربّ مظنون به الظنّ يُخلفُ
(٢) البيتان في ديوان ابن الرومي، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان لعبيد الله بن عروة في جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكار، ص ٣٦٤.
(٤) البيتان لإبراهيم الغزي الشاعر، في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.
(٥) البيتان لابن الهبارية في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

الباب السادس
في العيّ

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب
فيما ورد عن ذوي النّباهة في ذمّ العيّ والفهاهة

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ١٨]، وقال الله تعالى حكاية عن فخر فرعون على موسى بالبيان في قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرُف: الآية ٥٢]، ذكر أهل التفسير أنّ موسى عليه السلام لما سمع هذا القول من فرعون قال: ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، فاستجاب الله دعاءه، وسمع نداءه، فقال: قد أوتيت سؤلك يا موسى، وحلّ الله تلك العقدة، وأطلق تلك الحبسة.

حدّ العي: قالوا: هو معنى قصير يحويه لفظ طويل. وقال أكثم بن صيفي: هو أن تتكلّم فوق ما تقتضيه حاجتك. وقالوا: العيّ الناطق أعيى من العيّ الساكت؛ لأنّ المفحم يأتي ما لا يرضاه، ويطلب فوق ما في قواه. وقالوا: العيّ بلاغة بعي. كما ذُكِر أنّ ربيعة خطب فأطال وأعجبته نفسه، وإلى جانبه أعرابيّ فالتفت إليه، وقال: يا أعرابيّ ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: قلّة الكلام مع الإصابة، قال: فما تعدّون العيّ؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم. قال الشاعر(١): [الكامل]

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن ... هدر الكلام تقوله مُختالا
واعلم بأنّ من السكوت سلامة ... ومِنَ التكلّم ما يكون خبالا

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وقال كسرى: عيّ الصمت خيرٌ من عيّ الكلام. وقال الجاحظ يذمّ رجلًا: العيّ والجبن لم أرَ جبانًا أجرأ منه، ولا جريئًا أجبن منه. نظم بعض الشعراء معناه، فقال[١]: [الخفيف]

حصرٌ مسهب جريء جبان خير عيّ الرجال عيّ السكوت

فمما يشين حسان الصور العيّ في البيان والخبر

قالوا: فضل الإنسان على الحيوان بالبيان، فإذا نطق ولم يفصح عاد بهيمًا. ويقال: ما لعيّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حكّ يافوخه في عنان السماء. وقالوا: العيّ داء دواؤه الخرس. وتكلّم رجل عند معاوية، وكان ذا عيّ، فقال عمرو بن العاص: سكوت الألكن نعمة، وقال معاوية: وكلام الأحمق نقمة. وقالوا: البيان بصر والعيّ عمى، والبيان مِنْ نتاج العلم، والعيّ من نِتاج الجهل. يُحْكى أنّ رجلًا قام إلى محمد بن عبد الملك الزيّات، فقال له: إني مظلومك؟ فقال: هذا كلام يحتاج إلى شهود وبيّنة وأشياء غير ذلك، فقال الرجل: أصلحك الله الشهود هم البيّنة، والبيّنة هم الشهود وأشياء غير ذلك حصرٌ وعيّ وزيادة هي نقص في القيام بحجّتك، فضحك منه، وكشف ظلامته. وقيل لبزرجمهر: أي شيء أستر للعيّ؟ قال: عقل، قالوا: فإن لم يكن له عقل؟ قال: مال، قالوا: فإن لم يكن له مال؟ قال: فإخوان يعبّرون عنه، قال: فإن لم يكن له إخوان؟ قال: يكون شيئًا صامتًا كالحجر، ولا يلحقه ضرر. وقال الشاعر[٢]: [الوافر]

وما حُسْن الرجال لهم بزَيْنٍ إذا لم يسعد الحسن البيانُ
كفى بالمرء عيبًا أنْ تراه له وجهٌ وليس له لسانُ

آخر[٣]: [مجزوء الكامل]

والصمت أزْيَن للفتى ما لم يكن عيّ يشينُهْ
والقول ذو خطل إذا ما لم يكن لبّ يعينُهْ

---

(١) البيت لمكي بن سوادة في البيان والتبيين، للجاحظ ١/٢٧.
(٢) البيتان بلا نسبة في الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٨٦١.
(٣) البيتان لأُحيحة بن الجلاح في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/٢٩، ٥١١.

وقال الجاحظ: لا يعاب الأخرس، ولا يُلام مَنِ استولى على بيانه العجز، ويذمّ الحصر ويؤنب العي. وصف أعرابيّ قومًا بالعيّ، فقال: منهم مَنْ يقتطع كلامه قبل أن يصل إلى لسانه، ومنهم مَنْ لا يبلغ كلامه أذن جليسه، ومنهم مَنْ يَلِجُ كلامه الأذان فيحملها عبأً ثقيلًا على الأذهان. قال شاعر ينزّه لسانه عن العيّ[١]: [الطويل]

وما بيَ من عيّ ولا أنطق الخنى إذا جمع الأقوام في الخطب محفلُ

آخر[٢]: [الطويل]

وقلنا بلا عيّ وسُسْنا بطاقة إذا النار يوم الحرب طال اشتعالُها

ومن علامات العيّ الواضحة وسِمَات اللّكن الفاضحة

الاستعانة، وهو أن يرى المخاطب إذا كلّ لسانه يقول عند مقاطع كلامه للمخاطب: استمع إليّ واسمع مني، وألست تفهم، وافهم عني. ومنهم من يقول في خلل كلامه: أمّا قولي كذا فأعني به كذا، ولا يريد التفسير، ولكن يعيد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مُراده الأوّل، فبيانه أبدًا يقصر عن إيضاح إشكاله، وإن أتى بأنواع الكلام وأشكاله.

وذمّ بعض البلغاء عيبًا، فقال: قلبه ميت الفطنة، ولسانه بادي اللُّكنة، ولفظه ظاهر الهجنة، شديد التعاون بين التهافت، إذ عضّته ولدغته المساجلة والمساورة تثاءب للعطاس، وتثاقل للنعاس، وتشاغل بمسح اللّحية، ومسّ الجبهة، وقرع السنّ، وفتل الأصابع، فعجزه ظاهر وعيّه حاضر. شاعر في مثل ذلك[٣]: [الطويل]

مليّ ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل الأصابعِ

ومن علامته: التنحنح من غير داء، والتثاؤب من غير رَيْبة، والإكباب في الأرض من غير علّة.

(١) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/ ٢٨.
(٢) البيت لزبان بن سيار في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/ ٢٩.
(٣) البيت بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٨٩٥.

وقال ابن المعتز[١]: [الكامل]

ومِنَ الكبائر مقول متتعتع جمّ التنحنح متعب مبهورُ

ومن عيوب اللّسان المزيلة للإحسان المُزْرية بقدر الإنسان

التمتمة، والفأفأة، والعقلة، والحبسة، واللفف، والرتة، والغمغمة، والطمطمة، واللّكنة، والغنّة، واللّثغة. قال الأصمعيّ: التمتمة إذا تعتع في التاء، فهو تمتام، وإذا تردّد في الفاء فهو فأفاء؛ قال الراجز[٢]: [الرجز]

ليس بفأفاء ولا تمتامِ ولا كثير الهجر في الكلامِ

والعقلة التواء اللسان عند الكلام، والحبسة تعذّر النطق ولم يبلغ حدّ الفأفاء ولا التمتام، ويقال: إنها تُعْرض أول الكلام فإذا مرّ فيه انقطعت. واللفف إدخال بعض الكلام في بعض؛ قال الراجز[٣]: [الرجز]

كأنّ في فيه لفيفًا إن نطقْ مِنْ طول تحبيس وهم وأرقْ

والرتّة أيضًا بعض الكلام ببعض دون إفادة، والغمغمة أن يسمع الصوت ولا يبيّن لك تقطيع الحروف ولا يُفْهم معناه، والطمطمة أن يكون الكلام شبيهًا بكلام العجم وهي حميرية، وقالوا: هي إبدال الطاء بالتاء؛ لأنهما من مخرج واحد، فيقولون: السلتان والشيتان بمعنى السلطان والشيطان، وكانت في لسان زياد بن سلمى الأعجم، وكان خطيبًا شاعرًا كاتبًا. واللّكنة هي إدخال بعض حروف العرب في بعض حروف العجم، وتشترك فيها اللغة التركية والنبطية، وهي إبدال الهاء من الحاء وانقلاب العين همزة، وكانت في لسان عبيد الله بن زياد وصهيب الرُّومي رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ. وذُكِر أنّ مولى لزياد قال: أيّها الأمير احدوا لنا همار وهش ـ يريد اهدوا لنا حمار وحش ـ فلم يفهم زياد قوله، فقال: ما تقول؟ ويلك، فقال: احدوا لنا أيرًا، فقال زياد: رجعنا إلى الأوّل فهو خير. وحكى الجاحظ أن أزد انقاذار الفارسي كان له كاتب جلف في لسانه لكنة، فأملى عليه يومًا في كتاب: أنا اعتبرنا الحاصل بالهاء فوجدناه ألف كرّ، فكتبها الكاتب

---

(١) البيت لبشر بن المعتمر في ديوانه، وهو بيت منفرد، والبيان والتبيين للجاحظ، ١/ ٥٧.

(٢) الرجز لأبي الزحف في البيان والتبيين ١/ ٥٥.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

كما لفظ بها، فلما أعاد عليه ما أملاه فطن لاجتماعهما على الجهل، فقال: أنت لا تهسن أن تكتب، وأنا لا أهسن أن أملي، فاكتب الجاصل ولا تعجم الجيم[١].

والغنّة أن يشرب الصوت الخيشوم، والخنّة ضربٌ منها، والترخيم حذف بعض الكلمة لتعذّر النطق به، واللّثغة قال الجاحظ في كتابه البيان: الحروف التي يدخلها اللغثة أربعة، وهي: القاف والسين والراء واللام، فالّتي تعرض للقاف، فإنّ صاحبها يجعل القاف طاء، فإذا أراد أن يقول قلت وقال، قال: طلت وطال، بمعنى قلت وقال، ومنهم من يبدّلها كافًا، فيقول: كلت وكال، بمعنى قلت وقال، وكانت في لسان أبي مسلم وعبيد الله بن زياد. وقال بعض الشعراء في أمّ ولد له يصفها بذلك[٢]: [الرجز]

أكثر ما أسمع منها في السّحَرْ تذكيرها الأنثى وتأنيث الذّكرْ
والسوأة السوأةُ في ذكر القمرْ

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر، قالت: الكمر، والكمر جمع كمرة وهي حشفة الذكر. وأمّا التي تعرض للسين، فإنهم يبدّلونها ثاء، فيقول: بثم الله إذا أرادوا بسم الله، ويثره الله بمعنى يسّره الله، وهي مستحسنة من الجواري والغلمان، وأحسن ما سُمع فيها قول بعضهم[٣]: [الوافر]

وأهيف كالهلال شكوت وجدي إليه بحسنه وأطلت بثّي
وقلت له فدتك النفس صلني تخر حسن الثوب فقال بثّي

ومن قبيح الأبدال: إبدال الثاء المثلثة بالتاء المثناة، وكانت في لسان شعبة، وذلك فاشٍ في لغة أهل صعيد مصر، وما أقبحهم إذا قالوا: تلاتة آلاف وتلاتمائة وتلاتة وتلاتين، وتلت، وفي الناس من يبدّل الجيم ضادًا وهم من أهل صعيد مصر أيضًا، فإذا اجتمع لأحدهم جيم وضاد في كلمة مثل ضج وضجر، قالوا: جضّ وجضر، بجعل الجيم ضادًا والضاد جيمًا، وفي الناس من يبدّل الخاء المعجمة حاء مهملة، فيقول: في خوخ حوح وفي خلخال حلحال، وهي مُستحسنة من الغلمان والجواري.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٠.
(٢) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ١/ ٨١.
(٣) البيتان للرئيس أبي غالب نصر بن عيسى بن بابي الواسطي، في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

وأما التي تعرض في الراء، فهي أربعة أحرف؛ فمنهم من يجعلها غينًا معجمة، فإذا أرادوا أن يقولوا عمرو قال عمغ، وهي غالبة على لسان غالب أهل دمشق، والعجب أنه إذا اجتمع لهم راء مع غين في مثل رغيف نطقوا الراء غينًا وبالغين راء، فيقولون: غريف، ومنهم من يجعلها عينًا مهملة، فإذا أراد أن قول عمرو، قال: عمع، ومنهم من يجعلها ياء، فيقول: عمي، ومنهم من يجعلها زايًا، فيقول: عمز، وهي لغة خسيسة، ومنهم مَنْ يقولها بالظاء أخت الطاء، والأولى كانت في لسان محمد بن شبيب الخارجي، والثانية كانت في لسان واصل بن عطاء المعتزلي، وكان لاقتداره على الكلام يتجنّب النطق بها حتى كأنها ليست من حروف المعجم.

ومن عجيب ما يُحكى عنه أنه ذُكِر بشار بن برد بكلام أسهب فيه وأطنب، فلم يأتِ بكلمة فيها راء، وهو ما لهذا الأعمى المكنى بأبي معاذ مَنْ يقتله، والله لولا أنّ قتله من أخلاق الغالبة لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، يريد بقوله: الأعمى يعني الضّرير، وقال المكنى بأبي معاذ ولم يقل بشار ولا ابن برد، وقال: من أخلاق الغالبة ولم يقل المغيرة، وقال: من يبعج ولم يقل يبقر، قال: على مضجعه، ولم يقل على فراشه.

ولبعضهم فيمن يلثغ بالراء[1]: [البسيط]

ويجعل البر قمحًا في تصرفه وجانب الراء حتى احتال للشعرِ
ولم يقل مطرًا والقول يعجله فقال بالغيث إشفاقًا مِنَ المطرِ

ولبعضهم فيمن يلثغ بالراء أيضًا[2]: [الطويل]

ولثغته لو أن واصل حاضر ليسمعها ما أسقط الراء واصلُ

وأمّا التي تعرض في اللام، فإنّ مِنْ أهلها من يبدّلها ياء، فيقول أعتييت، بمعنى اغتللت، ويدل جمل جمي، وهي أوضعهنّ لذي المروءة، وقوم يجعلون اللام كافًا وهي قبيحة، ولا حاجة بنا إلى تكملة بيان هذه الحروف.

---

(١) البيتان بلا نسبة في البيان والتبيين ١/ ٤٢.

(٢) البيت ليوسف بن هارون الرمادي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

قال الجاحظ: وليس اللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء وذو الحبسة وذوي اللّفف والرتّة في سبيل من حصر في خطبته، وعيى في مناضلته وخصومته.

وقد يكون البليغ عييًّا عند سؤال مطلوبه

كالعاشق متى رام شكوى حاله لمحبوبه

سُئِل محمد بن أبي دؤاد: متى يكون البليغ عييًّا؟ قال: إذا سأل ما يتمنّاه وشكى حبّه إلى مَنْ يهواه، ثم أنشد(١): [الطويل]

بليغٌ إذا يشكو إلى غيرها الهوى وإن هـو لاقـاهـا فـغـيـر بـلـيـغِ

آخر(٢): [البسيط]

قالت عييت عن الشكوى فقلت لها جهد الشّكاية إن أعيا عن الكلمِ

آخر(٣): [الطويل]

وكم من حديث قد خبأناه للقا فلمّا التقينا صرت أخرس أبكما

آخر(٤): [الكامل]

عيّ المحب لدى الحبيب بلاغة ولـربـمـا قـتـل الـبـلـيـغ لـسـانُـه

قال بعضهم: موطنان لا آنف من العيّ فيهما إذا شكوت إلى محبوبي عشقي، وإذا سألت حاجةً لنفسي، فإنّ السائل قد يَهاب المسؤول، ويتبعه مع الهَيْبة ذلّ السؤال. وسأل العتابي رجلًا حاجة فأقلل في كلامه، فقال له: ما لك من طوق في ذلك؟ فقال: كيف لا يقلّ كلامي ومعي حيرة الطلب، وذلّ المسألة، وخوف الردّ. وحُكِيَ أنّ الفضل بن الربيع سار بعد نكبته إلى أبي عباد واسمه ثابت بن يحيىٰ يسأله حاجة، فارتجّ عليه، فقال: يا أبا العباس أبهذا البيان خدمت خليفتين؟ فقال: إنا تعوّدنا أن نُسْأل ولا نَسْأل، فاستعبر لكلامه ورقّ لحاله وقضى حاجته.

---

(١) البيت لقيس بن ذريح في ديوانه، وهو بيت منفرد.
(٢) البيت للحماني الكوفي في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيت بلا نسبة في طبقات الأولياء، لابن الملقن، ص ٧٩.

عليّ بن الجهم(١): [الخفيف]

إنّ دون السؤال والاعتذارِ خطّةً صعبةً على الأحرارِ
ارض للسائل الخضوع وللقا ذف ذنبًا مضاضة الأعذارِ

وأمّا ما يعتري العاشق المشوق مِنَ الأفحام عند رؤية المعشوق

فكما قال أبو بكر الصنوبريّ(٢): [الخفيف]

آية من علامة العشّاق اصفرار الوجوه عند التّلاقي
وانقطاع يكون من غير عيّ وولوع بالصمت والإطراق

آخر(٣): [الطويل]

فما هو إلّا أن أراها فجاءة فأبهت لا عرف لديّ ولا نكرُ
وأنسى الذي قد كنت فيما أقوله كما يتناسى لبّ شاربها الخمرُ

عمرو بن ربيعة(٤): [الخفيف]

ضلّ عني لشدّة الوجد عقلي وجفان الذكا وعيّ لساني
ونسيت الذي نضمت من القو ل لديها وغاب عني بياني

آخر(٥): [الوافر]

أفكر ما أقول إذا التقينا وأحكم دائمًا حجج المقالِ
فأنساها إذا نحن التقينا فانطق حين أنطق بالمُحالِ

---

(١) البيتان في الإعجاز والإيجاز للثعالبي، ص ٢١٨، وكتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٣٢٨.

(٢) البيتان في ديوان أبي بكر الصنوبري، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) البيتان لأبي صخر الهذلي في نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، ص ١٢٢.

(٤) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

صاحِ إن الملامَ في حبّ جملٍ كاد يقضي الغداة منك مكاني

(٥) البيتان بلا نسبة في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٦٦، ورواية البيت الثاني فيه:

فترتعد الفرائص حين تبدو وأنطق حين أنطق بالمحالِ

ولبعض الصوفية[١]: [البسيط]

يـنـوي الـعـتـاب لـه مـن قـبـل رؤيـتـه   فـإن رآه فـدمـع الـعـيـن مـسـكـوبُ
لا يـسـتـطـيـع كـلامًـا حـيـن يـنـظـره   كـلّ الّـسـان وفـي الأحـشـاء تـلـهـيـبُ

وقال أبو المعالي شيذله: الصبوة والشوق، والارتياح والتوق، والفراق والتلهّف، والفوت والتأسّف، دواعٍ تستأثر الصبر، وتحصر عن وصفها للمحبوب ألسنة الحصر.

ومما يشين البليغ بين أترابه عطل بيانه من حلى إعرابه

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلّموا النحو كما تتعلّمون السنن والفرائض. وكان أيوب السختياني يقول: تعلّموا النحو، فإنه جمال الوضيع، وتركه هجنة للشريف. شاعر[٢]: [الكامل]

الـنـحـو يـصـلـح مـن لـسـان الألـكـن   والـمـرء تـكـرمـه إذا لـم يـلـحـنِ
فـإذا أردت مـن الـعـلـوم أجـلّـهـا   فـأجـلّـهـا مـنـهـا يـقـيـم الألـسـنِ
لـحـن الـشـريـف يـحـطّـه عـن قـدره   وتـراه يـسـقـط مـن لـحـاظ الأعـيـنِ
وتـرى الـدّنـيّ إذا تـكـلـم مـعـربًـا   نـال الـنّـبـاهـة بـالـلّـسـان الـمُـعـلـنِ
مـا ورّث الآبـاء فـيـمـا ورّثـوا   أبـنـاءهـم مـثـل الـعـلـوم فـأتـقـنِ

آخر[١]: [الكامل]

لـو لـم يـكـن فـي الـنّـحـو إلّا أنـه   يـذر الـضـئـيـل مـن الـرجـال مـهـيـبـا
يـخـشـى الـتـكـلّـم حـيـث حـلّ كـأنـمـا   أضـحـى بـأفـواه الأنـام رقـيـبـا

وقال عمر: تعلّموا العربية فإنها تقوّي العقل، وتُزيد في المروءة. وقال عبد الملك بن مروان: اللّحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه. وسمع المأمون لحنًا مِنْ بعض ولده، فقال: ما على أحدكم أن يتعلّم العربية يصلح بها لسانه، ويفوق أقرانه، ويقيم أوده، ويزين مشهده، ويفلّ حجج خصمه، بمسكتات حكمه، أيسرّ أحدكم أن يكون كعبده أو أمته؟ فلا يزال الدهر أسير كلمته. سمع

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٢١٣.

الأعمش إنسانًا يلحن، فقال: مَنْ هذا الذي يتكلّم وقلبي منه يتألّم. وقال الحسن البصري: ربما دعوت فلحنت، فأخاف أن لا يُستجاب لي. وفي الحديث: «إن الله لا يسمع دعاء ملحونًا»[١]، والعلماء لا يرون الصلاة خلف اللّحنة، وكيف لا يكون كذلك وأدنى حركة مغيّرة للمعنى مؤدّية إلى الكفر. قال سعيد بن مسلم: دخلت على الرشيد فملأ قلبي رعبه، فلمّا لحن خفّ عليّ أمره. يُحكى أنه لم يسمع من الحسن البصري، ولا مِنَ الشعبيّ، ولا مِنْ أيّوب بن القرية، ولا مِنْ عبد الملك بن مروان لحن قطّ في جدٍّ ولا هزل. وكان سيبويه واسمه عمرو بن قنبر يختلف إلى حماد بن زيد يقرأ عليه الحديث، فكان يلحن في قراءته، فيردّ عليه حماد، فأبرمه يومًا لحنه، فقال له: كم تلحن، أمَا لك مروءة؟ فخجل ووجم، فلما قام من مجلسه انقطع إلى الخليل بن أحمد فقرأ عليه النّحو، فمهر فيه وفاق، وسار ذكره في الآفاق.

وهذه نبذة مستحسنة من التعريف بنوادرهم المستظرفة في التحريف

قال يوسف بن خالد لعمرو بن عبيد: ما تقول في دجاجة ذُبِحَتْ مِنْ قفاها؟ قال: أحسن، قال: مِنْ قفاءها؟ قال: أصلح، قال: من قفاؤها؟ قال له عمرو: ما عناك بهذا قل من قفاها، واسترح وأرِحْ،؛ وكان يوسف يقول هذا أحمر من هذا، أي أشدّ حمرة. وكان الوليد بن عبد الملك لحنة خطب الناس يوم عيد، فقرأ في خطبته ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحاقة: الآية ٢٧]، وضمّ التاء، فقال عمر بن عبد العزيز: عليك وأراحَنا منك. ودخل إليه أعرابيّ وعنده عمر بن عبد العزيز، قال له: مَنْ أنت؟ ـ ووصل الهمزة ـ فظنّ الأعرابيّ أنّه يقول: مَنَنْت، فقال: المِنّة لله ولأمير المؤمنين، قال عمر للأعرابيّ: إنّ أمير المؤمنين يقول لك مَنْ أنت، قال: فلان ابن فلان، قال: ما شأنَك؟ ـ وفتح النون ـ قال: جدري في وجهي وفحج بساقي، قال عمرو: ويحك إنّ أمير المؤمنين يقول لك: ما شأنك ـ وضمّ النون ـ قال: ظلمني ختني، قال: ومن ختنك؟ ـ وفتح النون ـ قال: وما سؤالك عن ذلك يا أمير المؤمنين، حجام عندنا بالبادية، قال عمر: إنّ أمير المؤمنين يقول لك: من ختنك؟ ـ وضمّ النون ـ قال: فلان، وقيل للوليد: إنّ العرب لا تحبّ أن يتولّى عليها إلّا من يُحْسِن كلامها، فجمع أهل النحو ودخل

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

بيتًا ليتعلّم فيه النحو، فأقام فيه ستة أشهر ثم خرج منه أجهل من يوم دخل، وكان بِشْر المريسيّ ممن شُهِر باللّحن دعا لقوم، فقال: قضى الله لكم الحوائج على خير الوجوه وأهناها، فأنكروها عليه لحنه، فقال قاسم التمار: يصحّ هذا على قول الشاعر[1]: [المنسرح]

إنّ سليمى والله يكلاها ضنّت بشيءٍ ما كان يرزاها

فكان احتجاج قاسم أطرف من لحن بِشْر. وكان خالد بن عبد الله القسريّ لحنة، وفيه يقول ابن نوفل مِنْ أبيات[2]: [البسيط]

وألْحن الناس كل الناس قاطبةً وكان يُولَع بالتّشديق والخطبِ

قرأ سابق الأعمى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢١]، فقال بعض المجّان: ولا إن آمنوا. ترافع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث، فقال: إنّ أبوه مات وإنّ أخينا وثب على مال أبانا فأكله، فقال زياد: الذي أضعت مِنْ نفسك أضرّ عليك مما أضعت مِنْ مالك. وأمّا القاضي، فقال: لا رحم الله أباك ولا جبر عظم أخيك، قم في لعنة الله وحرّ سقره. وقال رجل للأعمش: مِنْ أين أقبلت؟ قال: مِنَ السوق، قال: وما اشتريت؟ قال: عسل، قال: هلّا زدت ألف؟ فقال له الأعمش: وهلّا زدت في ألفك ألِفًا. وعكسها ما حُكِيَ أنّ رجلًا قال لسعيد بن عبد الملك: تأمرنا بشيأ، قال: نعم بتقوى الله وإسقاط الألف. ويُحْكى أن خالد بن صفوان دخل الحمّام يومًا، وفي الحمام رجل معه ابنه، فأراد الرجل أن يعرّف خالدًا ما عنده مِنَ البيان، فقال لولده: يا بنيّ اغسل يداك قبل وجهك، والتفت إلى خالد، وقال: يا أبا صفوان قد ذهب أهله، فقال خالد: هذا كلام ما خلق الله له أهلًا قطّ.

الفصل الثاني من الباب السادس

في ذكر مَنْ قَصُر باع لسانه عن ترجمة ما في جنانه

قيل لابن المقفّع، وكان مفحمًا عن نظم الشعر: لِمَ لا تقول الشعر؟ قال:

---

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، وهو مطلع القصيدة، ورواية البيت في الديوان:

إن سليمى والله يكلؤها ضنّت بشيءٍ ما كان يرزؤها

(٢) البيت ليحيى بن نوفل في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/١١٨.

الذي أرضاه لا يجيء، والذي يجيء لا أرضاه[١]: [الطويل]

وزهدني في الشعر أنّ قريحتي بما تستجيد الناس ليس تَجُودُ

وقال ابن عبدون الكاتب[٢]: [البسيط]

قلبي مِنَ العلمِ مملوء جوانبه وذا اللّسان كليلٌ لا يُواتيني

فمن أرتج عليه من خطباء المحافل وفرسان المنابر والجحافل

يزيد بن أبي سفيان: كان أبو بكر رضي الله عنه ولّاه ربعًا من أرباع الشام، فلما رقى المنبر ارتجّ عليه فقطع الخطبة، وقال: سيجعل الله بعد عُسْر يُسْرًا، وبعد عيّ بيانًا، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أميرٍ قوّال، ثم نزل ورُوِي هذا الكلام لعثمان بن عفّان، وعليه أكثر المؤرّخين. وصعد عبد الله بن عامر منبر البصرة في يوم عيد الأضحى فحُصِر، فقال: لا أجمع عليكم عيًا ولا بخلًا ادخلوا سوق الغنم، فمن أخذ شاة فهي له وعليّ ثمنها. ثم صعد مرة أخرى فحصر، فالتفت يمينًا وشمالًا، فرأى عتّاب بن ورقاء وكان شيخًا أصلع، فقال: أمّا بعد يا أصلع، فوالله ما غلطني غيرك، فلعنها الله من صلعة عليّ به، فلما مثل بين يديه أمر أن يضرب عشرين سوطًا ومنعه من دخول المسجد الجامع بعدها. وصعد عُدَيّ بن أرطأة المنبر، فلمّا رأى جمع الناس ارتجّ عليه، فقال: الحمد لله الذي يُطْعم هؤلاء ويسقيهم، ثم نزل. وصعد روح بن حاتم المنبر، فلما رأى الناس قد أصغوا إليه بأسماعهم، ورمقوه بأبصارهم، قال: نكّسوا رؤوسكم وغضّوا أبصاركم، فإنّ المنبر مركب صعب، وإذا الله يسّر فتح قفلًا تعسّر، ثم نزل. وخطب مُصعب بن حيان أخو مُقاتل بن حيّان خطبة نكاح فحصر، فقال: لقّنوا موتاكم قول لا إلٰه إلّا الله، فقالت أمّ الجارية: عجّل الله موتك وأراح منك، ألهذا دعوناك. وصعد وازع اليشكري المنبر يوم جمعة، فلمّا رأى جمع الناس هابَهم فحصر، فقال: لولا أنّ امرأتي حملتني على إتيان الجمعة ما جمّعت، وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثًا، ثم نزل. وخطب ثابت مولى يزيد بن المهلّب فارتجّ عليه فنزل،

---

(١) البيت لابن دقيق العيد في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة مجد الدين ابن دقيق العيد.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وهو يقول(١): [الطويل]

فإلّا أكن فيكم خطيبًا فإنّني   بسيفي إذا جدّ الوغى لخطيبُ

فبلغ ذلك المهلّب، فقال: لو قال هذا على المنبر لكان مِنْ أخطب الناس. وخطب خالد بن عبد الله القصريّ فارتجّ عليه، فقال: إنّ هذا الكلام يجيء أحيانًا ويعسر أحيانًا، وربما كُوبر فأبى، وعُولج فنبا، والتأنّي لمجيئه خير من التعاذي لأبيه، وتركه عند تنكّره أفضل من طلبه عند تعذّره، وقد يختلط من الجريء جنانه، وينقطع من الذَّرِب لسانه، وسأعود فأقول، ثم نزل. وارتجّ على أبي العباس السفّاح فنزل ثم صعد، وقال: أيّها الناس إنّ اللّسان بضعة من الإنسان يكلّ لكلاله، ويرتجل لارتجاله، ونحن أُمراء الكلام بنا تفرّعت فروعه، وعلينا تهدّلت غصونه، وإنّا لا نتكلّم هذرًا ولا نسكت حصرًا، بل نسكت معتبرين، وننطق مرشدين. وذكر المسعودي أنّ المعتضد خرج يوم الفطر، وكان يوم الاثنين سنة تسع وسبعين ومائتين، إلى مصلّى أحدثه بالقرب من داره ليصلّي بالناس، فكبّر في الركعة الأولى ستّ تكبيرات، وفي الثانية تكبيرة واحدة، فلمّا فرغ من الصلاة صعد المنبر فحصر، ولم يُسْمَع له خطبة، وفي ذلك يقول الشاعر يعتذر عنه في هذا المقام(٢): [الكامل]

حصر الإمام ولم يبيّن خطبة   للناس في حلّ ولا إحرامِ
ما ذاك إلّا مِنْ حياءٍ لم يكن   ما كان من عيّ ولا إفحامِ

وخطب داود بن عليّ فارتجّ عليه، فقال: اتّقوا الله وافعلوا ما أمركم به، وانتهوا عمّا نهاكم عنه، ثم نزل؛ ولقد جمع في هذه الكلمات بين الحكمة وفصل الخطاب، وأحسن لهم في النصيحة وأطاب. صعد بعض الخطباء المنبر فحصر بعد الحمدلة، فكرّرها مرارًا، فقال بعض مَنْ حضره: على ما أبلانا منك فإنه لا يُحمد على المكروه غيره، ثم ولّى وهو يُنْشد(٣): [الكامل]

ختم الإله على لسان عذافر   ختمًا فليس على الكلام بقادرِ
فإذا أراد النطق خِلْتَ لسانه   لحمًا تحرّكه لصقر نافرِ

---

(١) البيت في ديوان ثابت قطنة، وهو بيت منفرد.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيّان التوحيدي، ص ١١٥٣.

قال ابن ذولاق في أخبار ولاة مصر: لم يكن الناس يصلّون بالجامع العتيق صلاة العيد حتى كانت سنة ستّ وثلاثمائة أو ثمان صلّى فيه العيد أحمد بن عبد الملك الفهميّ المعروف بابن أبي سجر صلاة عيد الفطر، ويقال: إنه خطب يومئذ في دفتر، فكان مما حُفِظ منه أنْ قال: اتّقوا الله حقّ تُقاته، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مشركون؛ فقال فيه الشاعر[1]: [السريع]

وقام في العيد لنا خاطبًا … يحرّض الناس على الكُفْرِ

وممّن ارتجّ عليه من الأئمّة في محرابه وكان تركه للصلاة خوف الخجل أحرى به

رجل صلّى بقوم فقرأ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: الآية ٩٨]، فارتجّ عليه فجعل يكرّرها، قال له مزيد: والله إنك لا تُحْسن القرآن، فما ذنب الشيطان. وصلّى سيفويه القاص بقوم فقرأ سورة الإخلاص، فارتجّ عليه عند رأس آيتين منها، فالتفت إلى مَنْ خلفه، وقال: مَنْ أراد أن يسمع باقي السورة فليحضر مسجد بني فلان، ثم خرج وتركهم. وصلّت أعرابية مع قوم فقرأ الإمام: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: الآية ٣٢] ثم ارتجّ عليه، فجعل يردّدها مرارًا، فخرجت المرأة تَعْدُو حتى لحقت بأُختها، وقالت: يا أُختاه لم يزل الإمام يأمرهم بنكاحنا حتى خشيت أن يقعوا عليّ. وخرج رجل من بيته مغلّسًا، فمرّ بمسجد يصلّي فيه الصبح فدخل ليصلّي، فقرأ الإمام الفاتحة، وابتدأ سورة يوسف، فلمّا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: الآية ٨٠]، فردّدها مرارًا، فقال الرجل مِنْ خلفه: فإن لم يأذن لك أبوك إلى الظهر يطول مقامي معك ويفوتني قضاء حاجتي، ثم مضى وتركه. وارتجّ على الحجاج في صلاته، فلم يجسر أحد أن يهديه لما ضلّ عنه فتلا قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ [صٓ: الآية ٣٣] فردّت عليه، فللّه درّه ما أحسن ما أجال فكره حتى أدرك به الفهم العازب، ولم تبطل صلاته بكلامه، بل كان مِنْ أشرف المواهب. وأحسن منها ما حُكِيَ أنّ المهديّ لما وُلّي الخلافة صلّى بالناس مِنَ الغداة في داره، فارتجّ عليه، فهيب أن يُلقّن ما نسي، فلمّا طال عليه انتظار مَنْ يرشده، تلا

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هُود: الآية ٧٨]، فردُّ الراشد الشارد على الناشد. اجتمع الكسائيّ واليزيديّ عند الرشيد، فحضرت صلاة المغرب، فتقدّم الكسائي فصلّى فارتجّ عليه في سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: الآية ١]، فلمّا سلّم قال اليزيدي: قارىء الكوفة يرتجّ عليه في سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: الآية ١]، فحضرت صلاة العشاء، فتقدّم اليزيدي فارتجّ عليه في سورة الفاتحة، فلما سلّم قال له[1]: [الكامل]

احفظ لسانك أن تقول فتُبْتَلى إنّ البلاء موكّلٌ بالنُّطقِ

حدّث أبو الحسن بن راهويه قال: صلّى يحيىٰ بن المُعلّى الكاتب، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، فغلط فيها وارتجّ عليه، وكان في المجلس أبو نوّاس والعباس بن الأحنف والخليع وصريع الغواني، فقال أبو نوّاس[2]: [مجزوء الرجز]

أكثر يحيىٰ غلطًا في قل هو الله أحدْ

فقال الأحنف: [مجزوء الرجز]

قام طويلًا ساكتًا حتى إذا أعيا سجدْ

فقال الخليع: [مجزوء الرجز]

يزحر في مِحرابه زُحَيْرَ حُبْلى للولدْ

فقال الصّريع: [مجزور الرجز]

كأنّما لسانه شُدّ بحبل مِنْ مسدْ

واتصلت هذه الحكاية بأبي علي بن رشيق، فقال: [مجزوء الرجز]

ونسي الحمد فما مرّت له على خلدْ

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدّوس في ديوانه، من بيتين، أوّلهما:

لا تنطقن بمقالة في مجلس تخشى عواقبها وكُنْ ذا مصدق

(٢) الخبر والأبيات في بدائع البدائه، لابن ظافر الأزدي، ص ٤٥٠؛ ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٤٢١.

هذا ما أورده ابن رشيق في كتاب العُمدة، ثم إني عثرت عند مطالعتي لكتاب بدائع البداءة على زيادة وجب ذكرها، وهو ما حُكِي أنّ أبا العباس بن الحُطَيْئة لما سمع هذه، قال: [مجزوء الرجز]

وَرام شــيـئًا غـيــر ذا   يـقـرؤه فـمـا وجـدْ

وممّن أخذ العيّ بعنان قلمه وظهر كلف التكلّف في صفحات كلمه

ما حُكِيَ أنّ بعضهم كتب إلى بعض العُمّال على مدينة حلب يُخْبِره أنّ سلنديين من شواني المسلمين غَرِقا، ما منا له: اعلم أيّها الأمير أعزّه الله أن سلندبين - أي مركبين - صفقا - أي غرقا - فهلك مَنْ فيهما - أي تلفوا - فكتب إليه العامل كتابًا على الحكاية يستخفّ به: ورد كتابك - أي وصل - وفَضَضْناه - أي فتحناه - وفهمنا ما فيه - أي علمناه - فأدّب كاتبك - أي اصفعه - واصرفه - أي اعزله - واستبدّل به - أي غيّره - فإنه مائق - أي أحمق - والسلام - أي قد انقضى الكتاب -.

وكتب بعض عُمّال طاهر بن الحسين إليه كتابًا، وفيه: قد وجّهت إلى الأمير ثوب ديباج أحمر أحمر أحمر، فكتب طاهر إليه: قد قرأت كتابك، فعلمت أنك أحمق أحمق أحمق، فاقدم اقدم اقدم، والسلام. وممّا عابه ابن الأثير كلام المترسّلين القدماء، وادّعى أنّه قصور وعيّ في صناعة الإنشاء، وهو أشبه شيء بالإقواء والإبطاء، قال في فصل مِنْ كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: إذا وردت في كلام المترسّل سجعتان يدلّان على معنًى واحد كانت إحداهما كافية في الدلالة عليه، والأخرى من حشو الكلام الذي لا يُحْتاج إليه. وقد وجدت كثيرًا من ذلك في كلام المفلقين من أهل هذا الشأن، كالصابىء وابن العميد؛ فمن ذلك قول الصابىء في تحميده: الحمد لله الذي لا تُدْركه الأعين بألحاظها، ولا تحدّه الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تُهْرِمه الدهور بكرورها؛ ثم انتهى إلى الصلاة على النبيّ ﷺ، فقال: لم يرَ للكفر أثرًا إلّا طمسه ومحاه، ولا رسمًا إلّا أزاله وعفاه، فلا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور، وكذلك لا فرق بين محو الأثر وتعفية الرسم. ومِنْ كلامه أيضًا من كتاب: وقد علمت أن الدّولة العباسية لم تزل على سالف الأيام وتعاقب الأعوام تعتلّ طورًا وتصحّ أطوارًا، وتلتاث مرّة، وتستقلّ مرارًا من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع، وبنيانها ثابت لا

يتضعضع؛ فمعلوم أنّ الاعتلال والالتياث بمعنى، والطور والمرّة بمعنى، والرسوخ والثبوت بمعنى.

وله من كتاب: وصلني كتابه مفتتحًا من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين والتقليد لأمور المسلمين بما إعزاقه الزكية مجوّزة لاستمراره، وأرومته العلية مسوّغة لاستقراره. ومنه: فلا بدّ من اتّفاق أشراف كل قطر وأفاضله، وأعيان كل صقع وأماثله؛ فهذا السجع كلّه متساوي الألفاظ والمعاني؛ فإنّ إمارة المؤمنين وتقليد أُمور المسلمين بمعنى، وكذلك الإعراق والأرومة بمعنى، والتجويز والتسويغ بمعنى، وكذلك الأعيان والأماثل، والقطر والصقع.

ومِنْ كلام ابن العميد في كتاب: وهو لا يوجّه همّته إلى أعظم مرغوب إلّا طاع ودان، ولا تمتدّ عزيمته إلى مطلوب إلّا كان واسْتكان، وكلّ هذه الألفاظ مستوية المعاني.

قلت: وفيما ذكرناه من هذا الفن كفاية ومقنع على أنّ الخاطر إذا انشرح انقاد، وإذا كَلّ تمنّع، ورأيت صوابًا إلحاق هذه الحكاية بهذا الفصل، وهي ما حكاه دعبل الخزاعي، قال: خرجت أنا ورفيقان لي من قرية تسمّى طهياثا، وهي مِنْ قرى بغداد للتنزّه فيها، فأقمنا بها يومًا، فلما أردنا الانصراف قلت لرفيقيّ: ليقل كل منّا في صفة يومنا شيئًا، قالا: فابتدىء أنت، فقلت[1]: [الرجز]

نلنا لذيذ العيش في طهياثا

فقال أحدهما: [الرجز]

لما حششنا القدح احتشاثا

وارتجّ على الآخر، فقال: [الرجز]

وأمّ عمرو طالق ثلاثا

فقلنا له: ويحك ما ذنب المرأة؟ فقال: والله ما لها ذنب إلّا أنها قعدت على طريق القافية.

---

(١) الرجز في ديوان دعبل الخزاعي، وهو مطلع القصيدة، وفيه: «بطياثا» بدل: «طهياثا».

الفصل الثالث من الباب السادس

في أنّ اللّسن المكثار لا يأمن آفة الزّلل والعثار

قال رسول الله ﷺ لجُرَيْر بن عبد الله: «إذا قلت فأوجز، فإذا بلغت حاجتك فلا تتكلّف»[(١)]. وقال بعض الحكماء: الإكثار يزلّ اللّسان، ويُزِيل الإحسان. وقيل لعديّ بن حاتم: أيّ شيء أوضع للإنسان؟ قال: كثرة الكلام. وقال جعفر بن يحيىٰ: إذا كَثُر الكلام اختلّ، وإذا اختلّ اعتلّ. وقال: خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولم يطل فيُمَلّ. وقال معاوية لعمرو بن العاص: مَنْ أبلغ الناس؟ قال مَنْ ترك الفُضول، واقتصر على الإيجاز. وقال خالد بن صفوان: ليس البلاغة بخفّة اللّسان، ولا كثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة. وقال: خير الكلام ما كان عن الحصر بعيدًا، وللأسماع مفيدًا، وهو أن يكون لا مائلًا إلى الحصر فتضعف الحجّة، ولا إلى الهدر فتتلف المُهْجة. قال الشاعر[(٢)]: [البسيط]

للقول مستمع يزري بصاحبه ... منه الغلوّ وقد يزري به الحصرُ

وخير حالِ الفتى في القول أقْصَدها ... بين الطريقين لا عيّ ولا هذَرُ

وقال: عي يذري بك، خيرٌ من هدر يأتي عليك. قال شاعر[(٣)]: [المتقارب]

وصمتك من غير عيّ اللسا ... ن أزْيَن من هدر المنطقِ

وقال عمرو بن العاص: الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع، وإن أكْثَرت منه صرع. وقال لولده عبد الله: قصّر إذا قلت، واقتصر إذا أطَلْت، وإياك والإكثار فإنه شَيْن العاقل، وحَيْن الجاهل. وقالوا: العِثار مع الإكثار. وقال بزرجمهر: مَنْ ملكه طول لسانه، أهلكه فَضْل بيانه. ويقال: مَنْ طال لسانه بَطُل إحسانه. قال الفقيه منصور[(٤)]: [المتقارب]

ولا تكثرنّ فخير الكلام ... قليلُ الحروف كثير المعاني

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيت لم أجده.

احتجاج مَن أمسك عن الكلام من غير خرس وخاف مِنَ الملام فحذر واحترس

قال الأحنف بن قيس: اللّسان قيمة الإنسان، فمن قوّمه زادت قيمته. وقال أكثم بن صيفيّ: هلك الإنسان في طول اللّسان. وقال سفيان الثوري: لأن أرمي عدوّي بسهمي خيرٌ له من أن أرميه بلساني؛ لأنّ رَمْي اللّسان لا يخطىء، ورمي السهم يُصيب ويخطىء. قال الشاعر[1]: [الطويل]

وربّ كلام قد جرى مِنْ ممازحٍ فساق إليه سهم حَتْف معجّلُ

وقال ابن مسعود: لسانك سيف قاطع يبدأ بك، وكلامك سهم نافذ يرجع عليك، فاقتصد في المقال، وإيّاك وما يُوغر صدور الرّجال. وقال أعرابيّ: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلّم عاد أسيرًا في وثاقها. اجتمع أربعة من الملوك على أربع كلمات تواردوا فيها موارد النصائح، وأخرجوا دُرَر معانيها من بحار القرائح؛ قال كسرى: أنا على ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت؛ وقال ملك الصين: أنا إذا تكلّمت بالكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلّم بها ملكتها؛ وقال ملك الهند: عَجِبْت لمن يتكلّم بالكلمة إن ذكرت عنه ضرّت وإن لم تذكر عنه لم تنفعه؛ وقال قيصر: لأنْ أندم على ما لم أقل أحبّ إليّ من أن أندم على ما قلت؛ هذه كلمات صدرت عن صدور صافية من كَدَر الغِلّ وغشّه، ليتحذّر بها العاقل من لدغ الكلام ونهشه. وقالوا: مَنْ أطلق لسانه بما يحبّ كان أكثر مقامه حيث لا يحبّ. وقال ﷺ: «ما أُعطي العبد شرًّا مِنْ طلاقة اللّسان»[2]. وقال لقمان لابنه: يا بنيّ إنّ مِنَ الكلام ما هو أشدّ مِنَ الحجر، وأنفذ من الأُبر، وأمرّ من الصبر، وأحرّ مِنَ الجمر؛ وإنّ مِنَ القلوب مزارع فازرع فيها الكلمة الطيّبة، فإن لم تنبت كلّها نَبَتَ بعضها. وقال زياد: إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة يقطع بها ربقة عنز فتبلغ إمامه فيَسْفك دمه. ويُقال حفظ اللّسان راحة الإنسان. وقال صعصعة بن صوحان: طول اللّسان يقصّر الأجل، وخطأ القول يُصيب المقتل. ويقال: مَنْ خزن لسانه حقن دمه، ومن ملك كلامه أمِنَ ندمه؛ فاللّسان سيف مرهفٌ لا ينبو حدّه، والكلام سهمٌ مرسل لا يُمكن ردّه. وقال بعض الحكماء: الجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل

(١) البيت بلا نسبة في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي، ص ٧٢.
(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/٤٦٧، والقرطبي في تفسيره ١٢/٤٨١.

إحكامها وإخراجها، وإن لم يَحِنْ أوان تمامها، فإذا سدَّدها تخطَّى غرض الصواب.
وقال الخبزأرزي(١): [الطويل]

إذا ما لسان المرء أكثر هدره ... فذاك لسانٌ بالبلاء مُوكَلُ
إذا شِئت أن تَحيا عزيزًا مسلمًا ... فدبِّر وميِّز ما تقول وتفعلُ

وممَّا اخترت مِنْ كلام الحكماء الأعلام في مدح الصمت وذمّ الكلام قول رسول الله ﷺ لمعاذ: «أنت سالم ما سكتّ، وإذا تكلّمت فلك أوْ عليك»(٢).

وقال ابن مسعود: إنْ كان الشُّؤم في شيء، ففي اللّسان. وقال أبو نوّاس(٣): [مجزوء الرمل]

خلِّ جنبيك لرامٍ ... وامْضِ عنه بسلامِ
مُتْ بداء الصمت خير ... لك من داءِ الكلامِ
بما استفتحت بالنطـ ... ـق مغاليق الحمامِ
إنما السالم من ألـ ... ـجم فاهُ بلجامِ

وقالوا: صمتٌ يعقب الندامة خيرٌ من نطق يَسْلب السّلامة. وقالوا: الصمت زين الحلم، وعَوْذة العلم، يلزمك السلامة، ويصحبك الكرامة، ويكفيك مُؤْنة الاعتذار، ويُلْبِسك ثوب الوقار. وقال الشاعر(٤): [الكامل]

الصَّمت زين والسكوت سلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
ما إنْ ندمت على سكوتي مرَّة ... ولقد نَدِمت على الكلام مِرارا

وقالوا: لسانك كالسبع إن عقلته حرسك، وإن أرسلته افترسك. ويقال: اخزن لسانك كما تخزن مالك، واعرفه كما تعرف ولدك، وزِنْه كما تزن نفقتك، وأنفق منه بقدر، وكُنْ منه على حذر؛ فإنّ إنفاق ألف درهم في غير وجهها أيْسَر

---

(١) البيتان في ديوان الخبزأرزي، من قصيدة مطلعها:
لسان الفتى حتف الفتى حين يجهلُ ... وكل امرئ ما بين فكّيه مقتلُ
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٣) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأوّل مطلع القصيدة.
(٤) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ١٣٦٦.

من إطلاق كلمة في غير حقّها. وقال الشاعر[(١)]: [الكامل]

احفظ لسانك واحتفظ من شرّه   إنّ اللّسان هو العدوّ الكاشحُ
وزِنْ الكلام إذا نطقت بمجلسٍ   فيه يلوحُ لك الصواب اللّائحُ
والصمت من سعد السُّعود بمطلع   تَحْيا به والنُّطق سعد الذابحُ

وقال بعض الحكماء: عليك بالصّمت وإنْ أصبت في القول وبرزت في الفضل، فإنه زينة العاقل، وحِلْية الفاضل. شاعر[(٢)]: [الكامل]

احفظ لسانك أنْ تقول فتبتلى   إنّ البلاء موكلٌ بالمنطقِ

آخر[(٣)]: [الكامل]

وزِنِ الكلام إذا نطقت فإنّما   يبدي الرجال من الستور المنطقِ

وقالوا: رُبّ كلمة جلبت مقدورًا، وخربت دورًا، وعمّرت قبورًا. شاعر[(٤)]: [الطويل]

إذا المَرْء لم يخزن عليه لسانه   فليس على شيء سواه بخازنِ

آخر[(٥)]: [الكامل]

احفظ لسانك أيّها الإنسان   لا يَلْدَغَنْك إنّه ثُعْبانُ
كَمْ في المقابر مِنْ قتيلِ لسانه   كانت تَخاف لقاءه الأقرانُ

وقالوا: كلام الرجل بيان فَضْله، وتُرْجمان عقله؛ فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإيّاك وما يسخط سلطانك، ويُوحش إخوانك؛ فمن سخط سلطانه تعرّض للمَنِيّة، ومَنْ أوحش إخوانه تبرّأ من الحُرّيّة. شاعر[(٦)]: [الطويل]

يدلّ على جَهْلِ الفتى فَضْل نُطْقه   ونطق أخي العقل الرصين قليلُ
وإنّ لسان المَرْء ما لم يكن له   حصاة على عوراته لذليلُ

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) تقدّم البيت مع تخريجه قبل قليل.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيت لم أجده.
(٥) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٤٠١.
(٦) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وما أحسن عذر من غصّ بالملام على كثرة صمته وقلّة الكلام

حيث قال[١]: [البسيط]

قالوا نراك كثير الصمت قلت لهم ... ما طول صمتي من عيٍّ ولا خرس
الصمت أحمد في الأشياء عاقبة ... وأزيَن الآن لي مِنْ منطق شكس
أأنشر البزّ فيمن ليس يعرفه ... وأنثر الدُّرّ للعميان في الغَلَسِ

ومِنَ الخرافات الموضوعة على ألسنة الحيوانات في مدح الصمت وذمّ الكلام أنه اجتمع برغوث وبعوضة، فقالت البعوضة للبرغوث: إني لأعجب من حالي وحالك أنا أفصح منك لسانًا، وأرجح ميزانًا، وأوضح بيانًا، وأكبر منك شبابًا وأكثر طيرانًا، ولي في بحر العبودية سباحة، وفي ساحته سياحة، ومع هذا كلّه فقد أحاط بي الفضوع، وأحرمني الجوع الهجوع، وأنت على علّاتك في جميع حالاتك، تأكلي وتشبعي، وفي نواعم الأبدان ترتعي؛ قالت: نعم، أنت بين العالم مُطَنْطِنة، وعلى رؤوسهم مُدَنْدنة، وطول لسانك سبب حرمانك؛ وأما أنا، فالتلطّف صناعتي، والصمت بضاعتي، وإنما توصّلت إلى قوّتي بسكوتي.

ومما له في هذا الموضع من النفوس حسن مَوْقع
حفظ الأسرار أن تدال على الأحرار والأنذال

قال الله تعالى حكايةً عن قول يعقوب ليوسف عليهما السلام حين قصّ عليه رُؤياه، فعلم منها بدء أمره ومُنْتهاه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٥]. وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»[٢]. وكان عليه الصّلاة والسلام إذا أراد غزاة ورّى بغيرها[٣].

ومِنْ أمثالهم: صدرك أوسع لسرّك. ويقال: إذا انتهى السرّ مِنَ الجِنان إلى عذبة اللّسان؛ فالإذاعة مُسْتَولية عليه، وعيون الحوادث تنظر شزرًا إليه. وقال

(١) الأبيات للفضل بن الحباب بن محمد الجمحي، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٩٥، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٣.
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٠٣، والمغازي باب ٧٩، ومسلم في التوبة حديث ٥٤.

عمرو بن العاص: الصدور خزائن الأسرار والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها؛ فليحفظ كل امرىء مفتاح سرّه. وقالوا: إذا ضاق صدرك عن نَجْواك فكيف تَسْتكتمه سِواك. وقال بعض الحكماء: سرّك مِنْ دمك، فلا تجرّه في غير أوداجك، فإنك متى تكلّمت به أرَقْته؛ وكما أنه لا خير في آنية لا تُمْسِك ما فيها، فكذلك لا خير في لسان لا يملك سرّه. وقال آخر: كُنْ على سرّك أحرص منك على حقن دمك. وقالوا: سرّك أسيرك، فإن بذلته كنت أسيره. ابن نباتة السّعْديّ(١): [المتقارب]

صُنِ السرّ عن كل مُسْتَخبرٍ وحاذِرْ فما الحزم إلّا الحذرْ
أسيرك سرّك إن صُنْته وأنتَ أسيرٌ له إنْ ظهرْ

آخر(٢): [الوافر]

ولا تُخبر بسرّك بل أمِتْه وصيّر في حشاك له حِجابا
فما أودعت مثل القلب سرًّا ولا أغلقت مثل الصّدر بابا

وقال عمرو بن العاص: ما وضعت سرّي عند أحد وأفشاه، فلمته؛ لأنّي كنت أضْيَق صدرًا منه حين استودعته إيّاه. وقال الشاعر(٣): [الطويل]

إذا ضاق صدر المَرْء عن سرّ نفسه فصدر الذي يُسْتَودع السرّ أضْيقُ
إذا المَرْء أفشى سرّه بلسانه ولامَ عليه غيره فهو أحمقُ

وقال معاوية: الحازم مَنْ كتم سرّه عن صديقه مخافة أن تنتقل صداقته فيذيع سرّه. شاعر(٤): [مجزوء الكامل]

احذر عدوّك مرّةْ واحذر صديقك ألف مرّةْ
فلربّما انقلب الصديـ ـق فكان أعلم بالمضرّةْ

---

(١) البيتان لعليّ بن أبي طالب ولابن سينا في ديوانيهما، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان بلا نسبة في الفاضل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ١٨٠.
(٣) البيتان للعتبي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
ولي صاحبٌ سرّي المكتم عنده مخاريق نيران بليل تُحرقُ
والبيتان أيضًا لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٤) البيتان لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وكان يُقال: الكاتم سره بين إحدى فضيلتين: الظفر بحاجته، أو السلامة من شرّ إذاعته. ويقال: أصْبَر الناس مِنْ صَبر على كتمان سرّه، فلم يُبْده لصديقه. وقال آخر: كتمانك سرّك يعقبك السلامة، وإفشاؤه يعقبك النَّدامة، والصبر على كتمان السرّ أيْسَر من الندامة على إفشائه. إبراهيم بن خفاجة[١]: [الكامل]

لا تودعنّ ولا الجماد سريرة فمن الجوامد ما يشير وينطقُ
وإذا المحكّ أذاع سرّ أخٍ له وهو النضار فمن به يَسْتَوْثقُ

وقال الأحنف: أدنى أخلاق الشريف كتمان سرّه، وأعلى أخلاقه كِتمان ما أُسِرّ إليه. قال الشاعر[٢]: [الطويل]

ولست بمبدٍ للرجال سريرتي ولا أنا عن أسرارهم بسؤولِ
ولا أنا يومًا للحديث سمعته إلى هٰهنا من هٰهنا بنَقُولِ

آخر[٣]: [المتقارب]

تَبُوح بسرّك ضيقًا به وتحسب كل أخٍ يكتمُ
وكتمانك السرّ ممن تخاف ومَنْ لا تخافهم أحزمُ
إذا ذاع سرّك من مُخْبِرٍ فأنت إذا لُمْته ألْوَمُ

وقال كعب بن زهير[٤]: [البسيط]

لا تُفْشِ سرّك إلّا عند ذي ثقةٍ أولًا فأفضل ما استودعت أسرارا
صدرًا رحيبًا وقلبًا واسعًا صمتًا لم تَخْشَ منه لما أودعت إظهارا

وقيل لأبي مسلم الخراساني: بأيِّ شيء أدركت ما أدركت؟ قال: ائْتزرت بالحزم، وارتديت بالكتمان، وحالفت الصَّبر، وساعدني القدر، فأدركت مُرادي، وحُزْت ما في نفسي؛ ثم أنشد[٥]: [البسيط]

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

---

(١) البيتان في ديوان ابن خفاجة، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان لكعب بن سعد الغنوي في الأصمعيات، ص ٦٩.
(٣) الأبيات لبشار بن برد في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٤) البيتان في ديوان كعب بن زهير، وهما بيتان منفردان.
(٥) الأبيات في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة أبي مسلم الخراساني، والبيت الأخير لابن=

ما زلت أسعى عليهم في دمارهم والقوم في غفلةٍ بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتهبوا من نومة لم يَنمها قبلهم أحد
ومن يدع غنمًا في أرضٍ مضيعة ونام عنها تولي رعيها الأسد

وأمّا المزاح وما ورد فيه عمَّن أباحه ومَنْ يُجافيه

فيُرْوى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من مَزَح استُخِفّ به»[1]. وقال آخر: تجنّب شؤم الهزل ونكد المزاح، فإنّهما بابان إذا فُتِحا لم يُغْلقا إلّا بعد عسر، وفحلان إذا ألقحا لم ينتجا غير ضرّ. وقالوا: المزاح يضع قدر الشريف، ويُذْهب هَيْبة الجليل. وقال حكيم لولده: يا بنيّ إيّاك والمُزاح، فإنه يُذْهِب بهاء الوجه، ويَحطّ مِنَ المُروءة. شاعر[2]: [الطويل]

ألا رُبَّ قول قد جرى مِنْ مُمازحٍ فساق إليه الموت في طرفِ الحبلِ
وإنّ مزاح المَرْء في غير حينِهِ دليلٌ على فرط الحماقةِ والجهلِ

آخر[3]: [الطويل]

إيّاكَ إيّاكَ المزاح فإنّه يطمّعُ فيك الطّفل والرجل النّذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ويُورِث بعد العزّ صاحبه ذُلّا

ويُقال: أوْكَد أسباب القطيعة المُزاح، وإن كان لا غنى للنفس عنه، فليكن بمقدار ما يحتاج إليه الطعام من الملح؛ كما قال أبو العباس البستيّ[4]: [الطويل]

أفد طبعك المكدود بالهمّ راحةً براح وعلّله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تُعطي الطعام مِنَ الملح

= الرومي في ديوانه، برواية:
ومن رعى غنمًا في أرضٍ مسبعة ونام عنها تولّى رعيها الأسدُ
ومطلع القصيدة:
حتى علوتهم بالسّيف فانتبهوا من بعد أنْ كانوا قد هبّوا كأن هجدوا

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٧/ ٤٥٥، ٤٦٩، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٨٨.
(٢) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ٢٤٢٢.
(٣) انظر الحاشية السابقة.
(٤) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وقال سعيد بن العاص لولده: اقتصد في مزاحك، فإنّ الإفراط فيه يُذْهب البهاء ويُجزّىء السفهاء. ويقال: المزح أوّله فرح، وآخره ترح. شاعر(١): [الكامل]

امزح بمقدار الطلاقة واجتنب مزحًا تُضاف به إلى سُوء الأدبْ
لا تغضبنّ أحدًا إذا مازحته إنّ المُزاح على مقدّمة الغضبْ

أبو جعفر الطبريّ(٢): [المجتثّ]

لي صاحبٌ ليس يخلو لسانه مِن جراحِ
يُجيد تمزيق عرضي على سبيل المزاحِ

(١) البيتان لابن الشجري، هبة الله بن علي بن محمد، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٢) البيتان للبحتري في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

الباب السابع
في الذكاء

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب
في مدح الفِطَن والأذهان المُعظَّمة مِنْ قدر المُهان

قال ابن الأنباريّ في كتابه الذي سمّاه بالزاهر قولهم: فلان ذكي معناه كامل الفطنة ثاقبها. مِنْ قول العرب: ذكت النار تذكو إذا زاد وقودها، ويقال: مِسْكٌ ذكيٌّ إذا كان طيّب الريح. قال جميل[1]: [البسيط]

صادت فؤادي بعينيها ومبتسم ... كأنه حين أبْدَتْه لنا بَرَدُ
عذبٌ كأنَّ ذكيّ المسك خالطه ... والزّنجبيل وماء المُزْن والبُرْد

فمن انشقَّت كمائم مبانيه عمّا أخفت من زهرات معانيه، فعطفت إليه قلب شانيه بعدما أنِفَ أن يُدانيه سعد بن ضمرة، قالوا: كان كثيرًا ما يُغير على بلاد النُّعمان بن المنذر، وينقص أطرافها حتى عِيلَ صبره، وبدا ضرّه، فبعث إليه النعمان أنّ لك ألف ناقة حمراء على أن تدخل في طاعتي، فوفد عليه، وكان سعد بن ضمرة نحيفًا قصيرًا دميمًا، وكان ملتفًّا بعباءة، فلما رآه النعمان ازدراه، وقال: لأنْ تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه، قال سعد: أبَيْت اللَّعْن إنّ الرّجال لا تُكال بالقفزان، ولا بمسوك يُسْتقى بها من الغدران، وإنما المَرْء بأصغريه قلبه ولسانه، إنْ نطق نطق ببيان، وإن قاتل قاتل بجنان؛ فقال له النعمان: أنت ضمرة بن ضميرة.

(١) البيتان ليسا في ديوان جميل بن معمر، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ونظر عمر بن الخطاب إلى الأحنف وعنده الوفد والأحنف ملتفّ بعباءة، فترك عمر القوم واستنطقه، فتكلّم بكلامه البليغ المصيب، وذهب فيه ذلك المذهب العجيب، فلم يزل عنده في الذّروة العُلْيا إلى أن عد له من الرئاسة على تميم ما كان له ثابتًا إلى أن فارق الدنيا. قال عبد الملك بن عمير: قدم علينا الأحنف الكوفة أصلع الرأس، متراكب الأسنان، أشدق مائل الذّقن، ناتيء الجبهة، جاحظ العينين، خفيف العارضَيْن أحنف، ولكنه كان إذا تكلّم جلّى عن نفسه سائر العيوب.

خرج عثمان رضي الله عنه من داره، فرأى عامر بن عبد قيس على بابه، وقد ألقى رأسه بين ركبتيه، وكان عامر شيخًا دميمًا أسعى فطًا، فأنكره وأنكر مكانه، فقال: يا أعرابي أين ربك؟ قال: بالمِرْصاد، فيقال: إنّ عثمان لم يُفْحمه أحدٌ غيره. ونظر معاوية إلى النحار بن أوْس العدويّ الخطيب النسّابة في عباءة في ناحية من مجلسه، فأنكر مكانه وازدراه، فتبيّن للنحار ذلك في وجهه، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ العباءة لا تكلّمك، إنما يُكلّمك مَنْ فيها، وكمال الرجل آدابه لا ثيابه؛ وأنشد[1]: [الكامل]

إنّي وإن كنت أثوابي ملفقة ... ليست بخزٍّ ولا من نسج كتّانِ
فإنّ في المجد هُماتي وفي لغتي ... فصاحة ولساني غير لحّانِ

وأراد بعض الأعراب مخاطبة إنسان، فازدراه الرجل لرثاثة ثوبه وخسّة حاله، وأبى أن يُكلّمه، فقال: ما لكم يا عبيد الثياب، وأشباه الكلاب، حقَّرتموني لأطماري، ولم تسألوني عن مكنون أخباري؛ ثم أنشد[2]: [الكامل]

المَرْء يُعْجبني وما كلّمته ... قد قال لي هذا اللّبيب اللّهْذمُ
فإذا قدحت زناده ووزنته ... بالنقد زاف كما يزيف الدّرهمُ

ودخل كُثَير بن عبد الرحمٰن، وكان يُلقّب بزبّ الزباب لقصره على عبد الملك بن مروان في أوّل خلافته، فاقتحمته عينه ففهم عنه، فقال كثير: يا أمير

---

(١) البيتان لسويد بن أبي كاهل في الأشباه والنظائر، للخالديين، ص ٦٨٦، ولسويد اليشكري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أبا ضبيعة لا تعجل بسيئةٍ ... إلى ابن عمّك واذكر بإحسانِ

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

المؤمنين كُلٌ عند نفسه واسع الفناء، شامخ البناء، عالي السّناء؛ ثم أنشد للعباس بن مرداس[١]: [الوافر]

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفي أثوابه أسدٌ مضورُ
ويُعْجِبك الطرير فتبتليه   فيخلف ظنّك الرجل الطّريرُ
بغاث الطير أطولها رقابًا   ولم تطل البزاة ولا الصقورُ
خِشاس الطير أكثرها فراخًا   وأمّ الباز مقلاة نزورُ
ضِعاف الأسد أكثرها زئيرًا   وأضرؤها اللّواتي لا تزيرُ
وقد عَظُم البعير بغير لُبٍّ   فلم يستغن بالعظم البعيرُ
يُصرّفه الصغير بكلّ أرض   ويُنْزله على الخسف الجريرُ
ينوّح ثم يضرب بالهراوي   ولا عُرْف لديه ولا نكيرُ
فما عظم الرجال لهم بِزَيْن   ولكن زَيْنهم كرمٌ وخيرُ

فقال عبد الملك: قاتله الله ما أطول لسانه، وأمدّ عنانه، وأجرأ جنانه؛ فقال: إني لأحسبه كما وصف نفسه، وأمر له بصِلةٍ حسنةٍ. وقال أبو عبيد البكري في لآلئه: إنّ كثيرًا كان لا يبلغ طوله ضروع الإبل لقصره، وكان إذا دخل على عبد الملك يقول له حين يراه: طأطىء رأسك لئلا يصيبه السقف، تهكّمًا به؛ وفيه يقول الحرّ بن الشاعر[٢]: [الطويل]

قصيرٌ قميصٌ فاحشٌ عند بيته   يعضّ قرادٌ بإسته وهو قائمُ

وكان الجاحظ واسمه عثمان بن بحر دَمِيم الصورة قبيح الوجه ناتىء العينين، يُحكَى عنه أنّه قال: ما أخجلني أحدٌ قطّ إلّا امرأة أخذت بيدي وحملتني إلى نجار، وقالت له: مثل هذا، ثم تركتني وانصرفت، فبقيت متعجّبًا مِنْ أخذها لي مثالًا، فسألت الصائغ فقال: إنّ هذه المرأة سألتني أن صنع لها مثال شيطان تفزع به ولدها، فقلت لها: إني لم أرَ شيطانًا قطّ حتى أعمل مثاله، وطلبت منها مثالًا، فقالت: أنا آتيك به، فجاءتني بك. وقُرع عليه الباب يومًا، فخرج غلامه فسُئِل

---

(١) الأبيات في ديوان العباس بن مرداس، والبيت الأول هو مطلع القصيدة، وفي الديوان: «أسدٌ مزيرٌ»، بدل: «أسد مضورٌ».

(٢) البيت بلا نسبة في كتاب الحيوان للجاحظ، ٢/ ٢٨٥، ورواية البيت فيه:

يكاد خليلي من تقارب شخصه   يعضُّ القرادُ بإسته وهو قائمُ

عنه، فقال: ها هوذا يكذب على ربّه، قيل له: كيف ذلك؟ قال: نظر في المرآة وجهه فقال: الحمد لله الذي خلقني فأحسن صورتي؛ إلّا أنه كان إذا كتب وشى حلل الطروس بأقلامه، وإذا تكلّم لفظ الدُّرر من منثور كلامه. وفيه يقول أحمد بن سلامة الكتبي يهجوه ويذكر قبحه(١): [الكامل]

لو يمسخ الخنزير مسخًا ثانيًا ... ما كان إلّا دون قُبْح الجاحظِ
وإذا المرأة جَلَتْ عليه وجهه ... لم تَخْلُ مقلته بها من واعظِ

وعلى أثر قبح الصورة يقول بعض الشعراء في جحظة(٢): [السريع]

مَنْ كان مُشتاقًا إلى منكرٍ ... فجحظة أنكر مِنْ منكرِ
لو عذّب الله به ناره ... أطفأها بردًا ولم تزفرِ

وأنشد أعرابيّ(٣): [السريع]

خبَّرْتها أنّي محبٌّ لها ... فأقبلت تضحك مِنْ منطقي
والتفتت نحو فتاة لها ... كارّشا الوسنان في قرطقِ
قالت لها قولي لهذا الفتى ... انظر إلى وجهك ثم اعشقِ

لقي أعرابيّ شيخ قبيح الصورة فتاة حسناء، فعرض عليها نفسه، فأعرضت عنه، وقالت: أمخادع غائل أم ركيك هازل؟ قال: بل لبيبٌ عال، مُحبٌّ مائل، قالت: فما أصنع بك قبيحًا فقيرًا، شيخًا كبيرًا؟ قال: أستمنح لفقري ملوكًا فيزول، وأصبغ شَيْبي حلوكًا فيحول، قال: فقالت: فقبحك إلام يؤول؟ فولّى عنها وهو يقول(٤): [الكامل]

تزهى عليّ بدلّها وشبابها ... وتقول لي يا شيخ أنت مخادعُ
قبحٌ وإفلاسٌ وشَيْب شاسع ... وطمعت فينا أخلفتك مطامعُ
فأجبتها الإفلاس يُذهبه الغِنى ... والشَّيْب يُذهبه الخِضاب اليانعُ

---

(١) البيتان بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ١٦٠.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات لإسماعيل بن معمر المكي القراطيسي، في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٤) الأبيات للعطوي في الموشى، للوشاء، ص ٢٥٥.

قالت فقبحك ليس فيه حيلة والقبح ليس له دواء نافعُ
يا صدقها ما كان أصدق حجّتي لو كان يدفع قُبْح وجهي دافعُ

رجعنا، قال بعضهم: كنت بفناء الكعبة إذ مرّ بنا رجل أصلع أرسح أفحج، كأنّ أنفه بعرة أشدّ سوادًا من إست القدرة، عليه ثوبان قطوبان، فرأيت الناس يهرعون إليه مِنْ كل جانب يطلبون السّبق في السلام عليه، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا سيّد فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح. وصفه آخر، فقال: كان أعور أفطس أشلّ أعرج، ثم عمي بعد ذلك. قال عثمان بن عطاء الخراساني: انطلقت مع أبي نريد هشام بن عبد الملك، فلما قربنا إذا بشيخ على حمار أسود عليه قميص دنس، وجبّة دَنِسة، وقلنسوة لاطيّة دنسة، وركاباه من خشب؛ فضحكت منه وقلت لأبي مَنْ هذا الأعرابيّ؟ قال: اسكت هذا سيّد فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح؛ فلما قَرُب منّا نزل أبي عن بغلته ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام، فما استقرّ بهما الجلوس حتى أذِنَ لهما، فلما خرج أبي قلت له: حدّثني ما كان منكما؟ قال: لمّا قيل لهشام إن عطاء بن أبي رباح بالباب أذن له، فوالله ما دخلت إلّا بسببه، فلمّا رآه هشام قال: مرحبًا مرحبًا هٰهنا هٰهنا، ولا زال يقول له هٰهنا هٰهنا حتى أجلسه معه على سريره ومسّ بركبته ركبته وعنده أشراف الناس يتحدّثون فسكتوا، فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين أهل الله وجيران رسوله تُقْسم عليهم أرزاقهم وعطيّاتهم، قال: يا غلام اكتب لأهل مكّة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنة، ثم قال: هل مِنْ حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نَجْد هم أصل العرب وقادة الإسلام تردّ فيهم فضول صدقاتهم، قال: نعم يا غلام اكتب بأن تردّ فيهم فضول صدقاتهم، هل مِنْ حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يردّون مَنْ ورائكم ويُقاتلون عدوّكم تجري لهم أرزاقًا تدرّها عليهم، فإنهم إنْ هلكوا ضاعت الثغور، قال: نعم يا غلام، اكتب بحَمْل أرزاقهم إليهم، هَلْ مِنْ حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمّتكم لا يجبي صغارهم، ولا يتقنع كبارهم، ولا يكلّفون ما لا يطيقون، فإنّ ما تَجْبونه منهم معونةً لكم على عدوّكم، قال: نعم يا غلام اكتب لأهل الذّمّة بأن لا يُكَلّفوا ما لا يطيقون، هل مِنْ حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم اتّق الله في نفسك، فإنك خُلِقت وحدك، وتموت وحدك، وتُحْشَر وحدك،

وتُحاسب وحدك، ولا والله ما معك ممّن ترى أحد؛ فأكبّ هشام ينكث في الأرض وهو يبكي، فقام عطاء، فلمّا كنّا عند الباب إذا رجل قد تَبِعَه بكيس لا أدري ما فيه دنانير أم دراهم؟ فقال: إنّ أمير المؤمنين أمر لك بهذا، فقال: لا أسألكم عليه أجرًا إن أجري إلّا على ربّ العالمين، فوالله ما شَرِب عنده قطرة ماء.

واكثر ما يوجد الذكاء المُفْرط عند العُمْيان
إنهم عُوِّضوا عن البصر سرعة الحفظ وبِطْء النسيان

كان قتادة بن دعامة أكمه، وكان يقول لقائده سعيد بن أبي عروبة: تجنّب بي الحلق التي فيها الخطا، فإنه ما وصل إلى سمعي شيء فأدّاه إلى قلبي فنسيه. وممّن وُلِد أكمه بشار بن بُرْد، وكان رأس طبقة في الشعراء المولدين، وهم: أشجع السّلمي، ومسلم بن الوليد، وأبو العتاهية، وأبو نوّاس وغيرهم، وقال الشعر وله من العمر إحدى عشرة سنة. ومنهم أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرّي، ومِنْ عجيب حكاياته أن أبا زكريّا التبريزيّ كان يقرأ عليه، فأتاه رسول مِنْ عند أهله من تبريز، فجاء حلقة أبا العلاء فسأل عنه، فأُخبر أنه غائب في بعض شأنه، قال له أبو العلاء: ما تريد به؟ قال: جئت برسالة من عِنْد أهله، قال: هاتها حتى نوصلها إليه، قال: إنّها مُشافهة، قال: فأسْمِعْناها ولا تُسْقِط منها حرفًا، فأوردها عليه، فلما جاء التبريزي أُخبر أنّ رجلًا جاء من تبريز ومعه رسالة مِنْ أهلك، قال: لَيْتكم أخذتموها منه، فإني مشوق لما يَرِد مِنْ أخبارهم، فقيل له: إنه قال إنها مشافهة، فتأسّف لذلك، فلمّا رأى أبو العلاء تأسّفه قال له: لا عليك إني سمعتها منه وحفظتها، ثم أملاها عليه، فجعل التبريزي يضحك مرّة ويبكي مرّة، فسأله أبو العلاء عن ضحكه وبكائه، فقال: تارة تخبرني بما يسرّني فأضحك، وتارة تخبرني بما يُحْزنني فأبكي؛ وعُمِيَ أبو العلاء وله من العمر ثلاث سنين من جدري أصابه، وقال الشعر وله إحدى عشرة سنة. ولبشّار[1]: [الطويل]

وعيّرني الأعداء والعَيْب فيهم ... وليس بعارٍ أن يقال ضرير
إذا أبصر المَرْء المروءة والتُّقى ... فإنّ عمى العينين ليس يَضِيرُ
رأيت العمى أجرًا وذخرًا وعصمةً ... وإني إلى تلك الثلاث فقيرُ

(١) الأبيات في ديوان بشار بن برد، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ولعبد الله بن عباس[١]: [البسيط]

أن يأخذ الله من عينيَّ نورهما ففي فؤادي وقلبي منهما نُورُ
قلبي ذكيٌ وعقلي غير ذي دَخَلٍ وفي فمي صارمٌ بالقول مشهورُ

ولبعضهم يتوجّع[٢]: [الوافر]

عزاكي أيّها العين السّكوب وصبرك أنها نوب تنوبُ
وكنت كريمتي وجمال وجهي وكانت لي بك الدنيا تطيبُ
وإني قد ثكلتك في حياتي وفارقني مِنَ الدنيا الحبيبُ
على الدنيا السلام فما لشيخٍ ضريرُ العين في الدنيا نصيبُ

مَنِ اخترع مِنَ الأَوائل حِكَمَه بثاقب فكره فكانت سببًا لتنويه قدره وإبقاء ذكره

أردشير بن بابك: والمخترعات أربعة: اثنتان في صدر الإسلام، وهما النّرد والشطرنج، واثنتان إسلاميّان، وهما النّحو والعروض. فأمّا النَّرْد، فوضعها أردشير بن بابك، وهو أوّل ملوك الفرس الأخيرة، وأوّل مَنْ وضع النّرد وضربها مثلًا للقضاء والقدر، وأنّ الإنسان ليس له تصرّف في نفسه لا يملك لها نفعًا ولا يدفع عنها ضررًا ولا يقدر أن يجلب لها موتًا ولا حياةً ولا سعدًا ولا شقاءً، بل هو مصرف على حكم القضاء والقدر معرّض طورًا للنفع وطورًا للضرر، وجعلها أيضًا تمثيلًا للحظّ الذي يناله العاجز بما يجري لديه من المُلْك والحرمان الذي يُبْتلى به الحازم بما دار به عليه الفلك وضعها على مثال الدنيا وأهلها، فرتّب الرقعة اثنى عشر بيتًا بعدد شهور السنة والبروج، وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر، والدرج التي هي لكل برج ثلاثين درجة، ومعناهما أنّ كل ثلاثين درجة على سبعة أيّام، ومعناها الكواكب السبعة السيّارة، ثم جعل لها تشبيهًا فوضع...[٣] وشبّهها بالنير، وصوّر فيها أربعة وعشرين بيتًا بعدد ساعات اللّيل والنهار في كل ناحية منها

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات لصالح بن عبد القدّوس في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٣) بياض بالأصل.

اثنا عشر بيتًا، وصيّر لها ثلاثين كلبًا تشبيهًا بأيّام الشهر ودرج الفلك، ثم عمل فُصّين شبّههما بالليل والنهار، وتوصّل إلى إيصال ذلك للعقول بأنْ جعل اللّعب بالفصّين اللذين أنْزلهما منزلة اللّيل والنهار، فجعل لكل فصّ ستّة أوجه؛ كجهات الإنسان فوق وأسفل ووراء وأمام ويمين وشمال، لأنه عدّد له نصف وثلث وسدس، وجعل في كل جهة من الفصّين سبع نقط تحت الستة واحدة، وتحت الخمسة ثنتين، وتحت الأربعة ثلاثة تشبيهًا بعدد الأيام، وعدد الكواكب السيّارة وأنزلهما منزلة القضاء والقدر، ثم جعلها مِخْنة بين رجلين أنزلهما منزلة اللّيل والنهار، يشير إلى أن الإنسان لا يعلم مِنْ أين يأتيه الخير والشرّ؛ فكما أنّ الإنسان لا يعلم مما يَرِد أنّ عليه مِنْ خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ، فكذا لا يعلم ما يعطيانه الفصّان أو يسلبانه، هل يكون غالبًا أو مغلوبًا؟ إذ ليس له من الأمر شيء، وأشار فيها أيضًا إلى تقلّب القدر بالإنسان، فتارة يكون شريفًا، ثم يكون مشروفًا وبالعكس، أو يكون فقيرًا ثم يصير غنيًّا وبالعكس، إلى ما لا نهاية له من تقلّب الأطوار في تغاير الأوطار. ولقد أحسن السريّ الرفاء في وصفها مِنْ أبيات(١): [الكامل]

ومحكّمان على النفوس وربما ... لم يحكما فيهنّ حكمًا عادلا
أخوان قد وسما على متنيهما ... سِمَة تحثّ على البليد غوائلا
يلقاهما المرزوق سعدًا طالعًا ... ويراهما المحروم سعدًا آفلا
فإذا هما اصطحبا على كفّ الفتى ... ضرّاه أو نفعاه نفعًا عاجلا

وأمّا الشطرنج، فإنّ الفرس لمّا افتخرت بوضع النّرد، وكان ملك الروم يومئذ بلهيث، فوضع له رجل من الحكماء يسمّى صصة الشطرنج وضربها مثلًا على أنْ لا قدر، وأنّ الإنسان قادر بسعيه واجتهاده يبلغ المراتب العَلِيّة والخطط السَّنِيّة، وإنْ هو أهملها سارت به من الخمول إلى الحضيض، وأخرجته من رَوْض العيش الأريض، ومما جعله دليلًا على ذلك أنّ البَيْدق ينال بحركته وسَعْيه منزلة الفرزان في الرياسة، وجعلها مصوّرة تماثيل على صورة الناطق والصامت، وجعلها درجات

(١) الأبيات في ديوان السري الرفا، من قصيدة مطلعها:
عندي إذا ما الروض أصبح ذابلا ... تحف أغضّ من الرّياض شمائلا

ومراتب، وجعل الشاة المدبر الرئيس، والفرس والفيل مركوبان له، والفرزان وزيره، والبيادق رعاياه؛ فكما أنّ الواحد من الرّعيّة إذا أعطى الاجتهاد حقّه في تهذيب نفسه وتأديبها كان ذلك عونًا له على أن ينال رتبة الفرزان، فكذلك الفرزان إذا علت هِمّته وتمكّنت قدرته طمحت نفسه إلى نَيْل رتبة الشاة وقتاله، وكذلك ما يليها مِنَ القطع.

ويُقال في سبب وضعها أنّ بعض ملوك الهند كان له ولد يسمّى شاه أخرجه إلى بعض الحروب، فقُتل فيها، فهاب الناس الملك أن يُعْلِموه بموته، فوضع لهم بعض حكمائهم الشطرنج، وبيّن لهم فيها ما خفي عنهم من مكائد الحروب وكيفية ظفر الغالب وخذلان المغلوب، وبيّن فيها التدبير والحزم والاحتياط والمكيدة والاحتراس والتعبية والنجدة والقوّة والجلد والشجاعة والبأس؛ فمن عُدِم شيئًا مِنْ ذلك عَلِمَ موضع تقصيره، ومِنْ أين أتى بسوء تدبيره؛ لأن خطأها لا يُستقال، والعجز فيها مُتلف المُهَج والأموال. واعلم أنّ في ترك الحزم ذهاب المُلْك، وضعف الرأي جالب للعطب والهلك، والتقصير سبب الهزيمة والتّلاف، وعدم المعرفة بالتعبية داعٍ إلى الانكشاف، وأمرهم أن يلعبوا بها بين يديّ الملك، فلما لَعِبَ بها قال الغالبُ للمغلوب: شاه مات، ففطن الملك للمراد، وأمر أن يعزّى بولده ثمرة الفؤاد.

ويقال: إنّ صصة لمّا وضع الشطرنج وعرضها على الملك وأظهر له مكنون سرّها، قال له: اقترح ما تشتهي؟ قال: أن تضع حبّة برّ في البيت الأول، ولا تزال تضعفها حتى تنتهي إلى آخر البيوت، فما بلغ تعطيني؛ فاستخفّ الملك عقله، واحتقر ما طلبه، وقال: كنت أظنّ برجاحة عقلك وتوقّد فكرك أنْ تطلب شيئًا نفيسًا، فقال: أيها الملك إنك لمّا صرفتني إلى التمنّي لم يخطر ببالي غير ذلك، ولا سبيل إلى الرجوع عنه؛ فأنعم له الملك بما سأل، وتقدّم بإحضار الحساب وأمرهم بحساب ذلك، فاعملوا في بلوغ قصده مطايا الأفكار، حتى لاح لهم نجم صدقه فعرفوه بعد الإنكار، فلم يجدوا في بلاد الدنيا من البرّ ما يفي للحكيم بمراده، ولو كانت الرّمال مِنْ أمداده. وذلك أنهم وضعوا حبّة في البيت الأول، وفي الثاني حبّتين، وفي الثالث أربعة، وفي الرابع ثمانية، وفي الخامس ستّة عشر وهكذا، ولولا خشية التطويل لذكرنا تضعيف عددها ونهاية مدها، ولم أهمل ذلك، فإنّي وجدت بعض الحذّاق حصرها بالأعداد الهندية ونظمها في بيت من الشعر،

ذكرت ذلك استحسانًا لوجازته؛ فالبيت:

هـا و اهـهـط وصـغـر بـعـده زجـره	وثــنّ صــغــرا وقــل دذ زود دحــا
٦١٥ ٥٥١ ٠ ٩ ٧ ٠٠٧٣	٧٤٤ ٤٦ ١٨٤

والعـــدد: ٦١٥ ٧ ٠٩٥٥١ ٧٤٤٠٠٧٣ ٦ ١٨٤٤

وقال السريّ: مِنَ الأبيات التي تقدَّم ذكرها في صفة النّرد يصف الشطرنج، وقد أحسن في قوله(١): [الكامل]

وكـتـيـبـتـا زيـج وروم اذكـيـا	حربا يسل بها الذكاء مناصلا
في معرك قسم النزال بقاعه	بين الكماة المعلمين منازلا
لم يسفحا فيه دما وكأنما	رشح الدماء أعاليا وأسافلا
تبدّي لعينك كلما عاينتها	قرنين جالا مقدمًا ومخاتلا
فكأنّ ذا صاح يسير مقوّمًا	وكان ذا نشوان يخطر مائلا
فأعجب لها حربًا تثير إذا التظت	فضل الرجال ولا تثير قساطلا

وقالوا: إن أصل شطرنج شش رنك، ومعناه ستّة ألوان؛ لأن شش عندهم ستة، ورنك لون؛ فكأنهم قالوا: ستّة ألوان، فالشاه لون، والفرزان لون، والفيل لون، والرخ لون، والفرس لون، والبَيْدق لون.

وأمّا ما اخترع في الإسلام، فالنحو والعروض. فأمّا النحو؛ فإنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي ابتكره واخترعه، وقالوا في أصل وضعه له أن أبا الأسود الدُؤلي كان ليلة على سطح بيته وعنده بنت له، فرأت السماء ونجومها وحُسْن تلألؤ أنوارها مع وجود الظلمة، فقالت: يا أبت ما أحسن السماء ـ بضم النون ـ فقال: أيْ بُنيَّة نجومها، وظنّ أنها أرادت أيّ شيء أحسن منها، فقالت: يا أبت إنما أردت التعجّب من حُسْنها، فقال: قولي: ما أحسن السماء، فلما أصبح عدا على عليّ رضي الله عنه وقال: يا أمير المؤمنين حدث في أولادنا ما لم نعرفه، وأخبره بالقصة، فقال: هذا بمخالطة العجم، ثم أمره فاشترى صحفًا وأملى

(١) الأبيات في ديوان السري الرفاء، من قصيدة مطلعها:

عندي إذا ما الروض أصبح ذابلا تُحفٌ أغضّ من الرياض شمائلا

عليه بعد أيام أقسام الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وجملة من باب التعجّب، وقال: انحُ نحو هذا، فكان ذلك أوّل ما أُلّف في النحو، ثم قال: تتبّعه وزِدْ فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أنّ الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، قال: فجمعت منها أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنْ وأنّ وليت ولعلّ وكأنّ، ولم أذكر ولكن؛ فقال لي: لِمَ تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هي منها، فزِدْتُها فيها، ثم جاء بعد أبي الأسود ميمون الأقرن، فزاد على ما ألّفه أبو الأسود، ثم تلاه في ذلك عَنْبسة بن معدان الذي يقال له عنبسة الفيل، فزاد فيه؛ ثم جاء عبد الله بن أبي إسحٰق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء فزادا في ذلك، ثم الخليل بن أحمد وكان عليّ بن حمزة الكسائي رسم في ذلك رسومًا أخذها عنه الكوفيّون، ثم أخذ ذلك سيبويه عن الخليل وكلّ مَنْ جاء بعده، فمن بحر كتابه يغترفون، وبتقدّمه عليهم يعترفون.

وأمّا العروض، فأوّل مَن اخترعه وابتدعه الخليل بن أحمد، وأبوه أوّل مَنْ سُمّي أحمد في الإسلام، وهو أوّل من وضع العروض واستخرج غرائبه واستنبط عجائبه وجعله ميزانًا للشعر يُعْرف به التامّ من الناقص، وصاغ له من التفاعيل ثمانية أجزاء لا يخرج شعرٌ موزون عنها صيّرها له كالمثاقيل، وهي:

فعولن فاعلن مفاعيلن مستفعلن فاعلاتن مفاعلتن متفاعلن مفعولات

وهذه المثاقيل مُركّبة من سبب ووتد؛ فالسبب نوعان: خفيف وثقيل، فالخفيف متحرّك بعده ساكن، نحو: ما وهل؛ والثقيل متحرّكان، نحو: لم وبم، إذا سألت.

والوَتَد نوعان: مجموع ومفروق، فالمجموع متحرّكان بعدهما ساكن، نحو: دعا ورمى وسعى، والمفروق متحركان بينهما ساكن، نحو: كيف، وجعل البيت الشعر مثال بيت الشعر؛ لأنّ البيت مِنَ الشعر لا يقوم إلّا بالأسباب، وهي الإطناب والأوتاد التي تُضرب في الأرض، وتُرْبط فيها الإطناب، فيقوم البيت، وإنما مثل بذلك لأنّ في الشعر حروفًا مضطربة يطرأ عليها الزحاف، فسُمّيت أسبابًا لاضطرابها تشبيهًا بأسباب البيت الشعر، وفيه حروف ثابتة لا يطرأ عليها الزحاف، فسُمّيت أوتادًا لثباتها. وإلى ما قصده الخليل في هذا التمثيل أشار أبو العلاء المعرّي في

قوله(١): [البسيط]

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيتٌ مِنَ الشّعْرِ أو بيت من الشَّعْرِ

وفسّر الناس هذا البيت بأنّ بيت الشعر يحتوي على المعاني كاحتواء بيت الشعر على الصور، وسمّي نصف البيت الأول صدرًا، والنصف الأخير عجزًا، وآخر جزء في الصدر عروضًا، وآخر جزء في العجز ضربًا. وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرًا، وهي: المختلف، والمؤتلف، والمجتلب، والمشتبه والمتّفق.

فالطويل: وهو أصل دائرة المختلف مبنيٌّ على فعولن مفاعيلن ثمانية أجزاء، وسمّي طويلًا لأنه أكثر الشعر عدد حروف، وعدد حروفه سبعة وأربعون حرفًا، وربّما كان مصرعًا، فجاء على ثمانية وأربعين حرفًا.

والمديد: وهو مبنيّ على فاعلاتن فاعلن ثمانية أجزاء، وإنما سُمّي مديدًا لامتداد سببه، فصار سبب في أوّل جزء ابتدائه وسبب في آخره.

والبسيط: وهو مبنيّ على مستفعلن فاعلن ثمانية أجزاء، وإنما سُمّي بسيطًا لانبساط الأسباب في أوّل أجزائه في الدائرة، وهنّ يفككن من دائرة المختلف.

والوافر: وهو أصل دائرة المؤتلف، وهو مبنيٌّ على مفاعلتن مفاعلتن فعول ستّة أجزاء، وسمّي بذلك لأنه استوفى عدد أجزائه في الدائرة، فهو موفور الحركات ناقص الحروف.

والكامل: وهو مبنيّ من متفاعلن متفاعلن ستّة أجزاء، وإنما سمّي بذلك لكمال أجزائه وحركاته وحروفه، ولم ينقص منه شيء كما نقص من الوافر، ومنها أنه جاء على اثنين وأربعين حرفًا منها ثلاثون متحرّكات، فلما كثرت حركاته وزادت على سائر الأجناس سُمّي كاملًا، وهما يفكّان مِنْ دائرة المؤتلف.

والهزج: وهو أصل دائرة المجتلب، وهو مبنيٌّ على مفاعيلن مفاعيلن ستّة أجزاء، وهو مشتقّ من تهزّج الصوت وهو التردّد؛ لأنه يتوالى في آخر كل جزء سببان، فتواليهما هو التهزّج.

---

(١) البيت في ديوان أبي العلاء المعري، من قصيدة مطلعها:

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعلّ بالجرع أعوانًا على السهر

والرّجز: وهو مبنيٌّ على مستفعلن مستفعلن ستّة أجزاء، سمّي بذلك لأنّ في كل جزء منه سببين، فهو سريع لاضطرابه، والرجز هو أن تتحرّك قوائم البعيرة مرّة وتسكن أخرى.

والرّمل: وهو مبنيٌّ على فاعلاتن فاعلاتن ستّة أجزاء، وهو مشتقّ من السرعة في السَّيْر، وهنّ يفككن من دائرة المجتلب.

والسريع: وهو أصل دائرة المشتبه، وهو مبنيٌّ على مستفعلن فاعلاتن[١] ستّة أجزاء، وسمّي بذلك لسرعته على اللّسان.

والمنسرح: وهو مبنيٌّ على مستفعلن مفعولات ستّة أجزاء، سمّي بذلك لانسراحه في سهولته.

والخفيف: كالرمل في السرعة، وإنما غُويِر بينهما في التسمية، وهو مبنيٌّ على فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ستّة أجزاء.

والمضارع: وهو مبنيٌّ على مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن ستّة أجزاء، وسمّي بذلك لمضارعته الهزج، وقيل: المجتثّ، وقيل: المنسرح، وقيل: الخفيف، ولكل قول مِنْ هذه الأقوال حجّة مذكورة في كتب العروض يضيق عنها الوقت ويفوت الغرض المقصود في هذا الكتاب.

والمقتضب: وهو مبنيٌّ على مفعولات مستفعلن ستّة أجزاء، سمّي بذلك لأنه اقتضب من المنسرح، وقيل: مِنَ السريع.

والمجتث: وهو مبنيٌّ على مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن ستّة أجزاء، سمّي بذلك لأنه اجتثّ من الخفيف، كما اقتضب المقتضب من المنسرح، وهنّ يفككن من دائرة المشتبه.

والمتقارب: وهو ربّ دائرة المتفق لا يشركه فيها غيره، وهو مبنيٌّ على فعول ثمانية أجزاء، وسمّي بذلك لتقارب أوتاده من أسبابه؛ لأنه سبب ووتد، ووتد وسبب، فأسبابه كأوتاده، وأوتاده كأسبابه.

---

(١) قوله: على مستفعلن فاعلاتن الخ... صوابه: على مستفعلن مستفعلن مفعولات، الخ... كما هو ظاهر. اهـ.

وزاد الأخفش بحرًا آخر وسمّاه الخبب، وهو مبنيٌّ على فعلن فعلن[١] ثمانية أجزاء، وهو عند الخليل غير مستعمل، ويُسمّى المتدارك، والمخترع، وركض الخيل، وهو والمتقارب يفكّان من دائرة المتّفق.

نـادرة:

حُكِي أنّ الخليل كان له ولد جلف، فدخل عليه يومًا فوجد أباه قد أدخل رأسه في حبّ وهو يقطع بيت شعر، فخرج صارخًا قول: أدركوا أبي فقد جُنّ، فدخل إليه أصحابه وأعلموه بما قال ولده، فأنشد مخاطبًا له[٢]: [الكامل]

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت أجهل ما تقول عدلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنّك جاهل فعذرتكا

ومن بديع فصاحة البلغاء وصنيع بلاغة الفصحاء في وصف ذي الذهن الوقّاد والطبع السليم المنقاد

وصف بعض البلغاء ذكيًا، فقال: فلان يعلم من مفتتح الأمر خاتمته، ومن بديهة عاقبته، فلان له بصيرة حاضرة، ورؤية مستأمره، كلُّ علم في سكناته، وكلّ دهاء في حركاته، فلان له رأي كاهن، وفطنة منجم، متى حصل في عارض مشكل، وأمر معضل، دلّه فؤاده على الهداية، وأمّنه مِنَ الجهالة والغواية، فلان عنده مشكل الأمر مشكول؛ أخذه من قول حبيب[٣]: [الطويل]

يرى الحادث المستعجم الخطب معجمًا

لديه ومشكولًا إذا كان مشكلا

ولعنان جارية الناطفي في جعفر بن يحيىٰ[٤]: [الوافر]

بديهته وفكرته سواء ... إذا اشتبهت على الناس الأُمورُ

وصدر فيه للهمّ اتّساع ... إذا ضاقت من الهمّ الصدورُ

---

(١) قوله: على فعلن، الخ.... الأولى على فاعلن لأنه الأصل. اهـ. مصححه.

(٢) البيتان في ديوان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

لهان علينا أن نقول ونفعلا ... وتذكر بعض الفضل عنك وتفضلا

(٤) البيتان لأشجع السلمي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، وهي: =

وصف رجل عضد الدولة، فقال له: وجهٌ فيه ألف عين، وفمٌ فيه ألف لسان، وصدرٌ فيه ألف قلب. وصف سهل بن هارون رجلًا، فقال: ما رأيت أكثر فهمًا لجليل، ولا أحسن تفهّمًا لدقيقٍ منه. وصف الباخرزي أطروشًا يفهم ما يُكْتب له على ظهر الكفّ، فقال: إذا خطّ له صاحب عرض ببنانه على ظهر كفّه وقف على المراد، ورضي نيابة البنان عن الأنبوب المغموس في المِداد؛ حتى كأنّ لكل شعرة من بدنه واعيًا مُصْغيًا بأذنه، وذاك لعمري كالرقم على بسيط الماء بالخيال، أو كالنقش على قائم الهواء بالهباء، ومِنْ عجيب أمره أنه في الصَّمم بحيث أقول في غيره[1]: [المتقارب]

وأصلخ في منفذي سمعه صمّام من الصمم المطبقِ
فلو نفخ الصور في عصره لأفلت حيًّا ولم يصعقِ

وصف اليوسفي غلامًا بالذكاء، قال: كان يعرف المُراد باللَّحظ كما يعرفه باللفظ، ويُعاين في الناظر ما يجري في الخاطر، أقرب إلى داعيه من يد متعاطيه، حديد الذّهن ثاقب الفهم، يُغْنيك عند الملامة، ولا يحوجك إلى الاستزادة. قال أبو نوّاس يصف نفسه في محبّة مخدومه بالذكاء[2]: [الطويل]

إذا جعل اللّفظ الخفيّ كلامه جعلت له عينيّ لتفهمه أُذنا

وقال الشريف ابن طباطبا يمدح صاحبًا له بهذه الصفة[3]: [الكامل]

لي صاحبٌ لا غاب عني شخصه أبدًا وظلّت ممتعًا بودادِهْ
فَطِنٌ بما يُوحى إليه كأنّما قد نِيط هاجس فكرتي بفؤادِهْ

= بديهته وفكرته سواءٌ إذا ما نابه الخطبُ الكبيرُ
وأحزم ما يكون الدّهر أيًا إذا عيّ المشاور والمشيرُ
وصدر فيه للهمّ اتّساعٌ إذا ضاقت بما تحوي الصدورُ

والبيتان لسلم الخاسر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

بقاء الدّين والدنيا جميعًا إذا بقي الخليفة والوزيرُ

وهما أيضًا لعليّ بن الجهم في ديوانه، في ثلاثة أبيات، هي نفسها عند أشجع السّلمي.

(١) البيتان للباخرزي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيت ليس في ديوان أبي نواس، ولم أجده في المصادر والمراجع التي بين يديّ.
(٣) البيتان للشريف أبو المعمر بن طباطبا العلويّ في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

وكل الناس الأذكياء عيال على زياد ابن أبيه، حُكِي عنه أنه كان يومًا جالسًا في مجلس عمر، فأملى عمر على كاتبه كتابًا سرًا، فكتب الكاتب خلافه، فقال زياد: يا أمير المؤمنين إنه كتب غير ما أمْلَيْته، فتناول عمر الكتاب، فوجد الأمر كما قال زياد، فقال عمر لزياد: مِنْ أين علمت هذا؟ قال: رأيت رجع فيك وحركة قلمه، فلم أرَ بينهما اتّفاقًا.

الفصل الثاني من الباب السابع

في ذكر بداهة الأذكياء البديعة وأجوبتهم المفحمة السريعة

قالوا: البديهة قدرة روحانية في حِلية بشرية، كما أنّ الرُؤية صورة بشرية في حِلية روحانية. ويُقال: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول. ويقال: ميسور الرأي عند البديهة خيرٌ من الإطناب بعد الفكرة؛ فمن أبدع في بديهته من الفضلاء من غير ما سؤال ولا ابتلاء أبو نواس، وذلك أنه اجتمع ندماء الأمين في مجلس أُنس وخلاعة وهو فيهم، فخرج عليهم الأمين في زينته مخمورًا والجواري يحملنه على سرير، فلما رآه أبو نواس قال: إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربّكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فللّه حسن انتزاع هذا الرجل ما أبدعه وأبرعه، وفكره ما أصدعه وأسرعه، لقد جاوز شأو الاختراع في الانتزاع، وتعدّى الغاية وصرف العقول لاستحسان ما أشار إليه بهذه الآية؛ لأن أبا هارون الرشيد وعمّه موسى الهادي، وهو وارثهما.

وصعد سليمان بن عبد الملك يوم جمعة المنبر ـ ويقال: الوليد، وعليه أكثر المؤرخين ـ فسمع صوت ناقوس، فقال: ما هذا؟ قالوا: البيعة يا أمير المؤمنين، فأمر بهدمها، فهُدِمَتْ، فبلغ ذلك ملك الروم، فكتب إليه: إنّ هذه البيعة أقرّها مَنْ كان قبلك، فإن كانوا أصابوا فقد أخطأت، وإن تكن أصبت فقد أخطؤوا؛ فسأل سليمان مِنْ خواص دولته الجواب فأعياهم، قال الفرزدق: عن إذن أمير المؤمنين، قال: قل، قال: يكتب إليه ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩]، فسُرّ ذلك وأمر له بعشرة آلاف درهم. وخطب قتيبة بن مسلم على منبر خراسان عندما قدمها واليًا فسقطت العصا من يده، فتطيّر من ذلك، فقام بعض الأعراب فمسحها وناوله إيّاها، وقال: أيّها الأمير ليس كما ظنّ العدوّ وساء

الصديق، ولكنه كما قال الشاعر[١]: [الطويل]

فألقت عصاها واستقرّ بها النّوى كما قرّ عينًا بالإياب المُسافرُ

فسُرّي عنه ما كان وجده من الغمّ، وأمر له بخمسة آلاف درهم. وخرج طاهر بن الحسين لقتال عليّ بن عيسى بن ماهان وفي كمّه دراهم يفرّقها على الضعفاء، وسها أنها في كمّه فأسبل كمّه فتبدّدت، فتغيّر لذلك وتطيّر منه، فأنشده شاعر كان معه[٢]: [الكامل]

هذا تفرّق جمعهم لا غيره وذهابها منه ذهاب الهمّ
شيءٌ يكون الهمّ نصف حروفه لا خير في إمساكه في الكمّ

ودخل أبو الشمقمق واسمه مروان بن محمد على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وقد قلّده المأمون الموصل، فلمّا دخل الموصل مرّ ببعض الدُّروب، فاندقّ منه اللّواء في بعض أبوابها فتطيّر خالد من ذلك، فقال أبو الشمقمق يسلّيه عن الطِّيرة[٣]: [الكامل]

ما كان مُندقّ اللواء لطيرة تخشى ولا سوء يكون معجّلا
لكنّ هذا الرمح أضعف متنه صغر الولاية فاستقلّ الموصلا

فسُرّي عنه ما كان وجده، وكتب صاحب البريد إلى المأمون ذلك، فزاده ديار ربيعة، فأعطى خالد أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم.

وممن سُئِل من الأذكياء فأجاب وأتت سرعة بديهته بالشيء العجاب

ما يُحكى أنّ المأمون دخل يومًا ديوانه، فمرّ بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه حسنه، فقال: مَن الشاب؟ فقام وقال: الناشىء في دولتك، والمؤمّل لخدمتك، والمتقلّب في نِعْمتك، الحسن بن رجاء؛ فاستحسن كلامه وأمر له بمائة ألف درهم. ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون سلّم، فقال: مَنْ أنت؟ قال: سليل نِعْمتك، وابن دولتك، وغصنٌ مِنْ أغصان دوحتك؛ فأعجبه

---

(١) البيت لمعقر بن حمار البارقي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أمن آل شعثاء الحمول البواكرُ مع الصبح قد زالت بهنّ الأباعرُ
(٢) البيتان بلا نسبة في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٣١٣.
(٣) البيتان في ديوان أبو الشمقمق، وهما بيتان منفردان.

وسأله عن حاجته، فقضاها له. وقال أبو عُبادة البحتري: دخلت يومًا دار الفتح بن خاقان، فوجدت الشعراء في دهليز داره، وبينهم صبيٌّ صغير السنّ قصير القامة، فقلت: ما أنت يا غلام؟ فقال: شاعر، فتبسَّمت عجبًا منه؛ ثم قلت: أجِزْ[1]: [الخفيف]

لَيتَ ما بينَ مَن أُحبّ وبيني

قال: مِنَ البعد أم مِنَ القرب؟ قلت: مِنَ القرب، فقال:

مثل ما بين حاجبي عيني

فقلت: فإن أردناه مِنَ البعد، فقال:

مثل ما بين ملتقى الخافقين

فأخذه بيده وأوصلته إلى الفتح، وأخبرته بما دار بيني وبينه، فعجب منه وأجازه.

لامَ السفاح خالد بن برمك على كثرة عطائه وصِلاته، قال له خالد: لم أرَ شكري يحيط بنِعَم أمير المؤمنين، فاستعنت بألسنة الناس عليها. ومثلها ما حُكِيَ أنّ الواثق قال يومًا لأحمد بن أبي داود وقد ضجر مِنْ كثرة حوائجه: يا أحمد، قد أخْلَيت بيوت الأموال من إفراطك في الطلب للّائذين بك، فقال: يا أمير المؤمنين نتائج شكرها متّصلة بك، وذخائر أجرها مكتوبة لك، وما لي مِنْ ذلك إلّا عشق اتّصال الألسن بخلود المدح فيك، فقال الواثق: والله يا أبا عبد الله ما منعناك ما يزيد في عشقك ويقوّي من همّتك، وأمره أن يجري على عادته في عرض حوائجه.

وكان الفضل بن يحيىٰ يرسل إلى القاسم بن إسحٰق البصري مع جوائزه رقاعًا مختومة، فيردّ الجواب برقاع منشورة، فنقم عليه وكره ذلك منه، فكتب إليه القاسم: رقاعك تشتمل على برّ ورقاعي تشتمل على شكر، فأنت تكتم برّك وأنا أنشر شكري، فكلٌّ منّا فعل ما وجب عليه وندب إليه.

وفد حاجب بن زُرارة على باب كسرى، وكان قد منع تميم ريف العراق، فقال لحاجبه: قل للملك إن بالباب رجلًا مِنَ العرب يريد الوفود عليك والمثول

---

(١) البيت بلا نسبة في المنتحل للثعالبي، ص ٤٥٧.

بين يديك؛ فأعلم الحاجب كسرى بما قال فأذن له، فلما وقف بين يديه قال له: مَنْ أنت؟ قال: سيّد العرب، قال: ألست القائل للحاجب أنك رجل مِنَ العرب؟ قال: نعم، قلت ذلك قبل وصولي إليك ومثولي بين يديك، فأمّا وقد تشرّفت بخدمتك، وحظيت برؤيتك، فقد صرت سيّد العرب؛ فقال كسرى: زِهْ، وأمر أن يُحْشى فمه جواهر ورمى إليه وسادة تكرمةً له، فأخذها ووضعها على رأسه، فتغامز مَنْ كان حاضرًا من المرازبة واستجهل، فقال له كسرى ليس هذا مكانها، إنما هي للجلوس عليها؛ فقال: علمت أيّها الملك ولكني لما رأيت عليها صورتك أجْللتها فوضعتها على أشرف أعضائي ليتشرّف بها؛ فقال كسرى: زِهْ، وأمر أن يسوّر فسُوِّر.

ورُؤِيَ كُثَير راكبًا ومحمد بن علي الباقر رضي الله عنه يمشي معه، فقيل: أتركب ومحمد يمشي؟ فقال: هو أمرني بذلك، فطاعتي له في الركوب أفضل من عصياني له في المشي.

ودخل عديّ بن أرطاة على شريح القاضي، فقال: إني رجل مِنْ أهل الشام، قال: بعيد سحيق، قال: وإنّي قدمت بلدكم هذه، قال: خير مقدم، قال: وإني تزوّجت، قال: بالرّفاء والبنين، قال: وإنّ امرأتي ولدت غلامًا، قال: يهنؤك الفارس، قال: وقد كنت شرطت لها صداقًا، قال: الشرط أملك، قال: وقد أردت الخروج بها إلى بلدي، قال: الرجل أحقّ بأهله، قال: فاقْضِ بيننا، قال: قد فعلت، قال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

ودخل عروة بن الزبير بستانًا لعبد الملك بن مروان وقد فتحت أزهاره، وأيْنعت ثماره، وبسقت أشجاره، واطّردت أنهاره، وتغرّدت أطياره، فقال له عبد الملك: ما أحسن هذا البستان! فقال: أنت أحسن منه، لأنه يؤتى أكله كل عام، وأنت تؤتي أكلك كلّ حين. وقف المنذر على عجوز مِنَ العرب، فقال: مِمّن أنتِ؟ قالت: من طيّء، فقال: ما منع طيأً أن يكون فيهم مثل حاتم؟ قالت: الذي منع الملوك أن يكون فيهم مثلك؛ فعجب من سرعة جوابها وأمر لها بصِلَة. وركب الرّشيد وجعفر بن يحيىٰ يسايره، فرأى الرشيد في طريقه أحمالًا مقبلة، فسأل عنها، فقيل له: هدايا خراسان بعث بها عليّ بن عيسى بن ماهان، وكان الرشيد ولّاه إيّاها بعد الفضل بن يحيىٰ، فقال الرشيد لجعفر: أين كانت هذه أيام أخيك؟ قال: في منازل أصحابها يا أمير المؤمنين.

نـادرة:

ولّى المنصور بن راشد الموصل، وضَمّ إليه ألفًا مِنَ العجم، وقال له: قد ضَمَمْت لك ألف شيطان تذلّ بهم الخلق، فلمّا أتى الموصل عاثوا في البلاد وقطعوا السُّبُل، فانتهى خبرهم إلى المنصور، فكتب إليه: أكفرت النّعمة يا سليمان؟ فأجابه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: الآية ١٠٢]، فقبل المنصور عذره وصرفهم عنه. وقال المتوكّل لأبي العَيْناء: ما أشدّ ما مرّ عليك في ذهاب بصرك؟ قال: فوت رأيتك يا أمير المؤمنين. وحُكِي أن الحجّاج طاف ليلة فظفر برجلين سكرانين، فقال: مَنْ أنتما؟ فقال أحدهما[(١)]: [الطويل]

أنا ابن الذي لا يُنِزل الدّهر قدره ... وإن نزلت يومًا فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجًا إلى ضوء ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ

وسأل الآخر، فقال[(٢)]: [المنسرح]

أنا ابن مَنْ ذُلت الرّقاب له ... ما بين مخزومها وهاشِمِها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة ... يأخذ مِنْ مالها ومِنْ دمِها

فسأل الحجّاج عن أبويهما، فإذا أبو الأوّل باقلاني، وأبو الآخر حجّام، فقال الحجاج: أطلقوهما لأدبهما لا لنسبهما، لئن أخطأ النّسب فما أخطأ الأدب. وقد أخذ بعض الشعراء قول الثاني، فقال يمدح حجّامًا في معرض التهكّم والاستهزاء[(٣)]: [المنسرح]

أبوك حزّ النّجاد عاتقه ... كم من كميّ أدمى ومِنْ بطلِ
يأخذ مِنْ ماله ومِنْ دمه ... لم يمسّ من ثائر على وجلِ

وممّن رشق من الفهماء بسهام المقال فزبرها بعارضة أحدٌ مِنَ النّصال

عروة بن الزبير، وذلك أنه دخل على عبد الملك بن مروان يومًا، فلمّا استقرّ به المجلس تجاذب الجلساء أذيال المذاكرة، وتساقوا أكواب المحاورة، فذكر أخاه

(١) البيتان بلا نسبة في كتاب الأذكياء لابن الجوزي، ص ٢٦٢.
(٢) انظر الحاشية السابقة.
(٣) البيتان لابن كناسة في التشبيهات، لابن أبي عون، ص ٤٤٣.

عبد الله، فقال: كان أبو بكر يفعل كذا وكذا، وكان أبو بكر يقول كذا، فقال له إنسان: تُكْنيه عند أمير المؤمنين لا أُمّ لك، فقال: إليّ يقال لا أُمّ لك، وأنا ابن عجائز الجنّة؛ يعني أنّ صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ جدّته، وعائشة أمّ المؤمنين خالته، وأسماء ذات النطاقين أُمّه.

ودخل شاب على المنصور فسأله عن والده، فقال: مرض والدي رحمه الله يوم كذا، ومات رحمه الله يوم كذا، وترك من المال رحمه الله كذا؛ فانتهره الربيع وقال: بين يدي أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك، فقال الشاب: لا ألومك يا ربيع لأنك لم تعرف حلاوة الآباء؛ فضحك المنصور وخجل الربيع، وذلك أن الربيع كان مولى للمنصور لا يُعْرف له أب. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كان الربيع يدّعي أنه ابن يونس بن أبي فروة، وبنو فروة يدفعون ذلك ويزعمون أنه لقيط وُجِد منبوذًا وكفله يونس، فلما كبر وهبه يونس للمنصور قبل الخلافة، فلما وُلّي الخلافة جعله حاجبًا ثم جعله وزيرًا، وقال ابن عبدوس الجهشياري: هو الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة، واسم أبي فروة كيسان مولى الحارث الحفّار مولى عثمان بن عفان، وكان يونس شاطرًا بالمدينة فعلق أمة قوم بالمدينة ووقع عليها، فجاءت بالربيع فاستُعْبد ولم يكن ليونس مال فيبتاعه، فابتاعه زياد بن عبد الله خال أبي عبد الله السفّاح فأهداه إليه، ولم يزل يخدمه حتى مات، فخدم أبا جعفر بعده، فخصّ به واستولى على أمره لحذاقته ونباهته.

وحُكِيَ أنّ قرشيًا سأل خالد بن صفوان بن الأهتم التميمي عن اسمه فانتسب له، فقال القرشيّ: إنّ اسمك لكذب ما أحد في الدنيا بخالد، وإن أباك لحجر بعيد من الرشح، وإن جدّك لأهتم، والصحيح خير من الأهتم، فقال له خالد: قد سألت فأجبتك، فمن أنت؟ قال: مِنْ قريش، قال: من أيِّ قريش أنت؟ قال: من بني عبد الدّار، قال خالد: لم تصنع شيئًا يا أخا عبد الدار، فمثلك يشتم تميمًا في عزّها وشرفها، وقد هشمتك هاشم وأمتك أُمية وجمحت بك جُمَح، ورضخت رأسك فهر، وخزمت أنفك مخزوم، ولوت بك لؤي، وغلبتك غالب، ونفتك مناف، وزهرت عليك زهرة، وأقصتك قصيّ، فجعلتك عبد دارها، ومنتهى عارها، تفتح إذا دخلوا وتُغلق إذا خرجوا؛ فخرّ الرجل ميتًا من شدّة الغيظ، فكانت امرأته تنادي في أزقّة البصرة صارخة: خالد قتل بعليّ بلسانه، وادّعى أهله على خالد بديته، لأنه مات بسبب كلامه.

وافتخر قومٌ باليمن عند هشام بن عبد الملك، فقال لخالد بن صفوان: أجِبْهم، فقال: ما عسى أن أقول لقوم هم بين ناسج برد، ودابغ جلد، وسائس قرد، ملكتهم امرأة، ودلّ عليهم هدهد، وغرّقتهم فأرة. وقال معاوية لعقيل: ما حال عمّك أبي لهب؟ قال: في النار يفترش عمّتك حمّالة الحطب. ودخل عقيل بعدما كُفّ بصره على معاوية يومًا، فقال له: ما بالكم تُصابون في أبصاركم يا بني هاشم؟ يعرّض به وبعبد الله بن عباس، قال: كما تُصابون أنتم في بصائركم يا بني أميّ. وحُكِي أنّ هند ابنة عتبة بن ربيعة وقفت بالموسم، وقالت: يا بني هاشم أين أبي؟ أين أخي؟ أين عمي؟ أين الذين كانت وجوههم تُضِيء للساري في الليل العاكر، ونسق بمدحهم لسان الذّاكر؛ فقال لها عقيل بن أبي طالب: إذا دخلت النار فخذي على شمالك. ودخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، فلمّا رآه دميمًا حقيرًا، قال له: لعنة الله على رجل أجْرك رسنه، وولاك خيله؛ فقال: يا أمير المؤمنين رأيتني والأمر عني مُدْبر، فلو رأيْتني والأمر عليّ مقبل لاستعظمت مني ما استصغرت، فقال له سليمان: أترى الحجّاج بلغ قعر جهنّم بعد؟ فقال: يا أمير المؤمنين يجيء الحجّاج يوم القيامة بين أبيك وأخيك قابضًا على يمين أبيك وشمال أخيك فضعه حيث شئت. ودخل بعض الشعراء على أمير يريد مدحه، فقال له الأمير: مِمّن أنت؟ قال: مِنْ تميم؟ قال: الذين يقول فيهم الشاعر(١): [الطويل]

تميم بطرق اللُّؤم أهدى مِنَ القطا ولو سلكت سُبُل المكارم ضلّت

أُخذت امرأة في زنًا، فطيف بها على جمل، فقال لها بعض المجانّ: كيف خلفت الحاجّ؟ قالت: بخير، وكانت أمّك في النفر الأوّل؛ وقال رجل للفرزدق: كيف عهدك بالحرّ؟ قال: منذ ماتت عجوزك؛ وقال عبد الله بن طاهر لرجل: ما بال شدقك معوجًا؟ قال: عقوبة عاقبني الله بها لكثرة ثنائي عليك بالباطل. اجتمع أبو حنيفة النعمان بن ثابت وشيطان الطاق إبراهيم بن هارون عند المهديّ بعد موت جعفر بن محمد الصّادق رضي الله عنه وعن آبائه، فقال أبو حنيفة: لشيطان الطاق يعرّض به مات إمامك، فقال له: أبْشِر فإن إمامك من

---

(١) البيت للطرماح في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا إن سلمى عن هوانا تسلّتِ وبتّت قوى ما بيننا وادلّتِ

المُنْظَرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال المهدي: لله درّك لقد أجدت؛ وأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومازح المتوكّل أبا العَيْناء، فقال: هل أبصرت طالبيًّا حسن الوجه؟ فقال: يا أمير المؤمنين وهل يُسأل أعمى عن مثل هذا؟ قال: إنما سألتك عمّا سلف إذ كنت بصيرًا، قال: نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتًى ما رأيت أجمل منه ولا ألطف شمائل، قال المتوكّل: نجده كان مؤاجرًا، ونجدك كنت قوّادًا عليه؛ قال أبو العَيْناء: وتفرّغت لهذا يا أمير المؤمنين، أتراني كنت أدع مواليّ وأقود على الغرباء؟ قال: اسكت يا مأبون، قال: مولى القوم منهم، قال المتوكّل: أردت أن أشتفي منهم، فاشتفى لهم منّي. وقال رجل لمغنيّة: أشتهي أن أقتلك، قالت: ولِمَ؟ قال: لأنك زانية، قالت: فكلّ زانية تُقْتل؟ قال: نعم، قالت: فابدأ بِمَنْ تَعُول.

لقي خالد بن صفوان الفرزدق، وكان كثيرًا ما يُداعبه، وكان الفرزدق دميمًا، فقال له: أبا فراس، ما أنت بالذي لمّا رأيته أكبرته وقطّعْنَ أيديهنّ، فقال الفرزدق: ولا أنت أبا صفوان بالذي قالت الفتاة لأبيها في حقّه: يا أبت استأجره إنّ خير مَنْ استأجرت القويّ الأمين.

رأى أبو نواس غلامًا جميلًا يمشي في بعض السّكك، فقال له: ما تصنع الحور بين الدُّور؟ فقال الصبيّ: ما يصنع الشيطان بين الحيطان. وحُبِس عمرو بن العاص عن جنده العطاء، فقام إليه رجل حميري، وقال: أصلح الله الأمير إذا لم تعطنا شيئًا فاتّخذ جندًا مِنْ حجارة لا يأكلون ولا يشربون، فقال له عمرو: اخسأ يا كلب، فقال الحميري: إن كنتُ كما ذكرت، فأنت إذن أمير الكلاب.

وممن تهكّم في خطابه واعتمد الهزل في جوابه

ما حُكِي أنّ خالد بن الوليد لمّا قدم اليمامة نزل عسكره على قصرٍ من قصور الحِيرة يقال له قصر بني بقيلة، فسألهم أن يبعثوا له رجلًا مِنْ عُقَلائهم وذوي أنسابهم، فبعثوا إليه عبد المسيح بن بقيلة، فأقبل يدبّ في مَشْيه، فقال خالد: بعثوا إلينا شيخًا لا يفهم شيئًا؛ فلمّا وصل إليه، قال: أنْعِمْ صباحًا، فقال خالد إنّ الله أكرمنا بتحيّة خير من هذه، ثم قال له: أين أقصى أثرك؟ قال: ظهر أبي، فقال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أُمّي، قال: علامَ أنت؟ قال: على الأرض، قال: فِيمَ أنت؟ قال: في ثيابي، فقال له: تعقل؟ قال: نعم وأقيّد، قال: ابن كم أنت؟

قال: ابن رجل وامرأة، قال: كم أتى عليك؟ قال لو أتى عليّ شيء لقتلني، قال: كم سنك؟ قال: ستّ وثلاثون، قال خالد: ما رأيت كاليوم أسألك عن شيء وتجيبني عن غيره، قال: ما أجبتك إلّا عمّا سألت، قال: كم عمرك؟ قال: ثلاثمائة وخمسون سنة؛ فجعل لا يسأله عن شيء إلّا أجابه.

وقال الحجّاج لرجل من الخوارج: أجَمَعْت القرآن؟ قال: ما كان مفرّقًا فأجمعه، قال: أفتحفظه؟ قال: ما خشيت فراره حتى أحفظه، قال: ما تقول في أمير المؤمنين، قال: لعنه الله ولعنك معه، قال: إنك مقتول فكيف تَلْقى الله؟ قال: ألقاه بعملي وتَلْقاه بدمي. وكان المنصور قد ألزم الناس بلبس قلانس طِوال، وأن يطيلوا حمائل سيوفهم، وأن يكتبوا عليها: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٧]، وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة، وفي هذه السنة وفد الشافعيّ رضي الله عنه، فدخل عليه أبو دُلامة واسمه زَيْد بن الجون في هذا الزيّ، فقال له: كيف أنت يا أبا دُلامة؟ قال: كيف حال مَنْ صار وجهه في وسطه، وسيفه في إسته، ونبذ كتاب الله وراء ظهره؛ فضحك منه وأمر بتغيير ذلك الزيّ. وماتت حمادة بنت عيسى عمّة المنصور، فخرج في جنازتها، فرأى أبا دُلامة واقفًا على شفير قبرها، فقال: ما أعددت لهذه الحفرة يا أبا دلامة؟ قال: عمّة أمير المؤمنين يُؤتى بها الساعة فتُدفن فيها؛ فغلب المنصور الضحك حتى ستر وجهه بطرف ردائه حياءً من الناس. قال فتى لأبيه: زوّجني، قال: أوَ تُحْسن أن تعمل؟ قال نعم، أقيم أيري وأسدّد طعني وألصق عانتي وأشدّ ضمي، فقالت أمّه لأبيه: تعلّم أسحن الله عينك من ابني فديته. عرض رجل يقال له أبو البقر، وكان ظريفًا مطبوعًا ماجنًا على موسى بن عبد الملك، فقال: والله ما أعرف هذا؟ فقال: والله إنك لأعرف به من الترك بالبوم، والغُزاة بالرّوم، والعرب بالشيح والقيصوم، ولكنك ضجرت ضجر المُحبّ مِنَ الرّقيب؛ فقال: أنت أبو البقر؟ قال: أنا أبو القوم الذين بين يديك؛ فضحك منه وقضى حاجته. وتعرّض أبو العير للمتوكّل والمتوكّل مشرف من قصره الجعفري، وقد جعل في رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خفًا، وجعل سراويله قميصًا، وقميصه سراويل؛ فقال المتوكّل: عليّ بهذه المُثْلة، فلما مَثُل بين يديه قال له: أنت شارب؟ قال: لا بل عنفقة يا أمير المؤمنين، قال: إني أضع رجلك في الأدهم وأنفيك إلى فارس، قال: ضع رجلي في الأشهب، وانفني إلى راجل، قال: أتراني في قتلك مأثوم؟ قال: لا بل ماء بصل يا أمير المؤمنين؛ فضحك منه ووصله.

وممّن لِيم على قبيح فعاله فسدّده بمغالطات مقاله

ما ذُكِر أنّ رجلًا كان له أرض إلى جانب أرض لرجل آخر، فكان الرجل يضمّ كل سنة قطعة منها إلى أرضه، فقال له يومًا: ما هذا النقصان في أرضي والزيادة في رضك؟ قال: ذلك فَضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء، قال: فمِنْ أين أتيت النقص؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ١٠١]. وسُئِل بعض الوعّاظ: لِمَ لَمْ تنصرف أشياء؟ فلم يفهم ما قيل له، فقال لسائله: يا هذا اقْتَفِ آثار المُهْتدين، ولا تسأل سؤال المُلْحدين، أما سمعت قول من يُحْيي الموتى ويميت الأحياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠١]، لقد ارتكبت بمخالفتك ذنبًا عظيمًا، فاستغفر الله إنّ الله كان غفورًا رحيمًا. وقرأ قارىء: في روضة تخبزون[1]، فقال: ماجن خشكارًا أم حواري، فقال: ما أرادوا ففيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين. وقال يحيىٰ بن أكثم لشيخ مِنْ أهل البصرة: بمَنْ اقتديت في تحليل المتعة؟ قال: بعمر بن الخطّاب، قال يحيىٰ: كيف هذا، وعمر كان أشدّ الناس فيها؛ لأنّ الخبر الصحيح أتى عنه أنه صعد المنبر، فقال: الله ورسوله أحلّ لكم متعتين وإني محرّمهما عليكم وأُعاقب مَنْ فعلهما، قال: فنحن نقبل شهادته ولا نقبل تحريمه.

وحُكِيَ أنّ الفضل بن الربيع قال: كنت أقرأ كتابًا ورد عليّ وإلي جانبي رجل منيّ ينظر فيه، فقلت له: ما تصنع ويحك، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نظر في كتاب أخيه المؤمن بغير إذنه، فكأنّما تطلّع في النار»[2]، ولنا أشياخ تقدّمونا فأردت أعرف أين مكانهم منها؛ فشغلني الضحك منه عن الإنكار عليه. ولمّا قتل الحجّاج بن يوسف عبد الله بن الزبير ارتجّت مكّة بالبكاء، فأمر الحجّاج الناس أن يجتمعوا إلى المسجد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أهل مكّة بلغني بكاؤكم على ابن الزبير، وكان من أحبار هذه أُمّة حتى رَغِب في الخلافة، ونازع أهلها فيها، فخلع طاعة الله واستكنّ بحرم الله، ولو كان شيئًا مانعًا للعُصاة لمنعت آدم عليه السلام حرمة الجنّة؛ لأن الله خلقه بيده ونفخ فيه من

(١) أي جعل على الحاء نقطة وعلى الراء نقطة .اهـ.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود في الدعاء، باب ١؛ والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٧٠، وابن حجر في فتح الباري ١١/ ٤٧.

روحه، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنّته، فلما أخطأ أخرجه من الجنّة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزُّبير والجنّة أكبر حُرْمة مِنَ الكعبة.

وجلس نحويّ إلى جانب منبر واعظ، فلحن الواعظ، فقال له النحويّ: أخطأت يا لحنة، فقال الواعظ بديهًا: أيّها المعرب في أقواله، اللّاحن في أفعاله، ما لي أراك تائهًا منكرًا، أكلّ ذلك لأنك رفعت ونصبت، وخفضت وجزمت، هلّا رفعت إلى الله يديك في جميع الحاجات، ونصبت بين عينيك ذكر الممات، وخفضت نفسك عن الشهوات، وجزمتها عن اتّباع المحرمات، أوَ ما علمت أنه لا يقال يوم القيامة ألا كنت فصيحًا معربًا، وإنما يقال لك: لِمَ كنت عاصيًا مذنبًا، فلو كان الأمر كما زعمت لخوطب كما حكمت، لكان هارون أحقّ بالرسالة من موسى؛ إذ قال الله تعالى إخبارًا عنه: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القَصَص: الآية ٣٤]، فجعل الرسالة في موسى لفصاحة تبيانه، لا لفصاحة لسانه، فالفصاحة فصاحة الجِنان، لا فصاحة اللّسان؛ ثم أنشد[(١)]: [المنسرح]

مـجـازف فـي الـفِـعـال ذو زلـل ... حـتـى إذا جـاء قـولـه وزنَـهْ
قـال قـد أعـجـبـتـه لـفـظـتـه ... تـيـهًا وعـجـبًا أخطأت يا لـحنَهْ
فـقـلـت أخـطـأ الـذي يـقـوم غـدًا ... ولا يـرى فـي كـتـابـه حـسـنَـهْ

ومِنْ أظرف ما قيل[(٢)]: [السريع]

يـاه عـلـى الـنـاس بـإعـرابـه ... أي فـاحـذروني أنـنـي مـلـسـنُ
إن كـان فـي أقـوالـه مـعـربًـا ... فـإنـه فـي فـعـلـه يـلـحـنُ

نظر رجل إلى مخنّث ينتف لحيته فعنّفه، فقال له: أتحبّ أن يكون في إستك؟ قال: لا، فقال: شيء لا تحبّه أن يكون في إستك كيف أحبّ أن يكون في وجهي. وقيل لمخنّث: لِمَ تنتف لحيتك؟ فقال لسائله: وأنت أيضًا لِمَ لا تنتفها. وسمع بعضهم قارئًا يقرأ: الأكراد أشدّ كفرًا ونفاقًا، فقال له: ويحك إنما هي الأعراب، فقال: كلّهم يقطعون الطريق عليهم لعنة الله وسخطه.

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان لم أجدهما.

الفصل الثالث من الباب السابع

فيمن سبق بذكائه وفِطْنته إلى ورود حياض منيّته

ينبغي لنا أن نذكر مقدّمة تنتج عنها حقيقة ما ترجمنا عليه، وساقنا الغرض إليه، وهي أنّ الإنسان إذا كان ذا فكرٍ ثاقب، وقريحة وقّادة، ربما تشكل له فيها خيالات وهميّة، وأمور حدسيّة، تؤيّدها إصابات اتّفاقية، خارقات للعوائد الفعلية، كالحدقة إذا زاد شعاع باصرها عن حدّ الاعتدال ربما أدركت من المرئيّات ما لا يمكن العبارة عنه، فكان كالنقص والاختلال، وكذلك السمع أيضًا من شدّة حادّة الحاسّة ربما عرض له طنين لكثرة ما يعى من السمعيّات؛ كما قلنا في إدراك حدّة البصر من المرئيّات، فتقرطس سهام تلك الخيالات الفكريّة أعراض الأقدار، ولا يعلم صاحبها أنّ الله أجراها بإرادته شريكي عنان عبرة لأولى البصائر والأبصار، فمن لم يجعل الله له نورًا قادَتْه فرعنة طبعه إلى القول والعناد، وحسّنت له أن يتّصف بغير صِفات العباد، أو يقول إنّ السعادة إذا كانت مُناطة بأفعال الإنسان في حركاته وسَكَناته، مساعدة له في سائر حالاته، حتى أنه إذا باشر متعسّرًا تيسّر أو صعبًا هان أو شديدًا لان، ربما سوّلت له خيالات شيطانية أنّ تلك الأفعال انفعلت بقدرته لا بالقدرة الإلـهيّة، فتخرج النفس بدعاويها عن صفاتها البشرية وأطوارها الطينيّة، كما فعل النمروذ وفرعون ومَنْ تابعهما بتخيّلاتهم الفاسدة مِنْ أصحاب المقالات، وأرباب المحالات، وكلّ منهم عَبَد صنم هواه، فأضلّه وأغواه ورقاه بدعواه أصعب مرتقى، فهوى به إلى أسفل دركات الشقا.

فمنهم ممّن نازع الله رداءه، فأشمت به مخالفيه وأعدائه، المقنع الخراساني واسمه عطاء، وكان أعور قصارًا مِنْ أهل مَرْو، وكان لا يَدَع القناع عن وجهه لئلّا يرى قبحه، وكان يُعْرف بسرعة السِّحر والنيرنجيات والهندسة، وكان أصل معتقده الحلول والتناسخ؛ فادّعى الربوبية في قومه فتابعوه وقالوا بقوله، وأسقط عمّن تبعه الصلاة والزكاة والصوم والحجّ.

فمن مفصل أباطيله أنه زعم أنّ الله تعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا حلّ في آدم، ثم مِنْ آدم في نوح، ثم إلى صورة بعد صورة مِنْ صُوَر الأنبياء والحكماء حتى وصل إلى صورة أبي مسلم الخراساني، فحلّ فيها، ثم منه إليه فعبده قومه وقاتلوا دونه، واتخذ وجهًا من ذهب لئلّا يُرَى قبح وجهه فلا يُعْبَد،

ولهذا سُمّي المقنّع؛ وكان ظهوره في خلافة المهديّ، وحميد بن قحطبة والي خراسان يومئذ، واشتدّت شوكته ودامت فتنتة أربع عشرة سنة، وكانت بما وراء النهر بنواحي الصغد وإيلاق وما داناها من بلاد التّرك، ولمّا تمادى أمره أنفذ إليه المهديّ عسكرًا فقاتله، فكانت الحرب بينه وبين جموعه سجالًا، فلمّا أحسّ بالغَلَبة صنع له أخدودًا من نار وألقى نفسه فيه، وقيل: أمر أن يُغْلى له سكّر وقطران ثم ألقى نفسه فيه فذاب، ولم يبق له أثر، فازداد أصحابه بذلك ضلالًا، وقالوا: قد رُفِع إلى السماء، وذلك في سنة ستين ومائة من الهجرة.

وممّن كان يقول بالحلول وأجمع معاصريه على ضلالة ما يقول حسين الحلّاج، وهو الحسين بن منصور ويُكْنى أبا محمد وأبا عبد الله وأبا مسعود وأبا مغيث، وكان ظهوره في سنة إحدى وثلاثمائة في خلافة المقتدر؛ فممّا أورده المؤرّخون الثقاة من كلامه المُنتقد عليه قوله: أنا الحقّ، وقوله: ما في الجبة إلّا الله، وقوله أيضًا[1]: [السريع]

سبحان مَنْ أظهر ناسوته   سرّ سنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا متحجّبًا ظاهرًا   في صورة الآكل والشاربِ

ومِنْ كلامه لِمَن تابعه: مَنْ عذّب نفسه في الطاعة وصبر عن اللذّة والشهوة وصفا حتى لا يبقى فيه شيء من البشريّة حلّ فيه روح الإلـٰه كما حلّ في عيسى عليه السلام، ولا يريد إذ ذاك شيئًا إلّا كان كما أراده، ويكون جملة فعله فعل الله؛ وكان يُظْهر أنه سنّيّ لمن كان مِنْ أهل السُّنّة، وشيعيّ لمن كان مِنْ أهل الشّيعة، ومعتزليّ لمن كان يعتقد الاعتزال؛ وكان مع ذلك شعبذيًا يستعمل المخاريق حتى استهوى به مَنْ لا تحصيل عنده، ثم ادّعى الربوبية وقال بالحلول وعَظُم افتراؤه على الله، وكان يدّعي أنه المغرق لقوم نوح، والمُهْلك لعادٍ وثمود، وكان لا يُحْسن من القرآن شيئًا، ولا مِنَ الحديث ولا مِنَ الفقه ولا مِنَ الشعر شيئًا، وكان عنوان كتبه إلى أصحابه من الهو هو ربّ الأرباب إلى عبده فلان، وكانوا يكتبون إليه يا ذات الذّات، يا منتهى غاية الغايات، نشهد أنك مصوّر فيما شئت من الصور، وإنك لتتصوّر في صورة الحسين بن منصور الحلّاج، ونحن نستجير بك

---

(١) البيتان في ديوان الحلاج، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

حتى لقد عاينه خلقه   كلحظة الحاجب بالحاجبِ

ونرجو رحمتك يا علّام الغيوب، فاتّصل خبره بعليّ بن عيسى الوزير، فأحضره وأحضر له الفقهاء فسألوه فلم يجدوه يعرف شيئًا، وأسقط في كلامه فأمر به فضُرِب وصُلِب حيًا في الجانب الشرقي ثم في الجانب الغربي ليراه الناس، ثم حُبِس في دار الخلافة مدّة ثم أُطلق ثم ظهر في سنة تسع وثلاثين بعد أن دخل الهند وما وراء النهر وبلاد تركستان وخراسان وسجستان وكرمان وفارس وبلاد الجبل والعراق، وكان كثير التلوّن له في كل بلد اسم وكُنْية ولقب، يلبس تارة المسوح، وتارة الدرّاعة، وتارة الثياب المصبغة، وتارة الفوطة والمرقعة، وتارة العباءة، وأشكل حاله على الناس فقائل: ساحر، وقائل: مشعبذ، ومنهم من يثبت له الكرامات، وذلك لما يظهر عنه من خوارق العادات، فلما ظهر في المرة الثانية اختدع جماعة من أصحاب المقتدر، وكان وزيره يومئذ أحمد بن العباس فعرض حاله على الفقهاء، فأفتى بقتله خمسة وثمانون بفتاوى وافقت رأي المقتدر، وممّن أفتى بقتله القاضي أبو عمر، ومحمد بن يوسف المالكي، وأبو العباس أحمد بن شريح الشافعي، وأبو بكر بن فورك، وداود الظاهري، فأمر به فضُرِب مائة سوط وقُطّعت أطرافه وصُلِب حيًا، ثم ضرب عنقه من الغد ولُفّ في ردائه وأُحرق بالنفط وذرى رماده في دجلة، فلما فعل به ذلك جعل أصحابه يعدون نفوسهم برجوعه بعد أربعين يومًا، وادّعى بعض أصحابه أنه لم يُقتل لم يُصْلب، وإنما أُلقي شبهه حالة القتل والصلب كعيسى عليه الصّلاة والسلام.

وقد حمل الغزالي إطلاقاته التي تنبو عنها مسامع العقلاء وترفضها مسامع العلماء حملًا حسنًا وتأوّلها تأويلًا بديعًا، وقال: هذا من فرط المحبة والوجد، ذكره في كتابه المسمّى مشكاة الأنوار، والله تعالى عالم الإعلان من أمره والأسرار، وكان وقتله في يوم السبت[١] لثلاث بقين من ذي القعدة[٢] الحرام سنة تسع وثلاثمائة.

•

وظهر في أيام الراضي بالله عليّ بن محمد السلمغاني المعروف بابن أبي القراقر، وكان غاليًا في التشيّع يقول بالتناسخ والحلول، وكان ممّن وافقه وخلع ربقة الإسلام ابن أبي عوانة الكاتب، وابن الفرات وابنه الحسن، والحسن بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب، فوشى بهم إلى الراضي فأحضرهم، وكان

---

(١) في نسخة: الثلاثاء. (٢) في نسخة: الحجة.

الحسن بالرقّة فسألهم عمّا رموا به فأنكروه، فأمر أن يحمل ما في بيت القراقر مِنَ الأوراق فوجدوا خطّ الحسن وابن أبي عوانة يخاطبانه بالإلـٰهيّة، فأمر الراضي ابن أبي عوانة أن يصفع ابن أبي القراقر، فلمّا نهض لذلك أظهر رعشة في يده ودنا إلى رأسه فقبّلها، وقال: أستغفرك يا إلـٰهي وخالقي ورازقي، فقال الراضي لابن أبي القراقر: أليس قد أنكرت ما نُسِب إليك من ادّعائك الإلـٰهيّة؟ فقال: والله ما أمرته بذلك، فأمر الراضي بهما فصُلِبا حيّيْن أيّامًا وأُحرقا وبعث إلى الحسن مَنْ قتله بالرقّة، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ومنهم من ارتقى بادّعائه النبوّة مرتقًى صعبًا
فصير جسمه للطير مرعى وللهوام نهبًا

أوّل مَن ارتكب هذا المحظور، وامتطى فيه صهوة الغرور بعدما نسخ نور صبح الرسالة ظلام ليل الضلالة مُسَيْلمة، وهو مُسَيْلمة بن حبيب بن ثمامة بن أثال بن حبيب بن حنيفة بن عجل، وكان صاحب نيرنجيات، وهو أوّل مَنْ أدخل البيضة في القارورة. وسجاح، وهي سجاح ابنة الحارث من بني يربوع تنبّأت وزعمت أنّ الوحي يأتيها وتابعها كثير من العرب ورؤساء الجزيرة. قال ابن أبي الزلّال في كتاب أنواع الأسجاع: كان من حديث سجاح اليربوعيّة بنت سويد بن خلف بن أُسامة بن العنبر بن يربوع أنه لما قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه تنبّأت سجاح وخرجت من تغلب، فتبعها منهم ناس كثير ومن النمر بن قاسط وإياد، وسارت بهم إلى بلاد بني تميم، فقالت: الإمرة منكم والملك ملككم وقد بُعِثْت نبيّة، فقالوا لها: مُرينا بأمرك، فقالت: إنّ ربّ السّحاب والتراب، يأمركم أن توجّهوا الركاب، وتستعدّوا للذهاب حتى تُغِيروا على الرّباب، فليس دونهم حجاب، فسارت بنو حنظلة إلى بني ضبّة، وهم من الرباب، وسارت سجاح ومعها بنو تغلب والنمر وإياد إلى حفير تميم، ولما بلغها حديث مُسَيْلمة بن ثمامة، قالت لهم: عليكم باليمامة، زفّوا زفيف حمامة، فإنها دار ثمامة، نلقى مسيلمة بن ثمامة، فإن كان نبيًا ففي النبيّ علامة، وإن كان كذّابًا فلقومه النّدامة، فإنها عِبْرة مُدامة لا يلحقكم بعدها ملامة؛ فخرجوا معها وتبعها عطارد بن حاجب، وعمرو بن الأهتم، والأقرع بن حابس، وشبيب بن ربعي وغيرهم من سادات العرب حتى نزلوا بالصمان، فلما بلغ مُسَيْلمة مسيرها إليه بمن جاء معها خافها

وهابها وأهدى لها ثم أرسل إليها يَسْتأمنها على نفسه، فأمَّنَتْه وأذنته في القدوم عليها، فجاء إليها وافدًا في أربعين من بني حنيفة، وكانت راسخة في النصرانية، فقال مُسَيْلمة لأصحابه: اضربوا لها قبّة وجمّروها لعلها تذكر الباه، ففعلوا وأرصدوا حول القبّة أناسًا منهم للحراسة، فلما دخلت عليه حدَّثته وحادثها، وقالت: ما أُوحي إليك؟ قال: أوحي إليّ: ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى، قالت: ثم ماذا؟ قال: أوحي إليّ أنّ الله خلق النساء أفواجًا وجعل الرجال لهنّ أزواجًا، فنولج فيهنّ غراميلنا إيلاجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سخالًا نتاجًا، قالت: أشهد أنك نبيّ، قال: هل لك أن أتزوّجك فأذلّ بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال[1]: [الهزج]

ألا قومي إلى النَّيْك ... فقد هُيِّىء لك المضجعْ
فإن شئت ففي البيت ... وإن شئت ففي المخدعْ
وإن شئت سلقناك ... وإن شئت على أربعْ
وإن شئت بثلثيه ... وإن شئت به أجمعْ

قالت: به أجمع، فهو للشمل أجمع، صلّى الله عليك؛ قال: كذلك أُوحِي إليّ، فأقامت عنده قليلًا ثم انصرفت إلى قومها، فقالوا لها: ما عندك؟ قالت: وجدته على حقّ فتبعته وتزوّجته، قالوا: فهل أصدقك شيئًا؟ قالت: لا، قالوا: ارجعي إليه فقبيح بمثلك أن ينكح بغير صداق، فرجعت إليه فلمّا رآها قال لها: ما لك؟ قالت: أصدقني صداقًا؟ قال: مَنْ مُؤذنك؟ قالت: شبيب بن ربعي الرباحي، قال: عليّ به؛ فلما جاء قال: قد وضعت عنكم الصلاة الغداة وصلاة العتمة، وجعلت ذلك صداقها، فنادِ في أصحابك أن مُسَيْلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة؛ فكان عامّة بني تميم لا يصلّونهما. وكان مما شرع لهم: مَنْ أصاب ولدًا من امرأة لا يعود يطؤها إلّا أن يموت الولد، وحرّم النساء على من ولد له ولد ذكر. وفيه وفي سجاح يقول قيس بن عاصم المنقريّ[2]: [البسيط]

أضْحَتْ نبيّتنا أنثى يُطاف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

---

(١) الأبيات في مجمع الأمثال، للميداني. في المثل: «أزنى من سجاح».
(٢) الأبيات في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٦٦٧.

فلعنة الله والأقوام كلّهم | على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مُسَيْلمة الكذّاب لا سقيت | أصداؤه ماء مُزْن حيثما كانا

ولما تبعته العرب وارتدّت بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى اليمامة، فقاتل بني حنيفة واستشهد خلق كثير من المهاجرين والأنصار، وانهزم مسيلمة ومَنْ بَقِي معه فأدركه وحشيّ بن حرب فقتله، وأسلمت سجاح فيما بعد وحَسُن إسلامها، ووحشيّ هذا هو الذي قتل حمزة بن عبد المطلب يوم أُحد، ووحشيّ يومئذ كافر، وقال عند قتله لمُسَيْلمة: يا معشر العرب إن كنتُ قتلت بهذه الحربة أحبّ الخلق إلى رسول الله ﷺ، فقد قتلت بها اليوم أبغض الخلق إلى رسول الله، فهذه بتلك. وكان خروجه ـ لعنه الله ـ آخر سنة عشر من سنيّ الهجرة قبل حجّة الوداع، وكتب إلى رسول الله ﷺ: سلامٌ عليك، أمّا بعد؛ فإني قد أُشركت في الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكنّ قريشًا قوم يعتدون ـ أي يجحفون ـ؛ فلما قُرِىء كتابه على رسول الله ﷺ كتب إليه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مُسَيْلمة الكذّاب لعنه الله، السلام على من اتّبَع الهدى، أمّا بعد؛ فإنّ الأرض لله يورثها مَنْ يشاء مِنْ عباده، والعاقبة للمتّقين؛ وكان كتاب مُسَيْلمة بخطّ عمرو بن الجارود، وكتاب النبيّ ﷺ بخطّ أُبيّ بن كعب، ذكر ذلك ابن عبدوس الجهشياري، ثم كان مِن أمره ما ذكرناه آنفًا.

وممن تنبّأ وزعم أنّ الوحي يأتيه الأسود العنسي، واسمه عبهلة بن كعب، وكان يُلقّب ذا الخمار ـ بالخاء المعجمة ـ لأنه كان يخمّر وجهه أبدًا، وقيل بالحاء المهملة لأنه كان له حمار يقول له اسجد فيسجد، وابرك فيبرك؛ وكان رسول الله ﷺ لمّا عاد من حجّة الوداع توعك، فبلغ ذلك العنسي، فادّعى النبوّة، وكان عرف شيئًا مِنَ الشّعبذة والنيرنجيات ويُري منها عجائب، فتبعته مذحج وقصد نجران، فأخرج منها عمرو بن حزم وملكها ثم قصد صنعاء وغلب على الطائف إلى عدن إلى البحرين، واستفحل أمره، فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ كتب إلى مَنْ باليمن من المسلمين: أنِ اقتلوا الأسود العنسيّ، إمّا مصادمة وإمّا غيلة، وكان باليمن قومٌ مِنَ الفرس يسمّون الأبناء أسلموا مع بادام، وكان بادام عاملًا للفرس على اليمن، فلما أسلم ولّاه رسول الله ﷺ ما كان بيده وأقرّه عليها، فلمّا مات فرّق النبيّ ﷺ بلاد اليمن على جماعة من أصحابه، وكان الأسود لمّا قتل شهر بن بادام وملك صنعاء استصفى زوجته، فأنفق الأبناء معها على قتله غيلة، وواعدتهم على ليلة

كانت عادته يشرب فيها ودلّتهم على مكان ينقبونه يَصِلُون منه إليه، فوجدوه وقد سكر ونام، فوثبوا عليه، فسمع الحرس ضوضاء، فقالوا لزوجته: ما هذا؟ قالت: نزل عليه الوحي، فلما قتلوه خرجوا مظهرين شعار الإسلام، فوثب المسلمون من كل جانب وقتلوا خلقًا ممّن كان معه، ورجع العمّال إلى أعمالهم، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فوافى الرسول المدينة، فوجد رسول الله ﷺ قد مات. قال عبد الله بن عمر: أتانا الخبر من السماء إلى رسول الله ﷺ في اللّيلة التي قُتِل فيها، فقال: قُتِل العنسيّ، فقيل: مَنْ قتله؟ قال: رجلٌ مبارك من أهل بيتٍ مبارك، قيل: مَنْ هو؟ قال: فيروز، وفي صبيحة تلك الليلة قُبِض رسول الله ﷺ، وكانت مدّة العنسي مِنْ أوّلها إلى آخرها ثلاثة أشهر.

وممّن امتطى مطا هذا الغرر، فرَمَتْه الأيّام من تغيّظها بالشرر، المختار بن أبي عُبَيْد الثقفيّ، وكان قد جمع ليطلب ثأر الحسين عليه الرحمة والرّضوان، وكان المختار لا يوقف له على مذهب، كان خارجيًا، ثم صار رافضيًا في ظاهره، ثم تنبّأ وزعم أنّ جبريل يأتيه بالوحي، فلما بُويع عبد الله بن الزبير بالخلافة بعث أخاه مُصْعبًا إلى العراق، فقاتل المختار فقتله، وقتل معه خلق كثير ممّن تابعه، وذلك في سنة سبع وستّين.

وتنبّأ أبو الحسين المتنبّي في بادية السماوة ونواحيها وتبعه مَنْ فيها مِنْ كلب وغيرها، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص مِنْ قِبَل الإخشيد فقاتله وأسره وشرّد مَنْ كان اجتمع عليه وحبسه مدّة طويلة، فاعتلّ وكاد أن يتلف، فسُئِل فيه فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلى الإسلام، وأن لا يعود إلى مثله.

وتنبّأ حائك بالكوفة وأحلّ الخمر، فقال رجل لابن عبّاس ذلك، فقال: لا يُقْبل منه حتى لا يبرىء الأكمه والأبرص، فأُتي به إلى الكوفة، فاستتابه فأبى أن يتوب ويرجع، فأتَتْه أمّه تبكي، فقال لها: تنحّي رُبِط على قلبك كما رُبِط على قلب أمّ موسى، وأتاه أبوه فسأله أن يرجع فقال له: تنحّ يا آزر، فأمر الوالي بقتله فقُتِل وصُلِب.

وظهر في أيّام أبي مسلم نهافرند المجوسي، وكان قد غاب عن أهله سبع سنين في الصين، فأصاب من طرفها قميصًا تحويه قبضة الرجل، فجاء مختفيًا فظهر

في ناووس تجاور بلده، وادّعى أنه كان مرفوعًا في السماء وأنه نبيّ فضلّ به خلق كثير، وجاء بسبع صلوات وحرّم الميتة وتزويج الأمّ والأخت وبنات العمّ وبنات الأخ، وهذا مما يخالف دين المجوسيّة، وفرض عليهم السّبع في الأموال، وحظر أن يتجاوز بالمهر أربعمائة درهم، فاجتمع موابذة المجوس إلى أبي مسلم، وقالوا: هذا أفسد علينا ديننا ودينكم، فأنفذ إليه أبو مسلم مَنْ أخذه وقتله وصلبه.

وادّعى رجل النبوّة في زمن خالد بن عبد الله القسريّ، وعارض القرآن فأتى به خالد، فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن، قال: بماذا؟ قال: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكَوثَر: الآية ١]، وتلا السورة إلى آخرها، وقلت: إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وهاجر، ولا تطع كل ساحر؛ فضُرِبت رقبته وصُلِب فمرّ به خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة، وقال: إنا أعطيناك العود، فصلّ لربك من قعود، وأنا ضامن لك أنْ لا تعود.

ومنهم مَن ادَّعى أنه الإمام المنتظر
فصير عبرة لمن أمعن في العواقب النظر

ظهر في شوّال سنة خمس وخمسين ومائتين في قرى البصرة رجل ادّعى أنه عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن أبي طالب، واستعمل الزّنج الذين يعملون في السباخ وأطمعهم في مواليهم ووعدهم أنه يملكهم ما في أيدي مواليهم، فاجتمع له خلقٌ كثير، وجمٌّ غفير، وعبر دجلة ونزل قرية تسمى الدينارية، وزعم أن سحابة أظلّته ونُودِي منها: اقصد البصرة تملكها، وأنه يطّلع على ما في ضمائر أصحابه وما يفعل كل واحد منهم؛ فلما كان يوم عيد الأضحى من هذه السنة صلّى بهم وخطب لهم وذكّرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال، وأن الله أنقذهم من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملّكهم العبيد والأموال وشنّ بهم الغارات على أطراف بلاد العراق، فأجلى أهل الضّياع منها، واستفحل أمره وقصد البصرة فملكها سنة تسع وخمسين، وقتل مَنْ فيها مِنَ الرّجال والنساء والصّبيان، وأحرق المسجد الجامع وبنى مدينتين على شاطىء دجلة وحصّنهما بالأسوار والخنادق، فانتبذت إليه العساكر من بغداد برًّا وبحرًا، فكانت الحرب بينه وبينهم سجالًا إلى أن كانت الدائرة عليه في صفر سنة سبعين ومائتين ونسبه الذي ادّعاه لم يكن صحيحًا، والصحيح أنّ اسمه عليّ بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه

في عبد قيس، وكان ظهوره في أيّام المهدي وقتله في أيّام المعتمد على يد أخيه الموفّق.

وظهر في أيام خلافة المعتمد سنة ثمان وسبعين ومائتين بقرية من سواد الكوفة رجل أجمر العينين يسمّى كرميتة، فاستثقلوا هذه اللفظة فخففوها وقالوا: قرمط، فكان يُظْهِر الزُّهد والتقشّف وكثرة الصلاح، فاجتمع إليه أهل القرية وعظّموه، فلما تمكّن منهم أعلمهم أنه الذي يشير إليه النبيّ ﷺ في قوله: سيخرج لكم من أهل بيتي رجل اسمه كاسمي يملأ الأرض عدلًا كما مُلِئَتْ جورًا، فلما أطاعوه أعلمهم أن الصلاة المفروضة عليهم خمسون صلاة في اليوم والليلة، فشكوا إليه كثرتها وأنها تعطّلهم عن أشغالهم، فسوّفهم أيامًا ثم أتاهم بكتاب يقول الفرج بن عثمان يقول فيه إنه المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهديّ، وهو محمد ابن الحنفيّة، وهو جبريل، وذكر أنّ المسيح تصوّر له على صورة إنسان وقال له: إنك الدّاعية، وأنك الحجّة، وأنك الناقة، وأنك الدابّة، روح القدس، وأنك يحيىٰ بن زكريّا، وعرّفه أنّ الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل الفجر وركعتان قبل الغروب، وأن الأذان في كل صلاة أربع تكبيرات ويتشهّد مرّتين، ثم يقول: أشهد أن موسى رسول الله، أشهد أن لوطًا رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، أشهد أنّ محمدًا رسول الله، أشهد أنّ أحمد بن محمد ابن الحنفيّة رسول الله.

ومن شرائعه: أنّ الصوم يومان في السنة: يوم المهرجان ويوم النوروز، وأن النّبيذ والخمر غير حرام، ولا غسل من جنابة، ويُؤكل كل ذي ناب وذي مخلب، وأن القبلة إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة يوم الاثنين، ويشترك في المرأة جماعة من الرّجال، فأجابه زهاء من عشرة آلاف رجل واتّخذ منهم اثني عشر نقيبًا، وقال لهم: أنتم كحواري عيسى، ثم إن هذا الشقيّ المذكور اختفى، وأقام رجلًا يُعرف بأبي الفوارس واسمه خلف بن عثمان داعيًا لمذهبه، فتعطّل على المعتضد الخراج من سواد الكوفة، ونفضوا أيديهم من طاعته وشقّوا العصا بمخالفته، فأرسل إليهم مسكًا غلام أحمد بن محمد الطائي في عشرة آلاف فارس، فظفر بهم وقتلهم، وأخذ أبا الفوارس أسيرًا وحمله إلى المعتضد فأمر به فقُلِعَت أضراسه وخُلِعَت أعضاؤه، ثم قُطّعت يداه ورجلاه وضُرِب عنقه، وصُلِب بالجانب الشرقي سنة تسع وثمانين ومائتين.

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة مات المعتضد، وله من العمر سبع وأربعون سنة، وكانت مدّة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وأيامًا، ثم قام فيهم آخر يسمّى عليّ بن عبد الله، فعاث في بلاد الشام عيثًا ذريعًا، وأخرب مدنًا وقرًى كثيرة، وكان بينه وبين طغج بن جفّ الإخشيدي صاحب مصر والشام حروب كثيرة أجلت عن قتل الأخشيد الفرغاني، فخرجت إليه الجيوش من مصر فحاربوه، فقُتِل في بعض الحروب على دمشق سنة تسعين ومائتين، وكان يسمّى صاحب الجمل، فقام بعده أخوه ويسمّى أحمد ويلقّب بذي الشامة لشامةٍ كانت في وجهه، وأقام له داعيَيْن سمّي أحدهما المدّثر، وزعم أنه المذكور في القرآن، وسمّى الآخر المطوق، فاشتدّت في العناد شوكته، وسلّطت على العباد فتكته، وسار إلى دمشق، فصولح عليها بمال، فرجع عنها في سنة تسعين، وكانت عادته إذا فتح بلدًا عنوةً قَتَل مَنْ فيها مِنَ الرّجال والنساء والوِلْدان والبهائم، فضاق المسلمون به ذرعًا، فاستغاثوا بالمكتفي فجهّز لهم جيشًا عظيمًا وقدم عليهم الحسين بن حمدان، والقاسم بن عبيد الله الكاتب، وأمر الجيش بالسّمع والطاعة له، فواقعهم في شهر المحرم سنة إحدى وتسعين، فانهزم وأسلم مَنْ كان معه فقُتِلوا وهرب معه المدّثر والمطوق، وألجأتهم الهزيمة والخوف إلى قرية مِنْ أعمال الفرات تُسمّى دالية، فأنكرهم أهلها واستفصحوا أحدهم عن أمرهم، فجمجم في كلامه، فعُوقِب حتى أقرّها فأخذهم متولّيها وحملهم إلى المكتفي، وكان بالرقّة، فرحل بهم إلى بغداد، فدخلها ومَنْ معه من الأسراء في شهر ربيع الأول وأمر ببناء دكّة في المصلّى العتيق ارتفاعها عشرة أذرع، ثم أصعدوا عليها، فقُطّعت أيديهم وأرجلهم مِنْ خِلاف، ثم ضُرِبت رقابهم بين يديه، ثم أمر بالقرمطيّ فضُرِب مائتي سوط، وكُوِيت خواصره، ثم قُتِل وصُلِب على الجسر الأعظم.

ثم ظهر فيهم رجل يسمّى زكروية بن مهرويه في سنة ثلاث وتسعين، ونعت نفسه بالمهديّ، فقطع الطريق على الحاج ونهب القوافل وقتل أهلها وسبى حريمهم، فبعث إليه من بغداد جيشًا فحاربه بذي قار، وهو موضع بين الكوفة والبصرة، فانهزم وأُخذ أسيرًا جريحًا في شهر ربيع الأوّل سنة أربع وتسعين، فحُمل إلى بغداد، فمات في الطريق في شهر ربيع الآخر.

ثم ظهر فيهم رجل يسمّى علي بن شبيب، ويُعْرف بالمبرقع، فحُورب وانهزم وأُخذ أسيرًا وأُدخل بغداد على جملٍ وضُرِب عنقه.

ثم ظهر فيهم أبو سعيد الحسن بن يوسف بن كودر، كان الخيامي بالبحرين فقتله خادمان له صتليان في سنة عشرة وثلاثمائة، فقام بعده سليمان بن الحسن الجباري، فعاث في البلاد وأفسد وقصد مكّة شرّفها الله تعالى، فدخلها يوم التّروية سنة سبع عشرة وثلاثمائة في خلافة المقتدر، فقتل مَنْ وجد من الحاجّ في المسجد الحرام، ورمى بالقتلى في بئر زمزم وعرّى الكعبة وقلع بابها وأخذ الحجر الأسود، فبقي الحجر عندهم اثنتين وعشرين سنة إلّا أشهرًا، ثم ردّوه مكسورًا على يد سنان بن الحسن بن سنان في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ونصب في مكانه يوم النحر من السنة المذكورة، وكان محكم الرائفي بذل لهم فيه خمسين ألف دينار فأبوا، وكان موت سليمان في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ثم لما دخل المعزّ لدين الله مصر بعد أخذ جوهر مولاه لها، وذلك في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة في أيام المطيع قصد القائم فيهم يومئذ رجل يُعْرف بابن غزوان، فخرج إليه جعفر بن فلاح فالتقاه بالرّملة فقاتله وهزم عسكره وقتله في سنة تسع وستّين وثلاثمائة.

ثمّ قام فيهم رجل يسمّى حسنًا ويُعرف بالأعصم، فملك الشام وأخرج منه عمّال المُعِزّ، فانهزموا بين يديه فتبعهم إلى مصر وملك الصعيد وأسفل الأرض، ووصل إلى مصر ونزل بعسكره عليها، فخرج إليهم القائد جوهر، فحاربهم فاقتتلوا قتالًا شديدًا وقتل مِنَ العسكر خلق كثير، وذلك يوم الجمعة غرّة شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، ثمّ انصرفوا وتركوا الحرب يوم السبت ورجعوا يوم الأحد، وهم واثقون الظفر، فلما التقى الجمعان أعطى الله النصر لعساكر القائد جوهر وانكشفت القرامطة بالانهزام، وساروا إلى البحرين على نيّة العَوْد إليها وإلى الشام، فوجدوا بني حمدان قد ملؤوا شعابه وأوديته ورفعوا به قواعد الدّين وألْوِيته، ولم يجمع الله للأعصم على شقّ عصا الإسلام شملًا، ولم يَمْضِ له بعد في الإسلام قولًا ولا فعلًا، وتفرّق أصحابه في البلاد أيدي سبا، واسترجع منه الدّهر ما نهب وسبي، وكانت مدّة دولتهم ستًّا وثمانين سنة، وهذا الذي ذكرناه يشترك في القول به أصحاب الآراء والمقالات الخابطون في عشواء الجهالات؛ كأصحاب النّحَل والمِلَل المتمسّكين بآرائهم مع ما فيها من الفساد والخَلَل؛ كالمعتزلة والحشوية وغلاة الرّافضة وسائر الفرق الإسلامية، غير الفرقة الناجية، التي هي لعواطف لطف الله راجية، وكل منهم قد أضلّه الله على علم، فنعوذ بالله من الغواية بعد الهداية، ومِنَ الجور بعد الكور، ومِنَ الإنكار بعد الاستبصار إنه سميع قريب توّاب مُجيب.

الباب الثامن

في التغفّل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب

في ذمّ البلادة والتغفّل من ذوي التعالي والتنزّل

ومعنى التغفّل الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة القصد، فالمغفل مقصده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد ورميته في الوصول إلى الغرض غير صحيحة؛ كما قال بعض الحكماء: إذا فَقَد العالم الذِّهن قلّ على الأضداد احتجاجه، وكَثُر إليهم احتياجه، وتعاوَرَتْه أسِنّة الشكوك، واشتبهت عليه مناهج السلوك. وقالوا: التغفّل تحريف الشيء عن مواضعه مع تيقّن أن ذلك صواب؛ كما ذُكِر أنّ أحمد بن أبي خالد عرض القصص يومًا على المأمون وهو بين يديه، فمرّ بقصة مكتوب عليها فلان اليزيدي فصحفه، وقال الثريدي، فضحك المأمون وقال يا غلام ثريدة ضخمة لأبي العباس، فإنه أصبح جائعًا، فخجل أحمد وقال: ما أنا جائع يا أمير المؤمنين، ولكن صاحب هذه الرقعة أحمق وضع على يائه ثلاث نقط، كأثافي القدر؛ فقال المأمون: عُدْ عن هذا، فإنّ النقط شهود الزور والجوع اضطرّك إلى ذكر الثريد؛ فلما أُتِي الثريد احتشم أحمد مِنْ أكله، فقال له المأمون: بحقّي عليك إلّا ما أكلت، فترك القصص ومال إلى الصحفة وأكل قليلًا ثم دعا بالماء فغسل يديه ورجع إلى القصص، فمرّ بقصة عليها مكتوب فلان الحمصي، فقرأها الخبيصي، فضحك المأمون وقال: يا غلام جام خبيص، فإنّ غذاء أبي العباس كان أبتر، فخجل وقال: يا أمير المؤمنين صاحب هذه الرقعة أحمق مِنَ الأوّل فتح الميم فصارت كأنها سنتان، قال: دَعْ عنك هذا، فلولا حمق هذا وصاحبه مُتَّ أنت جوعًا، فأُتي بجام خبيص فأبَى أن يأكل من كَثْرة الاستحياء، فقال له المأمون: بحقّي عليك إلّا ما ملت نحوه وأكلت، فانحرف إليه وأكل منه

ثم غسل يده، وانصرف إلى القصص، واحترز في قراءتها وتثبّت في حروفها، فما حرّف حرفًا حتى أتى على آخرها.

وقد اخترت من مدام المتغفلين مما حَسُن وراق
دُررًا ضمنتها أصداف هذه الأوراق

ذمّ أبو عبيدة معمر بن المثنى كيسان مستمليه، وقد أملى عليه شيئًا، فعجز عن إدراكه، فقال: والله ما فَهِم، ولو فَهِم لوَهِم. وقال الجاحظ: كان كيسان مستملي أبي عُبيدة يكتب غير ما يسمع، ويستفتي غير ما يكتب، ويقرأ غير ما يستفتي؛ أمليت عليه يومًا[1]: [مجزوء الوافر]

عَجِبت لمعشر عدلوا بمعتمر أبا عمرِو

فكتب أبا بشر واستفنى أبا زيد، وقرأ أبا حفص. وسأله أبو عبيدة عن رجل من شعراء العرب: ما اسمه؟ فقال: هو خداش أو خراش أو رياش أو خماش أو شيء آخر، وأظنّه قرشيًا؛ فقال له أبو عبيدة: مِنْ أين علمت أن نسبه في قريش؟ قال: رأيت اكتناف الشينات عليه مِنْ كلّ جانب. وذكر الجاحظ عنه أنه شهد على رجل عند بعض الوُلاة، فقال: سمعت بأذني ـ وأشار إلى عينه ـ ورأيت بعيني ـ وأشار إلى أذنه ـ أنه أمسك بتلابيب هذا الرجل ـ وأشار إلى كمّه ـ وما زال يضرب خاصرته ـ وأشار إلى فكّه ـ فضحك الوالي، وقال: أحسبك قرأت كتاب خلق الإنسان على الأصمعي؟ قال: نعم مرّتين. وذمّ بعض البُلَغاء فدمًا[2]، فقال: لا يَفْهم ولا يُفْهم، وينقض ما يبرم، ولا يعلم ولا يتعلّم، ويستصغر من يتعلّم. وسأل أبو عون رجلًا عن مسألة، قال: على الخبير بها سقطت، سألت عنها أبي فقال: سألت عنها جدّك، فقال: لا أدري. وقالوا: فلان يسمع غير ما يُقال، وحفظ غير ما يسمع، ويكتب غير ما يحفظ، ويقرأ غير ما يكتب. وقالوا: فلان ذو بصيرة عمياء عند تأمّل الثواقب، وتجربة صمّاء عند تشابه النّوائب. وقال شاعر يهجو رجلًا[3]: [الوافر]

جهول غاص في لحم وشحم ولم ينسب إلى عقلٍ وفهمِ
إذا لبس البَياض فعدل جصّ وإن لبس السواد فعدل فحمِ

---

(١) البيت بلا نسبة في القسطاس في علم العروض، للزمخشري، ص ٥٥.

(٢) الفَدْمُ: الثقيل الفهم العييّ.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وممّن تقاصر فهمه عن إدراك الصواب البادي، فطاول بذمّه لسان الحاضر والبادي أحمد بن الخصيب وزير المستنصر، ووزر أيضًا للمستعين عمل أبو العيناء كتابًا في ذمّه حكى فيه أنّ جماعة مِنَ الفُضَلاء اجتمعوا في مجلس، وكلٌ منهم يكره ابن الخصيب لِمَا كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفّل، فتجاذبوا أطراف المُلَح في ذمّه، فقال عليّ بن بسّام: كان جهله غامرًا لعقله، وسفهه قاهرًا لحلمه، وقال لمعرة الرابض: لو كان دابّة لتقاعس في عنانه، وحَرِنَ في ميدانه، وقال آخر: كنت إذا وقع لفظه في سمعي أحسست النقصان في عقلي، وقال بعض كتّابه: كنت أرى لم ابن الخصيب يكتب بما لا يُصِيب، ولو نطق لنطق بنوك عجيب، وقال إبراهيم بن المدبر: كنت يومًا عنده فقدّم الطعام وفيه هليون فأكبّ عليه، فقلت له: أراك راغبًا في الهليون؟ فقال: إنه يزيد في الباه. وسُئِل عنه أبو العيناء بعد هذا التصنيف، فقال: إنْ دنوت منه غرّك، وإن بَعُدْت عنه ضرّك، فحياته لا تنفع وموته لا يضرّ. وقال آخر: لو غابت عنه العافية لَنَسِيَها. وكان ابن الخصيب إذا ناظر شعب وحلب، وربما رفس من ناظره إذا أُفحم عن الجواب، وخَفِي عنه الصواب، واستولت عليه البلادة، وعرّى كلامه عن الإفادة؛ وفيه يقول محمد بن الفضل[١]: [الكامل]

قل للخليفة يا ابن عمّ محمّد ... أشكل وزيرك إنه ركالُ

قد أحجم المتظلّمون مخافة ... منه وقالوا ما نروم مُحالُ

ما دام مطلقة علينا رجله ... أو دام للنزق الجَهُول مقالُ

قد نالَ من أعراضنا بلسانه ... ولرجله بين الصدور مجالُ

امنعه مِنْ رَكْل الرجال فإن تُرِد ... مالًا فعند وزيرك الأموالُ

وحُكِي عنه أنه رأى جرادًا كثيرًا يطير، فقال لجلسائه: لا تغتمّوا إني أحسبه كأنه مَيْت، وفيه يقول بعض الشعراء يهجوه مِنْ أبيات[٢]: [الوافر]

حمار في الكتابة يدّعيها ... كدعوى آل حرب في زيادِ

فخلّ عن الكتابة لستَ مِنْها ... ولو لطّخت ثوبك بالمِدادِ

(١) الأبيات لأبي العيناء في ديوانه، من خمسة أبيات، هي هذه.

(٢) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه.

وقد هجا أبو العيناء أسد بن جوهر ونحا فيه هذا المعنى، فقال[١]: [الكامل]

تَعِسَ الزّمان لقد أتى بعجاب ... ومحا رسوم الظَّرف والآدابِ
وافى بكتاب لو انبسطت يدي ... فيهم رَدَدْتهم إلى الكتابِ
جيلٌ مِنَ الأنعام إلّا أنهم ... من بينها خُلِقوا بلا أذنابِ
لا يعرفون إذا الجريدة جُرّدت ... ما بين عياب إلى عتابِ
أوَ ما ترى أسد بن جوهر قد غدا ... متشبّهًا لأجِلّة الكُتّابِ
لكن يمزّق ألف طومار إذا ... ما احْتِيج منه إلى جواب كتابِ
فإذا أتاه سائل في حاجةٍ ... ردّ الجواب له بغير جوابِ
وسمعت من غثّ الكلام ورثّه ... وقبيحه باللّحن والإعرابِ
ثكلتك أمّك هبك من بقر الفلا ... ما كُنْتَ تغلط مرّة بصوابِ

ولآخر يهجو كاتب خراج[٢]: [الكامل]

لو قيل كم خَمْسٍ وخَمْسٍ لَارْتأى ... يومًا وليلته يعدّ ويحسب
يرمي بمقلته السماء مُفكّرًا ... ويظلّ يرسم في التراب ويَكْتب
ويقول معضلةٌ عظيمٌ أمْرها ... ولَئِن فهمت فإنّ فهمي أعْجَب
حتى إذا خدرت أنامل كفّه ... عدًا وكادت عَيْنه تتصوّب
أوفى على نشزٍ وقال ألا اسمعوا ... قد كِدْت من طرب أُجنّ وأُسلب
خمسٌ وخمس ستّة أو سبعة ... قولان قالهما الخليل وثعلب
فيه خلافٌ ظاهر ومذاهب ... لكن مذهبنا أصحّ وأصوب
وخواطر الحِساب فيها كثرةٌ ... وأظنّ قولي فيهم لا يكذب

وممّن كان صوابه عن غير اعتماد، وخطؤه بعد تروٍّ واجتهاد، شجاع بن القاسم كاتب أوتامش التركي، وكان أُمّيًا لا يقرأ ولا يكتب ولا يَفهم ولا يُفهِم، وإنما علم علامات كان يكتبها في التوقيعات. قال الحسن بن المخلّد: كنت يومًا عند المُستعين ومعنا أوتامش؛ إذ دخل شجاع بن القاسم وسراويله قد خرج من

---

(١) الأبيات في ديوان أبي العيناء، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.
(٢) الأبيات لأبي الحسن الرازي في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ١٦٥.

خفّه حتى وقع على قدمه وهو يسحبه ويدوسه، فقال له المستعين: وَيْحك يا شجاع ما هذه الحالة؟ قال: الساعة يا سيّدي داسني كلب فخرقت سراويله وثيابه، فضحك المستعين وقال لأُوتاش: مثل هذا ينبغي أن يُستعمل في الكتاب. ومن ظريف ما يُخْبر عنه أن أحمد بن عمار عمل شعرًا مختلف القوافي ولا معنى له مما يليق بفهمه وعقله متعمّدًا ذلك ليضحك منه إخوانه ووقف إليه، وقال: أيها الوزير ليس الشّعر صناعتي ولكنك أحْسنت إليّ وإلى أهلي بما أوجب عليّ شكرك، فعملت أبياتًا أمدحك بها، فتفضّل بسماعها؛ فقال له: أغناك شرفك عن التكسّب بالشعر وإنشاده، قال: لا بدّ أن تتفضّل وتأذن لي، فأذن له فأنشد(١): [الطويل]

شجاع لجاج كاتب لاتب معًا كجلمود صخر حطّه السَّيْل مِنْ عَلِ
خبيص لبيص مستمر مقوّم كثير أثير ذو شمال مهذّبِ
بليغ لبيغ كل ما شئت قلته لديه وإن أسكت عن الأمر يسكتِ
فطين لطينٌ أمره لك زاجر خصيف لصيف كل ذلك يعلمِ
أديب لبيب فيه فهم وعفّة عليم بشعري حين أنشد يشهدِ
كريم حليم قابض متباسط إذا جئته يومًا إلى البذل يسمحِ

فسُرّ بذلك وشكره على إنشاده ووصله بعشرة آلاف درهم، وأجرى له ألف درهم في كل شهر. وكان محمود الورّاق عنى هذا المذكور بقوله مِنْ أبيات(٢): [الكامل]

يا ناظرًا يرنو بعيني راقد ومشاهد للأمر غير مُشاهِدِ

أو أبا تمام بقوله(٣): [الوافر]

ولو نشد الخليل له لعفّتْ بلادته على فِطَن الخليلِ

أو قول هذا القائل فيه: فلان لا ينتبه، ولو أدخل في الكور، ونفخ عليه إلى أن ينفخ في الصُّور. وحكى الجاحظ في كتاب البيان أن المأمون كان يستقلّ

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات في ديوان محمود الورّاق، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.
(٣) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:
كأني لم أبنكما دخيلي ولم تربا ولوعي من ذهولي

سهل بن هارون، فدخل عليه يومًا والناس جلوس، وقد أسبلوا براقع الغفلة على وجوه الفطن، والفهم عنهم قد رحل، والتبلّد فيهم قد قطن؛ فلما فرغ المأمون من كلامه أقبل سهل على الناس وقال: ما لكم تسمعون ولا تَعُون، وتفهمون ولا تُفَهِّمون، وتشاهدون ولا تتعجّبون، والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير مثل ما فعله بنو مروان في الزّمن الطويل، عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم، لكن كيف يَعْرف الدواء مَنْ لا يشعر بالداء؛ فاستحسن المأمون منه ذلك، وأنزله منزلته الأولى. وكلام سهل يحتمل مدح فصاحة المأمون وذمّ البلادة التي أنزلت جلساءه المنزل الدُون، وإثباته في حقّهم بالذمّ أوجب علينا وألزم.

الفصل الثاني من الباب الخامس

فيمن تأخرت منه المعرفة ونوادر أخبارهم المُسْتظرفة

وواجب أن نبدأ بأخبار مَنْ أساء في التفقّد والعِيادة، ولم يُحْسن خطابه في السؤال ولا الإعادة. قال عامر بن شراحيل الشعبي: عيادة النوكى أشدّ على المريض من مرضه، فإنهم حُمّى الروح وطليعة ملك الموت. دخل حمصيّ على عروة بن الزبير يعوده لما قطعت رجله، لألم أوجب عليه فعل ذلك من أكلة أصابتها، فقال: أقطعت رجلك؟ قال: نعم، قال: جيّد، قال: أوَجعك شديد؟ قال: نعم، قال: جيّد؛ ثم قال: لا تغتمّ فإنك لو رأيت ثوابها لتمنّيْت أنّ الله قد قطع رجليك ويديك وأعمى بصرك ودقّ صُلْبك، فكان مصاب عروة بعائده المزيد في نكده أكثر مِنْ مُصابه بما قطع مِنْ رجله ويده. وأين هذا الجلف من عيسى بن طلحة بن عبيد الله، فإنه دخل على عروة هذا يعوده لمّا قُطِعَتْ رجله، فقال: والله ما كنّا نعدّك للصراع ولا للتسباق، ولكن نعدك للخير ونوالك المنساق، ولئن أعدمنا الله أقلّك لقد أبقي لنا أكثرك، سمعك وبصرك ولسانك وعقلك ويديك وإحدى رجليك، فقال: يا عيسى ما عزّاني أحد بمثل ما عزّيْتني به. ودخل آخر على مريضٍ يشكو من رأسه، فقال لأهله: لا ضَيْر إذا رأيتم المريض هكذا، فاغسلوا أيديكم منه. وعاد آخر مريضًا، فقال له: ما بك؟ قال: وجع الرُكبة، قال: إن جريرًا ذكر بيتًا ذهب عنّي صدره، وبقي عجزه وهو(١): [الطويل]

وليس لداء الركبتين دواءُ

---

(١) البيت بتمامه في ديوان جرير: =

فقال المريض: لَيت عجزك ذهب كما ذهب صدره. وعاد آخر مريضًا، فلما خرج قال لأهله: آجركم الله، فقالوا: إنه لم يمت بعد، قال: يموت إن شاء الله. وعاد آخر مريضًا، فلما خرج قال لأهله: لا تفعلوا في هذا كما فعلتم بالآخر، مات وما أعْلَمْتموني به. وعاد آخر مريضًا، فلمّا خرج قال لأهله: أحسن الله عزاكم، فقالوا: إنّه لم يَمُتْ، قال: قد عرفت ولكني شيخ كبير لا أستطيع النهوض في كل وقت، وأخاف أن يموت فأعجز عن المجيء لأعزّيكم به. وعاد رجل الشعبيّ فأبرم، ثم قال له: ما تشتهي؟ قال: أشتهي أنْ لا أراك. وعاد آخر مريضًا، فقال له: ما تشتكي؟ قال: وجع الخاصرة، قال: والله كانت علّة أبي فمات منها، فعليك بالوصيّة يا أخي، فدعا المريض ولده وقال: يا بنيّ أُوصيك بهذا لا تدعه يدخل عليّ بعد هذا. وعاد آخر مريضًا، فلما رآه أنشد متمثّلًا بما أملى قلبه الغبيّ على لسانه العييّ[١]: [الوافر]

يـمـوت الـصـالـحـون وأنـت حـيّ تـخـطـاك الـمـنـايـا لا تـمـوتُ

وذكر المسعوديّ أنّ عمرو بن العاص لما قدم مِنْ مصر على معاوية أنشده هذا البيت، فأجابه عمرو[٢]: [الوافر]

أتـرجـو أن أمـوت وأنـت حـيّ ولـسـت بـمـيـت حـتـى تـمـوتُ

دخل عبد الله بن أبي عتيق ومحمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر على عائشة رضي الله عنها يعودانها، فقال لها: كيف حالك يا عمّة، جعلني الله فداءك، قالت: في الموت؟ قال: الآن لا جعلني الله فداءك، فإني كنت أظنّ أنّ في الوقت فسحة.

وممّن عُرِف بالتغافل واشتهر، وفاق فيه أهل زمانه ومهر: أبو عبد الله الحسين بن عبد الله الجصّاص الجوهري، كان رئيسًا في المترفّهين، ورئيسًا للمتجلّفين، وجد الجدّ فهو ذو جدّة ويسار، وعدم العقل فسيّان اليمين واليسار،

= تحني العظام الراجفات من البلى وليـس لـداء الـركـبـتـيـن طـبـيـبُ

ومطلع القصيدة:

لقد كان ظنّي يا ابن سعدٍ سعادة وما الـظـنّ إلا مـخـطـئ ومـصـيـبُ

(١) البيت لمعاوية بن أبي سفيان في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وكان عند المقتدر من خواصّ أحِبَّته، وممّن له الكلمة المطاعة في دولته، ثم نقم عليه فصادره فأخذ منه ستّة آلاف دينار وغير ذلك من مواشٍ وأثاث وعقار، ومن نفائس الأعلاق والذخائر ما لا يوجد قليله عند عقلاء الأخائر؛ ومما يدلّ على كثرة ماله أنّ المعتضد لما عد نكاحه على قطر النّدى بنت أحمد بن طولون ليُودّعه فلم يذكر له ما صرف، وكان مبلغه أربعمائة ألف دينار، فسأله ابن طولون عنه فدافعه فأبى ذلك، وقال: لا بدّ منه، فذكر له فقال له: راجع طومارك لعلك نسيت شيئًا، فراجعه فإذا فيه تكك قيمتها عشرون ألف دينار لم يدخلها في حسابه، فأطلق له الجميع، فانظر إلى مال ينفق من عرضه أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار كم يكون أصله؟

فمن مُلَح أخباره ومُلَح آثاره ما حُكِي أنّ إنسانًا سُئِل عن صفته، فقال: رأيته شيخًا طويلًا طويل اللّحية، خفيف العارضين، صغير الرأس تشهد صورته عليه بالنّوك. وحُكِي عنه أنه دخل عليه عليّ بن الفرات يحدّثه، وهو غافل عنه ساهٍ تارة ينعس، وتارة يبهت، فقال له: كم ذا السهو والنعاس؟ فقال: يا سيّدي عندنا في المحلّة كلاب لا تدعنا ننام من كَثْرة صياحها وهراشها، فقال له ابن الفرات: لِمَ لا تأمر عبيدك تضربها فإني أحسبها جِراء، فقال: لا تقل ذلك أيّها الوزير، فإن كل كلب منها مثلي ومثلك.

نوعٌ منها لغيره: تغذّى أبو السربال عند سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ وليّ عهد أبيه، فقدّم أمامه جديًا، وقال: كُل مِنْ كِلْيته، فإنها تزيد في الدّماغ؛ فقال: لو كان كما يقول الأمير لكان رأسه مثل رأس البغل. وقال بعضهم: دخلت على ابن الجصّاص يومًا والمصحف في حِجْره، وقد بلّ كاغده بدموعه، وأذلّ نفسه بتضرّعه وخشوعه، فسألته: ما الذي دهاك وأزال بهاك؟ فقال: أكلت مع الجواري المخيض، فتعدّيت أمر الله وخالفته وكنت أعرف أنّ الله نهى عنه وحذّر منه؛ قلت: وما الذي أوصى الله به ونهى عنه وحذّر منه؟ قال: أكل المخيض مع الجواري، قلت: وكيف قال الله في ذلك؟ قال: ألم تسمع قوله تعالى: (يسألونك عن المخيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المخيض ولا تقربوهنّ) وقرأهنّ بالخاء، ثم قال: يا أخي هل تعرف لي من توبة أغسل بها هذه الحوبة؟ قلت: التضرّع في الدعاء بالإقالة، والابتهال إلى الله بصدق المقالة؛ فقام وكشف عن رأسه وحسر عن ذراعيه ورفع يديه، وقال: اللّهمّ إنك تجد مَنْ تَرْحَمه سواي، ولا أجد

مَنْ يعذّبني سواك؛ فتركته وانصرفت متعجّبًا من هذه الحال مُوقنًا أن الجدّ لا يكون بسعي المحتال. وسُمِعَ يومًا يقول في سجوده: سجد لك بياضي وسوادي خاضعًا ضارعًا ماصًا لبظر أمّه، ومن أنا هَلْ أنا إلّا عبدك وابن عبدك الزّاني ابن الزانية حتى لا يُغفر له. ومما يشبه هذا القول لغيره ما حُكِيَ أنّ شُعَيْبًا العلائيّ كان لا يصوم ولا يصلّي، ويقول: مَنْ أنا حتى أصوم وأصلّي، إنما يصلّي المتكبّرون الذين أُريد منهم التواضع، ويصوم الشّباع حتى يعرفوا قدر ما فيه الجيّاع، وكأنه اقتدى في قوله بما حُكِيَ أن الرستميّ كان عنده قوم من التجّار، فحضرت الصلاة فنهض ليصلّي فنهضوا معه، فقال: ما لكم ولهذا؟ وما أنتم منه الصلاة ركوع وسجود، وقيام وقعود، وإنما فرض الله هذا على المتجبّرين والمتكبّرين والملوك الأعاجم مثلي ومثل ذي الأوْتاد ونمروذ وأنوشروان، ولستم من هؤلاء، فما لكم ولها؟ لكنه المغرور اقتدى به في القول دون العمل، وحمل أوْزَار الجهل وبِئْس والله ما حَمَل. وأهدى ابن الجصّاص إلى العبّاس بن الحسن الوزير نبقًا وكتب معه[1]: [الهزج]

تـفـيّـلت بـأن تـبـقـى فـأهـديـت لـك الـنّـبـقـا

فكتب له الوزير: ما تفيّلت ولكن تبقّرت.

ذكر مَن أخطأ في سؤال أو جواب وظنّ أنّ كلامه عين الصّواب

ذكر أن إنسانًا كان يُكْثِر الجلوس في حلقة الشافعيّ، وكان ذا رواء وهَيْبة، وكان الشافعيّ يجلّه ويُكرمه، فسأله يومًا: أيّ وقت يُحرم على الصائم الأكل؟ فقال الشافعيّ: عند طلوع الفجر، قال: فإن طلع الفجر بعد طلوع الشمس، فقال: الآن يمدّ الشافعيّ رجله، ومدّها ولم يحتشم منه. وقال الجاحظ: دخل رجل على الشعبيّ وبين يديه الفقهاء، فقال بعدما طال جلوسه: أيّها الشيخ إني أجد في قفاي خلّة، أفترى أن أحجم؟ فقال الشعبيّ: الحمد لله الذي رفع منزلتنا فحوّلنا من الفقه إلى الحِجامة؛ وأكثر ما تقع هذه النوافر مِنَ القصاص. سُئِل بعضهم عن أربعين ماشية نصفها ضأن ونصفها معز: كيف نخرج زكاتها؟ فقال: يخرج عنها رأس نصفها ضأن، ونصفها معز. وقيل لبعضهم: إنّ نصرانيًا قال: لا

(١) البيت بلا نسبة في الموشى، للوشاء، ص ٣٤٣.

إلـه إلّا الله لا غير ما يجب له وعليه؟ قال: يؤخذ منه نصف الجِزْية ويُؤمر بأداء نصف ما على المسلمين من الفرائض والسُّنن، وإنْ مات دُفِن بين مقابر اليهود والنصارى؛ كما قال تعالى: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: الآية ١٤٣] فهو من المذبذبين. وأُتي بعض القصّاص بنصرانيّ يريد أن يُسْلم، فقال: قُمْ عنّي، أتريدون أن تُوقِعوا بيني وبين عيسى ابن مريم يوم القيامة. وسُئِل بعض القصّاص عن لوط عليه السلام، فقال: كان رجلًا لوطيًا نعوذ بالله من فعله؛ فأنكر عليه الناس ولامه بعض أصحابه بعد انصرافهم وأعلمه أن لوطًا نبيّ مُرْسل بُعِثَ إلى قوم كان ذلك القبيح فعلهم، وأن لوطًا نهاهم عنه فندم على ما قاله، فلمّا كان في المجلس الآخر سُئِل عن فرعون، فقال: دعونا من حديث الأنبياء واسألوا الله السّلامة قومٌ لا رأيناهم ولا رأونا، كيف نتكلّم في أعراضهم. وسُئِل بعضهم: ما تقول في خلق القرآن؟ فقال: دعونا من القرآن وهو مخلوق غير مخلوق. وسُئِل آخر، وكان ناصبيًا عن معاوية، فقال: معاوية ليس بمخلوق؛ لأنه كاتب الوحي، والوحي ليس بمخلوق، وكاتب الوحي من الوحي. وحَكَى سعيد بن خالد اليماني، قال: كان عندنا قاضٍ يسمّى أبا خالد، قال في دعائه يومًا: يا ساتر عورة الكبش لِمَا علم من فضله وصلاحه، وهاتك عورة التّيس لِمَا عَلِم من قذره وفجوره استر علينا وارحمنا، واهتك ستر أعدائنا؛ فقيل له: وما فضلة الكبش؟ قال: لأنه كبش إبراهيم الذي فدى به ابنه، ولا يذبح في العقيقة غيره؛ قيل له: فما ذنب التّيس؟ قال: يشرب بوله وينزو على الشاة التي لم تستحقّ النّزو، ويؤذي الناس بنتن ريحه، ويعلّم الناس الزّنا، وهو عيب على أصحاب اللّحى. يقال: جاء فلان في لحية التّيس. وقرأ قارىء في مجلس سيفويه أنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، فقال لمن حضره: ارفعوا أيديكم وقولوا: اللّهمّ اجعلنا منهم. وقال الفضل بن إسحٰق الهاشميّ: سمعت قاصًا وقد قرىء في مجلسه يتجرّعه ولا يكاد يسيغه، فقال: اللّهمّ اجعلنا ممن يتجرّعه ويسيغه. وكان سيفويه ممن يتلاوط، فبينما هو يقصّ على الناس إذ أقبل جماعة صبيان حِسان كأنهنّ الياقوت والمُرْجان، فقال: يا أصحابنا أقبل العدوّ ارفعوا أيديكم وقولوا: اللّهمّ ولّنا أدبارهم، وكبّهم على وجوههم، وأرِنا سوآتهم، ومكّن رماحنا من ظهورهم إنك على كل شيء قدير، وسيفويه ـ بضم الفاء وفتح الياء ـ هكذا ضبطه الأمير أبو نصر بن ماكولا في كتاب الإكمال.

وممّن تأخّرت معرفته من الحكّام وتقدَّم جهله في القضايا والأحكام

حُكِي أن عاملًا لمنصور بن النعمان كتب إليه مِنَ البصرة: إني أصبت سارقًا سرق نصابًا مِنْ حرز، فما أصنع فيه؟ فكتب منصور إليه: اقطع رجله، ودَعْه يكدّ بيديه على عياله؛ فأجابه العامل: إن الناس يُنْكرون هذا لقول الله تعالى في القرآن: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المَائدة: الآية ٣٨]، فكتب إليه: إنّ القرآن نزل من السماء، ونحن في الأرض، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب. وتقدَّم رجل إلى بعض القضاة بخصم، فقال: إن هذا باعني ثوبًا وجدت فيه عيبًا وسألته أن يقيلني فأبَى؛ فالتفت إليه القاضي وقال: أقِلْه عافاك الله، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «قيلوا فإنّ الشياطين لا تقيل». وقيل لقاضي حمص: كيف تحكم على اللّوطي؟ قال: بنصف حكومة الزاني، قيل له: ولِمَ؟ قال: لأنّ الحمار لا يحمل إلّا نصف ما يحمل الجمل، وهذا حكم مفهوم. وادَّعت امرأة على زوجها مهرًا عند بعض القضاة، فأنكر فأمر القاضي أن يُجلد حدَّين، قيل له: ولِمَ حكمت بهذا؟ قال: لأنهما زنيا إن لم يكن بينهما مهر، قيل: فلا يجب على المرأة؟ قال: بلى، إنّ النخل إذا لم يحمل رأسها أُحرق أصلها. وتقدَّم جماعة إلى قراقوش، وكان عاملًا لصلاح الدين على مصر ومعهم قتيل وثور ورجل مكتوف، فقالوا: أيّها الأمير إن هذا الثور صال على هذا الرجل فقتله، وهذا مالكه وهو العاقلة؛ ففكر ساعة ثم أمر بالثور أن يُشْنق ويُطْلق صاحبه، قيل له: ما هذا حكم الله، فقال: لو جرى هذا في زمن فرعون ما فعل غير هذا، فإنه القاتل ولا يحلّ أن أقتل غير القاتل. وهذه الحكاية ذكرها القاضي الأسعد بن مماتي في كتابه الذي وضعه وسمّاه الفاشوش في إحكام قراقوش ذكر فيه من هذه الأحكام شيئًا كثيرًا، والعهدة عليه في ذلك فيما حكى، والله أعلم.

وكان نصر بن مقبل عاملًا للرشيد على الرقّة، فأُتي برجل من الظُرفاء وُجِد ينكح شاة، فقال: أيها الأمير إنها والله ملك يميني، وقد قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: الآية ٣]، فأطلقه وأمر أن تُضرب الشاة الحدّ، فإنْ ماتت تُصلب، قالوا: أيّها الأمير إنها بهيمة، قال: وإن كانت بهيمة، فإنّ الحدود لا تُعطّل، وإن عطّلتها فبِئْس الوالي أنا؛ فانتهى خبره إلى الرشيد ولم يكن رآه قبل فدعا به، فلما مَثُل بين يديه قال له: مِمّن أنت؟ قال: مولى لكلب؛ فضحك منه

ثم قال له: كيف بصرك بالحكم؟ قال: يا أمير المؤمنين الناس والبهائم عندي فيه سواء، ولو وجب الحدّ على بهيمة وكانت أُمّي أو أُختي لحدَدْتها ولم تأخذني في الله لومة لائم، فعزله الرشيد وأمر أن لا يُسْتعان به في عمل، فلم يزل معطّلًا إلى أنْ مات. وكان الربيع بن عبد الله العامري واليًا على اليمامة، فبلغه أنّ كلبًا قتل كلبًا لآخرين، فأمر أن يقتل به؛ فقال فيه بعض الشعراء(١): [الطويل]

شهدت بأنّ الله حقّ لقاؤه ... وأنّ الربيع العامري رقيعُ
أقاد لنا كلبًا بكلب ولم يدع ... دماء كلاب المسلمين تضيعُ

وكان أبو الضحاك ميمون قد وُلّي القضاء ببعض الأهواز، فأُتي برجل قد سرق فحدّه ثمانين، وأُتي برجل قذف فقطع يده، فقال فيه محمد بن مساور(٢): [السريع]

قد ذهب العلم وأشياعه ... إلّا أبا الضحاك ميمونا
يقطع كفّ القاذف المفتري ... ويجلد السارق ثمانينا

ومن التفقّل الواقع من الشعراء في مدائح السادات والكُبَراء

قال الخفاجيّ في كتاب سرّ الفصاحة: ينبغي للشاعر ذي التمييز في فنّه والتبريز أن لا يعبّر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذمّ، ولا يعبّر في الذمّ بالألفاظ المستعملة في المدح، بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ اللّائقة بها في موضع الجدّ ألفاظه، وفي موضع الهزل ألفاظه؛ ألّا ترى أنّ الإنسان إذا مدح ذكر الرأس والهامَة والكاهل، وإذا هجا ذكر الأخادع والقفا والقذال، وإن كانت معاني الجميع متقاربة، فقبيح بالشاعر وغيره أن يقول للملك: وحقّ قذالك مكان وحقّ رأسك؛ لأن الاستعمال مختلف في الألفاظ، وأن كان في المعنى غير مختلف؛ فمن السّقطات المعدودة في ذلك قول أبي نوّاس(٣): [مجزوء الرمل]

جاذ بالأموال حتى ... حسبوه الناس حمقا

---

(١) البيتان لحميد بن ثور الهلالي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيت في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:
عجبًا لي كيف أبقى ... ولقد أثخنت عشقا

وكقول أبي تمام[١]: [الكامل]

ما زال يهدي بالمكارم دائبًا ... حتى ظننّا أنه مَحْمومُ

وكقوله[٢]: [الخفيف]

يا أبا جعفر جُعِلْت فداكا ... فاق كل الوجوه حُسْن قفاكا

إلى غير ذلك من شعر المولدين والمحدثين والعصريّين؛ فالحُمْق ويهدي ومحموم من الألفاظ اللّائقة بالهجاء، وقد سقط المتنبّي في افتتاحه قصيدة مدح بها كافورًا الإخشيدي؛ إذ قال[٣]: [الطويل]

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا ... وحسب المنايا أن تكون أمانيا

قلت: وقد أشبه ما عيب ما حُكِي أنّ زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور أنشدها قاصد من الأعراب، فقال[٤]: [مجزوء الكامل]

أزبيدة ابنة جعفر ... طوبى لسائلك المُثابْ

تُعْطين من رجليك ما ... تعطي الأكفّ من الرّغابْ

فوثب إليه خدمها وهمّوا بضربه، فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيرًا فأخطأ، وهو أحبّ إلينا ممن أراد شرًّا فأصاب سمع قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك، فظنّ أنه إذا قال هكذا كان أبلغ أعطوه ما أمل، وعرّفوه ما جهل. وعابَ الفضل بن يحيىٰ على أبي نوّاس قوله في قصيدة مدحه بها[٥]: [الطويل]

سأشكو إلى الفضل بن يحيىٰ بن خالد ... هواكم لعلّ الفضل يجمع بيننا

فقال له الفضل: ما زدت على أنْ جعلتني قوّادًا؛ فقال: إنه جَمْع تفضّل لا جَمْع تواصل. وقد تابعه أبو الطيّب المتنبّي في قوله من قصيدة يمدح بها سعيد بن

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

أسقى طلولهم أجشّ هزيمُ ... وغدت عليه نضرة ونعيمُ

(٢) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

يا أبا جعفر أقرّ لك الحسـ ... ـن وحلّت جيوشه في ذراكا

(٣) البيت في ديوان المتنبّي، وهو مطلع القصيدة.

(٤) البيتان بلا نسبة في عيار الشعر، لابن طباطبا العلوي، ص ١٤٨.

(٥) البيت في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:

طرحتم من الرجال ذكرًا فغمّنا ... فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا

كلاب[١]: [البسيط]

عـلَّ الأمـيـر يرى ذلّي فـيـشـفـع لـي إلى التي صيَّرتني في الهوى مَثَلا

وعِيبَ عليه أيضًا قوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة بن حمدان[٢]: [الخفيف]

لـيـت أنـا إذا ارتـحـلت لـك الـخيـ ـل وأنـا إذا نـزلـت الـخـيـامُ

فإنه أنزل نفسه منزلة الأنملة، وعبّر عن همّته بالقلة بجعلها مركوبة، ولم يَكْفه ذلك حتى ألبس الممدوح شعاره، وأكسبه عاره، بجعله راكبًا تارة ومركوبًا أخرى، واتّصف بصفات المدح التي هو بها أحرى، فأساء الأدب وأخطأ الطريق، وعدم الرشد ويُمْن التوفيق. ودخل بعضهم على رئيس الرؤساء أبي الغنائم، فأنشده قصيدة جاء منها[٣]: [الوافر]

فـسـبـحـان الـذي أعـطـاك مُـلْكـا وعـلَّمـك الـجلوس عـلى الـسـريـرِ

وتمامه: [الوافر]

أتـذكـر إذ لـبـاسـك جـلـد شـاة وإذ نَـعْـلاك مـن جـلـد الـبـعـيـرِ

فقال له رجل من الجلساء: أتقول مثل هذا للرئيس، لا أُمَّ لك؟ فقال: والله ما ظننت أني قلت عيبًا غير أني مدحت الرئيس بما مدحت به؛ فضحك منه ووصله، وهذان البيتان ذكرهما الجاحظ في كتاب البيان والتبيين لأعشى همدان، وأنشد قبلهما: [الوافر]

فلسـت مـسلمًا مـا دمـت حيًّا عـلى زيـد بـتـسـلـيـم الأمـيـرِ
أمـيـر يـأكـل الـفـالـوذ سـرًّا ويُطْعـم ضيفه خبز الشَّعيرِ

وحدّث أحمد بن إسماعيل بن الخصيب، قال: دخلت على سليمان بن وهب بأبيات أُعزّيه فيها عن أُمّه، فأخذت في إنشادها، فقال: أنا أعزّك الله في

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
حيًّا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا
(٢) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
أيـن أزمـعـت أيُّـهـذا الـهـمـام نحن نبت الربى وأنت الغمامُ
(٣) الأبيات بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢/ ٢٨٧.

مصائب قد انثالت عليّ من كل جانب؛ قلت: وما هي، أطال الله بقاك؟ قال: ماتت أمّي وغيّر رسمي، ورثي ميتي بمثل هذا الشعر، ورمي لي رقعة مكتوب فيها[١]: [الطويل]

لأم سليمان علينا مصيبة مجلّلة مثل الحُسام البواتر
وكنت سراج البيت يا أمّ سالم فأضحى سراج البيت بين المقابر

فاشتغلت بالضحك عن البكاء، والتسلّي عن العَزاء، وكان الشعر لأبي أيوب واسمه صالح بن شهريار ابن أخت أبي الوزير. ومدح بعضهم أميرًا، فقال[٢]: [مجزوء الكامل]

أنت الإمام الأريحيّ الواسع ابن الواسعه

فقيل له: مِنْ أين عرفت هذا؟ قال: سمعت الناس يثنون عليك بذلك.

ومن شوارد هذا النّوع وأفراده ما يفي بغرض المتأمّل ومراده

ما حُكِيَ أنّ عبد الله بن رواحة رأته امرأته على بطن جارية له، فخرجت وشحذت شفرة ثم دخلت إليه تريد قتله، فوجدته قد خرج من عندها، فقال لها: مهيم، فقالت: أما أني لو وجدتك حيث كنت لوجأت بها بطنك؛ فقال لها: إنّ رسول الله ﷺ نهانا أن يقرأ أحدنا القرآن جنبًا، قالت: اقرأ؛ فأنشد[٣]: [الطويل]

أتانا رسول الله يتلو كتابه كما لاح مشهور من الصُّبح ساطعُ
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أنّ ما قال واقعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا ما استقرّت بالجُنوب المضاجعُ

(١) البيت الثاني لأبي أيوب ابن أخت أبي الوزير في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ١٢٧٠.
(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الأبيات في ديوان عبد الله بن رواحة، برواية:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقّ معروفٌ من الصبح ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أنّ ما قال واقعُ
يبيت يجافي في جنبه عن فراشه إذا استقلّت بالكافرين المضاجعُ
وأعلم علمًا ليس بالظنّ أنني إلى الله محشور هناك وراجعُ

فلمّا سمعت مقاله، قالت: آمنت بالله وكذّبت بصري؛ فأخبر بذلك عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ، فضحك حتى بدَتْ نواجذه. وأَسَر عتاب بن ورقاء جماعة من الخوارج فوجد فيهم امرأة، فقال: وأنت يا عدوّة الله ممّن مرق من الدين، وخرج على المسلمين؟ أمَا سمعت قول الله تعالى(١): [الخفيف]

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذُيولِ

فقالت: حسّن معرفتك بكتاب الله، دعانا إلى الخروج عليك يا عدوّ الله. وصعد المنبر بأصبهان فخطب، وقال في أثناء خطبته، وذلك كما قال الله في كتابه العزيز(٢): [الخفيف]

ليس شيء على المَنُون بباقي غير وجه المسبّح الخلّاقِ

فقال له رجل: ليس هذا قول الله، إنما هو قول عديّ بن زيد؛ قال: فنعم والله ما قال عدي. ومثل ذلك ما حُكِي أنّ علي بن زياد الإيادي قال في بعض خطبة: أقول لكم كما قال العبد الصالح: ما أريكم إلّا ما أرى، وما أُهديكم إلّا سبيل الرّشاد؛ فقام إليه إنسان وقال: ما هذا قول عبدٌ صالح، إنما هو قول فرعون؛ فقال: مَنْ قال هذا فقد أحسن. وأمّ رجلٌ من الظرفاء بقوم أيامًا، وكانوا من التغفّل بمكان، فكانوا يطعمونه الخبز والكامخ لا يزيدونه عليهما شيئًا، فصلّى بهم يومًا الصبح؛ فقرأ في الرّكعة الأُولى بعد الفاتحة: يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله ولا تطعموا أئمّتكم كامخًا بل لحمًا، فإن لم تجدوا لحمًا فشحمًا، فإن لم تجدوا شحمًا فبيضًا، ومن لم يفعل ذلك فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مُبينًا؛ وقرأ في الركعة الثانية: فإن لم تجدوا بيضًا فسمكًا واطبخوه سكباجًا، فإن لم تجدوا سمكًا فلبنًا ولا تحمّضوه تحميضًا، ومن يفعل ذلك فقد افترى إثمًا عظيمًا؛ فلما فرغ من صلاته جاؤوه واعتذروا إليه من التقصير في حقّه، وأنهم لم يكن عندهم علم بأن الله أنزل في الوصية بالأئمّة شيئًا، وسألوه في أيّ سورة هذه الآيات؟ فقال لهم: في سورة المائدة. وكان بعض الحُمْقى يتعشّق جارية، فهام بها دهرًا لا يقدر على الوصول إليها، فزارته يومًا فنام وتركها، فقالت له: وَيْحك ما

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إنّ من أكبر الكبائر عندي قتل بيضاء حرّة عطبولِ

(٢) البيت لعدي بن زيد في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.

دعاك إلى النَّوم وقد ظفرت بمَنْ تهواه؟ فقال: يا سيّدتي أتناوم لعلّي أراك أيضًا في المنام؛ كما قال الشاعر(١): [الطويل]

وإني لأستغشي وما بي نَعْسة لعلّ خيالًا منك يلقى خياليا

وكتب آخر إلى محبوبته: إنْ رأيت أن تزورينا عصمنا الله وإياك فافعلي؛ فكتبت إليه: يا أحمق متى عصمنا لا نجتمع أبدًا. ووقع بين سليمان بن مروان الأعمش وبين زوجته وحشة، فسأل بعض أصحابه الإصلاح بينهما، فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخنا وفقيهنا، فلا يزهدنّك فيه عموشة عينيه، ونَتْن إبطيه، وبخر شدقيه، وحمود كفّيه، وحموشة ساقيه؛ وذلك بمَرْأى مِنَ الأعمش ومسمع منه، فقال له الأعمش: كُفّ لا أُمّ لك، فقد ذكرت لها مِنْ عيوبي ما لم تكن تعرفه. وذكر أنّ عبد الله بن فضلويه، وكان عامل قزوين أنشد يومًا(٢): [البسيط]

يوم القيامة يومٌ لا دواء له إلّا الطلاء وإلّا الطّيب والطربُ

فقال له مَنْ حضره: أخطأت إنما هو يوم الحجامة، فقال: اعذروني، فإني لا أعرف أيهما. باع بعض المتجلّفين بستانًا، واشترى بثمنه حمارًا، فقال له صاحب له: بِعْت ما كان يعلفه السماء فيعوضك الشعير، واشتريت ما تعلفه الشعير فيعوضك الماء. ومِنْ هذا الباب تجلّف أبي غبشان، وكان سادنًا للكعبة، فإنه باع الكعبة بزقّ خمر حتى ضرب به المثل في التجلّف، فقيل أخسر صفقة من أبي غبشان، وتجلّف سلم الخاسر فإنه باع مصحفًا واشترى بثمنه طنبورًا، فضُرِب به المثل، فقيل: أخسر من سلم.

الفصل الثالث من الباب الثامن

في أنّ أنواع التغفّل والبَله ستور على الأولياء مسبلة

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحُجرات: الآية ١١]، وقال ﷺ: «رُبّ

---

(١) البيت لقيس بن ذريح في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا حيِّ لبنى اليوم إن كنت غاديًا وألمم بها من قبل أن لا تلاقيا

ولمجنون ليلى في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا يا غراب البَيْن ما لك كلّما تذكّرت ليلى طرت لي عن شماليا

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه»[١]، وقال عيسى عليه السلام للحواريّين: كونوا بلهًا كالحمام، حلمًا كالحيّات. وقال رسول الله ﷺ: «اطّلعت على الجنّة فرأيت أكثر أهلها البُله»[٢]. قال العلماء: هَمّ البُله في طلب الدنيا إلّا كيِّس في طلب الآخرة.

فمنهم عليان الذي كان قالبه مع الخلق وقلبه مستغرقًا في أسرار الحقّ

يُحْكى عنه أن رجلًا قال له: مَنْ العاقل؟ وهو يهزأ به، فقال: مَنْ حاسب نفسه وراقب ربّه. وقال حفص بن عتاب قاضي الكوفة: مررت بعليان وهو جالسٌ في السوق، فلما رآني قال: مَنْ أراد أن يتعجّل سرور الدنيا والنار في الآخرة فليتمنّ ما هذا فيه، قال ابن عتاب: والله لقد تمنّيت لمّا سمعت كلامه أن أُمّي لم تَلِدني، أو أني مُتّ قبل أن أليَ القضاء. وقال لأبي الوفاء وقد مرّ به: رأيناك أسْمنت دابّتك وأهْزلت دينك، أمَا والله إن أمامك لعقبة كؤودًا لا يجوزها إلّا المخفون. وعن ابن أبي فُديك قال: رأيت عليان قد دلّى رجليه في قبره، وهو يلعب بالتراب؛ فقلت له: ما تصنع هٰهنا؟ قال: أُجالس أقوامًا لا يُؤذونني إن حضرت، ولا يغتابونني إن غبت؛ فقلت: قد غلا السّعر فهلّا تدعو الله فيكشف عنّا الضرّ؟ فقال: والله لا أُبالي ولو حبّة بدينار، إنّ الله أخذ علينا العهد أن نعبده كما أمر، وأنّ عليه رزقنا كما وعد؛ ثم صفق بيديه وقام قائلًا[٣]: [البسيط]

يا من تمتّع بالدنيا وزينتها ... ولا تنام عن اللذّات عيناهُ
شغلت نفسك فيما ليس تُدْركه ... تقول لله ماذا حين تلقاهُ

وتُروى هذه الحكاية عن بهلول الآتي ذكره. وقال الحسن بن سهل بن منصور: رأيت الصّبيان يرمون عليان بالحجارة، فأدماه حجر منهم، فقال[٤]:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٤، والترمذي في المناقب باب ٥٤، وأحمد في المسند ٣/ ١٤٥، ٥/ ٤٠٧.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ١٣٥؛ ولبهلول المجنون في فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، في ترجمته.

(٤) الأبيات لبهلول المجنون في فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، في ترجمته.

[الرمل]

حسبي الله توكّلت عليه ... مِنْ نواصي الخلق طرًّا في يديهِ
ليس للهارب في مهربه ... بدًا من راحةٍ إلّا إليهِ
رُبّ رامٍ لي بأحجارِ الأذى ... لم أجد بُدًّا من العطف عليهِ

فقال له رجل: تعطف عليهم وهم يرمونك بالحجارة؟ فقال: اسكت لعلّ الله يطّلع على غمّي ووجعي وشدّتي فيفرح هؤلاء ويهب بعضًا لبعض. ومِنْ شعره[1]: [الخفيف]

أفلح الزّاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهم أجاعوا البُطونا
أقرحوا لأعين القريرة شوقًا ... فمضى ليلهم وهم ساجدونا
حيّرتهم مخافة الله حتى ... زعم الناس أنّ فيهم جنونا

وممّن كانت نفسه عن الشبهات مكفوفة

بهلول المعدود من مجانين الكوفة

قال عبد العزيز المتكلّم؛ رأيت بهلولًا يومًا باكرًا، فقلت: يا بهلول كيف أصبحت؟ قال: بخير، أنتظر لقاء مَنْ يوجب الأجر، ويحطّ الوزر، ويشدّ الأزر؛ ثم قال لي: يا عبد العزيز أحسن مجاورة النِّعم بالشكر عند الرّخاء، والصّبر عند البلاء. ولمّا دخل الرشيد الكوفة خرج الناس لينظروا إليه، فناداه بهلول: يا هارون ـ ثلاثًا ـ فقال الرشيد: مَنْ يجترىء علينا في هذا الموضع؟ فقيل له: بهلول، فرفع طرف السجف وقال: أدن، فقال: يا أمير المؤمنين روينا بالإسناد عن قدامة بن عبد الله العامريّ، قال: رأيت رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة لا ضربٌ ولا طرد ولا قيل بين يديه ولا إليك إليك[2]، وتواضعك في شرفك هذا خير من تجبّرك وتكبّرك؛ قال: فبكى الرشيد حتى بدت دموعه على الأرض، وقال: أحسنت يا بهلول زِدْنا يرحمك الله، قال: روينا عنه ﷺ أنه قال: «أيّما رجل آتاه الله مالًا وسلطانًا وجمالًا فأنفق من ماله، وعفّ في جماله، وعدل في سلطانه، كتب في

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) أخرجه الترمذي في الحجج باب ٦٥، والنسائي في المناسك باب ٢٢٠، وابن ماجه في المناسك باب ٦٦، والدارمي في المناسك باب ٦٠.

ديوان الله من الأبرار»[١]، قال الرشيد: أحسنت يا بهلول، وأمر له بجائزة، فقال: اردها على مَنْ أخذتها منه، فلا حاجة لي بها، قال: يا بهلول إنْ كان عليك دين قضَيْته عنك، قال: يا أمير المؤمنين إنّ هؤلاء أهل الرأي بالكوفة أجمعوا على أن قضاء الدَّيْن بالدَّيْن لا يجوز، قال: فهل لك أن أُجري عليك رزقًا يقوم بك ويكفيك؟ فرفع طرفه إلى السماء وقال: يا أمير المؤمنين أنا وأنت عيال الله؛ ثم تركه ومضى، وهذه الحكاية لذوي العقول كافية، وللقلوب من أدواء الذُّنوب شافية.

ومن مشاهير هذه الطائفة سعدون الطالب للعلا والراغب عن الدُّون

روى خالد بن عبد الله الطوسي، قال: لمّا حجّ هارون الرشيد فُرِش له من جوف العراق إلى مكّة لبود مرعزية، فمشى عليها لقضاء نذر وجب عليه، فاستند يومًا إلى زميل من تعبٍ ناله، وإذا بسعدون قد عارضه وهو يقول[٢]: [الهزج]

هب الدنيا تواتيكا ... أليس الموت يأتيكا
فما تصنع بالدنيا ... وظلّ الميل يكفيكا
ألا يا طالب الدنيا ... دَعْ الدنيا لشانيكا
كما أضحكك الدّهر ... كذاك الدّهر يُبكيكا

فبكى هارون، وقال: الويل لنا إن لم يَعْفُ الله عنّا. وقال عيسى بن عليّ: رأيت سعدونًا والصبيان يرمونه بالحجارة، فصرفتهم عنه، فقال لي بعض الصّبيان: إنه يزعم أنه يرى ربّه، فقلت له: ما تسمع مقالة الصّبيان؟ فقال: يا أخي مُذْ عرفت الله ما فقدته؛ ثم قال[٣]: [الخفيف]

زعم الناس أنّني مجنون ... كيف أسلو ولي فؤاد مَصُونُ
علق القلب بالبكا في الدّياجي ... وهو بالله مُغْرم محزونُ

وعن عطاء بن سعيد، قال: كتب سعدون إلى والينا: أمّا بعد، يا هذا إن لم تَسْتَحِ مِنَ الخلق فاسْتَحِ مِنَ الخالق، واحذر سهمًا من سِهامه، فإنّ سهامه لا

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٢) الأبيات في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ١١٦.
(٣) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٢١.

تُخطيء، ولا يغرنّك حلمه عنك، فإنّه إن عاقبك أهلكك وهتكك؛ ثم كتب عنوان: إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولًا. وقال إسماعيل بن عطاء: مررت بسعدون فلم أُسلّم عليه، فنظر إليّ وقال(١): [الكامل]

يا ذا الذي ترك السلام تعمّدًا ليس السلام بضائرٍ مَنْ سلّما
إنّ السلام تحيّة مبرورة ليست تحمّل قائليها مغرما

ورؤي سعدون يكتب بفحم على جدار(٢): [الكامل]

ما حال مَنْ سكن الثّرى ما حاله أمسى وقد رثّت هناك حبالُه
أمسى ولا روح الحياة تُصيبه أبدًا ولا لطف الحبيب ينالُه
أمسى وقد درست محاسن وجهه وتفرّقت في قبره أوصالُه
واستبدلت منه المحاسن غبرة وتقسّمت مِنْ بعده أموالُه
ما زالت الأيام تلعب بالفتى والمال يذهب صفوه وحلالُه

وكان إذا اشتدّ به الجوع رمق بطرفه إلى السماء، وقال(٣): [الوافر]

أتتركني وقد آليت حلفًا بأنك لا تضيع من خلقتا
وأنك ضامنٌ للرّزق حتى تؤدّي ما ضمنت وما قسمتا
فإنّي واثقٌ بك يا إلهي ولكن القلوب كما علمتا

ومن محاسن أخبارهم، وأحاسن آثارهم التي هي للقلوب الممحلة ربيع، وللصدور الصّدِئة غيث مريع، ما حُكِيَ أنّ سمنون قال لرجل يَعِظُه: اجعل قبرك خزانتك، واحشها مِنْ كلّ عمل صالح، فإذا وردت على ربّك سرّك ما ترى. ومِنْ كلامه: إذا بسط الجليل بساط العفو دخلت ذنوب الأوّلين والآخرين تحت حواشيه، وإذا بدَتْ ذرّة من عين الجود ألحقت المسيئين بالمُحْسنين. ومن شعره(٤): [الوافر]

لَئِن أمسيت في ثوبي عديمٌ لقد بليا على حُرٍّ كريمِ
فلا يحزنك إن أبصرت حالًا مغيّرة عن الحال القديمِ

---

(١) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٠٥. (٢) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٠٨.
(٣) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٢٠. (٤) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ٢١٩.

وقيل لشقران: مَنْ الحكيم؟ قال: الذي لا يتعرّض للعذاب الأليم، قيل: وما العذاب الأليم؟ قال: البُعْد عن الربِّ الكريم. وقال بعضهم: رأيت فليتًا والصّبيان حوله يُؤذونه ويرمونه بالحجارة، وهو يقول: ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأُمور. وقال أبو همام إسرائيل بن محمد القاضي: رأيت سابقًا المعتوه، وهو يكتب على حائطٍ بالفحم هذه الأبيات[1]: [الطويل]

نظرت إلى الدُّنيا بعينٍ مريضةٍ وفكرة معتوه وتأميل جاهل
فقلت هي الدنيا التي ليس مثلها ونافست منها في غرورٍ وباطل
وضيّعت أيّامًا طِوالًا كثيرة بلذّات أيّام قصار قلائل

وقيل لمجنون: فِيمَ يسعى هذا الخلق؟ قال: في طلب ما لا يكون من الدنيا؛ قيل: فما يطلبون؟ قال: الراحة، وذلك ما لا يجدون.

(١) الأبيات لنقرة المجنون في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٢١٣.

الباب التاسع

في السخاء

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب

في أن التبرّع بالنائل مِنْ أشرف الخِلال والشّمائل

قال رسول الله ﷺ: «الجُود من جود الله، فجودوا يَجِد الله عليكم. ألَا إنّ السّخاء شجرة في الجنّة أغصانها مُدْلاة في الأرض؛ فمن تعلّق بغصنٍ مِنها أدخله الجنّة. ألَا وإن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنّة»[1]، رواه أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب بإسناد متّصل في كتاب البخلاء له.

وقال ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخيّ، فإنّ الله آخذ بيده إذا عثر؛ إنّ السخيّ قريب من الله، قريب من الناس، قريبٌ من الجنّة، بعيدٌ من النار، ولَجاهلٌ سخيٌّ أحبّ إلى الله من عالِم بخيل»[2]. وقال ﷺ: «الخَلْق كلهم عيال الله، وأحبّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[3]. ورُوِي أنّ رسول الله ﷺ أُتي بأسرى من بني العنبر، فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلًا، فقال عليّ رضي الله عنه: يا رسول الله الربّ واحد، والدِّين واحد، والذّنب واحد، فما بال هذا مِنْ بينهم؟ فقال عليه الصّلاة والسّلام: «نزل عليّ جبريل ﷺ، فقال: اقتل هؤلاء واترك هذا، فإنّ الله شكر له سخاء فيه»[4]. وقال ﷺ: «أحبّ العباد إلى الله مَنْ حُبّب إليه المعروف، وإنما سُمّي المعروف معروفًا لأنّ الكِرام عرفته فألِفَتْه، والسخاء

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٩٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٦٢١٧.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٧٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٩٨٣.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٩١، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٦١٠، ٢٦١١، وابن كثير في البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٥.

(٤) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٧٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠١١٢.

سخاآن: سخاء نفس الرجل بما في يده يَصُون به عرضه عن ذمّ اللّئام، وتركه ما في أيدي الناس يغلق عنه باب الملام وهوان جمعهما، فقد وهب شرف أخلاق الكرام، وتواطأ على مدحه الخاصّ والعام»[١]. ويقال في مدح مثل هذا: فلان بماله متبرّع، وعن مال غيره متورّع. ويقال: مراتب العطاء ثلاث: سخاء وجود وإيثار، فالسخاء إعطاء الأقلّ وإمساك الأكثر، والجود إعطاء الأكثر وإمساك الأقلّ، والإيثار إعطاء الكلّ من غير إمساك لشيء وهذه أشرف الرُّتب وأعلاها، وأحقّها بالمدح وأوْلاها، فإنّ إيثار المرء غيره على نفسه أفضل من إيثار نفسه على غيره، وكفى بهذه الخلّة شرفًا مدح الله تعالى أهلها في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩]. وقالوا: الجوّاد مَنْ لم يكن جوده لدفع الأعداء، وطلب الجزاء؛ كما قال عبد الله بن جعفر: أمطر معروفك، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلًا، وإنْ أصاب اللّئام كنت له أهلًا.

فممّا ورد عن ذوي الإفضال في الحثّ على العطاء والنّوال ما ذُكِر عن عبد الملك بن مروان أنه كان يقول لبنيه: يا بني أُمية إنّ المؤمن الكريم يتّقي عرضه بماله، فلا تبخلوا إذا شئتم، فإن خير المال ما أفاد حمدًا أو نفى ذمًّا، ولا يقولنّ أحدكم ابدأ بِمَنْ تَعُول، فإنما الناس عيال الله تكفّل بأرزاقهم، فمن وسّع وُسّع عليه، ومن ضَيّق ضُيّق عليه؛ ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَأ: الآية ٣٩]، فيالله للعجب ما أشدّ ما باين قول هذا الخليفة فعله، وخالف سخاؤه بخله، وكيف قسم خليقته بين الإيجاب والسلب، وخصّ لسانه بالمدح وقلبه بالثّلب. وقال زهير بن جذيمة لولده: عليكم باصطناع المعروف واكتسابه وتلذّذوا بطيب نسيمه ورضابه، وارضوا مودّات الرجال من أثمانه، فرُبّ رجل قد صفر من ماله فعاش هو وعقبه في الذّكر الجميل. وقال شاعر في مثل هذا[٢]: [الطويل]

إذا كنت ذا حظٍّ من المال فاكتسب   به الأجر وارفع ذكر أهل المقابرِ

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٨/ ٢٦٣، ٤٤٨.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الفقيه منصور يرثي[١]: [الطويل]

سألت رسوم القبر عمَّن ثوى به   لا علم ما لاقى فقالت جوانبُهْ
أتسأل عمَّن عاش بعد وفاته   بمعروفه إخوانه وأقاربُهْ

وقال أبو نصر الميكالي[٢]: [الكامل]

الجود رأي موفق ومسدّد   والبذل فعل مؤيّد ومعانِ
والبرّ أكرم ما وَعَته حقيبة   والشكر أفضل ما حَوَتْه يدانِ
وإذا الكريم مضى وولّى عمره   كفل الثناء له بعُمْر ثانِ

وقال بعض الأعراب: الدّراهم مياسم تسم حمدًا وذمًّا، فمن حبسها كان لها، ومَنْ أنفقها كانت له. أخذ شاعر هذا المعنى، فقال[٣]: [الطويل]

إذا المَرْء لم يعتق من المال نفسه   تملّكه المال الذي هو مالكُه
ألا إنما مالي الذي أنا منفقٌ   وليس لي المال الذي أنا تاركُه

وأوصى قيس بن معديكرب بنيه، فقال: يا بُنَيّ عليكم بهذا المال، فاطلبوه أجمل الطلب، ثم أخرجوه في أجمل مذهب، فصِلُوا به الأرحام، واصطنعوا به الكرام، واجعلوه جنّة لأعراضكم، ووسيلة تصلون بها إلى أغراضكم، تحسن في النار مقالتكم، فإن بذله تمام الشرف وثبات المروءة، وأنه ليسوّد غير السيّد، ويقوّي غير الأيّد، حتى يكون في الناس نبيلًا، وفي القلوب مهيبًا جليلًا.

وقال الجاحظ: ليس شيء ألذّ ولا أسرّ ولا أنعم من عزّ الأمر والنهي، ومِنَ الظّفر بالأعداء، ومن تقليد عقود المنن في أعناق الرجال؛ لأنّ هذه الأمور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسمة النفس، فإن أحببت أن يزاد في الإحسان إليك وأن يثبت لديك ما أنعم الله به عليك، فاقْضِ حاجة مَنْ قَصدك، وابسط له بالبِشر وجهك وبالمعروف يدك. وقال الحجاج في بعض خطبه: لا يملنّ أحدكم المعروف، فإنّ صاحبه يعوّض خيرًا منه إمّا شكرًا في الدنيا، وإمّا ثوابًا في الآخرة. وكان يقال: المعروف كنز لا تأكله النار، وثوبٌ لا يدنّسه العار. وقال الأحنف بن

---

(١) البيتان في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهما بيتان منفردان.
(٢) الأبيات في خزانة الأدب، لعبد القادر البغدادي، ص ٥٩١.
(٣) البيتان لأبي العتاهية في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته، وليسا في ديوانه.

قيس: ما ادَّخر الآباء للأبناء، ولا أبقَت الأموات للأحياء أفضل مِنَ المعروف عند ذوي الأحساب والآداب. وكان يقال: إنّما مالك لك أو للحاجة أو للوَرَثة، فلا تكن أعجز الثلاثة. وقال بشار بن بُرْد من قصيدة مدح بها خالد بن برمك[١]: [الطويل]

أخالد إنّ المال يبقى لأهله جمالًا ولا يبقى الكنوز مع الحمدِ
فأطعم وكُلْ من عارة مستردّة ولا تُبْقِها إنّ العواري للردّ

المتنبي[٢]: [الطويل]

وأحْسَنُ شيء في الورى وجه محسن وأيمن كفّ فيهم كفّ مُنْعِمِ
وأشرفهم مَنْ كان أشرف هِمّة وأعظم إقدامًا على كلّ معظمِ
لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محبٍّ أو إساءة مُجرمِ

بعضهم[٣]: [الطويل]

إذا المال لم ينفع صديقًا ولم يصب قريبًا ولم يجبر به حال معدمِ
فعقباه أن تحتازه كفّ وارثٍ وللباخل المورث عقبى التندّمِ

محمود الورّاق[٤]: [المتقارب]

تمتع بمالك قبل الممات وإلّا فلا مال إن أنت مُتّا
شقيت به ثم خلفته لغيرك سحقًا وبعدًا ومقتا
يجود عليك برور البكاء وجدت له بالذي قد جمعتا
وأوهبته كل ما في يديك وخلّاك رهنًا بما قد كسبتا

---

(١) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:
لعمري لقد أجدى عليّ ابن برمك وما كل مَنْ كان الغنى عنده يجدي
ورواية البيت الأوّل في الديوان:
أجعفر إن الحمد يبقى لأهله جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكدّ
(٢) الأبيات في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
فراق ومن فارقت غير مذمّم وأم ومن يممت خير ميمّمِ
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) الأبيات في ديوان محمود الورّاق، وهي أربعة أبيات منفردة.

وينتظم في سلك هذه الأبيات ما يُرْوى من واعظ الحكايات

يُحْكى أنّ هشام بن عبد الملك لمّا احتضر رأى أهله يبكون عليه، فقال لهم: جادَ لكم هشام بالدنيا وجُدْتم له البكاء، وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب، يا سوء حال هشام إنْ لم يغفر الله له. بعضهم[١]: [الكامل]

لا تـجـبـهـنْ بـالـردّ وجـه مـؤمّـل فـلـخـيـر وقـتـك أن تـرى مـسـؤولا
واعـلـم بـأنـك عـن قـلـيـلٍ صـائـر خـبـرًا فـكُـنْ خـبـرًا يَـرُوق جـمـيـلا

الشريف الرّضيّ[٢]: [البسيط]

أحقّ مَنْ كانت النّعماء سابغة عليه من أسبغ النّعما على الأُممِ
وأجدر الناس أن تعنو لرقابٍ له مَنْ يسترقّ رقاب الناس بالنِّعمِ

الحضّ على انتهاز فرصة الإمكان

في إسداء المرجوّ من الإحسان لمن كان

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فتح عليه باب من الخير فلينتهزه، فإنه لا يدري متى يُغْلق عنه»[٣]. وقال حكيم: الدنيا غرّارة، إنْ بقيت لك لم تَبْقَ لها. وقال عبد الله بن شدّاد لابنه: يا بنيّ عليك باصطناع المعروف، فإنّ الدّهر ذو صروف والأيام ذات نوائب تقضي على الشاهد والغائب، كم من ذي رغبة صار مرغوبًا إليه، وكم من طالب صار مطلوبًا لديه. شاعر[٤]: [الخفيف]

لـيـس فـي كـلّ سـاعـة وأوان تـتـهـيّـأ صـنـائـع الإحـسـانِ
فـإذا أمـكـنـت فـبـادِرْ إلـيـهـا حـذرًا مـن تـعـذُّر الإمـكـانِ
واغـتـنـمـهـا إذا قـدرت عـلـيـهـا حـذرًا مـن تـغـيّـر الأزمـانِ
أحزم الـنـاس من إذا أحسن الدهـ ـر تـلـقـى الإحـسـان بـالإحـسـانِ

---

(١) البيتان لابن دريد الأزدي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أوّلها:

لا تـدخـلـنـك ضـجـرٌ مـن سـائـل فـلـخـيـر دهـرك أن تُـرى مـسـؤولا

(٢) البيتان في ديوان الشريف الرضيّ، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٣١٣٤، والقرطبي في تفسيره ٥/ ٣٨٣.

(٤) الأبيات بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٥٧٦.

ابن النقيب الكناني[(١)]: [الكامل]

الحمد أينع ما اجتناه المُجتني ... والمجد أرفع ما ابتناه المبتني
فإذا وليت وكان أمرك نافذًا ... فاذْخر صنيعًا في الولاية وابتني
من قبل أن يسعى لها فتفوته ... وتقول عند فواته يا ليتني

ابن هندو[(٢)]: [الوافر]

إذا هبّت رياحك فاغتنمها ... فإنّ لكل خافقة سكونْ
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما ندري السكون متى يكونْ

آخر[(٣)]: [البسيط]

لا تقطعنْ عادة الإحسان عن أحدٍ ... ما دُمت تقدر والأيام تاراتُ
واذكر فضيلة صنع الله إذ جعلت ... إليك لا لك عند الناس حاجاتُ

ومِنْ أحسن ما قيل مِنَ الأبيات في انتهاز الفرصة بالمعروف، وإغاثة المكروب والملهوف، قول سالم الأنباري[(٤)]: [الطويل]

تمتّع من الدُنيا بساعتك التي ... ظفرت بها ما لم تَعُقْك العوائقُ
فما يومك الماضي عليك بعائد ... ولا يومك الآتي به أنت واثقُ

احتجاج المتبجّج بالمعروف على السائل المجهول والمعروف

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَظُمت نعمة الله عنده عَظُمت مؤنة الناس إليه، فإن لم يحمل تلك فقد عرّض تلك النعمة للزوال»[(٥)]. وقيل لعبد الله بن جعفر، وكان جوّادًا: اقتصد في العطاء، فإنّ مَنْ ذهب ماله ذُلّ؛ فقال: إنّ الله عوّدني بالإفضال عليّ وعوّدته بالإفضال على عباده، فأخاف أنْ أقطع العادة فيقطع عني المادّة؛ ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: الآية ١١].

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٥٣٧.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان بلا نسبة في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ١٢٨٥.
(٥) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٧٥، ٩/ ١٢٥.

وقيل: أحسن الناس عَيْشًا مَنْ حسَّن عيش غيره في عيشه. وقيل لعبد الله بن طاهر، وكان جوّادًا: أنفق وأمسك بعض الإمساك؛ قال: إن سمن الكيس ونبل الذِّكر لا يجتمعان أبدًا. نظمه بعض الشعراء، فقال[١]: [المتقارب]

أراك تـؤمـل حـسـن الـثـنـاء ولـم يـرزق الله ذاك الـبـخـيـلا
وكـيـف يـسـود أخـو فـطـنـة يـمـنّ كـثـيـرًا ويـعـطـي قـلـيـلا

آخر[٢]: [السريع]

ما اجتمع المال وحُسْن الثنا مُذْ كانت الدنيا لإنسانِ
وأيّ هـذيـن تـخـيَّـرتـه ضـنًّـا بـه فـأله عـن الـثـانـي

آخر[٣]: [البسيط]

صَوْن الفتى عرضه عمّا يُدْنسه وصونه ما حواه ليس يجتمعُ
المال يُتْلفه دهرًا ويُرْجعه إليه والعرض لا يمضي فيرتجعُ

أبو تمام من أبيات[٤]: [الطويل]

ولم يجتمع شرقٌ وغرب لقاصدٍ ولا المجد في كفّ امرىء والدَّراهمُ
ولم أرَ كالمعروف يرعى حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغانمُ

وقال ابن عباس: لا يزهدنّك في المعروف كفر مَنْ كفره، فإنه يشكرك عليه مَنْ لم تصطنعه إليه. شاعر[٥]: [البسيط]

إني إذا أمكنتني ساعة سعة زيّنت بالبذل أوصافي وأحوالي
إما شكور فزيّن لي إعانته أو الكفور فعرضي صُنْت بالمال

---

(١) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٨٦٢؛ والإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، ص ٧٠٥.
(٢) البيتان لمنصور المصري في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ١٧٦٢.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:
ألم يأن أن تروي الظماءُ الحوائمُ وأن ينظم الشمل المشتّت ناظمُ
(٥) البيتان لم أجدهما.

آخر[١]: [الوافر]

يَدُ المعروف غنم حيث كانت تحملها شكورٌ أو كفورُ
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما جحد الكفورُ

آخر[٢]: [الوافر]

وأفضل ما دخرت على الليالي صنائع عند مصطنع شكورِ

ومِن المفاخر التي لا نزاع فيها ولا خلاف: بسط الوجه، وبذل القرى للأضياف.

أوّل من شرع سنّة قري الأضياف سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، كان إذا لم يجد مَنْ يأكل معه يخرج إلى الطرقات ليأتي بِمَنْ يأكل معه، ثم تبعته العرب على سنّته، وأوّل مَنْ وضع الموائد على الطرق سيّدنا عبد الله بن عباس، وكانت نفقته في كل يوم خمسمائة دينار. قال شاعر يمدح مَنْ هذه صفته[٣]: [الرجز]

أبلج بين حاجبيه نورُه إذا تغذّى رُفِعَتْ ستورُه

وفي مثله يقول الشاعر في خالد بن برمك[٤]: [الكامل]

تَأْبَى خلائق خالد وفِعَاله أنْ لا يُجيب لكلّ أمر عائبِ
وإذا حضرنا الباب عند غذائه أذن الغذاء لنا برغم الحاجبِ

وقال بعضهم[٥]: [الطويل]

أبيت خميص البطن غرثان طاويًا وأُوثر بالزّاد الرفيق على نفسي
وأمنحه فرشي وأفترش الثّرى وأجعل قرّ الليل مِنْ دونه لبسي
حذار مخازاة الأحاديث في غد إذا ضمّني وحدي إلى صدره رمسي

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيت لم أجده.
(٣) الرجز بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٦٩٥.
(٤) البيتان لعمارة بن عقيل في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٥) الأبيات لابن الدمينة في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

آخر(١): [الطويل]

أُضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ... ويخصب عندي والزمان جديبُ
وما الخصب للأضياف أن تُكثر القرى ... ولكنّما وجه الكريم خصيبُ

آخر(٢): [الرجز]

أَوْقد فإن الليل ليل قرُّ ... والرّيح ما سرّك ريح صرُّ
عسى يرى نارك من يمرُّ ... إن جلبت ضيفًا فأنت حرُّ

آخر(٣): [البسيط]

يسترسل الضّيف أنسًا في منازلنا ... فليس يعلم خلق أيّنا الضّيْفُ
والسّيْف إن قسته يومًا بناشبها ... لم تَدْرِ مِنْ عَزْمنا من ذا هو السّيفُ

آخر(٤): [البسيط]

قالت سليمى لحاك الله من رجلٍ ... ما تحفظ العهد والميثاق والذّمما
وحُرْمة الضيف ما إن خُنْت عهدكم ... وقد حلفت يمينًا برّة قسما
لو يعلم الضّيف عندي قدر منزله ... لتاهَ حتى يرى لا يرجع الكَلما
أقول للأهل والقُرْبى وقد حضروا ... قفوا قليلًا فإنّ الضيف قد قدما

آخر(٥): [الطويل]

لحا الله من يُمْسي بطينًا وجاره ... لِفَرْط الخوى محنيّ الضُّلوع خميصُ
لعمرك ما ضيفي عليّ بهيّنٍ ... وإني على ما سرّه لحريص

---

(١) البيتان للخريمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أسرُّ خليلي شاهدًا وأبرّه ... وأحفظه بالغَيْب حين يغيبُ

وهما لعمرو بن الأهتم ومسكين الدارمي في ديوانيهما، وهما فيهما بيتان منفردان.

(٢) الرجز لحاتم الطائي في ديوانه، وهو أربعة شطور منفردة.

(٣) البيتان لعليّ بن محمد العلوي في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١١٤٨.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان لم أجدهما.

إبراهيم بن هرمة[١]: [الطويل]

يبيتون في المشتى خماصًا وعندهم ... مِنَ الزّاد فضلات تعدّ لمن يقرى
إذا ضلّ عنهم ضيفهم رفعوا له ... مِنَ النار في الظَّلماء ألوية حُمْرا

وتبعه ابن المعتزّ، فقال[٢]: [الطويل]

وليلٌ يودّ المُصْطلون بناره ... ولو أنهم حتى الصباح وقودُها
رفعت به ناري لمن يبتغي القرى ... على شرف حتى أتاها وفودُها

آخر[٣]: [الطويل]

ومُستنبحٍ بعد الهدوّ برقدة ... بشقراء مثل البحر بادٍ وقودُها
فقلت له أهلًا وسهلًا ومرحبًا ... بوارد نار منجد مَنْ يَرُومُها
فإن شِئْت أوَيْناك في الحيّ مكرّمًا ... وإن شئت بلغناك أرضًا تَرُومُها

آخر[٤]: [الكامل]

لا تبعدنّ قومي وإن كانوا خوى ... فَلَنِعْم مأوى الضَّيْف والجيرانِ
الضَّيْف فيهم لا يحوّل رحله ... والجار مضمون مِنَ الحدثانِ

آخر[٥]: [الكامل]

الضّيْف أكرم ما استطعت محلّه ... وتلقّه بتودُّد وتهلّلِ
واعلم بأنّ الضيف يومًا مخبرٌ ... بمبيت ليلته وإن لم يُسألِ

وصيّة كريم بالسؤدد عليم: قال بعض البلغاء: سؤدد بلا جود، كمُلْك بلا جنود. وقالوا: جُود الرجل يحببه إلى أضداده، وبُخْله يُبْغضه إلى أولاده؛ وما

---

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن هرمة، وهما لصردر بن صربعر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
إذا نشر الناس الهرقلية الصفرا ... نثرت على علياتك الحمد والشُّكرا
(٢) البيتان في ديوان ابن المعتز، من قصيدة مطلعها:
سرى ليلة حتى أداه عمودها ... وأية سوق شوقها لا يعودُها
(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) البيتان لم أجدهما.

أصدق مَنْ قال(١): [الطويل]

إذا لم يكن للمَرْء فضلٌ ولم يكن يدافع عن إخوانه لم يسوّدِ
وكيف يسود القوم مَنْ هو مثلهم بلا مِنّة منه عليهم ولا يد

وقال بعض الحكماء: ثواب الجود خلف ومكافأة ومحبّة. وثواب البخل حرمان وإتلاف ومذمّة. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنّ للنّعمة أجنحة، فإن أمسكت بالإحسان قرّت وإلّا فرّت. وقال محمد ابن الحنفية رضي الله عنه: إن أفضل المال ما أفاد شكرًا، وأورث ذِكْرًا، وأوجب أجرًا، ولو رأيتم المعروف لرأيتموه حسنًا جميلًا. وقال المأمون: لأن أُخطىء معطيًا أحبّ إليّ مِنْ أن أُصيب مانعًا(٢): [الكامل]

العُرْف زينة ذي النُّهى وذخيرة يلقى جوائزها بكلّ مكانِ
ما ضاع معروفٌ أتيت إلى امرىء فغدا وراح يذيعه بلسانِ

ذكر الأجواد المعروفين ببذل الأَموال والموصوفين بإصلاح فساد الأحوال

أسْخاهم وأجودهم سيّدنا رسول الله ﷺ، في الحديث الصحيح: أنه ما سُئِل شيئًا قطّ فقال لا، فإنْ يكن عنده أعطى، وإنْ لم يكن عنده استدان. أعطى عُيَيْنة بن حصن مائة من الإبل، وأعطى الأقرع بن حابس مثلها، وأعطى أعرابيًا غنمًا بين جبلين، فانطلق الأعرابي وقال لقومه: أسلموا، فإنّ محمدًا ﷺ يعطي عطاء مَنْ لا يخاف الفقر. وقال أنس بن مالك: أُتي رسول الله ﷺ بمالٍ مِنَ البحرين لم يُؤْتَ قبله بمثله، فوضع في المسجد ثم خرج فصلّى، فلمّا فرغ من صلاته جلس ثم دعا بالمال، فما رأى أحد إلّا أعطاه منه، فجاءه عمّه العباس فقال: يا رسول الله إني فاديت نفسي وفاديت عقيلًا، فقال رسول الله ﷺ: «خذ»، فحثا في ثوبه، ثم ذهب ليقوم فلم يستطع، فقال: يا رسول الله مُرْ مَنْ يرفعه عليّ؟ قال: «لا»، قال: فارفعه أنت، قال: «لا»، فنثر منه ثم احتمله على كاهله وذهب، فما زال رسول الله ﷺ

(١) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٣١؛ وأمالي ابن الشجري، ص ٥٤٩.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

يُتْبعه بصره حتى خفي علينا تعجّبًا من حرصه، وما قام رسول الله ﷺ حتى فرّق المال جميعه[١].

وممّن عمرت الوفود أرجاء ناديه، وغمرت بالجود فواضله وأياديه، أجواد العرب في الجاهلية الذين ضُرِب بهم المثل في الجود ثلاثة لا رابع لهم، وهم: كعب بن مامة الإيادي، وهرم بن سنان النّمري، وحاتم الطائيّ؛ وقد جمعهم بعض الشعراء في بيتٍ واحد، فقال مادحًا مِنْ أبيات[٢]: [البسيط]

لو أدرك العصر مِنْ كعب ومن هرم   وحاتم جود كفّيه لما ذكروا

ومن أجواد العرب عمرو بن عبد مناف، فإنّه أوّل مَنْ هشم الثريد وجمع قومه عليه، فسُمّي لذلك هاشمًا؛ وفيه يقول الشاعر[٣]: [الكامل]

عمرو العلا هشم الثريد لقومه   ورجال مكّة مسنتون عِجافُ

ويقال في المثل: ما أحد كهاشم وإن هشم، ولا كحاتم وإن حتم.

وأجواد العرب في الإسلام: عبد الله بن عباس، وأخوه عبيد الله؛ فمن المأثور عن عبد الله أنّ رجلًا أراد مضارته، فأتى وجوه قريش وهم جلوس في فضاء الكعبة، وقال: يقول لكم عبد الله: تغدّوا عنده اليوم، فأتوه وقت الغداء حتى ملؤوا البيت، فسألهم عن مجيئهم فأخبروه الخبر، فأمر قومًا بشراء فاكهة، وأمر قومًا بالخبز، وقومًا أن يطبخوا وقدّمت الفاكهة إليهم، فما فرغوا من أكلها حتى قدّمت الموائد فأكلوا وانصرفوا، ثم قال عبد الله لوكيله: أيوجد مثل هذا كل يوم إذا أردناه؟ قال: نعم، قال: فليتغدّوا عندنا كل يوم.

وأمّا عبيد الله، فإنه كان لفرط جوده يسمّى معلّم الجود، وهو أوّل مَنْ وضع الموائد على الطُّرق، وكانت نفقته في كل يوم خمسمائة دينار، وكان إذا خرج من دوره طعام إلى رحابه ومساجده لا يردّ إليها منه شيء، فإن لم يجد مَنْ يأكله ترك مكانه، فربّما أكلته السّباع، وكان هو والناس في ماله سواء مَنْ سأله أعطاه، ومَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٤٢، والجهاد باب ١٧٢، والجزية باب ٤، والعتق باب ١١.

(٢) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٨٩٠.

(٣) البيت لعبد الله بن الزبعرى في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

كانت قريش بيضة فتفلقت   فالمخ خالصه لعبد مناف

لم يسأله ابتداءه، فلا يرى أنه يفتقر فيقتصر، ولا يرى أنه يحتاج فيدّخر. وكان يقال: مَنْ أراد الجمال والفقه والسخاء فَلْيَأْتِ دار العبّاس، فالجمال للفضل، والفقه لعبد الله، والسخاء لعبيد الله.

ومِنَ الأجواد: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال الأعمش: كنت عنده يومًا فأتى باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقم من مجلسه حتى فرّقها، وكان إذا أعجبه شيء مِنْ ماله تصدّق به، وكان كثيرًا ما يتصدّق بالسكر، فقيل له في ذلك، فقال: إني أحبّه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢]، وأعتق ألف عبد، كان إذا رأى عبدًا مِنْ عبيده ملازمًا للصلاة أعتقه، فقيل له: إنهم يخدعونك؟ فقال: مَنْ خَدَعَنا بالله انْخَدعنا له.

ومِنَ الأجواد: الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، سمع رجلًا يقول: اللّهمّ اعطني عشرة آلاف درهم، فأخذ بيده وانطلق به إلى منزله فأعطاه عشرة آلاف درهم، وخرج لله من ماله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرّات، حتى إنه أعطى نعلًا وأمسك نعلًا.

ومِنْ أجود الصحابة العشرة رضي الله عنهم: عثمان بن عفان، والزبير، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعيد بن العاص؛ كانوا رضي الله تعالى عنهم إذا رأوا أموالهم كَثُرت وزادت نقّصوها بإيلاء البرّ وإسداء المعروف خوفًا من أن تحملهم نفوسهم على البطر والطُّغيان، وأن تُلْهيهم بكثرتها عن الاشتغال بعبادة الرحمٰن؛ فمن المأثور عن عثمان بن عفان: أنه اشترى بئر رومية بأربعين ألف درهم وأوقفها على المسلمين، وأنفق في جيش العسرة عشرة آلاف دينار ذهبًا، فجعل رسول الله ﷺ يقلبها بيده ظهرًا لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما قدّمت وما أخّرت، وما أسْرَرْت وما أعْلَنت، ولا تبالي ما عمل بعد اليوم»(١). وأصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، فلما اشتدّ بهم الأمر جاؤوا إلى أبي بكر، وقالوا: يا خليفة رسول الله، إنّ السماء لم تُمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فما نصنع؟ فقال لهم: انصرفوا واصبروا، فإني أرجو الله أن لا تُمسوا حتى يفرج الله عنكم؛ فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٢٨٤٧، ٣٦١٨٩، ٣٦٢٤٥؛ وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٢٥٣.

عِيرًا لعثمان بن عفان جاءت من الشام وتُصْبح بالمدينة، فلمّا جاءت خرج الناس يتلقّونها، فإذا هي ألف بعير موسوقة برًا وزيتًا وزبيبًا، فأناخت بباب عثمان، فلمّا جعلها في داره جاء التجار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بِعْنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه؛ قال: حُبًا وكرامة، كم تُرْبحوني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة، قال: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا: خمسة، قال: أُعطيت أكثر من هذا، قالوا: يا أبا عمر وما بقي في المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد، فمن ذا الذي أعطاك؟ قال: إنّ الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أُشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين.

ومِنَ المأثور عن الزُّبَيْر بن العوّام رضي الله عنه أنّه كان له ألف عبد يؤدّون إليه الخِراج كل يوم، فما يدخل بيته منه درهم واحد، بل يتصدّق بذلك كلّه.

ومن المأثور عن عبد الرحمٰن بن عوف أنه باع أرضًا من عثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، وقسم ذلك في بني زهرة وفقراء المسلمين وأُمّهات المؤمنين، وبعث إلى عائشة رضي الله عنها من هذا المال بأربعين ألف درهم، فقالت: سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنّة. وحمل مرّة في عهد رسول الله ﷺ على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل مرّة أخرى على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وشاطر الله تعالى ماله ثلاث مرات، وأمر أن يتصدّق بعد موته بثلث ماله فعوفي فتصدّق به بنفسه، وجلس ليلة في بيته على عهد رسول الله ﷺ وكتب جريدة بتفريق جميع ماله على فقراء المهاجرين والأنصار، حتى كتب قميصه الذي على بدنه: هذا لفلان وهذا لفلان، ولم يترك شيئًا من ماله إلّا كتبه، فلما صلّى مع رسول الله ﷺ الصبح ناوله الجريدة، فنزل جبريل عليه السلام وقال: يا محمد يقول الله لك: اقرأ السلام منّي على عبد الرحمٰن ويأمرك أن تردّ له جريدته، وقل له: إن الله قد قَبِل صدقتك، وهو وكيل الله ووكيلك فيها، فليصنع في ماله ما شاء، ويتصرّف فيه كما كان يتصرّف فيه من قبل ولا حساب عليه. ويُرْوى أنه أعتق ثلاثين ألف عبد.

ومِنَ المأثور عن سعيد بن العاص رضي الله عنه أنّ رجلًا سأله، فقال لغلامه: أعطه خمسمائة، فمضى الغلام ثم رجع إليه مستفهمًا أدينارًا أو درهمًا؟

فقال: ما كنت أردت إلّا دراهم، أمّا إذ قد رجعت فصيّرها دنانير؛ فجعل الرجل يبكي، فقال له: ما يُبْكيك؟ قال: أبكي على أن تأكل الأرض مثلك. ويُرْوَى عنه أنه عزل عن المدينة، فانصرف ليلة من المسجد إلى منزله وحده، فرأى رجلًا يتبعه فقال له: ألك حاجة؟ قال: لا ولكني رأيتك وحدك فوصلت جناحك، فقال: وصلك الله يا ابن أخي، اطلب لي جلدًا وادع لي مولاي فلانًا، فأتاه به فكتب له صكًا بعشرة آلاف درهم وأشهد عليه مولاه بها، وقال: إذا جاءت غلّتنا دفعنا إليك ذلك؛ فمات سعيد في تلك السنة، فجاء الرجل بالصكّ إلى ولده عمرو فأمضاه وأعطاه عشرة آلاف درهم. ولمّا احتضر سعيد قال لبنيه: لا يفقد أصحابي بعد موتي غير وجهي، أجْروا عليهم ما كنت أُجري، واصنعوا إليهم ما كنت أصنع بهم، واكْفُوهم مؤنة الطّلب، فإنّ الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه مخافة أن يردّ عنها، والله لرجل بات يتململ على فراشه رآكم موضعًا لحاجته أعظم مِنّة عليكم منكم بما تعطونه. ويُرْوَى أيضًا أنه لمّا احتضر قال لبنيه: أيُّكم يتكفّل لي بثلاث؟ فقال ابنه عمرو: أنا، قال: اقْضِ عني ديني، وهو ثمانون ألف دينار والله ما استدنتها إلّا لكريم سددت خلّته، أو لئيم وَقيت عرضي عنه، قال: عليّ دينك يا أبت، قال: قد بَقِيت اثنتان، قال: وما هما؟ قال: بناتي لا تزوّجهنّ إلّا الأكفّاء، ولو تقلقن من خبز الشعير؛ قال: أفعل، قال: وبقيت واحدة هي أشدّهنّ عليّ، قال: ما هي؟ قال: إنْ فَقَد أصحابي وجهي فلا يفقدون معروفي، يا بنيّ ثلاث ضقت بهنّ ذرعًا: رجل اغبرّ وجهه في التردّد للتسليم عليّ، ورجل ضاق في مجلسي فتزحزح لي، ورجل نزل به مهمّ من الأُمور فبات متململًا على فراشه يتقلّب من أمره ظهرًا لبطن، فلمّا أصبح رآني موضعًا لحاجته، فلم أُكافئه ولو خرجت من جميع ما أملك.

ومِنَ الأجود: طلحة بن عبيد الله التميمي فرّق في يوم واحد مائة ألف درهم. وقال قبيصة بن حاتم: صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل من غير مسألةٍ منه، وهو أحد مشاهير الطّلحات الذين يُضْرَب بهم المثل في الجود، وكانوا ستّة، ويسمّى هذا طلحة الفيّاض. وطلحة بن عمر بن عبد الله بن معمر التميمي أيضًا، وهو طلحة الجود. وطلحة بن عبد الله بن عوف أخي عبد الرحمٰن الزهري، ويسمّى طلحة النّداء. وطلحة بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو طلحة الخَيْر. وطلحة بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر

الصدّيق، ويسمّى طلحة الدّراهم. وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو طلحة الطّلحات، وسُمّي بذلك لأنه كان أجودهم، وقيل: سمّي بذلك لأنه وَهَب في عامٍ واحد ألف جارية، فكانت كل جارية منهنّ إذا ولدت غلامًا تسمّيه طلحة على اسم سيّدها. وعن الحسن قال: باع طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي أرضًا بسبعمائة ألف درهم، فبات ذلك المال عنده ليلة، فبات أرِقًا مخافة ذلك المال حتى أصبح ففرّقه.

ومِنْ أجواد الصحابة معاوية بن أبي سفيان، قال عبد الله بن عمر: ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أجود من معاوية، وهو أوّل من أعطى ألف ألف في صلة، وكان يعطيها للحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم، ولمّا مات معاوية وولّى ابنه يزيد دخل وفد عبد الله بن جعفر على يزيد، فقال له: يا أمير المؤمنين إن والدك كان يصل رَحْمي في كل عام بألف ألف درهم، فقال يزيد: نعم وكرامة أعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف، فقال له عبد الله: بأبي أنت وأمّي يا أمير المؤمنين وما قلتها لأحد غيرك، قال يزيد: لا جرم إني أضعفها لك، فلك عليها ألف ألف أخرى؛ فخرج عبد الله بأربعة آلاف ألف درهم، فقيل ليزيد: أتقطع لرجل واحد أربعة آلاف ألف درهم، فقال للمُنْكِر: وَيْحك إنما أعطيتها لأهل المدينة، وما هي في يده إلّا عارية، ولم تزل عطيّات الخلفاء أُلوف الألوف، وكان آخر مَنْ فعلها مِنَ الخلفاء المنصور، ومِنَ الوزراء الحسن بن سهل.

ومن غُرر حكايات معاوية في العطاء أنه حجّ، فلما انصرف من المدينة قال الحسين بن عليّ لأخيه الحسن: لا تلقه ولا تسلّم عليه، فقال: إن عليّ دَيْنًا ولا بدّ من إتيانه، فركب في أثره حتى لحقه وسلّم عليه وأخبره بدَيْنه، فبينما هما يتحادثان إذ مرّ بختي قد أعياه حمله وقومٌ يسوقونه ليلحقوا به الحمول، فقال معاوية: ما شأن هذا البعير؟ فذكروا له أنه أغياه ما عليه مِنَ المال، قال: وكم عليه؟ قالوا: ثمانون ألف دينار، فقال: اصرفوها لأبي محمّد.

ومن الأجود: عبد الله بن جعفر الطيّار، وكان يسمّى بحر الجود لجوده، ويقال: إنه لم يكن في عصره أجود منه؛ فمن المأثور عنه أنه وقف على بابه يومًا، وكان أرباب الحاجات ينتظرون خروجه فنهضوا إليه، فما طلب أحد حاجة إلّا قضاها له، وكان فيمن حضر نصيب الشاعر، فلما نظر إلى ما يسمع عنه تقدّم إليه

وقبّل يده، وأنشد[١]: [الطويل]

ألفت نِعَمْ حتى كأنَّك لم تكن عرفت من الأشياء شيئًا سوى نعمْ
وعاذَيْت لا حتى كأنَّك لم تكن سمعت بلا في سالف الدَّهر والأمَمْ

فقال له عبد الله: ما حاجتك؟ قال: هذه رواحلي تميرني عليها، قال: أنِخ أنخ، ثم أوسقها له برًّا وتمرًا وأمر له بعشرة آلاف درهم وثياب، فلمّا انصرف نصيب قال قائل لعبد الله: يا ابن الطيّار أتعطي هذا العطاء كلّه لمثل هذا العبد الأسود؟ فقال: إن كان أسود فإن شعره لأبيض، وإن كان عبدًا فإن ثناءه لحرّ، وهل أعطيناه إلّا رواحل تمضي، وطعامًا يفنى، وثيابًا تُبْلى؛ وكان يعتق في غرّة كل شهر مائة عبد.

ومِن حكاياته: أنه ابتاع حائط نخل من رجل أنصاريّ بمائة ألف درهم، فرأى ابنًا له يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: كنت أطلب أنا وأبي أن نموت قبل خروج هذا الحائط من أيدينا، ولقد غرست بعض نخله بيدي، فدعا أباه وردّ عليه الصكّ وسوّغه المال.

ومِنَ الأجواد: عرابة الأوسي، يُحْكى عنه أنه اجتمع جماعة بفناء الكعبة، فتذاكروا الأجواد، فقال أحدهم: أجود الناس عبد الله بن جعفر، وقال آخر: أجود الناس قَيْس بن سعد بن عبادة، وقال آخر: أجود الناس عُرابة الأَوْسي، فقال رجل من الجماعة: لِيَمْضِ كل واحد منكم لصاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان؛ فقام صاحب عبد الله فصادفه قد وضع رجله في الرّكاب يريد سفرًا، فقال: يا ابن بنت عمّ رسول الله ﷺ، ابن سبيل ومنقطع به، فأقام ثني رجله وقال: خذ الناقة بما عليها ولا تخل عن السيف، فإنه من سيوف عليّ بن أبي طالب قوم عليّ بألف دينار؛ فجاء بالناقة بما عليها من مطارف خزّ وأربعة آلاف دينار وأعظمها السيف. ومضى الآخر إلى قيس بن سعد، فوجده نائمًا فقال له غلامه: هو نائم، فما حاجتك؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، قال: حاجتك أيْسَر مِنْ أن أُوقظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار، والله ما في دار قيس اليوم غيرها، خذها وامْضِ إلى معاطن الإبل بعلامة كذا إلى مَنْ فيها خذ راحلة وعبدًا وامْضِ إلى شأنك؛ قيل: إنّ قيسًا لمّا انتبه أعلمه غلامه بما يصنع فأعتقه، وقال له: هلّا

(١) البيتان ليسا في ديوان نصيب، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

أيقظتني فكنت أزيده. ومضى صاحب عرابة، فلقيه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متوكّىء على عبدين وقد كُفّ بصره، فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به، فتخلّى عن الغلامين وصفق بيديه وقال: أوّاه والله ما تركت الحقوق لعرابة مالًا خذ العبدين، فقال الرجل: ما كنت بالذي أقصّ جناحيك، قال: إن لم تأخذهما فهما حُرّان، فإن شئت فخذ وإن شئت فأعتق، ورفع يديه عنهما وتركهما وأقبل يلتمس الحائط بيده، فأخذ الرجل الغلامين وجاء بهما إلى أصحابه، فأجمعوا على أن عُرابة أجود الثلاثة؛ لأنه جُهْد من مُقلّ، وأن الغير أعطى من سعد، وفي عرابة يقول الشمّاخ[1]: [الوافر]

رأيت عُرابة الأوْسي يسمو إلى العلياء منقطع القَرينِ
إذا ما راية رفعت لمجد تلقّاها عرابة باليمينِ

ومِنَ الأجواد: عبيد الله بن أبي بكرة واسمه نفيع كناه رسول الله ﷺ به، ولإفراطه في الجود كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج أن لا توليه عملًا، فإنه أريحي. ومن حكاياته: أنه أوسع له رجل في مجلس، فلمّا قام قال للرجل: الحقني إلى منزلي، فلحقه فأمر له بعشرة آلاف درهم. وابتنى دارًا بالبصرة أنفق عليها عشرة آلاف دينار، فدخل عليه فيها بعض أصحابه واستحسنها، فقال: هي لك بما فيها من الفَرْش والأثاث والرقيق؛ فقال الرجل: يعمرها الله بك ويمتّعك بها، فقال: والله لتقبلنّها، فقَبِلَها. وولّاه عبد الله بن زياد سجستان وأمره بهدم ما فيها من بيوت الأشراف فهدمها، وأخذ ما فيها من الأموال المُعدّة للنفقة على سَدَنته، فكانت أربعة آلاف درهم، فما أتى عليه الحَوْل حتى استدان.

ومِنَ الأجواد أسماء بن خارجة مما يُحْكى عنه أنه رجع يومًا إلى داره، فرأى فتًى بالباب جالسًا، فقال: ما أجلسك هٰهنا؟ قال: خير، قال: والله لتخبرني، قال: جئت سائلًا أهل هذه الدار ما آكل، فخرج إليّ منها جارية اختطفت قلبي وسلبت عقلي، فأنا جالسٌ لعلّها تخرج ثانية فأنظر إليها، قال: أفتعرفها إذا رأيتها؟ قال: نعم؛ فدعا بِمَنْ في الدار مِنَ الجواري، وجعل يعرضهنّ عليه واحدة بعد واحدة حتى مرّت الجارية، فقال: هذه، فقال: قف مكانك حتى أخرج إليك، ثم

---

(١) البيتان في ديوان الشمّاخ، من قصيدة مطلعها:

كلا يومي طوالة وصل أروى ظنون آن مطّرحُ الظنونِ

دخل الدار وخرج والجارية معه، وقال للفتى: إنما أبطأت عليك لأنها لم تكن لي وإنما كانت لبعض بناتي، ولم أزل بها حتى ابتعتها منها، خذ بيدها فقد وهَبْتها لك، وهذه الألف أصلح بها شأنك.

ومِنَ الأجواد: يزيد بن أبي صفرة، وله حكايات شهدت بكرم نجاره، ونكب عن لحاقه فيها كل كريم فلم يُجاره؛ منها أنه دخل عليه الكوثر بن زفر الكلابيّ حين ولّاه سليمان بن عبد الملك العراق، فقال له ـ يعني ابن زفر ـ: أنت أكبر قدرًا من أن يُسْتعان عليك إلّا بك، ولست تصنع من المعروف شيئًا إلّا وهو أصغر منك، وليس العجب منك أن تفعل ولكن العجب منك أن لا تفعل، قال: سَلْ حاجتك، قال: تحمّلت عشر ديات وقد هاضني ذلك، قال: قد أمرت لك بها، فقال الكوثر: أما ما أسألك لوجهي فأقبله منك، وأما الذي بدأتني به فلا حاجة لي به، قال: ولِمَ وقد كفَيْتك ذُلّ السؤال؟ قال: رأيت الذي رُمْته ببذل مسألتي إيّاك وبذل وجهي لك أكبر من معروفك عندي، فكرهت الفضل لك عليّ، فقال يزيد: فأنا أسألك كما سألتني، أسألك بحقّك لما أهّلتني له من إنزال الحاجة بي إلّا قبلتها؛ ففعل.

وأوّل مَنْ عمل البيمارستانات، وأجرى الصدقات على الزّمنى والمجذومين والعُمْيان والمساكين، واستخدم لهم الخدّام الوليد بن عبد الملك؛ وهو أوّل مَنْ تكبّر مِنَ الخلفاء، وأنِفَ أن يُدْعى باسمه كما كان يُدْعى من قبله من الخلفاء، ويكفيه منقبة بناؤه جامع دمشق الذي هو أحد عجائب مباني الدنيا.

ومِن الأجواد: معن بن زائدة الشيباني، ويكفيه أن يُقال فيه: حدّث عن البحر ولا حرج، وعن معن ولا حرج، وسنورد شيئًا من أخباره في الفصل الثاني من هذا الباب.

ومِنَ الأجواد الذين توارثوا الكرم خلفًا عن سلف بنو برمك، وهم ستّة: خالد وولده يحيىٰ وأولاده أربعة، وهم الفضل وجعفر وموسى ومحمد. فأمّا خالد، فلم يزل يرتضع ثدي الخلافة صبيًا إلى أن بلغ من الكبر عتيًا. من جوده: أنه لم يكن لأحد من أصحابه ولد إلّا من جارية قد وهبها له، ولا دار إلّا من دور أنفق على بنائها ماله، وكان القصّاد يسمّون قبل أيّامه بالسؤّال، فكَرِه هذه التسمية ورأى أنها نقص فيهم، وقال: إنّ فيهم من له بيت وشرف وعِلْم وأدب، فسمّاهم

بالزوّار، وكانوا يقصدونه في المواسم للهناء بها، فيكتبون أسماءهم وتُعرض عليه فيخصّ كل واحد منهم على حِدَته، ويسأله بما يمتّ إليه حتى يعطيه بقدر ماتته ومنزلته. وتقدَّم إليه رجل، فقال له: بماذا تمت؟ فقال: والله ما بي من ماتة ولا حُرْمة ولا وسيلة، ولكن رغبت إليك بحُسْن الظنّ فيك والتيه بكرمك، وما بلغني من جودك؛ فقال: ما هٰهنا أحد أولى منك بالعطيّة؛ فأجزل صلته. ثم سأل آخر فقال: حُرْمتي بالأمير أنه جمعني وإيّاه مسجد بجرجان يوم كذا في شهر كذا، فصلّينا فيه، قال: حرمة لا تدفع، وأمر له بصِلة، وفيه يقول بشار بن بُرْد(١): [الطويل]

لعمرك قد أجدى عليّ ابن برمك ... وما كلّ مَنْ كان الغنى عنده يُجْدي
حلبت بشِعْري راحتيه فدرّتا ... عليّ كما درَّ السحاب على الرَّعد
أخالد إن الحمد يبقى لأهله ... جمالًا ولا تبقى الكنوز مع الكد
فأطعم وكل من عارة مُسْتردَّة ... ولا تُبْقها إن العواري للردّ

ثم كان ابنه يحيىٰ سالكًا في سننه آخذًا في الجود بفرائضه وسُننه، ففيه يقول سلم الخاسر(٢): [مجزوء الكامل]

يا أيها الملك الذي ... أضحى وهمّته المعالي
أنت المنوّه باسمه ... عند الملمّات الثّقالِ
ثم الذي أمواله ... عند المحامد خير مالِ
لله درّك من فتًى ... ما فيك من كرم الخِلالِ
يحيىٰ بن خالد الذي ... يعطي الجزيل ولا يبالي
أعطاك قبل سؤاله ... وكفاك مكروه السُّؤالِ
مَلِكٌ خَلَامِنْ ماله ... ومن المروءة غير خالِ
وإذا رماك بموعد ... كان النّوال مع المقالِ

(١) الأبيات في ديوان بشار بن برد، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٢) الأبيات ليست كلّها في ديوان سلم الخاسر، وفي الديوان:

وفتى خلا مِنْ مالِهِ ... ومن المروءة غير خالِ
وإذا رأى لك موعدًا ... كان الفِعال مع المقالِ
لله درك من فتى ... ما فيكِ من كرم الخلالِ
أعطاك قبل سؤاله ... فكفاك مكروه السؤالِ

وأولاده سادوا فشادوا ما أسّس، وجادوا فزاد المنّ بما غرس، فلهم طارف السخاء وتَليده، وكهل الثناء ووليده، فالفضل في جوده ونزاهته، وجعفر في بلاغته وفصاحته، وموسى في نجدته وشجاعته، ومحمد في مروءته وبُعْد همّته؛ وفيهم يقول الشاعر[١]: [مجزوء الرجز]

أولاد يحيىٰ أربع ... كالأربع الطبائع
فهم إذا اختبرتهم ... طبائع الصّنائع

لكن الفضل كان لتلقي العُفاة أبْسَطهم، وأمضاهم بالصّلة عزيمة وأنشطهم، وأمدّهم بالإنعام يدًا؛ لا سيما إن ترنّم شاعر بمدحه أو شدا، وفيه يقول الخياط المدنيّ[٢]: [الطويل]

لمست بكفّي كفّه أبتغي الغِنى ... ولم أدرِ أنّ الجود من كفّه يعدي
فلا أنا ممّا قد أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

وفيهم يقول سلم الخاسر[٣]: [الطويل]

سأرسل بيتًا قد وسمت جبينه ... يقطع أعناق البيوت الشواردِ
أقام النّدى والجود في كلّ بلدةٍ ... أقام بها الفضل بن يحيىٰ بن خالدِ

وفيهم قول مروان بن أبي حفصة، وجمعهم على النّسق[٤]: [الطويل]

لك الفضل يا فضل بن يحيىٰ بن خالد ... وما كلّ من يدّعي بفضل له الفضلُ
رأى الله فضلًا منك في الناس شائعًا ... فسمّاك فضلًا فالْتقى الاسم والفعلُ
وزادك فضلًا أنّ أهلك في الورى ... كِرام إذا أزرى بذي الشّرف الكهلُ
ولم يَبْق فيك الجود للبخل موضعًا ... فأصبح يستعدي على جودك البُخْلُ
إذا كذبت أسماء قوم عليهم ... فاسمك صديق له شاهد عدلُ

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان لبشار بن برد في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ولدعبل الخزاعي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

فرُحْتُ وقد أشبهت في الجود حاتمًا ... فضيّعت ما أعطى وأتلفت ما عندي

(٣) البيتان في ديوان سلم الخاسر، وهما بيتان منفردان.
(٤) الأبيات ليست في ديوان مروان بن أبي حفصة، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وفيه يقول الحسن بن مطير رحمه الله تعالى[١]: [الطويل]

رأى الله للفضل بن يحيىٰ فضيلة
فــفــضــله والله بــالــنــاس أعــلــمُ
لــه يــوم بــؤس فــيــه لــلــنــاس أبــؤس
ويــوم نــعــيــم فــيــه لــلــنــاس أنــعــمُ
فيمطر يوم الجود مِنْ كفّه النّدي
ويمطر يوم البؤس من كفّه الدّمُ
ولــو أن يــوم الــجــود خــلّى يــمــيــنــه
على الناس لم يصبح على الأرض مُعْدمُ
ولــو أن يــوم الــبــؤس خــلّى شــمــالــه
على الناس لم يُصْبح على الأرض مُجرمُ

وممّن فاه ببديع مدحه اللّسان من ذوي الإنعام والإحسان

وصف أعرابيّ رجلًا فقال: ذاك رجل اشترى عرضه من الأذى، فهو وإن أعطى الدنيا بأسرها رأى بعد ذلك أنّ عليه حقوقًا منها. ومدح أعرابيّ قومًا بالجود، فقال: هم الذين جعلوا أموالهم مناديل أعراضهم، فالحمد فيهم زائد، والجود لهم شاهد، يُعْطون أموالهم بطيب أنفسٍ إذا طلبت إليهم، ويباشرون المكروه بإشراق الوجوه إذا بغى عليهم. ومدح آخر رجلًا، فقال: ما رأيت الرّزق أبغض أحدًا بغضه. وقالوا: فلان دواء الفقر إن سُئِل أعطى، وإن لم يُسْأل ابتدأ. وقالوا: فلان يبذل ما جلّ، ويجبر ما اعتلّ، ويكثر ما قلّ. ومِنْ كلام الثعالبيّ: فلان يُحيي القلوب بلقائه قبل أن يميت العدم بعطائه، فلان يوجب الصِّلات وجوب الصّلاة، فلان لو أن البحر مدده، والسحاب يده، والجبال ذهبه، لقَصُرَت عمّا يهبه. وقالوا: فلان له نفس فيحاء لا تضيق بالبذل، وأذن صمّاء لا تُصْغي للعذل. وأمّا المنظوم في هذا فكثير؛ فمن ذلك قول المهلّب بن أبي صَفْرة[٢]: [الكامل]

قومٌ إذا نزل الغريب بأرضهم ... ردّوه رُبّ صواهل وقيانُ

---

(١) الأبيات في ديوان حسين بن مطير الأسدي، من أربعة أبيات، مطلعها البيت الأول هنا.
(٢) الأبيات لأمية بن أبي الصّلت في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
قومي ثقيف إن سألت وأسرتي ... وبهم أدافع ركن من عاداني =

لا يَنكتون الأرض عند سؤالهم لتطلب الحاجات بالعيدانُ
بل يبسطون وجوههم فترى لهم عند السّؤال كأحسن الألوانُ

آخر[١]: [الطويل]

نزلت على آل المهلّب شاتيًا بعيدًا عن الأوطان في زمن محلِ
فما زال بي إكرامهم وافتقادهم وإلطافهم حتى حسبتهم أهلي

آخر[٢]: [الكامل]

لو قيل للعبّاس عمّ محمّد قُلْ لا وأنت مخلّد ما قالَها
إنّ المكارم لم تزل معقولة حتى فَكَكْت براحتيك عِقالَها
وإذا الكِرام تسايروا في بلدةٍ كانوا كواكبها وأنت هلالَها
ما إن أعدّ من المكارم خصلة إلّا وجدتك عمّها وخالَها

الحُطَيْئة[٣]: [الطويل]

تزور امرأ يعطي على الحمد ماله ويعلم أن الشحّ غير مخلّدِ
كسوب ومتلاف إذا ما لقيته تهلّل واهتزّ اهتزاز المهنّدِ
متى تَأْتِه تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقدِ

أبو العتاهية[٤]: [المتقارب]

وإنّا إذا ما تركنا السّؤال فلم نَبْغِ نائله يبتدينا
وإن نحن لم نَبْغِ معروفه فمعروفه أبدًا مبتغينا

- ولسلم الخاسر في ديوانه، من أربعة بيات، والبيت الرابع:

وإذا دعوتهم ليوم كريهة سدّوا شعاع الشمس بالفرسانِ

والبيت فيه إقواء.

(١) البيتان بلا نسبة في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة صريع الدلاء محمد بن عبد الواحد.
(٢) الأبيات لأبي العتاهية في ديواني المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٢٢٤، وليسا في ديوانه.
(٣) الأبيات في ديوان الحُطيئة، من قصيدة مطلعها:

آثرت إدلاجي على ليل حرّةٍ هيم الحشا حسانة المتجرّدِ

(٤) البيتان في ديوان أبي العتاهية، وهما بيتان منفردان.

وقال مسلم بن الوليد مادحًا مِنْ أبيات[(١)]: [الكامل]

قبل أنامله فلَسْنَ أناملًا لكنهنّ مفاتح الأرزاقِ
واذكر صنائعه فلَسْن صنائعًا لكنهنّ قلائد الأعناقِ
يلقاك منه ثناؤه وعطاؤه بذكاء رائحة وطيب مذاقِ
كالشمس في كبد السماء محلّها وشعاعها قد شاع في الآفاقِ

مروان بن أبي حفصة[(٢)]: [البسيط]

له سحائبُ جود في أناملها أمطارها الفضّة البيضاء والذّهبِ
قول في العُسْر إن أيسرت ثانية أقصرت عن بعض ما أُعطي وما أهِبِ
حتى إذا عُدْن أيام اليسار له رأيت أمواله في الناس تنتهبِ

وما أحسن قول الكميت في خالد بن عبد الله القسريّ[(٣)]: [البسيط]

ما أنت في الجود إن عُدّت فضائله و ابن مامة إلّا البحر والوشلُ
أنسَيْتنا في النّدى أمثال أوّلنا فأنت للجود فيما بعدنا مثلُ

آخر[(٤)]: [الكامل]

فضح الغمام نواله أوَ ما ترى ضحك البُروق على الغمام الهاطلِ

وقال عامر بن الظّرب العدوانيّ مادحًا لقومه[(٥)]: [الطويل]

أولئك قوم شيّد الله فخرهم فما فوقه فخرٌ وإن عَظُم الفخرُ
أُناس إذا ما الدّهر أظلم وجهه فأيديهم بيض وأوجههم زَهْرُ
يَصُونون أحسابًا ومجدًا مؤثلًا ببذل أكُفّ دونها المزن والبحرُ
سُمّوا في المعالي رتبة فوق رتبة أحلّتهم حيث النّعائم والنسرُ

(١) الأبيات في ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) من أربعة أبيات منفردة.
(٢) الأبيات ليست في ديوان مروان بن أبي حفصة، وهي لمروان بن صرد في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٣٦٢.
(٣) البيتان للكميت بن زيد، قالهما لخالد بن عبد الله القسري، في الدّيباج، لأبي عبيدة، ص ٢٤، وليسا في ديوانه.
(٤) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) الأبيات في ديوان عامر بن الظرب العدواني، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

أضاءت لهم أحسابهم فتضاءلت لنورهم الشمس المُنيرة والبدرُ
فلو لامس الصخر الأصمّ أكُفّهم لفاض ينابيع الندى ذلك الصخرُ
شكَوْت لهم آلاءهم وبلاءهم وما ضاع معروف يكافئه شكرُ
ولو كان في الأرض البسيطة منهم لمُغْتبط عافٍ لما عرف الفقرُ

آخر[1]: [الطويل]

يبيتون في المشتا خماصًا وعندهم من الزّاد فضلات تعدّ لمن يقرى
إذا ضلّ عنهم ضيفهم رفعوا له من النار في الظّلْماء ألوية حمرا

آخر[2]: [الكامل]

سهل الحجاب إذ حَلَلْت ببابه طَلْق اليدين مؤدّب الخدامِ
وإذا رأيت شقيقه وصديقه لم تَدْرِ أيّهما أخو الأرحامِ

وقال محمد بن هانيء الأندلسي[3]: [الكامل]

أعطى وأكثر واستقلّ هِباته فاسْتَحْيت الأنواء وهي هواملُ
فاسم الغمام لديه وهو كنهور آل وأسماء البحار جداولُ
لم تَخْلُ أرض مِنْ نداه ولا خَلَا من شُكْر ما يولي لسان قائلُ

آخر[4]: [الطويل]

له راحة لو أن معشار جودها على البرّ كان البرّ أندى من البحرِ
إذا ما أتاه السائلون توقّدت عليه مصابيح الطّلاقة والبِشْرِ
له في ذُرَى المعروف نُعْمى كأنها مواقع ماء المُزْن في البلد القَفْرِ

---

(١) البيت الثاني لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، وهو بيت منفرد.
(٢) البيتان لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أوّلها:
لله درّك من فتى فجعت به يوم البقيع حوادث الأيام
(٣) الأبيات في ديوان ابن هانيء الأندلسي، من قصيدة مطلعها:
هل آجلٌ مما أؤمل عاجلُ أرجو زمانًا والزمان حلاحلُ
(٤) الأبيات للعكوك في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
ألا ربّ هل يمنع النوم دونه أقام كقبض الراحتين على الجمرِ

آخر(١): [السريع]

أصــبــح أهــلُ الأرض زوّاره فــمــا لــه نــهــب لــزوارِهْ
كــأنــمــا أدرّ بــيــن الــوَرى مــجــاري الأرزاق مــن دارِهْ

بكر بن النطّاح(٢): [الطويل]

أقول لمرتاد الندى غير مالك تمسك بجدوى مالك وصلاتِه
فتًى جعل الدنيا وِقاء لعرضه وإسداءه المعروف عند عداتِه
ولو خذلت أمواله جُود كفّه لقاسم مَنْ يرجو شطر حياتِه
لو لم يجز في العمر قسمًا لطالب وجاز له الإعطاء مِنْ حسناتِه
لجادَ بها من غير كُفْر لربّه وأشركه في صَوْمه وصلاتِه

آخر(٣): [الكامل]

يا أيها الملك الذي لنواله ظلّ تغرس دونه الآمالُ
أنعمت حتى ليس يقصد قاصد وبذلت حتى قلت السُّؤالُ
وجمعت أشتات المكارم والعُلا فاهنأ وأنت الواهب المِفْضالُ

علي بن الجهم في المتوكّل(٤): [مخلع البسيط]

يسرّ مرأ إمام عدل تغرق في بحره البحارُ
مؤمّل يرتجي ويخشى كأنه جنّة ونارُ
الملك فيه وفي بَنِيه ما دار بالأنجم المدارُ
لا زال في الملك ذا اغتباط ما طرد الليل والنهارُ
يداه بالجود ضرّتان عليه كلتاهما تغارُ
لم تَأتِ منه اليمين شيئًا إلّا أتت مثله اليسارُ

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات في ديوان بكر بن النطاح، من خمسة أبيات هي هذه.
(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) الأبيات في ديوان عليّ بن الجهم، من خمسة أبيات هي هذه، وهي نفسها في ديوان البحتري.

المتنبي[١]: [البسيط]

لولا المشقّة ساد الناس كلّهم ... الجود يفقر والإقدام قتّالُ
تملك الحمد حتى ما لمفتخر ... في الحمد حاء ولا ميم ولا دالُ

ومما ينبغي أن يكون لاحقًا بما ذكرناه ومتمّمًا للغرض الذي أردناه نوعان لهما في هذا الموضع لمن تأمّلهما أحسن موقع

النوع الأوّل
في ذمّ مَنْ أتبع الإحسان بالتعديد والامتنان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤]. وقال عليه الصّلاة والسلام: «إيّاكم والامتنان بالمعروف، فإنه يُبطل الشكر ويمحق الأجر»[٢]. وقالوا: المِنّة تهدم الصّنيعة. ويقال: تعداد المِنّة من ضعف المنّة؛ ومنه قول عمر رضي الله عنه في ذمّ منّان: شوي أخوك حتى إذا نضج رمد.

شاعر يذمّ منّانًا[٣]: [البسيط]

أفسدت بالمنّ ما وليت من حسنٍ ... ليس الجواد إذا أسدى بمنّانِ
المنّ يهدم ما شيّدت من كرمٍ ... هل يرغب الحرّ في هدم لبنيانِ

وقالوا: لا خير في المعروف إذا أُحصي. وقالوا: ما يعدّ لا يعتدّ. ويقال: أحسن العطاء موقعًا ما لم يشب بمنّ؛ ويُنشد في مثله[٤]: [مجزوء الرَّجز]

أحسن من كل حَسَنْ ... في كل وقت وزمنْ
صنيعة مشكورة ... خالية مِنَ المِنَنْ

---

(١) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
لا خيل عندك تُهديها ولا مالُ ... فليسعدِ النطقُ إن لم تسعد الحالُ
(٢) أخرجه القرطبي في تفسيره ٣/ ٣١٢.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٥٤٤.

ويُنْسَب للإمام الشافعي رضي الله عنه[١]: [مجزوء الكامل]

لا تحملن لمن يمنّ ... من الأنام عليك منّة
واختر لنفسك حظّها ... واصبر فإنّ الصبر جُنّة
مِنَن الرّجال على القلو ... ب أشدّ من وقع الأسِنّة

وقال بعضهم لأعرابيّ: إنّ فلانًا يزعم أنه كساك، فقال: إن المعروف إذا منّ به كفر، وإذا ضاق قلبه اتّسع لسانه. وقال لقمان: من عدّد نعمه محق كرمه. وقالوا: إذا طوّقت امرأ جوهر إحسانك، فلا تجعل المنّة به حظّ لسانك، فينحلّ معقود نظامه، ويصير بدره إلى السّرار بعد تمامه. وقالوا: خير المعروف ما لم يتقدّمه مطل، ولم يتبعه منّ؛ وقد أحسن قائل هذين البيتين[٢]: [البسيط]

إذا زرعت جميلًا فاسقه غدقًا ... مِنَ مكارم كي ينمو لك الشجرُ
ولا تبه بمنٍّ فالذي نقلوا ... من عادة المنّ أن يؤذى به الشمرُ

ويقال: عليك حقّ لمن أجريت عليه المعروف أن تستره ولا تُظْهره، وتقدّمه ولا تؤخّره، وتَسْتَقْلِلْه ولا تستكثره، ولا تتبعه منًّا ولا تُبْطله بأذًى. وقال موسى شهوان يمدح حمزة بن عبد الله بن الزبير بترك المنّ[٣]: [الرّمل]

حمزة المُبتاع بالمال الثّنا ... ويرى في بيعه أنْ قد غبنْ
وإذا أعطى عطاء مفضلًا ... ذا إخاء لم يكدّره بمنّ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي مفتخرًا بترك المنّ[٤]: [الوافر]

أفرّق بين معروفي ومنّي ... وأجمع بين مالي والحقوقِ

وكان يقال: الأيادي ثلاثة: يدٌ بيضاء ويدٌ خضراء ويدٌ سوداء، فاليد البيضاء لابتداء بالمعروف، والخضراء المكافأة عليه، والسوداء المنّ به.

---

(١) الأبيات في ديوان الشافعي، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) البيتان لم أجدهما.
(٣) البيتان لموسى شهوان (موسى بن يسار) في معجم الشعراء، للمرزباني، في ترجمته.
(٤) البيت في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، من ثلاثة أبيات، وهي:

أميل مع الزمام على ابن أمّي ... وأقضي للصديق على الشقيقِ
أفرّق بين معروفي ومنّي ... وأجمع بين مالي والحقوقِ
وإما تلفني حرًا مُطاعًا ... فإنك واجدي عبد الصديقِ

شاعر[١]: [المتقارب]

أراك تـؤمّـل حـسـن الـثـنـاء ألـم يـرزق الله ذاك الـبـخـيـلا
وكـيـف يـسـود أخًـا فـطـنـة يـمـنّ كـثـيـرًا ويـعـطـي قـلـيـلا

ومن أظرف الحكايات ولطف الفكاهات ما يُحْكى أنّ الأشعث بن قيس قال لرجل أسدى إليه معروفًا فلم يشكره عليه: ما شكرت معروفي عندك، فقال الرجل: إنّ معروفك كان من غير مُحتسب، فوقع عند غير شاكر. ولِيمَ بعضهم على منّه بمعروف أسداه، فقال: إذا كفرت النّعمة وجبت المِنّة. ولِيمَ آخر، فقال: إذا جُحِد الإحسان وجب الامتنان.

النوع الثاني
في أن من تمام المعروف ترك المطل به
وإعانة المستجدي على حصول مطلبه

قال جعفر الصادق: نظرت إلى المعروف فوجدته لا يتمّ إلّا بثلاث: تعجيله وستره وتصغيره؛ فإنك إذا عجّلته هنأته، وإذا سترته تمّمته، وإذا صغّرته عظّمته. مدح بعضهم مَنْ هذه خلّته، فقال[٢]: [الرمل]

زاد مـعـروفـك عـنـدي عِـظَـمًـا أنّـه عـنـدك مـسـتـورٌ حـقـيـرُ
تـتـنـاسـاه كـأن لـم تـأتِـهِ وهـو عـنـد الـنـاس مشكـور كـثـيـرُ

آخر[٣]: [الطويل]

أمِتْ ذكر معروف تُريد حياته فـإحـيـاؤه حـقًّـا إمـاتـة ذكـرِه
وصغره يعظم في النفوس محلّه فتصغيره في الناس تعظيم قدرِه

وقال عمرو بن العاص: ما استبطأني صاحب حاجة قطّ؛ لأني لا أعدّ شيئًا قطّ حتى أعدّ له نجازًا، ولا أمنع شيئًا حتى أعدّ له عُذْرًا. ويقال: إياك والمطل

---

(١) البيتان بلا نسبة في الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، ص ٧٠٤.
(٢) البيتان للخريمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
لا يـنـاجـي فـي الـنـدى إلا الـنـدى وإذا هـمّ بـه لا يـسـتـشـيـرُ
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

بالمعروف، فإنه مفسدة للمروءة، مَهْدمة للصنيعة، ممحقة الشكر، داعية للذمّ.
شاعر[١]: [السريع]

يا صانع المعروف لا تمطلنْ   يزداد ذو الحاجة في حاجتِهْ
فشُزْ بمعروفك ممطوله   وخيره ما كان في ساعتِهْ
لكل خير يُرْتجى آفة   ومَطْلك المعروف من آفتِهْ

وسأل رجل رجلًا فاعتذر إليه وعجّل صرفه، فقال: أصبت في الشكر من حيث أخطأت في الردّ؛ لأنك صرفتني وفي الزاد بقيّة، وفي النفس رمق، وفي الوجه بقيّة ماء الحياة. شاعر[٢]: [البسيط]

جود الكرام إذا ما كان عن عدة   وقد تأخر لم يسلم من الكَدَرِ
إنّ السّحائب لا تجدي بوارقها   نفعًا إذا هي لم تمطر على الأثرِ
وماطل الوعد مذمومٌ وإنْ سمحت   يداه مِنْ بعد طول المطل بالبدرِ

آخر[٣]: [الخفيف]

كم جزيل من النّوال أتاني   بعد مطل وكان غير جزيلِ
أيّ فرق بين الكريم إذا استبـ   ـطأت معروفه وبين البخيلِ

آخر[٤]: [الوافر]

رأيت المطل ميدانًا طويلًا   يروض طباعه فيه البخيلُ
يراود عن جداه نفس سوء   يرى أنّ الندى حملٌ ثقيلُ

آخر[٥]: [السريع]

تعجيل جود المَرْء أكرومة   ينشر عنه أطيب الذكرِ
والجرّ لا يمطل معروفه   ولا يليق المطل بالحرِ

---

(١) الأبيات ليزيد بن جبل في الموشى، للوشاء، ص ٨٦.
(٢) الأبيات لابن عسكر الموصلي (إبراهيم بن نصر) في وفيات الأعيان، في ترجمته.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أبا بكر لك المثل المعلّى   وخذ عدوّك الترب الذليلُ
(٥) البيتان للمأمون في ديوانه، وهما بيتان منفردان، والموشى للوشاء، ص ٨٥.

وقالوا: المنع بالعذر الجميل، خيرٌ من المطل الطويل. وقالوا: المطل مرض المعروف، والإنجاز برؤه، والمَنْع تلفه. وقالوا: المسؤول حرٌّ حتى يعدَ، ومسترقٌ بالوعد حتى ينجز. وقالوا: من مروءة المطلوب إليه أنْ لا يلجأ إلى الإلحاح عليه. وقالوا: الإسراع بالردّ خيرٌ من الإبطاء بالوعد. أبو تمّام(١): [الطويل]

وخير عداة المرء مختصراتها كما أن خير اللّيالي قصارُها
وإنّ الليالي الصالحات كبارها إذا وقعت تحت المطال صغارُها
وما العرف بالتسويف إلّا كخلّةٍ تسلّيْت عنها حين شطّ مزارُها

آخر(٢): [الطويل]

إذا قلت في شيء نَعَمْ فأتمّه فإن نَعَمْ دَيْن على الحرّ واجبُ
وإلّا فقل لا واسترح وأرِحْ بها لكَيْلا يقول الناس أنك كاذبُ

وقالوا: لولا أنّ إنجاز الوعد فضيلة معدومة في أكثر الناس لما وصف الله سبحانه وتعالى نبيّه إسمٰعيل بصدق الوعد. شاعر(٣): [الكامل]

إنّ الحوائج ربما أودى بها متطلّب يقضي له ممطولُها
فإذا قصدت لطالب لك حاجة فاعلم بأنّ تمامها تعجيلُها

الفصل الثاني من الباب التاسع

في منح الأماجد الأجواد ومُلَح الوافدين والقُصّاد

فممّا يجب أن يقدم فيما يمّمناه تلطّف الراغب لينال ما تمنّاه

يقال: التلطّف في السؤال سبب لتحصيل النّوال. وقالت الحكماء: لطف الاستماح سبب النجاح. وقال العتابيّ: إذا طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإيّاك والإلحاح عليه؛ فإنّ اللّجاجة تَكْلُم عرضك، وتُرِيق ماء

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:
رأيت العلا معمورة بك دارُها إذا اجتمعت جاشًا وقرّ قرارُها
(٢) البيتان لأبي الأسود الدُّؤلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
عدَ من الرحمٰن فضلاً ونعمةً عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
(٣) البيتان لم أجدهما.

وجهك، فلا تأخذ عوضًا مما أخذ منك، ولعلّ الإلحاح يجمع عليك أخلاق الوقاح، وحرمان النجاح؛ ولقد أحسن الأدب القائل(١): [الكامل]

وإذا طلبت إلى كريم حاجة ... فلقاؤه يكفيك والتسليمُ
فإذا رآك مسلّمًا عرف الذي ... حمّلته فكأنه ملزومُ

نقض بعضهم هذا بقوله(٢): [الكامل]

حثّ الجواد على النّدى وتقاضه ... بالوعد واحمله على الإنجازِ
ودع الوثوق بطبعه فلربّما ... نشط الجواد بشوكة المهمازِ

وقال بعضهم مقيمًا عذر من منع(٣): [الكامل]

وإذا طلبت إلى كريم حاجة ... فأبى فلا تقعد عليه بحاجبِ
فربما ضنّ الجواد وما به ... بخل ولكن سوء حظّ الطالبِ

فمن أحاسن بدائع ما تلطّف به
مَن استماح من الكلام الخادع لذوي السماح

ما حُكِي أنّ زياد ابن أبيه نظر إلى أعرابيّ يأكل على مائدته أكلًا ذريعًا، وهو من أقبح الناس وجهًا، فقال: يا أعرابيّ، كم عيالك؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهنّ، وهنّ آكل مني؛ فضحك زياد وقال: لله درّك ما ألطف جوابك، افرضوا لكل واحدة منهنّ مائة دينار، وعجّلوا لهنّ ذلك؛ وقد روى الأصمعي هذه الحكاية، وذكر أنها جرت لسعيد بن المحسن مع زياد، وأنه لما وصله ووصل أولاده خرج وهو ينشد(٤): [الطويل]

إذا كنت مرتاد السماحة والنّدى ... فبادر زيادًا أو أخًا لزيادِ
يجبك امرؤ يعطي على الحمد ماله ... إذا ضنّ بالمعروف كل جوّادِ

---

(١) البيتان لأبي الأسود الدُؤلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
حسدوا الفتى إذا لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصومُ
(٢) البيتان للحيص بيص في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان بلا نسبة في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة أبي الوحش الأسدي (سبع بن خلف بن محمّد).
(٤) البيتان بلا نسبة في الأوائل، لأبي هلال العسكري، ص ٤٧٠.

وحُكِي أنّ نصيبًا قال لعبد الملك بن مروان: يا أمير المؤمنين إنّ لي بنات نفضت عليهنّ من سوادي؛ فضحك منه، وأمر له بصلة. وقال المأمون للعتابي: سَلْني، فقال: يداك بالنّوال أنطق من لساني بالسّؤال. وقصد بعض الشعراء معن بن زائدة الشيباني يستجديه فأذن عليه، فلم يأذن له الحاجب، وكان معن في بستانٍ له، فعمد الشاعر إلى قطعة خشب وكتب عليها[١]: [الطويل]

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتي فما لي إلى معن سواك رسولُ

وأرسلها في ساقية تصل إليه، فلما وصلت إليه وقرأها أذن له، ووصله بعشرة آلاف درهم. وأمر المأمون محمد بن حازم أن يرتجل بيتين من الشعر، فقال[٢]: [السريع]

أنت سماء ويدي أرضها والأرض قد تأمل غيث السماءْ
فازرع يدًا عندي محمودة تحصد بها مني حُسْن الثناءْ

فاستحسن ذلك منه، وأعطاه عشرة آلاف درهم. سأل أعرابيّ عبد الملك بن مروان، فقال له: سَلِ الله تعالى، فقال: قد سألته فأحالني عليك؛ فضحك منه وأعطاه. وقدم على مخلد بن يزيد بن المهلب رجل كان قد ازدراه فأجازه، فقال: ألم تكن قد أتيتنا فأجزناك؟ قال: بلى، قال: فما ردّك؟ قال: قول الكميت فيك[٣]: [الوافر]

سألناه الجزيل فما تلكى وأعطى فوق منيّتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسن ثم أحسن ثم عادا
مرارًا لا أعود إليه إلّا تبسّم ضاحكًا وثنى الوسادا

فأضعف له ما كان أعطاه، وقد نسب ابن عبدوس هذه الأبيات لزياد بن عمرو العتكيّ في عبد الرحمٰن بن زياد في كتاب الوزراء له. ودخل أعرابيّ على

---

(١) البيت بلا نسبة في إعلام الناس بما وقع للبرامكة، للإتليدي، ص ٥٣٠.
(٢) البيتان في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ١٥١٠.
(٣) البيت الثالث في ديوان الكميت بن زيد الأسدي، وهو بيت منفرد.

خالد بن عبد الله القسري، فقال[١]: [الطويل]

أخالد إني لم أزرك لحاجة سوى أنني عافٍ وأنت جوادُ
أخالد بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما تأتي فأنتَ عمادُ

فقال له خالد: سَل حاجتك؟ قال: مائة ألف درهم، قال خالد: أسْرفت فأخطِطْنا منها، قال: حططتك ألفًا، فقال خالد: ما أعجب ما سألت وما حططت، فقال: لا يعجب الأمير سألته على قدره، وحططته على قدري؛ فضحك منه وأمر له بما طلب. وسأل رجل أسد بن عبد الله فقال: إني لا أسألك من حاجة، ولكني رأيتك تحب من أعطيت، فأحببت أن تحبّني؛ فأعطاه عشرة آلاف درهم. وقصد تمام بن حبيب بن أوْس الطائي عبد الله بن طاهر بعد موت أبيه أبي تمام، فاستنشده فأنشده[٢]: [السريع]

حيَّاك ربّ الناس حيَّاكا إذ بجمال الوجه روّاكا
بغداد من نورك قد أشرقت وأورق العود بجدواكا

فأطرق عبد الله ساعة، ثم قال: [السريع]

حيّاك ربّ الناس حيَّاكا إنّ الذي أملت أخطاكا
أتيت شخصًا قد خلا كيسه ولو حوى شيئًا لأعطاكا

فقال: أيّها الأمير إنّ بيع الشعر بالشعر ربا، فاجعل بينهما فضلًا مِنَ المال؛ فضحك منه، وقال: لَئِن فاتك شعر أبيك، فما فاتك ظرفه، وأمر له بصِلَة. وقف رجل لعبد الله بن طاهر في طريقه فناشده أن يقف له حتى ينشده ثلاثة أبيات، فوقف وقال له: قل، فأنشده[٣]: [المتقارب]

إذا قيل أيّ فتى تعلمون أهشّ إلى البائس والنائلِ
واضرب للهام يوم الوَغى وأطعم في الزَّمن الماحلِ
أشار إليك جمع الأنام إشارة غرقى إلى الساحلِ

---

(١) البيتان لبشار بن برد في ديوانه، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.
(٢) الخبر والأبيات في زهر الآداب، للحصري القيرواني، ص ٧٥٦، وإعلام الناس بما وقع للبرامكة، للإتليدي، ص ٦٤٤.
(٣) الأبيات لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، من ثلاثة أبيات.

فأمر له بخمسين ألف درهم. وكتب أحمد بن أبي طاهر إلى إسمٰعيل بن بلبل رقعة يذكر فيها اختلال حاله، وفي آخر الرقعة[١]: [مجزوء الكامل]

يا سيّدًا لمّا يزل غيثًا لكل مؤمّليهِ
إن كنت أملك درهمًا فكفرت بالمنقوش فيهِ

فبعث إليه بثلاثة آلاف دينار. حُكِيَ أنّ أعرابيًا وفد على معن بن زائدة، فلما مثل بين يديه، قال: مِمّن الرّجل؟ قال: رجل من العرب وهم أصلك وقومك، فلا تشغلني بالسؤال عمّا هم فيه مِنْ سوء الحال، قال: فما حاجتك؟ قال: نأي بلدي وكثرة ولدي، وضعف جلدي، وقلّة ذات يدي، فأتيتك يا مغيث اللّهيف، وجابر الضعيف آملًا لجودك، راجيًا لزودك؛ قال: فهل مِنْ قرابة تمتّ بها أو يد تتوسل بمثلها؟ قال: أنت أفضل من أن يبتدىء مثلي يدًا إلى مثلك، أو يتوسّل إليك بغير فضلك، أو تتمحّل الحِيَل عليك بذلك، وقد قلت في ذلك شعرًا، قال: هاته؛ فأنشد[٢]: [الطويل]

أيا جود معن ناجِ معنًا بحاجتي فما لي إلى معن سواك شفيعُ

قال: إذًا لا أشفعه فيك، فقال الأعرابي: ما أنت بالبخيل، فأوجه الذمّ إليك ولا أوليت ما يُحسن ثنائي عليك؛ ثم انصرف وهو يقول[٣]: [الوافر]

بأيّ الخصلتين عليك أُثني فإني عند منصرفي سؤولُ
أبالحسنى وليس لها ضياء عليّ فمن يصدّق ما أقولُ
أم الأخرى تكون فتلك عار على مَنْ دأبه الفعل الجميلُ

فرقّ له وأجزل صلته. وفد على أبي دلف قاسم بن عيسى العجلي مستجديًا، فأقام ببابه مدّة لا يصل إليه، فكتب في رقعة هذه الأبيات[٤]: [الكامل]

ماذا أقول إذا أتيت معاشرًا صفرًا يديّ من عند أروع مفضلِ
إن قلت أعطاني كذبت وإن أقل ضنّ الجواد بماله لم يجملِ

(١) البيتان لأحمد بن طيفور في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) تقدّم البيت مع تخريجه قبل قليل برواية: «رسولُ»، بدل «شفيعُ».
(٣) الأبيات بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٦٢.
(٤) الأبيات في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٤٣٨.

أم ما أقول إذا سُئِلت وقيل لي ... ماذا أفدت من الأمير المُجْزِلِ
ولأنت أعلم بالمكارم والعُلا ... مِنْ أنْ أقول فعلت ما لم تفعلِ
فاخْتَر لنفسك ما أقول فإنّني ... لا بدّ أعلمهم وإنْ لم أسألِ

ودفعها، فلما وقف عليها أبو دلف أمر له عن كل يوم إقامة ألف درهم، وكتب خلف الرّقعة[1]: [الكامل]

أعجلتنا فأتاك عاجل برّنا ... نزرًا ولو أمْهَلْتنا لم نقللِ
فخذ القليل وكُنْ كأنك لم تَسَلْ ... ونكون نحن كأننا لم نسألِ

ويُحكى أنّ أبا دُلامة دخل على المنصور، فأنشده[2]: [البسيط]

باتت تعاتبني من بعد رقدتها ... أمّ الدلامة لما هاجها الجزعُ
وقالت ابتع لنا نخلًا ومزدرعًا ... كما لجيراننا نخل ومزدرعُ
خادع خليفتنا عنها بمسألة ... إن الخليفة للتسآل ينخدعُ

فأمر أن يقطع ألف جريب عامرة، وألف جريدة غامرة، فقال أبو دلامة؛ أمّا العامرة فقد عرفته، فما الغامرة؟ قال: ما لا يدركه الماء ولا يسقى إلّا بالكلفة والمُؤنة، فقال أبو دلامة: أشهدك يا أمير المؤمنين ومن حضر أني أقطعت عبد الملك بادية بني أسد؛ فضحك المنصور وقال: يا عبد الملك اكتب عامرة، فقال أبو دلامة للمنصور: ائذن لي في تقبيل يدك، فلم يفعل، فقال: ما منعتني شيئًا هو أهون على عيالي من هذا. وكان المنصور يدخل البصرة في أيام بني أُمية متسترًا، فيجلس في حلقة أزهر السمّان المحدّث، فلمّا أفضَت الخلافة إليه قدم عليه أزهر الكوفة فرحب به وقرّب منزله، وقال له: ما الذي أقدمك علينا؟ قال: جئت طالبًا فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال له: قد قضيت حاجتك، فأخذها وانصرف ثم عاد إليه في قابل، فلمّا رآه قال له: ما جاء بك؟ قال: جئت مسلمًا، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال: لا تأتنا طالبًا ولا مسلمًا، فأخذها وانصرف ثم رجع إليه بعد عام، فقال له: ما الذي أقدمك علينا؟ قال: عائدًا، فوصله بعشرة

(١) البيتان في خزانة الأدب، لعبد القادر البغدادي، ص ٢١٦٥.
(٢) الأبيات في ديوان أبي دلامة، من قصيدة مطلعها:
إنّ الخليط أجدّ البين فانتجعوا ... يوم الوداع فما جاؤوا وما رتعوا

آلاف درهم، وقال: لا تأتِنا طالبًا ولا مسلمًا ولا عائدًا، فأخذها وانصرف ثم عاد بعد سنة، فلما رآه قال له: ما الذي أتى بك؟ قال: دعاء كنت سمعته من أمير المؤمنين جئت لأكتسبه؛ فضحك المنصور وقال: إنه غير مُستجاب لأني دعوت الله به أنْ لا يريني وجهك، فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وتعال متى أردت فقد أعْيَتْنا فيك الحيلة؛ وكان المنصور مبخلًا جدًا، وسنذكر شيئًا من أخباره في باب البخلاء إن شاء الله تعالى. وقصد الحكم بن عبدل الشاعر أسماء بن خارجة، فأنشده(١): [الكامل]

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد ... في ساعةٍ ما كنت قبل أنامُها
فرأيت أنك رُعْتني بوليدة ... مغناجة حسن لديّ قيامُها
وببدرة حملت إليّ وبغلة ... شهباء ناجبة تصكّ لجامُها
فسألت ربّي أن يُثيبك جنّة ... عوضًا يصيبك بردُها وسلامُها

فقال له: أصَبْت كل شيء رأيته عندنا إلّا البغلة، فإنها دهماء؛ فقال: أذكرتني أيّها الأمير، فإني ما رأيتها إلّا دهماء؛ فضحك منه أسماء وأمر له بكل ما سأل. وحَكَى أبو الفرج الأصفهاني أن هذه الحكاية جرت لابن عبدل مع بِشْر بن مروان أخي عبد الملك، والله أعلم بالصحيح من ذلك. ودخلت امرأة من هوازن على عبيد الله بن أبي بكرة، فوقفت بين السماطين وجعلت تلحظه وجهها مرّة وتستره أخرى، فلمّا أبصرها علم أنّ لها حاجة، فقال لجلسائه: ما عليكم أن تقوموا حتى تقول هذه المرأة حاجتها، تقدّمت وقالت: أصلح الله الأمير إني أتيتك من أرض شاسعة، ترفعني رافعة، وتخفضني واضعة، لملمات قد أكلن لحمي، وبرين عظمي، وتركنني أغصّ بالجريض، فضاق بي من البلد العريض، وقد جئت بلدًا لا أعرف فيها أحدًا، لا قرابة تكنفني ولا عشيرة تعرفني، بعد أن سألت أحياء العرب من المرجوّة نائله، المعطى سائله، فأرسلت إليك ودللت عليك، وأنا أصلحك الله امرأة قد هلك عنها الوالد، وذهب عنها الطارف والتّالد، ومثلك يسدّ الخِلّة ويُزيح الحلّة، فأمّا أن تحسن صفدي وتقيم أَوْدي، وإمّا أن تردّني إلى بلدي؛

---

(١) الأبيات في ديوان الحكم بن عبدل، من خمسة أبيات، والبيت الخامس:

ليت المنابر يا بن بشر أصبحت ... ترقى وأنت خطيبها وإمامُها

فقال: بل أجمع لك كل ما ذكرت، ثم أمر لها عشرة آلاف درهم وزاد وكسوة وراحلة.

أصاب الناس مجاعة على عهد هشام بن عبد الملك، فدخل عليه درواس بن حبيب العجليّ مع جماعة من قومه، فقال: يا أمير المؤمنين تتابعت علينا وعلى الناس سنون ثلاثة: أمّا الأولى فأكلت اللّحم، وأمّا الثانية فأذابت الشحم، وأمّا الثالثة فمصّت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن تكن لله فاعطفوا بها على عباده، وإن تكن لهم فعلام تحبسونها عنهم وتنفقونها إسرافًا وبدارًا، والله لا يحبّ المُسْرفين، وإن لم تكن لكم فتصدّقوا بها عليهم إنّ الله يجزي المتصدّقين، ولا يضيّع أجر المحسنين؛ فقال هشام: لله أبوك، ما تركت لنا واحدة من ثلاث؛ وأمر بمائة ألف، فقسمت في الناس، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين لكل واحد من المسلمين مثلها، قال: لا، ولا يقوم بذلك بيت المال، قال: فلا حاجة لي بما يبعث على ذمّك، فالزمه بها؛ فلما عاد إلى منزله قسم تسعين ألفًا في أحياء العرب وحبس عشرة آلاف له ولقومه، فبلغ ذلك هشامًا فقال: لله درّه إنّ الصنيعة عند مثله تبعث على مكارم الأخلاق.

ومثلها ما يُحْكى أنّ عبد الملك بن مروان حبس عن الناس العطاء، فدخل عليه أعرابيّ فقال: يا أبا الوليد بلغني أنّ عندك مالاً، فإن كان لله فاقسمه على عباده، وإن يكن لك فتفضّل به عليهم، وإن يكن لهم فادفع إليهم أموالهم، وإن يكن بينك وبينهم قد أسأت شركتهم، ثم ولّى؛ فقال عبد الملك: اطلبوا الرجل، فطلبوه فلم يقدر عليه، فأمر للناس بأعطياتهم.

وممّن أبرع من القصّاد في المدح وأجاد فاستحقّ به الصلة ممن سمح وجاد

دخل النابغة على النعمان بن المنذر بن ماء السماء بن امرىء القيس بن عمرو بن عديّ اللّخمي، فحيّاه تحيّة الملوك؛ ثم قال: يفاخرك ذو فائش وأنت سائس العرب، وغرّة الحسب واللّات لأمسك أيمن من يومه ولعبدك أكرم من قومه، ولقفاك أحسن من وجهه، وليسارك أجود من يمينه، ولظنّك أصدق من يقينه، ولوعدك أبلج من رفده، ولخالك أشرف من جدّه، ولنفسك أمنع من جُنْده،

وليومك أزهر من دهره، ولفترك أبسط من شبره؛ ثم أنشد[١]: [البسيط]

أخلاق مجدك جلّت ما لها خطر ... في البأس والجود بين الحلم والخفرِ
متوّج بالمعالي فوق مفرقه ... وفي الوَغى ضَيغم في صورة القمرِ
إذا دجا الخطب جلاه بصارمه ... كما يجلي زمان المحل بالمطرِ

فتهلّل وجه النّعمان سرورًا، ثم أمر أن يحشى فوه درًّا، ويُكسى أثواب الرّضا، وهي جباب أطواقها الذهب في قضب الزمرد، ثم قال النعمان: هكذا فَلْتُمدح الملوك؛ وذوفائش المذكور هو سلامة بن يزيد بن سلامة من ولد يحصب بن مالك، وكان النابغة متّصلًا به قبل اتّصاله بالنعمان، وله فيه مدائح كثيرة مذكورة في ديوانه، وفائش مشتقّ من المفايشة وهي المفاخرة، قاله الأصمعيّ في اشتقاقه. ودخل أبو العتاهية إسمٰعيل بن قاسم بن سويد العنبري العتبيّ على عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث الذي يقول فيه بشار بن بُرْد مِنْ أبيات[٢]: [المتقارب]

إذا أرْقَتْك جسام الأُمور ... فنبّه لها عمرًا ثمّ نَمْ
فتًى لا يبيت على دمنةٍ ... ولا يشرب الماء إلّا بدم

فأنشده أبياتًا يقول منها[٣]: [الكامل]

إني أمنت من الزّمان ورَيْبه ... لما علقت من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إجلاله ... لحذوا له حرّ الوجوه نِعالا
إنّ المطايا تستكيك لأنها ... قطعت إليك سباسبًا ورمالا
فإذا أتَيْنَ بنا أتَيْن مخفة ... وإذا رجعن بنار رجعن ثِقالا

فأمر عمرو من حضر مجلسه أن يخلعوا عليه، فخلعوا عليه حتى لم يقدر على النهوض لما عليه من الثياب، فلمّا خرج حسده مَنْ كان ببابه من الشعراء،

---

(١) البيتان الأولان في ديوان النابغة الذبياني، وهما بيتان منفردان، وفي الديوان: «بين العلمِ والخبرِ»، بدل: «بين الحلم والخفر».

(٢) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

ونبئت قومًا بهم جنة ... يقولون من ذا وكنت العلمْ

(٣) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، من قصيدة مطلعها:

يا صاح قد عظم البلاء وطالا ... وازددت بعده صبوة وخبالا

فبلغ عمرًا الخبر فقال: عليّ بهم؛ فلما دخلوا عليه ومَثَلوا بين يديه، قال لهم: ما أحسد بعضكم لبعض يا معشر الشعراء إن أحدكم يريد مدحنا فينسب في قصيدته بخمسين بيتًا، فما يبلغ مدحنا حتى تذهب حلاوة شعره وتعرى طلاوة رونقه، وأبو العتاهية بدأ بذكرنا، وختم بمدحنا؛ ثم أرسل إلى أبي العتاهية: أن أقِمْ حتى أنظر في أمرك، فأقام أيامًا فلم يرَ شيئًا، وكان عمرو ينتظر مالًا يجيء إليه من بعض أعماله، فأبطأ عليه، فكتب إليه أبو العتاهية هذه الأبيات(١): [البسيط]

يا ابن العلا ويا ابن القرم مرداس إني مدحتك في صحبي وجُلّاسي
أثني عليك ولي حال تكذّبني فيما أقول فأستحيي مِنَ الناس
حتى إذا قيل ما أعطاك من صفدٍ طأطأت من سوء حال عندها رأسي

فقال عمرو لحاجبه: اكففه عني أيامًا، ففعل، فلما طال على أبي العتاهية الانتظار كتب إليه يستحثه(٢): [الطويل]

أصابت علينا جودك العين يا عُمَرْ فنحن لها نبغي التّمائم والنشرْ
أصابتك عين من سخائك صلبة ويا ربّ عين صلبة تفلق الحجرْ
سنرقيك بالأشعار حتى تملّها وإن لم تفق منها رقبناك بالسورْ

فضحك عمرو وقال لصاحب بيت ماله: كم عندك؟ قال: سبعون ألفًا، قال: ادفعها له واعذرني عنده ولا تدخله عليّ، فإني أستحي منه. ولقد أحسن ابن الرومي في مدح مَنْ رأى أنه قصّر في عطائه، فاعتذر منه(٣): [الكامل]

يعطي عطاء المحسن الخضل النّدِي عفوًا ويعتذر اعتذار المُذْنبِ

وما وقفت فيما طالعت من كتب الأدب على أحسن من قول القائل معتذرًا من تقصيره في معروفٍ أسداه(٤): [الطويل]

لو انبسطت فيما تؤمّله يدي لجُدْت به عفوًا ولو أنه الدنيا

---

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) انظر الحاشية السابقة.
(٣) البيت ليس في ديوان ابن الرومي، وهو لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أحسن بأيام العقيق وأطيبِ والعيش في أظلالهنّ المعجبِ
(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ولـكـنـنـي والله والـذي إليه الحجيج يقطعون الفلا سعيا
طويت همومًا لو أُصيب ببعضها يد الدهر ما استطاعت لا يسرّها طيا
خذ العفو واعذر صاحبًا لو بنفسه يبرّ والدنيا غلامك لاستحيا

آخر[1]: [البسيط]

خلّ إذا جئته يومًا لتسأله أعطاك ما ملكت كفّاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يُظهرها إنّ الجميل إذا أخفيته ظهرا

وحكى جحظة البرمكي قال: أنشد مقدس الخلوقي طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق مولى طلحة الطَّلحات الخزاعي، فمدحه فلم يثبه وتغافل عنه حتى ركب في حراقته فعارضه، وقال له: بحقّ رأس أمير المؤمنين إلّا سمعت من ثلاثة أبيات؛ فأمر بإيقاف الحراقة، وقال: هاتِ الأبيات؛ فأنشده[2]: [المتقارب]

عجبت لحراقة بن الحسيـ ـن كيف تسير ولا تغرقُ
وبحران من فوقها واحد وآخر من تحتها مطبقُ
وأعجب من ذاك عيدانها إذا مسّها كف لا تُورقُ

فأمر له عن كل بيت بألف دينار. وكان طاهر بن الحسين من الأجواد ذُكِر أنه جلس في مجلس يومًا فنظر في قصص ورقاع، فوقع عليها بصلات أُحصيت فكانت ألف ألف درهم. ركب الرّشيد في بعض أسفاره ناقة، فطلع عليه أعرابيّ، فأنشده[3]: [الهزج]

أغيثًا تحمل الناقـ ـة أم تحمل هارونا
أم الشمس أم البدر أم الدنيا أم الدِّينا
ألا كلّ ما قلتـ ـه قد أصبح مأمونا

فأمر له بعشرة آلاف درهم. قام رجل بين يدي خالد بن عبد الله القسري، فقال: أصلح الله الأمير قد قلت فيك بيتين ولست أنشدهما حتى تعطيني قيمتها،

(١) البيتان بلا نسبة في المحاسن والأضداد، للجاحظ، ص ١٣٣.
(٢) الأبيات لدعبل الخزاعي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٣) الأبيات ليوسف بن الحجاج بن يوسف، ابن الصيقل، ويلقّب بلقوة، في معجم الأدباء، في ترجمته. ولابن أبي السعلاة في نور القَبَس، للحافظ اليغموري، ص ٢٧٦.

قال: وكم قيمتهما؟ قال: عشرون ألفًا، قال: أنشدهما؛ فأنشد[(١)]: [الكامل]

قد كان آدم قبل حين وفاته أوصاك حين تجود بالحوباءِ
ببنيه أن ترعاهم فرعَيْتهم فكفيت آدم عَيْلة الآباءِ

فأمر له بعشرين ألفًا وأن يُجلد خمسين سوطًا، وأن ينادى عليه: هذا جزاء مَنْ لا يُحسن قيمة الشّعر. وقف أعرابيّ لمعن بن زائدة في طريقه، فأنشده[(٢)]: [مجزوء الكامل]

يا واحد العرب الذي أضحى وليس له نظيرُ
لو كان مثلك في الورى ما كان في الدُّنيا فقيرُ

فأمر له بألفَيْ درهم. ومِن حكاياته: أنّ رجلًا قال له: إني جعلت فضلك سببي إليك، وكرمك وسيلتي عندك، قال: سَلْ، قال: ألف درهم، قال معن: قد أربحتني أربعة آلاف درهم، وإني حدّثت نفسي خمسة آلاف، فقال: أنت أكبر من أن تربح على مؤمّلك؛ فأعطاه خمسة آلاف درهم. وأنشد أعرابيّ[(٣)]: [الوافر]

كتبت نعم ببابك حين تدعو إليك الناس مسفرة النّقابِ
وقلت ألا عليك بباب غيري فإنك لن تُرى أبدًا ببابي

فأعطاه ألف دينار. وحدّث بعضهم قال: كنّا مع يزيد بن مزيد، فإذا بصائح في الليل: يا يزيد بن مزيد، قال: عليّ بهذا الصائح؛ فلمّا جِيء به قال له: ما حملك على أن ناديْت بهذا الاسم، فقال: نقبت دابّتي ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر فتمنّيت به، فقال له: وما قال الشاعر؟ فأنشد[(٤)]: [الطويل]

إذا قيل مَنْ للمجد والجود والنّدى فنادِ بصوت يا يزيد بن مزيدِ

فلمّا سمع مقاله هشّ له، وقال له: أتعرف يزيد بن مزيد؟ قال: لا والله، قال: أنا هو؛ وأمر له فرس أبلق كان مُعجبًا به وبمائة. قام أعرابيّ بين يدي داود بن المهلّب وقال: إنّي قد مدحتك فاسمع، قال: على رِسْلك، ثم دخل بيته فتقلّد

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان لابن المولى يمدح بها يزيد بن حاتم المهلبي في وفيات الأعيان، في ترجمة يزيد بن حاتم.
(٣) البيتان لم أجدهما.
(٤) البيت بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة يزيد بن مزيد الشيباني.

سيفه وخرج، ثم قال: قُلْ، فإن أحْسنت حملناك، وإن أسأت قتلناك؛ فأنشد[١]: [الطويل]

أمــنــت بــداود وجــود يــمــيــنــه | من الحدث المخشيّ والبُؤس والفقرِ
وأصـبـحـت لا أخـشـى بـداود كـبـوة | مــن الــدّهــر أن شــددت بــه أزري
لــه حــكــم داود وصــورة يــوســف | ومــلــك سـليـمـان وعـدل أبـي بـكـرِ
فتى تفرق الأموال من جود كفّه | كما يفرق السلطان من ليلة القدرِ

فقال له: قد حملناك، فإن شئت على قدرنا وإن شئت على قدرك؛ قال: بل على قدري، فأعطاه خمسين، فقال له جلساؤه: هلّا احتكمت على قدر الأمير، قال: لم يكن في ماله ما يفي بقدره، فقال له داود: أنت في هذا أشعر منك في شعرك، وأمر له بمثل ما أعطاه. وفد رجل على بعض الأمراء فسأله حاجة فقضاها، ثم سأله أخرى فقضاها، حتى قضى له سبع حاجات، فلمّا خرج من عنده قيل له: ما فعل بك؟ قال: ما أدري؛ ثم قال[٢]: [البسيط]

لـكـن أخـبـركـم عـنـه بـنـادرةٍ | لـم يَـأْتِـهـا قـبـلـه عـربٌ ولا عـجـمُ
قـرأ عـلـيـه كـتـابًـا مـنـه كـاتـبـه | إلـى أخٍ وجـبـت مـنـه لـه نـعـمُ
حتى إذا ما مضت في رسالته | قال استمع ثم يمضي بك الصّممُ
لا تـكـتـبـنّ بـلا فـيـهـا إلـى أحـدٍ | شـقّ الـكـتـاب ومُرْ فـلـيـكـسـر الـقـلـمُ

وفد أعرابيّ على مالك بن طوق، وكان زريّ الحال رثّ الهَيْئة، فمُنِع من الدخول إليه، فأقام بالرحبة أيامًا، فخرج مالك ذات يوم يريد النّزهة حول الرحبة، فعارضه الأعرابي فمنعه الشرطة ازدراء به، فلم ينثن عنه حتى أخذ بعنان فرسه، ثم قال: أيّها الأمير أنا عائذٌ بك من شرطك؛ فنهاهم عنه وأبعدهم منه، ثمّ قال له: هل من حاجة؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، قال: وما هي؟ قال: أن تصغي إليّ بسمعك وتنظر إليّ بطرفك وتُقْبل عليّ بوجهك، قال: نعم؛ فأنشده[٣]: [الطويل]

ببابك دون الناس أنزلت حاجتي | وأقـبـلـت أسـعـى نـحـوه وأطـوفُ

---

(١) الخبر والأبيات في المحاسن والمساوىء، لإبراهيم البيهقي، ص ٥٢٥.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الأبيات لم أجدها.

ويمنعني الحُجّاب والليل مُسْبل وأنت بعيد والرجال صفوفُ
يطوفون حولي بالقلوس كأنهم ذئاب جياع بينهنّ خروفُ
فأمّا وقد أبصرت وجهك مُقْبلًا وأصرف عنه أنني لضعيفُ
وما لي من الدنيا سواك وما لمن تركت ورائي مربع ومصيفُ
وقد علم الحيّان قيس وخندف ومَنْ هو فيها نازل وحليفُ
تخطّيت أعناق الملوك ورحلتي إليك وقد أخنت عليّ صروفُ
فجئتك أبغي الخير منك فهزّني ببابك من ضرب العبيد صنوفُ
فلا تجعلن لي نحو بابك عودة فقلبي من ضرب العبيد مخوفُ

فاستضحك مالك حتى كاد يسقط عن فرسه، ثم قال لمن حوله: مَنْ يُعْطيه درهمًا بدرهمين وثوبًا بثوبين، فنثرت الدراهم ووقعت الثياب عليه من كلّ جانب حتى تحيّر الأعرابيّ واختلط عقله لكثرة ما أُعطي، فقال: هل بقيت لك حاجة يا أعرابيّ؟ قال: أمّا إليك فلا، قال: فإلى مَنْ؟ قال: إلى الله أن يبقيك للعرب، فإنّها لا تزال بخير ما بَقِيتَ لها. وحكى أبو بكر الماردانى قال: كنت أساير الأمير أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، وكان قد خرج إلى الصيد بدمشق؛ إذ تلقّاه أعرابي فأخذ بعنان فرسه، وقال[1]: [البسيط]

إن السّنان وحدّ السيف لو نطقا لأخبرا عنك في الهَيْجاء بالعجبِ
أقبلت مالك تعطيه وتنهبه يا آفة الفضّة البيضاء والذهبِ

فقال: يا غلام أعطه ما معك ، فأعطاه خمسمائة دينار؛ فقال: يا أمير المؤمنين زِدْني، فقال لِمَنْ معه مِنْ غِلمانه: اطرحوا له ما معكم من المناطق والسيوف؛ فحصل له منهم ما عجز عن حمله. وقال علقمة بن عبد الرزّاق العليمي: قصدت بدرًا الجمالي بمصر، فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم قد طال مقامهم على بابه، ولم يُؤذن لأحدٍ منهم، فبينما هم جلوس إذ خرج يريد الصيد، فأقمت حتى رجع من صيده، فلما قارب دخول البلد خرجت إليه ووقفت على نشزٍ عالٍ من الأرض وأومأت إليه برقعة فوقف،

(١) البيتان لمروان بن صرد في الحماسة البصرية، للبصري ص ٣٦٢. والحماسة المغربية، للجراوي، ص ١٠٥.

فأنشدته[١]: [الكامل]

نحن التُّجار وهذه أعلاقنا ... درّ وجود يمينك المبتاعُ
قلّد وفتشها بسمعك إنما ... هي جوهر تختاره الأسماعُ
كسدت علينا بالشام وكلّما ... كسد المَتاع تعطّل الصُّنَّاعُ
فأتتك تحملها إليك تجارها ... ومطيّها الآمال والأطماعُ
حتى أناخوا نحو بابك والرجا ... من دونك السمسار والبيَّاعُ
فبذلت ما لم يعطه في دهره ... هرم ولا كعب ولا القعقاعُ
وطلبت هذا الخلق في طلب العُلى ... والناس بعدك كلّهم أتباع

فلمّا فرغت من إنشادها سار قليلًا ثم وقف فاستعادها مني، فلما دخل داره واستقرّ به الجلوس استدعاني فأعدتها، فقال لمن كان عنده من خواصّه وغلمانه وأتباعه: مَنْ أحبَّني فليخلع عليه، فخلع عليَّ مائة خلعة ووصلني بعشرة آلاف درهم. وحبس الحجّاج بن يوسف يزيد بن المهلّب لباق عليه كان بخراسان، وأقسم ليستأدينّه كل يوم مائة ألف درهم، فبينما هو قد جباها له ذات يوم إذ دخل عليه الأخطل؛ فأنشده[٢]: [الطويل]

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
وما قطرت بالشرق بعدك قطرة ... ولا اخضرّ بالمرين بعدك عودُ
وما لسريرٍ بعد بُعْدك بهجة ... ولا لجواد بعد جُودك جودُ

فقال: يا غلام أعطه المائة ألف درهم، فإنا نصبر على عذاب الحجّاج ولا نخيّب الأخطل؛ فبلغت الحجّاج فقال: لله درّ يزيد لو كان تاركًا للسخاء يومًا لتركه اليومْ، وهو يتوقّع الموت. ومن أخبار يزيد أنّ الفرزدق دخل عليه، وهو محبوس

---

(١) الأبيات في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي.

(٢) الأبيات ليست في ديوان الأخطل، وهي لزياد الأعجم في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة، ورواية البيت الثاني في الديوان:

فلا مطر المروان بعدك مطرة ... ولا اخضرّ بالمردين بعدك عودُ

فلما رآه مقيّدًا، قال له(١): [المنسرح]

أصبح في قيدك السماحة والـ ـجود وحمل الدّيات والحسبُ
لا بطر إن ترادفت نعم وصابر في البلاء محتسبُ

فقال له يزيد: ويحك ما أردت بمدحتي وأنا على هذه الحالة! فقال الفرزدق: وجدتك رخيصًا، فأحببت أن أُسلفك بضاعتي، فرمى إليه بخاتم كان في إصبعه قيمته ألف دينار، وقال: هو ربحك أمسكه إلى أن يأتيك رأس المال. ودخل جعيفران، واسمه جعفر بن علي كركري على أبي دلف، فأنشده(٢): [السريع]

يا أكرم الأُمّة موجودا ويا أعزَّ الناس مفقودا
لما سألت الناس عن سيّد أصبح بين الناس محمودا
قالوا جميعًا أنه قاسم أشبه آباء له صيدا
لو عبد الناس سوى ربّهم لكنت في العالم معبودا

فقال له: أحسنت يا غلام، أعطه ألف درهم؛ فقال: أيّها الأمير وما أصنع بها؟ مُرْ الغلام يأخذها، ويعطيني منها كل يوم عشرة دراهم إلى أن تنفد، فقال أبو دلف: أعطوه الألف، ومتى جاءكم أعطوه ما سأل؛ فأكبّ جعيفران على يده يقبّلها، وقال(٣): [مخلّع البسيط]

يموت هذا الذي أراه وكل شيء له نفادُ
لو أنّ خلقًا له خلود عمر ذا المفضل الجوادُ

المختار من غرر نوعي الكلام في استنجاز ما تأخر من صِلات الكرام

يُحْكَى أنَّ الأحنف بن قيس قدم على معاوية، فأقام شهرًا لا يسأله فيما جاء، فقال: يا أمير المؤمنين إنك ترعيني مرعى وبيلًا، وتوردني ظمأً طويلًا،

(١) البيتان ليزيد بن الحكم الثقفي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

برزت سبق الجياد في مهل وقصّرت دون سعيك العربُ

ورواية البيت الأوّل في الديوان:

أصبح في قيدك السماحة وال جود وفضل الصلاح والحسبُ

(٢) الأبيات في ديوان جعيفران الموسوس، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٣) البيتان ليسا في ديوان جعيفران الموسوس، وهما له في طبقات الشعراء، لابن المعتزّ، ص ٦٦٧.

أفيأس ورواح، أو حبس ونجاح؟ فقضى حاجته. ووقف أعرابيّ على رجل يستجديه، فقال: إني امتطيت إليك الرجاء وسرت على الأمل، ووفدت بالشكر وتوسّلت بحسن الظنّ؛ فحقّق الأمل وأحسن المثوبة وأقِمْ على الأود وعجّل السراح.

وقال بعض الشعراء يستنجز(١): [الوافر]

جعلت فداك قد وجب الزّمام وقد طال التلبّث والمقامُ
وقد أزفَ الرحيل إلى بلادي فرأيك لا عدمتك والسلامُ

المتنبّي(٢): [البسيط]

لقد نظرتك حتى حان مُرْتحلي وذا الوداع فكن أهلًا لما شئتا

وكتب آخر يستجدي: بنا إلى معروفك حاجة، ولك على صِلتنا قوّة، فانظر في ذلك بما أنت له أهل ونحن له أهل. وطلب العتابي من صديقٍ له حاجة، فقضى له نصفها ومطله بباقيها، فكتب إليه(٣): [الطويل]

بسطت لساني ثم أمسكت نصفه فنصف لساني بامتداحك مطلقُ
فإن أنت لم تنجز عداتي تركتني وباقي لسان الشكر باليأس مطلقُ

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائيّ(٤): [الكامل]

إنّ ابتداء المعروف مجدٌ باسق والمجد كل المجد في استتمامِهِ
هذا الهلال يروق أبصار الورى حسنًا وليس كحسنه لتمامِهِ

وكتب بعضهم يستنجز: حقيق على من أزهر بقول أن يُثمر بفعل، والسلام. وفد بشار بن بُرْد على يحيىٰ بن خالد فامتدحه فوعده خالد ومطله، فتصدّى له في

---

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٨٠٨.
(٢) البيت في ديوان المتنبي، من بيتين، أوّلهما:
انصُر بجودك ألفاظًا تركت بها في الشرق والغرب من عاداك مكبوتا
(٣) البيتان في المحاسن والأضداد، للجاحظ، ص ٢٨.
(٤) البيتان في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:
لولا أبو يعقوب في إبرامه سبب العلى لا يخلَ ثني ذمامِهِ

طريقه وهو يريد الجامع، وأخذ بعنان بغلته، وأنشد(١): [الطويل]

أظلّت علينا منك يومًا سحابةٌ أضاء لها برق وأبطا رشاشُها
فلا غَيْمها يجلي فيَيْأس طامعٌ ولا غَيْثُها يهمي فتَرْوي عِطاشُها

فقال: لن تنصرف السحابة حتى تبلك يا أبا معاذ، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

ولبشار أيضًا يستنجز(٢): [الطويل]

هَزَزْتك لا أني وجدتك ناسيًا لامرىء ولكني أردت التقاضيا
ولكن رأيت السَّيْف من بعد سلّه إلى الهزّ محتاجًا وإنْ كان ماضيا

ولبشار أيضًا(٣): [الخفيف]

فيك للمجد شيمة قد كَفَتْني منك عند اللّقاء بالمتقاضي
فإذا المجد كان عَوْني على المر ء تقاضيته بترك التقاضي

المفجع البصري يستنجز(٤): [الرمل]

أيها السيّد عِشْ في غبطةٍ ما تغنّى طائرُ الأيك الغردْ
لي وعدٌ منك لا تُنكره فاقْضِه أنجز حرّ ما وعدْ
أنتَ أحْيَيْت بمبذول النّدى سُنَن الجود وقد كان هَمَدْ
فإذا صال زمان أوسطا فعلى مثلك مثلي يَعْتمدْ

أبو الحسن بن أبي البغل(٤): [المتقارب]

وعدت فأنجز ولا تبلني بكدّ التقاضي وذلّ السؤال
وصُنْ وجه حرٌ براه الزّمان بأنيابه مثل بري الخلال
فإن ضاقَ مالك عن رَفْده فجاهك أوسع من كلّ مال

(١) البيتان في ديوان بشار بن برد، وهما بيتان منفردان.
(٢) انظر الحاشية السابقة. (٣) انظر الحاشية ما قبل السابقة.
(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ابن الرومي[١]: [البسيط]

يا مَنْ تزيَّنت الدنيا بطلعته ... وأصبحت منه في حلى وفي حللِ
أوراد بحركم مثلي ومنصرفي ... في الواردين بلا علّ ولا نهلِ
وأنت تَعلم أنّ الصَّبْر مِنْ صبر ... فامزجه بالنَّجْح إنَّ النَّجْح مِنْ عسلِ

قصد أحمد بن الجليل سليمان بن حبيب بن المهلّب مستجديًا، فأخّر عنه مدّة فكتب إليه مستنجزًا[٢]: [الكامل]

ورد العفاة المعطشون فأصدروا ... ريًا وطاب لهم لديك المكرعُ
وأراك تُمطر جانبًا عن جانبٍ ... وفناء أرضي مِنْ سمائك بلقعُ
أيحسن منزلتي تؤخّر حاجتي ... أمْ ليس عندك لي لخير مطمعُ

أبو تمام الطائي[٣]: [الطويل]

سحاب خطاني جوده وهو صيب ... وبحر عداني سَيْله وهو مفعمُ
وبدرٌ أضاء الأرض شرقًا وغربًا ... وموضع رِجْلي منه أسود مظلمُ

آخر[٤]: [الكامل]

ما لي ظَمِئْت وبحر جودك زاخرٌ ... سهل مشارعه على الورّادِ
ما كان أجمل بالتجمّل مَلْبسي ... وأعفّ في طلب القناعة زادي
لولا زمان أزمنت حالي له ... نوب تراوح تارة وتغادي
وارى فراخًا ضاق بي أوكارها ... وكذا البُغاث كثيرة الأولادِ

---

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:
لا زلت تبلغ أقصى السُّؤْلِ والأمل ... ممتع النفس بالسراء والجذلِ
(٢) الأبيات للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:
ووردت حوضك ظامئًا متدفّقًا ... فرددت دلوي شنهًا يتقعقعُ
والأبيات أيضًا للطرماح في ديوانه.
(٣) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام، وهما للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
على أيّ أمر مشكل أتلومُ ... أقيم فأشوى أم أهمُّ فأعزمُ
(٤) الأبيات لأبي سعيد الرستمي في يتيمة الدهر للثعالبي ٣/ ٣٦٥.

آخر[1]: [الوافر]

أُمِرْت بأن أُقيم على انتظار لرأيك إنه الرَّأي الأَصيلُ
وراقبت الرُّسُول وقلت إني سيأتيني فما جاء الرُّسولُ
فليس لغير أمرك لي مقام ولا عن غير ذاتِك لي رحيلُ
وقد أوقفت عزمي والمطايا فقُلْ شيئًا لأفعل ما تقولُ

المعرّي[2]: [الوافر]

عليك مؤيّد الدين اعتمادي فلا تَحْتَج إلى كذب الأعادي
تمادي المطل والآمال درع وطول الانتظار من الحدادِ
وقد أزفَ الرَّحيل وأنتَ كَهْفي ومِنْ جدواك راحلتي وزادي
زَفَفْتُ إليك أبكار المعاني فزُفَّ إليَّ أبكار الأيادي

آخر[3]: [الرجز]

يا جابر العَظْم إذا العظم انْكَسرْ وناعِشْ الجدّ إذا الجدّ عَثَرْ
أنت ربيعي والرّبيع ينتظرْ وخير أنواع الرَّبيع ما بكرْ

أبو تمام[4]: [الكامل]

عملي بفضلك قاد نحوك حاجتي فأتَتْ مُسَيْألتي عُقَيْب ثنائي
فامْنُنْ عليَّ بِنَجْح ما أمَّلته يا سيّدي ومعوّلي ورجائي

آخر[5]: [الوافر]

أجِرْني لا عَدَمْتُك مِنْ مطالكْ ودَعْني مِنْ صدودك واعتلالكْ
لقد كثرت عداتك ثم طالت فهل وعد يكون لها فذلكْ

---

(١) الأبيات للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
لك النعماء والخطر الجليلُ ومنك الرفد والنيل الجزيلُ
(٢) الأبيات ليست في ديوان أبي العلاء المعرّي، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الرجز للعماني الراجز في ديوانه، وهو أربعة أشطار منفردة.
(٤) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ابن الرُّومي[١]: [الكامل]

كم ظهر ميت مقفرٍ جاوزته ... فحلَلْتَ رَبْعًا منك ليس بمقفرِ
جود كجود السَّيْل إلا أنَّ ذا ... كدر وأن نداك غير مكدَّرِ
الفطر والأضحى قد انْسَلخا ولي ... أمل ببابك صائم لم يفطرِ
عام ولم ينتج نداك وإنَّما ... تتوقَّع الحبلى لتسعة أشهرِ
حس لي ببحر واحد أغرقك في ... بحرٍ أحيس به بسبعة أبحرِ

ومِنْ أحسن ما استجدى به الأجواد، وبلغ به غاية الأمل والمراد، ما كتب به كلثوم بن عمرو العتابي إلى صديقٍ له يستمنحه: أمّا بعد؛ أطال الله بقاءك، وجعله يمتدّ بك إلى رضوانه والجنّة، فإنّك كنت عندنا روضةً مِنْ رياض الكرم تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنّا نُعْفيها من النّجعة استمامًا لزهرتها وشفقة على خُضْرتها وادّخارًا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كأنها من سِنِي يوسف، فكذّبتنا غيومها، وأخلفتنا بُرُوقها فانتجعتك، وإني بانتجاعي إيّاك شديد المقة بك عظيم الشفقة عليك، مع علمي بأنك غاية أمل القصّاد، وأعذب مناهل الورّاد، وأقول ما قال حمّاد عجرد[٢]: [البسيط]

ظلّ اليسار على العباس ممدود ... وحظّه أبدًا بالسّعد معقود
إن الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنيًّا وهو مجهود
وللبخيل على أمواله عِلَل ... زُرْق العيون عليها أوجه سُود
إذا تكرّمت عن بذل القليل ولم ... تدر على سِعَةٍ لم يظهر الجُود
بثّ النوال فلا تمنعك قلّته ... فكلّ ما سدّ فقرًا فهو محمود

قال: فشاطره ماله حتى إحدى نعليه، ونصف قيمة خاتمه. وكتب آخر: الوعد أيْسَر مغارم الجود، وأخفّ محمول على عاتق الكرم المرفود، والمتقنّع به قد أسلف المطل آماله، وأوسع لخطو النّدى محالّه، وارتوى ببارق المُزْن قبل المطر واكتفى بورق الغصن دون الثّمر، فأيّ عُذْر للسماع إذا خرمه طالبه، وحمى عنه جانبه، وقد وجد المسلك إلى المطلوب سهلًا، والطالب لما يتعلّق به الوعد

---

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، وهي خمسة أبيات منفردة.
(٢) الأبيات في ديوان حماد عجرد، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة، ورواية العجز فيه:
وقلبه أبدًا بالبخل معقودُ

أهلًا. شاعر[١]: [الكامل]

لا أقتضيك إلى السماح لأنه ... لك عادة لكنما أنا مُذكّرُ
وكُنِ السحاب إذا تمسّك بالحَيا ... رغبوا إليه بالدُّعاء فيمطرُ

أتى عليّ بن الجهم رجل فسلّم عليه، وقال له: وعدتني وعدًا إن رأيت أن تنتجه فافعل، فقال: ما أذكر هذا الوعد، فقال له الرجل: صَدَقْت، فأنت لا تذكر؛ لأنَّ مَنْ قصدك مثلي كثير وأنا لا أنسى، لأنَ مَنْ أسأله مثلك قليل؛ فأعجبه كلامه وقضى حاجته؛ فأنشد[٢]: [الكامل]

فلقد قصدتك راجيًا في حاجتي ... ما يَرْتجيه الطّالب الملهوفُ
فسررتني وبررتني بنجاحها ... وكذا يكون الجُود والمعروفُ

آخر[٣]: [الطويل]

بدأت بتسهيل وثنّيت بالرّضا ... وثلّثت بالحُسْنى وربّعت بالكرمْ
وحقّقت لي ظنّي وأنجزت مَوْعدي ... وأبعدت لا عَنّي وقرّبت لي نعمْ

آخر[٤]: [البسيط]

يا من سهرت اللّيالي في الدُّعاء له ... حتى انتهى أمره السامي على الأُممِ
انظر إليّ بعين لو نظرت بها ... إلى اللّيالي نجَتْ من قبضة الظّلمِ
حتى أقول لصرف الدّهر كيف ترى ... تقابل السادة الأحرار بالخدمِ

آخر[٥]: [الكامل الأحذ]

إن أنتَ لم تحدث إليّ يدًا ... حتى أقوم بشكر ما سلفا
لم أحظَ منك بنائلٍ أبدًا ... ورجعت بالحرمان منصرفا

---

(١) البيتان لابن العودي الشاعر (سالم بن علي بن سلمان) في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان لدعبل الخزاعي في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة، ولأحمد بن طيفور في ديوانه.
(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) البيتان للناشىء الأكبر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وفيما ذكرناه من هذه المُلَح كفاية؛ إذ المحاسن لا يفضي الباحث عنها إلى غاية، ولو استقصينا ذكر ما أمطرته أكفّ الأجواد من سحائب الجود، لخرجنا مما نَحَوْناه عن اغرض المقصود.

وممّا يُحْسن إلحاقه بهذا الفصل
إطلاق اللّسان بشكر أهل الإحسان والفضل

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٧]، قال بعض المفسّرين: إنه شكر اصطناع المعروف، وفي الحديث المشهور والنّبأ المأثور: «من ذَكَر معروفًا فقد شكره، ومَنْ ستره فقد كفره»[١]. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «مَنْ كانت عنده نعمة فليُكافىء عليها، فإن لم يقدر فليُثْن، فإن لم يفعل فقد كفر النّعمة»[٢]. وقال لقمان لابنه: يا بنيّ المعروف غلّ لا يفكّه إلّا شكرًا ومكافأة. وقالوا: المعروف رقّ والمكافأة عِتْق؛ وقال الشاعر[٣]: [الخفيف]

كلّما قلت أعتق الشكر رقي صيّرتني لك المكارم عبدا
فائن عمر الزّمان حتى أؤدّي شُكْر إحسانك الذي لا يؤدّى

ويقال: الشكر وإنْ قلّ، ثمن كل نوال وإن جلّ. ويقال: الشكر تميمة لتمام النّعمة. وقال أبو بكر الخوارزمي: إذا قصرت يدك بالمكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقالوا: موقع الشكر من النعمة موقع القري من الضّيف؛ إن وجده لم يَرِمْ، وإن فقده لم يقم. وما أحسن قول مَنْ قال: الشكر غرس إذا أودع أذن الكريم أثمر بالزيادة، وحفظ العادة؛ والسّعد إذا أظلّته نعمة لم يلته بسكرها عن شكرها. وقالوا: لا بقاء للنّعمة إذا كُفِرت، ولا زوال لها إذا شُكِرت. ابن المعتزّ: شُكْرك نعمة سالفة، يفيض لك نعمة مستأنفة. وقال أبو بكر الخوارزمي: قد أراحني الشيخ ببدره، لكن أتعبني بشكره، وخفّف ظهري من ثِقَل المحن؛ لا بل أثقله بأعباء المِنَن، وأحياني بتحقيق الرّجاء؛ لا بل أماتني بفَرط الحياء، فأنا له عتيق بل رقيق،

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ، وفي الحديث: «من آتى إليكم معروفًا فكافئوه...»، أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في الزكاة باب ٣٨، والأدب باب ١٠٨، والنسائي في الزكاة باب ٧٢، وأحمد في المسند ٦٨/٢، ٩٩، ١٢٧.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في زهر الأكَم، لليوسي، ص ١٥٥٩.

وأسيرٌ بل طليق. ومن كلامه: اللّهمّ ارزقني زمانًا أوسع مِنْ زماني، ولسانًا أفصح مِنْ لساني، وبنانًا أجرى من بَناني، حتى أقضي بالشكر حقوق إخواني، فلا بذل إلّا بجود، ولا جود إلّا من موجود، ولكن الدُّعاء غاية من ضاق إمكانه ولم يساعده زمانه؛ فكيف يكافىء مَنْ قلّت بسطته، وعجزت قدرته، وقطعت عن مسافة همّته جدّته. ولما بلغ الصاحب إسمٰعيل بن عباد موت أبي بكر الخوارزمي قال[1]: [الطويل]

سألت بريدًا مِنْ خراسان مُقْبلًا ... أمات خوارزميكم قال لي نعمْ
فقلت اكتبوا بالجصّ من فوق قبره ... ألا لعن الرحمٰن من كفر النعمْ

والذي أوجب قول الصّاحب لهذين البيتين أنه بلغه أنْ أبا بكر الخوارزمي قال فيه هذين البيتين[2]: [البسيط]

لا تمدحنّ ابن عباد وإن هطلت ... كفاه بالجود حتى جاوز الدِّيما
فإنّها خطراتٌ من وساوسه ... يعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرما

فلما كفر بما أسدى إليه الصاحب بن عباد من المعروف ذكر هذين البيتين بعد موته.

ذكر من تبجّح بذكر المعروف الذي أسدى إليه
وأقرّ بعجز لسانه عن شكر المُنْعم والثّناء عليه

الثعالبي: شكري لا يقع في نعمه الظاهرة موقع النقطة من الدّائرة، لأشكرنّك مِلْء القلب واللّسان شكر حسّان إلى غسّان؛ لأشكرنّك شكر الأسير لمن أطلقه، والمملوك لمن أعتقه؛ لأشكرنّك شكر الرّياض للدِّيم، وزهير لهرم. وقال آخر: لو استعرت الدّهر لسانًا، والرّيح تُرجمانًا؛ لأشبع إحسانه حقّ الإشاعة، لقصرت عنه يد الاستطاعة. قال الأمير أبو الفتيان محمد بن حيوس

---

(١) البيتان في ديوان الصاحب بن عباد، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمة إسماعيل بن عباد (الصاحب). والبيت الثاني لدعبل الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لا تمدحنّ حسنًا في الجود إن مطرت ... كفاه جزلاً ولا تذممه إن رزما

وأحسن كلّ الإحسان[١]: [الطويل]

سأشكر ما دام اللّسان يُطِيعُني صُنُوفًا أتت من جُودك المتتابعِ
توالت على من لا يدلّ بخدمة عليك ولا بدٌّ لي إليك بشافعِ

وقال إبراهيم بن المهدي مخاطبًا للحسن بن سهل، وقد شفع له عند المأمون[٢]: [البسيط]

رَدَدْت مالي ولم تُضْنِنْ عليّ به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
لئن جحدتك ما أوْلَيت من حسن إني لفي اللُّوْم أحظى منك في الكرم

آخر[٣]: [الطويل]

مواهب لو أني تكلّفت نسخها لأفلست في أقلامها ومِدادِها

آخر[٤]: [الطويل]

ولو أنّ لي في كل منبت شعرة لسانًا يبثّ الشكر كنت مُقصّرا

ابن عمرون[٥]: [الكامل]

طوّقتني منك الجميل قلائدًا وبررتني حتى حسبتك والدا
والله لو حلّ السجود لِمُنْعِمٍ ما كنت إلّا راكعًا لك ساجدا

آخر[٦]: [البسيط]

لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة أعلى من الشكر عند الله في الثَّمنِ
إذا مَنَحْتُكُها مني مهذّبة حذوًا على حذوِ ما أوْلَيت من حسنِ

---

(١) البيتان في ديوان ابن حيوس، من قصيدة مطلعها:
محل لهم بين النقا والأجارعِ عدته الغوادي فاستناب مدامعي
(٢) البيت الثاني في المتحل، للثعالبي، ص ١٧١.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيت في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة محيي الدين بن عبد الظاهر.
(٥) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٦) البيتان للوزير المغربي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

آخر[١]: [الهزج]

لـقـد أفـرطـت فـي بـرّي وقـد قـصّـرت فـي الـشُّـكـرِ
وشـكـري عـنـد إحـسـانـك كـالـقـطـرة فـي الـبـحـرِ

آخر[٢]: [الكامل]

أتـظـنّـنـي أنـسى أيـاديـك الـتـي أهـدت إلـيّ مِـنَ الـزّمـان أمـانـا
لا والـذي جـعـل الـمـحـنـة محـنـة وهـوى الـنُّـفـوس مـذلّة وهـوانـا

وحبس الرّشيد العتابي على ذنبٍ اقترفه لم يحتمله منه، ولا أغضى له عنه، فتناساه في الحبس مدّة، فشفع فيه خالد بن يزيد بن مزيد فأطلقه، فكتب العتابي إليه يشكره[٣]: [البسيط]

ما زلت في غمرات المَوْت مُطَّرحًا قد زال عنّي لطيف الفكر مِنْ حِيَلي
فلم تَزَلْ دائمًا تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

أبو نوّاس[٤]: [الكامل الأحذ]

قـد قـلت لـلعـبـاس مـعـتـذرًا مـن ضـعـف شـكـريـه ومـعـتـرفـا
أنـت امـرؤ أحـلـلـتـنـي نِـعَـمًـا أوْهَتْ قـوى شـكـري فـقـد ضـعـفـا
لا تـسـديـنّ إلـيّ عـارفـة حـتـى أقـوم بـشـكـر مـا سـلـفـا

آخر[٥]: [البسيط]

يا زِينة الناس والدُّنيا وما جمعت بالأمر والنهي والقرطاس والقلمِ
بـالله أقـسـم لـو مـلـكـت ألـسـنـة تبتثّ شكرك من فرقي إلى قدمي
لـمـا وفـيـت بـمـا أولـيـت مِنْ مِنَنٍ ولا نـهـضـت بـمـا أسْدَيت مِنْ نِعَمِ

---

(١) البيتان لم أجدهما.
(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان في فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، في ترجمة العتابي كلثوم بن عمرو.
(٤) الأبيات في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:
حـلّـت سـعـاد وأهـلـهـا سـرفـا قـومًـا عـدى ومـحـلـة قـذفـا
(٥) الأبيات لخالد الكاتب في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أغـيـب عـنـك بـغـيـب غـيـر متّهم وصـفـو وذ وشـكـر غـيـر مـنـصـرم

الفصل الثالث من الباب التاسع

في ذمّ السرف والتبذير إذ ما لهما من سوء التدبير

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٦، ٢٧]. وقال ﷺ: «مِنَ السّرف أن تأكل كلّ ما شئت»[١]. وقال ﷺ: «آفة الجود السّرف»[٢].

والسّرف اسم لما جاوز الجود، وقالوا: السرف هو أن يكون الرجل لا يبالي فيما يشتري أو يبيع أو يَغْبن أو يُغْبن، فيبيع بوكس ويشتري بفضل. وهذا كما قيل الحرّ يتغابن في ابتياع الحمد، ولا يتغابن في الشّراء والبيع. وقيل لعبد الله بن جعفر: إنك تعطي الكثير إذا سُئِلْت، وتضيق في القليل إذا عُومِلْت؛ فقال: أجود بمالي وأضنّ بعقلي. وقالوا: السخاء خلقٌ مُسْتحسن ما لم يَنْته إلى سرفٍ وتبذير، فإنه مَنْ بذل جميع ما يملكه لا يستحقّه لم يسمّ سخيًا، وإنما يسمّى مبذّرًا مضيّعًا. وقال معاوية: ما رأيت سرفًا قطّ إلّا وإلى جانبه حقٌّ مضيّع. وقالوا: يُوشك مَنْ أنفق سَرفًا أن يموت أَسَفًا. وقالوا: ما وقع تبذير في كثيرٍ إلّا هدمه ودمّره، ولا دخل تدبير في قليل إلّا كثّره وأثمره. وقال معاوية لولده يزيد: إنك إن أعْطَيْت مالك في حقّ الحقّ يوشك أن يجيء الحق، وليس معك ما تعطي فيه. وقالوا: تطوّل ولا تطاول. وقال أبو بكر رضي الله عنه: إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق الأيام في اليوم الواحد. وقالوا: السّرف في الإنفاق يفسد من النفس بمقدار ما يصلح مِنَ العَيْش. وقال عبد الله بن الزبير في محاورة جرت بينه وبين ابن عباس: إنّ السرف من طينة السّخاء ولكنه جاوز الحقّ، وما بعد الحقّ إلّا الضلال. وكان أبو الأسود الدُّؤلي يقول: يا بنيّ إذا بسط الله عليك فأبسط، وإذا أمسك عنك أمسك ولا تجاوزه؛ فإنه أكرم منك وأجود. واسم أبي الأسود ظالم بن عمرو يُعَدّ في التابعين والمحدّثين والشعراء والنحويّين والبخلاء والعرج والمفالج والبخر. وقالوا: التدبير يُنْمي اليسير، والتبذير يدمّر الكثير. ولِيم هشام بن عبد الملك على الإمساك في العطاء، فقال: إنّا لا نعطي تبذيرًا، ولا نُمسِك تقتيرًا؛ إنما نحن خزائن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة، باب ٥١.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ٦/ ٣٦٤، ٨/ ٢٦٨.

الله في بلاده، وأمناؤه على عباده؛ فإذا شاء أعطينا وإذا كره أبَيْنا، ولو كان كل قائل يصدّق، وكل سال يستحقّ، ما جبهنا قائلًا ولا رَدَدْنا سائلًا.

وربما عوقب المبذّر بالإفلاس، وصير بالفقر مثلة بين الناس. قال الأصمعيّ: قصد رجل من أهل الشام منزل إبراهيم بن هرمة، فإذا بنت له صغيرة تلعب بالطّين فقال لها: ما فعل أبوك؟ قالت: وفد إلى بعض الأجواد، فما لنا علم من عهد، فقال لها: قولي لأمّك تنحر لنا ناقة، فإني وأصحابي أضْيافها، فقالت: والله ما نملكها، قال: فشاة؟ قالت: والله ما نجدها، قال: فدجاجة؟ قالت: والله ما هي لنا في منزل، قال: فأعطينا بَيْضة، قالت: مِنْ أين البَيْضة إذا لم تكن الدجاجة! قال: فباطل ما قال أبوك؛ حيث قال[١]: [المنسرح]

كم ناقة قد وجأت منحرها ... بمستهلّ الشؤبوب أو جملِ
لا أستع العوذ النصال ولا ... أبتاع إلا قريبة الأجَلِ
لا غنمي في الحياة مذّلها ... إلى دراك العُلا ولا إبلي

قالت: فذاك الفعل من أبي أصارنا أنْ ليس عندنا شيء، فتركها ومضى. وكان عبد الله بن جعفر من الأجواد الذين يعمّون بجودهم طوائف العباد، وانتهى به الإفلاس وضيق اليد إلى أن سأله رجل، فقال له: إنّ حالي متغيّرة بجفوة السلطان وحوادث الزّمان، ولكني أُعطيك ما أمكنني فأعطاه رداءً كان عليه ثم دخل منزله، وقال: اللّهمّ استرني بالموت، فما أتى بعد دعوته إلّا أيام حتى مرض ومات رضي الله تعالى عنه. وفد أبو الشمقمق على محمد بن مروان بنيسابور يريد محمد بن عبد السلام، فلما دخلها صار إلى منزله فأخبر أنه في دار الخراج مطالب، فقصده ودخل عليه وهو قائم في الشمس وعلى عنقه صخرة عظيمة، فتغيّر له فلمّا رآه محمّد قال[٢]: [الكامل]

ولقد قدمت على رجال طال ما ... قدم الرجال عليهم فتموّلوا
أخنى الزّمان عليهم فكأنّهم ... كانوا بأرض أقْفرت فتحوّلوا

---

(١) الأبيات في ديوان ابن هرمة، من قصيدة مطلعها:
يا دار سعدى بالجزع من ملَلِ ... حييت من دمنة ومن طللِ

(٢) الخبر والأبيات في ثمرات الأوراق، لابن حجّة الحموي، ص ٨١٤.

فقال أبو الشمقمق: [الكامل]

الجود فلّسهم وغيّر حالهم فاليوم إن سُئِلوا النَّوال تبخّلوا

دخل مالك بن دينار على أبي عون في الحبس، وكان قد ضربه بلال بن أبي بردة بالسِّياط، وإذا في الحبس جماعة من عمال السلطان في الحديد، فلم يلبث أنْ حضر غداؤهم، فجعل الخدم ينقلون ألوان الأطعمة، فقيل له: يا أبا يحيىٰ هلمّ، فقال: لا أريد أن آكل مثل هذا، ولا أن يُوضع في رجلي مثل هذا؛ وأشار إلى القَيْد. وكان للأعمش صديق متصرّف في عمل السلطان، فبقي عليه مال فحُبِس فيه، فزاره الأعمش منغمسًا له، فلمّا دخل عليه رأى بين يديه سلّة فيها فالوذج، وهو يتغذّى منها، قال: والله ما لازمت الوِثاق إلّا بإسرافك في الإنفاق، فلو قنعت نفسك وعفّت يدك لم يكن مضيق السِّجن مقعدك. ولهذا الإفلاس أكثر الناس كلامهم في التحذير، مِنْ عواقب التَّبذير، وما أحسن قول الفقيه منصور رحمه الله[1]: [المجتث]

ثوب وكسرة وخبز وبيت كنّ وأمنُ

ألذّ من كلّ ملك عُقْباه ضربٌ وسجنُ

وممّا يعدّ من الإسراف في البذل اصطناع المعروف إلى اللّئيم والنّذل

قالوا: حدّ الجود أن يبذل الرجل ماله حيث يجب البَذْل، ويحفظه حيث يمكن الحفظ، ومَنْ بذل مكان الإمساك فهو مبذّر، ومَنْ أمسك مكان البذل فهو بخيل. وقالوا: مِنَ الحَزْم أن تعلم أنّ مالك لا يَسَعُ الناس كلّهم فتوخّ به أهل الحقّ عليك، وأن كرامتك لا تسع المقلّين فاخصص بها أهل الفضل والمروءة ومن تمسّه الحاجة إليك، والإعطاء بعد المَنْع أجمل من المنع بعد الإنعام. وقال لقمان: المعروف كنزٌ، فانظر مَنْ تُودعه. وقال عبد الملك[2] بن المقفّع: إنّ مالك لا يسع الناس، فاخْصُص به ذوي الكرم مِنْ أهلك وخاصّتك ودَعْ الأجانب جانبًا. وقال

(١) البيتان في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهما بيتان منفردان.

(٢) كذا بالأصل: عبد الملك بن المقفّع، ولعلّه: عبد الله بن المقفع.

صالح بن عبد القدّوس سامحه الله[١]: [الخفيف]

لا تَجُدْ بالعطاء في غير حقٍّ ليس في مَنْع غير ذي الحق بُخلُ
إنّما الجود أن تجود على مَنْ هو للبذل منك والجُود أهلُ

آخر[٢]: [السريع]

لا تصنع المعروف في ساقطٍ ذاك صنيع ساقط ضائعُ
وضَعْه في حُرٍّ كريم يَكُنْ عُرفك مسكًا عُرْفه ضائعُ

وقالت الحُكماء: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللِّئام. وقالوا: الإحسان إلى اللّئيم أضيَع من الرَّسم على بساط الماء، والخطّ على بسيط الهواء. وقالوا: زوال الدُّوَل باصطناع السّفل. وقالوا: كُنْ جوادًا في موضع الجود، فإنّ أحمد جود الحرّ الإنفاق في وجه البرّ. وقال بعضهم: لا حسرة أعظم مِنْ نِعْمة أُسديت إلى غير ذي حَسَب ولا مروءة. وقال آخر: لا تصنعوا إلى ثلاثة معروفًا: اللّئيم، فإنه بمنزلة الأرض السَّبِخَة لا يظهر فيها البذر، وذلك لا يظهر فيه المعروف؛ والفاحش، فإنه يرى أنّ الذي صنعت معه إنما هو مخافة فُحْشه؛ والأحمق، فإنه لا يدري قدر ما أُسديت إليه ولا يشكرك عليه. قال الشاعر[٣]: [الطويل]

لعمرك ما المعروف في غير أهله وفي أهله إلّا كبعض الودائعِ
فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضائعِ
وما الناس في كفر الأيادي وشكرها إلى أهلها إلّا كبعض المزارعِ
فمزرعة أجْدَت فأضعف زَرْعها ومزرعة أكّدت على كل زارعِ

وقالوا: واضع المعروف في غير أهله؛ كالمسرّج في الشمس، والزّارع في السّبخ. قال الشاعر[٤]: [الطويل]

ومن يصنع المعروف مع غير أهله يلاقي كما لاقى مُجير أمّ عامرِ

---

(١) البيتان في ديوان صالح بن عبد القدّوس، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٢) البيتان لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) الأبيات لعبد الله بن همام السلولي في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.
(٤) الأبيات بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٩٨٢.

أعدّ لها لمّا استجارت ببيته أحاليب ألبان اللّقاح الدّوائرِ
وأمسكها حتى إذا ما تمكّنت فرته بأنياب لها وأظافرِ
فقلْ لذوي المعروف هذا جزاء من يجود بمعروفٍ على غير شاكرِ

آخر[١]: [الطويل]

عليك بذي الأقدار فاكسب ثناءهم فمالك في غير الأكارم ضائعُ
وما مال مَنْ أعطى الكرام بناقصٍ ولكنه عند الكرام ودائعُ

آخر[٢]: [المتقارب]

إذا ما بدأت امرأ جاهلًا يبرء فقصر عن حمله
ولم تلقه قابلًا للجميل ولا عرف العزّ من ذلّه
فسمه الهوان فإنّ الهوان دواء لذي الجَهْل مِنْ جهلِه

وقالوا: العاقل يتخيّر لمعروفه كما يتخيّر الباذر ما زكا من الأرض لبذره. وقالوا: رأس الرّذائل اصطناع الأراذل. وقال الشاعر[٣]: [الطويل]

متى تُسْدِ معروفًا إلى غير أهله زُرِيت ولم تظفر بحمد ولا أجرِ

ما احتجّ به سراة الأشراف في تحسين التبذير والإسراف

قد كنّا قدّمنا في أوّل فصل من هذا الباب جملة مما ورد عن الكُرَماء في الحض على انتهاز الفرصة بالإنفاق ثقةً بالخلف مِنَ الكريم الرزّاق ما فيه كفاية، فلم يقنعنا ذلك فذكرنا في هذا الموضع ما استدركناه ليتمّ لنا الغرض المقصود فيما نحوناه من كل مُستحسن بديع لسرّ البراعة بلسان اليراعة يذيع؛ مِنْ ذلك قول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَأ: الآية ٣٩]، وقول النبيّ ﷺ: «ينادي منادٍ كل ليلة: اللّهمّ اجعل لكل منفق خلفًا، ولكل ممسكًا تلفًا»[٤]، وقوله ﷺ: «أنفق بلال ولا تَخْشَ من ذي

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٩٧.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٢٧، ومسلم في الزكاة حديث ٥٧، وأحمد في المسند ٢/٣٠٦، ٣٤٧، ٥/١٩٧.

العرش إقلالًا»[١]، ولقد أجاد علي بن ذكوان في قوله[٢]: [البسيط]

أنفق ولا تَخْشَ إقلالًا فقد قسمت ... بين العباد مع الآجال أرزاقُ
لا ينفع البخل مع دنيا مولية ... ولا يضرّ مع الإقبال إنفاقُ

وحُكِيَ أنّ عليّ بن موسى الرّضا رضي الله عنه وعن آبائه الكرام فرّق في يوم عرفة ـ وكان بخراسان ـ ماله كلّه، فقال له الفضل بن سهل: ما هذا المغرم؟ قال: بل هو المغنم، لا تعدنّ ما ابتغيت به أجرًا أو كرمًا مغرمًا. وكان النبيّ ﷺ لا يدّخر شيئًا لغد. وقال بعض الحُكَماء: أنفق في الحقوق ولا تَكُنْ خازنًا لغيرك، فإن اغْتَمَمْت على ما نقص من مالك، فابْكِ على ما نقص من عُمْرك، فإنه لم يعمل في ماله وهو موجود عملٌ في ماله وهو مفقود. وقال بزرجمهر: إذا أقبلت عليك الدُّنيا فأنفق منها، فإنّها لا تفنى؛ فإذا أدْبَرت عنك فأنفق منها، فإنها لا تبقى. طاهر بن الحُسين ناظمًا لهذا المعنى[٣]: [البسيط]

لا تبخلنّ بدنيا وهي مُقْبلة ... فليس يُذْهبها التبذير والسّرفُ
فإن تولّت فأحرى أن تَجُود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خلفُ

ويقال: أنفق وأسرف، فإنّ الشرف في السّرف. وقيل للحسن بن سهل ـ وكان مِعْطاءً ـ: لا خير في السّرف، فقال: لا سرف في الخَيْر، وهذا من بديع الكلام؛ وذلك أنه عكس على المُنْكر كلامه، فكان جوابًا له وردًّا عليه من غير أن يزيد فيه ولا ينقص منه. وقال الرّاضي بالله يخاطب لائمًا لَامَه على السّرف[٤]: [الكامل]

لا تكثرنّ عذلي على الإسراف ... ربح المحامد متجر الإشرافِ
أجري كآبائي الخلائف سابقًا ... وأشيد ما قد أسّست أسلافي
إني مِنَ القوم الذين أكفّهم ... مُعتادة الإتلاف والإخلافِ

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٢٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ١٩٢، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٤٣٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٤٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٢٨٠.

(٢) البيتان لجحظة البرمكي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٤) الأبيات في أخبار الراضي والمتقي لله، للصولي، ص ٨٩.

آخر[1]: [البسيط]

قامت تَلُوم على بذل النَّوال ولي به ولوعٌ فقلت اللّوم في الباقي
لا تَجْزعي أن تري بي فاقة أبدًا فمن خزائن ربّ العرش إنفاقي

آخر[2]: [المتقارب]

ألا لا تَلُمْني على بذل مالي فصَوْني لعِرْضي بمالي جمالي
وصوني لمالي بعرضي فساد لعرضي وديني وجاهي ومالي

الصولي[3]: [الخفيف]

لا تلومنني فهمك أن أثـ ـرى وهمي مكارم الأخلاقِ
ليس يسطيع حفظ ما ملكـ ـت كفاه مَنْ ذاقَ لذّة الإنفاقِ

وقال المأمون لمحمد بن عبّاد: بلغني أنَّ فيك سرفًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين منع الجود سوى الظنّ بالمعبود، فقال المأمون: لا يُحسن السرف إلّا بأهل الشرف.

وقال البحتري يمدح معطاءً أسبل الكرم عليه غطاءً[4]: [الكامل]

كرمًا دعتك به القبائل مُسْرفًا ما مُسْرف في المكرمات بمُسْرفِ

وقال آخر يحضّ على الإسراف في الصنائع[5]: [الوافر]

ذهاب المال في حمد وأجر ذهابٌ لا يقال له ذهابُ

---

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان لم أجدهما.
(٣) البيتان في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، وهما بيتان منفردان.
(٤) البيت في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:
أتراك تسمع للحمام الهتف شجوًا يكون كشجوك المستطرف
(٥) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/ ٢١٢؛ وعيون الأخبار ١/ ٣٢٩.

الباب العاشر

في البخل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذمّ الإمساك والشُّحّ وما فيهما من الشَّين والقبح

فرّقوا بين الشحّ والبُخل، فقالوا: الشُّح أن تكون النفس كزّة حريصة على المنع؛ كما قال الشاعر(1): [الطويل]

يُمارس نفسًا بين جنبيه كزّة إذا همّ بالمعروف قالت له مَهْلا

وهو اللُّؤم، وأمّا البخل فهو المنع نفسه؛ فمما جاء في البخل: قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥]. قال بعض أهل المعاني: إنّما خصّ هذه الأعضاء دون غيرها بالذِّكر لأنّ السائل إذا سأل البخيل زوى عنه وجهه، فإنْ ألحّ عليه أزور عنه بشقّ جنبه الذي يليه، فإن ألْحف ولّاه ظهره. وروى الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بإسناده عن ابن عباس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «لمّا خلق الله جنّة عدن، قال لها: تزيّني، فتزيّنت، ثم قال لها: أظهري أنهارك، فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور، وعين التسنيم، ونهر اللّبن، ونهر العسل، ونهر الخمر؛ ثم قال لها: أظهري حورك وحليك وحُلَلك وسُررك وحجالك، ثم قال لها: تكلّمي، فقالت: طوبى لمن دخلني، فقال الله عزّ

---

(1) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٧٩٠.

وجلّ: أنت حرام على كلّ بخيل»[١]، أورده في كتاب البخلاء له. وقال رسول الله ﷺ لقومٍ مِنَ الأنصار: «مَنْ سيِّدكم»؟ قالوا: الجدّ بن قيس على بُخْلٍ فيه، فقال عليه الصّلاة والسلام: «وأيّ داء أَدْوَأ مِنَ البخل»[٢]. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «إيّاكم والشحّ، فإنه دعا مَنْ كان قبلكم فسفكوا دماءهم، ودعاهم فاستحلّوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم»[٣]. وعنه عليه الصّلاة والسلام قال: «أقسم الله بعزّته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنّة شحيح ولا بخيل»[٤].

وقال عليّ بن أبي طالب: البخيل يتعجّل الفقر لنفسه يعيش في الدنيا عَيْش الفقراء، ويُحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.

وقال حكيم: لو أنّ البخل لم يدخل عليهم من ضَيْر بخلهم ومذمّة الناس لهم وإطباق القلوب على بُغضهم إلّا سوء الظنّ بربّهم في الخلف لكان عظيمًا، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سَبأ: الآية ٣٩]. وكفى بالبخيل معرّة أن يمنع نفسه اكتساب الحسنات مع افتقاره إليها، ويحرمها مباح الشهوات مع اقتداره عليها، وربّما ترك التداوي وإن أحجفت به العلّة، وأهمل دفع المكاره عن نفسه، وقد نِيطَتْ به المذلّة لكثرة الإشفاق على الإنفاق، فهو لا يلقى في الدنيا شكورًا، ولا يلقى في الآخرة أجرًا مدخورًا. وقالوا: البخل من سُوء الظنّ، وخمول الهمّة، وضعف الرّوِيّة، وسوء الاختيار، والزهد في الخيرات. وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: البُخْل جامع المساوىء والعُيوب، وقاطع المودّات مِنَ القُلوب. وقال سقراط: الأغنياء البخلاء بمنزلة البِغال والحمير تحمل الذّهب والفضّة، وتعتلف التّبن والشّعير.

وحدّه، قالوا: هو منع المسترفد مع القدرة على رَفْده. وكان أبو حنيفة لا يرى قبول شهادة البخيل، ويقول: بُخْله يحمله على أن يأخذ فوق حقّه مخافة أن يُغْبن، فمن هذه حاله لا يكون مأمونًا. وقال بِشْر بن الحارث الحافي: لا غيبة لبخيل، ولشرطيّ سخي أحبّ إليّ من عابدٍ بخيل. وقالوا: صديق البخيل مَنْ أطعمه وسقاه، وعدوّه مَنْ تركه وقلاه. وقيل: النّظر إلى البخيل يُقسّي القلوب.

---

(١) أخرجه بنحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ٨/ ١٩٧.
(٢) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٥، والمغازي باب ٧٣، وأحمد في المسند ٣/ ٣٠٨.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٣١.
(٤) أخرجه بنحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ٨/ ١٩٧.

وقالوا: البخل يهدم مباني الشرف، ويسوق النفس إلى التّلف. وقالوا: اتّق الشُّحّ، فإنه أدنس شعار وأوحش دثار. وقالوا: البخيل يملأ بطنه والجار جائع، ويحفظ ماله والعرض ضائع. شاعر[1]: [الكامل]

ومِنَ الجَهالة بالمكارم أن ترى جارًا يجوع وجاره شبعانُ

ويقال: مَنْ جعل عرضه دون ماله اسْتهدف للذمّ. وقال الراجز[2]: [الرجز]

مَن يجمع المال فلم يَجُدْ بِهِ ويجمع المال لعامِ جَدْبِهِ
يَهُنْ على الناس هوان كَلْبِهِ

وقال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي[3]: [الطويل]

أرى النّاس خلّان الجواد ولا أرى بخيلًا له في العالمين خليلُ
وإني رأيت البخيل يُزْري بأهله فأكرمت نفسي أن يقال بخيلُ

وقالوا: البخيل لا يستحقّ اسم الحرّية، فإنه يملكه ماله. وقالوا أيضًا: البخيل لا مال له، إنما هو لماله. وقال قيس بن معديكرب لبنيه: يا بُنَيّ إيّاكم والبخل، فإنّه مَنْ اكتسب مالًا فلم يَصُنْ به عرضًا بحث الناس عن أصله، فإنْ كان مدخولًا هرّتوه، وإن لم يكن مدخولًا ألزموه ذنبًا رموه به ومقتوه، وأكسبوه عرقًا هجينًا حتى يهجّنوه، والبخل داء، ونِعْم الدّواء السّخاء.

وقال الحسن البصري: لم أرَ أشقى بماله مِنَ البخيل لأنه في الدنيا مهتمّ بجمعه، وفي الآخرة مُحاسب على منعه، غير آمِن في الدنيا مِنْ هَمِّه، ولا ناجٍ في الآخرة من إثمه، عَيْشه في الدنيا عَيْش الفقراء، وحسابه في الآخرة حِساب الأغنياء؛ أخذه من كلام أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه. ودخل رضي الله عنه على عبد الله بن الأهتم يعوده في مرضه، فرآه يصعد بصره ويصوّبه إلى صندوق في زاوية مِنْ بيته، ثم التفت إليه وقال: يا أبا سعيد ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤدّ منها زكاة، ولم أصِل مِنْها رحمًا؟ قال: ثكلتك أمك، ولمن كنت

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الرجز بلا نسبة في كتاب البخلاء للجاحظ، ص ٣٥٠.
(٣) البيتان في ديوان إسحٰق الموصلي، من قصيدة مطلعها:
وآمرة بالبخل قلت لها اقصري فذلك شيء ما إليه سبيلُ

تجمعها؟ قال: لروعة الزّمان، وجفوة السلطان، ومكاثرة العشيرة؛ ثم مات فشهد الحسن جنازته، فلمّا فرغ من دفنه ضرب بيده على القبر، ثم قال: انظروا إلى هذا أتاه شيطانه، فخوّفه روعة زمانه، وجفوة سلطانه بما استودعه الله إيّاه، انظروا إليه كيف خرج منها مذمومًا مدحورًا؛ ثم التفت إلى وارثه وقال: أيها الواث لا تخدعنّ كما خُدِع صُوَيحبك بالأمس أتاك هذا المال حلالًا، فلا يكونَنّ عليك وبالًا، أتاك عفوًا صفوًا ممن كان جموعًا مَنُوعًا من باطل جمعه، ومن حقّ منعه قطع فيه لُجَج البحار ومفاوز القفار، لم تكدح لك فيه يمين، ولم يعرق لك فيه جبين، إنّ يوم القيامة ذو حسرات، وإنّ مِنْ أعظم الحسرات غدًا أن ترى مالك في ميزان غيرك، فيا لها حسرة لا تُقال، وتوبة لا تُنال.

ما اخْترت مِنْ محاسن كلام الفصحاء وتأنّقهم في ذمّ اللّئام الأشحّاء

كتب بعض الأدباء إلى صديقٍ له يستشيره في قصد بعض الرؤساء تأميلًا لنائله ـ وكان معروفًا بالبخل ـ فأجابه: كتبت إليّ تسألني عن فلان، وذكرت أنك هَمَمْت بزيارته وحدَّثَتْك نفسك بالقُدوم عليه، فلا تفعل أمْتَع الله بك، فإن حُسْن الظنّ به لا يقع إلّا بخذلان مِنَ الله، وأنّ الطُمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلّا من سوء التوكّل على الله، والرجاء لما في يديه لا يُبْتغى إلّا بعد اليأس من روح الله؛ لأنه رجل يرى التقتير الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يُعاقب عليه، وأنّ الاقتصاد الذي أمر الله به هو الإسراف، وأن بني إسرائيل لم يستبدلوا المنّ بالعدس، والسّلوى بالبصل إلّا لفضل حلومهم، وقديم علم توارثوه عن آبائهم، وأن الضّيافة مرفوضة والهبة مكروهة والصدقة منسوخة، وأنّ التوسّع ضلالة، والجود فسق وجهالة، والسخاء مِنْ همزات الشياطين؛ كأنه لم يسمع بالمعروف إلّا في الجاهلية الأُولى التي نسخ الله جميل أخبارها، ونهى عن اتّباع آثارها، وكأنّ الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلّا لسخاء نُسِب إليهم، ولا أهلكت الرّيح العقيم عادًا إلّا لإفضالٍ كان فيهم، وهل يُخْشى العقاب إلّا على الإنفاق، ويرجو العفو لا بالإمساك، ويَعِدُ نفسه بالفقر ويأمرها بالبخل خيفة أن ينزل به قوارع الظالمين، أو يصيبه ما أصاب الأوّلين؟ فأقِم رحمك الله بمكانك واصبر على خطب زمانك، وامْضِ على عسرتك؛ فعسى أن يبدلك الله خيرًا منه زكاةً وأقرب رحمًا.

وكان محمد بن يحيىٰ بن خالد مبخلًا بالنسبة لأبيه، وأخويه جعفر والفضل، فسُئِل الجماز عن مائدته، فقال: فتر في فتر، وصحافها منقورة من خشب الخشخاش، وبين الرغيف والرغيف مضرب كرة، وبين اللَّون واللَّون فترة نبيّ، قيل: فمن يحضره؟ قال: خير خلق الله وشرّهم، قيل: مَنْ هم؟ قال: الملائكة، والذباب؟ قيل له: أنت به خاص وثوبك مخرق، فقال: والله لو ملك بيتًا من بغداد إلى النوبة مملوء إبرًا ثم جاءه يعقوب النبيّ ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضُمَناء يسألونه إعارة إبرة يخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ما فعل؛ أخذه الشاعر ونظمه في قوله[1]: [الكامل]

لو أن قصرك يا ابن أغلب ممتلٍ إبرًا يضيق بها رحاب المنزلِ
وأتاك يوسف يستعيرك إبرةً ليخيط قدّ قميصه لم تفعلِ

آخر يهجو بخيلًا[2]: [الكامل]

لو أن دارك أمطرت عرصاتها إبرًا يضيق لها رحاب المنزلِ
وأتاك يوسف يوم قُدّ قميصه يرجو نوالك في إبرة لم تفعلِ

وقيل لأبي القاسم خمين: تغدّيت عند فلان؟ قال: لا، ولكنّي مررت ببابه وهو يتغدّى، قيل له: وقد عرفت ذلك؟ قال: رأيت غلمانه بأيديهم قسيّ البندق يرمون بها الطَّير في الهواء. وذمّ أعرابيّ قومًا، فقال: لهم بيوت ندخلها حبوًا إلى غير نمارق ولا وسائد، فصح الألسن بردٌ لسائل، جعد الأكفّ عن النائل. وذمّ أعرابيّ قومًا، فقال: ما كانت النّعمة فيهم إلّا طيفًا، فلما انتبهوا لها ذهبت عنهم؛ فقال شاعر وكأنه ألمّ بهذا المعنى في قوله[3]: [المتقارب]

خنازير ناموا عن المَكْرُمات فأيقظهم قدر لم ينمِ
فيا قُبْحهم في الذي خوّلوا ويا حُسْنهم في زوال النِّعَمِ

نزل أعرابيّ برجلٍ، فقال له بعض قومه: لقد نزلت بوادٍ غير ممطور، ورجل بقدومك غير مسرور، فأقِمْ بندم أو ارتحل بِعَدم. وقال المتوكّل لأبي العَيْناء: مَنْ

---

(١) البيتان بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٥٠٦؛ وحماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ١٦٢.
(٢) انظر الحاشية السابقة.
(٣) البيتان لجرير في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

أبخل مَنْ رأيت؟ قال: موسى بن عبد الملك بن صالح، قال: وما رأيت مِنْ بخله؟ قال: رأيته يَحْرُم القريب كما يَحْرُم البعيد، ويعتذر مِنَ الإحسان كما يعتذر مِنَ الإساءة. وقال بشار: مَنِ استضاف فلانًا استغنى عن الكَنيف وأمن مِنَ التُّخمة. وذمّ آخر بخيلًا، فقال: ضنّ بفلسه وجاد بنفسه. وذمّ أعرابيّ بخيلًا، فقال: جَعد البنان شحيح الكفّ مقفل اليد لا يسقط من كفّه الخردل، وإنِ استولى على أصابعه الجندل. قال الشاعر[1]: [الطويل]

تـحـلّى بـأسـمـاء الـشـهـور فـكـفّـه جمادى وما ضمّت عليه المحرمُ

وقالوا: فلان ما هو رطب فيعتصر، ولا يابس فيُكْسر، مانع للموجود، سيّء الظنّ بالمعبود؛ فلان منعوت على الجمع والمنع، لا يعدّ العيش إلّا ما جمعه، والحزم إلّا ما منعه؛ فلان بن لبون لا درّ فيحلب، ولا ظهر فيركب. وذمّ أعرابيّ رجلًا بالبخل، فقال: لقد صغر فلانًا في عيني كُبْر الدنيا في عينه، وكأنما يرى السائل إذا رآه ملك الموت إذا أتاه. بشار بن بُرْد[2]: [الطويل]

إذا سـلّم الـمـسـكـيـن طـار فـؤاده مـخـافـة سـؤل واعـتـراه جـنـونُ

ومن منظوم نفسات الصدور المحنقة، في ذمّ مَنْ سلبه السخاء رونقه، قول منصور بن ربيعة يهجو بخلاء[3]: [المنسرح]

قـوم غـدوا والـطـعـام عـنـدهـم وزن لـجـيـن ووزن يـاقـوتِ
إن كـان قـوتـي إلـيـهـمُ وبـهـم بَـرِئْت مـنـهـم ومـنـك يـا قـوتـي

الأخطل[4]: [البسيط]

مـا زال فـيـنـا ربـاط الـخـيـل مـعـلـمـة وفـي كـلـيـب ربـاط الـخـزي والـعـارِ
قـومٌ إذا اسـتـنـبـح الأضـيـاف كـلـبـهـم قـالـوا لأمّـهـم بـولـي عـلـى الـنـارِ

---

(١) البيت بلا نسبة في نصرة الثائر، لصلاح الدين الصفدي، ص ١١١؛ وكتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٣١٨.
(٢) البيت في ديوان بشار بن برد، وهو بيت منفرد.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان في ديوان الأخطل، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

ولقد أحْسن أبو الشمقمق في قوله[١]: [البسيط]

ما كنتُ أحسب أن الخبز فاكهة حتى نزلت على أوفى بن منصورِ
الحابس الرَّوْث في أعفاج بغلته خوفًا على الحَبّ من لَقْط العصافيرِ

آخر[٢]: [الوافر]

عدّ الأرغفة شنف وقرط وإكليلان من خرزٍ ودرّ
إذا كُسِر الرغيف بكى عليه بكا الخنساء إذا فُجِعَتْ بصَخْرِ
وجاء بكلّ نائحةٍ عليه كما بكت الرّباب لفقد عمروِ
ودون رغيفه دقّ الثنايا وحرب مثل وقعة يوم بدرِ

وقال أبو نوّاس يهجو سعيد بن سلم بن قتيبة[٣]: [الطويل]

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلّبه طورًا وطورًا يُداعبُه
ويأخذه في حضنه ويشمّه ويَلْثمه حينًا وحينًا يُلاعبُه
وإن قام مسكينٌ على باب داره إذا ثكلته أمّه وأقاربُه
يصبّ عليه البول من كلّ جانبٍ ويخضب ساقاه وينتف شاربُه

ابن طباطبا[٤]: [المجتث]

أجاع بطني حتى شَمَمْت ريح المنيّهْ
وجاءني برغيفٍ قد أدرك الجاهليّهْ
فقمت بالفأس حتى أدقّ منه شظيّهْ
تثلم الفأس وانصا ع مثل سهم الرَّميّهْ
فشجّ رأسي ثلاثًا ودقّ مني الثنيّهْ

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي الشمقمق، وهما لعليّ بن الجهم في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) الأبيات لأبي نواس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٤) الأبيات في ديوان ابن طباطبا العلوي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

آخر(١): [البسيط]

ربّي وربّك بعد الجوع أشبعني ... ورِزْق ربّك آتٍ غير مدفوعِ
ولَوْ عليك اتّكالي في الطّعام إذًا ... لكنت أوّل مدفون مِنَ الجوعِ

آخر(٢): [المتقارب]

وقائلة ما دهى ناظريك ... فقلت لأمرٍ به قد مُنِيتُ
أكلت دجاجة بعض الملوك ... فما زلت أصفع حتى عَمِيتُ

آخر(٣): [الوافر]

نوالك دونه خرط القتاد ... وخبزك كالثريّا في البعادِ
ترى الإصلاح صومك لا لأجرٍ ... وكسرك للرغيف مِنَ الفسادِ
ولو أبصرت ضيفًا في المنام ... لحرّمت المنام إلى التّنادِ
ولم أهجوك أنك كفؤ شعر ... ولكني هجوتك للكسادِ

آخر(٤): [الكامل]

ودعوتني فأكلت عندك قرصة ... وشربت شرب من استتمّ خروفا
وسألتني في إثر ذلك حاجة ... أوْدَتْ بمالي تالدًا وطريفا
فجعلت أفكّر فيك باقي ليلتي ... ما كنت تسأل لو أكلت رغيفا

آخر(٥): [الطويل]

أتيت ابن يحيىٰ وهو يأكل فانثنى ... إليّ طوبًا إذ رآني وهَمْهَما
وقال لماذا جئت قلت مُسَلّمًا ... فقال لقد سلّمت فارجع مثل ما

(١) البيت الثاني بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٢٣٣٤.
(٢) البيتان لجحظة البرمكي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) الأبيات بلا نسبة في المحاسن والمساوىء، لإبراهيم البيهقي، ص ٥٥٣.
(٤) الأبيات للحسن الدقّاق في تتمة يتيمة الدهر، للثعالبي، ٥/ ٥٣.
(٥) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وقال ابن الخياط الصقلي[١]: [الخفيف]

لا تكونن مبرمًا وعسوفًا سَلّه دمه وخلّ عنه الرّغيفا
أكرم الخبز بالصيانة حتّى جعل الكعك للبنات شنوفا

آخر يخاطب بخيلًا[٢]: [الخفيف]

لك نفس إذا أضرّ بها الجو ع تلافيتها بشمّ الرّغيفِ
من يَكُنْ عيشه كعيشك هذا فلتكن داره بغير كنيفِ

آخر[٣]: [المتقارب]

رأيتك عند حضور الخوان قليل النّشاط كثير الصّياحِ
تلاحظ عيناك كفّ الأكيل وترمقه من جميع النّواحي
فعالٌ امرىء بخلت نفسه بشيء يؤول إلى المُسْتراحِ

آخر يهجو بخيلًا[٤]: [المنسرح]

أصبح لا يعرف الجميل ولا يفرُق بين القبيح والحسَنِ
إن الذي يرتجي نداه كمن يحلب تَيْسًا من عزّة اللبنِ

آخر[٢]: [البسيط]

يزداد شُحًا وبُخْلًا كل من كثرت أمواله ثم لا ترجى مواهبُه
كالبحر كلّ مياه الأرض قاطبة تأوي إليه ويظمأ فيه راكبُه

ومما يكون متممًا لما ذكرناه خلف الشحيح لسائله بما مناه

قالوا: خلف الوعد مِنْ خلق الوغد. والمثل المضروب قولهم: أخلف مِنْ عُرْقوب، وأخلف من شرب الكمون؛ فإن الكمون يمنّي بالسقي ولا يسقي.

---

(١) البيتان ليحيىٰ بن أحمد، أبي بكر المعروف بابن الخياط الأندلسي، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.
(٢) البيتان لم أجدهما.
(٣) الأبيات لإسماعيل بن الغمر في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٦٨٨.
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

قال الشاعر[١]: [البسيط]

سَقَيْتُموني كؤوس المطل مترعة   حتى ثملت والسكران عَرْبيدُ
لا تتركوني ككمون بمزرعةٍ   إن خانه الغَيْث أحْيَته المواعيدُ

وقال بعض كُرماء العرب: لأنْ أموت عطشًا أحبُّ إليّ مِنْ أن أخلف موعدًا. وقال بعض البُلَغاء يذمّ بخيلًا: فلان ملأ سمعي روحًا وكفّي ريحًا. وقال آخر: فلان يفتح مواعيده بالأطماع، ويختمها بالخَيْبَة والامتناع. وقال آخر: فلان سخيّ قولًا، وبخيل فِعْلًا، وسريع وَعْدًا، وبطيء رَفْدًا. وقال آخر: فلان أوّل وعده طمع وآخره يأس، وما هو إلّا كالسّراب يغرّ من رآه، ويخلف مَنْ رجاه. وقال الشاعر[٢]: [الطويل]

لسانك أحْلَى مِنْ جَنى النحل موعدًا   وكفّك بالمعروف أضْيَق مِنْ قُفْلِ

آخر[٣]: [الطويل]

لسانك معسولٌ وقلبك علقم   ودون الثريّا من صديقك مالكا

دُعْبل[٤]: [الخفيف]

يا جواد اللّسان من غير فعلٍ   لَيْت في راحتيك جود اللّسانِ

وقالوا: من وعد وأخلف لَزِمَتْه ثلاث مذمّات: ذمّ اللُّؤم، وذمّ الخَلْف، وذمّ الكذب. وقال الشاعر[٥]: [الطويل]

ألَا إنّما الإنسان غمد لقلبه   ولا خَيْر في غمدٍ إذا لم يكن نَصْلُ
ولا خير في وعدٍ إذا كان كاذبًا   ولا خَيْر في قولٍ إذا لم يكن فعلُ
فإنْ تَجَمّع الآفات فالبخل شرّها   وشرٌّ مِنَ البُخل المواعيد والمطلُ

---

(١) البيتان لابن عبد الودود في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.
(٢) البيت للبحتري في ديوانه، وهو مطلع القصيدة. وانظر أيضًا ديوان صريع الغواني.
(٣) البيت لأبي الأسود الدُؤلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
ألا أبلغا عني حصينًا رسالةً   فإنك مردود عليك خلالكا
(٤) البيت في ديوان دعبل الخزاعي، وهو مطلع القصيدة.
(٥) الأبيات لعلي بن أبي طالب في ديوانه، والبيت الثالث مطلع القصيدة. وانظر أيضًا ديوان دعبل الخزاعي، وديوان الأقيشر الأسدي، وديوان صريع الغواني.

وقال الثعالبيّ: أوّل مَنْ أخلف المواعيد وكذّبها ولم يَفِ بشيءٍ منها إسمٰعيل بن صبيح كاتب الرّشيد، وما كانت الرؤساء قبل ذلك يعرفون المواعيد الكاذبة. وما أحلى قول بعض الشعراء يخاطب مَنْ أخلف عدة وَعَدَه إيّاها مِنْ أبيات[١]: [الكامل]

ووعدتني عِدَةً ظننتك صادقًا ... فجعلت من طمعي أروح وأذهبُ

فإذا حضرت أنا وأنت بمجلسٍ ... قالوا مُسَيْلمة وهذا أشعبُ

وقال بعض البُلَغاء يذمّ مخلفً وعده: فلان وعده في الخلاف كشجر الخلاف، يُريك نضارة المنظر، ثم لا يُجْنيك شيئًا مِنَ الثّمر؛ نظمه ابن الرُّوميّ، فقال[٢]: [الخفيف]

ليس من حلّ بالمحل الذي أنـ ... ـت من سماحة ووفاءِ

بذل الوعد للأخلّاء طوعًا ... وأبى بعد ذاك بذل العطاءِ

فغدا كالخلاف يحسن للعيـ ... ـن ويأبى الإثمار كل الإباءِ

آخر[٣]: [الوافر]

على الدُّنيا وما فيها السّلام ... إذا ملكت خزائنها اللّئامُ

راضيت من الأُمور بكلّ شيءٍ ... قضاه الله وانقطع الكلامُ

الفصل الثاني من الباب العاشر

في ذكر نوادر المبخلين من الأراذل والمبجّلين

يجب علينا أن نذكر أوّلًا ما صدر عن الأمجاد العقلاء في التحذير من سؤال الأجواد والبخلاء، ثقةً بما ضمنه الله من رزقه الدار على سائر خلقه، قالوا: مكتوب في التوراة: ابن آدم لا تسأل الناس، فإن كنت فاعلًا فاسأل معادن الخير ترجع مغبوطًا محسودًا. وفي كتاب كليله ودِمْنه: ينبغي للعاقل أن يرى أنّ إدخال

(١) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٣٠٧.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

يا أخي أين ربع ذاك اللقاءِ ... أين ما كان بيننا من صفاءِ

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

يده في فم التنّين وابتلاعه سمّه أهون عليه من سؤال الناس. وقال إبراهيم بن حفصة لابنه: يا بنيّ صُنْ شكرك عمّن لا يستحقه، واطلب المعروف ممّن يُحسن طلبك إليه، واسْتُر ماء وجهك بقناع قناعتك، وتَسَلّ عن الدنيا بتجافيها عن الكِرام؛ وأنشد[1]: [البسيط]

هي القناعة فالزمها تَكُنْ ملكًا ... لو لم يكن لك إلّا راحة البَدنِ
وانظر لمن مَلَك الدُّنيا بأجْمَعها ... هل راحَ منها بغير القُطْن والكَفَنِ

وقال لقمان لابنه: يا بُنيّ لا تخلق وجهك بطلب الحوائج إلى مَنْ هو دونك، فإنّه إن ردّك ساق إليك محنة، وإن قضى حاجتك اتّخذها عليك مِنّة، واسأل الله فإنّ الله يحبّ مَنْ يسأله، ويَبْغض مَنْ لا يسأله. شاعر[2]: [الكامل]

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنيّ آدم حين يُسأل يَغْضب

وقد رُوِي عن سُفْيان الثوري دعاء ككلام لقمان كان يدعو به إذا احتاج يقول: اللّهمّ يا من يحبّ أن يُسأل، ويغضب على مَنْ لا يَسأل، وأحبّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سُؤاله، وليس أحد كذلك غيرك يا كريم أعطني كذا، ويسأل حاجته. وقال محمد ابن الحنفية رضي الله عنه: ما كَرُمت على عبدٍ نفسه إلّا هانَتْ عليه الدُّنيا. شاعر[3]: [البسيط]

الحرّ حرٌّ عزيز النّفس حيث نوى ... كالشّمس في أيّ بُرْجٍ ذاتُ أنوارِ

آخر[4]: [الكامل]

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... عِوَضًا ولو نال الغِنى بسؤالِ
وإذا السُّؤال مع النّوال وزَنْته ... رجح السؤال وخفّ كلّ نوالِ

---

(١) البيتان للثعالبي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وبلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٣٤٥.
(٢) البيت بلا نسبة في الأزدهار، للسيوطي، ص ٩٢.
(٣) البيت لأبي الفتح البستي في ديوانه، من بيتين، أولهما:
لئن تنقلت من دارٍ إلى دارِ ... وصرت بعد ثواء رهن أسفارِ
(٤) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
حيل البلى تأتي على المحتالِ ... ومساكن الدنيا فهن بوالِ

آخر(١): [البسيط]

لا أسْتعين بإخواني على الزَّمن ولا أرى حُسْنًا ما ليس بالحسنِ
إني كليلٌ إذا استعطفت ذا ثقة بما حَوَتْ كفّه قد كان أغفلني
ذلّ السؤال وذلّ الشكر ما اجتمعا إلّا أضرّ بماء الوجه والبدنِ
لا أبتدي بسؤالٍ لي أخًا أبدًا لو شاء قبل سؤالي منه أكرمني
له الثراء ولي عرضٌ أُوفّره عنه ويقنعني قوت يبلغني

محمد بن حازم(٢): [البسيط]

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بيأس فإنّ العزّ في الياسِ
فالرّزق عن قدرٍ يجري إلى أجلٍ في كفّ لا غافل عنّي ولا ناسي
فكيف أبتاع فقرًا حاضرًا يُغْني وكيف أطلب حاجاتي مِنَ الناسِ

ولقد أحسن ابن شهيد كلّ الإحسان في قوله يصف مَنْ صان وجهه عن السؤال بقناع قناعته، وكفّ وصبر على مضض الاحتياج بقدر استطاعته، فعفّ(٣): [البسيط]

إنّ الكريم إذا نالَتْه مخمصةٌ أبدى إلى النّاسِ ريًا وهو ظمآنُ
يطوي الضّلوع على مثل اللّظى حرقًا والوجه طلقٌ بماء البِشْر ريّانُ

آخر(٤): [الطويل]

وكم قد رأينا مِنْ فتًى متجمّل يروحُ ويغدو ليس يَمْلك درهما
يبيت يُراعي النّجم مِنْ سُوءِ حالِهِ ويُضبح يلقى ضاحكًا متبسّما

---

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات في ديوان محمد بن حازم الباهلي، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) البيتان في ديوان ابن شهيد الأندلسي، من قصيدة مطلعها:
وما ألان قناتي غمز حادثة ولا استخفّ بحلمي قطّ إنسانُ
(٤) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٢٠٩.

ذكر مَن كان يدين بالبخل من الملوك
واتّصف بما لا يحسن بالفقير الصعلوك

عبد الله بن الزبير، ويُكنى أبا حبيب، وإنما لم يُعَدّ مِنَ البخلاء لجلالة رُتْبته، وأصالة أُبوّته؛ فممّا يُحكى عنه أنه نظر إلى رجل من جنده قد دقّ في صدور أصحاب الحجّاج في قتاله على مكّة ثلاثة أرماح، فقال له: يا هذا اعتزل عن نصرتنا، فإنّ بيت المال لا يقوم بهذا. وفي هذه الحرب يقول معاتبًا جُنْده: أكَلْتم تمري، وعصَيْتُم أمري، سلاحكم رثّ، وكلامكم غثّ، عِيال في الجَدْب، أعداءٌ في الخَصْب. وقال لرجل كان يتعاطى التجارة: ما صنعتك؟ قال: أتّجر في الرّقيق، فقال: ما أشدّ إقدامك على الغرر وإضاعة المال، قال: بماذا؟ قال: ببضاعتك الملعونة التي هي ضمان نفس، ومُؤْنة ضرس. وأتاه عبد الله بن فضالة مستجديًا فأخذ يَشْكو إليه شدّة فاقته، وحفا ناقته، ووعورة طريقه، وبُعْد مسافته؛ فقال له: اخصفها بهلب، وارقعها بسبت، وانجدها ببرد خفّها؛ فقال ابن فضالة: إنما جئتك مستجديًا لا مستوصفًا، فلا بقيت ناقة حملتني إليك؛ قال: إن وصاحبها ـ وقوله إن بمعنى نعم ـ. قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى: لو تكلّف الحارث بن كلدة طبيب العرب من وصف علاج ناقة هذا ما تكلّفه هذا الخليفة لَعَسُر عليه. ويقال: إنه كان يأكل في كل سبعة أيام أكلة واحدة، ويقول: إنّما بطني شبرٌ في شبر، وما عسى يكفيني.

ومن بُخَلاء الخلفاء عبد الملك بن مروان، وكان يُسمّى رشح الحجر ولبن الطير أيضًا لبُخْله، وهشام ولده كان ينظر في القليل من المال، ويمنع السائل وإن ألْحَف في السؤال، ويبيع ما يُهْدى إليه، ويجعل السبّ صلةَ مَنْ يقرظه ويُثْني عليه. مِنْ حكاياته أنه وفد عليه محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقال له: ما لك عندي شيء، ثم قال: إيّاك أن يغرّك أحد فيقول لك: لم يعرفك أمير المؤمنين، أنت فلان ابن فلان، فلا تقيمنّ فتنفق ما معك، فليس لك عندي صلة، فبادر والحق بأهلك. وكان معاوية يبخل في طعامه مع كَثْرة جوده بالمال، قال لرجل واكَلَه: ارفق بيدك، فقال له الرجل: وأنت فاغْضُض مِنْ طَرْفك. وبلغه أنّ الناس يُبَخّلونه، فقام على المنبر وقال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: الآية ٢١]،

فلأيّ شيء نُلام نحن؟ فقام إليه الأحنف بن قيس وقال: نحن ما نلومك على ما في خزائن الله، ولكن نلومك على ما في خزائنك إذا اغتلقت بابك دونه.

والمنصور، وكان يُلقَّب أبا الدوانيق، ولُقِّب بذلك لأنه لما بنى بغداد كان ينظر في العمارة بنفسه، فيحاسب الصُنّاع والأجراء، فيقول لهذا: أنت نِمْت القائلة، ولهذا: أنت لم تبكّر إلى عملك، ولهذا: أنت انصرفت لم تُكمل اليوم؛ فيُعْطي كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه، فلا يكاد يعطي أجرة يوم كامل. ويُحْكى عنه أنه قال لطبّاخيه: لكم ثلاث وعليكم اثنان: لكم الرؤوس والأكارع والجلود، وعليكم الحطب والتوابل. ومِنْ حكاياته الدالّة على شدّة بُخله أنّ الربيع بن يونس حاجبه قال له يومًا: يا أمير المؤمنين إنّ الشعراء ببابك وهم كثيرون وقد طالت أيام إقامتهم ونفدت نفقاتهم، فقال: اخرج إليهم واقرأ عليهم السلام، وقل لهم: مَنْ مدحنا منكم فلا يصفنا بالأسد فإنما هو كلب مِنَ الكلاب، ولا بالحيّة فإنما هي دُوَيْبة ميتة تأكل التراب، ولا بالحلى فإنما هو حجر أصمّ، ولا بالبحر فإنه ذو غطامط؛ فمن ليس في شعره شيء من هذا فليدخل، ومَنْ كان في شعره شيء من هذا فلينصرف، فانصرفوا كلّهم إلّا إبراهيم بن هرمة، فإنه قال: أدخلني، فأدخله فلمّا مَثُل بين يديه قال: يا ربيع قد علمت أنّه لا يُجيبك أحد غيره، هات يا إبراهيم؛ فأنشده القصيدة التي أوّلها[1]: [الطويل]

سرى نومه عنّي الصّبا المتحامل ... وأذِنَ بالبَيْن الحبيب المُزايلُ

حتى انتهى إلى قوله: [الطويل]

له اللحظات في حفا في سريره ... إذا كرّها فيها عِقاب ونائلُ
فأمّ الذي أمنت آمنة الرّدى ... وأمّ الذي خوّفت بالثُكل ثاكلُ

فرفع له السّتر وقبل عليه مُصْغيًا إليه حتى فرغ من إنشادها، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، وقال له: يا إبراهيم لا تُتْلفها طمعًا في نَيْل مثلها، فما في كلّ وقتٍ تصل إلينا وتنال مثلها منا؛ فقال إبراهيم: ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم العَرْض

(١) البيت في ديوان ابن هرمة، وهو مطلع القصيدة، وفي الديوان: «الخليط المزايلُ»، بدل: «الحبيب المزايلُ».

وعليها خاتم الجهبذ. ودخل المؤمّل بن أميل على المهديّ بالريّ، وهو إذ ذاك وليّ عهد أبيه المنصور، فامتدحه بأبيات يقول فيها[١]: [الوافر]

هو المهديّ إلّا أنّ فيه تشابه صورة القمر المُنيرِ
تشابه ذا وذا فهما إذا ما أنارا يُشكّلان على البصيرِ
فهذا في الضّياء سراج عدلٍ وهذا في الظّلام سراج نور
ولكن فضل الرحمٰن هذا على ذا بالمنابر والسّريرِ
ونقص الشهر يخمد ذا وهذا مُنير عند نقصان الشُّهورِ

ومنها: [الوافر]

فإن سبق الكبير فأهل سبقٍ له فضل الكبير على الصّغيرِ
وإن بلغ الصّغير مدى كبير فقد خلق الصغير مِنَ الكبيرِ

فأعطاه عشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور، وهو بمدينة السّلام بغداد، فكتب إليه المهديّ يلومه على هذا العطاء، ويقول له: إنما كان ينبغي لك أن تُعطي الشاعر إذا أقام ببابك سنة أربعة آلاف درهم، وأمر كاتبه أن يوجّه إليه بالشاعر فطُلِب فلم يوجد، وذكر أنه توجّه إلى بغداد، فكتب الكاتب إلى المنصور بذلك، فأمر بعض القوّاد بإرصاد المؤمل على باب بغداد، فجعل القائد يتصفّح وجوه الناس القادمين عليها ويسألهم عن أسمائهم وأسماء آبائهم حتى وقع على المؤمّل، فسأل عن اسمه فأخبره، فقال: أنت بُغْية أمير المؤمنين وطلبته، قال المؤمل: فكاد والله قلبي ينصدع خوفًا وفزعًا، ثم أخذ بيدي فسار بي إلى الربيع فأدخلني على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين هذا المؤمّل بن أميل قد ظفرت به، فسلّمت فردّ السلام فسكن جأشي وزال استيحاشي عند ذلك واطمأنّ قلبي وزال رَوْعي، ثم قال لي: أتيت غلامًا غرًّا فخدعته فانخدع، فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت ملكًا جوّادًا كريمًا، فمدحته فحمله كرم أعراقه ومكارم شِيَمه على صلتي وبِرّي، فأعجبه كلامي ثم قال: أنشدني ما قلت فيه، فأنشدته القصيدة، فقال: والله لقد أحسنت ولكنها لا تساوي عشرين ألفًا يا ربيع، خذ منه المال وأعْطِه منه أربعة آلاف درهم، ففعل؛ فلمّا وُلّي المهدي الخلافة قدم عليه المؤمّل

(١) الأبيات في ديوان المؤمّل بن إميل المحاربي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

فأخبره بما دار بينه وبين المنصور، فضحك وأمر له بردّ ما أُخذ منه، فرُدَّ عليه. وأشرف يومًا على الصيّاد فرأى صائدًا اصطاد سمكة عظيمة، فقال لبعض مواليه: اخرج إلى المتسبّب فمُرْه أن يوكل بالصياد من يدور معه مِنْ حيث لا يشعر، فإذا باع السمكة قبض على مشتريها وصار به إلينا؛ ففعل المتسبّب ما أُمر به، فلقي الصياد رجلًا نصرانيًا فابتاع منه السمكة بثلثي درهم، فلمّا صارت السمكة في يد النصرانيّ وذهب بها قبض عليه الأعوان وأتى به المتسبّب وأدخله على المنصور، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: رجل نصرانيّ، قال: بكم ابتعت هذه السمكة؟ قال: بثلثي درهم، قال: وكم عِيالك؟ قال: ليس لي عيال، قال: وأنت يمكنك أن تشتري مثل هذه السمكة بمثل هذا الثمن، كم عندك مِنَ المال؟ قال: ما عندي شيء، فقال للمتسبّب: خذه إليك، فإن أقرّ بجميع ما عنده، وإلّا فمثّل به؛ فأقرّ بعشرة آلاف درهم قال: كلّا إنها أكثر، فأقرّ بثلاثين ألف درهم، وأحلّ دمه إن وقف له على أكثر منها، قال له: مِنْ أين جمعتها؟ قال: وأنا آمن يا أمير المؤمنين، قال له: وأنت آمن على نفسك إنْ صدقت، قال: كنت جارًا لأبي أيوب فولّاني جهبذة بعض نواحي الأهواز فأصبت هذا المال، فقال المنصور: الله أكبر هذا ما لنا اخْتِيَنْته، وأمر المتسبّب بحمل المال وإطلاق الرجل. وقد حَكَى ابن حمدون في تذكرته أنّ المنصور حجّ في بعض السنين، فحدا به سالم الحادي في طريقه يومًا بقول الشاعر[1]: [الرجز]

أبلج بين حاجبيه نوره إذا تغذّى رُفِعَتْ ستورُه
يزيّنه حياؤه وخيره ومِسْكه يشوبه كافورُه

فطَرِبَ المنصور حتى ضرب برجله المحمل، ثم قال: يا ربيع أعطه عشرة دراهم - وفي رواية: نصف درهم - فقال سالم: لا عيّرنا أمير المؤمنين، والله لقد حدَوْت لهشام بن عبد الملك فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقال المنصور: ما كان له أن يُعْطيك من بيت مال المسلمين ما ذكرت يا ربيع، وكّل به مَنْ يستخرج منه هذا المال، قال الربيع: فما زلت أسفر بينهما حتى شَرط عليه أن يَحْدو به في خروجه وقفوله بغير مُؤْنة، وكان سالم هذا المذكور تُورَد له الإبل بعد أن تَظْمأ السبعة أيام والثمان والتّسع والعشر، فيحدو لها فيلهيها بحدوه عن ورود الماء.

(١) الرجز في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ١١٨٥. ورسائل الجاحظ، ص ٥٥٥.

ومن ظريف ما يُحْكى عنه أنّ عبد الله بن زياد بن الحارث كتب إليه رقعة بليغة يستمنحه فيها، فكتب عليها: إنّ الغِنى والبلاغة إذا اجتمعا في بلدٍ أبطراه، وأمير المؤمنين مشفقٌ عليك، فاكْتَفِ بالبلاغة. وكان لسوار القاضي بالبصرة من قبل المنصور كاتبان رزق أحدهما عشرون درهمًا، ورزق الآخر أربعون درهمًا، فكتب إليه سوار التسوية بينهما، فنقص صاحب الأربعين عشرة وزادها صاحب العشرين، وإنّما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين.

من صان درهمه ولم يسمح به للعطاء
فكشف عنه اللُّؤم ما أسبله الكرم من الغطاء

مروان بن أبي حفصة، وذلك أنه خرج يُريد المهدي، فقالت امرأة من أهله: ما لي عليك إذا رجعت بالجائزة، قال: إن أعطيت مائة ألف درهم أعطيتك درهمًا، فأُعطي ستّين ألفًا فأعطاها أربعة دوانيق. وسأل رجل خالد بن صفوان، فقال: هِبْ لي دنينيرًا، فقال خالد: لقد صغّرت عظيمًا صغّرك الله الدينار عُشْر العشرة، والعشرة عُشْر المائة، والمائة عُشْر الألف، والألف ديتك. وكان بعض البخلاء إذا صار الدّرهم في يده خاطبه وناجاه، وقبّله وفداه، وقال له: بأبي أنت وأمّي كم مِنْ أرضٍ قطعت، وكيس خرمت، وكم من خاملٍ رفعت وسريّ وضعت، إنّ لك عندي أن لا تَعْرى ولا تضحى؛ ثمّ يُلْقيه في الكيس ويقول: اسكن على بركة الله في مكان لا تَحول عنه، ولا تخرج منه.

وكان مروان بن أبي حفصة إذا جاءته جائزة يقول للدّراهم: كم خامل رفعت، وكم سريّ وضعت، طال ما تغرّبت في البلاد، وأتْعبت في طلب تحصيلك العباد، فوالله لأطيلنّ ضجعتك، ولأُديمنّ صرعتك؛ ثم يضعها في الصندوق ويختم عليها. وكان أبو العميس إذا وقع الدّرهم في يده نقره بأصبعه، وقال مخاطبًا له: كم من يدٍ وقعت فيها، ومن بلدٍ جُلْت في نواحيها، بأبي أنت وأمّي اسكن وقرّ عينًا فقد قرّ بك القرار، واستقرّ بك الدّار، واطمأنّ بك المنزل؛ ثم يضعه في كيس ويختم عليه، فيكون آخر العَهْد به. وكان بعض البخلاء إذا وقع الدّرهم في كفّه قال مخاطبًا له: أنت عقلي وديني وصلاتي وصيامي وجامع شملي وقرّة عيني وقوتي وعمادي وعدّتي؛ ثم يقول: يا حبيب قلبي وثمرة فؤادي قد صرت إلى مَنْ يصونك ويعرف حقّك ويُعظم قدرك ويُشْفق عليك، وكيف لا

يكون ذلك وبك تُجلب المسارّ، وتُدْفع المضارّ، وتَعْظم الأقدار، وتعمر الدّيار، وتفتضّ الأبكار، ترفع الذّكر وتُعلي القدر؛ ثم يطرحه في الكيس ويُنْشد[1]: [الطويل]

بنفسيَ محجوب عن العين شخصه وليس بخالٍ مِنْ لساني ولا قلبي
ومن ذكره حظّي من الناس كلّهم وأوّل حظّي منه في البُعْد والقربِ

وممّن صان درهمه ولم يسمح به فكان لك سببًا لذمّه وثلبه

ما يُحْكى أنّ أعرابيًا شرب عند بخيل غبوقًا[2]، فلمّا سكر البخيل وانتشى خلع على الأعرابي قميصًا، فلما صحا انتزعه منه ثم شرب معه صبوحًا[3]، فلما سكر وانتشى خلع عليه قميصًا، فلما صحا انتزعه منه، فقال[4]: [الطويل]

كساني قميصًا مرّتين إذا انتشى وينزعه منّي إذا كان صاحيا
فلي فرحة في سُكْره وانتشائِهِ وفي الصُّحُوّ ترحات تشيب النّواصِيا

وأُتي بعض البخلاء بغلامٍ ليشتريه، فَسِيم فيه بأربعين دينارًا، فأعطى فيه عشرين، فقيل له: إنه فرّاش وندّاف، فقال: لو فرش السماء وندف الغيم بقوس قزح ما اشتريته بأربعين. وساوم أشعب بقوس بندق، فقال صاحبه: بدينارين، فقال: والله لو رميت به طائرًا فوقع مشويًا بين رغيفين ما اشتريته بهذا الثمن؛ وكان أشعب بخيلًا وله حكايات تُذكر فيما بعد إن شاء الله.

وقال الأصمعيّ: قالت امرأة لزوجها: اشْتَرِ لنا رطبًا، قال لها: وكيف يُباع؟ قالت: كيلجة بدرهم، فقال: والله لو خرج الدجّال وعاثَ في الأرض، وأنت تمخضين بعيسى والناس ينتظرون الفرج على يديه في قتال الدجّال، ثم لم تَلِديه حتى تأكلي الرّطب ما اشتريته لك كيلجة بدرهم. مدح شاعرٌ محمد بن عبدوس، فقال له: أمّا أن أُعطيك شيئًا من مالي، فلا؛ ولكن اذهب فأَجْنِ جناية حتى لا أخذك بها. وقال مروان بن أبي حفصة: ما فرحت بشيء فرحي بمائة ألف درهم وهبها لي أمير المؤمنين المهديّ، فزادت درهمًا فاشتريت به لحمًا. ودخل أبو

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الغبوق: شرب العشي. (٣) الصبوح: شرب الصباح.
(٤) البيتان بلا نسبة في كتاب الأشربة، لابن قتيبة الدينوري، ص ٧٢.

صاعد على الغنويّ، فأنشده[١]: [البسيط]

رأيت في النَّوْم أنّي مالكٌ فرسًا ... ولي وصيفٌ وفي كفّي دنانيرُ
فقال قومٌ لهم علم ومعرفة ... رأيت خيرًا وللأحلام تفسيرُ
اقْصُص منامك في بيت الأمير تجد ... تحقيق ذاك وللفأل التّباشيرُ

فلمّا سمع الأمير إنشاده، قال: أضغاثُ أحلامٍ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

مَن كان بخله على الفقراء بطعامه معربًا عن لُؤْمه وموجبًا لملامه

الحُطَيْئة، يُحْكى عنه أن بعض الأعراب مرّ به وهو يرعى غنمًا له وفي كفّه عصًا، فناداه الأعرابيّ: يا راعي الغنم؛ فأومأ إليه الحُطَيْئة بعصاه، وقال: إنها عجراء من سلم، فقال الأعرابيّ: إني ضيف، فقال: وللضّيفان أعددتها. ومرّ أعرابيٌّ بأبي الأسود الدُّؤلي، وهو واقفٌ على باب داره فسلّم، فقال له أبو الأسود كلمة مقولة، قال: أتأذن لي في دخول منزلك؟ قال: وراؤك أوسع لك، قال: هل عندك شيء يُؤكل؟ قال: نعم، قال: فأطْعِمني، قال: عِيالي أحقّ به منك، قال: ما رأيت ألأم منك، قال: لست ترى نفسك. قال الشاعر[٢]: [مجزوء الكامل]

إيّاك ترغب في كلامه ... وارفع يمينك مِنْ طعامِه
فالموت أهْوَنُ عنده ... من مضغ ضيفٍ والتقامِه
سيّان كسر رغيفه ... أو كسر عظم مِنْ عِظامِه
وإذا مَرَرْتَ ببابه ... فاحفظ رغيفك مِنْ غلامِه

وقال رجل لبعض البخلاء: لِمَ لا تدعوني إلى طعامك؟ قال: لأنك جيّد المَضْغ، سريع البلع، إذا أكلت لقمة هيّأت أخرى؛ فقال: يا أخي أتريد أني إذا أكلت عندك أن أُصلّي ركعتين بين كلّ لقمتين. وقال آخر لبخيل: لِمَ لا تدعوني؟ قال: لأنك تعلق وتشدق وتحدق ـ أي يحمل واحدة في يده، وأخرى في شدقه، وينظر إلى أخرى بعينه. وعزم بعض إخوان أشعب عليه ليأكل عنده، فقال: إني

---

(١) الأبيات في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ١٨٧.
(٢) الأبيات لدعبل الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

استبق وذ أبي المقا ... تل حين تأكل من طعامِهِ

أخاف مِنْ ثقيلٍ يأكل معنا، فقال: ليس معنا ثالث، فمضى معه فبينا هما يأكلان إذا بالباب يُطْرق، فقال أشعب: ما أرانا إلّا صرنا إلى ما نكره، قال: إنه صديقي وفيه عشر خصال إنْ كرهت واحدة منهنّ لم آذَنْ له، فقال أشعب: هات أوّلها، قال: إنه لا يأكل ولا يشرب، قال: التّسع لك ودعه يدخل، فقال: قد أمِنّا ما كنّا نخافه. وكان مروان بن أبي حفصة لا يأكل إلّا الرؤوس، فقيل له في ذلك، قال: لأنّ الغلام لا يقدر أن يخونني فيه إن أخذ أذنًا أو أخذ عينًا وقفت على ذلك، وآكل منه ألوانًا آكل عينه لونًا ودماغه لونًا وأُذنيه لونًا، وأُكفى مُؤْنة طبخه في البيت، فقد اجتمع لي فيه مرافق شتّى.

وحكى دُعْبل الخزاعي، قال: أتيت سهل بن هارون في حاجة، فأطلت الجلوس عنده، فأخّر غداءه لقيامي، فجلست على عمدٍ حتى كضّه الجوع، فقال: يا غلام غدّنا، فجاء بمائدة وعليها قصعة فيها مرق وديك ليس قبلها ولا بعدها غيرها، فاطّلع في القصعة ففقد رأس الدّيك، فقال للغلام: أين الرأس؟ قال: رمَيْتُ به، قال: ولِمَ رميت به؟ قال: ظَنَنْتُك لا تأكله، قال: فهلّا ظَنَنْت أنّ العيال يأكلونه؛ ثم التفت إليّ وقال: لو لم أكره مما صنع إلّا الطِّيرة لكان حَسْبي، فإنّهم يقولون: الرأس للرّئيس وفيه الحواس الأربع، ومنه يصيح الدِّيك، وفيه عرفه الذي يتبرّك به، وعينه التي يضرب بها المثل في الصفاء، ودماغه موصوف لوجع الكليتين، ولم أرَ عظمًا قطّ أهشّ تحت ضرس مِن دماغ ديك، وَيْلك انظر أين رمَيْته؛ قال: لا أدري، قال: لكني أنا أدري أين رميته في بطنك الله حسيبك.

وكان جعفر بن سليمان بخيلًا على الطعام رُفِعَتْ المائدة مِنْ بين يديه يومًا وعليها دجاجة صحيحة قد أخذ منها بعض بنيه جناحًا، فلمّا أُعيدت عليه بالغداة قال: مَنْ هذا الذي تعاطى فعقر؟ فقيل له: ابنك الصغير، فقطع أرزاق جميع بنيه مِنْ أجله، فلما طال ذلك منه وأضرّ بهم الحال جاءه أكبرهم، وقال: يا أبانا أفتهلكنا بما فعل السفهاء منّا، فأعجبه ذلك وأمر بردّ أرزاقهم إليهم. وقال بعض الأكياس: دعاني كوفيّ إلى منزله فقدّم لي دجاجة، فأكلت من المرقة وجهدت أن آكل من اللّحم فما قدرت لصلابته وبتّ عنده، فأعاده من الغد إلى القدر وطرح عليه سكّرًا فعاد زيرباجًا فقدّمه، وأكلت مِنَ المرق وجهدت أن آكل من اللّحم، فما قدرت لشدّته، فبتّ عنده الليلة الثانية، لما كان من الغد قال لغلامه: اطرح عن اللّحم المرق ليصير قلية، ففعل ثم قدّمه إليّ فأكلت مِنَ المرق، وجهدت أن آكل

من اللّحم لم أقدر لقوّته، فأخذت قطعة من اللّحم ووضعتها إلى جهة القِبْلة وقمت لأصلّي إليها، فقال: ما هذا الذي تصنع؟ قلت: أشهد أنه لحم وليّ مِنْ أولياء الله تعالى، فإنه قد أدخل النار ثلاث دفعات فلم تفعل فيه شيئًا، فلمّا أردت الانصراف إذا ببعض جيرانه يدقّ الباب، فقال له: أعِرْني ذلك اللّحم لضيف وافاني من الغد لأطبخه له وأردّه إليك إن شاء الله تعالى، فناوله إيّاه.

وسأل فقير مِنْ دار بخيل شيئًا، فأُعطي لقمة صغيرة، فقال: يا أهل هذا المنزل كيف أشرب هذا الدّواء؟ وقف سائلٌ على باب دارٍ فيها يحيىٰ بن زياد وحماد بن عجرد وبشار مجتمعين على طعام، فقال: يا إخوتي المسلمين، فقال يحيىٰ: فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، فقال: ارحموني، فقال حماد: نحن إلى رحمتك أحْوج منك إلى رحمتنا، فقال: واسمعوا كلامي، فقال بشّار[1]: [الوافر]

لقد أسمعت لو ناديت حيّا

فقال السّائل: أمّا القول فما أوسع به شقاشق أقوالكم، وأمّا الفعل فما أخْيَبه قرن الله بالخيبة آمالكم. وقال العتبيّ: كان الأصمعيّ يجعل الخبز الحارّ أدمًا للخبز البارد، ولو بذلت له الجنّة درهم لاستنقص منه شيئًا. وقال جحظة: دخلت على هارون ابن الخال، وكان بخيلًا بطعامه، وكنت إذ ذاك ناقهًا من عِلّةٍ وقد نُصِبَت مائدة بين يديه، فدعاني إليها وقدمت إليّ صحفة فيها مضيرة معقودة بعصبان كأنّها قضبان فضّة، فانهمكت في الأكل فنظر إليّ شزرًا، ثم قال: يا جحظة هذه والله معدن ألم المفاصل والفالج والقولنج، وأنت عليل وبدنك نحيل واللّبن يستحيل؛ فقلت: والله العظيم الجليل لآتينّ منها على الكثير والقليل، وحسبنا الله ونِعْم الوكيل؛ ثم أقبلت على الأكل منها حتى اكتفيت، فلمّا انصرفت عَمِلت فيه[2]: [الطويل]

ولي صاحبٌ لا قدّس الله روحه بعيدٌ عن الخَيْرات غيرُ قريبِ
أكَلْت عصيبًا عنده في مضيرة فيا لك من يوم عليه عَصِيبِ

---

(١) عجزه:

ولكن لا حياة لمن تنادي

والبيت في ديوان بشار، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان في ديوان جحظة البرمكي، وهما بيتان منفردان.

وله وأبدع(١): [الكامل]

لا تعذلوني إن هجرت طعامه خوفًا على نفسي مِنَ المأكولِ
فمتى أكلت قتلته مِنْ بُخْله ومتى قَتَلْت قُتِلْت بالمقتولِ

وحضر أعرابيّ مائدة هشام بن عبد الملك فرفع الأعرابيّ لقمة، فقال له هشام: شعرة في لقمتك يا أعرابيّ، فقال الأعرابي: فإنك تلاحظني ملاحظة مَنْ يرى الشّعرة، والله لا أكلت عندك أبدًا. وقال بعض البُخَلاء: إني لا آكل إلّا نصف اللّيل، قيل له: ولِمَ؟ قال: يبرد الماء، وينقمع الذباب، وآمن فجأة الدّاخل، وصرخة السّائل. وطبخ رجل قِدْرًا وجلس مع زوجته يأكلان، فقال: ما أطْيَب هذا الطعام لولا الزّحام، قالت: أيّ زحام هٰهنا، إنما هو أنا وأنت! قال: كنت أحبّ أن أكون أنا والقدر.

وقال بعض البخلاء لغلامه: هات الطعام وأغلق الباب، قال: يا مولايَ ليس هذا حزمًا، بل أغلق الباب أوّلًا وأقدّم الطعام ثانيًا، فقال له: اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى لعِلْمك بأسباب الحَزْم. وأين هذا مما يُحْكى أنّ عديّ بن حاتم الطائي عمل مأدبة، فقال لولده وكان صغيرًا: أقِمْ على الباب وأْذن لمن تعرف وامنع مَنْ لا تعرف، فقال: والله لا يكن أوّل شيء ولِّيته من أمر الدنيا منع أحد عن طعام، فقال عديّ: والله يا ولدي أنت أكرم مني وأفطن، افتحوا الباب فمن شاء فليدخل؛ وبهاتين الحكايتين عُلِم مصداق مَنْ أطلع الله مسّ الحِكْمة من مشرق فيه بقوله: العبد من طِينة مولاه، والولد سرّ أبيه.

شاعر يذمّ بخلاء وتُرْوى للأخطل(٢): [البسيط]

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم واسْتَوْثقوا من رِتاج الباب والدّارِ
لا يقبس الجار منهم فَضْل نارهم ولا تكفّ يد عن حرمة الجارِ
قومٌ إذا اسْتَنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمّهم بولي على النارِ

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) البيتان الأولان لدعبل الخزاعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، والبيت الثالث للأخطل في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ما زال فينا رباط الخيل معلَمةً وفي كليب رباط الذلّ والعارِ

آخر(١): [الوافر]

تـراهـم خـشـيـة الأضـيـاف يـومًـا   يـقـيـمـون الـصـلاة بـلا أذان

أبو هلال العسكريّ يذمّ بخيلًا(٢): [الطويل]

تـنـانـيـركـم لـلـنّـمـل فـيـهـا مـدارج   وفي قـدركـم لـلـعـنـكـبـوت مناسجُ
وعـنـدكـم لـلـضّـيـف حـيـن يـنـوبـكـم   سـؤالات سـوء لـلـقـرى وسـفـاتـجُ
وأنـتـم عـلـى مـا تـزعـمـون أكـارم   فـأيـري فـي إسـت الأكـارم والـجُ

وقال صعصعة بن صوحان: أكلت عند معاوية لقمة، فقام بها خطيبًا، قيل: وكيف ذاك؟ قال: كنت آكل معه فهيّأ لقمة ليأكلها فأغفلها فأخذتها وأكلتها، فسمعته بعد ذلك يقول: أيّها الناس أجمِلوا في الطَّلب، فرُبّ رافع لقمة إلى فِيه سبقه إليها غيره.

ومما يليق بهذا الفصل من التّذييل ذكر من عُرِف بالطمع والتطفيل

قالوا: الطّمع يدنّس الثياب ويغيّر الأذهان. وقالوا: مصارع الألباب تحت ظلال الطمع. وقالوا: الحرّ عبدٌ ما طمع، والعبد حرٌّ إنْ قنع. وقالوا: أخرج الطّمع مِنْ فيك، تحلّ القَيْد مِنْ رجليك. وصف بعضهم طعامًا، فقال: لو رأى شيئًا في جحر أفعى لجاء إليه يسعى، وأدخل يده فيه ليأخذه ويُحْويه. وقالوا: لو قيل للطمع مَنْ أبوك؟ لقال: الشكّ في المقدور، ولو قيل: ما حِرْفتك؟ لقال: اكتساب الذلّ، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان؛ ولله درّ مَنْ قال(٣): [الطويل]

ومـا قـطـع الأعـنـاق حـتـى أبـانـهـا   وقـرّرهـا إلّا سـيـوف الـمـطـامـعِ

شاعر يذمّ الطمع(٤): [الطويل]

وذي طـمـع يـغـدو بـقـيّـة عـمـره   ويُـمْـسـي ولـم تُـجْـمـع يـداه لـه وفـرا

---

(١) البيت للعكوك في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أوّلها:
أقـامـوا الـديـدبـان عـلـى يـفـاع   وقـالـوا لا تـنـم لـلـديـدبـان
(٢) الأبيات لأبي هلال العسكري في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

يبيت سميرًا لمُنى مثريًا بها ... ويضحا سليبًا من مواهبها صفرا
وأكثر ما تَلْقى الأماني كواذبًا ... فإن صدقت جازت بصاحبها القدرا

فمَن اشتهر بالطمع، وجَمَع فيه بين الطَّبع والطبع أشعب، وبه يضرب المثل، قيل له: من طمعك؟ قال: ما رأيت عروسًا تُزَفّ إلّا ظننت أنها لي، ولا رأيت جنازة إلّا حَسِبت أنّ صاحبها أوصى لي بشيء، ولا رأيت اثنين يتناجيان إلّا خُيِّل لي أنهما يأمران لي بمعروف، ولقد طاف الصّبيان حولي يومًا يتولّعون بي، فقلت لهم لأبعدهم عنّي: إنّ في دار فلان لوزنيجًا يُفرّق، فذهبوا يتعادون، فلما ذهبوا عنّي ظننت أنّي صادق فتبعتهم. وقيل له: هل رأيت أطمع منك؟ قال: نعم، نزلت بطريق الشام مع رفيقٍ لي تحت صومعة راهب فتنازعنا في شيءٍ، فقلت: أير الرّاهب في إست الكاذب، وإذا الراهب قد نزل وأيره في يده، وقد أنعظ، وهو يقول: فدَيْتكما مَن الكاذب فيكما؟ وكان يقول: ما أحسست بجارٍ لي يطبخ قدرًا إلّا غسلت الغضارة ووضعت المائدة وانتظرته يحمل إليّ قدره. جلس عبد الله بن أبي عتيق مع زوجته فتمنّى أن يُهْدَى له مسلوخ فيتّخذ منه لون كذا ولون كذا، فسَمِعَتْه جارة له، فظنّت أنه أمر بعمل ما سمعت، فانتظرته إلى اللّيل، ثم جاءت وطرقت الباب وقالت: شَمَمْت رائحة قدركم فجئت لتطعموني منها، فقال ابن أبي عتيق لامرأته: أنت طالق إن قمنا في دار يتشمّم أهلها ريح الأماني، ورحل عنها.

بعض المتمنّين[١]: [المتقارب]

خَلَوْتُ بنفسي فمنّيْتها ... أمانيّ خابت ولم تصدق
فهذا اقتلاه وهذا اضربا ... وهذا احملاه على الأبلق

التّطفيل: من أمثالهم قولهم: أطفل من ذباب، وألزم من قراد، وأنمّ من ليل على نهار. ومن أدب الرّاجز[٢]: [الرجز]

أوْغل في التطفيل مِنْ ذبابِ ... على طعامٍ وعلى شرابِ
لو أبصر الرّغفان في السّحاب ... لطار في الجوّ مع العقابِ

---

(١) البيتان لم أجدهما.

(٢) الرجز بلا نسبة في فصّ الخواتم فيما قيل في الولائم، لابن طولون، ص ٩٤.

وقالوا: مَنْ جاء إلى طعام لم يُدْعَ إليه استحق الطّرد، ولا يُلام عليه. لِيم بعض المتطفّلين على التّطفيل، فقال: والله ما بُنِيَت المنازل إلّا لتُدْخَل، ولا قُدِّمت الأطعمة إلّا لتُؤكل، وإني لأجمع في التطفيل خِلالًا أدخل مجالسًا وأقعد مُسْتأنسًا، وأنبسط وإنْ كان ربّ المجلس عابسًا، ولا أتكلّف مغرمًا ولا أنفق درهمًا. وقال بنان، وهو كبيرهم: التمكّن على المائدة خيرٌ من أربعة ألوان زائدة. ومن دعائه: اللّهمّ ارزقني صحّة الجسم، وكَثْرة الأكل، ودوام الشّهوة، ونقاء المعدة. ودخل بعض الطفيليّين على قوم، فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: أنا الذي لا أحوجكم إلى رسول؛ ولبعضهم في المعنى[١]: [مجزوء الرمل]

نـحـنُ قـومٌ إن جـفـا الـنـا ... س وَصَـلْـنـا مَـنْ جـفـانـا
لا نُـبـالـي صـاحـب الـدا ... ر نَـسِـيـنـا أمْ دعـانـا

قصد جماعة من الطفيليّين باب بعض الكُبَراء وقت غدائه، فمنعهم بوّابه، فكتب إليه بعضهم[٢]: [الخفيف]

قـد أتَيْنـاك زائرين خِفـافـا ... وعـلـمـنـا بـأنّ عـنـدك فـضـلـه
ولـدينـا مـن الـحـديـث هَـنـاة ... مُـعْـجـبـات نـعـدّها لـك جـمـلـه
إن تـجـدنـا كـمـا تـريـد وإلّا ... فـاحـتـمـلـنـا فـإنـمـا هي أكـلـه

فأذن لهم فدخلوا. البديع الهمذاني على لسان طفيليّ[٣]: [الخفيف]

نحن قوم نحب هدي رسول ... الله هـدنـا ولـلـصـواب أصَبْـنـا
فـادْعُـنـا كـلّـمـا نـشـطـت فـإنّـا ... لـو دُعِـيـنـا إلـى كِـراعٍ أجَبْـنـا

آخر[٤]: [الوافر]

ولـمّـا أن كـتـبـت ولـم تـجـبـنـي ... ولـم تـنـظـر إلـيّ بـعـيـن أنـسِ
رأيـت الـحـزم إن أنـضـى ركـابـي ... إلـيـك وأن أكـون رسـول نـفـسـي

---

(١) البيتان في نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري.
(٢) الأبيات لأحمد بن سليمان بن وهب الكاتب، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان لم أجدهما.

ولم أسمع بأظرف مِنْ قولِ القائل[1]: [الخفيف]

وندِيم رقيق حاشية الحيـ ـلة صافي زجاجة الآدابِ
شغلته الرّقاع منه إليه داعيًا نفسه إلى الأصحابِ

آخر يصف طفيليًا[2]: [السريع]

لو طبخت قدر بمطمورةٍ بالشام أو أقصى جميع الثغورْ
وأنت بالصّين لوافيتها يا عالم الغَيْب بما في القدورْ

الفصل الثالث من الباب العاشر

في مدح القصد في الإنفاق خوف التعيير بالإملاق

قال الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ ناصحًا بالإشفاق، وآمرًا له بالقصد في الإنفاق، مثبّتًا لكماله قوامًا مشكورًا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: الآية ٢٩]، فنهاه عن التقتير، كما نهاه عن التبذير. وقال تعالى مُثنيًا على المقتصدين بحُسْن تقديرهم إكرامًا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: الآية ٦٧]. وقال رسول الله ﷺ: «ما عالَ مَنِ اقْتصدَ»[3]، أي ما افتقر. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: إنّ الله يحب القصد والتقدير، ويكره السّرف والتبذير. وقال معاوية رضي الله عنه: حُسْن التقدير نِصْف الكسب، وهو قوام المعيشة. وقال لولده: كُنْ مقدّرًا ولا تَكُنْ مُقتِّرًا. وأوصى حكيم ولده فقال: يا بنيّ عليك بالتقدير بين الطّرفين لا مَنْع ولا إسْراف، ولا بخلٌ ولا إتلاف، لا تكن رطبًا فتعصر ولا يابسًا فتكسر. وقالوا: حُسْن التقدير رأس التّدبير.

وقال ذو النون: حُسن التقدير مع الكفاف أكفى من الكثير مع الإسراف. ويقال: لا تسمح لولدك ولا لامرأتك ولا لغلامك وخادمك بما فوق الكفاية، فإنّ طاعتهم لك بقدر حاجتهم إليك.

(١) البيتان لعمرو بن عثمان بن إسفنديار الكاتب، في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٤٠١.
(٢) البيتان بلا نسبة في المحاضرات في الأدب واللغة، لليوسي، ص ٦٧٧.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٤٧.

ومِنْ هذا وهو لائقٌ بالملوك ما حُكِيَ أنّ أبرويز قال لابنه: لا توسعنّ على جندك فيشغلوا عنك، ولا تضيقنّ عليهم فيضجّوا منك، وأعطِهِم عطاءً قصدًا، وامْنَعهم منعًا جميلًا ووسّع لهم في الرّجاء ولا توسّع عليهم في العطاء. وفي وصيّته لولده: أيْ بُنَيّ قولُ لا تدفع البلاء، وقول نعم تُزيل النِّعَم، وسماع الغناء برسام حاد؛ لأنّ الإنسان إذا سمع الغناء شرب، وإذا شرب طَرِب، وإذا طَرِب وَهَب، وإذا وَهَب عطب، وإذا عطب اعْتلّ، ثم يموت من غمّ ذلك، والدّرهم محموم إنْ حرّكته مات، والدينار محبوس إن أُطْلقته طار، وكَذِب مَنْ قال اليمين تذر الديار بلاقع، وإنّما الإسراف يفعل ذلك والأصدقاء هم الأعداء؛ لأنك إذا احْتجت إليهم منعوك، وإنِ احْتاجوا إليك ومنعتهم سبّوك، وإذا لم يكن بدٌّ منهم فكُنْ معهم كلاعب الشطرنج يحفظ ما معه، ويحتال في أخذ ما مع غيره.

وسأل رجل زياد ابن سميّة فأعطاه درهمًا، فقال صاحب العراقين: أسأله فيعطيني درهمًا، فقال مَنْ بيده خزائن السمٰوات والأرض ربما رزق أخصّ عباده عنده وأكرمهم لديه التمرة واللقمة وما يكبر عندي أن أصل رجلًا بمائة ألف درهم، ولا يصغر عندي أن أُعطي سائلًا رغيفًا إذا كان ربّ العالمين يفعل ذلك. وقيل: ينبغي للعاقل أن يكسب ببعض ماله المَحْمدة، ويصون ببعضه وجهه عن المسألة. وقال الأصمعيّ: سمعت بعض الأعراب يقول: مَنِ اقْتصد في الغنى والفقر فقد استعدّ لنوائب الدهر. ويقال: اقتصد في إنفاق الدّراهم، فإنّها الجراح الفاقة مراهم. وقالوا: إسقاط الفضول في النفقة ربح بضاعة لا تملّ، فإنّ الإسراف ربما كان سببًا في التقتير. وقال الثعالبي: مَنْ كَثُرت في دعوته نفقته أسلم ماله ونقصت مروءته. وقال أفلاطون: رأس العقل الاقتصاد في الإنفاق مِنْ غير بُخْل. ومِنَ الكلام البديع للبديع الهمذاني قوله: مَثَل الإحسان في الإنسان مثل الثمار في الأشجار، فحقّه إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى سنه؛ وما أحسن ما قيل في المعنى[1]: [المنسرح]

أنفق بمقدار ما استفدت ولا تُسْرف وعِشْ فيه عَيْش مُقْتصدِ
مَنْ كان فيما استفاد مُقتصدًا لم يفتقر بعدها إلى أحدِ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر(١): [الرمل]

كُنْ بما أُوتيتَه مغتبطًا تستدمْ عَيش القنوع المُكتفي
إنّ في نَيْل المُنى وشكَ الرّدى واجتناب القَصْد عين السّرفِ
كسراج دهنه قوتٌ له فإذا غرّقته فيه طَفي

ما قيل إنّ في صلاح الأموال صلاح ما فسد مِنَ الأحوال

قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: لا يقلّ مع الإصلاح شيء، كما لا يكثر مع الإفساد شيء. وقال: مِنَ الفساد إضاعة الزّاد. المتلمّس(٢): [الوافر]

لحفظ المال خيرٌ مِنْ فناه وسَيْر في البلاد بغير زادِ
قليل المال تُصْلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفسادِ

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: أصْلِحوا أموالكم التي رزقكم الله، فإنّ إقْلالاً في رِفْق خيرٌ مِنْ إكثارٍ في خُرْق. وقالوا: إنّ في صلاح الأموال سلامة الدّين وجمال الوجه وبقاء العزّ وصون العرض. وقالوا: أصلح مالك تجده لرَوْعة الزّمان، وجَفْوة السّلطان، ونبوّة الإخوان، ودفع الأحزان. وكتب عُتْبة بن أبي سفيان إلى وكيله يعاهده: صغير مالي يكبر ولا يخفّ كبيره فيصغر، فإنّه ليس يشغلني كثيرُ مالي عن إصلاح قليله، ولا يمنعني قليله عن كثير ما ينوبني. وقال أُحَيْحة بن الحلّاج: أصلحوا أموالكم، فإنّكم لا تزالون ذوي مروءات ما استغنيتم عن عَشيرتكم. وقال شبيب بن شيبة لِبَنيه: إن كنتم تحبّون المروءة والفتوّة أصلحوا أموالكم. وقال معاوية: إصلاحك ما في يدك أسلم من طلبك ما في أيدي الناس. وقال عبد الله بن عباس: اطلبوا الغِنى بإصلاح ما في أيديكم، فإنّ الفقر مَجْمع العيوب. وقال البُسْتي(٣): [السريع]

أشفق على الفضّة والعين تَسْلم من القلّة والدَّيْنِ
فقوّة العين بإنسانها وقوّة الإنسان بالعَيْنِ

---

(١) الأبيات بلا نسبة في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٣١٤.
(٢) البيتان في ديوان المتلمّس الضبعي، من قصيدة مطلعها:
صبا من بعد سلوته فؤادي وأسمح للقرينة بانقيادِ
(٣) البيتان في ديوان أبي الفتح البستي، وهما بيتان منفردان.

احتجاج من خمدت يده عن النّوال خوف التعيير بالفقر وذلّ السؤال

قال أبو حنيفة: لا خير فيمن لا يحفظ ماله ليصون به عرضه، ويَصِل به رحمه، ويستغني به عن لِئام النّاس. وقال الأصمعي: لامت أعرابيّة أبًا لها على إتلاف ماله، فقالت: يا أبتِ حبس المال يَمْنع العِيال من بذل الوجه للسؤال، أسرفت في النّوال وكثرة النّحال، أمسك فقد أتلفت الطارف والتّلاد، وبقيت ترقب ما في أيدي العباد، يا أبتِ مَنْ لم يحفظ ما ينفعه يُوشك أن يقع بالفقر فيما يضرّه.

وقال عبد الله بن المعتز[1]: [الطويل]

أعاذل ليس البخل مني سجيّة ولكن وجدت الفقر شرّ سبيلِ
لموت الفَتى خيرٌ مِنَ البخل للفتى وللبخل خيرٌ مِنْ سؤال بخيلِ

وقال سفيان الثوري: لأنْ أخلف عشرة آلاف درهم أُحاسب عليها أحبّ إليّ مِنْ أن أحتاج إلى الناس. وكان داود بن عليّ يقول: لأنْ يترك الرجل ماله بعده لأعدائه خيرٌ مِنَ الحاجة في حياته لأوْليائه. وقال يعقوب الكندي: مَنْ جاد بماله فقد جاد بنفسه؛ لأنه جاد بما لا قِوام لها إلّا به. وقال الشاعر[2]: [السريع]

يا ربّ جودٌ جرّ فقرُ امرىءٍ فقام للناس مقام الذّليلِ
فاشدُدْ عُرى مالك واسْتَبْقِهِ فالمَوْت خيرٌ مِنْ سؤال البَخيلِ

آخر[3]: [مجزوء الكامل]

الموتُ خيرٌ للفتى مِنْ أن يعيش بغير مالِ
والموت خيرٌ للكريم مِنَ التضرّع والسُّؤالِ

وقال أبو الأسود الدُّؤلي: لو لم نبخل على السؤال بما يسألونا لكُنّا أسوأ حالًا منهم. وقالوا: ختم المال حتم. ولِيمَ مروان بن أبي حفصة على الإمساك، فأنشد[4]:

---

(١) البيتان لعليّ بن الجهم في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٢) البيتان لعبد الله بن المعتز في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٥٨٩؛ وبلا نسبة في تحسين القبيح، للثعالبي، ص ٢٧.
(٣) البيتان بلا نسبة في المحاسن والمساوىء، لإبراهيم البيهقي، ص ٥٩٤.
(٤) البيتان في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة ابن القم الحسين بن علي بن محمد.

[الطويل]

يقيم الرجال المُوسرون بأرضهم ... وترمي النّوى بالمقترين المراميا
وما فارقوا أوطانهم عن مَلالةٍ ... ولكن حذارًا مِنْ شمات الأعاديا

ومن قولهم في أن الفقر والإقلال مقرونان بالذُّخر والإذلال

قال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه: الفقر داء لا دواء له، مَنْ كَتَمه قتله، ومَنْ أذاعه فضحه. وقال أيضًا رضي الله عنه: مارست كل شيء فغلبته، ومارسني الفقر فغلبني، إن سترته أهلكني، وإن أذَعْته فضحني. وقال لولده محمد ابن الحنفيّة: يا بُنيّ إني أخاف الفَقْر، فإنه منقصة للدّين مَذْهبة للعقل داعية للمَقْت. وقالوا: الفاقة هي الموت الأصغر، لا بل هي الموت الأكبر. وذُكِر أنّ السفاح لما ضَرَب أعناق بني أُمية قام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين هذا والله جهد البلاء، فقال: مُهْ لا أُمّ لك ما هذا وشرطة حجام إلّا سواء، ولكن جهد البلاء فقر مدقع، بعد غُنى مُوسع. وقال ابن دأب: لقيت رجلًا كنت أعرفه حَسَن الحال، ومِنْ أصحاب الأموال، في حالةٍ رَدِيّة، كأنّما أصابته رَزِيّة، فسلّم عليّ فقلت: ما الذي غيّر حالك وأذهب مالك؟ فقال: تنقّل الزّمان، وكرّ الحدثان، فآثرت الضّرب في البلدان والبُعْد عن الأوطان، ومفارقة المعارف والإخوان، وعملت بقول الشاعر[1]:

[الطويل]

سأعمل نَصْب العَيْس حتى يكفني ... غِنى المال يومًا أو غِنى الحدثانِ
فللموت خيرٌ من حياة يُرى بها ... على الحرّ ذي الإقلال وسمّ هوانِ
متى يتكلّم يلغ حُكْم كلامه ... وإن يقل قالوا عديم بيانِ

وقوله هذا ينظر إلى قولهم فيما ضربوه من الأمثال: مناقب المُوسِر مثالب المُعْسر؛ وذلك أنه إذا كان جوادًا قالوا مبذّر، وإنْ كان لَسِنًا قالوا مِهْذار، وإن كان ذكيًا قالوا بليد، وإنْ كان شجاعًا قالوا أهوج، وإنْ كان صموتًا قالوا عييّ، وإنْ كان وقورًا قالوا متكبّر، ومَنْ نزل به الفقر لم يجد بُدًّا مِنْ ترك الحياء، ومَنْ ذهب حياؤه ذهبت مروءته، ومن ذهبت مروءته مقت، ومن مقت أُوذي، ومن أُوذي حزن، ومن حزن ذهب عقله، ومن أُصيب بهذا كلّه كان كلامه كُلاًّ عليه لا له.

---

(١) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في ديوانه، والبيت الأوّل مطلع القصيدة.

شاعر(١): [البسيط]

لـمّـا رأيـت أخـلّائـي وخـالـصـتـي الـكـلّ مـنـقـبـض عـنـي ومـحـتـشـم
أبـدوا جـفـاءً وإعـراضًـا فـقـلـت لـهـم أذنـبـت ذنـبًـا فـقـالـوا ذنـبـك الـعَـدم

آخر(٢): [الطويل]

يُغـطّي عـيـوب الـمـرء كـثـرة مـالـه يـصـدّق فـيـمـا قـال وهـو كـذوبُ
ويُـزْري بـعـقـل الـمـرء قـلّـة مـالـه يـحـمّـقـه الأقـوام وهـو لَـبـيـبُ

آخر(٣): [الخفيف]

أنـطـقـتـك الـثّـيـاب لا الآداب وطـوتـنـي عـن الـكـلام الـثّـيـابُ
والـصـواب الـذي أقـول خـطـاء والـخـطـاء الـذي تـقـول الـصّـوابُ

وقالوا: مَنْ حَسُن حاله اسْتُحسن قاله. وقالوا: الفَقْر يخرس الفطن عن حُجّته ويجعله غريبًا في بلدته. وقالوا: إذا افتقر الرجل اتّهمه مَنْ كان يأتمنه وأساء به الظنّ مَنْ كان يُحسنه، فإذا أذنب غيره نُسِب إليه، ومَنْ كان له صار عليه. وقال إبراهيم بن محمد بن المدبر: جهدت جهدي أن أنظر إلى الفقير بالعين التي أنظر بها إلى الغني، فلم يتهيأ لي ذلك. وقال الشاعر(٤): [الكامل]

يـغـدو الـفـقـيـر وكـل شـيء ضـدّه والأرض تـغْـلـق دونـه أبـوابَـهـا
وتـراه مَـمْـقـوتًـا ولـيـس بـمُـذْنِـبٍ ويـرى الـعـداوة لا يـرى أسـبـابَـهـا
حـتـى الـكِـلاب إذا رأت ذا بـزّةٍ أصْـغَـت إلـيـه وحـرّكـت أذنـابَـهـا
وإذا رأتْ يـومًـا فـقـيـرًا عـاريًـا نـبـحـت عـلـيـه وكـشّـرت أنـيـابَـهـا

وقالوا: ما أطيب الإفاقة من سُمّ الفاقة. وقال عبد الملك بن صالح: الفَقْر جند الله الأكبر يذلّ به من طغى وتجبّر. ويقال: رُبّ حسب دفنه الفقر.

---

(١) البيتان لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
الـنـاس أتـبـاع مـا دامـت لـه الـنّـعـم والـويـل لـلـمـرء إنْ زلّـت بـه الـقـدمُ
(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) الأبيات لابن الأحنف في المستطرف، للأبشيهي، ص ١٣٣٣.

شاعر[١]: [البسيط]

الفقر يُزري بأقوام ذوي حسبٍ ... وقد يسوّد غير السيّدِ المالُ

وقال بعضهم: الفقير كميت في بيتٍ لا يملك غير الجلدة بردة، ولا يلتقي لحياه إلّا برعدة. شاعر[٢]: [البسيط]

ما أحسن الدّين والدُّنيا إذا اجتَمعا ... وأقبَح القلّ والإفلاس بالرّجلِ

آخر[٣]: [الطويل]

لَبِسْت صروف الدّهر كهلًا وناشئًا ... وجرّبت حاليه على العُسْر واليُسْرِ

فلم أرَ بعد الدّين خيرٌ مِنَ الغِنى ... ولم أرَ بعدَ الكُفْرِ شرًّا مِنَ الفَقْرِ

آخر[٤]: [البسيط]

رُزِقْت لُبًّا ولم أُرْزَق مروءته ... وما المُروءة إلّا كَثْرة المالِ

إذا أردت مساماة تقيّدني ... عمّا يُنوّه باسمي رقّة الحالِ

آخر[٥]: [الطويل]

كفى حَزَنًا أنّ الغِنى مُتعذّرٌ ... عليّ وأنّي بالمكارم مُغرمُ

وما قَصُرت بي في المطالب هِمّة ... ولكنّني أسعى إليها فأُحرمُ

آخر[٦]: [الطويل]

كفى حزنًا أني أروح وأغتدي ... وما لي مِنْ مالٍ أصون به عِرْضي

وأكثر ما ألقى صديقي بمرحبًا ... وذلك لا يكفي الصّديق ولا يرضي

---

(١) البيت لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيت لم أجده.

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وانظر أيضًا ديوان صالح بن عبد القدوس، وديوان محمود الورّاق.

(٤) البيتان للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وانظر أيضًا ديوان محمد بن حازم الباهلي.

(٥) البيتان لبكر بن النطاح في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وانظر أيضًا ديوان مجنون ليلى.

(٦) البيتان بلا نسبة في الإشراف في منازل الأشراف، لابن أبي الدنيا، ص ٩٩.

آخر(١): [الوافر]

أرى نفسي تَتُوق إلى أُمورٍ ... يَقْصُر دون مبلغهنّ مالي

فنفسي لا تُطاوِعني لبُخْلٍ ... ولا مالي يُبَلِّغني فِعالي

آخر(٢): [الطويل]

إذا قلّ مال المَرْء قلّ صديقه ... ولم يَخلُ في عَيْن الصّديق لِقاؤه

وأصبح لا يدري وإنْ كان حازمًا ... أقدّامه خيرٌ له أم وراؤه

فإنْ مات لم يُفْقَد ولم يَحزنوا له ... وإنْ عاشَ لم يفرح به أولياؤه

قيس بن عاصم(٣): [الطويل]

يسوّد هذا المال غير مسوّدٍ ... ويحرمه ليث فيصبح ثعلبا

وأوّل ما يجفو الفقير لفقره ... بنوه ولم يرضوه في فقره أبا

كأنّ فقير القوم في الناس مُذْنب ... وإن لم يكن مِنْ قبل ذلك أذْنَبا

آخر(٤): [الطويل]

لعَمْرك إنّ الغِنى يجعل الفتى ... سريًا وإنّ الفقر بالمَرْء قد يزري

ولا رَفَع النّفْس الدّنيئة كالغِنى ... ولا وضع النفس النّفيسة كالفقر

آخر(٥): [الطويل]

ألم تَرَ أنّ المَرْء يزداد عِزّة ... على أهله أن يعلموا أنه مُثْري

وينحطّ منه القدر إن كان مُعْدمًا ... وأصبح لا يُرْجى لنفعٍ ولا ضُرٍّ

---

(١) البيتان لعبد الله بن معاوية في لباب الآداب، للثعالبي، ص ٣١٢؛ ولإسحق الموصلّي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) في ديوان أبي العتاهية بيت قريب منه، وهو:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقه ... وضاقت به عمّا يريد طريقُهُ

(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ١٣٣٣.

(٥) البيت الأول بلا نسبة في كتاب البخلاء، للجاحظ، ص ٣٤٧؛ وعيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٦٣٩.

آخر(١): [الطويل]

أرى ذا الغِنى في النّاس يَسْعون حوله ... وإنْ قال قولًا تابعوه وصدّقوا
فذلك دَأب الناس ما دام ذا غِنى ... وإنْ مالَ عنه المال يومًا تفرّقوا

ومِنَ المنظوم في سلك الرشاقة
ما قيل في التشكّي من ضرر الإقلال والفاقة

مجد العرب العامريّ(٢): [مخلّع البسيط]

هجرت للعدم كلّ خِلٍّ ... وصرت للانقباض خَدْنا
فلا أهَنّى ولا أعزى ... ولا أعزى ولا أهنا

ابن الخيّاط الدّمشقيّ(٣): [الكامل]

لم يَبْقَ عندي ما يُباع بحبّةٍ ... وكفاك شاهد مَنْظري عن مُخْبِري
إلّا بقيّة ماء وجه صُنْتها ... عن أن تُباع وأين أين المُشتري

آخر(٤): [الطويل]

قعدت عن الإخوان من غير ما قلى ... وكان صوابًا ما أتيت على عمدِ
وجُهْد الفتى أن يَسْتر البيت حاله ... إذا لم يجد حرًّا يعين على الجهدِ

آخر(٥): [المنسرح]

الحمد لله ليس لي نَشب ... قد خفّ ظهري وقلّ زوّاري
مَنْ نظرت عينه إليّ فقد ... أحاط عِلْمًا بما قد حَوَتْ داري

---

(١) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد البرّ، ص ١٤٥٥.
(٢) البيتان لمجد العرب مصطفى الدولة أبي فراس علي بن محمد بن غالب العامري في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.
(٣) البيتان لابن الخياط في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة ابن حيوس (محمد بن سلطان).
(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٥) البيتان للحسن بن هانىء في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، وليسا في ديوان أبي نواس.

آخر(١): [مجزوء الرمل]

أنا في حال تعالى الله	ما أعظم حالي
ليس لي شيء إذا قيـ	ـل لمن ذا قلت ذا لي
ولقد أفلست حتى	حلّ أكلي لعيالي
مَنْ رأى شيئًا مُحالًا	فأنا عَيْنُ المُحال
فبلاد الله أرضي	والسمٰوات ظلالي
لو يكن في الناس حرّ	لم أكن في مثل حالي

آخر(٢): [الكامل]

جاء الشّتاء وليس عندي درهمٌ	وبدون ذلك قد يصاب المسلمُ
وتقطع الناس الجباب وغيرها	وكأنني بإزاء مكّة مُحْرِمُ

آخر: [الرمل]

طشتي الأرض ومنديلي الهوا	وعلى الخبز مِنَ الجُوع احتلامي
هل سمعتم أو رأيتم أحدًا	أكل الخبز سواي في المَنام

آخر: [الخفيف]

خُلِق المال واليَسار لِقَوْمٍ	وأراني خُصِّصْت بالإملاقِ
أنا فيما أرى بقيّة قومٍ	خُلِقوا بعد قِسْمة الأرزاقِ

آخر: [الطويل]

إذا جُزْتَ يومًا بالسّويق يمسّني	لقلّة نقدي ذلّة وخضوعُ
فلا قائلٌ للمشتري كيف تشتري	ولا سائل البيّاع كيف تَبِيعُ

آخر(٣): [المنسرح]

الحمد لله ليس لي فرس	ولا على باب منزلي حرسُ

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيتان ليحيى بن ذي الشامة المعيطي في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ١٤٥.
(٣) الأبيات لأبي العيناء في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

ولا غــلامٌ إذا هــتــفــت بــه بــادر نــحــوي كــأنــه قَــبَــسُ
ابـنـي غـلامـي وزوجـتـي أَمَـتـي مـلـكـتـهـا بـالـمـلاك والـعـرسُ
غُنِيت باليأس واعتصمت به عن كلّ قرد بوجهه عبسُ
فـمـا يَـرانـي بـبـابـه أبـدًا طَلْق المحيًا سمح ولا شرسُ

وما أحسن قول أبي العبر الهاشميّ، ولقد أبان عن شرف وعلو همّة، فصار بما قال في الناس أمة[1]: [المديد]

قـنـعـت نـفـسـي بـمـا رُزِقَـتْ وتـمـطّـت فـي الـعُـلا هِـمَـمـي
ولَـبِـسـت الـصّـبـر سـابـغـة هـي مـن قـرنـي إلـى قـدمـي
فـإذا مـا الـدّهـر عـاتـبـنـي لـم يـجـدنـي كـافـر الـنّـعـم
لا أقـول الله يَـظْـلـمـنـي كـيـف أشـكـو غـيـر مـتّـهـم

وواجب إتباع هذا الفصل بمدح المال
إذ به يُدرك ما شسع من الآمال

قالوا: اليَسار علاء، والإقتاء بلاء. وقالوا: الغنيّ سني كبير، والفقير دنيّ حقير. ويقال: قيمة كل امرىءٍ ما معه. شاعر: [السريع]

ولا يـسـاوي دِرْهـمًـا واحـدًا مَـنْ لـم يـكـن فـي كـفّـه درهـمُ

وقالوا: المرء بدرهميه لا بأصغريه، نظمه بعض الشُعراء فقال[2]: [مخلع البسيط]

قـد قـال قـوم بـغـيـر عِـلْـم مـا الـمَـرْء إلّا بـأصـغـريـهِ
وقـلـت قـول امـرىء عـلـيـمٍ مـا الـمَـرْء إلّا بـدرهـمـيـهِ

وقال بعضهم لولده: لِيَكُنْ معك مِنَ العين ما تقرّ به العين. وقالوا: المال معشوق الوَرَى، فمن عُدِمه نُبذ بالعراء منفصم العُرى. وقيل للحسن: ما بال الناس يُكْرِمون صاحب المال؟ قال: لأنّ عنده معشوقهم، فإليه القلوب تُمال. وقالوا: المال يستعبد الأحرار، ويذلّ الأشرار. وقال آخر: بقدر ما تُعْطَى مِنَ المال، تُعْطى

(١) الأبيات في فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، في ترجمة أبي العبر محمد بن أحمد الهاشمي.
(٢) البيتان لأحمد بن فارس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

مِنَ الإجْلال. سُمِع قيس بن عُبادة يقول في دعائه: اللّهمّ ارزقني حمدًا ومجدًا، فإنه لا حمد إلّا بفِعال، ولا مجد إلّا بمال؛ اللّهمّ إنه لا يُصْلِحُني القليل، ولا أصلح عليه. أشار في هذا إلى قول الشاعر[١]: [الطويل]

ولا مجد في الدُّنيا لمن قلّ ماله ... ولا مالٌ في الدُّنيا لمن قلّ مَجْدُهُ

عُوتب ابن أبي ليلى في تعظيم مُوسِر، فقال: إنّ تعظيم ذوي المال سرٌّ جعله الله في القلوب لا يُسْتطاع ردّه. شاعر: [الطويل]

يعير الغنى ثوب المكارم للفتى ... وإنْ كان من ثوب المكارم عاريا

ومرّ موسِرٌ بالشعبي، فتزحزح له، فقيل له في ذلك، فقال: رأيت ذا المال مهيبًا.

شاعر: [البسيط]

إنّي وجدت الغِنى زَيْنًا لصاحبه ... في أهله وفقير القوم مَحْقورُ
إنّ المُقلّين لا تُنْسى ذنوبهم ... وذنب ذي المال عند الناس مغفورُ

وقال معاوية: إنّ الشرف والسؤدد لينتقلان معه الغنى، كما ينتقل الضلّ.

شاعر: [الكامل]

الناس ما استغنيت كنت صديقهم ... وإذا افتقرت إليهم فَهُم العِدى
ذو المال عندهم يسود بماله ... ويزول سؤدده إذا فُقِد الغِنى

آخر[٢]: [المنسرح]

كَمْ مِنْ لَئيم الجدود سوّده الـ ... ـمال أبوه وأمّه الورقُ
وكم كريم الجدود ليس له ... عَيْب سوى أنّ ثوبه خلقُ

آخر[٣]: [المتقارب]

إذا كنت ذا ثروةٍ من غِنًى ... فأنتَ المسوّد في العالَمِ
وحَسْبك من نسب صورة ... تُخَبِّر أنك من آدمِ

---

(١) البيت للمتنبي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أودّ من الأيام ما لا توده ... وأشكوا إليها بيننا وهي جندُهُ
(٢) البيتان بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٦٣٤.
(٣) البيتان لابن المعتز في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وقال عبد الرحمٰن بن عوف: حبّذا المال أصون به عِرضي، وأصِلُ به رحمي، وأتقرّب به إلى ربّي، وأبرّ به صديقي، وأكمد به عدوّي، وأفْضُل به على عشيرتي. وقال الثعالبيّ: مَنْ كان كيسه صِفْرًا من البِيض والصُّفر، فَلْيُبَشَّر بجفاء الدّهر وانقطاع الظّهر. وكان محمد بن الجَهْم يقول: مَنْ وهب ماله في عمله فهو أحمق، ومَنْ وهبه بعد العزل فهو مجنون، ومن وهبه من إرثه فهو جاهل، ومن وهبه من مُلكه فهو مخذول، ومن وهبه من كَسْبه وما استفاده من كدّه بحيلة فهو المطبوع على قلبه، المأخوذ بسمعه وبصره. وقال: من عهده بالإفلاس تقادم محل المال من المنزل محل الشمس في العالم.

وقال بعض عقلاء الفرس: مَنْ زعم أنه لا يُحِبّ المال، فهو عندي كاذب حتى يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه فهو عندي أحمق. وقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما أشدّ حبّك للمال، فقال: كيف لا أحبّه وقد استعبدت به مثلك، واشتريت به مروءتك ودِينك. وقال الحسن بن المنذر: وددت أنّ لي مثل أُحد ذهبًا لا أنتفع بشيءٍ منه، قيل له: فما ترجو بذلك؟ قال: أريده لكثرة مَنْ يخدمني عليه ويجلّني لأجله. وقالوا: المال يجمع الشّمْل، ويَسْتر الأهل، ويزيد في العقل. وقالوا: من استغنى عن الناس عظّموه ووقّروه، ومن احتاج إليهم ازدروه واحْتقروه. وقيل لبعض الحُكماء: أيّما أفضل الأدب أو المال؟ قال: الأدب، قيل له: فما بال الأدباء يأتون أبواب الأغنياء، ولا تأتي الأغنياء أبواب الأُدباء؟ قال: ذلك لعلم الأُدباء بمقدار فَضْل المال، وجَهْل الأغنياء بمقدار فضل الأدب. شاعر: [الوافر]

أصون دراهمي وأذبّ عنها ... لعمري أنها درعي وتِرْسي
وأخبؤها إلى أعدى الأعادي ... من الورّاث حتى أبناء جنسي
ولا سؤلي إلى رجلٍ لئيمٍ ... ليقرض درهمًا نقدًا بخمس
فيعرض وجهه ويصدّ عنّي ... فتبقى مثل نفس الكلب نفسي
فيا ذلّ الرّجال بغير مالٍ ... ولو جاؤوا بنسبة آل عَبْس

ابن الرُّوميّ(١): [السريع]

لا تَلُم المَرْءَ على بُخْلِهِ ... ولُمْه إنْ زاد على بَذْلِهِ
حقٌّ على كلّ امرىءٍ حازم ... يحفظ ما يُكْرَم مِنْ أجلِهِ

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ولقد أحسن القائل وأجاد: [الكامل]

مَنْ كان يملك درهمين تعلّمت ... شفتاه أنواع الكلام فقالا
وتقدّم الإخوان فاستمعوا له ... ورأيته بين الوَرَى مُختالا
لولا دراهمه التي في كيسه ... لرأيته أسوا البريّة حالا
إن الغنيّ إذا تكلّم بالخطا ... قالوا صَدَقْت وما نطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلّهم ... أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إنّ الدّراهم في المواطن كلّها ... تكسو الرّجال مهابةً وجلالا
فهي اللّسان لمن أراد فصاحة ... وهي السّنان لمن أراد قِتالا

والمُعين على طلب البغية مِنَ المال طلب المعيشة في الأيّام واللّيالي

قال بعضهم: [الكامل]

لا ترهبنّ الهول خوف مَنيّة ... واقذف بنفسك في طلاب الدّرهمِ
ودَعْ المخاوف والمَتاف إنها ... نفسٌ مؤقّتة ورِزْقٌ يُقْسَمِ

آخر: [الوافر]

فجُبْ عرض البلاد فلست تدري ... غِناك بأيّ آفاق البلادِ
ولا تقعد على ظما وفقرٍ ... فذو الإقتار ممنوع الرّقادِ

آخر: [الطويل]

سأضرب في الآفاق ألتمس الغِنى ... وأرمي بنفسي في بُحور المطالبِ
فإن أعط مسرورًا فداك وإن أخِبْ ... فعلمي بأني لست أوّل خائبِ

آخر[1]: [الطويل]

إذا المَرْء لم يطلب معاشًا لنفسه ... شكا الفقر أو لام الصّديق فأكثرا
وصار على الأهلين كَلاّ وأوشكت ... صلات ذوي القُرْبى بأن تتكسّرا

(١) الأبيات لربيعة الرقي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

فَسِرْ في بلاد الله والتمس الغِنى تَعِشْ ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا
ولا تَرْضَ من عَيْشٍ بدون ولا تَنَمْ وكيف يَنامُ اللّيل مَنْ كان مُعْسِرا

آخر: [البسيط]

لا يمنعنك نفيس العيش تطلبه نُزُوع نفس إلى أهلٍ وأوطانِ
تَلْقَى بكلّ بلاد إذ حَلَلْت بها أهلًا بأهلٍ وإخوانًا بإخوانِ

آخر(١): [الوافر]

وما طلب المعيشة بالتمنّي ولكن ألْقِ دلوك في الدِّلاءِ
تجيء بملئها يومًا ويومًا تجيء بحمأة وقليلُ ماءِ

آخر(٢): [الطويل]

ومَنْ كان مثلي ذا عيال مُقْتِرًا مِنَ المال يطرح نفسه كلّ مطرحِ
ليبلغ عذرًا أو ينال غنيمة ومبلغ نفس قصدها مثل منجحِ

آخر(٣): [البسيط]

العزّ تحت ظلال السّيف مَغْدنه فاطلب بسيفك عزًّا آخر الأبدِ
لا تَرْضَ بالدُّون مِنْ دُنيا بُليتَ بها قد ذُلّ مَنْ كان مُحْتاجًا إلى أحدِ

آخر(٤): [الكامل]

خاطِرْ بنفسك كي تُصِيب غنيمة إنّ الجلوس مع العِيال قبيحُ
فالمال فيه مجلّة ومَهابة والفَقْر فيه مذلّة وفضوحُ

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، وانظر أيضًا: ديوان أبي الأسود الدؤلي.

(٢) البيتان لعروة بن الورد في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

قلت لقوم في الكنيف تروّحوا عشية بتنا عند ماوان رزّحِ

(٣) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ١٣٣٩.

(٤) البيتان للنمر بن تولب في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ولعروة بن الورد في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

آخر[(١)]: [مخلع البسيط]

أشـدّ مِـنْ فـاقـة الـزّمـان ... مـقـامُ حـرٍّ عـلى هـوانِ
فـاسـتـرزِق الله واسْـتَـعِـنْـه ... فـإنـه خَـيْـر مُـسْـتـعـانِ
وإن نـبـا مـنـزل بـحـرٍّ ... فـمـن مـكـانٍ إلـى مـكـانِ

وقال فتًى من قَيْس لغلامٍ له[(٢)]: [مجزوء الرمل]

اقـذف الـسَّرج على الـمهـ ... ـر وقـرّطـه الـلِّجـامـا
ثـمّ صُـبّ الـدِّرع فـي رأ ... سـي ونـاوِلْـني الـحُـسـامـا
فـمـتـى أطـلـب إن لـم ... أطـلـب الـرّزق غُـلامـا
سـأجـوب الأرض أبـغـيـ ... ـه حـلالًا أو حـرامـا
فـلعـلّ الـظَّـعـن يـنـفـي الـ ... ـفـقـر أو يُـدْنـي الـحَـمـامـا

آخر[(٣)]: [الطويل]

ألا خلّني أمضي لشأني ولا أكُنْ ... عـلى الأهْـلِ كَـلا إنّ ذاك شـديـدُ
أرى السَّيْر في البُلْدان يُغْني معاشرًا ... ولـم أرَ مـن يُـجْـدي عـلـيـه قُـعـودُ

آخر: [الخفيف]

وقـبـيـحٌ مـقـام ذي الـهِـمّـة الـحـ ... ـرّ بـأرضٍ مَـرْعـاه فـيـهـا جَـدِيـبُ
لا عـدوًّا أنْـكـى ولا الـنّـفـس أغْـنَـى ... وهـو راضٍ بـهـا أكُـولٌ شـروبُ
وتـراه يَـجُـوب فـي طـلـب الـمـا ... لِ سـهـوبًـا وخـلـفـهـنّ شُـهـوبُ
خـلـبًـا قـلـبًـا إذا مـلّ أرضًـا ... جـدّ مـنـهـا إلـى سـواهـا ركـوبُ
لـيـس فـي فـوت مـا يـحـاولـه الـطا ... لـب مِـنْ رِزْقـه عـلـيـه عُـيـوبُ
إنّـمـا الـعَـيْـب أن يـرى سـاقـط الـهـ ... ـمـة والـرّزق طـالـبٌ مـطـلـوبُ

---

(١) الأبيات لابن أبي حصينة في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيتان بلا نسبة في الأمل والمأمول، للجاحظ، ص ٦٠؛ والحماسة البصرية، للبصري، ص ٢٨٢.

الباب الحادي عشر
في الشجاعة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل مِنْ هذا الباب
في مدح الشجاعة والبَسالة وما فيها من الرّفعة والجلالة

الشجاعة غريزة في الإنْسان يمنحها واهب الإحسان؛ كما ورد عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «الشّجاعة غريزة يضعها الله فيمن شاء مِنْ عباده، إنّ الله يحبّ الشجاعة ولو على قتل حيّة»[1].

وحدُّها، قالوا: سِعَة الصّدْر والإقدام على الأُمور المُتْلفة، وقالوا: الشُّجاع مَنْ تَكُنْ شجاعته عند الفرار، وفَقْد الأنصار. وسُئِل بعضهم عن الشجاعة، فقال: جبلة نفس أبيّة، قيل له: فما النّجدة؟ قال: ثقة النّفْس عند استرسالها إلى الموت حتى يُحْمد فعلها عند الخوف. وقال بعض أهل التجارب: الرّجال ثلاثة: فارس وشجاع وبطل؛ فالفارس الذي يشدّ إذا شدُّوا، والشجاع الدّاعي إلى البراز والمجيب داعيه، والبطل المحامي لظهور القوم إذا ولّوا. وقال يعقوب بن السكّيت في ألفاظه: العرب تجعل الشجاعة أربع طبقات، تقول: رجل شجاع، فإذا كان فوق ذلك قالوا: بطل، فإذا كان فوق ذلك بهمّة، فإذا كان فوق ذلك قالوا: أليس.

من عُرِف من الأكابر في قومه بالباس والنّجدة وكان لهم عند الهياج معقلاً وشدّة

رسول الله ﷺ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان ﷺ أجمل الناس وجهًا، وأجود الناس كفًا، وأشجع الناس قلبًا، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

الناس ثائرين قبل الصَّوت، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصَّوت، وسبر الخبر على فرس لأبي طلحة عرى والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تُراعوا لن تراعوا». وقال عمران بن الحُصَين: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة قطّ إلّا كان أوّل مَنْ يضرب؛ ومِنْ ذلك ثباته يوم حُنَين في مركزه لا يتخلخل ولا يتزيّل، ليس معه إلّا عمّه العباس آخذًا بلجام دابّته، وابن عمّه أبو سفيان بن الحـٰرث، وكان المسلمون يومئذ اثني عشر ألفًا فأعجبتهم كثرتهم، حتى قال قائلهم: لن نغلب اليوم من قلّة، وزلّ عنهم أنّ الله هو الناصر لا كثرة الجنود ولا العساكر، فانهزموا حتى بلغ أوّلهم مكّة، ثم تدارك الله الملّة الإسلامية بنصره، فأنزل ملائكة على خيول بُلْقٍ، وتراجع المسلمون فقاتلوا، فلمّا رأى رسول الله ﷺ كثرة قتالهم قال: «هذا حين حمى الوطيس»(١)، وهو أوّل مَنْ قال هذه الكلمة، ثم أخذ كفًا مِنْ تراب فرمى به المشركين، وقال: «شاهت الوجوه»(٢) فانهزموا، قال ابن عباس: فلكأنّي أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم، فناهيك بهذا الثبات شهادة صدق على تناهي شجاعته وبسالته ورباط جأشه، وما هو إلّا من آيات النبوّة وعلامات الرّسالة.

ومما عُرِف فيه لأبي بكر الصّدِّيق رضي الله عنه بقوّة الجأش وثبات القلب وشجاعة النفس والصَّبر في المواطن الكريهة يوم مات رسول الله ﷺ، فإنّ عمر رضي الله عنه كذب بموته، وقال: ما مات وإنّما واعده ربّه كما واعد موسى وليرجعنّه الله فليقطعنّ أيدي قوم وأرجلهم يسومون النبيّ الموت، مَنْ قال إنّ محمّدًا مات عَلَوْته بسيفي هذا؛ واعتراه ذهول حتى صار لا يدري أين يذهب.

وأمّا عثمان رضي الله عنه، فدُهِشَ فجعل لا يُكلِّم أحدًا فيؤخذ بيده فيُقاد. وأمّا عليّ رضي الله عنه، فقعد في البيت لم يَبْرَحْ منه. وكان أبو بكر رضي الله عنه حينئذٍ غائبًا في ناحية من نواحي المدينة على مِيلٍ منها تسمّى السنح، فلمّا بلغه الخبر جاء حتى دخل عليه وهو مسجّى، فكشف عن وجهه الكريم وأكبّ عليه وقبّل بين عينيه، وقال: طِبْت حيًّا وميتًا، وأعول بالبكاء ثم خرج وهو رابط الجأش ثابت القلب مُصيب في القول والناس على خلاف ذلك من الذُّهول واختلاط العقل، وهم في أمر مريج قد ضلّت أفئدتهم في تَيْه الحزن، وزلّت أقدام صَبْرهم

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٧٦، وأحمد في المسند ١/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٨١، والدارمي في السير باب ١٥، وأحمد في المسند ١/ ٣٠٨، ٣٦٨، ٥/ ٢٨٦، ٣١٠.

في مزالق الشّجن، فصعد المنبر وقال بعد حمد الله والثناء عليه في كلام طويل: مَنْ كان يَعْبد محمّدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت؛ ثـم تـلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤]، فثاب إلى عمر عقله، وقال: والله لكأنّي لم أسمع بها قطّ في كتاب الله قبل ما نزل بنا.

وقالت عائشة رضي الله عنها في خطبتها التي افتخرت فيها: لمّا قُبِض رسول الله ﷺ طلع نجم النّفاق، وارتدّت العرب، وصار المسلمون كالغنم السّارحة في اللّيْلة الماطرة، فحمل أبي من الأمر الفخم ما لو حملته الجبال لهافَها، وما يدري أيُما أربط جأشًا وأثبت قلبًا في هذا الأمر الشّديد والمصاب العتيد، أهو رضي الله تعالى عنه أم ابنتاه عائشة وأسماء رضي الله عنهما. فأمّا عائشة، فإنّ رسول الله ﷺ مات بين سَحرِها ونَحْرِها، وشاهدت ذلك الهَول ثم احتملته فألْقَته على فراشه وسجّته ببردته ولم تَدَعْ أحدًا من نسائه وأهله يعينها عليه، وعمرها إذ ذاك ثماني عشرة سنة، ثمّ بكت بادئة بصوت لا يكاد يعدي صاحبه، فلما سمع الناس بكاءها وشجنها تحقّقوا موته ولم تظهر رزيّة ولا عويلًا ولم تشقّ جيبًا ولم تُخمّش وجهًا ولم تدع ويلًا، وإنّما علم الناس موته ببكائها.

وأمّا أسماء، فإنّ ولدها عبد الله بن الزبير لما رأى الغَلَبة دخل عليها وشكا إليها ما آل إليه أمره، فقالت: إيّاك أن تنكل أو تفشل ومُتْ كريمًا أحتسبك عند الله، فقال لها: ما أخاف الموت، وإنّما أخاف أن يُمثّل بي، فقالت: إنّ الشاة إذا ذُبِحَت لا تبالي بِسَلْخها.

وكان عمر رضي الله عنه من الأشدّاء مِنَ الأقوياء موصوفًا بالشدّة موسومًا بالحدّة والشجاعة والنّجدة، كان يضع يده اليمنى على أُذن فرسه اليسرى، ثم يجمع جراميزه ويَثِبُ على فرسه، فكأنّما خُلِقَ على مَتْنه.

وكان عليّ رضي الله عنه شجاعًا بطلًا ذُكِر عنه أنه قَتَل في ليلة الهرير من حرب صفّين خمسمائة وثلاثًا وعشرين رجلًا، وكان إذا ضرب لا يثنّي، وقيل له: إنك مطلوب فلو اتّخذت طرفًا سابقًا، فقال: إني لا أفرّ على من كرّ، ولا أكرّ على من فرّ؛ فالبغلة تكفيني. وقيل له في حرب صفّين: أتقاتل أهل الشام بالغداة وتظهر

لهم بالعشيّ بإزار ورداء؟ فقال: أبِالموت أُخوّف! والله لا أُبالي أسقطت على الموت أو سقط عليّ.

ومِنَ الشُّجعان الزبير بن العوّام، قالوا: لم يكن في عصر النبيّ ﷺ، فارس أشجع مِنَ الزُّبير، ولا راجل أشجع من عليّ. وفي الزُّبير تقول زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْل العدويّ تخاطب عمرو بن جرموز لمّا قتله غدرًا بوادي السِّباع[1]: [الكامل]

غدر ابن جرموز بفارس بهمة ... يوم اللّقاء وكان غير معرّد
يا عمرو لو نبّهته لوجدته ... لا طائشًا رعش الجِنان ولا اليَدِ

ومِنَ الشُّجعان بنو قَيْلة وهم الأنصار، قال ابن عباس: ما سُلّت السُّيوف ولا زحفت الزحوف ولا أُقيمت الصفوف حتى أسلم أبناء قَيْلة ـ يعني الأَوْس والخزرج وهم الأنصار ـ وصفهم مادح فقال: كانوا يُحبُّون الموت كما تُحبُّون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدُّنيا. وقال لهم رسول الله ﷺ: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع»[2]، يريد أنّهم يريدون بقتالهم وجه الله والدّار الآخرة، فلا تَميل نفوسهم إلى ما يقسم مِنَ الفَيْء والغنيمة رغبة فيما هم بصدده من إعلاء كلمة الإسلام وإخفاء ما ظهر من شرك عَبَدة الأصنام، فهم يكثرون إذا دعوا للقتال، ويقلّون عند قسم الأنفال. قال كعب بن زهير يمدحهم[3]: [الكامل]

من سرّه كرم الحياة فلا يزل ... في عصبةٍ من صالحِ الأنصارِ
الباذلين نفوسهم لنبيّهم ... يوم الهياج وصفوة الجبارِ
يتطهّرون كأنه نسك لهم ... بدماء مَنْ علقوا من الكفّارِ

---

(١) البيتان لعاتكة بنت زيد في نسب قريش، لمصعب الزبيري، ص ٦٢٧؛ والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمتها؛ والحماسة البصرية، للبصري، ص ٤٩٩.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) الأبيات في ديوان كعب بن زهير، من قصيدة مطلعها:

من سرّه كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالحي الأنصاري

ومِنَ الشُجعان معاذ بن عفراء قُطِع كفّه يوم بدر، فبقي مُعلّقًا بجلدة بطنه، فلم يزل يُقاتل يومه أجمع، وهو مُعلّق حتى وجد ألمه، فوضع رجله على يده وتمطّى حتى قطع الجلدة. وحمل رجل على حكيم بن جبلة في يوم مِنْ أيّام حرّة، وقد قطع ساقه فأخذها في يده وضرب بها مَنْ قطعها فصرعه، ثم أتاه واتّكأ عليه فقتله، وقال مرتجزًا[1]: [الرجز]

يا ساق لن تراعي إنّ معي ذراعي
أحمي به كراعي

وحُكِي عنه أنّه قيل له: مَنْ قطع ساقك؟ قال: وسادتي.

ولم يكن في الجاهلية ولا في الإسلام أشجع مِنْ خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولشجاعته سمّاه رسول الله ﷺ سيف الله؛ وذلك أنه لم ينهزم في جاهليّة ولا إسلام، ومات على فراشه، ويقال: إنه قال عند موته: ما في جسدي موضع إلّا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برُمْح أو جُرح بسهم، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعيُن الجُبناء.

ومِنْ شجعان الصحابة البراء بن مالك، قيل عنه؛ إنه قَتَل مائة مبارز سوى من شُورِكَ في قتله، وكتب عمر بن الخطاب إلى عمّاله أن لا يولوه جيشًا للمسلمين، فإنّه يُهلكه.

ومن شجعان الصحابة طلحة بن عبيد الله، وحارثة بن حذيفة، والزُبَيْر بن العوام، والمقداد بن الأسود يُروى أن عمرو بن العاص بعث إلى عمر بن الخطّاب وهو يُحاصر مصر يطلب منه ثلاثة آلاف فارس، فبعث إليه حارثة والزُبير والمِقداد لا غير، أقام كل واحد منهم مقام ألف فارس رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وكان مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف شجاعًا، ذُكِرَ عنه أنّه كان يَثِبُ ثلاث وثبات كلُّ وَثْبة ثنتا عشرة ذراعًا، حتى يصل قرنه فيقتله.

ومن الفرسان مالك بن الحُوَيْرث المعروف بالأشْتر النخعي مِنْ أصحاب عليّ رضي الله عنه، قال أبو بكر بن أبي شَيْبَة: أعْطت عائشة للذي بشّرها بحياة عبد الله بن الزُبَير بن العوام إذ التقى بالأشتر يوم الجمل أربعة آلاف درهم، ذُكِر أنّ

---

(١) الرجز في كتاب الأوائل، لأبي هلال العسكري، ص ٣١٠.

رجلًا سبّ الأشتر، فقال له رجل من النّخع: اسكت، فإنّ حياته هدمت أهل الشام، وموته هدم أهل العراق.

ومِنَ الشجعان مصعب بن الزُّبير، سأل عبد الملك يومًا جلساءه: مَنْ أشجع الناس؟ فعدُّوا جماعة، فقال: أشجع الناس مِنَ العرب من ولي العراق، فأصاب ألف ألف وألف ألف ـ وعدَّها مرارًا ـ وجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وأمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر وهند بنت ريان سيّد كلب، فخذله أهل العراق فأعْطَيْناه الأمان على ما شاء، فقال: إنّ مثلي لا ينصرف إلّا غالبًا أو مقتولًا، وقاتل حتى قُتِل، والله لا ولدت النساء مثله. وقال أخوه عبد الله لمّا بلغه قتله: إنْ يُقتل فقد قُتِل أخوه وأبوه وعمّه وإنّا لا نموت حتفًا، ولكن نموت بين أطراف الرّماح، وتحت ظلال الصّفاح. وقال الزُّبير بن بكار: آل الزبير أعْرق الناس في القتل، ولا يُعْرف في العرب ولا في العجم ستّة مقتولون في نسق إلّا من آل الزُّبير، وهم عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزُّبَيْر بن العوام بن خويلد قتل عمارة وحمزة معًا في حرب الإباضية، وقتل مصعب بدير الجاثليق، وقُتِل محمد أخوه في حرب الجمل، وقُتل عبد الله بمكّة في حرب الحجّاج، ولمّا قتل عبد الله أمر الحجاج بشق صدره فإذا فؤاده مثل فؤاد الجمل، فكان إذا ضرب به الأرض ينزو كما تنزو المثانة المقطوعة، وقُتِل الزُّبير بوادي السِّباع في حرب الجمل، وقُتِل العوام في الفجار قتله بشر بن عبد الله بن دهمان الثقفيّ، وقُتِل خُوَيْلد في حرب خُزاعة. وقيل لعبد الملك: مَنْ أشجع الناس؟ فقال العباس بن مِرْداس الذي يقول فيه الشاعر(١): [الوافر]

أشدّ على الكتيبة لا أُبالي ... أحتفي كان فيها أمْ سواها

وقيس بن الخُطَيْم، حيث يقول(٢): [الطويل]

وإني في حرب العوان مُوكّل ... بإقدام نفسٍ لا أُريد بقاءَها

---

(١) البيت في ديوان العباس بن مرداس، من قصيدة مطلعها:
ألا من مبلغ عني خفافًا ... ألوكًا بيت أهلك منتهاها

(٢) البيت في ديوان قيس بن الخطيم، من قصيدة مطلعها:
تذكّر ليلى حسنها وصفاءها ... وبانت فأمسى ما ينال لقاءها

ومن فرسان الخوارج قطري بن الفجاءة، ويُكْنى أبا نعامة، وخرج زمن مصعب بن الزبير لمّا كان مصعب واليًا على العراق من قِبَل أخيه عبد الله بن الزُّبَيْر سنة ستّ وثلاثين، وفي هذه السَّنة بُويع عبد الله أخوه وعبد الملك بن مروان الشام، فبقي قطري عشرين سنة يقاتل ويسلّم عليه بالخلافة. ذُكِر عنه أنّه مرّ في بعض حروبه على فرسٍ أعْجَف وبيده عمود خشب، فدعا إلى البراز، فبرز له رجل فحسر له عن وجهه، فلمّا رآه الرجل ولّى عنه، فقال له قطريّ: إلى أين؟ قال: لا نستحي أن نفرّ عنك. وكذلك كان عبد الله بن حازم وشبيب الحروريّ يصيح في جنبات الجيش، فلا يَلْوي أحدٌ على أحدٍ، وفيه يقول بعض شعراء الخوارج في الجاهلية[١]: [البسيط]

إنْ صاحَ يومًا حَسِبْتَ الصَّخْر مُنْحَدرًا ... والرِّيح عاصفةٌ والبَحْر يَلْتطمُ

ومِنْ شجعان العرب وفرسانهم: الفند الزِّماني كان يُقاس بألف، ذُكِرَ أنه حمل على فارس مردوف بآخر فطعنهما، فانتظما في رُمْحه. وقال شاعر يمدح شجعان العرب[٢]: [الطويل]

فواحدهم كالألف بأسًا ونجدة ... وألفهمُ للعرب والعجم قاهرُ

وليس نظم الفند فارسين في طعنة بكبير، فقد فعل مثل هذه الفِعْلة أبو دلف في بعض حروبه، وفيه يقول بكر بن النّطاح يذكر طعنته مِنْ أبيات[٣]: [الكامل]

وإذا بدا لك قاسمٌ يَوْمَ الوَغى ... يَخْتال خِلْت أمامه قِنْدِيلا

وإذا تلوذ بالعمود ولونه ... خِلْت العمود بكفّه مِنْديلا

وإذا تناول صَخْرة لِيَرضّها ... عادت كثيبًا في يديه مَهِيلا

قالوا أينظم فارسين بطعنةٍ ... يوم اللّقاء ولا تراه كَليلا

لا تعجبوا لو كان مَدّ قناته ... مِيلًا إذا نظم الفوارس ميلا

(١) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/١٢٣.
(٢) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.
(٣) الأبيات في ديوان بكر بن النطاح، وهي خمسة أبيات.

ومما يعدّ من شدّة الشّجعان الأبطال رفض التّواني بالمناجزة ودفع المطال

قالوا: العَزْم التأهب قبل الأمر، والحزم المضيّ فيه. وقالوا: الحزم انتهاز الفرصة عند تمكّن القدرة، وترك التّواني فيما يخاف فيه الفَوْت. وقال عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: ما العزيمة في الأمر؟ قال: إصداره إذا ورد بالحَزْم. شاعر[١]: [الكامل]

ليست تكون عزيمة ما لم يكن ... معها مِنَ الحَزْم المشيد رافعُ

وقالوا: مَنْ لم يقدّمه عَزْمه، أخّره عجزه. وقالوا: الحازم مَنِ اشتدّت شكيمته وقعدت عزيمته. وقالوا: الحرب كالنار إذا تداركت أوّلها خمد ضرامها، وإن استحكم أمرها صَعُب مَرامها. ويقال: قبل الإقدام تراشُ السّهام. والعجز عجزان: عجز التقصير وقد أمكن، والجدّ في طلبه وقد فات. تمثّل المنصور عند قتله لأبي مُسْلم الخراساني[٢]: [الطويل]

إذا كنت ذا رَأْيٍ فَكُنْ ذا عزيمةٍ ... فإنّ فساد الرّأي أن تتردّدا
ولا تمهل الأعداء يومًا بقدره ... وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

ولآخر[٣]: [البسيط]

ما العَزْم أن تشتهي شيئًا وتتركه ... حقيقةُ العَزْم منك الجدّ والطّلبُ
كم سوّفت خدع الآمال ذا أربٍ ... حتّى انقضى قبل أن ينقضي له الإربُ

وقالوا: مَنْ تفكّر في العواقب لم يشجّع في النّوائب. وُجِد على سيفٍ مكتوب: أيّها المقاتل إحمل تغنم، ولا تفكّر في العواقب تندم. شاعر[٤]:

---

(١) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.

(٢) البيتان بلا نسبة في مرآة الجنان، لليافعي، ص ١٦٧٩ والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة وزير المأمون محمد بن يزداد.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيت لعلي بن أبي طالب في ديوانه، من بيتين، وروايتهما فيه:

خاطر بنفسك لا تقعد بمعجزة ... فليس حرٌّ على عجز بمعذورِ
إن لم تنل في مقام ما تحاوله ... فابل عذرًا بإدلاج وتهجيرِ

[البسيط]

خاطِرْ بنفسك لا تقعد بمعجزة ... حتى تباشرها منه بتغرير
لن يبلغ المَرْء بالإحجام هِمَّته

الرّياشي[1]: [البسيط]

وعاجز الرَّأي مِضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمرٌ عاتب القَدَرا

ويقال: مِفتاح الدّعة مفتاح البُؤس. أبو دلف العجليّ[2]: [الكامل]

ليس المروءة أن تبيت مُنعمًا ... وتظلّ معتكفًا على الأقداحِ
ما للرِّجال وللتنعّم إنّما ... خلقوا ليوم كريهةٍ وكِفاحِ

وقالوا: زُوّج العجز التواني، فأنتج بينهما الحرمان. قال المُعافى في مثل ذلك[3]: [الطويل]

وإنّ التّواني أنكح العجز بنته ... وساق إليها حين أنكحها مهرا
فراشًا وطيئًا ثم قال له اتّكي ... رُويدًا كما لا شكّ أن تلدا فقرا

وقالت الحُكماء: الحزم طبع الحياة، والعجز طبع الموت، والنفس لا تحبّ أن تموت؛ فكذلك تحبّ أن تحيا، وأخذ الشيء لا بالعجز. المتنبّي[4]: [الخفيف]

ولو أنّ الحياة تبقى لحيٍّ ... لَوَدَدْنا ضلالنا الشّجعانا
وإذا لم يكن من الموتِ بُدٌّ ... فمن العجز أن تكون جبانا

وقالوا: أشعر قلبك الجراءة، فإنّها سبب الظفر، واحرص على الموت تُوهب لك الحياة. وقال أكثم بن صيفي: مِنَ التواني والعجز أُنتجت الهُلكة. وقالوا: التفكّر في عواقب الحرب من إمارات العجز، والتهوّر فيه من علامات الجزع.

---

(١) البيت للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهو بيت منفرد.
(٢) البيتان لأبي دلف العجلي في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٤٥٠.
(٣) البيتان لأبي المعافى في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٤١٧؛ ولابن المعافى في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٤٩.
(٤) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
صحب الناس قبلنا ذا الزّمانا ... وعناهم من شأنه ما عنانا

أبو عُبادة مادحًا[1]: [الخفيف]

صارم الحزم ماضي العزم ساري الـ ـفكر ثبت الجنان صلب العُودِ

آخر مادحًا: [الطويل]

ويَلْحَظ بالأمر الصّواب كأنّما يُلاحظه من كل أمرٍ عواقبه

وقال حكيم: تجرّع من عدوّك الغصّة، إلى أن تجد الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدَّرْك أو يعينه الفلك، فإنّما الدُّنيا دُوَل تُقَلِّبها الأقدار، ويهدمها اللّيل والنّهار. ولمّا أُحيط بمروان بن محمد الجعدي، قال: وَالَهْفاه على دولة ما نُصِرت، وكفٍّ ما ظفرت، ونِعْمة ما شُكِرت؛ فقال له بعض كماته، وكان من أشراف الروم فوقع عليه سبي: مَنْ أغفل الصغير حتى يكبر، والقليل حتى يكثر، والخفيّ حتى يظهر، أصابه هذا.

ومن الأبيات في انتهاز الفرصة، وتفريج الغصّة قول بعضهم: [الخفيف]

يا ابنة القوم ما تريدين منّي صارمي منطقي ووجهي مجني
ما يزور الكرى جفوني إلّا جسوة الطائر الذي لا يثني
فعلوى إذا استقلّ بعزم لم يعرّج بليتني ولو أنّي

آخر: [الطويل]

حلفت لأنْ ألْقى الشدائد كلّها ومالي بأنْ ألقى الهوان يدانِ
تذكّرت أنّي هالكٌ وابن هالكٍ فهانَتْ عليَّ الأرض والثّقلانِ
فدَعْ كلّ شيءٍ خالف العزم إنّه سيكفيكه جذّان معتلجانِ
وما يُدْرِك الحاجات مثل مثابرٍ ولا عاقَ عنها النّجح مثل توانِ

أبو نصر بن أحمد الميكالي[2]: [السريع]

قالوا تمهّل في الذي ترتجي بلوغه من نافع الأمرِ
قلت التأنّي مظفر بالمُنى لكنه يجحف بالعمرِ

---

(١) البيت في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:
بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذمّ الوفاء بالمحمودِ

(٢) البيتان في دمية القصر، للباخرزي، ص ٨٦٥، في ترجمة أبي إبراهيم نصر بن أحمد الميكالي.

آخر(١): [الطويل]

عـلى كـلّ حـالٍ فـاجـعـل الـحَـزْم عـدّة
لِمَـا أَنْـت بـاغـيـه وعـونًـا عـلى الـدَّهـرِ
فـإنْ نِـلْت أمـرًا نِـلْتـه عـن عـزيـمـةٍ
وإن قَـصُـرت عـنـك الـحـظـوظ فـعـن عُـذْرِ

آخر(٢): [الطويل]

إذا هـمّ ألـقـى بـين عـينيـه عـزمـه ونكـب عـن ذِكْـر العواقب حاجبا
ولـم يَسْتَشِرْ في أمره غير نفسه ولـم يَرْضَ إلّا قائم السَّيْف صاحبا

آخر(٣): [المتقارب]

إذا فـرصـة أمكـنـت فـي العِدى فـلا تَـبْـدُ فـعـلك إلّا بِـهـا
فـإن لـم تَـلُج بـابـهـا مُـسْـرعًـا أتـاك عـدوّك مِـنْ بـابِـهـا

ومن مدائح من عُرِف في قومه بالشجاعة ومدّ إلى قطف الرؤوس سيفه وباعه

قالوا: فلان أبلغ صولةً من أسد العرين، وأشدّ منعةً مِنَ الحُصْن الحصين. وصف أعرابيّ رجلًا بالشجاعة، فقال: هو ابن الحرب أُرضع بدرّها، وربى في حُجْرها. وسُئِل أعرابيّ عن قومه، فقال: كانوا والله إذا اصطفّوا تحت القتام صَغُرت بينهم السّهام بشؤبوب الحمام، وإذا تصافحوا بالسيُوف، فغرت أفواهها الحتوف؛ فرُبَّ يوم شموس أحسنت أدبه عزمتهم، وحربٌ عبوس أضحكتها أسنّتهم. ومدح أعرابيّ قومه، فقال: قومي والله ليوثُ حبٍ، وغيوث جَدْب، ليس لأسْيافهم أغمادٌ غير الهام، ولا رُسُلٌ للمنايا غير السّهام. وقالوا: فلان يبادر

(١) البيتان بلا نسبة في الجليس الصالح الكافي، للمعافى بن زكريّا، ص ١٣٢٣.

(٢) البيت الثاني لابن نباتة المصري، في ديوانه، من بيتين، هما:

تزوّج سيف الدين حسناء ناسبت إلـيـه وأقـصـت مـعـشـرًا وأقـاربـا
ولـم تستشر في أمرها غير نفسها ولـم ترض إلا قائم السيف صاحبا

(٣) البيتان لابن المعتزّ في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا مـن لـعـيـن وتـسـكـابـهـا تـشـكّـى الـقـذى وبـكـاهـا بـهـا

المُهَل، مبادرة الأجل الأمل، أطراف الأسل أحلى عنده من لعق العسل. ابن شرف القيرواني: فلان قلبه يُخرجه عن القلب، وصرامته تقتاده إلى مكان الطَّعن والضرب، رماحه نجوم ظلام القتام، وسهامه رجوم شياطين الأنام، لا تُرَدّ حاجته مواضيه، ولا تُمْطله المغافر المنيّة عند تقاضيه. شاعر مادحًا[١]: [الكامل]

يَلْقى السيوف بوجهه وبنحره ... ويُقيم مُهجته مقام المغفرِ
ما إن يريد إذا الرّماح تشاجرت ... ذرعًا سوى سربال طيّب العنصرِ
وقول للطَّرف اصطبر لشبا القنا ... فعقرت ركنُ المَجْد إن لم تعقرِ

أبو الفرج[٢]: [المنسرح]

يسعى إلى المَوْت والقنا قصد ... وخَيْله بالرؤوس تُنتعلُ
كأنه واثِقٌ بأنّ له ... عمرًا مقيمًا وما له أجلُ

آخر[٣]: [الوافر]

كأنّ سيوفه صِيغت عقودًا ... تَجُول على الترائب والنُّحور
وسمر رماحه جُعِلت همومًا ... فما يخطرن إلّا في ضمير

البحتريّ مادحًا[٤]: [البسيط]

يَلْقَى السيوف بوجهٍ منه ليس لها ... ظهرٌ وهادي جواد ما له كفلُ
يسعى به البرق إلّا أنه فرسٌ ... في صورة الموت إلا أنه رجلُ

مسلم بن الوليد[٥]: [الكامل]

لو أنّ قومًا يخلقون منيّة ... مِنْ بأسهم كانوا بني جبريلا
قومٌ إذا حمي الوَطيس لديهم ... جعلوا الجماجم للسيوف مَقِيلا

---

(١) الأبيات بلا نسبة في الحماسة المغربية، للجراوي، ص ١٣١.
(٢) البيتان لأبي الفرج الببغا في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ١٩٦٤.
(٤) البيتان ليسا في ديوان البحتري، وهما لأبي الفرج الببغا في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
من كل متّسع الأخلاق مبتسم ... للخطب إن ضاقت الأخلاق والحيلْ
(٥) البيتان في ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني)، من قصيدة مطلعها:
هلا بكيت ظعائنًا وحمولا ... ترك الفؤاد فراقهم مخبولا

ولآخر: [الطويل]

وحامي بلاد الله مِنْ كلّ مارقٍ ... له الطَّيْر ضيف والوحوش وُفودُ
مليك له زهر النُّجوم أسِنَّة ... إذا أمَّ أفقًا والسَّحاب بنودُ

آخر(١): [الكامل]

عقبان رَوْع والسروج وكورها ... وليوث حربٍ والقنا آجامُ
وبدور تمّ والترائك في الوَغى ... هالاتها والسّائرون غَمامُ
جادوا بِمَمنوح التّلاد وجوّدوا ... ضربًا بحدّيه الطّلى والهامُ
وتجاوبت أسْيافهم وجيادهم ... فالأرض تُمْطر والسّماء تغامُ

البحتريّ(٢): [الخفيف]

معشرًا أمسكت حلومهم الأر ... ض وكادت لولاهم أنْ تَمِيدا
فإذا الجَدْب جاء جاد واغيوثا ... وإذا النّقع ثار ثاروا أُسودا
وكأنَّ الإلـه قال لهم في الـ ... حرب كونوا حجارةً أو حديدا

آخر(٣): [الخفيف]

إن ترد خُبْرَ حالهم عن يقينٍ ... فأتهم يومَ نائل أو نزالِ
تَلْقَ بِيضَ الوجوه سُود مثار النـ ... قع خضر الأكتاف حُمْر النِّصالِ

آخر(٤): [الكامل]

قومٌ شراب سيوفهم ورماحهم ... في كلّ معترك دم الأشرافِ
رجعت إليهم خيلهم بمعاشرٍ ... كلٌّ لكل جسيم أمر كافي
يتحنّنون إلى لقاء عدوّهم ... كتحنّن الآلاف للإيلافِ
ويباشرون ظبا السيوف بأسهم ... أمضى وأقطع من مضيّ الأسيافِ

---

(١) الأبيات بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ١٩٥٠.
(٢) الأبيات في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:
إنّما الغيّ أن يكون رشيدا ... فانقصا من ملامه أو فزيدا
(٣) البيتان بلا نسبة في سلافة العصر، لابن معصوم، ص ٦١٥.
(٤) الأبيات بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٣٦.

جُبِلت على سفك الدّماء نفوسهم وأكفهم جُبِلَت على الإتلافِ
فإذا هم صدموا العدوّ بصارمٍ خَضبوا الأسِنّة من دمِ الأطرافِ
فنفوسهم تُفْني نفوس عِداتهم وعطاؤهم يُغْني سؤال العافي

الفصل الثاني من الباب الحادي عشر

في ذكر ما وقع في الحروب من شدائد الأزمات والكروب

قال بعض الحُكماء: جسم الحرب الشجاعة، وقلبها التدبير، ولسانها المكيدة، وجناحاها الطّاعة، وقائدها الرّفق، وسائقها النّصر. وقال عمر بن الخطّاب لعمرو بن معديكرب رضي الله عنهما: صِفْ لنا الحرب، فقال: مرّة المَذاق، صَعْبة لا تُطاق، إذا شمّرت عن ساق، مَنْ صَبِر لها عرف، ومَنْ نَكِل عنها تلف؛ ثم أنشد[1]: [الكامل]

الحرب أوّل ما تكون فَتِيّةً تسعى بزينتها لكل جَهُولِ
حتى إذا حَمِيَت وشبّ ضرامها عادت عجوزًا غير ذات حليلِ
شمطاء جذّت رأسها وتنكّرت مكروهة للشمّ والتّقبيلِ

وقيل لبعضهم: صِفْ لنا الحرب، فقال: أوّلها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى. تذاكروا الحروب عند معاوية، فقال: بدر لعليّ، وأُحُد لطلحة، والخندق للزُّبَيْر، وحُنَيْن للعباس بن مرداس. وأنا ذاكر من الحروب الواقعة في صدور الإسلام بعد موت النبيّ عليه الصّلاة والسّلام أربعة، وهي الجمل وصفّين ويوم الحرّة ويوم كربلا؛ إذ هذه الحروب أشدّ الوقائع طعانًا وضرابًا، وأعظمها في الدِّين فجيعة ومَصابًا، لِمَا قتل فيها من كبار آل بيت النبيّ ﷺ وصحابته، وعُظماء أهل بيته وقرابته.

الجمل

مبتدؤها أنّ طلحة والزُّبير خرجا مغاضبين لعليّ رضي الله عنه بعد أن بايعاه لِمَا هجس في نفوسهما مِنْ أنّ عَليًا رضي الله عنه هو الذي ألّب على قتل عثمان رضي الله عنه حتى قُتِل، وأنّ قتله كان عن رِضًا منه فَقَدِما مكّة على عائشة رضي

(١) الأبيات في ديوان عمرو بن معديكرب، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

الله عنها، وكانت قد خرجت مِنَ المدينة قبل قتل عثمان، فاجتمعا يومًا عند عائشة رضي الله عنها في رجالٍ من بني أُميّة، فتذاكروا قتل عثمان ورغّبوا عائشة في طلب الثأر، فاعتذرت إليهم بقلّة ذات يدها، فقال يعلى ابن منية - ومنية اسم أُمّه، وكان عاملًا لعثمان على اليمن -: عندي أربعمائة ألف درهم مساعدة لكم، وخمسمائة فارس أجهّزها؛ وقال عبد الله بن عامر بن كريز - وكان عاملًا لعثمان على البصرة -: عندي ألف ألف درهم ومائة من الإبل؛ وأشار عليهم بالبصرة، ثم نادى منادٍ بالتحريض على طلب دم عثمان، فاجتمع لهم ألف منهم ستّمائة على النُّوق وسواهم على الخيل والبِغال، ووهب يعلى ابن منية الجمل وكان يُدعى عسكرًا وعمل عليه هودجًا من حديد، ثم إنهم دخلوا طالبين البصرة، وكان عليّ رضي الله عنه قد بلغه خبرهم، وهو في المدينة، فخرج منها في تسعمائة فيهم سبعون بدريًا، ووصلت عائشة البصرة بِمَنْ معها وكانوا زهاء ثلاثة آلاف، فمنعهم عثمان بن حنيف عامل عليّ مِنْ دخولها، فأخذوها منه بعد حربٍ وقعت بينهم قُتِل فيها كلّ مَنْ خرج يطلب قتل عثمان أو أعان عليه إلّا رجل واحد يُسمّى حرقوص بن وهب، فإنّ بني سعد منعته وأخذوا عثمان بن حنيف فنتفوا لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه، فجاء عليًا رضي الله عنه وقال: يا أمير المؤمنين بعثتني بلحية وجئتك أمردًا، وكان عثمان بن حنيف مِنْ كبار الصحابة وبايع أهل البصرة طلحة والزُّبير، ووصل عليّ إلى الكوفة فاستنجدهم فأنجدوه باثني عشر ألف رجل، وسار حتى وصل إلى جانب البصرة، فنزل وأقام تلك اللّيلة، ثمّ ناشدهم الله في الدّماء، فأبَوْا إلّا القتال، فخرج عليّ رضي الله عنه وهو راكب بغلة رسول الله ﷺ والتقى الجَمْعان، فكان أوّل مَنْ قُتل طلحة وانهزم الزُّبير، فلحقه ثلاثة نفرٍ منهم عمرو بن جرموز السّعدي بوادي السباع عدوًا فقتله وهو ساجد، وقيل: نائم غيلة، ووادي السباع برقّة واسط بين البصرة والكوفة، وفيه يقول جرير بن عطية بن الخطفي عائبًا على بني مُجاشع قتل الزُّبير(١): [الكامل]

إنـي تـذكـرنـي الـزبـيـر حـمـامـة ... تـدعـو بـبـطـن الـواديَـيْـن هـديـلا
قـالـت قـريـش مـا أذلّ مُـجـاشـعًـا ... جـارًا وأكـرم ذا الـقـتـيـل قـتـيـلا
لـو كـنـت حُـرًّا يـا ابـن قَـيْـن مـجـاشـع ... شـيّـعـت ضـيـفـك فـرسـخًـا أو مِـيـلا

(١) الأبيات في ديوان جرير، من قصيدة مطلعها:

لـم أر مـثـلـك يـا إمـام خـلـيـلا ... أنـأى بـحـاجـتـنـا وأحـسـن قـيـلا

أفبعد قتلكم خليل محمّد ترجو القيون مع الرّسول سبيلا
أفتى الندى وفتى النّزال غدرتم وفتى الرماح إذا تهب بليلا
لو كنت حين غدرت بين بيوتنا لسمعت مِنْ صوت الرّماح صليلا
وحماك كل معاور يوم الوّغى ولكان شلو عدوّك المأكولا

وقتل محمد بن الزبير، وجرح عبد الله أخوه سبعًا وثلاثين جراحة، وأطاف بنو ضبّة والأزد بالجمل، وأقبلوا يرتجزون[١]: [الرجز]

نحن بني ضبّة أصحاب الجملْ ننزل بالموت إذا الموت نزلْ
والموت أحلى عندنا مِنَ العسلْ تبغي ابن عفان أطراف الأسلْ

فقطع على خطام الجمل سبعون يدًا من بني ضبّة، فلمّا التحمت الحرب واسْتَعرت نارها نادى عليّ رضي الله عنه: اعقروا الجمل، فإنه إن عُقِر تفرّقوا؛ فعقره عمرو بن دلجة وأخذته السيوف من كلّ جانب حتى وقع وقُتِل حوله خلق كثير ومال الهودج وسمع صارخ يقول: راقبوا الله في حرمة رسول الله ﷺ، فقال عليّ لابنه الحسن: هلكت، قال: قد نهيتك عن مسيرك، قال: لم أكن أرى أنّ الأمر يصير إلى هذا، وجاء أعين بن ضبيعة حتى اطّلع في الهودج، فقال: ما أرى إلّا خيرًا، قالت: هتك الله سترك وأبدى عورتك، فقُتل بعد ذلك بالبصرة وصُلِب وقُطِعت يداه ورجلاه ورُمِي به عريانًا في خِرْبة من خِراب الأزد. وقيل: إنّ عليًا لما وقف عليها ضرب الهودج بقضيب، وقال: يا حُمَيْراء أرسول الله ﷺ أمرك بهذا؟ ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك؛ فيقال: إنها قالت له: قد ملكت فاسجح، ثم أمرها بالمسير وأذِنَ لأصحابها أن يسافر معها مَنْ أراد السفر، فسافر بعض وبقي بعض. وقال البلاذري في تاريخه: إنّ عليًا رضي الله عنه أعطاها حين أشخصها إلى مكّة عشرة آلاف درهم، ورجعت إلى مكّة يوم السبت غُرّة رجب سنة ستّ وثلاثين وشيّعها عليّ أميالًا وقصدت مكّة فأقامت بها إلى الحجّ، ثم خرجت إلى المدينة. وكانت الوقعة في الموضع المعروف بالحربية لعشر خَلَوْن مِنْ جُمادى الآخرة، وقيل: في يوم الجمعة النّصف من جمادى الأولى. وعدّة مَنْ قُتِل يوم الجمل ثمانية آلاف

---

(١) الرجز للحارث الضبيّ في الدّرر ٣/ ١٣، وللأعرج المعني في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص ٢٩١.

رجل من أصحاب عائشة، وألف مِنْ أصحاب عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وفي وقعة الجمل يقول عثمان بن حنيف: [المتقارب]

شهدت الحروب فشيّبنني ولم أرَ يومًا كيوم الجملْ
أشدّ على مؤمن فتنة وأقتل منه لحرّ بطلْ
فلَيْت الظّعينة في بيتها ولَيْتك عسكر لم ترتحلْ

يعني الجمل الذي كانت عليه عائشة، وحكى أبو طالب المكيّ في القوت أنّ عليًا رضي الله عنه قال لابنه محمد ابن الحنفيّة، وقد قدّمه أمامه يوم الجمل: أقدم أقدم ومحمد يتأخّر، وهو يُكْرهه بقائم الرُّمح، فالتفت إليه محمد وقال: هذه والله الفتنة المظلمة العَمْياء، فوكزه عليّ رضي الله عنه بالرمح، وقال له: تقدّم لا أمّ لك، أتكون فتنة أبوك قائدها وسائقها.

صفّين

ولمّا فرغ عليّ رضي الله عنه مِنْ حرب الجمل وانصرف إلى الكوفة بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يخيّره بين حرب معضلة أو يسلم بجزية، فإن اختار الحرب فانبذ إليه على سواء أنّ الله لا يحبّ الخائنين، وإن اختار السِّلم فخذ بيعته وارجع؛ لمّا بلّغ جرير الرسالة إلى معاوية أرسل إلى عمرو بن العاص، فلما حضره أعلمه بما أتى فيه جرير، فقال له: أمّا عليّ، فوالله لا تسوى العرب بينك وبينه في شيء، وأنّ له في الحرب لحظًا ما هو لأحد في قريش؛ قال: صدقت، ولكنّا نقاتله على ما بأيدينا ونلزمه قتل عثمان، ثم قال له: مدّ يدك وبايعني، فقال: والله لا أُعطيك شيئًا من ديني حتى آخذ من دُنْياك، ويقال: بل أنشده[1]: [الطويل]

معاوي لا أُعطيك ديني ولم أنل لديك بدنيا فانْظُرن كيف تصنعُ
فإن تُعْطِني مصرًا فأربح بصفقة أخذت بها شيخًا يضرّ وينفعُ

فأعطاه مصر طعمة وكتب له بذلك شروطًا، وأشهد عليه شهودًا، فبايعه عمرو بن العاص وتعاهدوا على الوفاء، وكتب معاوية إلى عليّ بأن لا طاعة له

---

(١) الأبيات في الحلّة السيراء، لابن الأبار، ص ١٢٠؛ وربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٥٧٧.

عليه، لمّا ورد جرير على عليّ بما كتب إليه معاوية أمر الناس بالخروج إلى صفّين لقتال معاوية، فاجتمع له مِنَ الخيل تسعون ألفًا فيهم سبعون بدريًا، وممّن بايع تحت الشجرة سبعمائة، ومن المهاجرين والأنصار أربعمائة، وذلك لخمسٍ خَلَوْن مِنْ شوّال سنة ستٍّ وثلاثين، وبلغ معاوية خروج عليّ، فجمع مِنَ الجنود خمسة وثمانين ألفًا، وقيل: مائة وعشرين ألفًا، وسبق عليًا إلى صفّين، فنزل على موضع سهل أفْيَح معشب قريبٌ مِنَ الفرات، ونزل عليّ على مواضع بعيدة من الماء والعشب، فبات وجيشه عِطاش قد حِيل بينهم وبين الماء، فأشار عمرو على معاوية أن يُمكّن عليًا من ورود الماء، فقال: لا والله أو يموتوا عطشًا كما مات عثمان، فاشتكى أصحاب عليّ العطش، فأمرهم بالمسير وقدّم عليهم الأشتر والأشعث بن قيس، فساروا وعليّ من وراء الجيش حتى هجموا على عسكر معاوية، فأزالوهم عن الشّريعة وغرق منهم خلق كثير، وارتحل معاوية إلى ناحيةٍ من البرّ بعيدة من الماء، وأرسل إلى عليّ يستأذنه في استقاء الماء من طريقه فأذن له وأجابه إلى ذلك، ثم بعث عليّ إلى معاوية يدعوه إلى اجتماع الكلمة وحقن الدماء، وطالت المراسلة بينهما، فاتّفقا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين، فلمّا كان آخر المحرم كتب عليّ إلى أهل الشام يحذّرهم الوقوع في الهَلَكة، فأبوا إلّا الحرب والقتال حتى يهلك مَنْ هلك عن بيّنة ويحيا مَنْ حيّ عن بيّنة، فعبّى عليّ جيشه يوم الأربعاء مستهلّ صفر، وقدّم عليهم الأشتر وتصافّ أهل الشام والعراق ووقع القتال بينهم، فكان هذا دَأْبهم في كلّ يوم إلى السابع من صفر، وفيه قُتِل عمار بن ياسر مِنْ أصحاب عليّ قتله أبو العادية العامليّ، وله من العمر ثلاث وتسعون سنة.

وكان في حرب صفّين خزيمة بن ثابت ذو الشّهادتين مع عليّ كافًا سلاحه، فلمّا قُتِل عمار خرج يطلب المبارزة، وهو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمّار: «يا عمار تقتلك الفِئة الباغية»[1]، ثم كانت بينهم حرب أُخرى قُتل فيها ذو الكلاع وعبيد الله بن عمار، ثم كانت بعد ذلك ليلة الهُرَيْر قُتِل فيها خلقٌ كثير،

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعدّدة، أخرجه البخاري في الصلاة باب ٦٣، ومسلم في الفتن حديث ٧٠، ٧٢، ٧٣، والترمذي في المناقب باب ٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣/ ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ١٩٧/٤، ١٩٩، ٢١٥/٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٢٨٩/٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣١٥.

وكانت ليلة جمعة، فلمّا رأى معاوية أنْ قد فشا القتل في أصحابه، قال لعمرو بن العاص: هلمّ مخبآتك، فقد هلكنا؛ وذكّره ولاية مصر، فأمر أن تُرفع المصاحف وأن يقال ما فيها حكم بيننا وبينكم يا أهل العراق، فرفعوها وكانت زهاء خمسمائة مصحف، ونادوا: مَنْ لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومَنْ لثغور العراق بعد أهل العراق؟ مَنْ لجهاد الروم والترك؟ فعند ذلك اختلف أصحاب عليّ؛ فمنهم مَنْ أراد القتال، ومنهم مَنْ أراد الكفّ، فقال عليّ رضي الله عنه: بالأمس كنت أميرًا وأصبحت اليوم مأمورًا؛ ثم أرسل الأشعث بن قيس إلى معاوية يسأله: لأيّ شيء رفعت المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه تبعثون رجلًا منكم ترضونه ونبعث رجلًا منا نرضاه ليعملا فينا بكتاب الله ونتبّع ما اتّفقا عليه، فقال الأشعث: هذا هو الحقّ، وانصرف إلى عليّ وأخبره بما قال معاوية، فقال الناس: رَضِينا؛ فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس، واختار عليّ عبد الله بن عباس، فقالوا: والله لا نريد إلّا رجلًا هو من معاوية ومنك على السّواء، قال: فاصنعوا ما أردتم؛ فجمعوا بين عمرو بن العاص وأبي موسى، وأخذوا عليهما العهد والميثاق أن لا يَخُونا، وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية والحسنين المواثيق أنّهما آمِنان على أنفسهما، وأن يكون منهم المبايعة على ما يرضيانه، ثم خرجا واجتمعا في دَوْمة الجندل في شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين، فقال عمرو لأبي موسى: إنّ هذه الفتنة لا تزال قائمة ما دام واحد من هذين الاثنين متولّيًا إمرة المسلين، فقال أبو موسى: فما ترى؟ قال: أرى أن يصعد كل واحد منّا المنبر، ويخلع صاحبه وندعها شورى بين المسلمين، يولّون أمرهم مَنْ أرادوا؛ فأجابه إلى ذلك، وتقدّم أبو موسى وصعد المنبر وقال: أيُّها الناس إنّا نظرنا في أمر هذه الأُمّة فلم نَرَ أسلم لأمرها ولا ألَمّ لشَعْثها من أمرٍ اجتمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن يخلع كلّ واحدٍ منّا صاحبه، ويجعل أمر المسلمين إليهم يُولون عليهم مَنْ أحبّوا، وإني خلعت عليًا، فاستقبلوا أمركم وولُّوا مَنْ شِئْتم؛ ونزل، ثم صعد عمرو فحمد الله وثنى عليه، ثم قال: قد قال أبو موسى ما سمعتم مِنْ خَلْع صاحبه وإني خلعته كما خلعه، وأثبّت معاوية كما أثبّت حميلة سيفي هذا في عنقي، فإنه وليّ عثمان والطالب بدمه وأحقّ الله بمقامه؛ ثم نزل، فاختلف عند ذلك كلمة الجيشين، فلما رأى عليّ اختلافهما رحل قاصدًا الكوفة، ولحق معاوية بدمشق وانصرف عمرو بأهل الشام بعد ذلك

إلى معاوية، فسلّموا عليه بالخلافة وبايعوه، فكان عليّ رضي الله عنه بالعراق ومعاوية بالشام إلى سنة أربعين.

وفي هذه السّنة قُتِل عليّ رضي الله عنه في رمضان، وهو ابن اثنتين وستّين سنة، وكانت مدّة خلافته خمس سنين إلّا شهرًا واحدًا، ومدّة ولاية معاوية أربعين سنة منها أميرًا على الشام لعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفان عشرون سنة، وخليفة عشرون سنة، وتوفي سنة ستّين. ولمّا انفصل أهل الشام وأهل العراق مِنْ هذه الحروب رجع ابن عباس وشُريح بن هانىء إلى عليّ رضي الله عنه، وكان عليّ رضي الله عنه إذا صلّى الغداة لعن معاوية وعمرًا وأصحابه، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لعن عليًا وابن عباس وحسنًا وحُسينًا والأشتر، ولم يزل الأمر على ذلك بُرْهة من ملك بني أُمية إلى أن وُلّي عمر بن عبد العزيز الخلافة، فمنع من ذلك وجعل مكان اللّعن في الخطبة: ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا، ربّنا إنك رؤوف رحيم.

وقُتِل بصفّين من أهل العراق والشام في مدّة مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف، وقيل: سبعون ألفًا، مِنْ أهل الشام خمسة وأربعون، ومِنْ أهل العراق خمسة وعشرون ألفًا، والله أعلم.

وكانت الوقائع تسعين وقعة وعدّة مَنْ حضر في صفّين من أهل الشام مائة وعشرون ألفًا، ومِنْ أهل العراق مائة ألف وعشرة آلاف، فيكون جملة الفريقين مائتي ألف وثلاثين ألفًا.

يوم كربلاء

لمّا بُويع يزيد بالخلافة، وذلك في رجب سنة ستّين خرج الحُسَيْن كارهًا للبَيْعة من المدينة إلى مكّة، فبلغ أهل الكوفة امتناعه، فكتبوا إليه يُحرّضونه على المسير إليهم ويُعرّفونه بأنهم شيعته وشيعة أهل بيته، وأنهم يُقاتلون عدوّه حتى يقتلوا أنفسهم دونه؛ فقَدِم الكتاب على الحسين لِعَشر خلَوْن من رمضان سنة ستّين، فبعث إليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب للمبايعة له فبايعوه، فكتب بذلك عامل الكوفة من قِبَل يزيد، وهو عبد الله بن مسلم إلى يزيد يُعْلِمه بذلك، فلمّا بلغ يزيد ذلك عقد لعبيد الله بن زياد بولاية الكوفة وأمره بقتل مسلم بن عقيل، فسار حتى

دخل الكوفة على حين غفلةٍ مِنْ أهلها، وهو ملتثم يظنّونه الحسين، فجعل لا يمرّ على ملإٍ مِنَ الناس إلّا قالوا: مرحبًا يا ابن بنت رسول الله ﷺ، قَدِمْت خير مقدم؛ فلما سمع مقالتهم حسر لهم عن وجهه، فلمّا رأوه داخلهم كآبة وحُزن وخاف مسلم على نفسه، فاستجار بهانيء بن عروة، فأرسل إليه عبيد الله يطلبه منه، فقال: لا أُسلّم إليك مَنْ استجار بي، ظنًا منه أنّ قومه سيمنعونه منه، فتوعّده وتهدّده، فقال: والله لو كان تحت قدميّ هاتين ما رفعتهما عنه، فاصنع ما بدا لك؛ فضربه على وجهه فأدماه وهشم أنفه، وأمر به فحُبِس، فلمّا بلغ مسلم بن عقيل ذلك أمر أن ينادى في أصحابه، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا، فاجتمع حول داره منهم أربعة آلاف، فجاء الصارخ بذلك إلى عبيد الله، فخرج من المسجد إلى القصر فزعًا مُسْرعًا وأغلق أبوابه وأحاط مسلم بن عقيل به فيمن معه مِنْ كلّ ناحية ولم يكن مع عبيد الله في القصر إلّا ثلاثون رجلًا مِنَ الشُرط، وعشرون مِنْ أشراف الناس، فبينما هم كذلك إذ أقبل كثير بن شهاب فيمن أطاعه من مذحج، فنادى: أيّها الناس ألحقوا بأهاليكم ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فإنّ هذه جيوش أمير المؤمنين يزيد مقبلة، وقد أقسم الأمير عبيد الله لَئِن لم ترجعوا عن حَرْبه ليأخذنّ البريء بالسّقيم، والغائب بالحاضر حتى لا يبقى منكم باقية؛ فتفرّق الناس وجعل الرجل يخوّف أخاه بجند الشام، والمرأة تخوّف ولدها، فأمسى مسلم بن عقيل ومعه ثلاثون ألفًا، فخرج متوجّهًا نحو أبواب كندة، فما بلغ الأبواب ومعه عشرة، ثم خرج مِنَ الأبواب وما معه إنسان، فمضى على وجهه لا يدري أين يذهب، فالتجأ إلى دار امرأة تسمّى طوعة فمنعته الجلوس على بابها، ولم تكن تعرفه، فقال لها: افعلي معي معروفًا لعلّي أُكافئك عليه بعد؛ قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء القوم وغرّوني، فرقّت له وحنّت عليه وأخذت بيده وأدخلته دارها، وكانت للأشعث بن قيس، فلمّا كان الغد صعد عبيد الله بن زياد المنبر، فحمد الله على انتصاره، ثم قال: بَرِئت الذمّة ممّن وجدنا مسلم بن عقيل في داره ومَنْ جاء به فله ديته؛ فقام محمد بن الأشعث وقال: إنّ بلال بن أسيد أخبرني أنّ عقيل بن مسلم عند أُمّه؛ فقال: قُمْ وأْتني به، فقام ابن الأشعث في ستّة عشر رجلًا حتى أتوا الدار، فلما سمع مسلم وقع حوافر الخيل نهض إليهم بسيفه، فاقتحموا عليه الدّار فضربهم حتى أخرجهم وخرج خلفهم مصلّتًا سيفه ومانعًا عن نفسه، فقال له ابن الأشعث: يا فتى لا تقتل نفسك ولك الأمان، وهو يُدافع عن

نفسه ويقول: [الرجز]

أقسم لا أُقتل إلّا حُرّا ... وإن رأيت الموت شيئًا نكِرا

كلُّ امرئٍ يومًا مُلاقٍ شرّا ... أخاف أن أكذب أو أُغرّا

فقال ابن الأشعث: لا تكذب ولا تغر أنا زعيمك بالوفاء والذّمام، فلما ألقى سلاحه تواثبوا عليه وأخذوه وحُمِل إلى عبيد الله، فقال له: يا فاسق إنّ نفسك منّتك ما حِيل بينك وبينه قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يُقتلها أحدٌ قبلك في الإسلام؛ ثم أمر كثير بن حمران الأحمري أن يصعد به إلى سطح القصر وأن يَرمي به، ففعل، فلمّا فعل به كذلك لم يمت، فأمر بضرب عنقه فضُرِبت ثمّ ضرب رقبة هانيء بعده وصُليت جثة مسلم، وحُمِل رأسه إلى دمشق.

وكان قتل مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان مَضَيْن من ذي الحجّة سنة ستّين، وفي ذلك اليوم خرج الحُسين من مكة قاصدًا نحو الكوفة بعدما وصله كتاب مسلم يُخبره فيه أنّ أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأ كتابي، فإني قد بايعتهم لك؛ فبينما هو سائر بأصحابه نحو الكوفة إذ مرّ به رجل من أهلها، فسُئِل عمّا وراءه، فذكر أنه لم يخرج منها حتى قُتل مسلم وهانيء ورآهما يجرّان بأرجلهما في السوق، فهمّ بالرجوع، فقال له بعض أصحابه: والله ما أنت كمسلم، ولو قدمت الكوفة لكان الناس أسرع إليك من السيل في المكان المنحدر، فسار وإذا طلائع خيل قد أقبلت نحوه، فنزل الحُسَين وأمر بالأخبية فضُرِبت، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحرّ بن يزيد اليربوعيّ، وكان نازلًا على القادسيّة ينتظر قدوم الحسين، فلما اجتمعا قال له الحرّ: ما الذي أقْدمك العراق؟ قال له: والله ما خرجت حتى أتَتْني كتبكم مع رسلكم، فقال له الحرّ: والله ما ندري ما هذه الكتب، وقد أُمِرْنا أنّا إذا لقيناك لا نفارقك حتى نُقْدمك الكوفة، فقال: ثكلتك أمّك، الموت دون ما قلت، فقال الحرّ: لو غيرك قالها من العرب ما تركت ذكر أمّه، وإذ قد أبَيْت فخذ طريقًا لا تُدْخلك الكوفة ولا تردّك إلى المدينة؛ فأبَى وسار والحرّ بن يزيد معه حتى أتوا على قرية، فسأل الحُسَيْن عنها، قالوا: العقر، فقال: نعوذ بالله منه ـ أي من العقر ـ وهي كربلاء، فنزل فيها، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرّم سنة إحدى وستّين، فلمّا كان من الغد قدم عليهم عمرو بن سعد بن أبي وقّاص من

الكوفة في أربعة آلاف فارس، فلمّا اجتمعوا كتب عمرو إلى عبيد الله يسعى في صلاح الحال معه وعوده: أنّا قد اجتمعنا بالحُسَين في كربلاء ونحن ننتظر أمرك فيه، فكتب إليه: حِلْ بين الحسين وبين الماء كما فعل بالزكيّ النقيّ عثمان بن عفان، فمنعوه وأصحابه الماء، ثم أنفذ إليهم الشّمر بن ذي الجوشن، وأمره أن يسمع لعمرو بن سعد إن هو قاتل وإن أبى فتقدّم أنت على العسكر، فأقبل شمر على عمرو بن سعد، وبلّغه ما قال عبيد الله، فامتعض لذلك، وقال: لا ولا كرامة، ولكن أنا أتولّى ذلك؛ ثم نادى: يا خيل الله اركبي، وذلك عشيّة الخميس لتِسْع خلون من المحرّم، ثم تقدّموا نحو الحسين، فأرسل إليهم أخاه العباس يسألهم التأخير لصبيحة غد، فأجابوه إلى ذلك، فلمّا صلّى الغداة يوم الجمعة، وقيل: يوم السبت وهو يوم عاشوراء خرج عمرو فيمن معه مِنَ الناس، وخرج الحُسين وأصحابه وكانوا اثنين وثلاثين فارسًا وأربعين راجلًا، ثم وقف فيهم على راحلته ونادى: أيّها الناس اجمعوا أمركم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون إنّ وليّي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين؛ فسمعه نساؤه فبكين، ثم قال: انسبوني وانظروا مَنْ أنا، هل على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيري؟ فسمعته أخته زينب فقالت اليوم ماتت فاطمة أمّي، وعليّ أبي، والحسن أخي، يا خليفة الماضي وثمال اليتامى؛ فقال مجيبًا لها: ولو ترك القطا ليلًا لناما؛ فجاءه الحرّ بن يزيد اليربوعي فقال له: ما جاء بك؟ قال: جئتك تائبًا ممّا كان منّي مواسيًا لك بنفسي، أفترى ذلك لي توبة؟ قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك، ثم أقبل الحرّ بوجهه على أصحاب ابن زياد، وقال لهم: اتّقوا الله في ابن بنت رسول الله نبيّكم، حِلْتم بينه وبين الماء الذي يَلِغ فيه الكلب، ويَرِدُه الكافر، وها أصحابه قد صرعهم العطش، فبِئْسما خلفتم محمدًا في أهل بيته؛ فحمل عليه رجال منهم ونشب الحرب بينهم، فجعل الحرّ ينشد يحمل على القوم ويقول: [الرجز]

والله لا تـقـتـل حـتـى أُقـتـلا ... ولـن أصـيـب الـيـوم إلّا مـقـتـلا
أضربـهـم بـالسـيف ضربًا فَيْصلا ... لا نـاكِـلًا عـنـهـم ولا مُـهـلِّلا

ولم يزل يُقاتل حتى قُتل، ثم حمل أصحاب عمرو بن سعد على أصحاب الحُسين حملةَ رجلٍ واحد فقتلوهم كلّهم، وكان أوّل مَنْ قُتِل من آل بني طالب عليّ بن الحسين الأكبر، وبقي الحُسين وحده، وكان الناس قد توّقوا قتله، فكان

بعضهم يحيل على بعض، وصاح شمر لعنه الله بأصحابه: أن اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، فحمل عليه مِنْ كل جانب فضربه زرعة بن شريك بالسيف فقطع يساره، وطعنه سنان بن أنس النخعي بالرمح فصرعه ونزل إليه فاحتزّ رأسه من قفاه وأخذها، ووُجِد فيه رضي الله تعالى عنه ثلاث وثلاثون جرحًا وثلاثون طعنة، والكلّ فيما أقبل مِنْ وجهه، وقيل: مائة وعشرون جراحة ما بين طعنة برُمْح ورشقةٍ بسهم ورمية بحجر وضربة بسيف، وكانت عليه جبّة خزّ دكناء، فصارت كأنها جلد قنفذ من السّهام، ثم سلبه إسحٰق بن جنوة قميصه فَبَرِص، وسلبه يحيىٰ بن كعب سراويله فعُمِي، ونادى عمرو بن سعد مَنْ ينتدب للحُسين فيطؤه بفرسه فانتدب له إسحٰق بن جنوة وتسعة مِنْ أصحابه فواطؤوا ظهره وصدره حتى رضوه رحمة الله تعالى عليه، ولعن قاتله والمُعِين له، وأتى سنان بن أنس برأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد، فلما دخل عليه قال: [الرجز]

أوقر ركابي فضّة وذهبا أنا قتلت السيّد المحجبا
أكرم خلق الله أُمًّا وأبا وخَيْرهم إذ ينسبون النّسبا

فظفر به المختار بن أبي عُبَيد فقتله وأحرقه، ثم بعث بالرأس مع محفيد بن ثعلبة العائذي إلى يزيد بن معاوية، فلمّا دخل عليه قال له: جِئتك برأس ألأم الناس ما ولدت مخدّرة ألأم وأوضع، ثم جعل يضرب ثناياه بقضيب خيزران كان في يده، وينشد[1]: [الطويل]

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضب في أيماننا تقطر الدّما
تفلّق هامًا من رجال أعِزّةٍ علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

أما والله لوددت أني أتيت بك مسلمًا، ولو ولّيتك ما قتلتك؛ ثم قدم إليه عليّ بن الحسين، والحسن بن الحسن، فقال لعليّ: أنت أبوك قطع رحمي ونازعني سلطاني، فجزاه الله جزاء القطيعة للرحم؛ فقال عليّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: الآية ٢٢]، فقال يزيد: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: الآية ٣٠]. ويُرْوى أنّه لمّا قُتل الحسين رضي الله عنه قدم على

(١) البيتان للحصين بن حمام الفزاري، من قصيدة مطلعها:

جزى الله أفناء العشيرة كلّها بدارةِ موضوع عقوقًا ومأثما

يزيد. . .(١) المذحجيّ، فقال له: ما وراءك؟ قال: أبْشِر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، وردّ علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر رجلًا مِنْ أهل بيته وستّين رجلًا من شيعته، فسِرْنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام، فعدَوْنا عليهم مع شروق الشمس، فاحتطنا بهم مِنْ كل ناحية حتى أخذتهم السيوف مأخذها من هؤلاء القوم، وجعلوا يلجؤون إلى غرور ويلوذون منّا بالآكام والحُفَر لنادي الحمام من العقر: فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلّا قدر جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجرّدة وثيابهم مُزمّلة وخدودهم معفّرة تضربهم الشمس وتسفي عليهم الريح وفوقهم العقبان والرخم بقفر سبسب لا مكفّنين ولا موسدين؛ فدمعت عينا يزيد وقال: كنت أرضى منكم ومن طاعتكم بدون قتل الحُسَين لعن الله ابن سميّة، أما والله لو أني بصاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين فلم يصله بشيء.

ويُقال: إنّه لما حُمِل رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية ووضع بين يديه خرجت كفّ يد من الحائط، فكتبت في جبهته(٢): [الوافر]

أترجو أمّة قتلت حُسَيْنًا شفاعة جدّه يوم الحِسابِ

وقُتل رضي الله عنه وله من العمر خمس، وقيل: ستّ، وقيل: سبع وخمسون سنة، وقُتل معه ثمانية عشر رجلًا مِنْ أهل بيته وستّون رجلًا مِنْ شيعته. ولمّا وصل خبر مقتله إلى المدينة، وكان واليًا عليها يومئذ عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق قام مناديًا فنادى بقتله، فصاح نساء بني هاشم، وخرجت ابنة عقيل بن أبي طالب حاسرة، وهي تقول(٣): [البسيط]

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم خيرة الأُممِ
بِعَتْرتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم مُضرّج بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تُخْلفوني بسوء في ذوي رحمي

وفي يوم قتله من العام القابل قُتل عبيد الله بن زياد قتله المختار بن أبي عبيدة، وقتل المختار مصعب بن الزبير، وقتل مُصْعبًا عبد الملك بن مروان، فيالله

(١) بياض بالأصل.
(٢) البيت لأبي الأسود الدُؤلي في ديوانه، وهو بيت منفرد.
(٣) الأبيات في أمالي ابن الشجري، ص ٦٨٢؛ وعيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٥٥٧.

العجب كيف وأنى يهدر دماء بني البتول وسيف النّصر على الباغي بيد الزمان مسلول.

يـوم الحـرّة

وسببه أنّ جماعة من أشراف المدينة منهم عبد الله بن حنظلة وبنوه ثمانية والمنذر بن الزبير قَدِموا من عند يزيد بن معاوية، وكان قد أكرمهم وحمّلهم وكساهم، فأظهروا شتمه وأكثروا سبّه وعَيْبه للناس، وقالوا: قَدِمْنا من عند رجل شرّيب فسّيق يلعب بالكلاب ويسامر القرود والقيان، وإنّا نشهدكم أنْ قد خلعناه وتبرّأنا منه؛ فكتب عثمان بن حيان والي المدينة من قِبَل يزيد إليه يُعْلمه بما أجمعوا عليه، فكتب يزيد إلى أهل المدينة: أمّا بعد؛ فإنّ الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ لهم وما لهم مِنْ دونه من والٍ، وإني والله لقد لبستكم فأبليتكم ورقعتكم حتى خرقتكم، وإني وضعتكم على رأسي ثم على صدري ثم على بطني، وايْم الله لَئِن وضعتكم تحت دميّ لأطأنّكم وطأة أقلّ بها عددكم وأفلّ بها عددكم وأترككم أحاديث تنسخ أخباركم مع أخبار عادٍ وثمود، فإن شئتم فلا أفلح من ندمٍ؛ وكتب في آخر الكتاب متمثّلًا بقول الشاعر(١): [الطويل]

لقد بدّلوا الحلم الذي من سجيّتي فـبـدِّلـت قـومـي غـلظـة بـلـيـانِ

فلمّا وصل إليهم الكتاب وقُرِىء عليهم أبوا إلّا خلعه وازدادوا عليه تغيّظًا وفيه كراهة، ثم بايعوا عبد الله بن حنظلة ووثبوا على عثمان بن حيان وأخرجوه من المدينة، وأخرجوا مَنْ كان فيها مِنْ بني أُميّة ومواليهم، وكانوا نحوًا من ألف، فنزلوا دار مروان بن الحكم، فخرجوا إليهم وحصروهم فيها، فكتب مروان إلى يزيد يُعْلمه بما جرى، فوصل إليه الكتاب ليلًا وعنده الضحاك بن قيس، فقرأه عليه ثم قال له: ما الرّأي؟ قال: يا أمير المؤمنين قومك وعشيرتك وبلد رسول الله ﷺ وحرمه، وأرى أن تعفو عنهم وتتغمّد ذنوبهم؛ فقال: اخرج عنّي، ثم دعا مسلم بن

---

(١) البيت للمتوكّل الليثي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

خـلـيـلـي عـوجـا الـيـوم وانـتـظـراني فـإن الـهـوى والـهـمّ أم أبـانِ

ورواية البيت في الديوان:

هـم بطروا الحـلـم الذي من سجيّتي فـبـدلـت قـومـي شـدّة بـلـيـانِ

عقبة المريّ، قال: فما لبث أن دخل رجل أعور ثائر الرّأس كأنما يقلع رجله من وحل إذا مشى، فرمى إليه بالكتاب، فلما قرأه احمرّ وجهه وأزبد شدقه، فقال له يزيد: ما الرأي؟ قال: أرى أن تبعث إليهم جيشًا رجاله غليظة أكتافهم، طويلة رماحهم، فيطؤونهم حتى يكونوا نِكالًا لِمَنْ خلفهم، فقال له يزيد: كنت لها لولا أنك ضعيف، فقال: يا أمير المؤمنين إنْ كنت تريدني لمصارعتهم فإنّي ضعيف، وإن كنت تريدني للرأي فإني قوي، فأمره يزيد بالتجهّز، فما أصبح إلّا وعلى باب يزيد عشرون ألفًا، وفيهم مسلم بن عقبة، فاستدعاه يزيد وقال له: سِرْ، فإن حدث بك أمرٌ فاستخلف الحصين بن نمير، وادْعُ أهل المدينة ثلاثًا فإن أجابوك وإلّا قاتلهم فإن أطاعوا أمرنا فانصرف عنهم إلى ابن الزُّبير، فإنْ قاتلتهم وظفرت بهم فأبِحْها ثلاثًا، واسْتَوْصِ بعليّ بن الحسين خيرًا؛ ثم ودّعه وانصرف بمن معه من الجيش، فلمّا سمع أهل المدينة قدوم الجيش غوّروا المياه التي بينهم وبين أهل الشام، فأرسل الله السماء فلم يَسْتَقِ أصحاب مسلم بدلوٍ حتى قدموا المدينة، وكان أهل المدينة قد أطلقوا بني أميّة، فخرجوا قاصدين الشام، فلقوا مسلمًا بالجيش فرحّب بهم وسألهم عن أهل المدينة فأخبروه بحالهم وشاورهم أين يكون نزوله مِنْ نواحي المدينة، فأشار عليه عبد الملك بن مروان أن ينزل بالجيش مِنْ قِبَل الحرّة، فإنها مُشْرفة على المدينة، وأنّ أهلها ينظرون من تألّق بيضكم وأسِنّة رماحكم وسيوفكم ما لا يراه أصحابك منهم فنزلها، فلمّا رآهم أهل المدينة خرجوا في جموعٍ كثيرة وهيئة لم يُرَ مثلها، فلمّا رآهم أهل الشام أكْبَرُوهم وكَرِهُوا قتالهم، فكتب مسلم إليهم يحذّرهم سطواته ويُنْذرهم فتكاته، فأبوا قبول ما دعاهم إليه من الانقياد لطاعته، فلمّا كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وستّين نادى مُناديه: يا أهل المدينة قد مضى الأجل، فما تصنعون أتُسالمون أم تُحاربون؟ فقالوا: بل نُحارب، ثم خرجوا وطلبوا البراز، فأمر مسلم أن يعبى الجيش وضرب لهم فسطاطًا ووقع القتال، وجعل مسلم يَعِدُ قومه ويُمنّيهم، وعبد الله بن حنظلة الغسيل يحرّض قومه ويقدّم أولاده واحدًا بعد واحد حتى قُتِلوا، ثم حُمِل عليه فقُتِل، وقُتِل يومئذ ثمانية من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال أهل الشام لبني أُمية: ألهؤلاء جئتم بنا حتى نقتلهم؟ ثم اشتدّ القتال وكَثُر القتل حتى انهزم أهل المدينة فدخلوها وتحصّنوا بها، فيَئِس منهم مسلم، فدلّه رجل من بني حارثة على طريق سالكة إلى المدينة، فسلكه بِمَنْ معه حتى دخلها،

فلمّا رأى أهلها الجيش قد صار معهم تفرّقوا فقُتِلوا في كلّ جهة، وذلك لثلاث من ذي الحجّة سنة ثلاث وستّين ثم انتهبوها ثلاثًا وأقاموا بها حتى رأوا هلال المحرم، ثم أخذ مسلم البَيْعة على أهل المدينة أنهم عبيد قيان ليزيد بن معاوية إن شاء أعتق، وإن شاء قتل، ثم ركب مسلم الفاسق ـ لعنه الله ـ وخرج إلى الحرّة يطوف في القتلى، ومعه مروان بن الحكم، فمرّ على عبد الله بن حنظلة وهو مادٌّ أصبعه نحو السماء، فقال: والله لَئِن نصبتها ميتًا لطالما نصبتها حيًا داعيًا إلى الله. ومرّ على إبراهيم بن نعيم فوجد فرجه مستورًا بيده، فقال: والله لَئِن حفظته عند الوفاة لقديمًا حفظته في حال الحياة. ومرّ على محمد بن عمر بن حزم، وهو واضع جبهته على الأرض، فقال: أمَا والله لَئِن كنت على جبهتك بعد الموت لطالما فرشتها لله ساجدًا في طول الحياة، فقال: والله ما هؤلاء إلّا مِنْ أهلِ الجنّة، ثم إنّ مسلمًا حزّ رؤوس القوم وأرسلها إلى يزيد، فيقال: إنه أنشد لمّا أُلْقِيت بين يديه بيت ابن الزّبعرى(١): [الرمل]

لَيْـت أشـيـاخـي بـبـدرٍ شـهـدوا   جـزع الـخـزرج مِـنْ وقـع الأسـلْ

قال الواقدي: قُتِل يوم الحرّة سبعمائة من حَمَلة القرآن، وقيل: قُتِل سبعمائة من قريش والأنصار، وقُتِل ممّن لا يُعرف عشرة آلاف؛ ثم سار مسلم ـ لعنه الله ـ يريد مكّة لقتال عبد الله بن الزُّبير، فلمّا كان بقديد مات فدُفن بالمشلّل، وقيل: بثنية هرشى. وكان موته لسبع بقين من المحرّم سنة أربع وستّين، وفي هذه السنة مات يزيد في الرّابع عشر من ربيع الأوّل وله من العمر ثمان وثلاثين سنة، وكانت مدّة خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، ولمّا مات مسلم جاءت أمّ ولد يزيد بن عبد الله بن زمعة فنبشته وأحرقته، وقيل: بل أخرجته وصلبته، وفيما ذكرنا مِنْ هذه الحروب إقناع يعزّ به المخبر، إذا سَئِم مِنَ المطاولة المُسْتخبر.

وأحسن ما لحق بهذا الفصل وتلاه وصف عظم الجيش ومصارع قتْلاه

أبلغ ما وُصِف به عظم الجيش قول مالك بن الرَّيْب مِنْ أبيات(٢): [الطويل]

بجيش لـهامٍ يشغل الطَّيْر جمعه   عن الأرض حتى ما يجدن منازلا

---

(١) البيت في ديوان عبد الله بن الزبعرى، من قصيدة مطلعها:

يـا غـراب الـبَـيْـن أسـمـعـت فـقـلْ   إنـمـا تـنـطـق شـيـئـًا قـد فُـعِـلْ

(٢) البيت في ديوان مالك بن الريب، وهو بيت منفرد.

السلاميّ[١]: [الكامل]

والجو ستر بالنسور مطير　　والأرض فرشٌ بالخيول مخيّلُ
يهفو العقاب على العقاب فيلتقي　　بين الفوارس أجدل ومجدلُ

ولا مزيد في الحسن على ما قاله أبو تمّام حبيب بن أوْس الطائيّ مِنْ أبيات يمدح بها المعتصم[٢]، جاء منها قوله[٣]: [الكامل]

لمّا رأيت الدِّين يخفق قلبه　　والكفر فيه تغطرس وعرامُ[٤]
أوْريت زند عزائم تحت الدُّجى　　أسْرَجن فكرك والبلاد ظلامُ
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه　　حسن اليقين وقاده الإقدامُ
ملأ الملا عصبًا فكاد أن يرى　　لا خلف فيه ولا له قدامُ
بسواهم لحق الأباطل شزب　　تعليقها الإسراج والإلجامُ
ومقابلين إذا انتموا لم يُخْزِهم　　في نَضرك الأخوال والأعمامُ
تخذوا الحديد مِنَ الحديد مَعاقِلًا　　سكّانها الأرواح والأجسامُ[٥]
مُسْترسلين إلى الحُتوف كأنّما　　بين الحُتُوف وبينهم أرحامُ
آساد موت مخدّرات ما لها　　إلّا الصَّوارم والقنا آجامُ
حتى نقضت الرُّوم عنك بوقعةٍ　　شنعاء ليس لنقضها إبرامُ
في معرك أما الحمام فمفطر　　في هبوتيه والكماة صيامُ
والضّرْب يقعد قرن كل كتيبة　　شرس الضّريبة والحتوف قيامُ
فقصمت عروة جمعهم فيه وقد　　جعلت تفصم عن عُراها الهامُ

(١) البيتان في ديوان السلامي، من قصيدة مطلعها:
يا سيف دين الله ما رضي العدى　　لو أن سيفك مثل عدلك يعدلُ
ورواية البيت الأول في الديوان:
فالروض من زهر النجوم مضرّج　　والأرض فرش بالجياد مخيلُ
(٢) في الديوان المأمون. اهـ.
(٣) الأبيات في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:
دمنٌ ألمّ بها فقال سلامُ　　كم حلّ عقدة صبره الإلمامُ
(٤) قوله: تغطرس في الديوان تغطرف، ومعناهما الكبر، وأسقط بعد قوله: فنهضت، الخ.... (متعجر لزج يرى سلافه) (ويرى بمنخرق الفضاء زحام).
(٥) أسقط بعد قوله: ومقابلين، الخ.... (سفع الذؤب وجوههم فكأنهم وأبوهم سام أبوهم حام). اهـ.

ابن عبد ربّه صاحب العقد(١): [الطويل]

وجيش كظهر اليمّ ينفحه الصّبا ... يعبّ عبابًا من قنا وقنابلِ
فينزل أولاه وليس بنازلٍ ... ويرحل أُخراه وليس براحلِ
ومعترك ضنك تعاطت كُماته ... كؤوس دماء من كِلًى ومفاصلِ
يديروا بها راحًا من الرّوح بينهم ... ببيض رقاق أو بسمر ذوابلِ
وتسمعهم أمّ المنية وسطها ... غناء صليل البيض تحت المَناصلِ

أبو الفرج الببغا(٢): [الكامل]

فإذا الجياد إلى الجياد عوابسًا ... شعثًا ولولا بأسه لم تنفدِ
في جحفل كالسّيْل أو كاللّيْل أو ... كالقطر طافح قطر بحر مزبدِ
متوقّد الجنبات تعتنق القنا ... فيه اعتناق تواصل وتودّدِ
متعجّر بضيا الصّوارم مبرقٌ ... تحت العجاج وبالصّواهل مُرْعدِ
ردّ الظّلام على الضُّحى واسترجع ... الأصباح مِنْ ليلِ الغبار الأزْبدِ
وكأنّما نُقِشت حوافر خَيْله ... للنّاظرين أهلّة في الجلمدِ
وكأنّ طرف الشمس مطروف وقد ... جعل الغبار لها مكان الإثْمدِ

وله(٣): [الخفيف]

في خميس كأنما السمر والأبـ ... ـطال فيه غيله حمته أسودُ
سلب الشّمس ضوأها بشموس ... طالعات أفلاكهنّ جديدُ
عارض كلما تجلّت بروق الـ ... ـبيض حثت على الصّهيل رعودُ

وله(٤): [الكامل]

جيش يفوت الطّرف حتى لا يُرى ... ما غاب مِنْ أطرافه محدودا
ويجيش حتى لا يظنّ عديده ... أحد لكثرة جمعه معدودا

---

(١) الأبيات في ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات في ديوان أبي الفرج الببغا، من قصيدة مطلعها:

سقت العهاد خليط ذاك المعهدِ ... ريًا وحيّا البرق برقة ثهمدِ

(٣) الأبيات في ديوان الببغا، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٤) الأبيات ليست في ديوان الببغا، وهي للناشىء الأكبر في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

فكأنّما جعل الإله روابي ... الأعلام أعلامًا له وبنودا
يقضي على الأعداء خيفة بأسه ... قبل اللّقاء تهدّدًا ووعيدا
وترى وتسمع لمعه وخفوقه ... فتخال فيه بوارقًا ورعودا

آخر: [الطويل]

خميس إذا أخفى سَنا الشّمس نطقه ... أضاء وأبداه الحديد المسرّدُ
تواجهه هوج الرّياح فينثني ... وتحمله الأرض الوقور فيرعدُ

أبو الطّيب المتنبّي[1]: [الطويل]

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أُذن الجوزاء منه زمازمُ
تجمّع فيه كل لسن وأمة ... فما يفهم الحدّاث إلّا التراجمُ

وله[2]: [الطويل]

وذو لجب لا ذو الجناح أمامه ... بناجٍ ولا الوحش المُثار بسالمِ
تمرّ[3] عليه الرّيح هي ضعيفة ... تطالعه من بين ريش القشاعمِ
ويخفى عليك البرق والرّعد فوقه ... من اللّمع في هاماته والجماجمِ

ابن المعتزّ[4]: [الطويل]

وعمّ السماء النّقع حتى كأنّه ... دخان وأطراف الرّماح شرارُ

ابن الساعاتي[5]: [الكامل]

والنّقع ليل والأسِنّة أنجم ... والسّمر غاب والكُماة أُسودُ

---

(١) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

(٢) الأبيات في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
أيا لائمي إن كنت وقت اللّوائم ... علمت بما بي بين تلك المعالم

(٣) قوله: الرّيح في الديوان الشمس، وإسقط بعده: (إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجةً. تدور فوق البيض مثل الدّراهم).

(٤) البيت في ديوان ابن المعتزّ، من قصيدة مطلعها:
شجتك لهند دمنة وديارُ ... خلاءٌ كما شاء الفراق قفارُ

(٥) البيت في ديوان ابن الساعاتي، وهو بيت منفرد.

وصف النّزال والقتلى

وصف أعرابيّ وقعة، فقال: اصطفّوا كجناح الطائر، وشدّوا شدّ الأسد الخادر فما ثنوا أعِنّتهم، ولا صرفوا أسِنّتهم حتى انصرف أعداؤهم. أبو نصر المِكْيالي: دارت رحى الحرب بين أعمار تُباح، ودماء تُستباح، وأجسام تُطاح، وأرواح تُسفى بها الرّياح؛ فالسيوف للهامات دامغة، والرّماح في الأكباد والغة. بعض البُلغاء: طلبنا فلانًا في الوَغى فوجدناه وجسده بالصّفاح منمّق محبر، وبالرماح معجم ومحرّر.

ابن عبد ربّه مِنْ أبْيات[1]: [البسيط]

فكم على النَّهر أوصالٌ مفرّقة ... تقسَّمَتْها المَنايا فهي أشطارُ
قد فلقت بصفيح الهند هامتهم ... فهنّ بين حوامي الخَيْل أعشارُ
وكم بِساحتهم من شلوٍ مطرح ... كأنه فوق ظهر الأرض أجارُ
كأنّما رأسه أفلاق حنظلة ... وساعداه على الزّندين جِمارُ

أبو بكر الخوارزمي[2]: [الوافر]

كتبنا في وجوههمُ سطورًا ... غرائب حبرهنّ دَمٌ هَمُولُ
فترجمها الأعادي للأعادي ... وقرؤها على الحيّ القتيلُ
فما لك غير جمجمة كتاب ... وما لك غير صاحبها رسولُ

ابن الرومي[3]: [الكامل]

كتبت لنا أيدي النّزال صحائفًا ... هجمًا مِنَ الإعراب والإفصاحِ
أطراسها جثث الكُماة وحِبرها ... ممّا أسَلْناه دَمُ الأرواحِ
فالشكل فوق سطورها بصوارمٍ ... والنّقط تحت حروفها برماحِ

---

(١) الأبيات في ديوان ابن عبد ربّه، من قصيدة مطلعها:
كم ألحم السيف في أبناء ملحمة ... ما منهم فوق ظهر الأرض ديارُ
(٢) الأبيات ليست في ديوان أبي بكر الخوارزمي، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) الأبيات ليست في ديوان ابن الرومي، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ابن نباتة(١): [الطويل]

خلقنا بأطراف القنا لظهورهم عيونًا لها وقع السُّيوف حواجبُ

قطع الرؤوس: أحسن ما نُظِم فيها قول الشريف البياضي مِنْ أبيات(٢): [الوافر]

خطبنا بالقَنا مُهَج الأعادي فزُفّت والرؤوس لها نِثارُ

وقول جرير، وإن كان قبله(٣): [الطويل]

كأنّ رؤوس القوم فوق رماحنا غداة الوَغى تيجان كسرى وقيصرا

وقول الآخر: [الكامل]

وكأنما سُمُر الرِّماح معاطفٌ والهامُ فوق صدورهنّ نهودُ

الفصل الثالث من الباب الحادي عشر

في ذمّ التصدّي للهلكة ممّن لا يستطيع بها ملكة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٧١]. وقد رُوِي أنّ عمر رضي الله عنه حين كره طواعين الشام أراد الرّجوع إلى المدينة، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين أتفرّ مِنْ قدر الله؟ قال: نعم إلى قدر الله، فقال له: أيمنع الحذر القدر؟ قال: لست مما هناك في شيءٍ إنّ الله لا يأمر بما لا ينفع، ولا ينهى عمّا لا يضرّ؛ فإنّه يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٧١]. وقالوا: الشّجاعة تغرير، والتغرير مفتاح الهَلَكة. وقال يزيد بن المهلّب: الإقدام على الهَلَكة تغريرٌ، والإحجام عن الفرصة جُبْن؛

---

(١) البيت في ديوان ابن نباتة السعدي، من قصيدة مطلعها:

رضينا وما ترضى السيوف القواضبُ نجاذب بها عن هامكم وتجاذبُ

(٢) البيت للموسوي في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٢٩٢١.

(٣) البيت لجرير في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، للآمدي، ص ١٠٤، وليس في ديوانه.

وأنشدت لطاهر بن الحسين: [البسيط]

ركوبك الأمر ما لم تُبْدِ فُرْصته جهلٌ ورأيك في الإقحام تغرير
فاعمل صوابًا وخذ بالحزم مأثرة فلن يذمّ لأهل الحزم تدبير

ويقال: أهْوَت إلى يزيد بن المهلّب حيّة فلم يتوقها، فقال له أبوه: ضيّعت الحزم مِنْ حيث حفظت الشجاعة. الشريف الرَّضيّ[1]: [البسيط]

العزم في غير وقت العزم مُعجزة والازدياد بغير العقل نقصان

ويقال: مَنْ قاتل بغير نجدة، وخاصم بغير حجّة، وصارع بغير قوّة، فقد أعظم الخطر وأكبر الغرر. وقال بعض الحكماء: مَنْ أعرض عن الحذر والاحتراس وبنى أمره على غير أساس زال عنه العزّ، واستولى عليه العجز، فصار مِنْ يومه في نحسٍ، ومِنْ غده في لبس. وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوّه على كلّ حال، يحذّر مواثبته إن قرب، وغارته إنْ بَعُد، وكمينه إن تبع، ومكره إن انفرد، واستطراده إذا ولّى. وقال أبو بكر الصدّيق يحذّر خالد بن الوليد رضي الله عنهما: إذا دخلت أرض العدوّ فكُنْ بعيدًا مِنَ الحَمْلة، فإنّي لا آمن عليك الجولة، واسْتَظْهِر بالزّاد وسِرْ بالإدلال، ولا تُقاتل مجروحًا، فإنّ بعضه ليس منه، واحترس مِنَ الثّبات، فإنّ في القُرْب غمرة، وأقْلِل الكلام فإنّ ما لك إلّا ما وعى عنك، واقبل مِنَ الناس علانيتهم، وكِلْهم إلى الله في سريرتهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه. وقال الشاعر[2]: [الطويل]

ومَنْ يأمن الأعداء لا بدّ أنّه سيَلْقى بهم في موقف الموت مَصْرعا

وقالوا: الإقدام على الهَلَكة تضييع، كما أن الإحجام عن الفرصة عجز. وقيل لعنترة العبسيّ: أأنت أشجع العرب وأشدّها؟ قال: لا، قيل: فَبِمَ شاع هذا في الناس؟ قال: كنت أقدم إذا كان الإقدام عزمًا، وأحجم إذا كان الإحجام حزمًا،

---

(١) البيت في ديوان الشريف الرضيّ، من قصيدة مطلعها:

أسل بدمعك وادي الحيّ إن بانوا إنّ الدموع على الأحزان أعوانُ

(٢) البيت لتأبط شرًا في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول نصل أن يلاقي مجمعا

ورواية البيت في الديوان:

ومن يغر بالأبطال لا بدّ أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

ولا أدخل موضعًا لا أرى لي فيه مخرجًا. وسُئِل بعض الشجعان: هل شيءٌ أضرّ مِنَ التّواني؟ قال: الاجتهاد في غير وقته. وقال جعفر بن ميسرة: مَنْ مكّن أسباب الهَلَكة مِنْ نفسه طائعًا لم يكد يتخلّص منها وإنْ كان جاهدًا. وقال بعض الحكماء لصديقٍ له: اعلم أنّ الفطنة إظهار الغفلة مع شدّة الحذر، فبات مباتة الآمن، وتحفّظ منه تحفُّظ الخائف، ولا تُظْهر له المخافة فيرى أنْ قد حذرت فيهون عليه ما يستهوله منك. ويقال: إذا أخذ المَرْء بالحذر والاحتراس في موضع الشدّة، وعمل على الجرأة والإقدام عند انتهاز الفرصة، فقد أخذ بالحزم في شدّته، وعمل بالحزم عند فرصته. وقال بعض الفلاسفة: كُنْ حذرًا كأنّك غرّ، فطنًا كأنك غافل، وذاكرًا كأنّك ناسٍ. وقال بعضهم: [الرجز]

مَنْ أخذ الحذر مِنَ المحذور ... قلّ تجنّيه على الدُّهورِ
فَلْيَحزم الحازم في الأُمور ... فإن كبا فالعذر للمعذورِ

آخر: [الطويل]

على كلّ حالٍ فاجعل الحزم عدّة ... تذمّها عند النّوائب في الدّهرِ
فإن نِلْتَ حظًّا نِلْتَه بعزيمة ... وإنْ قصّرت عنك الحظوظ فعن عُذْرِ

ومما يكون عمدة عند لقاء الأبطال
التفكّر في أعمال الاحتيال وإنْ طال

قالت الحكماء: الحازم يحتال للأمر الذي يخافه لعلّه أن لا يقع فيه، فليس من القوّة التورّط في الهوّة، ومن لم يتأمّل العواقب بِعَيْن عقله لم يقع سيف حيلته إلّا على مقاتله. وأنشد لتأبّط شرًّا[1]: [الطويل]

إذا المَرْء لم يحتل وقد جدّ جدّه ... أضاع وقاسى الصَّعْب وهو مُقصّرُ
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلًا ... به الأمر إلّا وهو للقصد مُبْصرُ

(١) البيتان ليسا في ديوان تأبط شرًا، وهما للسهروردي المقتول في ديوانه، من ثلاثة أبيات، هي:

إذا المرء لم يحتل وقد جدّ جدّه ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبرُ
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً ... به الأمر إلاّ وهو للقصد مبصرُ
فذاك قريع الدّهر ما عاش حوله ... إذا سدّ منه منخرٌ جاش منخرُ

ويقال: إذا اتّسع لك المنهج، فاحذر أن يضيق عليك المخرج. وقال الشاعر: [الكامل]

وإذا هَمَمْتَ ورود أمرٍ فالْتَمِس ... مِنْ قبل مورده طريق المَخْرجِ

آخر[١]: [الطويل]

وإيّاك والأمر الذي إنْ توسّعت ... موارده ضاقت عليك المصادرُ

فما حسن أن يعذر المَرْءِ نفسه ... وليس له مِنْ سائر الناس عاذرُ

ويقال: تفكّر قبل أن تعزم، وتدبّر قبل أن تهجم؛ فإنه مَنْ لم ينظر في العواقب فقد تعرّض لحادثات النّوائب. ووجد على حجرٍ بِعَدَن أبين مكتوب: أيّها المحارب احذر تَغْنم، وتفكّر في العواقب تَسْلم. ويقال: الناس حازمان وعاجز، فأحزم الحازمين من عَرَف بالأمر قبل وقوعه فاحْتَرِس منه، والحازم بعده مَنْ إذا نزل الأمر تلقّاه لبالرّأي والحيلة حتى يخرج منه، والعاجز مَنْ تردَّد بين وبين لا يأتمر رشدًا ولا يطيع مرشدًا حتى تفوته النّجاة. ويقال: ترك التقدّم أحسن من التندّم. وأوصى عبد الملك بن صالح أميرًا قدّمه على سريّة أرسلها إلى قتال عدوٌ له، فقال: كُنْ كالتاجر الكيّس إنْ وجد ربحًا تجر، وإلّا حفظ رأس ماله، ولا تطلب الغنيمة حتى تحمد السّلامة، وكُنْ في احتيالك على عدوّك أشدّ حذرًا من احتيال عدوّك عليك. وقالوا: ما تنفق فيه الأموال والحِيَل خيرٌ مما تنفق فيه الأرواح والنفوس. وأوْصت أمّ الدبال العبسيّة ولدها الفتّاك ـ وكان مِنْ أشدّ العرب ـ فقالت: يا بنيّ لا تنشب في حرب وإنْ وثقت بشدّتك حتى تعرف وجه المهرب، فإنَّ النفس أقوى ما تكون إذا وجدت سبيل النجاة مُدْبرة لها، واخْتَلِسْ مَنْ تحاربه خلسة الذّئب، وطِرْ منه طيران الغراب، فإنَّ الحذر زمام الشجاعة، والتهوّر عدوّ الشدّة. وقال أبو السّرايا ـ وكان أحد الفُتّاك ـ: يا بنيّ كُنْ بحيلتك أوْثق منك بشدّتك، وبحذرك أوثق منك بشجاعتك؛ فإنَّ الحرب ورطة المتهوّر، وغنيمة المتفكّر. ويقال: لا تصلح الحزامة إلّا لمن كان له سبع خِصال من طبائع البهائم: قلب الأسد، وغارة الذّئب، وصبر النّسر، وحذر الغُراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام، وحماية الزّنبور.

---

(١) البيتان لمضرس بن ربعي الأسدي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

ومما يجب مع التفكّر على المحارب
مشاورة النُّصحاء مِنْ أُولي التجارب

قد كنّا قدّمنا في صدر الكتاب ما يجب على العاقل مِنْ مشورة نصحائه في سائر أنحائه، وأنا ذاكر في هذا الباب ما يجب على الحازم مِنْ مشورة أوِدّائه في كيفية لقاء أعدائه، فإنّهم قالوا: ينبغي لكل ذي لبّ أن لا يُبْرم أمرًا، ولا يمضي عزمًا إلّا بمشورة ذي الرّأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الرّاجح. وقالوا: الحازم إذا اشتبهت عليه مصادر الأمور جمع مِنْ أهل التجارب وجوه الرّأي حتى يخلص له منها الصواب؛ كالعاقل إذا ضلّت له لؤلؤة، فإنه إذا جمع ما حول مسقطها والتمسها يوشك أن يَجِدها. وقالوا: مِنْ حقّ العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحُكماء. وقال بشار بن بُرد: المشاور بين إحدى الحسنيين: إمّا صواب، فيفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه. وقالوا: الرّأي السّديد خيرٌ مِنَ الأسد الشّديد. وكان يقال: المشورة سلم النجاح وطليعة الفلاح. وقالوا: الرّأي في الحرب أنفع من الطّعن والضّرب. وقال بعض الأعراب: ما عثرت قطّ حتى عثر قومي، قيل له: وكيف؟ قال: لا أفعل شيئًا حتى أُشاورهم. وقالوا: حقيقٌ أن يُوكل إلى نفسه مَنْ أُعْجب برأيه. ولقد أحسن أبو الطيّب أحمد بن الحسين المتنبّي في التحريض على مشاورة الإخوان عند مساواة الأقران، بقوله[1]: [الكامل]

الرّأي قبل شجاعة الشّجعان ... هو أوّل وهي المحل الثاني
إذا هما اجتمعا لنفس حرّة ... بلغت مِنَ العَلْياء كلّ مكانِ
فلربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقرانِ

ولبعضهم[2]: [البسيط]

الرّأي كالسيف يَنْبو إنْ ضربت به ... في غَمْده وإذا جرّدته قطعا

---

(١) الأبيات في ديوان المتنبي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) البيت لمروان بن أبي حفصة في التشبيهات، لابن أبي عون، ص ٥٧٠؛ والتمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٣٩٣؛ ومعجم الشعراء، للمرزباني، في ترجمته.

آخر(١): [الطويل]

أُشاور أهل الرّأي فيما يَنُوبني وإنْ كان لي رأي أحذ صليبُ
ولا أدّعي بالغَيْب علمًا لسائل ولا أحسد المسؤول حين يُجيبُ

آخر: [البسيط]

إذا بدا لك وجه الرّأي فازم به نحو اخترام تحاماه المقاديرُ
ولا تقل غرر أخشى عواقبه يومًا فكلّ نجاة القوم تغريرُ

وذكر الحصري في كتابه زَهْر الآداب وثمر الألباب: أنّ قومًا مِنَ العرب أتوا شيخًا لهم قد أربى على الثمانين وأهدف التسعين، فقالوا: إنْ عدوّنا استاق سرحنا، فأشِرْ علينا بما ندرك به الثأر وننفي به العار؟ فقال: إنّ ضعف قوّتي فسخ هِمّتي، ونقض إبرام عزيمتي، ولكن شاوروا الشُجعان من ذوي العزم والجبناء من أولي الحزم، فإنّ الجبان لا يَألوا برأيه ما وَقَى مُهَجكم، والشجاع لا يَألوا ما يشيد ذكركم؛ ثم اخلصوا مِنَ الرّأيين نتيجة تبعده عنكم معرّة الجبان وتهوّر الشجعان، فإذا نجم الرأي على هذا كان أنفذ على عدوّكم مِنَ السّهم الصّائب، والحسام القاضب؛ فللّه هذه الكلمات لو يجدها الجبان جنّة لوقته أو هاديًا أرّته مواطن العواقب ووفّقته.

وملاك التحيّل في بلوغ الأماني رفض العجلة واستعمال التّواني

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعطي حظّه من الرّفق أُعْطي حظّه من الدنيا والآخرة، ومن حُرِم حظّه من الرّفق فقد حُرِم حظّه مِنَ الدُنيا والآخرة»(٢). وقال عليه الصّلاة والسّلام لعائشة رضي الله عنها: «عليكِ بالرّفق، فإنّ الرّفق لا يُخالط شيئًا إلّا زانه، ولا يُفارق شيئًا إلّا شانه»(٣). وقال عمر رضي الله عنه: التُؤدة في كلّ شيء إلّا ما كان مِنْ عمل الآخرة. وقال

---

(١) البيتان للخريمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أسرُ خليلي شاهدًا وأبرّه وأحفظه بالغيب حين يغيبُ

(٢) أخرجه الترمذي في البرّ باب ٦٧، وأحمد في المسند ٦/ ١٥٩، ٤٥١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٨، والدعوات باب ٦٣، ومسلم في البرّ حديث ٧٩، وأحمد في المسند ٣/ ١٩٩.

الشاعر: [الكامل]

الرّفق يُمْن والأناة سعادةٌ ليس النّجاح لمن يطيش ويخرقُ

آخر: [البسيط]

وفي الأناة إذا ما جدّ صاحبها حزمٌ ويعقبها التّفريط والخرقُ

وفي التوراة: الرّفق رأس الحكمة. وقالوا: فِعْل اللّبيب ثمرته السّلامة. وُجِد على سيفٍ مكتوب: التأنّي فيما لا يخاف فيه الفوت أفضل مِنَ العجلة إلى إدراك الأمل. وقال بعض الحُكماء: تأنّ تحزم، وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا: يَدُ الرّفق تجني ثمر السّلامة، ويد العجلة تغرس شجر النّدامة.

أبو الفتح البستي[١]: [السريع]

تأنّ في الشّيْء إذا رُمْته لتعرف الرّشد مِنَ الغَيّ
لا تتبعنّ كل دخان ترى فالنارُ قد تُوقَد للكيّ
وقِسْ على الشيء بأشكاله يدلّك الشيء على الشّيّ

وقال بِشْر بن مروان لأهله: إذا التبست عليك الخُطوب، وغاب عنك المورود، وأشكل عليك المصدر فيه؛ فالأناة الأناة، ولْيَكُنْ أمرك حزمًا، وإذا استبان لك فعزمًا. وقال محمد بن هانيء الأندلسيّ[٢]: [الطويل]

وكلّ أناةٍ في المواطن سؤدد ولا كأناةٍ مِنْ قدير محكّمِ
وما الرّأي إلّا بعد طول تثبّتٍ ولا الحَزْم إلّا بعد طول تلوّمِ

القطاميّ[٣]: [البسيط]

قد يدرك المتأنّي نجح حاجته وقد يكون مع المستعجل الزّلَلُ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي الفتح البستي، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) البيتان في ديوان ابن هانيء الأندلسي، من قصيدة مطلعها:
أصاخت فقالت وقع أجرد شيظم وشامت فقالت لمع أبيض مخذمِ

(٣) البيت في ديوان القطامي، من قصيدة مطلعها:
إنا محيّوك فاسلم أيها الطللُ وإن بليت وطالت بك الطيَلُ

آخر[1]: [البسيط]

وربما فات قومًا جلّ أمرهم من التأني وكان الحزم لو عجلوا

وقالوا: الأناة حصن السّلامة، والعجلة مفتاح النّدامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظّفر بالأناة، فبماذا يُدرك؟ وقال المهلّب بن أبي صفرة، واسم أبي صفرة ظالم بن سراق: أناة في عواقبها دَرْك خيرٌ مِنْ عجلة في عواقبها فوت.

ومِنْ أمثالهم: اتّئِدْ تُصِب أو تَكَد. وقولهم: مَنْ تأنّى أدرك ما تمنّى. وقولهم: الرّفق مفتاح النّجاح. وقال بعض الحكماء: إيّاك والعجلة، فإنها تكنى أمّ الندامة؛ لأنَّ صاحبها يقول قبل أن يَعلم، ويُجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يقدّر، ويحمد قبل أن يجرّب، ويُذمّ قبل أن يُخبر، ولن تصحب هذه الصّفة أحدًا إلّا صحب الندامة، وجانَب السّلامة.

وهذه نبذة يسيرة في الصبر:

فمِمّا يُنْسَب لعليّ رضي الله عنه[2]: [البسيط]

إنـي رأيـت وفـي الأيـام تـجـربـة لـلصّـبـر عـاقـبـة مـحـمـودة الأثـرِ
وقـلّ مَـنْ جـدّ فـي أمرٍ يـحـاولـه واسْتَصحب الصّبر إلّا فاز بالظّفرِ

آخر[3]: [المنسرح]

ما أحسن الصّبر في مواطنه والصّبر في كلّ موطن حسنُ
حَسْبك من حُسْنه عواقبه عواقب الصبر ما لها ثمنُ

آخر[4]: [مخلع البسيط]

الصّبر مفتاح ما يُرجّى وكل صعبٍ به يكونُ
فاصبروا وإن طالت اللّيالي فربّما أمكن الحُزُونُ
وربما نِيلَ باصطبار ما قيل هيهات لا يكونُ

---

(١) البيت للقطامي في ديوانه من القصيدة نفسها المتقدمة في الحاشية السابقة.

(٢) البيتان في ديوان علي بن أبي طالب، من قصيدة مطلعها:

اصبر على مضض الإدلاج في السحرِ وفي الرواح إلى الحاجات والبكرِ

(٣) البيتان بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٥٥٧.

(٤) الأبيات لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ويقال: الصّبر مفتاح النّصر. ويقال: النّصر في مطاوي الصّبر. ويقال: مَنْ تصبّر تبصّر. وقال الصابي: حظّ الطالبين من الدُّرْك بحسب ما استصحبوه مِنَ الصبر. وأنشدت لبعض الشعراء: [الطويل]

إذا كنت في أمرٍ ولم ترَ حيلة فصَبْرك إنّ النّجح يدرك بالصَّبرِ
كذاك عُيون الماء تكدّر مرّة وتصفو مرارًا هكذا عادة الدّهرِ

ابن منقذ[١]: [الكامل]

لا تستكن للهمّ واثن حمامه بعزيمةٍ في الخَطْب لا تتضعضعُ
فإذا أتى ما ليس يدفع فألْقه بالصَّبر فهو دواء ما لا يُدفعُ

ومِنْ أحسن ما قيل فيه[٢]: [الطويل]

أمَا والذي لا خلد إلّا لوجهه ومَنْ ليس في العزّ المَنيع له كفوُ
لَئِن كان بدء الصّبر مُرًّا مذاقه لقد يجتنى من غبّه الثّمر الحلوُ

آخر: [البسيط]

اصبر على مضضِ الأدلاج في السَّحَر وفي الرَّواح إلى الحاجات والبكرِ
لا تضجرنّ ولا يعجزك مطلبها فالنُّجح يتلف بين الصَّبر والضجرِ

---

(١) البيتان لأسامة الشيزري في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان بلا نسبة في أمالي أبي علي القالي، ص ١٩٢.

الباب الثاني عشر
في الجبن

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب
في أنّ خلّتي الجبن والفرار مما يشين بني الأحرار

الجبن غريزة كالشجاعة يضعها الله فيمن شاء من خلقه. قال المتنبّي[1]: [الوافر]

يرى الجبناء أنّ الجبن حزم ... وتلك خديعة الطّبع اللّئيم

وحدّه بعض المتكلّمين في حدود الأشياء، فقال: هو الضنّ بالحياة، والحِرْص على النّجاة. وقالت الحُكماء في الفراسة: مَنْ كانت فزعته في رأسه فذاك الذي يفرّ مِنْ أبويه. وقالوا: الجبان يُعِين على نفسه يفرّ من أمّه وأبيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تُؤْويه. وقال الشاعر[2]: [الطويل]

يفرّ الجبان مِنْ أبيه وأمّه ... ويحمي شجاع القوم مَنْ لا يناسبُهْ

فمما اخترت من كلام ذوي الإقدام
فيما عِيب به الفرار والإحجام

قالت عائشة رضي الله عنها: إنّ لله خلقًا قلوبهم كقلوب الطّير؛ كلّما خفقت الريح خفقت معها، فأُفٍّ للجُبناء. وقال خالد بن الوليد عند موته: لقيت كذا وكذا زحفًا وما في جسدي موضع إلّا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم،

---

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

(٢) البيت بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٢٢٢.

وها أنا ذا أموت حَتْف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعْيُن الجُبَناء. شاعر[١]: [الخفيف]

إن مـوت الـفـراش عـارٍ وذلّ وهو تحت السيوف فضلٌ شريفُ

السَّمَوْأل[٢]: [الطويل]

وما مات منّا سيّد حَتْف أنفِهِ ولا طلّ منّا حيث كان قتيلُ
تَسِيل على حدّ الظُّباء نفوسنا وليست على غير الظُّباء تَسيلُ

آخر يفتخر: [الطويل]

محرمة إكفال خَيْلي على القنا ومكلومةٌ أعناقها ونُحُورُها
حرامٌ على أرماحنا طَعْن مُدْبرٍ وتندقّ منّا في الصدور صدورُها

ويقال: أسرع الناس إلى الفتنة أقلّهم حياءً مِنَ الفرار. وقال دارا بن دارا يحرّض جيشه على القتال: قتيلٌ صابر خيرٌ من ناج فارّ، يا بني الأحرار صرتم إلى الذلّ والصَّغار، ما هذا الجبن والفرار، فلا صبر ولا اعتذار، تطردكم الأشرار كطرد اللّيل والنهار، اثبتوا فإنّ الأجل بمقدار. وقال هانىء الشّيباني لقومه يوم ذي قار: يا بَنِي بكر هالك مغدور خيرٌ مِنْ ناجٍ فرور، المنيّة ولا الدَّنيّة؛ يا بني بكر استقبال الموت خيرٌ مِنْ اسْتِدْباره، الطّعن في ثغور النّحور أكرم منه في الأعجاز والظهور؛ يا بني بكر قاتلوا فما لنا من المنايا بدّ، الجبان مُبْغض حتى لأمّه، والشّجاع مُحبّب حتى لعدوّه. ويقال: الجبن خير أخلاق النّساء، وشرّ أخلاق الرّجال. وقال يعلى بن منية لقومه حين فرّوا من عليّ يوم صفّين: إلى أين؟ قالوا: قد ذهب الناس، فقال: أفّ لكم فرار واعتذار. ولمّا قُوتِل أبو الطيّب المتنبّي، ورأى الغلبة عليه فرّ، فقال له غلامه: أترضى أن يحدّث بها الفرار عنك؟ وأنت القائل[٣]: [البسيط]

والخيل واللّيل والبَيْداء تعرفني والطّعن والضّرب والقرطاس والقلمُ

---

(١) البيت لبكر بن عبد العزيز في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.

(٢) البيتان في ديوان السموأل بن عادياء، من قصيدة مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميلُ

(٣) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

واحرّ قلباه ممن قلبه شبمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ

فكرَّ راجعًا فقاتل حتى قُتِل، واستقبح أن يُعيّر بالفرار، وذلك في شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وكان مولده بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة.

وقال المنصور لبعض الخوارج عليه وقد ظفر به وأُحضر إليه أسيرًا: أخبرني عن أصحابي أيُهم كان أشدّ إقدامًا في مبارزتك؟ فقال: لا أعرف وجوههم مُقْبِلين، وإنّما أعرف أقْفيتهم مُدْبرين، فقل لهم يُدْبرون لأعرّفك أيّهم كان أشدّ فرارًا؛ نظم هذا القول عليّ بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي في قوله يهجو سليمان بن عبد الله بن طاهر، وقد هُزِم[1]: [المنسرح]

قرن سليمان قد أضرّ به	شوقٌ إلى وجهه سيُتْلِفُه
أعرض عن قرنه وصدّ فما	أصبح شيءٌ عليه يعطفُه
كم يعد القرن باللّقاء وكم	يكذب في وعده ويخلفُه
لا يعرف القرن وجهه ويرى	قفاه من فرسخٍ فيعرفُه

وله مِنْ أبيات[2]: [السريع]

كأنّ بغداد لدُنْ أبصرت	طَلْعته نائحة تَلْتدمْ
مُسْتقبل منه ومُسْتدبر	وجهٌ بخيل وقفا مُنْهزمْ

وقال عبد الله بن الزبير لعديّ بن حاتم يعرّض به: متى فقئت عينك؟ قال: يوم طُعِنْت في إستك وأنت مُولٍّ - يعني يوم الجمل - وقيل: بل قال له: يوم قُتِل أبوك وهربت خالتك - يعني عائشة - وأنا للحقّ ناصر وأنت له خاذل.

وقال شاعر يذكر فارًا[3]: [السريع]

شرّده الخوف فأزرى به	كذاك مَنْ يكره حرّ الجلادْ
مُنْخرق الخُفّين يشكو الوَحى	لم تَبْكه أطراف مرو حدادْ
قد كان في الموت له راحة	والموت حقًّا في رِقاب العِبادْ

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول مطلع القصيدة. وفي الديوان: «سيدنفُه»، بدل: «سيتلفُهُ».

(٢) البيتان في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

جاء سليمان بني طاهر	فاجتاح معتز بني معتصم

(٣) الأبيات بلا نسبة في الروض المعطار، لابن عبد المنعم الحميري، في مادة (الكناسة).

نتف من احتجاج الفرسان عند ملاقاة الأقران في أنّ دروع الحذر تخرقها سِهام القدر

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٨]. وقال عليّ رضي الله عنه: إذا حَلّت المقادير حلّت التقادير. وقال هانىء بن مسعود الشيباني: إن الحذر لا يُنْجي من القدر، وإن الصّبر مِنْ أسباب الظّفر. والمثل المضروب: إن الجبان حتفه مِنْ فوقه. وقالوا: السّلامة في الإقدام، والحمام في الإحجام؛ وأنشد في الحماسة لقطري بن الفجاءة[1]: [الكامل]

لا تَـرْكُـنَـنْ أبـدًا إلـى الإحـجـامِ ... يـوم الـوَغـى مـتـخـوّفًـا لـحـمـامِ
فـلـقـد أرانـي لـلـرمـاح دريـئـة ... مِـنْ عـن يـمـيـن تـارة وأمـامـي
حتى خضبت بما تحدّر مِنْ دمي ... أكتاف سرجي أو عَنان لجامي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ... خـدع الـقـريـحـة قـارح الإقـدامِ

وقال أبو بكر الصدّيق لخالد بن الوليد رضي الله عنهما حين أخرجه لقتال أهل الرّدّة: احرص على الموت تُوهب لك الحياة. وقالوا: إذا انْقضت المدّة لم تنفع العدّة. وقال عليّ رضي الله عنه: إنّ الموت طالب حثيث لا يعجزه المقيم ولا يفوته الهارب، إن لم تقتلوا تَموتوا، ألّا وإنّ أشرف الموت القتل. وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه[2]: [الرجز]

يـا نـفـس إن لـم تـمـوتـي ... إن تـسـلـمـي الـيـوم فـلـن تـفـوتـي
أو تَـبْـتـلـي فـطـالـمـا عُـوفِـيـتـي

وقيل لبعضهم: لو احترست؟ فقال: كفى بالأجل حارسًا. وقالوا: الشجاع موقّى والجبان مُلْقى، وذلك أن المقتول مدبرًا أكثر مِنَ المقتول مُقْبلًا.

وأنشد لبعض الشجعان[3]: [الطويل]

تـأخّـرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لـنـفـسـي حـيـاةً مـثـل أن أتـقـدّمـا

---

(١) الأبيات في ديوان قطري بن الفجاءة، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) الرجز في ديوان عبد الله بن رواحة، من أرجوزة مطلعها:

مـا أنـت إلا إصـبـع دمـيـتِ

(٣) البيت لشبيب بن البرصاء في ديوانه، من قصيدة مطلعها: =

آخر(١): [الوافر]

أقول لها وقد ذهبت شجاعًا لدى الأبطال أنك لن تراعي
فإنك لو سألتِ بقاء يوم على الأجل الذي لك لن تُطاعي
فصبرًا في مجال الحرب صبرًا فما نَيْل الخلود بمُسْتطاعِ

وهرب رجل مِن الطاعون إلى النّجف، وكان بالكوفة، فكتب إليه شريح القاضي: أمّا بعد، فإنّ الفرار لن يبعد أجلًا ولن يُكْثر رزقًا، وإن المقام لن يقرّب أجلًا ولن يقلّل رزقًا، وإنك والمكان الذي أنت فيه لا يعيبان مَنْ لا يعجزه هرب ولا يفوته طلب، وإن المكان الذي خلفته لا يعجل أحدًا إلى حمامه، ولا يظلمه شيئًا من أيّامه، وإن النّجف من ذي قدرة لقريب، وهذا الطاعون هو الجارف وكان في شوّال سنة تسع وستّين هلك فيه في مدّة ثلاثة أيام مائتا ألف وعشرة آلاف. ومات فيه لأنس بن مالك ثلاثة وثمانون ولدًا، ولعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدّيق أربعون ولدًا، وأنشد بعض الشعراء يذكر فارًا أُصيب(٢): [المنسرح]

أبعدت في يومك الفرار فما جاوَزْت حتى انتهى بك القدر
لو كان ينجي من الرَّدى حذرٌ نجّاك مما أصابك الحذرُ

آخر(٣): [الكامل]

فإذا خشيت من الأُمور مُقَدّرًا وفررت منه فنحوه تتوجّهُ

ولمّا وقع الطاعون بالكوفة فرّ عبد الرحمٰن بن أبي ليلى على حمارٍ له يطلب النّجاة، فسمع مُنْشدًا يقول(٤): [الرجز]

لن يسبق الله على حمارِ ولا على ذي مَنْعة طيّارِ
أو يأتي الحَتْف على مِقْدارِ قد يصبح الله أمام الساري

= دعاني حصن للفرار فساءني مواطن أن يثني عليّ فاشتما

(١) الأبيات لقطري بن الفجاءة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية عجز البيت الأول في الديوان:

من الأبطال ويحك لن تراعي

(٢) البيتان لابن كناسة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) البيت لابن الرومي في التذكرة الحمدونية، لابن حمدان، وليس في ديوانه.
(٤) الرجز بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.

فكرّ راجعًا إلى الكوفة. ومِنْ كلام الحُكَماء: إذا كان القدر حقًا فالحرص باطل، وإذا كان الموت بكلّ أحد نازل فالطمأنينة إلى الدُّنيا حُمْق. وكان معاوية بن أبي سفيان كثيرًا ما يُنْشد في حروبه[1]: [المتقارب]

أكـان الـجـبـان يـرى أنـه يُـدافـع عـنـه الـفـرار الأجـل
فـقـد تـدرك الـحـادثـات الـجـبـان ويَـسْـلـم مـنـهـا الـشّـجـاع الـبـطـل

ويقال لمن حدّث نفسه بالبقاء ولم يوطّنها على المصائب، فهو عاجز الرأي.

وأنشدت لأبي عليّ بن رشيق القَيْرواني[2]: [مخلع البسيط]

الأسـر خَـيْـرٌ مِـنَ الـفـرار والـقَـتْـل خـيـرٌ مـن الأسـارِ
وشـرّ مـا خـفـتـه حـيـاة أدّت إلـى ذِلّةٍ وعـارِ

ذمّ مَنْ لزمه الضعف والجزع واستولى عليه الخوف والفزع

قيل لبشار بن بُرْد: فلان يزعم أنه لا يبالي ألَقِيَ واحد أو ألفًا، قال: صدق؛ لأنه يفرّ من الواحد كما يفرّ مِنَ الألف. وقالوا: فلان إذا ذُكِرَت السيوف لمس رأسه هل ذهب، وإذا ذُكِرَت الرّماح حَبَس صدره هل ثُقِب؛ كأنّه سُلّم كتاب الجُبْن صبيًا ولُقّن كتاب الفشل أعجميًا. وقالوا: فلان تقلّصت من الفزع شفتاه، واصْفرّت مِنَ الهَلَع وَجْنتاه. وقالوا: فلان إذا نظرت إليه شزرًا أُغْمِي عليه شهرًا.

ومِنْ أمثالهم: أجْبَن كمن صافر وهو طائر يتعلّق برجليه في الشجر خَشْية أن ينام فيسقط، وقيل غير ذلك: وأشرد من ظليم، وهو ذكر النّعام. ويُنْشَد لعبد القيس بن خفاف يهجو جبانًا[3]: [الوافر]

وهـم تـركـوك أسـلح مـن حُـبـارى رأتْ صـقـرًا وأشْـرد مـن ظـلـيـمِ

وممّا هو كناية عن الجبن قولهم: فلان مُشفق على الحياة راغبٌ في طولها. وذمّ بعضهم جبانًا، فقال: لو سمّيت له الحرب لعافَ لفظها قبل مَعْناها، واسمها

---

(١) البيتان بلا نسبة في شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، ص ٣٠٠.

(٢) البيتان في ديوان ابن رشيق القيرواني، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيت لأوس الهجيمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

جـلـبـنـا الـخـيـل مـن جـنـبـي أريـك إلـى أجـلـي إلـى ضـلـع الـرجـامِ

وفي الديوان: «أشرد من نعامٍ»، بدل: «أشرد من ظليم».

قبل مسمّاها. وذمّ آخر جبانًا، فقال[1]: [الطويل]

إذا صوّت العصفور طار فؤاده ولَيْث حديد الناب عند الشرائدِ

وذمّ آخر جبانًا، فقال: فلان يزحف يوم الزّحف إلى خلف، ويُروّعه الواحد وهو في ألف. وذمّ آخر جبانًا، فقال[2]: [البسيط]

لو كنت في ألفِ ألفِ كلّهم بطل مثل المُجفّف داود بن حمدانِ
وتحتكَ الريح تجري حيث تأمرها وفي يمينك سيف غير خوّانِ
لكنت أوّل فرّار إلى عدنٍ إذا تجرّد سيف في خراسانِ

ذكر مَن لاقى في الحروب الحرب فطوى بساط الأرض مُجِدًّا في الهرب

أبو الطيّب المتنبّي يذكر مهزومين[3]: [البسيط]

وضاقت الأرض حتى أنّ هاربهم إذا رأى غير شيء ظنّه رجلا

وقالوا: فلان يفرّ من صرير الباب، وطنين ذباب، فلان ولّى منهزمًا قد سدّ الله في وجهه كل طريق؛ فكأنّما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق. وقال الحجّاج يصف هزيمة: كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النّوازع إلى أعطانها، لا يلوي الشيخ على بَنِيه، ولا يسأل المرء عن أخيه. وقالوا: فلان أزهد في الحرب من بني العنبر، وأدهش من مستطعم الماء على المنبر، فإما بنو العنبر فهم الذين يقول قائلهم مِنْ أبيات الحماسة[4]: [البسيط]

لكنّ قومي وإنْ كانوا ذوي عددٍ ليسوا من الشرّ في شيء وإنْ هانا
يُجْزون من ظُلم أهل الظُّلم مغفرة ومِنْ إساءة أهل السوء إحسانا
وكأنّ ربك لم يخلق بخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

---

(١) البيت بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٤٠٤؛ ولمالك بن حرثان في مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٩٠.

(٢) الأبيات بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، ص ١٣٧٠.

(٣) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

حيّا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبَيْن جارٍ على ضعفي وما عدلا

(٤) الأبيات لقريط بن أنيف في خزانة الأدب ٧/ ٤٤١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٠.

وأمّا مستطعم الماء فهو عبد الله بن خالد القسري، وسنذكر أمره في الفصل الآتي إن شاء الله. وأظرف شيء هُجِي به جبان قول الطرمّاح بن بكر في بني تميم مِنْ أبيات[(١)]: [الطويل]

ولو أنّ بَرْغوثًا على ظهر قملةٍ رَأَتْه تميم يوم حرب لولَّتِ
ولو جمعت يومًا تميم جموعها على ذرّة معقولة لاستقلَّتِ

ولآخر يهجو قومًا جبناء: [الطويل]

أسودٌ إذا ما كان يوم وليمة ولكنّهم عند اللّقاء ثعالب

والمليح المتناهي في الملاحة والإبداع، والأخذ بمجامع القلوب مِنْ غير دفاع ولا نزاع، قول جرير في بني حنيفة[(٢)]: [البسيط]

أبناء نخلٍ وحيطانٍ ومزرعةٍ سُيوفهم خشبٌ فيها مَساحيها
قطع الثّمار وسقي النّخل عادتهم قدمًا وما جاوزت هذي مساعيها
لو قيل أين هوادي القوم ما عَلِموا قالوا لأعجازها هذي هواديها
أو قيل إنّ حمام الموت آخذكم أو تُلْجموا فرسًا قامت بواكيها

أبو تمام[(٣)]: [الطويل]

ولمّا رأى توفيل راياتك التي إذا ما استقامت لا يقاومها القلبُ
تولّى ولم يَألُ القنا في اتّباعه كأنّ الرّدى في قصده هائم صَبُّ
غدا خائفًا يستنجد الكتب مُذْعنًا عليك فلا رسل ثنتك ولا كتبُ
وما الأسد الضّرغام يومًا بتاركٍ فريسته إنْ أنّ أو بصبص الكلبُ
فرّ ونار الكَرْب تلفح قلبه وما الرَّوْع إلّا أن يُخامره الكربُ
مضى مُدْبِرًا شطر الدّبور ونفسه على نفسه مِنْ سوء ظنّ بها ألبُّ
جفا الشرق حتى ظنّ مَنْ كان جاهلًا بِدِين النّصارى أنّ قبلته الغربُ

---

(١) البيتان في ديوان الطرمّاح، من قصيدة مطلعها:
ألا إنّ سلمى عن هوانا تسلّتِ وبشت قوى ما بيننا وأدلّتِ
(٢) الأبيات في ديوان جرير، من قصيدة مطلعها:
قد غلبتني رواة الناس كلّهم إلا حنيفة تفسوا في مناحيها
(٣) الأبيات في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:
لقد أخذت من دار ماوية الحقب أتحل المغاني لليلى أم هي تهبُ

الفصل الثاني من الباب الثاني عشر

في ذكر مَنْ جبن عند اللّقاء خوف الموت ورجاء البقاء

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٥]، هذه الآية نزلت فيمن فرّ من المسلمين يوم أُحد، قال ابن إسحٰق: خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد ومعه ألف، فانخزل منهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، وكان رأس المنافقين، ومعه ثلث الناس ورجع إلى المدينة، وبقي رسول الله ﷺ ومعه سبعمائة رجل، وخرجت قريش في ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فارس، فلمّا التقى الجمعان وتراءى الفريقان، وحَمِيت الحرب، واشتبه الطّعن بالضّرب، أبلى المسلمون في الكافرين بلاءً عظيمًا، ونُودي يومئذ: لا سَيْف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ، وقُتِل حمزة بن عبد المطّلب عمّ النبيّ ﷺ قتله وحشيّ غلام جبير بن مطعم، وهو يظنّ أنّه رسول الله ﷺ، وقُتِل مصعب بن عُمير وكان حامل راية رسول الله ﷺ قتله قَيْلة بن قمئة، فرجع وهو ينادي: قتلت محمدًا، وصرخ صارخٌ: ألا إنّ محمدًا قُتل، والصارخ هو إبليس لعنه الله، أزب العقبة، فانجفل المسلمون وكَثُر الفشل فيهم وتفرّق جمعهم عند الإرجاف بقتل مَنْ كان يحميهم، وهو رسول الله ﷺ، فأصاب العدوّ منهم نكاية حتى خلص إلى رسول الله ﷺ، وقذفه المشركون بالحجارة فأُصيبت رباعيّته وشُجّ جبينه وكَلِمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح بفِيه فسقطت ثناياه، فسال الدّم على وجه رسول الله ﷺ فمسحه بيده، وقال: «كيف يفلح قوم خَضَبوا بالدّم وجه نبيّهم»[1]، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقّاص، وانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى المنقى دون الأعوص، وهم ظانُّون أنّ رسول الله ﷺ قتِل، فمرّ كعب بن مالك برسول الله ﷺ فرآه وعيناه تزهران من تحت المغفر فعرفه، فرفع عقيرته يقول: أيها الناس أبْشِروا هذا رسول الله ﷺ، فرجعوا، فلما عرفوه تداعوا إليه وجعل بعضهم يبشّر بعضًا، ثم نهض المسلمون وقد انشعب صَدْعهم ونعِت بالسّلامة بعد الكسر جمعهم، ونهض معهم رسول الله ﷺ إلى الشّعب، فأدركهم أُبيّ بن خلف فأخذ رسول الله ﷺ الحربة وطعنه بها في عنقه، فرجع إلى قومه وهو يقول: قتلني

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/ ١٧٩، ٢٠٦.

محمّد، فمات بسرف وهم قافلون به إلى مكّة، وذبّ عن النبيّ ﷺ طلحة بن عبيد الله ووقاه بيده فشلّت أصبعه وجُرِح أربعًا وعشرين جراحة، وقال رسول الله ﷺ: «أوجب الحقّ طلحة»[1].

وكان يوم أُحد يوم السّبت النّصف من شوّال سنة ثلاث من الهجرة، وفيها وُلِد الحسين بن عليّ. واستشهد فيه من المسلمين خمسة وستّون رجلًا: أربعة مِنَ المهاجرين وما بقي فمِنَ الأنصار، وقُتِل مِنَ المشركين اثنان وعشرون رجلًا. وذو الفقار كان لسُلَيمان بن داود عليهما السلام أهْدَته له بلقيس مع سِتّة أسياف، ثم كان لمنية بن الحجاج فأخذه رسول الله ﷺ لما قُتِل يوم بدر.

وفرّ كسرى من ملاقاة بهرام جور فاتّبعه الجيش، وكان قد أعدّ معه فصوصًا من زجاج مختلفة الألوان والأصباغ ودنانير من صفر مُغشّاة بالذهب، فلمّا خاف أن يُدْرك نثر تلك الدّنانير والفصوص على الأرض فاشتغل الناس بجمعها، فنجا بنفسه.

ومِنَ الجُبَناء حسان بن ثابت الأنصاري، ذكر ابن قُتيبة في كتاب المعارف أنه لم يشهد مع رسول الله ﷺ مشهدًا قطّ، قالت صفيّة بنت المطّلب عمّة رسول الله ﷺ: كان معنا حسان في حصن فارع يوم الخندق مع النساء والصّبيان، فمرّ بنا في الحصن رجل يهوديّ فجعل يطيف بالحصن، فقلت: يا حسان أنا والله لا آمن أن يدلّ علينا هذا اليهودي أصحابه، ورسول الله ﷺ قد شُغِل عنّا، فانزل إليه واقتله؛ قال: يغفر الله لك ما أنا بصاحب شجاعة، قالت: فلمّا قال لي ذلك ولم أرَ عنه شيئًا اعتجرت ثم أخذت عمودًا ونزلت إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان انزل إليه واسلبه، فإنه لم يمنعني مِنْ سلبه إلّا أنّه رجل، فقال: ما لي بسلبه مِنْ حاجة؛ وكان حسان اقتدى في فعله بهذا الشاعر في قوله[2]: [البسيط]

باتت تُشجّعني هندٌ وما عَلِمَتْ … أنّ الشجاعة مقرونٌ بها العطبُ
لا والذي منع الأبصار رُؤيته … ما يَشْتهي الموت عندي مَنْ له أربُ

---

(١) في الحديث: «أوجب طلحة» من دون «الحقّ»، والحديث أخرجه الترمذي في الجهاد باب ١٧، والمناقب باب ١٧، وأحمد في المسند ١/ ١٦٥.

(٢) الأبيات لمحمد بن أبي حمزة في الحماسة المغربية، للجراوي، ص ٧١٩.

لـلحـرب قـومٌ أضـلّ الله سَـعْـيَـهُـم إذا دَعَـتْـهـم إلـى نـيـرانـهـا وثـبـوا
ولـسـت منهـم ولا أبْـغـي فِعـالـهـم لا القتل يعجبني منهم ولا السَّلَبُ

وعاش حسان مائة وعشرين سنة، ستّين في الجاهلية، وستّين في الإسلام.

ولأحمد بن أبي فَنَن في هذا المعنى ممّا نحاه مِنَ الاستطراد بالممدوح(١): [البسيط]

ما لي وما لك قد كلّفتني شططًا حمل السلاح وقول الدارعين قِفِ
أمِنْ رجال المَنايا خِلْتَني رجلًا أُمْسِي وأُصبح مُشْتاقًا إلى التّلفِ
أرى المَنايا على غيري فأفرّقها فكيف أمشي إليها بارز الكتفِ
أخِلْتَ أنّ سواد اللّيل غيّرني وأنّ قلبي في جَنْبي أبي دلفِ

أخذ قوله: فكيف أمشي إليها بارز الكتف، مِنْ قول بعض الأعراب وقد قيل له: اخرج إلى الغزو، فقال: والله أنا أكره الموت على فراشي، فكيف أمشي إليه ركضًا. ولمّا دخل هذا الشاعر على المعتزّ، قال له: أنت الشاعر الآدم؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا يضرّه سواده مع بيض أياديكم عنده. والفرّار السُّلمي، واسمه حنان بن الحكم بن مالك فرّ من بني عوف فعُرِف في الجاهلية بالفرّار، وهو القائل في فراره(٢): [الكامل]

وكـتـيـبـة لَبِـسْـتـهـا بـكـتـيـبـةٍ حتى إذا لبست نفضت لها يدي
فتركتهم تقصّ الرّماح ظهورهم مِنْ بين منعفرٌ وآخر مُسْندي
ما كان ينفعني مقال نسائهم وقتلت بين رجالهم لا تبعدِ

وفرّ عامر بن الطُّفيل يوم الرّقم، وهو يوم كان لبني ذبيان وأحلافهم على بني عامر. وفرّ عامر بن زُرارة بن عديّ الدارمي يوم اليسار، وكان على بني تميم. وفرّ عمرو بن معديكرب بن عباس بن مرداس وأسِرت أُخته ريحانة. وفرّ عتبة بن أبي سفيان، وفرّ عمرو بن العاص من عليّ يوم صفّين، فاتّبعه عليّ، فلما خاف عمرو أن يُدْركه كشف عن سوءته فرجع عنه. وفرّ عبد الله بن مطيع بن الأسود يوم الحرّة مِنْ جيش مسلم بن عقبة المُرّيّ العامري، وهو القائل في قتاله لأهل الشام مع

(١) الأبيات لأحمد بن أبي فنن في ديوانه، من أربعة أبيات منفردة، وانظر أيضًا ديوان العكوك.
(٢) الأبيات للفرار السلمي في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٧١.

عبد الله بن الزُّبير(١): [الرجز]

أنــا الــذي فَـرَرْت يــوم الـحـرّه والــحُـــرّ لا يــفــرّ إلّا مــرّه
فــالــيــوم أُجْـزَى فـرّة بـكـرّه لا بـأس بـالـكـرّة بـعـد الـفـرّه

وفرّ أسلم بن زُرْعة يوم الأهواز مِنْ أبي بلال مرداس بن أدية الخارجي، وكان أسلم في ألفي رجل، وكان أبو بلال في أربعين، فكان أوّل أمير انهزم في الإسلام وكان إذا ركب بالبصرة صاح به الصّبيان في الطريق: أبو بلال خلفك. وفرّ عبد الله بن عُمَيْر اللّيثيّ مِنْ قتال النجديّة في البحرين، وكان وجهه حمزة بن عبد الله بن الزُّبير، فكان عُمَيْر رأس المُحتسبة في الفتنة، وفيه يقول الفرزدق(٢): [الطويل]

تـمنيت عـبـد الله أصـحـاب نـجـدة فـلمّا لـقـيـت الـقـوم وَلَّيْت سـابـقـا
تـمـنّيـتـهـم حتـى إذا مـا لـقـيـتـهـم تركت لهم قبل الضراب السّرادقا
فأُعطيت ما تُعْطَى الحليلة بعلها وكنت حُبارى إذا تلاقى البواشِقا

فلم يزل مستحيًا مِنَ الركوب حتى فرّ أُمية بن عبد الله بن أسد بن خالد بن أسَيْد من الخوارج يوم مرداهجر، فوجد به أسوة وظهر. وفرّ عبد العزيز بن عبد الله بن خالد من الأزارقة، وكان معه امرأتان له إحداهما غريبة من بني لَيْث بن كِنانة، والأخرى أمّ حفص بنت المنذر بن الجارود، فجعلت الكنانية تنادي: أين فُرسان الطّعائن؟ فطعنها رجل من الخوارج فقتلها وسُبيت أمّ حفص وأُقيمت جارية فيمن يزيد فبلغت مائة ألف درهم، فوثب عمرو بن حديد بن عبد القيس فقتلها أنفة لها، وذلك أنّها كانت مِنْ أجمل النساء، فأتى بها قطريّ، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيت كافرة حفّت على المسلمين فتنتها؛ فخلّى سبيله، ثم إن قاتلها بعد ذلك أتى أخاها الحكم، قال له: جزاك الله خيرًا ما غسل عنّا العار غيرك، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وفي عبد العزيز يقول كعب الأشقريّ(٣): [الكامل]

عبد العزيز فضحت جيشك كلّهم وتـركـتـهـم صَـرْعـى بـكـلّ سـبـيـلِ

(١) الرجز في العقد الفريد لابن عبد ربّه، ص ٢٣٧.
(٢) الأبيات في ديوان الفرزدق، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٣) الأبيات لعبيد الله بن قيس الرقيّات في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

مِنْ بينِ مُنْجدلٍ يجود بنفسه ... وملحبٍ بين الرِّجال قتيلِ
هلّا صبرت مع الشّهيد مقاتلًا ... إذْ رُحْتَ منها هاربًا بأصيلِ
سائلْ بعرسك هل تُقاد سبيّةً ... تشكو إليك بعبرة وعَويلِ

وفرّ أخوه خالد بن عبد الله يوم الجفر بالبصرة، وذلك أن المروانيّين اغتنموا غفلة مصعب بن الزُّبَير عنهم بالكوفة وكانوا بالبصرة، فثار بهم خالد يدعو إلى عبد الملك بن مروان، فلمّا بلغ مُصْعبًا الخبر أقبل مِنَ الكوفة إلى البصرة، ففرّ خالد منه إلى الشام.

وفيه وفي إخوته يقول الفرزدق[1]: [الطويل]

وكلّ بني السوداء قد فرّ فرّةً ... فلم يَبْقَ إلّا فرّة في إستِ خالدِ
فضحتم أمير المؤمنين وأنتم ... تمدّون سودانًا غِلاظ السّواعدِ

ومِنَ الجُبناء الحجاج بن يوسف الثقفي، دخل شبيب بن زيد الخارجي الكوفة سَحَرًا ومعه غزالة زوجته وستّون فارسًا والحجّاج بها في قصره مختفيًا منه، فحلفت غزالة على شبيب ليدخلنّ المسجد الجامع وليصلينّ في مقام الحجّاج، ففعل، ثم خرج منها؛ وفي ذلك يقول عمران بن حطان الخارجي يخاطب الحجّاج[2]: [الكامل]

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تجفل من صفير الصافرِ
هلّا برزت إلى غزالة في الوَغى ... بل كان قلبك في جناحَيْ طائرِ
صدعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مناظره كأمس الدَّابرِ

وممّن كان يحضر الحروب ولا يقاتل: الحجّاج وأبو مسلم. ذكر الجاحظ عمّن حدّثه أنّ الحجاج كان إذا التقى الجمعان ذهب عنه التّدبير، فلا يدري ما يأتي وما يَذَر، وكان أبو كعب مَوْلاه هو الذي يدبّر الجيش حتى تضع الحرب أوزارها. وأمّا أبو مسلم، فكان ينصب له عند ملاقاته لعدوّه عرش، فيجلس عليه ويسدّد من

---

(١) البيتان ليسا في ديوان الفرزدق، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) الأبيات في ديوان عمران بن حطان السدوسي، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:
ألق السلاح وخذ وشاحي معصر ... واعمد لمنزلة الجبان الكافرِ

آرائه سهامًا أهدافها الصّدور والظهور ويُجرّد مِنْ أوامره أسيافًا أغمادها الجفون والنحور، وزياد وابنه عبد الله وأحمد بن طولون.

ومِنْ أظرف ما يُحكى أنّ البحتري شرب مع أبي هفان عند بعض الرُّؤساء، فلما خرجا ركب البحتريّ بغلته وأردف أبا هفان خلفه، فلمّا كان ببعض الطريق قال أبو هفّان: أبا عبادة مَنْ الذي يقول(١): [المتقارب]

ويلبس للحرب أثوابها وقال أنا الشاعر البحتري
فلمّا رأى الخَيْل قد أقبلت إذا هو في سرجه قد خري

فدفعه البحتري من خلفه، وقال: يا ماصّ بظر أُمّه تتنادر وأنت فهد، والشعر لأبي هفان ارتجالًا قاله على سبيل المُداعبة، ومِنْ هنا أخذ المتنبّي قوله(٢): [الخفيف]

وإذا ما خلا الجبان بأرضٍ طلب الطَّعن وحده والنّزالا

ومن نوادر أخبار الجُبناء في مواطن الحروب والبلاء

حُكِي أنّ عمرو بن معديكرب مرّ بحيٍّ مِنْ أحياء العرب وإذا هو بفرس مشدود ورمح مركوز، وإذا صاحبهما في وَهْدةٍ مِنَ الأرض يقضي حاجته، قال له عمرو: خذ حذرك، فإني قاتلك لا مَحالة؛ فالتفت إليه وقال له: مَنْ أنت؟ قال: أبو ثور عمرو بن معديكرب، قال: أنا أبو الحارث، ولكن ما أنصفتني أنت على ظهر فرسك وأنا في وهدة، فأعطني عهدك أن لا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري؛ فأعطاه عهدًا على ذلك، فخرج من الوهدة التي كان فيها وجلس محتبيًا بحمائل سيفه، فقال له عمرو: ما هذا الجلوس؟ قال: ما أنا براكب فرسي ولا مُقاتلك، فإن كنت نكثت العهد فأنت أعلم ما يلقى النّاكث، فتركه ومضى وقال: هذا أجبن مَنْ رأيت. وقال رَوْح بن حاتم لأبي دُلامة: اخرج معي فقاتل وهذه عشرة آلاف درهم، فقال(٣): [البسيط]

إنـي أعوذ بروح أن يقرّبني إلى الحمام فيشتفي بنو أسدِ

---

(١) البيتان في ديوان أبي هفان المهزمي، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا وهكذا وإلاّ فلا لا
(٣) الأبيات في ديوان أبي دلامة، والبيت الأول مطلع القصيدة.

إنّ البراز إلى الأقران نعرفه ... مما يفرّق بين الرّوح والجسدِ
قد خالفتك المَنايا إذ صمدت لها ... وأصبحت لجميع الناس بالرّصدِ
إذ المهلّب حبّ الموت أورثكم ... وما ورثت لحبّ الموت عن أحدِ
لو أنّ لي مُهجة أخرى لجُذتُ بها ... لكنّها خُلقت فردًا فلم أجدِ

وخرج مروان بن محمد لمحاربة الضحّاك الحروري، فلما التقى الجَمْعان خرج من أصحاب الضحّاك فارس، فدعا إلى البراز، فقال مروان: مَنْ يخرج إليه وله عشرة آلاف درهم؟ فقال أبو دُلامة: أنا، وخرج طمعًا في الجائزة، فرأى رجلًا عظيم الهامَة وعليه فرو قد أصابته السماء فابتلّ ولحقته الشمس فيَبِس حتى صار كالقدّ لا يعمل فيه السّيف، فلمّا رآه الفارس جرى إليه وهو يرتجز[1]: [الرجز]

وخارجٌ أخرجه حُبُّ الطَّمعْ ... فرّ مِنَ الموت وفي الموت وقعْ
مَنْ كان يهوى أهله فلا رجعْ

فخافه أبو دُلامة، فلوى جواده هربًا واتّخذ من خوفه في الأرض نفقًا كما اتّخذ الحوت لنجاته في البحر سربًا، فقال مروان: مَنْ هذا الفاضح لا أنجاه الله؟ فقال: أبو دُلامة فرّ ولا أنجاه الله، خيرٌ مِنْ قتلٍ ورحمه الله؛ واسم أبي دُلامة زند - بالنون - وقيل: زبد - بالباء الموحدة - واسم أمّه الجون.

وقال عمرو بن هُبَيْرة لأعرابيّ جزع مِنَ الحرب: قاتِل وخذ الرّزق، قال: قدّم لي رزقي، قال: حتى تُقاتل، قال الأعرابيّ: أرى منيّتي معجّلة، ومنيّتي مؤجّلة. وقيل لمدنيّ: ألا تغزو الأعداء؟ قال: أنا لا أعرفهم وهم لا يعرفوني، فكيف صِرْنا أعداء؟ وقيل: وقع في بعض العسكر هيج فوثب خراساني إلى فرسه ليلجمها ويفرّ عليها، فصير اللّجام في الذّنب، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت ناصيتك، كيف طالت؟ وفرّ أُميّة بن عبد الله بن خالد بن أُسيد مِنْ أبي فديك، فسار مِنَ البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام، فذكر عنده في بعض الأيّام الخيل، فقال: سِرْت مِنَ المهرجان إلى البصرة في ثلاثة أيّام، فقال له ماجنٌ مِنْ جُلسائه: ولو ركبت النيروز سرت إليها في يومٍ واحدٍ. واجتاز كسرى في بعض

(١) الرجز في الشعر والشعراء، لابن قتيبة، في ترجمة أبي دلامة زيد بن الجون، وخاص الخاصّ، للثعالبي، ص ٥٦.

حروبه بشيخ وقد عُرّي فرسه ونُزع سلاحه وهو مستظلّ بشجرة، فقال: يا مقتولًا بيدي أنا في كرب الحرب وأنت على هذه الحالة؟ فقال الشيخ: أيّد الله الملك إنما بلغت هذا السنّ باستعمال هذا التوقّي. وقال المهلّب لحبيب بن عوف، وكان مِنْ جنده في قتال الخوارج: كرّ على القوم وخذ مائتين صحاحًا، فأومأ إلى رأسه وقال: أخاف أن يذهب رأس المال؛ وأنشد[1]: [الوافر]

يقول ليَ الأمير بغير نُصْحٍ ... تقدّم حين جدّ بنا المراسُ
فما لي أن أطعتك مِنْ حياةٍ ... وما لي غير هذا الرأس راسُ

ولبعض الشعراء: [الطويل]

ولو أنّ لي رأسين أذخر واحدًا ... وألْقى الأعادي بعد ذاك بواحدِ
لأقدمتُ في الهَيْجاء إقدامَ باسلٍ ... ولم أكُ هيّابًا لدَفْع الشدائدِ
ولكنّ لي رأسًا إذا ما فقدته ... وفارقني يومًا فليس بعائدِ

ومما يُنسَب لأبي دُلامة[2]: [الطويل]

ألا لا تَلُمْني إن فررت وإنّني ... أخاف على فخارتي أن تحطّما
وأُيّتّم أولادًا وأرمّل نِسوةً ... فكَيْف على هذا ترون التقدُّما
ولو كان لي نفسان كُنت مُقاتِلًا ... بإحداهما حتى تموت فأُسْلما

وحكى ابن حبيب في كتابه المحبر أنّ حبيبًا دخل على المهلّب بن أبي صفرة، فأنشده[3]: [الوافر]

فقدتك يا مهلّب مِنْ أميرٍ ... أما تَنْدى يمينك للفقيرِ

فقال المهلّب: هو جنّتي، فوالله إني لأبذل لكم مالي وأَقِيكم الحروب بنفسي، فقال حبيب: إنا نكره إقحامك بنا المَنايا، فقال المهلّب: أوَ ليس قد قال الأوّل[4]: [الطويل]

إذا المَرْء لم يغش الكريهة أوْشكت ... حِبال المَنايا بالفتى أن تُقطّعا

---

(١) البيتان للأعور الشني في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٢) الأبيات في ديوان أبي دلامة، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) البيت لأبي حرملة العبدي في الكامل في اللغة، للمبرد، ص ١٧٢٣.
(٤) البيت للأسود بن يعفر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

فأدرك إبقاء العرادة ظلْعها ... وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

فقال حبيب: خَفْض العَيْش والدِّعة والاعتياض عن الضّيق بالسّعة؛ ثم أنشده ما قاله حين فرّ من أبي فُديك يوم مرداهجر[١]: [الطويل]

بذلت لكم يا قوم حَوْلي وقوّتي ... ونُضحي وما حازت يَداي مِنَ التِّبرِ
فلمّا تناهى الأمر بي وعدوّكم ... إلى مُهْجتي ولّيت أعداءكم ظهري
وطِرْتُ ولم أحفل ملامةَ عاجزٍ ... يُقيم لأطراف الرُّدينيّة السُّمرِ
ولو كان لي رأسان أهملتُ واحدًا ... لكلّ رديي وأبيض ذي أثرِ

فضحك منه، ثم التفت إلى مَنْ حضر مجلسه وقال: بمثل هذا فليقاتل الأعداء. وقيل لإنسان: إذا رأيت سوادًا باللّيل فأقدم ولا تفرق منه، فإنه يخافك كما تخافه؛ قال: أخاف أن يكون ذلك السّواد سمع هذه المقالة قبلي. وقيل لمطرف بن عبد الله: لا تخرج تقاتل مع عليّ رضي الله عنه، قال: لو كان لي نفسان قدّمت إحداهما، فإن أصابت الحقّ أتْبَعْتها الأخرى، ولكنّها واحدة. ودخل حُمَيْد بن الأرقط على الحجّاج فأنشده قصيدة شاعر مُختارة في صفة الحروب، قال الحجّاج: أراك تُحسن صفة الحرب، أقاتلت الأبطال، وقابلت الأقيال؟ قال: لا أيها الأمير إلّا في النوم، قال: وكيف كانت وقعتك؟ قال: انتبهت وأنا مُنهزم؛ فضحك منه ووصله.

صفات من بدَّل ثباته بالإحجام وقيّد بالفرق قدمه عند الإقدام

قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: الآية ٤]، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «نُصِرت بالرُّعب مسيرة شهر»[٢]. وقالوا: فلان من خوفه يحسب كل صَيْحة عليه وكل يد تُشير بالأخذ إليه. شاعر[٣]: [الكامل]

ما زلت أحسب كلّ خيلٍ بعدها ... خيلًا تكرّ عليهم ورجالا

---

(١) الأبيات في العقد الفريد، لابن عبد ربه، ص ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٥٦، والجهاد باب ١٢٢، والتعبير باب ١١، ٢٢، والاعتصام باب ١، ومسلم في المساجد حديث ٣، ٥ ـ ٧، ٨.

(٣) البيت لجرير في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

حيّ الغداة برامة الأطلالا ... رسمًا تحمّل أهله فأحالا

ورواية البيت في الديوان:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم ... خيلاً تشدّ عليكم ورجالا

آخر(١): [الطويل]

كــأنّ بــلاد الله وهــي عــريــضــةٌ   على الخائفِ المطلوب كفّة حايلِ

المتنبّي(٢): [البسيط]

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم   إذا رأى غـيـر شـيء ظـنّـه رجـلا

آخر(٣): [الطويل]

كـأنّ بـلاد الله فـي ضـيـق خـاتـم   عليهم فلا تزداد طولًا ولا عرضا

وقالوا: فلان تقلّصت من الخوف شفتاه، واصفرّت من الهلع وجنتاه.

ومِن أمثالهم: أجبن مِنَ المنزوف ضرطًا؛ وذلك أنّ رجلًا كان يتعشّق نساء، وكان يدّعي عندهنّ الشجاعة، فنام عندهنّ يومًا فأرَدْن امتحانه، فصُحْن به: جاءتك الخيل، فانتبه مذعورًا وما زال يضرط حتى مات. قال أبو عبيدة: كان خالد بن عبد الله القسريّ مِنْ أجبن الناس وأخوفهم، فخرج عليه المُغيرة بن سعيد، فأُخبر بذلك وهو على المنبر بالكوفة، فدُهِشَ من شدّة الخوف، واصطكّت أسنانه وجفّت لهاته، فقال: أطعموني ماءً وأدركوني، فقد هلكت عطشًا، ونزل عن المنبر هاربًا؛ وفيه يقول يحيىٰ بن نوفل(٤): [البسيط]

بـلّ الـسـراويـل مِـنْ خـوفٍ ومِـنْ وَهَـلٍ

واسـتـطـعـم الـمـاء لـمـا جَـدَّ فـي الـهـربِ

---

(١) البيت للطرمّاح في ديوانه من بيتين، هذا أوّلهما، والثاني:

يـؤدي إلـيـه أنّ كـل ثـنـيّـة   يـتـمـمـهـا ترمي إليه بقـاتـلِ

(٢) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

حـيـا وأيـسـر مـا قـاسـيـت مـا قـتـلا   والبيت جار على ضعفي وما عدلا

(٣) البيت لمجنون ليلى في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا أيـهـا الـشـيـخ الـذي مـا بـنـا يـرضـى   شقيت ولا أدركت من عيشك الخفضا

ورواية البيت في الديوان:

كأن فجاج الأرض في حلقة خاتمٍ   عـلـيّ ولا تـزداد طـولاً ولا عـرضـا

(٤) البيت في ديوان يحيى بن نوفل، من بيتين. وثانيهما:

وألـحـن الـنـاس كـل الـنـاس قـاطـبـة   وكان يولع بالتشديف في الخطبِ

ودخل الحجاف بن حكيم على عبد الملك بن مروان والأخطل عنده، فلمّا بَصُر به الأخطل قال يعرّض به[١]: [الطويل]

ألا بلّغ الجحّاف هل هو ثائرٌ   بقتلى أصيبت من سليم وعامرِ

فقال الحجّاف[٢]: [الطويل]

بلى سوف نُبْكيهم بكلّ مهنّدٍ   ونبكي عميرًا بالرماح الشّواجرِ

ثم قال: يا ابن النّصرانية ما ظننتك تجترىء عليّ بمثل هذا، ولو كنت مأسورًا لك؛ فحمّ الأخطل خوفًا منه وجزعًا، فقال له عبد الملك: أنا جارك منه، فقال: يا أمير المؤمنين هِبْك أجَرْتني منه في اليقظة، فمن يُجِيرني منه في النوم؟ أخذ هذا المعنى أشجع السّلميّ فقال مِنْ قصيدة يمدح بها الرّشيد[٣]: [الكامل]

وعلى عدوّك يا ابن عمّ محمّد   ضدّان ضوء الصُّبح والإظلامِ
فإذا تنبّه رَعْتَه وإذا غفا   سلّت عليه سيوفك الأحلامِ

وقالوا: فلان تخوّفه أضغاث أحلام، فكيف مسموع كلام؟ فلان يرى صوت الرّياح قعقعة الرماح، فلان إذا خاف طار مِنْ خوفه كل مطار، وفرّ فرار اللّيل من وِضح النهار.

الفصل الثالث من الباب الثاني عشر

فيمن لِيمَ على الفرار والإحجام فاعتذر بما ينفي عنه المَلام

سَمَع سليمان بن عبد الملك قارئًا يقرأ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ١٦]، فقال: ذلك القليل نُريد. وقال الوليد بن عُقْبة لعثمان بن عفّان: يقول لك عبد الرحمٰن بن

---

(١) البيت في ديوان الأخطل، وهو مطلع القصيدة.

(٢) الخبر والشعر في بدائع البدائه، لابن ظافر الأزدي، ص ٢٨؛ ونضرة الإغريض في نصرة القريض، للمظفر العلوي، ص ٤٢١.

(٣) البيتان في ديوان أشجع السلمي، من قصيدة مطلعها:

قصرٌ عليه تحيّة وسلامُ   نشرت عليه جمالها الأيامُ

عوف: لِمَ جفوتني ولم أفرّ يوم أحد، ولم أتخلّف يوم بدر؟ - يعرّض به - فقال: أمّا فراري يوم أُحد فلا تعيّرني به، فإنّ الله قد عفا عنّي فيمن عفا عنه، وأمّا تخلّفي يوم بدر، فإني كنت أمرّض رقيّة بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، فأخبره عني بذلك. ونظرت امرأة حماس بن قيس البكري المعروف بالهارب له، وقد رأته يشحذ حربته يوم فتح مكّة، وهو يقول[1]: [الرجز]

إن تُقبلوا اليوم فما لي عِلّه ... هذا السّلاح كاملٌ وألّهْ

وذو غذار لي سريع السلّه

فقالت: ما تصنع بهذه الحَرْبة؟ فقال: أعددتها لمحمّد وأصحابه، فقالت: إنّي أرى أنه لا يقوم لك بها شيء، قال: والله إني أرجو أن أخدمك بعضهم؛ ثم خرج، فلمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة وانهزم المشركون يوم الخندمة وفرّ حماس حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي الباب، فقالت له: وأين ما كنت تقول؟ فقال[2]: [الرجز]

لو أنك شهدت يوم الخندمه ... إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه

إذ قد لحقنا بالسّيوف المسلمه ... لهم نشيش حولنا وهمهمه

يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضربًا فلا نسمع إلّا غمغمه

لم تنطقي في اللّوم أدنى كلمه

وذُكِر أنّ كسرى أبرويز لمّا انهزم من بهرام جور واستجار بملك الرُّوم، فعنّفه على هربه وأمدّه بستّين ألفًا منهم شجاع يعدّ بألف، فسار بهم إلى بهرام، فخرج بهرام لمحاربته، فلمّا تلاقى الجيشان برز الشجاع لبهرام فضربه بالسيف ضربة قدّه بها نصفين، فلفّه كسرى وأنفذه إلى ملك الرُّوم، وقال: إنما فزعت إليك مِنْ رجلٍ يضرب مثل هذه الضّربة. وذكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك أنّ هذه الضربة لم يُسْمَع بمثلها في جاهلية ولا إسلام، وأنّ هذه الرّأس كانت مُعلّقة في كنيسة مِنْ كنائس الرُّوم، وكانوا إذا عُيّروا بانهزامهم من تلك الوقعة، يقولون: لقينا رجالًا هذا ضربهم.

---

(١) الرجز بلا نسبة في إصلاح المنطق، لابن السكّيت، ص ٤٣٦.

(٢) الخبر والرجز في السيرة النبوية، لابن هشام.

وحُكِي أنّ أبا زُبَيْد الطائيّ واسمه حرملة بن المنذر دخل على عثمان بن عفان، فلامه على فراره من الأسد لِمَا عُرِف مِنْ شجاعته، فقال: يا أمير المؤمنين لا تَلُمْني لقد رأيت منه منظرًا وشهدت مخبرًا لا يزال ذكره يتجدّد في قلبي، وشخصه يتمثّل في عيني خرجنا نريد الحارث بن شمر الغسّاني ملك الشام، فأصابنا قَيْظ ذبلت منه الشفاه، وعُصِّبت الأفواه، فانْحَزْنا إلى وادٍ أشجاره مغنة، وأطياره مَرِنة، فحططنا رحالنا ثم أخذنا نصف حرّ يومنا ونذكر مطاولته ومماطلته، فبينما نحن كذلك إذ صوّب أقصى الخيل أذنيه، وفحص الأرض بيديه، ثم ما لبث أنْ جال محمحمًا ومال مهمهمًا، فتضعضعت الخَيْل، وتكعكعت الإبل، وتقهقرت البِغال، فمِنْ نافر بشكاله، وناهِضٌ بعقاله، فحدّقنا أبصارنا وإذا سبعٌ قد أقبل يتطاول في مشيته كأنه مجبوب، وينظر بعينين كأنّهما جمر مشبوب، له خطيط ولصدره نحيط، ولبلاعيمه غطيط، ولطرفه وميض، ولأرساغه نقيض، كأنه يخطّ هشيمًا ويطأ صريمًا ذو هامة كالمجنّ، وخدّ كالمسنّ، وساعدٌ مجدول، وعضدٌ مفتول، وكفٌّ شثنة البراثن، ومخالب كالمحاجن، فضرب بذنبه الأرض فأرهج وكشّر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة في فمٍ أشدقٍ كالغار الأخرق، ثم تمطّى فأشرع بيديه، وحفّز وركيه برجليه، فصار ظلّهَ مثليه، ثم أقعى فاقشعرّ، ثم مثل فاكفهرّ، وزأر فجرجر، ثم لحظ فرؤي السماء عرشه فخِلْت البرق يتطاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه، فأرعشت الأيدي واصطكّت الأضلاع، وارتجّت الأسماع، وجُحِمت العيون، وانحزّت المُتون، ولحقت الظهور بالبطون، وساءت الظنون؛ ثم أنشد(١): [الطويل]

عبوس شموس مصلخد خنابس ... جريء على الأرواح للقرن قاهرُ
منيع ويحمي كل وادٍ يرومه ... شديد أصول الماضغين مُكابِرُ
براثنه شثن وعيناه في الدُّجى ... كجمر الغضا في وجهه الشرّ طائرُ
يدلّ بأنيابٍ حِدادٍ كأنّها ... إذا قلّص الأشداق منها خناجرُ

فقال له عثمان: اكْفُف لا أمّ لك لقد أرعبت قلوب المسلمين، ولقد وصفته حتى كأني أنظر إليه يريد مواثبتي؛ وكان أبو زبيد هذا نصرانيًا ومات ولم يُسْلم، وقد ذكر علماء الرُّواة لأخبار العرب وأشعارها هذه الحكاية بأطول مما أثبتناه لكنّا استغنينا باليسير منها عن الكثير لدلالته على الغرض المقصود في ذكره للأسد

---

(١) الأبيات لأبي زبيد الطائي في ديوانه، وهي أربعة أبيات منفردة.

بالوصف الشّنيع، والمَرْأى الفظيع، ليبلغ في الاعتذار عن هربه مقتضى ربه، فلمّا لم يكن بنا لذكرها على التّمام حاجة، اقتصرنا على الخلاصة منها لا المجاجة.

ومِنْ أحسن مِنَ الجُبناء في اعتذاره لما قُرّع على انهزامه وفراره الحارث بن هشام، وكان قد شهد بدرًا مشركًا، فانهزم، فصنع حسّان قصيدة استطرد به فيها يقول منها[1]: [الكامل]

إن كـنـت كـاذبـة الـذي حـدّثـتـنـي ... فنجوت منجى الحٰرث بن هشامِ
تـرك الأحِـبّـة أن تُـقـاتـل دونـهـم ... ونـجـا بـرأس طـمـرّة ولِجـامِ

فأجابه الحٰرث[2]: [الكامل]

الله يـعـلـم مـا تـركـت قـتـالـهـم ... حتى رموا فرسي بأشقر مُزْبِدِ
وعَـلِمـت أنّـي إن أُقـاتـل واحـدًا ... أُقْتل ولا يضرر عدوّي مشهدي
وشممت ريح المَوْت من تِلقائهم ... في مـازق والـخـيـل لـم تـتـبـدّدِ
فـصـدقت عنـهم والأحبّة دونـهـم ... طـمعًا لـهـم بعقاب يـوم مـفـسدِ

وأنشد هذا الاعتذار لبعض ملوك العجم، فقال: يا معشر العرب لقد بلغتم بلطافة ألسنتكم وحُسْن احتجاجكم وجميل أوصافكم مبلغًا لم يَبْلغه أحد غيركم حتى اعتذرتم عن الفرار بعذر يسع بعدكم الاعتذار به لكل مِنهزم، وتوفي الحٰرث هذا سنة ثمان عشرة بالطاعون، وهو طاعون عَمْواس قرية بالشام، وفيها توفي أبو عُبَيدة بن الجرّاح ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهم. ويقال: إن عبد الله بن عنقاء الجهميّ لَقِيَه بنو عبس يسوق بامرأته أمّ الخصين ففرّ عنهم، فعيّرته امرأته، فقال[3]: [الطويل]

أجـاعـلـة أمّ الـحـصـيـن خِـزايـةً ... عليّ فراري أنْ لـقـيـت بـنـي عـبـسِ
لـقـيـت أبـا شـاسٍ وشـاسًـا ومـالـكًـا ... وقيسًا فجاشت مِنْ لقائهم نفسي
جـذيـمـة دعـواهـم وعـود بـن غـالـب ... أولئك جاشت مِنْ لقائهم نفسي
كـأن جـلـود الـنـمـر صُـبّـت عـلـيـهـم ... إذا جعجعوا بين الإباحة والحبسِ

---

(١) البيتان في ديوان حسان بن ثابت، من قصيدة مطلعها:

تـبـلـت فـؤادك فـي الـمـنـام خـريـدةٌ ... تـشـفـي الـضـجـيـع بـبـارد بـسّـام

(٢) الأبيات في الحماسة البصرية، للبصري، ص ١٧٢ وكتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص ٧٨٢.

(٣) الأبيات لعمرو بن معديكرب الزبيدي في ديوانه، والبيت الأوّل مطلع القصيدة.

أتونا فضمّوا جانبينا بصادقٍ مِنَ الطّعن فعل النار بالحطب اليَبْسِ
نحوت سليمى لم تمزّق عمامتي ولكنّهم بالطّعن قد مزّقوا تِرْسي
وليس الفرار اليوم عارًا على الفتى إذا عُرِفت منه الشجاعة بالأمسِ

وقيل لبعضهم: لِمَ انهزمت؟ فقال: إنما لي نفسٌ واحدة وأنا حقيقٌ بالنّظر إليها لئلا يذهب رأس المال. وليمَ آخر على فراره، فقال: الحرب سِجال، وعثراتها لا تُقال. وانهزم بعضهم فأخذه أميره يوبّخه ويُعنّفه على فراره، وقال: أعطيت بيدك ولا طعنت ولا ضربت؟ فقال: لأن يشتمني الأمير أصلحه الله وأنا حيّ خير مِنْ أن يترحّم عليّ وأنا مَيْت. وقيل لآخر ولّى في حربٍ: وَيْلك لا تهرب يغضب الأمير عليك، قال: غضب الأمير عليّ وأنا حيّ أحبّ إليّ مِنْ رِضاه عني وأنا ميت.

ومِنْ أغاليط أعاذيرهم المسكتة، وأكاذيب أساطيرهم المبكتة، ما ذكره صاحب كليلة ودِمْنة من أنّ الحازم يكره القتال وما وجد بدلًا منه؛ لأن النفقة فيه مِنَ النفوس، والنفقة في غيره مِنَ المال.

التقى عسكر دُبَيْس بن صدقة وعسكر الراشد، فولّى دبيس منهزمًا، فعبر الفرات يريد النجاة، فقصد بعض أحياء العرب، فقالت له عجوز مِنْ عجائزهم: دبيرًا جئت؟ فقال دبيرٌ مَنْ لم يجىء. وقالوا: مَنْ جبن سَلِم، ومن تهوّر ندم. وقال عبد الله بن المقفّع: الشجاعة متلفة، وذلك أن المقتول مقبلًا أكثر مِنَ المقتول مُدْبرًا، فمن أراد السلامة فَلْيُؤْثر الجُبْن على الشّجاعة. وقيل لجبان: لِمَ لا تقاتل؟ فقال: عند النّطاح يغلب الكبش الأجمّ. وقالوا: الحياة أفضل مِنَ المَوْت إذا كانت النجاة إلى حياة صالحة على أنّ موتًا في عزٍّ خيرٌ مِنْ حياةٍ في ذلّ. وقالوا: الفرار في وقته ظَفَر. وقالوا: الشجاع مُلقّى، والجبان مُوقّى. وقالوا: السّلم أزكى للمال، وأبقى لأنفس الرّجال. وقال شاعرهم وهو البديع الهمدانيّ[1]: [الكامل]

ما ذاق همًّا كالشجاع ولا خلًا بمسرّةٍ كالعاجز المُتواني

وقالوا: الهرب في وقته خيرٌ مِنَ الجَلْد والثّبات في غير وقته. وقال المتوكّل لأبي العَيْناء: إني لأفرق مِنْ لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين الكريم ذو فرق وإحجام، واللّئيم ذو وقاحة وإقدام.

---

(١) البيت للشريف الرضيّ في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
لون الشبيبة أنصل الألوانِ والشيب جلُّ عمائم الفتيانِ

الباب الثالث عشر

في العفو

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب

في مدح مَنِ اتّصف بالعفو عن الذّنب المتعمّد والسّهو

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النّور: الآية ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: الآية ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٦٣]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أقالَ مسلمًا عثرته أقاله الله يوم القيامة»[(١)]، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ العفو لا يزيد العبد إلّا عزًّا، فاعفوا يعزّكم الله»[(٢)]، ويُرْوَى عنه عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: «ما من إمام عفا بعد قدرة إلّا قيل له يوم القيامة: ادخل الجنّة بغير حساب»[(٣)]. وقال معاذ بن جبل: لمّا بعثني رسول الله ﷺ قال لي: «ما زال جبريل يوصيني بالعفو، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود»[(٤)]. وقيل لأبي الدّرداء: مَنْ أعزّ النّاس؟ قال: الذي يعفو إذا قدر، ويَنْصر إذا استنصر. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ عفا عمّن ظلمه صغيرة أو كبيرة فأجره على الله، ومَنْ كان أجره على الله فهو من المقرّبين يوم القيامة»[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع باب ٥٢، وابن ماجه في التجارات باب ٢٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٩، ٣٥٣، وأخرجه مسلم في البر حديث ٦٩، بلفظ: «ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلاّ عزًّا».

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) الحديث لم أجده.

(٥) أخرجه بنحوه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٥١.

وحدّه على ما قاله بعض العلماء، وقد سُئِل عنه: هو ترك المكافأة عند القدرة قولًا وفعلًا. وقال آخر: هو السكون عند الأحوال المحرّكة للانتقام، وهو يَجْمع أشرف الخِلال، وأكرم الخِصال، وأفضل شمائل الجَلال، وأعلى مراتب الكمال، وركنٌ متين، وحصنٌ حصين، مَنِ استند إليه واعتمد عليه استنارت له الظُّلم، وأمِنَ مِنْ عثرات القدم، وعُصِم مِنْ مواقع النَّدم. ويكفي في شرفه أنّ الإنسان لا يُسمّى حليمًا حتى يكون عاقلًا عالمًا محسنًا صبورًا، وحتى يجمع عظم القدر إلى سِعَة الصَّدر. وقالوا: الحليم مَنْ لم يكن حُلْمه لفَقْد النُّصرة وعدم القُدْرة، وهو غريزة في الإنسان يمنحها واهب الإحسان، تصدر عن صدرٍ سالم مِنَ الغوائل والأدواء، صافٍ مِنْ شوائب الكدر والأقذاء، لا تُسْتطاع بتعلّم وتفكّر، ولا تُدْرك بتفقّه وتبصّر؛ كما قال أبو الطيّب المتنبّي(١): [الخفيف]

وإذا الحُلْم لم يكن في طِباعٍ   لم يحلم تقدّم الميلادِ

فقد يكون طبيعة ويكون مُكْتسبًا مستفادًا بتمرّن النفس إليه، وتنقاد حبًا في المحمدة إليه. ويعضد هذا ما روي أنّ رسول الله ﷺ قال لأشج عبد القيس: «يا أبا المنذر إنّ فيك خصلتان يرضاهما الله ورسوله: الحُلْم والأناة»، فقال: يا رسول الله أشيء جَبَلني الله عليه، أو شيء اخترعته مِنْ قِبَل نفسي؟ قال: «بل شيء جبلك الله عليه»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقٍ يرضاه الله ورسوله(٢). وقال المخالفون لهذا المذهب: الحلم بالتحلّم كما أنّ العلم بالتعلّم، واستدلّوا لهذا القول بما يُرْوى أنّ جعفر بن محمد الصّادق كان إذا أذنب له عبدًا عتقه، فقيل له في ذلك، فقال: إني أُريد بفعلي هذا تعلُّم الحلم. وقيل: كان له عبدٌ سيّىء الخلق، فقيل له: ما بقاء مل هذا عندك وأنت قادر على أن تستبدل به غيره؟ قال: لأتعلّم به الحُلم؛ ومن ذلك قول الأحنف: مَنْ لم يصبر على كلمة سمع كلمات، وأنشد(٣): [الطويل]

وليس يتمّ الحُلْم للمرء راضيًا   إذا هو عند السُّخط لم يتحلَّمِ
كما لا يتمّ الحُلْم للمرء مُوسِرًا   إذا هو عند العُسْر لم يتحشَّمِ

---

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

حسم الصلح ما اشتهته الأعادي   وأذاعته ألسن الحسّادِ

وفي الديوان: «تقادم الميلادِ»، بدل: «تقدم الميلادِ».

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه في الزهد، باب ١٨.

(٣) البيتان بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٣٠٠.

ومِنْ أحاسن الكلام الصادر عن الحكماء في شرف الحلم ومن تخلّق به من الحلماء

قالوا: الحُلم والأناة توأمان نتيجتهما علوّ الهِمّة؛ وهذا كما ورد عن عليّ رضي الله عنه أنّه سأل رجلًا مِنْ أهل فارس عمّن كان أحمد ملوكهم سيرة؟ قال: أنوشروان، فقال عليّ: أيُّ أخلاقه كان أغلب عليه؟ قال: الحُلم والأناة، فقال عليّ: هما قِوام الملك نتيجتهما علوّ الهِمّة. والأناة ترك العجلة بالانتقام عند القدرة، قال إبراهيم بن العبّاس الصّوليّ(١): [البسيط]

لن يُدْرِكَ المجد أقوامًا وإن كرموا حتى يذلّوا وإن عزّوا لا لأقوامِ
ويشتموا فترى الألوان مُسْفرة لا صفح ذلّ ولكن صفح إكرامِ

وقال قابوس بن وشمكير: العفو عن الذّنب مِنْ واجبات الكرم، وقبول المعذرة مِنْ محاسن الشِّيَم. ومِنْ كلام النبوّة: كاد الحليم أن يكون نبيًّا. ورأى حكيم نزقة من ملك، فقال: أيُّها الملك ليس التاج الذي يفتخر به عظماء الملوك فضّة ولا ذهبًا، ولكنه الوقار المكلّل بجواهر الحُلم، وأحقّ الملوك بالبسطة مَنْ حَلُم عند ظهور السَّقطة. وقال معاوية لابنه يزيد: عليك بالحُلم والاحتمال حتى تمكّنك الفرصة، فإذا أمكنتك فعليك بالصَّفح، فإنّه يدفع عنه مضلّات الأمور، ويُوقيك مصارع المَحذور. وقال الشاعر(٢): [الكامل]

لا تحسبنّ الحُلم منك مذلّة إنّ الحليم هو الأعزّ الأمنَعُ
إنْ جرّعوك الغَيْظ فاجرعه لهم تُؤْجَر وتُحْمد غبّ ما يتجرّعُ

آخر(٣): [البسيط]

إنّ التحلّم ذلٌّ أنت عارفه والحُلْم عن قدرةٍ أفضلُ مِنَ الكرمِ

وقال معاوية: أفضل ما أُعطي الرجل الحُلم، فإنه إذا ذُكّر ذكر، وإذا قَدَر غَفَر، وإذا أساء استغفر. وقالوا: العفو يزيّن حالات من قدر، كما يزيّن الحلى قبيحات الصّور. وقالوا: الحُلم مطيّة وطيّة تُبَلّغ راكبها قصبة المجد، وتُملّكه ناصية

(١) البيتان في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيت الأول بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ١٤٥.
(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الجد. وقال بعض البُلغاء: مَنْ غرس الحلم شجرًا، وسقاه الأناة دُررًا، جنى العزّ منه ثمرًا، وأثبت المكارم أثرًا. شاعر[١]: [الطويل]

إذا شئت يومًا أن تسود عشيرةً فبالحُلم سُدْ لا بالتسرّع والشَّتْم
فللحلم خيرٌ فاعملن مظنّة مِنَ الجَهْل إلّا أن تشينه بالظّلم

آخر: [الكامل]

اخفض جناحك للقرابة والْقهم بتودّد واغْضُض لهم إن أذنبوا
وصِل الكرام فإن ظفرت بزلّةٍ فالصَّفح عنهم والتجاوز قربُ

آخر[٢]: [الطويل]

ألا إنّ حلم المَرْء أكرم نسبة تسامى بها عند الفخار كريمُ
فيا رَبِّ هِبْ لي منك حلمًا فإنّني أرى الحلم لم يندم عليه حليمُ

وقالوا: الحُلم حجاب الآفات. وقالوا: مَنْ غرس شجر الحلم اجتنى ثمر السّلم. وقال عمر بن عبد العزيز: ما قرن الله شيئًا إلى شيءٍ أفضل من علم إلى حلم، ومِنْ عفوٍ إلى قدرة. وقال حكيم: خير الأُمور بغية العفو، وخير العفْو ما كان عن قدرة. وقال الشاعر: [الكامل]

العفو يعقب راحةً ومحبّةً والصَّفح عن ذَنْبِ المُسِيء جميلُ

وقال عمر أيضًا: استدعوا العفو من الله بالعفو عن الناس والرّحمة بهم والشفقة عليهم. وقالوا: اعف عمّن لم يسلك مِنْ سخطك طريقًا حتى يأخذ مِنْ رجائك طريقًا. ويُرْوى عن عيسى عليه السلام، أنّه قال: ليس الإحسان أن تُحسن إلى مَنْ أحسن إليك، إنّما تلك مكافأة؛ وإنّما الإحسان أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك. وقال سعيد بن العاص: ما شاتَمْت أحدًا مُذْ صرت رجلًا؛ لأني ما أشاتم إلّا أحد رجلين: إمّا كريمًا فأنا أحقُّ أن أحتمله، أو لئيمًا فأنا أولى مَنْ رفع نفسه عنه. وقال عمر بن الخطّاب: ادْرَؤوا الحدود بالشُّبهات، ولأن يخطيء الإمام في

---

(١) البيتان للمرار بن سعيد الفقعسي في ديوانه، والبيت الأوّل مطلع القصيدة.
(٢) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أيا رب يا ذا العرش أنت رحيمْ وأنت بما تخفي الصدور عليمْ
وانظر أيضًا ديوان عبد الله بن المبارك.

العفو أحبّ إليّ مِنْ أن يخطىء في العقوبة؛ فإذا وجدتم مخرجًا للمسلم فادرؤوا الحدود. شاعر[١]: [الطويل]

وما بال مَنْ أسعى لأجبر عَظْمه سفاهًا وينوي من سفاهته كسري
أظنّ خطوب الدّهر بيني وبينهم ستحملهم منّي على مركبٍ وَعْرِ
أعوذ على ذي الجهل والحلم منهم بحلمي ولو عاقبت غرقهم بحري
أناة وحلمًا وانتظارًا بهم غدًا وما أنا بألواني ولا الضَرع الغُمْرِ
ألم تعلموا أنّي تخاف عزيمتي وأنّ قناتي لا تَلين على الكَسْرِ

مَنْ عُرِف بالعفو عند خطأ الجاني وصار بالأناة عليه كالأب الحاني

كان رسول الله ﷺ حليمًا رحيمًا رؤوفًا عطوفًا، يَهِبُ ويسمح ويعفو ويصفح. وكان كسرى يقول: عفوي عمّن أساء إليّ بعد قدرتي عليه أَسَرُّ لي مما مَلَكت. وكان معاوية يقول: ما وجدت لذّة ألذُّ عندي من غَيْظ أتجرّعه، ومِنْ سفه بالحلم أقمعه؛ وكان يقول: إني لأكره أن يكون في الأرض جهل لا يشمله حلمي، وذنبٌ لا يسعه عفوي. وكان المأمون ممن أُوتي الحلم طبعًا لا تطبُّعًا، ومنح العفو خُلُقًا لا تخلُّقًا؛ فكان يقول: إني لأستحلي العفو حتى أخاف أني لا أُوجر عليه، ولو علم الناس محبّتي في العفو لتقرّبوا إليّ بالذنوب؛ فكأنّه القائل بلسان كرمه وإفضاله، لا بلسان نطقه ومقاله[٢]: [الطويل]

وجهل رَدَدْناه بفضل حلومنا ولو أنّنا شئنا ردَدْناه بالجهلِ
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة وعُدْنا على أهل السفاهة بالفضلِ

عامر العدوانيّ[٣]: [الكامل الأحذ]

إنّي غفرت لظالمي ظُلْمي وتركت ذاك له على علمي
فرأيته أسدى إليّ يدًا لما أبان بجهله حلمي

(١) الأبيات بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٧٦٨.
(٢) البيت الأول بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٩٠٩.
(٣) البيتان لمحمود الورّاق في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية البيت في الديوان:
إنّي شكرت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علمي
والبيتان لعامر العدواني في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وكان يقول: ليس في الحلم مؤنة، ووددت أنّ أهل الجرائم عرفوا رأيي في الحلم حتى يذهب عنهم الخوف، فتصفوا إليّ قلوبهم. وكان يقول: المذنبون ثلاثة: فمنهم مَنْ ذنبه مقرون بعذره قد أماطه عنه، وأخرجه سليمًا منه؛ ومنهم مَنْ ذنبه فاضح وعذره غير واضح، وهو فردٌ لا أخ له، وفذٌ لا توأم معه، فالأَوْلى به أنْ يقال إذا اعترف بالحوبة، وأخلص لي التوبة؛ ومنهم المتردّد في هفواته، والمتكرّر في عثراته، الجارية عادته أن يُكثر التوبة إذا تاب، ويفسخ عقد الإنابة متى أناب، فذاك الذي يُعاقب بالاطّراح، ولا يُطمع في شخصه بالفلاح. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أتاني أحد بما أكره إلّا أخذت عليه ثلاث خصال، فإن كان فوقي عرفت له فضل التقدّم فاتّبعته، وإنْ كان دوني صَفَتْ نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضّلت عليه.

نَظَم محمود الورّاق هذه الكلمات في هذه الثلاثة الأبيات، فقال[١]: [الطويل]

سأُلزم نفسي الصّفح عن كلّ مُذْنبٍ ... وإن عَظُمت منه عليّ الجرائمُ
فما الناس إلّا واحد مِنْ ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ
فأما الذي فوقي فأعرف فَضْله ... وأتّبع فيه الحقّ والحقّ لازمُ
وأما الذي دوني فإنْ قال مُنكرًا ... صفحت له عنه وإنْ لام لائمُ
وأمّا الذي مثلي فإن زلّ أو هفا ... تفضّلت إنّ الفضل بالحُلم حاكمُ

الناشىء في مثل هذا[٢]: [الطويل]

إذا كان دوني مَنْ بُليت بِجَهْله ... أبَيْت لنفسي أنْ أُقابل بالجهلِ
فإن كنت أدنى منه في العِلم والحِجى ... عرفت له حقّ التقدُّم بالفضلِ
وإن كان مثلي في محلٍّ مِنَ النُّهى ... أردت لنفسي أن أجلّ عن المثلِ

وقال المأمون: وجدت المُسِيء إليّ عبد الله، ولو أساء إليّ عبدٌ لأخ لصفحت عنه إكرامًا له؛ فكيف لا أصفح عن عبدٍ مُسيء هو عبدٌ لله تعالى.

---

(١) الأبيات في ديوان محمود الورّاق، والبيت الأول مطلع القصيدة، وهي أيضًا للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه.

(٢) الأبيات في ديوان الناشىء الأكبر، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ولأبي فراس الحمداني[(١)]: [البسيط]

ما كنت مُذْ كنت إلّا طوع خلّاني ليست مؤاخذة الإخوان مِنْ شاني
يجني الخليل فأستجلي جنايته حتى أدلّ على عفوي وإحساني
يجني عليّ وأحنو دائمًا أبدًا لا شيء أحسن مِنْ حانٍ على جانِ

وقال رجل للأحنف في مشاجرة وقعت بينهما: إن قلت كلمة لتسمعنّ عشر كلمات، فقال الأحنف: لو قلت عشرًا لم تسمع واحدة.

ومن حكاياته الدالّة على كرم نجره القاضية له بتضعيف أجره

أنّ رجلًا جعل له ألف درهم على أن يُغْضبه، فوقف الرجل وبالغ في سبّه والأحنف يُعْرض عنه غير مكترث به، فلمّا رآه لا ينظر إليه، ولا يردّ عليه، أقبل يعضّ أنامله ويقول: واسوأتاه والله ما يمنعه من جوابي إلّا هواني عليه، ولهذا قيل: الحليم من صمت عن سماع الخِنى، وأغضت عيناه على مضض القذى.

ما اخترناه وانتقيناه من غرر الممادح المقولة فيمن أغضى عن المُسيء القادح

مدح أعرابيٌ رجلًا بالحلم، فقال: إن أذنبت إليه استغفر، فكأنه المذنب؛ وإن أحسن إليك اعتذر، فكأنه المُسيء. الحسن بن رجاء في المأمون[(٢)]: [الطويل]

صَفُوحٌ عن الإجرام حتّى كأنّه مِنَ العَفْو لم يعرف مِنَ الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مُسْلما

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

يعفو عن الذُّنب العظيـ ـم وليس يعجزه انتصارُه
صفحًا على الباغي عليـ ـه وقد أحاط به اعتذارُه

---

(١) الأبيات في ديوان أبي فراس الحمداني، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:
ويتبع الذنب ذنبًا حين يعرفني عمدًا وأتبع غفرانًا بغفرانِ
(٢) البيتان للحسن بن رجاء الكاتب في إعتاب الكتّاب، لابن الأبّار، ص ٦٢، وبلا نسبة في الفرج بعد الشدّة، للقاضي التنوخي، ص ٤٢٢.

وقال أبو الحسن مهيار بن مردويه الديلمي مِنْ أبيات[١]: [الكامل]

وإذا أباء المَرْء قال لك انتقم ... قالت خلائقك الكرام بل احْلُم
شرعٌ مِنَ المَجْد تفرّدت بدينه ... وفضيلة لسواك لم تتقدّمِ
حتى لقد ودّ البريء لو أنّه ... أدلى إليك بفضل جاه المجرمِ

ولغيره مِنْ أبيات[٢]: [السريع]

فدهره يصفح عن قدرة ... ويغفر الذَّنب على عِلْمِهِ
كأنّه يأنف مِنْ أنْ يرى ... ذنبَ امرىء أعظم مِنْ حُلْمِهِ

الفصل الثاني من الباب الثالث عشر

فيمن حلم عند الاقتدار وقَبِل مِنَ المُسِيء الاعتذار

ولنبدأ الآن بما يجب على الأحرار، مِنَ الصَّفح المتبجج بالأقدار:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يقبل عُذْرًا مِنْ معتذرٍ، صادقًا كان أو كاذبًا، لم يَرِد عليّ الحوض»[٣]. وقالوا: الكريم أوسع ما يكون مغفرةً إذا ضاقت بالمُسِيء المعذرة. شاعر: [الوافر]

إذا اعتذر المُسِيء إليك يومًا ... مِنَ التّقصير عذر فتى مُقِرّ
فصُنْه عن عتابك واعْفُ عنه ... فإنَّ العفو شيمة كل حرّ

ويُقال: توبة المذنب إقراره، وشفيع المجرم اعتذاره. وقال الشاعر[٤]: [البسيط]

اقبل معاذير مَنْ يأتيك معتذرًا ... إنْ برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك مَنْ يرضيك ظاهره ... وقد أجلّك مَنْ يعصيك مستترا

---

(١) الأبيات في ديوان مهيار الديلمي، من قصيدة مطلعها:
ما المجد إلا بالعزيمة فاعزم ... من لم يغامر لم يفز بالمغنمِ

(٢) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب للنويري، ص ٣٧٤٥.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي، وفي مسند أبي حنيفة ١٦٢: «من لم يقبل عذر مسلم يعتذر إليه، فوزْره وزر صاحب مكس».

(٤) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وينسبان أيضًا للإمام الشافعي. انظر ديوانه.

وقالوا: لا يظهر الحُلم إلّا مع الانتصار، ولا يَبِين العفو إلّا عند الاقتدار. شاعر[١]: [الخفيف]

إنّ للاعتذار حظًّا مِنَ العفـ ... ـو يراه المقرّ بالإنصافِ
ولعمري لقد أجلّك مَنْ قد ... جا مقرًّا بذلّة الاقترافِ

آخر[٢]: [الطويل]

إذا ما امرؤٌ مِنْ ذنبه جاء تائبًا ... إليك ولم تغفر له فلك الذّنبُ

وقالوا: ما أذنب مَنِ اعتذر، ولا أساء مَنِ استغفر. وقال محمد بن شيرذاذ: الأصاغر يهفون، والأكابر يعفون. كتب بعضهم إلى رئيس يعتذر إليه من ذنبٍ اقترفه[٣]: [الخفيف]

اغتفر زلّتي لتحرز فضلي ... واعفُ عنّي ولا يَفُوتك أجري
لا تَكِلْني إلى التوسّل بالعذ ... ر لعلّي أن لا أقوم بعذري

ومِنْ وصاياهم: إيّاك تكرير العذر، فإنه تذكيرٌ بالذّنب. وقال الشاعر[٤]: [الطويل]

إذا كان وجه العذر ليس ببيّنٍ ... فإنّ اطّراح العذر خيرٌ مِنَ العُذْر

ومِنْ وصاياهم: إيّاك وما يُعْتَذر منه. وقولهم: إيّاك وما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإنْ كان عندك اعتذاره؛ فما كل مَنْ أسمعته نكرًا يطيق أن توسعه منك عُذْرًا.

ذكر مَنْ قدر من الصدور فعفا وأثلج الصدور بالمِنّة وشفى

رسول الله ﷺ: وذلك أنّ أهل مكّة كانوا يؤذون رسول الله ﷺ قبل الهجرة بالقول، فقالوا: كذّاب وساحر ومجنون وغير ذلك من السّبّ والشّتم، وبعدها

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٧٢٥.
(٢) البيت بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٧٥٢.
(٣) البيتان لعبد الله بن طاهر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٤) البيت لمحمود الورّاق في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أراني إذا ما ازددت مالاً وثروةً ... وخيرًا إلى خيرٍ تزيّدت في الشّرّ

بالفعل؛ فكانوا يقصدون نكايته في نفسه وأهله ولكثرة إيذائهم له قال: «ما أُوذي أحدٌ مثل ما أُوذيت»(١)، رموه بالحجارة فشجّوا جبينه، وكَسَروا رباعيّته، ووضعوا الشوك في طريقه، وشقّوا الكرش على رأسه، وحاربوه وقتلوا أعمامه، وعذّبوا أصحابه، وألّبُوا عليه، وأخرجوه من أحبّ البِقاع إليه، وقتلوا عمّه حمزة وبقروا بطنه ومثّلوا به حتى إذا فتح الله مكّة على يديه ودخلها بغير حَمْدهم، وظهرت بها كلمته على رغمهم، أخذ بعضادتي باب الكعبة، وقام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه وشكره على ما منحه من الظفر، وقال: «لا إلـه إلّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهَزَم الأحزاب وحده»، ثم قال: «ما تقولون وما تظنّون أني فاعلٌ بكم»؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول خيرًا ونظنّ خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، وقد قدرت؛ فقال: «أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تَثْريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الرّاحمين، اذهبوا فأنتم الطُّلقاء»(٢).

ولمّا ظفر أنوشروان ببزرجمهر، وكان قد ترك دين المجوس قال: الحمد لله الذي أظفرني بك، قال: كافِيء مَنْ أعطاك ما تحبّ بما يُحبّ، فعفا عنه. وحُكِيَ عن سلم بن نوفل، وكان سيّد قومه أنّ رجلًا ضرب ولده فشجّه فأُتي به إليه، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ وما الذي أمّنك من انتقامي منك؟ فقال الرجل: إنما سوَّدناك لأنك تحلم وتَكْظم الغَيْظ، وتحتمل جهل الجاهل، فقال له: إني آثرت حلمي وكظمت غيظي واحتملت جهلك، خلّوا عنه؛ فولّى الرجل وهو يقول(٣): [الطويل]

تسوّد أقوام وليسوا بسادةٍ بل السيّد المعروف سلم بن نوفلِ

وحُكِي أنّ عبد الملك بن مروان نقم على رجل ذنبًا فهرب منه، فلمّا ظفر به همّ بقتله، فقال له الرجل: إنّ الله قد فعل ما أحببت مِنَ الظَّفر، فافعل ما يحبّه مِنَ العفو، فإنّ الانتقام عدل والتجاوز فَضْل، والله يحبّ المُحسنين؛ فعفا عنه. وأساء بعض جُلسائه عليه الأدب، فاطّرحه وجفاه، ثم دعاه بعد أيّام لأمر عنّ له، فرآه شاحب اللّون نحيلًا، فقال له: متى اعْتللت؟ فقال: ما مسّني سقم ولكنني جفوت

---

(١) أخرجه ابن حجر في فتح الباري ٧/١٦٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٢٦١، ٥٨١٧، ٣٢١٦٠.

(٢) أخرجه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣/١٧٩.

(٣) البيت للجعفري في الاشتقاق، لابن دريد، ص ٣٢٠؛ وبلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٦٨٣.

نفسي منذ جفاني الأمير، فاستحسن ذلك منه وعفا عنه. وقال الأصمعي: أُتي المنصور برجلٍ ليعاقبه على شيءٍ بلغه عنه، قال له: أتحصيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين الانتقام عدل، والتجاوز فضل، ونحن نُعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوْكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين؛ فعفا عنه. وقال المنصور لِجانٍ عجز عن الاعتذار: ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيبًا لَسِنًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مُباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة تلفى بالاستكانة والخشوع، والذلّة والخضوع، فرقّ له وعفا عنه. وسُعِيَ إلى المنصور برجلٍ من ولد الأشْتر النخعي، ذُكِر عنه المَيْل إلى بني عليّ بن أبي طالب والتعصّب لهم، فأمر بإحضاره، فلمّا مَثُل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين ذنبي أعظم مِنْ نَقْمتك، وعفوك أوسع من ذنبي؛ ثم قال[1]: [الطويل]

فهبني مسيئًا كالذي قلت ظالمًا ... فعفوًا جميلًا كي يكون لك الفَضْلُ
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما ... أتيت به أهلًا فأنت له أهلُ

فعفا عنه. وأُتِي المنصور برجلٍ أذنب، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله أمر بالعدل والإحسان، فإن أخذت في غيري بالعدل فخذ فيّ بالإحسان؛ فعفا عنه. وأُتي الهادي برجلٍ فعل ما أنكره عليه، فجعل يُقرّعه ويُوبّخه ويُهدّده ويتوعّده، فقال: يا أمير المؤمنين اعتذاري عمّا تقرّ عني عليه ردٌّ عليك، وإمساكي عن الاعتذار يُوجب ذنبًا لم أجْنِهِ، ولكني أقول[2]: [الطويل]

فإن كنت ترجو في القيامة رحمة ... فلا تزهدن في العفو عني وفي الأجرِ

ولمّا خرج إبراهيم بن المهديّ على عبد الله المأمون عندما عقد لعليّ بن موسى الرّضا بولاية العهد بعده، وأمر الناس بلباس الخضرة فكره أهل بغداد ذلك وبايعوا إبراهيم ولقّبوه بالمبارك، وذلك في سنة اثنتين ومائتين، فأقام سنة وأحد عشر شهرًا وأيّامًا يخطب له، ثم دخل المأمون بغداد في صفر سنة أربع ومائتين وهي السنة التي مات فيها الشافعيّ وعليه الخُضْرة، فاختفى إبراهيم ولم يظهر إلى سنة عشر، فلما ظفر به المأمون أوقفه بين يديه وقد اجتمع في مجلسه وجوه دولته

---

(١) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٢٨٠؛ وبهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٥٠٧.

ووزراؤها وقُضاتها وكُتّابها وأمراؤها وقوّادها، فاستشار مَنْ حضر في أمره، فكلٌ أشار بقتله، وكان فيمن حضر أحمد بن أبي خالد ساكتًا لا يتكلّم ولا يفيض معهم في شيءٍ مِنْ ذلك، فقال له المأمون: ما لك لا تنطق؟ فقال: يا أمير المؤمنين كَمْ قتل مثلك مثله، ولم يعف مثلك عن مثله؟ ولأَنْ تكون أوحد في العفو أحبّ إليّ مِنْ أن تكون شريكًا في العقوبة؛ فأعجب المأمون كلامه وعفا عنه. ويُرْوى أنه لمّا مَثُل بين يديه قال له: ما حملك على اجترام ما أدّاك إلى حتفك؟ قال: القدرة تُذْهِب الحفيظة، ووليّ الثأر مُخيّر في القصاص والعفو، والعفو منك أقرب، وقد جعلك الله فوق كل ذي حلم كما جعلني فوق كل ذي ذنب، فإن تَعْفُ فبفضلك، وإنْ تُعاقِب فبِعَدْلِك، وأنه وإنْ كان ذنبي أعظم مِنْ أن يحيط به عذرٌ فعفو أمير المؤمنين أعظم مِنْ أن يتعاظمه ذنب؛ فقال المأمون: قد رأيت وما توفيقي إلّا بالله تحقيق ظنّك في العفو عن خطيئتك، والصّفح عن جليل جُرْمك وإقالتك العثرة وأمانك على نفسك؛ وأنشد: [مخلع البسيط]

لـمّـا رأيـت الـذنـوب جُـلَّت عـن الـمُـجـازاة فـي الـعِـقـابِ
جـعـلت عـنـهـا الـعـقـاب عـفـوًا أمـضـى مـن الـرّقـاب لـلـرّقـابِ

كان أبو نوّاس قد غلب على قلبه حُبّ الأمين والتهالك فيه والغرام، حتى قال فيه[1]: [المنسرح]

عـذّب قـلـبـي ولا أقـول بـمـن خـافـه لا أخـاف مِـنْ أحـدِ
إذا تـفـكّـرت فـي هـواي لـه لمست رأسي هل طار عن جسدي

فاتّصلت هذه الأبيات بالمأمون، فقال: مَنْ يُقال هذا فيه يصلح أن يكون خليفة للمسلمين؛ فبلغ ذلك الأمين، فأمر بقتل أبي نوّاس حيث وُجِد، فشُفِّع فيه، فأمر بحبسه ولا يُمَكّن من ورقة ولا دواة، فحلق رأس عبدٍ له وكتب فيها بالفحم[2]: [مجزوء الكامل]

بـك أسـتـجـيـر مِـنَ الـرَّدَى مـتـعـوّذًا مِـنْ سـطـو بـاسـكْ

(١) البيتان في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة، وروايته في الديوان:
إنـي لـصـبٌ ولا أقـول بـمـن أخـاف مَـنْ لا يـخـاف مِـنْ أحـدِ
(٢) الأبيات في ديوان أبي نواس، وهي ثلاثة أبيات منفردة، وفي الديوان: «من سطوات باسك»، بدل: «من سطو باسك».

وحـيـاة رأسـك لا أعـو   د لـمـثـلـهـا وحـيـاة راسـكْ
مَـنْ ذا يـكـون أبـا نـوا   سك إن قـتـلـت أبـا نـوّاسـكْ

وكتب تحت الأبيات: إذا قرأ أمير المؤمنين الرُقعة يخرقها، ثم قال للغلام: سِرْ إلى دار الخلافة فإذا جئتها ناد: نصيحة لأمير المؤمنين، فإذا دخلت على الخليفة اكشف رأسك ليرى ما فيها مكتوبًا؛ ففعل الغلام ما أوصاه به، فلما قرأ الأمين الأبيات ضحك، وقال: ما ألطفه وأظرفه، وأمر بإطلاقه. وحكى عبد الرحمٰن اليزيدي قال: حضرت مجلس المأمون وهو على شراب، فدعاني وأكرهني حتى شربت، فكلمني بكلمة في حال السكر فأجبته عنها جوابًا قبيحًا، وأنا لا أعلم لما أخذ الشراب مني وغلبة السكر عليّ، فأُعلمت بذلك بعد انصراف المجلس، فكتبت إليه(١): [الطويل]

أنا المُذنب الخطّاء والعفو واسع   ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِف العَفْوُ
ثملت فأبدى منّي الكأس بعض ما   كرهت وما إن يستوي السكر والصّحوُ
تنصّلت من ذنبي تنصّل ضارع   إلى مَنْ إليه يُحسن العفو والسهوُ
فإن تَعْفُ عني ألف خطوى واسعًا   وإن تكن الأخرى فقد قَصُر الخطوُ

فلمّا قرأ المأمون رقعته، قال: قد صفحنا عنك، إنّ مجلس الشراب يُطوى بما فيه؛ ويقال: بل وقع على الرقعة(٢): [الخفيف]

إنـمـا مـجـلس الـنـدامـى بـسـاط   لـلـمـودّات بـيـنـهـم وضـعـوْهُ
فـإذا مـا انـتـهـى إلـى مـا أرادوا   مـن حـديـث ولـذّة رفـعـوْهُ

حكاه المرزباني في كتاب طبقات الشعراء، وعُرِف باليزيدي لأنه كان يؤدّب ولد يزيد بن منصور الحميري خال المهديّ. وقال الحسن بن سهل للمأمون في رجل مُسِيء: هِبْهُ لي، فقال: وكيف أهبه لمن ليس به قدرة عليه، وعفا عنه. وأحضر إليه رجل أذنب، فقال له: أنت الذي فعل كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه، واتّكل على عَفوك؛ فعفا عنه.

---

(١) الأبيات لإبراهيم بن يحيى بن المبارك اليزيدي في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

وقال الصّولي: ما كان في الخلفاء أحْلَم من الواثق ولا أصْبَر منه على أذى، وكان يتشبّه بالمأمون؛ فممّا ذُكِر عنه أنه كان يعجبه غناء أبي حشيشة الطنبوري، فوجد المسدود المغني من ذلك حسدًا، فكتب في رقعة بيتين يهجو بهما الواثق، وكانت الرقعة معه لا تبرح، واتّفق أن كتب رقعة يسأل فيها حاجة من الواثق، فغلط وأعطاه الرقعة التي فيها البيتان ففتحها، فإذا فيها[1]: [الهزج]

مِنَ المسدود في الأنف إلى المسدود في العَيْنِ
أنا طبلٌ له شقٌّ فيا طبل بشقَّيْنِ

وكان على إحدى عينَيْ الواثق بياض، وإلى ذلك نحا المسدود، فلمّا قرأهما علم أنهما فيه، فقال له: قد غلطت في ورقة الحاجة، فاحترس مِنْ مثلها؛ وردَّها إليه وقضى حاجته، ولم يتغيّر لها عمّا كان عليه. ولمّا ظفر المتوكّل بمحمد بن المغيث الرّبعي، وكان قد خرج عليه في سنة أربع وثلاثين ومائتين، فلمّا وقف بين يديه وهو مكبّل، قال له: ما حملك على أنْ خرجت عليّ وأنت لا ذو مال ولا ذو مَدَد مِنَ رجال؟ فقال: الشِّقْوة والجُبْن يا أمير المؤمنين، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خَلْقه، وإني بين ظنَّيْن أسبقهما إلى قلبي أوْلَى بك من الآخر؛ ثم أنشد: [الطويل]

أبى القوم إلّا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والعفو في الله أجملُ
وهل أنا إلّا جبلة مِنْ خطيئة وعفوك مِنْ نور الخلافة يُجْبَلُ
تضاءل ذنبي عند عفوك قلّة فمُنَّ بعفوٍ منك والعفو أفضلُ
وإنك خير السّابقين إلى التُّقى ولا شكّ أنّ خير الفِعَالين تفعلُ

وأمر بفكّ قيده وغلّه وخلع عليه وأمر له بصِلَة.

وهجا الحيص بيص الشاعر المسترشد، فأباح دمه، فهرب إلى دُبَيْس بن صدقة، ثمّ عاد إلى بغداد مستخفيًا وكتب إلى المسترشد يستعطفه: لولا جرائم العبيد لم يظهر حُلْم الموالي، وقد أتَيْتك مُسْتجيرًا بعفوك مِنْ سطوتك، وبحِلْمك مِنْ نقمتك؛ فوقع على رقعته ليوغر بمسارعة العفو مع عظيم الجرم احتقارًا بالمعفوّ عنه.

(١) البيتان في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٧٩٢.

مكرمة لا نظير لها ولم يكتب المؤرّخون مثلها

حكوا عن محمّد بن حميد الطّوسي أنّه كان يومًا على غذائه، وإذا بضجّة عظيمة على الباب فرفع رأسه، وقال لبعض غلمانه: ما هذه الضجّة؟ مَنْ كان عند الباب فليدخل، فخرج الغلام وعاد، وقال: يا مولاي إنّ فلانًا أُخذ وجِيءَ به موثوقًا بالحديد والغلمان والشُّرَط ينتظرون أمرك فيه، فرفع يده من الطعام سرورًا بأخذه، فقال رجل ممّن كان حاضرًا عنده: الحمد لله الذي أمكنك من عدوّك، فسبيلك أن تسقي الأرض من دمه؛ وقال آخر: بل يُصْلب حيًا ويُعذّب حتى يموت؛ وتكلّم كلّ أحد بما وفق له وهو ساكت مطرق، ثم رفع رأسه وقال: يا غلام فكّ عنه وثاقه وأدخله إلينا مُكرّمًا، فلما يكن بأسرع ممّا امتثل أمره وأُدخل إليه رجل لا دم فيه، فلمّا رآه هشّ له ورفع مجلسه وأمر بتجديد الطعام وجعل يبسطه ويلقّمه حتى انتهى الطعام، ثم أمر له بكسوة حسنة وصِلة جميلة وأمر بردّه إلى أهله مُكرّمًا ولم يُعاتبه بحرفٍ واحد على جنايته، ثم التفت إلى جلسائه وقال لهم: إنّ أفضل الأصحاب مَنْ حضّ الصاحب على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم، وحَسَّن له أن يجازي الإحسان بضعفه والإساءة عمّن أساء إليه بصَفْحه، إنّا إذا جازينا مَنْ أساء إلينا بمثل ما أساء فأين موضع الشكر عمّا أُتيح من الظفر، إنه ينبغي لمن يحضر مجالس الملوك أن يُمْسك إلّا عن قولٍ سديد، وأمرٍ رشيد، فإنّ ذلك أدوَم للنّعمة، وأجمع للإلفة، إنّ الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١].

وأحسن منها ما كتب به المعتصم إلى عبد الله بن طاهر: عافانا الله وإيّاك، قد كانت عليك هناة غفرتها لك لاقتداري عليك، وقد بقيت في قلبي عليك حزازات أخاف عليك منها عند نظري إليك، فإن أتاك منّي ألف كتاب أستقدمك فيها لا تقدم، وحَسْبك ما أنا عليه لك اطلاعي إياك على ما في ضميري، والسّلام.

وممّن أحسن من الأماثل إلى من أساء إليه
وأسبل عند القدرة ستر المنّ عليه

يزيد بن المهلّب، وذلك أنه بلغه أنّ حمزة بن بيض الشاعر هجاه فأحضره وأمر بتجريده وضربه، وكان عليه حلّة ديباج كان المهلّب وهبها له فعَسُر نزعها فأمر

بتخريقها، فلمّا عزم على ذلك رآه يزيد يهمهم بشفتيه، فقال له: وَيْحك ما الذي تقول؟ قال: قلت[1]: [الطويل]

لعمرك ما الدّيباج خرّقت وحده ولكنّما خرّقت جلد المُهلّبِ

فأطلقه واعتذر إليه ووصله.

ولمّا ظفر الحجّاج بمحمد بن عبد الرحمٰن بن الأشعث، وكان قد خرج عليه وخلع عبد الملك بن مروان، فأمر بضرب أعناق الجند الذين ظفر بهم حتى أتى على رجلٍ من بني تميم، فقال: والله أيّها الأمير لَئِنْ أسأنا في الأدب لما أحسنت في العقوبة، فقال الحجّاج: أُفٍّ لهذه الجيف أمَا كان فيهم مَنْ يُحْسن بمثل هذا؛ وأمر بإطلاق مَنْ بَقِي وعفا عنهم.

ومِنْ أخبار الحجّاج في العفو عن عدوّه بعد الظّفر به ما حُكِيَ أنه لمّا ظفر بعامر بن حطاب مع جماعة مِنَ الخوارج الصفرية، وكان حَنِقًا عليه لبسالته وشجاعته ونكايته في أصحابه، فقال: يا غلام اضرب عنق ابن الفاعلة، فقال عامر: يا حجّاج بِئْس ما أدّبك أهلك، أبَعْدَ الموت غاية استنعتك بها ما يؤمنك؟ لو رددت عليك أضعاف ما قلت؛ فاستَحيا الحجّاج منه، وقال له: أفيك موضع للصّنيعة؟ قال: أجل؛ فأمر له بفرس وسرج وسيف وخلّى سبيله. ويقال: إنه لمّا صار إلى أصحابه قالوا له: عُدْ إلى قتال الفاسق فالله أطلقك، فقال: هَيْهات غلّ يدًا مطلقها، وارتهن رقبة مُعْتقها. وقال[2]: [الكامل]

أأُقاتل الحجّاج عن ملكوته بيد تقرّ بأنها مولاتُهُ
إنّي إذًا لأخو الدّناءة والّذي عفت على عرفانه جهلاتُهُ
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه في الصفّ واحتجّت له فعلاتُهُ
أأقول جرت عليّ إني عند ذا لاحقُّ مَنْ جارت عليه وُلاتُهُ
تالله لا كدت الأمير بآلةٍ وجوارحي وسلاحها آلاتُهُ
أأكيده وعليّ سخطة خالقي وعليه رحمة مالكي وصلاتُهُ
لأشدّ من كفر الكفور وجحده نارٌ تسوء لِلَفْحها حالاتُه

(١) البيت لزياد الأعجم في ديوانه، وهو بيت منفرد.
(٢) الأبيات لعمران السدوسي في ديوانه، والبيت الأوّل مطلع القصيدة.

وتحدّث الأكفاء أنّ صنائعًا غرست له فتحنظلت نخلاتُهُ
أبت الحزامة أن أبيت مُصعّرًا خدّي وخيل الحقّ منتعلاتُهُ
فإليكم عني فإنّي مُفلتٌ هَيْهاته لا يجرّني إفلاتُهُ

نقم طلحة بن جعفر المتوكّل المنعوت بالموفّق على هارون بن عبد الملك، فوقف بين يديه وأنشد: [الخفيف]

يا بني هاشم بن عبد مناف لكُم حادثُ العلا والقديمُ
ليس عندي وإن تغيّرت إلّا طاعة محنة وقلبٌ سليمُ
وانتظار الرّضا فإن رضا السا دات عزٌ وعتبهم تقويمُ

فعفا عنه ووصله. وكان المهلّب بن شاهين الشاعر عاملًا بنهر فروة ونهر رجا لعزيز الدين، فظهرت عليه خيانة فأشخصه وتوعّده، فلمّا مَثل بين يديه قال[1]: [الكامل]

قل للعزيز أدام ربّي عزّه وأناله مِنْ خَيْره مَكْنونَهُ
إني جنيت ولم تزل نُبل الورى يَهِبون للخدام ما يجنونَهُ
ولقد جمعت مِنَ الجُنون فنونه فأجمع مِنَ الصّفح الجميل فنونَهُ
مَنْ كان يرجو عفو مَنْ هو فوقه فَلْيَعْفُ عن جُرْم الذي هو دُونَهُ

فعفا عنه وأعاده إلى عمله. وقال أبو الفتح محمد بن أردشير: كنت بالسيرجان مع الوزير أبي غالب الحسن بن منصور الملقب بذي السعادتين، فاتّفق أن شربت عنده يومًا فسكرت سكرًا سقط معه سفتجتي مِنْ كُمّي وفيها رقاع قد أعطانيها أربابها لأتنجز لهم توقيعاته عليها، ومِنْ جملتها رقعتان بخطّي قد كتبت في إحداهما[2]: [الرمل]

يا قليل الخير موفور الصّلفْ والذي في البغي قد حاز الشّرفْ
كُنْ لئيمًا وتواضع تحتمل وكريمًا يحتمل منك الصّلفْ

---

(١) الأبيات للمهذّب بن شاهين (وليس المهلّب) في خريدة القصرة، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

(٢) البيتان لأبي علي الزوزني الكاتب، في يتيمة الدهر، للثعالبي، ٤/ ١١٦٥ وبلا نسبة في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة الوزير أبي غالب الحسن بن منصور، ذي السعادتين.

وفي الأخرى[1]: [الرجز]

يا طارق الباب على عبد الصَّمدْ   لا تـطرق الـبـاب فـمـا ثـمّ أحـدْ

فأخذ السّفتجة وفتحها فوقع على الرّقاع بجميع ما فيها، ووقع على الرقعة التي فيها البيتان يطلق له ألفا درهم، وعلى الأخرى التي فيها البيت الواحد يوجب له في كل شهر ألف درهم من اتّصال الشهر الذي نحن فيه، وردّ الجميع إلى السفتجة، وجعلها في كُمّي وأصبحت مِنَ الغداة ولا عِلْم عندي بما جرى، فاستدعاني إلى الطعام وقت الظُّهر، فلم يرَ عندي أثرًا للفعلة التي فعلتها إذًا وأنا مِنَ الضَّالّين، ولا سمع منّي شكرًا على صنيعه، فقال لي: وقفت على الرّقاع؟ قلت: لا أيّها الوزير، ثم ذكرت ما كان في الأوراق فتصبّبت عرقًا واشتغل قلبي لما وجد فيها بخطّي، فنهضت إلى الرّقاع فتأمّلتها وعدت إليه فشكرته واعتذرت مما وجد، فقال: لا تعتذر فإنّا نستحقّه إذا لم نَقْضِ واجبًا، ولم نُراعِ صاحبًا.

وحدّث محمد بن هلال بن المحسن الصابي في كتاب الهفوات عن الفرج الرماني الكاتب، قال: قَدِم علينا أبو القاسم المعمر بن الحسين المُدْلجيّ مع الوزير أبي القاسم العلاء بن الحسين الأهوازي، وكنت إذ ذاك كاتب الإنشاء وخليفة العلاء، فبعث إليّ المعمر يطلب مني بغلة مسرجة، ولم تكن منزلته عندي منزلة مَنْ أراعيه، فرددت الرُّقعة مع رسوله ولم أُجِبْه عنها، ثم إنه بعث إليّ الرقعة وعلى ظهرها مكتوب: [الطويل]

عسى سائلٌ ذو حاجة إنْ منعته   مِنَ اليوم سؤلًا أن يكون له غد

فإنك لا تدري إذا جاء سائلٌ   أأنت بما تعطيه أوْ هو أسعد

فأعدت إليه الرُّقعة مِنْ غير جواب كما فعلت أوّلًا، وضرب الدّهر ضرباته فصرف العلاء ووزير المدلجيّ، وكنت إذ ذاك متولّيًا أعمالًا كثيرة، فأنفذ إليّ مَنْ أشخصني إلى شيراز، ووردت عليه وأنا لا أشكّ في قتلي أو القبض عليّ لما تقدم من سوء فِعْلي معه، فقرّبني وأكرمني وأقمت متردّدًا إليه أيّامًا وهو يزيد في برّي وإكرامي، وأنا مِنْ فعله متعجّب وله مستظرف، فلمّا كان بعد أيام قمت من مجلسه

(١) الخبر والشعر في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة الوزير أبي غالب الحسن بن منصور، ذي السعادتين.

منصرفًا فأتبعني الحاجب وقال: الوزير يريد أن يخلو بك، فلم يداخلني رَيْب في القبض عليّ، فأقمت خائفًا أترقّب ما يأمر به فيّ، فلمّا خلا مجلسه استدعاني وأسرّ إلى بعض خدمه شيئًا فمضى وعاد معه الرّقعة بعينها فسلّمها إليّ، فلمّا رأيتها وددت أنّ الأرض ساخت بي، وقرأت بحيث يسمع: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٣]، فقال لي: لا ترع أوقفتك على سوء فعلك حتى لا تستصغر بعدها أحدًا وتطرح مراعاة العواقب، وليكن هذا الفعل لأخلاقك مهذّبًا؛ ثم خلع عليّ ووصلني وردّني إلى عملي.

وإلى هذا أشار بعض البلغاء الحكماء في التحريض على اصطناع الكرام الخافضة مِنْ أقدارهم الأيام في قوله: أَحْسِنْ إلى كل مَنْ له سابقة في الأدب وسابقة في الفضل، ولا يزهدنّك فيه سوء الحاجة منه، وإدبار الدّولة عنه، فإنك لا تخلو في اصطناعك له وإحسانك إليه مِنْ نفس حرّة تملك رقّها، أو مكرمة حسنة تُوفي حقّها، فإنّ الدّهر يجبر كما يكسر، والدّولة تُقبل ثم تُدبر، ومَنْ زرع خيرًا حصد أجرًا، ومَنْ اصطنع حرًّا استفاد شكرًا؛ وأنشد[1]: [الطويل]

وعدّ مِنَ الرّحمٰن فضلًا ونعمةً ... عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغبًا ... فإنك لا تدري متى أنت راغبُ

والجيّد في هذا المعنى قولُ مَنْ قال[2]: [البسيط]

لا تحقرنّ امرأً قد كان ذا ضِعَةٍ ... فكَمْ وضيعٍ مِنَ الأقوام قد رأسا
فرُبّ قوم جفَوْناهم فلم نَرَهُمْ ... أهلًا لخدمتنا صاروا لنا رُؤسا

عُدْنا والعود أحمد: دخل أبو الصّقر إسمٰعيل بن بلبل قبل وزارته للمعتمد على صاعد بن مخلد في وزارته، وفي المجلس أبو العباس بن ثوابة، فسأل صاعد عن رجل، فقال أبو الصقر: أنفي يريد نفي، فقال ابن ثوابة: في الخرء؛ فتضاحك الناس وخجل أبو الصقر، فلمّا ولي أبو الصقر الوزارة دخل عليه ابن ثوابة، وقال: تالله لقد آثرك الله علينا وإنْ كنا لخاطئين، فقال أبو الصقر: لا تثريب عليك اليوم يا أبا العباس، يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين.

(١) البيتان لأبي الأسود الدّؤلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٢) البيتان لمحمد بن نصر في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٤٨٠.

وحدّث أبو هريرة الشاعر المصري قال: خرجت يومًا إلى بركة الحبش بمصر متنزّهًا في أيّام الربيع حين أخذت الأرض زخرفها وازيّنت ومعي آنية شراب وكتاب، وكانت تلك عادتي في كلّ سنة، فجعلت أشرب وأُنادم كتابي طول يومي، فلمّا كادت الشمس أن تغرب وتلمح في أجنحة الطَّيْر أخذت في الانصراف إلى منزلي وأنا ثملٌ، فبينما أنا أمشي وإذا بفارس خرج من مصر ملتثمًا لا يبين مِنْ وجهه غير عينيه، فسلّم وقال: مِنْ أين أقبل الشيوخ؟ فقلت في نفسي: أجنّ الرجل ومَنْ يرى معي، فالتفتُّ فإذا خلفي ذود تيوس وراعٍ يسوقه، فقلت: حضرنا ملاك الوالدة أصلحك الله؛ فضحك وانصرف، ولمّا كان بعد أيّام دخلت إلى الأمير تكين في حاجة فقضاها لي وأسرّني بألف درهم، وقال: هذه حق حضورك ذاك الملاك؛ فعلمتُ أنه الذي لَقِيني فأخذتها وانصرفت.

مُلَح مكارم يغتبط بها القلب والسَّمع لدلالتها على كرم النجار والطبع

قتل للأحنف بن قيس ولد، وكان قاتله أخو الأحنف، فأُتي به مكتوفًا ليأخذه به، فلمّا رآه بكى وأنشد[١]: [البسيط]

أقول للنفس تأنيبًا وتسلية ... إحدى يديّ أصابتني ولم تردِ
كلاهما خلف من بعد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ولآخر في معناه وقد قتل قومه أخاه، ولم يقصد أحد بنكاية ولا توخّاه[٢]: [الكامل الأحذّ]

قومي هم قتلوا أُميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي
فلَئِنْ عفوت لأعفون جَلَلًا ... ولَئِن سَطَوْت لأُوهنن عظمي

وقيل للأحنف بن قيس: مِمّن تعلّمت الحُلم؟ قال: مِنْ قيس بن عاصم المنقريّ بينا هو ذات يوم جالس في داره إذ أتته جارية بسفود عليه شواء، فسقط مِنْ يدها على ولد له صغير فمات، فدُهِشَت الجارية واختلط عقلها، فلمّا رأى ذلك منها قال: لا رَوْع عليك، اذهبي فأنت حرّة لله تعالى.

---

(١) البيتان بلا نسبة في الأشباه والنظائر، للخالديين، ص ٢٠٨؛ وأمالي أبي علي القالي، ص ٦٥٤.
(٢) البيتان بلا نسبة في الأشباه والنظائر، للخالديين، ص ١٥٠؛ وأمالي أبي علي القالي، ص ٦٥٣.

خيرٌ منها أو مثلها ما حُكِي أنّ بعض ملوك الفرس، وكان عظيم المملكة سيّء المُلْكة، شريف الهمّة شديد النّقمة، قرّب إليه صاحب مطبخه طعامًا، فوقعت نقطة من الطعام على المائدة، فزوى لها الملك وجهه وأعرض عنه إعراضًا تحقّق به الطبّاخ قتله، فعمد إلى الصحفة فكفأها على المائدة، فقال له الملك: ما حملك على ما فعلت، وقد علمت أنّ سقوط النقطة أخطأت بها يدك ولم يُجْرِها تعمّدك، فما عندك في الثانية؟ قال: استحييت أن يُسمع عن الملك أنه استَوجب قتلي واستباح دمي مع قديم خدمتي ولزوم حرمتي في نقطة واحدة أخطأت بها يدي، ولم يُجْرِها تعمّدي، فأردت أن يعظم ذنبي ليحسن بالملك قتلي، ويُعْذر في قتل مَنْ فعل مثل فِعْلي؛ فقال الملك: إنْ كان حُسْن صنيعك يُنْجيك من القتل والتعذيب، فليس مُنْجيك من التّأديب، اجلدوه مائة، واخلعوا عليه خلع الرّضا، وسوّغوه أنعامًا يؤذن بالعفو عمّا مضى.

ولنعقب هذا الفصل من لطيف الاعتذار ما نستعطف به القلوب بعد النّفار

جرى بين الحسين بن عليّ وبين أخيه محمد ابن الحنفية رضي الله عنهما كلام وافترقا متغاضبين، فلمّا وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين بعد البسملة: مِنْ محمّد بن عليّ إلى أخيه الحسين بن عليّ، أمّا بعد؛ فإنّ لك شرفًا لا أبلغه، وفضلًا لا أُدركه، فإنّ أُمي امرأة من بني حنيفة، وأمّك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولو كان مِلْءِ الأرض نساء مثل أمّي ما وَفَيْن بأُمّك، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعلَيْك وسِرْ إليّ لترضيني وإيّاك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أوْلَى به منّي، والسلام؛ فلبس الحسين رداءه ونعليه وجا إليه وترضّاه.

وكان في قلب الأمين من إسحٰق الموصلّي شيء، فأهدى له جارية فردّها، فكتب إليه إسحٰق[1]: [المتقارب]

هتكت الضمير بردّ اللّطف   وكشفت أمرك لي فانكشفْ
فإنْ كنت تحقد شيئًا مضى   فهِبْ للخلافة ما قد سلفْ
وجُدْ لي بالعفو عن زلّتي   فبالفضل تأخذ أهل الشّرفْ

(١) الأبيات في ديوان إسحٰق الموصلي، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

فلم يفعل، فكتب إليه[١]: [المجتث]

أتيت ذنبًا عظيمًا وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أوّلا فامنُنْ بصفحك عنه

فعاد إلى الجميل.

وقال أبو بكر الصولي: أحسن رقعة كُتِبَتْ في الاعتذار رقعة كتب بها الرّاضي إلى أخيه المُتّقي، وكان قد جرى بينهما كلام بحضرة المؤدّب، وكان المتّقي قد اعتدى على الراضي: أنا مُعترفٌ لك بالعبوديّة فرضًا، وأنت معترف لي بالأخوّة فضلًا، والعبد يُذْنب والمَوْلى يعفو ويغفر، وقد قال الشاعر[٢]: [السريع]

يا ذا الذي يغضب في غير شيّ اعتب فعتباك حبيب إليّ
أنت عليّ أنك لي ظالم أعزّ خلق الله طرًّا عليّ

فلمّا وقف المتّقي على الرقعة هبّت عليه منها رياح الأريحيّة، فعطفت منه عواطف النفس الأبيّة، ومضى إليه راضيًا، وأكبّ عليه باكيًا، وانحسمت بينهما مواد الهجر بقبول صادق العُذر، وأُزيل مصون الحقد، وانتظم بانتظام الشمل وانتظام العقد.

وقّع ذو الرئاستين الفضل بن سهل إلى طاهر بن الحسين: والله يا نصف إنسان لَئِنْ أمرت لأنفذنّ، ولئن أنفذت لأُبرمنّ، ولئن أبرمت لأتلقنّ؛ فأجابه طاهر: إنما أنا أعزّ الله كالأمة السوداء إن حُمِل عليها دمدمت، وإن رفّه عنها أمسكت، وإن عُوقبت فبِمَا وجب عليها، وإن عُفِيَ عنها فبالإحسان إليها؛ فعفا عنه.

وما ألطف ما كتب به بعض الفضلاء إلى أخيه يستعطفه: أنت سليل نبوّة، وشقيق أُخوّة، أصلها من سوحة وفروعها من دوحة، فنحن لذة أوان، ونشوان زمان، ورضيعا لبان، وركيضا أُمومة، وغُصْنا جرثومة، درجًا من وكر، ومهدًا في حجر، فكيف تُوقظ عين الدّهر، وتبسط يد الهجر، وتنبّه غافي الرّقاد، والحسود لنا بمرصاد. وكتب آخر إلى صديقٍ يستعطفه: أصفيت لك ودّي، وأكديت لك عقدي، ومَنَحْتُك إخائي ولم أُمزّق لك صفائي، فقرْب الإخاء بالودّ أنقع للغلّة،

(١) البيتان في ديوان إسحٰق الموصلي، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٤١٢.

وأنفع للعلّة، وأسكن للرّوْعة، وأشفى للّوْعة، وأطفأ للحرقة، وآنس للفرقة. وقال أعرابيّ لأميرٍ نقم: هذا مقام مَنْ لا يتّكل على المعذرة، بل يعتمد منك على المغفرة. وقال آخر: لأنْ يُحسن في العفو وقد أسأنا في الذّنب أوْلى مِنْ أن يُسيء بالعقوبة، وقد أحسنّا في الاعتذار. واعتذر آخر، فقال: لُذْت بعفوك واسْتَجرت بصفحك، فأذِقْني حلاوة الرّضا، وأجِرْني مِنْ مرارة السُّخط فيما مضى. وكتب آخر: لكلّ ذنبٍ عفوٌ وعقوبة، فذنوب الخاصّة مستورة، وسيّئاتهم مغفورة، وذنب مثلي مِنَ العامّة لا يُغْفر، وكسره لا يُجْبر؛ وإنْ كان ولا بدّ مِنَ العقوبة، فعاقِبْني بإعراض لا يؤدّي إلى إبعاد، ولا يُفْضي في الصفح إلى ميعاد؛ ولأن تُحْسنوا وقد أسأنا خيرٌ مِنْ أن تسيؤوا وقد أحسنّا، فإنْ كان إحسان منّا فما أحقّكم بمكافأته، وإنْ كان منكم فما أحقّكم باستتمامه. أبيات في المعنى[1]: [الوافر]

أقِلْ ذا الودّ عثرته وقِفْه ... على سُنَن الطريق المستقيمَهْ
ولا تُسْرع بمعتبة إليه ... فقد يهفو ونيّته سليمَهْ

آخر[2]: [الطويل]

أسأت ولم أُحسن وجئتك هاربًا ... وأين لعبدٍ مِنْ مواليه مَهْربُ
يؤمل غفرانًا فإن خاب ظنّه ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

آخر[3]: [الكامل]

إنْ كان ذنبي قد أحاط بزلّتي ... فأحِطْ بذنبي عفوك المَأمُولا
فلقد رجَوْتك في الذي لا يُرْتجى ... في مثله أحدٌ فنِلْت السولا
وضللت عنك لم يكن لي مذهبٌ ... فوجدت حلمك لي عليك دليلا

آخر: [البسيط]

يا مَنْ أسأت وبالإحسان قابلني ... وجوده لجميع الناس مبذولُ
قد جاء عبدك يا مولاي معتذرًا ... وأنت للعفو مرجوّ ومأمولُ

---

(١) البيتان لكشاجم في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان بلا نسبة في طبقات الأولياء، لابن الملقن، ص ٢٦٧.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في إعتاب الكتاب، لابن الأبّار، ص ٢٧٨.

آخر: [البسيط]

إنّ الكرام إذا ما اسْتُعْطِفوا عَطَفوا ... والحرّ يغضى ويهفو وهو معترف
والعفو بعد اقتدار فعله كرمٌ ... والهجر بعد اعتداء فِعْله شرف
عاقِبْ بما شِئْت غير الهجر أرْضَ به ... فالهجر فيه لأحزان الفتى تلف

آخر[1]: [البسيط]

هَبْني أسأت فأين الفضل والكرم ... إذ قادني نحوك الإذعان والنّدم
يا خَيْر مَنْ مُدّت الأيدي إليه أمَا ... ترثي لشيخٍ نعاه عندك الهرم
بالغت في السُّخْط فاصفح صفح مُقتدر ... إنّ الملوك إذا ما اسْتُرْحِموا رَحموا

الخبزأرزي: [الخفيف]

نحن قومٌ نرى فراقك عَيْبًا ... ونرى القُرْب منك حَتْمًا وفرضا
أنت إن كنت قد غضبت جعلنا ... لك حرّ الوجوه أرضًا لترضى

آخر[2]: [المتقارب]

ليالي صدودك ليست تضي ... وعمر تجنّيك ما ينقضي
وما يَألْف القلب يا سيّدي ... سوى ما تحبّ وما ترتضي

آخر: [السريع]

ما أحسن العفو مِنَ القادرِ ... لا سيما مِنْ قادرٍ قاهرِ
إنْ كان لي ذنبٌ ولا ذنبَ لي ... فما له غيرك مِنْ غافرِ
بحُرْمة الودّ الذي بيننا ... لا تفسد الأوّل بالآخرِ

آخر: [الوافر]

أسأت إليك ثم أسأت عَوْدًا ... فأين عوائد الصفح الجميل
وأين العفو مِنْ مولى عزيز ... يجود به على عبدٍ ذليل

---

(١) الأبيات للحاجب المصحفي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) البيتان في أخبار الراضي بالله والمتقي لله، للصولي، ص ٢٨٥.

آخر: [مجزوء الكامل]

إن كـنـتُ عـبـدًا مُـذْنـبًـا فـاعـطف عليّ بحُسْن رأيك
أو كـنـتُ لـسـتُ بـمُـذْنـبٍ فـدَعْ الـتّـمادي في جفائك

بعض العرب: [الطويل]

فـهـلّا أبَـيْـت الـلّعن لا تُـخْزيننا بذنبِ امرىء أمسى من العِلم مُعْدَما
فما العَبْد بالعبد الذي ليس مُذْنبًا وما الربّ بالربّ الذي ليس مُنْعِما

آخر[1]: [الوافر]

ومـا قـابَـلْت سَـخْطك بـاعـتـذارٍ ولـكـنّـي أقـول كـمـا تـقـولُ
سـأطـرق بـاب عـفـوك بـاعـتـراف ويـحكـم بيننا الـخُلُق الـجميلُ

آخر[2]: [البسيط]

هِبْني كما زعم الوَاشُون لا رحموا أنـي أسـأت وزلّـت مـنـيَ الـقَـدَمُ
وهِبْك جارٍ على ذا العهد في جُرْم لـم أجْنِهِ ضاق منك العفو والكرمُ
ما أنْصَفَتْني في حكمِ الهوى أُذُنٌ تصغي لِلَوْمي وعن عُذْري بها صَمَمُ

آخر[3]: [الكامل]

أخلاقك الـغـرّ الـسـجـايا مـا لـهـا حملت رديّ العنف وهي سُلافُ
والبِشْر في مرآة وجهك ما له يـخـفـى وأنـت الـجـوهـر الـشّـفّـافُ

آخر: [الخفيف]

لَيْت شعري وقد تمادى بك الهجـ ـر أمِـنْـك الـجـفـاء أمْ كـان مـنّـي
فـلـئـن جِـئْـتـه فـعـنـك عـفـا الـلّـ ـه وإن كنت جئته فاعْفُ عنّي

---

(١) البيتان بلا نسبة في ديوان الصبابة، لابن بي حجلة، ص ٣٦٣.

(٢) الأبيات لأبي سعد الكاتب الكرماني، محمد بن علي بن محمد بن المطلب في فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، في ترجمته؛ ولصدقة بن منصور بن دبيس الأسدي، سيف الدولة، في خريدة القصر، للعماد الأصفهاني، في ترجمته.

(٣) البيتان لمهيار الديلمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

سـأل الـلّـوى وسـؤالـه إلـحـافُ لـو كـان مِنْ أهـل الـلّـوى إسـعـافُ

وكلّ الناس عيالٌ على النابغة الذّبياني في قوله للنّعمان بن المنذر مِنْ أبيات جاء منها[(١)]: [الطويل]

حلفت ولم أترك لنفسك رَيْبة ... ولَيْس وراء الله للمرء مذهبُ
لَئِن كنت قد بلغت عني جناية ... لمبلغك الواشي أغشّ وأكذبُ
فلا تتركني بالوعيد كأنّني ... إلى الناس مطليّ به القار أجربُ
فلست بمستبق أخًا لا تَلُمّه ... على شعثٍ أيّ الرجال المهذبُ

أبو نوّاس يستعطف الأمين، وكتب بها إليه من الحبس[(٢)]: [الطويل]

تذكر أمين الله والعهد يُذكر ... مقامي وإنشاديك والناس حضرُ
ونَثْري عليك الدرّ يا درّ هاشم ... فمن ذا رأى درًا على الدُّرّ يُنْثَرُ
مَضَتْ لي شهور مُذْ حُبِسْت ثلاثة ... كأني قد أذنبت ما ليس يُغْفرُ
فإن كنت لم أُذنب ففيم حبستني ... وإن كنت ذا ذنبٍ فعفوك أكبرُ

إسحٰق الموصليّ[(٣)]: [البسيط]

لا شَيْء أعظمُ مِنْ ذَنْبي سوى أمَلي ... لعفوك اليوم عن ذنبي وعن زَلَلي
فإن يَكُنْ ذا وذا عندي قد اجتمعا ... لأنت أعظم مِنْ ذنبي ومِنْ أملي

الفصل الثالث من الباب الثالث عشر

في ذمّ العفو عمّن أساء وانتهك حُرُمات الرؤساء

قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشّورى: الآية ٤١]. وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ أمر بقتل أبي عزّة الشاعر لِمَا كان يعرّض به من أذى النبيّ ﷺ بلسانه، ويُحرّض عليه قبائل قريش، وفي فعله لنا أُسوة، قال ابن إسحٰق: لمّا أُخذ أبو عزّة الشاعر يوم بدر وأُتي به إلى رسول الله ﷺ قال: يا

(١) الأبيات في ديوان النابغة الذبياني، من قصيدة مطلعها:
أتاني أبيت اللّعن أنك لُمْتني ... وتلك التي أهتمّ منها وأنصبُ
(٢) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) البيتان في ديوان إسحٰق الموصلي، وهما بيتان منفردان.

رسول الله تصدّق بي على بناتي واعْفُ عنّي عفا الله عنك، قال: «نعم، على أنْ لا تُعِين عليّ بقولٍ ولا فعلٍ»، فعاهده على ذلك وخلّى سبيله، ثم إنه خرج مع أبي سفيان يحرّض قريشًا على قتال النبيّ ﷺ، فأُخذ يوم أُحد فأُتي به رسول الله ﷺ فقال له: «ألم تُعاهدني على أنْ لا تُعين عليّ بقولٍ ولا فعل»؟ فقال: غلبت، فتصدّق بي على بناتي واعفُ عني عفا الله عنك، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ العفو لمكرمة ما مثلها مَكْرُمة، ولكن لا يُلْدَغ مُؤمن مِنْ جُحْرٍ مرّتين»، ثم أمر بقتله فقُتِل[١].

فمما للحكماء من تحريض الحرّ على مقابلة المسيء بالنّكال المُرّ

قالوا: تواضع للمُحْسن إليك وإنْ كان عبدًا حبشيًا، وانْتَصِف ممّن أساء إليك وإنْ كان حُرًّا قُرَشيًا. وقال عليّ رضي الله عنه وكرّم وجهه: الخير بالخير والبادي أكرم، والشرُّ بالشرّ والبادي أظلم. وقال الشعبي: يُعْجبني الرجل إذا سِيمَ هوانًا دعته الأنفة إلى المُكافأة، وجزاء سيّئة سيّئة مثلها، فبلغ كلامه الحجّاج؛ فقال: لله درّه، أيّ رجل بين جنبيه؛ وتمثّل: [الطويل]

ولا خير في عِرْض امرئٍ لا يَصُونه ... ولا خَيْر في حلم امرئٍ ذُلّ جانبُه

وقالوا: مَنْ ترك العقوبة أغْرَى بالذّنب، ولولا السّيف كَثُر الحَيْف. وقالوا: مَنْ مال معك إلى الحَيْف، فلا تبخلنّ عليه بالسّيْف. وقالوا: السّفيه يخالف ولا يُؤالف، ويماري ولا يُداري. وقال أَوْس بن حسّان[٢]: [الطويل]

إذا المرء أوْلاك الهوان فأَوْلِهِ ... هوانًا وإن كانت قريبًا أواخرُه
فإنْ أنت لم تقدر على أنْ تُهِينه ... فدَعْه إلى اليوم الذي أنت قادرُه
وقارِبْ إذا ما لم تكن لك حيلةٌ ... وصمّم إذا أيقنت أنك عاقرُه

وقيل لأعرابيّ: أيسرُّك أن تدخل الجنّة ولا تُسِيء إلى مَنْ أساء إليك؟ قال: لا، بل يسرّني أن أدرك الثأر، وأدخل مع فرعون النار. أبو عبادة

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٨٣، ومسلم في الزهد باب ٦٣، وأبو داود في الأدب باب ٢٩، وابن ماجه في الفتن باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ١١٥.

(٢) الأبيات للمغيرة ابن حبناء في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا أنت عاديت امرأً فاظفر له ... على عثرةٍ إن أمكنتك عواثرُهُ

البحتري[١]: [الطويل]

تذمّ الفتاة الرود شيمة بعلها ... إذا بات دون النار وهو ضجيعُها

ويقال: إنما هو مالك وسيفك، فازرع بمالك مَنْ شكرك، واحصد بسيفك مَنْ كفرك. وقال الشاعر: [الكامل]

قط العِدى قط اليراعة وانتهز ... بظِبا السّيوف سوائم الأضغانِ

إنّ البَيادق إن توسّع خطُّها ... أخذت إليك مآخذ الفرزانِ

وقال المأمون: الحلم يُحسن بالملوك إلّا في ثلاثة أشياء: فادح في ملك، ومتعرّض بجُرْم، ومُذِيعٌ لسِرّ. وقال أعرابيّ لابن عبّاس: أتخاف عليّ جناحان إن ظلمني رجل فظلمته؟ فقال له: العفو أقرب للتّقوى، فقال: ولِمَنْ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. وقال الشاعر[٢]: [الطويل]

إذا كان حلم المرء عَوْن عدوّه ... عليه فإنّ الجهل أعفى وأروحُ

وفي الحلم صغرٌ والعقوبة هَيْبةٌ ... إذا كنت تخشى أيد مِنْ عنه تصفّحُ

آخر: [الطويل]

أرى اللّين ضعفًا والتشجّع هَيْبة ... ومَنْ لا يُهَب يُحمل على مركبٍ وَعِرِ

وما كلّ حينٍ ينفع الحلم أهله ... ولا كلّ حين يدفع الجهل بالصّبرِ

وقال الجاحظ: مَنْ قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الله في تدبيره، وظنّ أنّ رحمة الله دون رحمته، فإنّه تعالى يقول: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ﴾ [النساء: الآية ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]، فجازى على الخَيْر بالثّواب، والشرّ بالعقاب. وقال أكثم بن صيفيّ: مَنْ تعمّد الذّنب فلا ترحمه دون العقوبة، فإنّ الأدب رِفْق، والرّفق يُمْنٌ. وقال أبو الطيّب أحمد بن الحسين المتنبّي[٣]: [الطويل]

مِنَ الحُلم أن يُستعمل الجهل دونه ... إذا اتّسعت في الحلم طُرُق المظالم

---

(١) البيت في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:

منى النفس في أسماء لو تستطيعها ... بها وجدها من غادةٍ وولوعُها

(٢) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن بعد البرّ، ص ٨٥١.

(٣) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

أيا لائمي إن كنت وقت اللوائمِ ... علمت بما بي بين تلك المعالمِ

آخر: [مخلع البسيط]

مَنْ أكرم الناس أكرموه ووقّروه وبجّلوه
ومَنْ يُهِنْهم يَهُنْ عليهم في حر أُمّيه يدخلوه

وقال الشافعي: مَنِ استُغضب فلم يغضب فهو حمار، كما أنّ مَن استُرْضي فلم يرضَ فإنما هو جبّار. وقال رجل لابن سيرين: إني وقعت فيك فاجعلني في حلّ، قال: ما أُحبّ أن أُحل لك ما حرّم الله عليك. وقال عليّ كرّم الله وجهه: ردّ الحجر مِنْ حيث جاء، فإن الشرّ لا يُدْفع إلّا بالشرّ. وقال الشاعر[1]: [الوافر]

ألا لا يجهلنّ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

احتجاج مَنْ جازى السيّئة بمثلها ممن ملك عقد الأُمور وحلّها

لمّا ولّي طاهر بن عبد الله بن الحسين خراسان بعد موت أبيه استُؤمر في رجلين أحدهما ضعيف والآخر عليل، فوقع في أمْرِهما الضعيف يقوى والعليل يبرأ، فإنْ يكونا ممّن لا يُؤمن شرّهما فدعهما مكانهما، فإنّ مَنْ أطلق مثلهما على الناس، فهو شرّ منهما وشريكهما في أعمالهما. واعتذر بعض بني أُميّة إلى السفّاح فهمّ بالصّفح عنهم، فقال أبو مسلم: إنّ الصّفح مقرّب إلى الله تعالى مُبْعَد من النار إذا قصد طريقه وأُصيب به أهله، وأمّا هؤلاء الذين تضمّنت قلوبهم غدرًا، وأوْرَى زندهم شرًّا، فلم تنفد ضغائنهم، ولا فَنِيت بوائقهم، فالقتل لهم أشْفَى، والرّاحة منهم أوْلى؛ فأمر بقتلهم فقُتِلوا. ودخل إسمٰعيل المُلقّب بسديف على السفّاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدْناه وأعطاه يده فقبّلها، فلمّا رأى سديف ذلك قام بين يدي السفاح وأنشده قصيدة يمدحه فيها ويُحرّضه على قتل مَنْ ظفر به مِنْ بني أُمية، جاء منها[2]: [الخفيف]

يا ابن عمّ النبيّ أنت ضياء استبانك اليقين الجليّا
يا وصيّ الشهيد أكرمك الـلّـ ـه فقد كنت للشّهيد وصيّا
لا يغرنّك ما ترى مِنْ خضوعٍ إنّ تحت الضلوع داء دويّا

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

(٢) الخبر والأبيات في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (خبر سديف مع السفاح).

بطن البغض في القديم فأضحى ثابتًا في قلوبهم مطويّا
فضع السّيف وارفع السّوْط حتى لا ترى فوق ظهرها أُمويّا

فقام أبو العبّاس ودخل وإذا المنديل قد ألقي في عنق سليمان، ثم جرّ فذُبح.

ومِنَ الإغراء، وإن لم يُعْتمد: لمّا أساءت البرامكةَ على الرّشيد وأراد الإيقاع بهم جعل يتردّد في إعمال الحيلة، فتكلّم الرّشيد يومًا في مجلسه كلمة نزع القوم بها، فكلٌ يحكي في نوعها أو يُنْشد شعرًا في معناها، وكان في المجلس ابن عزيز، فأنشد أبياتًا في غير المعنى الذي كانوا بصدده كانت سببًا لإمضاء عزيمته على قتل البرامكة، يقول فيها[(١)]: [الرمل]

لَيْت هندًا أنْجَزتنا ما تَعِد وشفت أنفسنا مما نجدْ
واستبدّت مرّة واحدة إنما العاجز مَنْ لا يستبدّ

فاستعاد منه الرّشيد البيتين مرارًا، ثم أوقع الرّشيد بالبرامكة بعد ذلك بثلاثة أيام، وسنذكر في الفصل الأوسط من الباب الآتي مِنْ إيقاعه بهم ما فيه للمتأمّل مُقْنع، وللمُسْتخبر مستمتع إن شاء الله تعالى. ولم أرَ في التحريض أبلغ مِنْ قول القائل في قصيدة طويلة ذات معانٍ جَمّة وفوائد جليلة[(٢)]: [البسيط]

ما كلُّ يوم ينال المَرْء ما طَلَبا ولا يسوّغه المقدور ما وَهَبا
وأغجب النّاس مِنْ أن نال فُرْصته لم يجعل السّبب الموصول مُقْتضبا
وأنصف الناس في كلّ المواطن مَنْ سقى الأعادي بالكأس الذي شَرِبا
فالعفو إلّا على الأعداء مَكْرُمة مَنْ قال غير الذي قد قلته كَذِبا
قتلت عَمْرًا وتستبقي يزيد لقد رأيت رأيًا يجرّ الوَيْل والحربا
لا تقطعنّ ذنب الأفعى وتُرْسلها إن كنت شهمًا فأتبع رأسها الذّنَبا
هم جُرّدوا السّيف فاجعلهم به جزرًا هم أوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا
واذكر بمنحاهم مثوى أبي كرب فيهم وحبس عدى عندهم حقبا
وسيف جدّك لمّا أن أضرّ بهم جاؤوا به لك في أسلابهم سلبا

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٢) الأبيات بلا نسبة في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٢٢٤.

لا عفو عن مِثْلِهِم في مثل ما طلبوا   وإن يكن ذاك كان الهلك والعَطبا
فمنهم أهل غسّان ومجدهم   عالٍ وإن حاولوا مُلْكًا فلا عجبا
إن تَعْفُ عنهم يقول الناس كلّهم   لم يَعْفُ حلمًا ولكن عفوه رَهَبا
وإن أحسن من ذا العفو لو هزموا   لكن هم أتبوا من سيفك الهَرَبا
علامَ تَقْبل منهم فديةً وهم   لا فضة قَبِلوا منه ولا ذَهَبا
اسْقِ الكلاب غدٍ مِنْ فتيةٍ دمها   عند البرية تستقي به الكَلبا
لو لم يسر جاز أن تعفو محاجزه   والليث لا يُحسن النقبا إذا وَثَبا

آخر(١): [الطويل]

يفيض إليّ الشرّ حتى إذا أتى   لينزل رَحْلي قلت للشرّ مرحبا
وأركب ظهر الشرّ حتى أذلّه   إذا لم أجد إلّا على الشرّ مَرْكبا
وأكوى بلا نارٍ أُناسًا بظلمهم   وأصفح أحيانًا وإن كنت مغضبا

ولله درّ مَنْ قال(٢): [الطويل]

إذا آمن الجُهّال جهلك مرّةً   فعرضك للجُهّال غُنْمٌ مِنَ الغنم
وإن أنت بارَيْت السّفيه إذا انتمى   فأنت سفيه مثله غير ذي حُلُمِ
فلا تعترض عرض السّفيه ودارِهِ   بحُلْمٍ بإنْ أعْيا عليك فبالصُّرَم
وغمّ عليه الجهل والحلم والفه   بمنزلة بين العداوة والحلم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة   وتأخذ فيما بين ذلك بالحزمِ
فإن لم تجد بدًّا مِنَ الجهل فاسْتَعِنْ   عليه بجُهّالٍ فذاك مِنَ العَزْمِ
ودَعْ عنك في كلّ الأُمور عتابه   فإنّك إنْ عاتبته كان كالخصم
ومَنْ عاتب الجُهّال لم يشف نفسه   ولكنه يزداد سقمًا على سقم

---

(١) الأبيات لابن قيس الرقيّات في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
رقيّة أمسى حبلُها قد تقضّبا   وشطّت لكي تزداد بعدًا وتذهبا
(٢) الأبيات لمروان بن الحكم في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٨٥٣؛ وبلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٤٤٢.

آخر: [الطويل]

حبست لكم نفسي على الحُلم والرّضا فيأمن ذو خوفٍ ويُدرك طالب
إذا أنت لم تصلح لسيفك ما جنى سفيهك صارت في الصُدور معاتب

المتنبّي(١): [الكامل]

لا يسلم الشرف الرفيع مِنَ الأذى حتى يُراق على جوانبه الدَّمُ

نبذة من أدنى النقض والإبرام
في ذمّ مكافاة اللّئيم بالإكرام

قالوا: العفو يفسد من اللّئيم، بقدر ما يصلح من الكريم. وقال معاوية بن يزيد بن معاوية لأبيه: هل ذممت عاقبة حلم قطّ؟ قال: ما حلمت عن لئيم، وإنْ كان وليًا إلّا أعقبني ندمًا على ما فعلت. وقال الشاعر: [الوافر]

متى تضع الكرامة في لئيم فإنك قد أسأت إلى الكرامهْ
وقد ذهبت صنيعته ضياعًا وكان جزاء فاعلها النّدامَهْ

وقالوا: جنّب كرامتك اللّئام، فإنّك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن أساؤوا لم يستغفروا. شاعر: [الرمل]

إن ذا اللُّؤم إذا أكرمته حسب إلّا كريم حقًا يلزمكْ
فأهِنْه إنه مِنْ لُؤمه إن تَسُمْه بهوانٍ يُكْرِمكْ

ولآخر(٢): [مجزوء الرمل]

إنَّ اللّئيم إذا رأى لينًا تزيّد في حرانِه
لا تخدعنّ فصلاح مَنْ جَهِل الكرامة في هوانه

---

(١) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

لهوى النفس سريرة لا تُعلمُ عرضًا نظرتُ وخلتُ أني أسلمُ

(٢) البيتان بلا نسبة في المنتحل، للثعالبي، ص ٣٠٦؛ ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٧٦٦؛ وليحيىٰ بن الطيب اليمني النحوي في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

ويقال: اللّئام إلى رهبوت أحوج منهم إلى رحموت. المتنبي(١): [الطويل]

ووضع الندى في موضع السّيف بالعلا
مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وقالوا: الكريم يَصْلُح بالإحسان والكرامة، واللّئيم بالهوان والمَلامة. المتنبّي(٢): [الطويل]

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

إبراهيم بن المهديّ: [الطويل]

إذا كُنْتَ بين الحُلْم والجهل باقلًا وخيّرت أنّى شئت فالحُلم أفضلُ
ولكن إذا أنصفت مَنْ ليس مُنصفًا ولم يَرْضَ مِنْك الحلم فالجهل أنْبَلُ
إذا جاءني مَنْ يطلب الجَهْل عامِدًا فإنس سأُعْطيه الذي جاء يسألُ
ولم أُعْطِهِ إيّاه إلّا لأنّه وإنْ كان مكروهًا من الذلّ أجْملُ
وفي الخَيْر إبطاء فإن جاء عاجلًا كما تشتهيه النفس فالشرّ أعجلُ

ويُنْسب لعليّ رضي الله عنه(٣): [الطويل]

لَئِن كنت مُحتاجًا إلى الحلم إنّني إلى الجَهْل في بعض الأحايين أحوجُ
ولي فرسٌ للخير بالخير مُلْجم ولي فرس للشرّ بالشرّ مُسْرجُ
فمن شاء تقويمي فإنّي مقوّم ومَنْ شاء تعويجي فإن معوّجُ
وما كنت أرضى الجَهْل جدًّا ولا أبًا ولكنني أرضى به حين أحرجُ
فإن قال بعض الناس فيه سماجة لقد صدقوا والذلّ بالحرّ أسْمَجُ

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
لكل امرىء من دهره ما تعوّدا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
(٢) البيت في ديوان المتنبي، من القصيدة نفسها في الحاشية السابقة.
(٣) الأبيات لمحمد بن حزم الباهلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ولمحمد بن وهيب الحميري، من قصيدة مطلعها:
هل الهمّ إلا كربة تنفرج لها معقب تحرى إليه وتزعجُ

أبو نوّاس[1]: [مجزوء الكامل]

فــي الــنــاس إن جــرّبــتــه مَــنْ لا يــعــزّك أو تــذلُّه

فــاتــرك مــداراة الــلّئــيــم فــإنّ فــيــهــا الــعــجــز كــلُّه

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي نواس، وهما لأبي فراس الحمداني في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

الباب الرابع عشر
في الانتقام

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب
في التشفّي والانتقام ممن أحضر قسرًا في المقام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: الآية ٣٧]، ولم يقل هم يقتلون؛ وفي هذا دليل على أنّ الانتقام قبيحٌ فِعْله على الكرام، فإنهم قالوا: الكريم إذا قدر غفر، وإذا عثر بمساءة ستر، واللّئيم إذا ظفر عقر، وإذا أمِنَ غدر.

ولنقدم كلامًا شافيًا في ذمّ الغضب إذ هو الزّمام القائد للعطب

جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١]، أنّ الطائف من الشيطان هو الغضب. ويُرْوى أنّ رجلًا قال للنبيّ ﷺ: يا رسول الله قل لي قولًا ينفعني الله به وأقْلِل لعلّي أعرفه، قال: «لا تغضب»، فأعاد عليه المسألة قال: «لا تغضب»، فأعاد عليه المسألة قال: «لا تغضب»[1]. وقال يحيىٰ بن زكريا لعيسى عليهما السلام: أخبرني بما يقرّبني من رضا ربّي ويُبْعدني مِنْ سخطه، قال: لا تغضب. وقال رسول الله ﷺ: «ما تعدّون الشديد فيكم»؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرّجال، قال: «لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»[2]. وذُكِر أنّ جعفر بن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٦، والترمذي في البر باب ٧٣، ومالك في حسن الخلق حديث ١١، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٥، ٣٦٢، ٤٦٦، ٣/ ٤٨٤، ٥/ ٣٤، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٦، ١٠٢، ومسلم في البرّ حديث ١٠٧، ١٠٨، وأبو داود في الأدب باب ٣، ومالك في حسن الخلق حديث ١٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٢، ٢/ ٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧.

محمد الصادق دخل على المهديّ وقد امتلأ غضبًا على إنسانٍ، قال: يا أمير المؤمنين إنك لا تغضب إلّا لله، فلا تغضب له أكثر من غضبه لنفسه. وقد قال بعض الحُكماء: إيّاكم والغضب فرُبّ غضب استحقّ به الغضبان غضب الله عزّ وجلّ عليه. ويُقال: إنّ في التوراة: يا ابن آدم لا تغضب فأغضب عليك، يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق. وقالوا: إيّاك وغرّة الغضب، فإنها تقضي بك إلى ذلّة الاعتذار. وقالوا: الغضب على مَنْ لا تملك لُؤم، وعلى مَنْ تملك شُؤم. وقال بعض الأعراب: الغضب عدوّ العقل، فإنّه يَحُول بين صاحبه وبين العقل والفهم، فيستولي عليه سلطان الهوى فيصرفه عن الحسن وهو الاحتمال إلى القبيح وهو الغضب، ومَنْ عصى الحقّ غمره الباطل. وقال ابن المعتزّ: الغضب يُصدىء القلب حتى لا يرى صاحبه شيئًا حسنًا فيفعله، ولا قبيحًا فيجتنبه. ويقال: ما ترك شيئًا مِنَ الأحوال الذّميمة، ولا تأخّر عن سببٍ من الأسباب اللّئيمة: مَنْ أنفذ غضبه، وأساء في الانتقام أدبه، واستطاب فِعْله واستَعْذبه. وقالوا: ليس مِنْ عادات الكِرام سرعة الغضب والانتقام. وقالوا: ثلاثة يُعدّون في المجانين، وإن كانوا عقلاء: الغضبان، والسّكران، والغَيْران. وقال عمر بن عبد العزيز: ثلاثة مَنْ كُنّ فيه فقد استكمل الإيمان: مَنْ إذا غضب لم يُخْرجه غضبه إلى الباطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحقّ، وإذا قام جدال لا يأخذ ما ليس له. وإذا تمكّن منه الغضب على أحدٍ حبسه ثلاثة أيام حتى يَسكن غضبه ثم يُحْضره، فإن وجب عليه العقوبة عاقبه وإلّا أطلقه.

ما اخترناه مِنْ كلام الحكماء وأقوال الكرام الأماجد في ذمّ التشفيّ من العدوّ والمعاند

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ لا ينتقم لنفسه، إلّا أن تُنْتَهك حُرْمة مِنْ حُرُمات الله تعالى، فينتقم لله بها[1]. وقالوا: أقبح المكافأة المكافأة بالإساءة. وقال معاوية: إنّ أوْلى الناس بالعفو أقْدرهم على العقوبة. وقالوا: الاقتدار يمنع الحرّ مِنَ الانتصار. وقال عليّ رضي الله عنه: أنا إلى العفو والرحمة أقرب منّي إلى العقوبة والنّقمة. وقال جعفر الصادق: لأنْ أندم على العفو

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٣، والأدب باب ٨٠، والحدود باب ١٠، ومسلم في الفضائل حديث ٧٧، ٧٩.

عشرين مرّة أحبّ إليّ مِنْ أن أندم على العقوبة مرّة واحدة. وحُكِي أنّ رجلًا مِنْ قريش كان يطلب رجلًا يدخل في الجاهلية، فلمّا ظفر به قال: لولا أنّ القدرة تُذهب الحفيظة لانتقمت منك، وتركه. ولهذا يُقال: كلّ عزيز دخل تحت القدرة، واتّضح بالتنصّل عذره فهو ذليل حقّه على من قدره بالقدرة. جليل أن يتعمّد إساءته بالإحسان إليه ويفكّ أساره بالامْتنان عليه، ويُنْزله مِنْ إكرامه منزلة المُطيع مِنْ خُدّامه، ويُعْفيه مِنْ عتبه وملامه كما أعفاه من سخطه وانتقامه. وقيل: أقبح أفعال ذوي التمكّن والاقتدار عقوبة مَنِ الْتجأ إلى الاعتذار. شاعر[1]: [الرمل]

ليست الأحلام في حال الرِّضا إنّما الأحلام في حالِ الغضبْ

وقال المنصور في كلامٍ لولده المهديّ: لذّة العفو أطْيَب من لذّة التشفّي، وذلك أنّ لذّة العفو يلحقها حَمد العاقبة، ولذّة التشفّي يلحقها ذمّ الندم. ويُحْكى عن عنان بن خُرَيْم أنه دخل على المنصور، وقد قدِّم بين يديه جماعة كانوا قد خرجوا عليه ليقتلهم، فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين مَنِ انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقّه، ومن شفى غيظه وأخذ حقّه لم يجب شكره، ولم يُحْسِن في العالمين ذِكْره، وإنّك إنِ انتقمت فقد انْتصفت، وإذا عفوت فقد تفضّلت على أنّ إقالتك عثار عباد الله مُوجبة لإقالته عثرتك، وعفوك عنهم موصول بعفوه عنك؛ فقَبِل قوله وعفا عنهم. وقال الشاعر: [الخفيف]

لذّة العفو إن نظرت بعين الـ ـعدل أشفى من لذّة الانتقام
هذه تكسب المحامد والمجـ ـد وهذه تجيء بالآثام

والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام. وقالوا: سرعة العقوبة من لُؤم الظفر. وقيل: ليس من الكرم عقوبة مَنْ لا يجد امتناعًا مِنَ السّطوة. وأَسَر عليّ رجلًا مِنْ أصحاب عائشة رضي الله عنها يوم وقعة الجمل، فقيل له: وَيْلك وأنت ممّن ألّب علينا؟ فقام الأشتر فقال: دعني أضرب عنقه يا أمير المؤمنين، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين لأنْ تلقى الله وقد عفوت عنّي خيرٌ لك مِنْ أن تلقاه وقد شفيت غيظك وانتصرت لنفسك، فقال: اذهب حيث شئت. وأنشد للمأمون: [الكامل]

يخشى عدوّي من بعيد سَطْوتي فإذا قدرت على العدوّ عفوتُ

(١) البيت لمسكين الدارمي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

وقال بعض الحُكماء: التزيّن بالعفو خيرٌ مِنَ التَّقبيح بالانتقام. وقال عليّ رضي الله عنه: ليس شيء بخير مِنَ الخير إلّا ثوابه، وكلّ شيء في الدنيا سماعه أعظم مِنْ عِيانه، وكلّ شيء في الآخرة عيانه أعظم مِنْ سماعه. ويقال: التشفّي طرف من العجز، ومَنْ رَضِيَ به لا يكون بينه وبين الظالم إلّا سترٌ رقيق وحجابٌ ضعيف، ولأن يثنى عليك بسِعَة الصدر خيرٌ مِنْ أنْ تذمّ بضيقه. وقال ابن المعتزّ: مبالغة المقتدر في العقوبة تقرّبه من غضب الله، وتُبْعده مِن انتساب الكرم إليه. وقال: كفى بالظفر شفيعًا للمُذنب إلى القادر. وقال بعض الحُكماء: لا يحملنّك الحنق على اقتراف إثم يشفي غيظك ويُسْقم دينك. ويُقال: لا تشنْ حسن الظفر بقبح الانتقام. وقالوا: عقوبة المقتدر تبدأ به تقبح صورته، وتثلم حسبه، وتعجّل ندمه. شاعر(١): [الطويل]

إذا أنت لم تصبر على الحقد لم تَفُز   بمجدٍ ولم تسعد بتقريظِ مادحِ

آخر(٢): [الطويل]

رأيتُ انتقام المرء يزري بعقله   وإن لم يقع إلّا بأهل الجرائمِ

وقال الفضيل بن عياض: لا يكون العبد مِنَ المتّقين حتى يأمن عدوّه بوائقه. وقلت: أذمّ مُسْرفًا في الانتقام فلان منزوع الرّحمة من قلبه، مصروف الوجه عن المُعْترف بذنبه، يرى العفو مغرمًا، والعقوبة مَغْنمًا، إن ضحكت في وجهه عبس، وإن تخاضعت له شمس لا يرقب في المسيء إلّا ولا ذمّة، ولو شفع فيه سواد الأمّة. ومن رسالة للبديع الهمدانيّ يصف ملكًا عظيم الشأن: يحسبه المتأمّل إنسانًا وهو شيطان، وفلان سماء إذا تغيّم لم يُرْجَ صحوه، وإذا تغيّر لم يُشْرَب صَفْوه، وإذا سخط لم ينتظر غيره، ليس بين رضاه والسّخط عِوَجة كما ليس بين غضبه والسّيف فرجة، وليس من سخطه مجاز، كما ليس بين الموت والحياة معه حجاز

---

(١) البيت للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

نهيتكم عن صالح فأبى بكم   لجاجكم إلّا اغترارًا بصالحِ

ورواية البيت في الديوان:

إذا أنت لم تضرب عن الحقد لم تفز   بذكر ولم تسعد بتقريظِ مادحِ

(٢) البيت لإبراهيم بن العباس الصولي، من بيتين، وروايتهما فيه:

إذا المرء أثرى ثم ضنّ برفدهِ   فدعه صريع اللُّؤم تحت القوائم

وبعض انتقام المرء يزري بعرضه   وإن لم يقع إلّا بأهل الجرائمِ

يغضبه الجرم الخفيّ، ولا يرضيه العُذْر الجليّ، وتكفيه الجناية وهي إرجاف ثم لا يشفيه العقوبة وهي جِجاف، حتى أنه يرى الذَّنب وهو أَضْيَق من ظلّ الرُّمح، ويَعْمى عن العذر وهو أبْيَن مِنْ عمود الصُّبح، وهو ذو أُذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان، ويحجب بهذه العذر وهو برهان، وذو يدين يبسط أحدهما إلى السَّفك والسَّفح، ويقبض الأخرى عن العفو والصَّفح، وذو عينين يفتح أحدهما إلى الجرم، ويُغمض الأخرى عن الحُلْم، فمزحه بين القدّ والقطع، وحدّه بين السَّيْف والنَّطع، ومراده بين الظهور والكُمُون، وأمره بين الكاف والنون، ثم لا يعرف مِنَ العِقاب إلَّا ضرب الرِّقاب، ولا مِنَ التأديب غير إراقة الدِّماء، ولا يهتدي إلَّا إلى إزالة النّعماء، ولا يحلم عن الهفوة ـ كوزن الهبوة ـ ولا يغضي عن السَّقطة بجرم النقطة، ثم إنّ النّقم بين لفظه وقلمه، والأرض تحت يده وقدمه، فلا يلقاه الوليّ إلَّا يغمّه، ولا العدوّ إلَّا يذمّه، فالأرواح بين حبسه وإطلاقه، كما أنّ الأجسام بين حِلّه ووثاقه.

ومما ينتظم في سلك هذا المقول

مدح التراحم الراضي به أرباب العقول

قال رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمون يرحمهم الرحمٰن يوم القيامة، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السَّماء»(١)، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «لا يَنْزع الله الرَّحمة إلَّا مِنْ قلبٍ شقيٍّ»(٢). وقالوا: مَنْ كَرُم أصله لَانَ قلبه. وقيل: مِنْ أمارات الكريم الرَّحمة، ومن أمارات اللَّئيم القسوة. وقالوا: مِنْ شكر الظّفر الصفح عن الذُّنوب، والسَّتر للعيوب. وفي الحديث: «إنّ الله رحيم يحبّ مِنْ عباده الرُّحَماء»(٣). وقال الأقرع بن حابس لرسول الله ﷺ، وقد رآه يقبّل الحسن: إنّ لي عشرة أولاد ما قبّلت أحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يَرحم لا يُرحم»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٥٨، والترمذي في البرّ باب ١٦.

(٢) روي الحديث بلفظ: «لا تُنزعُ الرحمة إلا من قلب شقيّ»، أخرجه بهذا اللفظ: أبو داود حديث ٤٩٤٢، والترمذي حديث ١٩٢، وأحمد في المسند ٢/٣٠١، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٢، والأيمان باب ٩، والتوحيد باب ٢٥، ومسلم في الجنائز حديث ٩، ١١.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٨، ٢٧، ومسلم في الفضائل حديث ٦٥، وأبو داود في الأدب باب ١٤٥، والترمذي في البرّ باب ١٢، وأحمد في المسند ٢/٢٢٨، ٢٤١، ٢٦٩، ٥١٤.

وقال مالك بن دينار: ما ضرب الله عبدًا بعقوبة أعظم مِنْ قسوة القلب، ولا غضب الله على قوم إلَّا نزع منهم الرَّحمة.

وكان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أشجع الناس، إذا لقي الناس، وأرحم الناس إذا استحكم الباس، ويقال: أرقّ الناس قلوبًا أقلّهم ذنوبًا. وقال عمر بن عبد العزيز: استدعوا العفو عن الناس والرَّحْمة من الله بالرحمةِ لهم. وفي بعض الكتب المنزّلة قول الله تعالى: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادي. شاعر[1]: [مجزوء الرمل]

ابْغِ للناس من الخيـ ـر كما تبغي لنفسكْ
وارحم الناس جميعًا إنهم أبناء جنسكْ

الفصل الثاني من الباب الرابع عشر

في ذكر من ظفر فعاقب بأشدّ العقوبة ومَنْ راقب

لمّا ظفر رسول الله ﷺ بعقبة بن أبي معيط أمرَ بصلبه إلى شجرة، فقال: يا رسول الله أنا مِنْ بين قريش، قال: «نعم»، قال: فمن للصّبية؟ قال: «النار» فصُلِب[2]، رواه أبو داود في مراسيله وغيره، وقيل: إنه أوّل مصلوب صُلِب في الإسلام. وكان النّضر بن الحـٰرث بن كلدة شديد العداوة لرسول الله ﷺ، فلمّا كان يوم بدر أُخذ أسيرًا، فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله عليّ رضي الله عنه صبرًا، وذُكِر أنّ أُخته قيلة بنت الحـٰرث تعرّضت لرسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فاستوقفته فوقف، فأنشدته[3]: [الكامل]

يا راكبًا إنّ الأثيل مظنّة من صُبْح خامسة وأنت موفقُ
أبلغ بها ميتًا بأن تحيّة ما إن تزال بها الرّكائب تخفقُ
منّي إليك وعَبْرة مسفوحة جادت لمانحها وأخرى تحنقُ

---

(١) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إنما أنت بحسّك ومن الناس بأنسك

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٢٦٨٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٢٣.

(٣) الأبيات لقتيلة بنت النضر في ديوانها، والبيت الأول مطلع القصيدة. ولليلى بنت النضر بن الحارث في البيان والتبيين، للجاحظ ٢/ ٢٨٢.

هل يسمعني النَّضر إنْ ناديته | إن كان يسمع ميت مَنْ ينطقُ
ظلَّت سيوف بني أبيه تَنُوشه | لله أرحامٌ هناك تمزَّقُ
قسرًا يقاد إلى أبيه مُتعبًا | رسف المقير وهو عانٍ موثقُ
أمحمد ولأنت نجل كريمة | في قومها والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرَّك لو مَنَنْت وربما | منَّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
لو كنت قابلٌ فدية لفدَيْته | بأعزِّ ما يغلو به من ينفقُ
فالنَّضر أقرب مَنْ قتلت قرابة | وأحقهم إن كان عتقًا يُعْتقُ

فلمّا سمع رسول الله ﷺ شعرها رقَّ لها، وقال: «لو كنت سمعت شعرها من قبل ما قتلته». ولمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة أمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة؛ فأما النفر: فعكرمة بن أبي جهل، وهبّار بن الأسود، وعبد الله بن أبي سَرْح، ومقيس بن صبابة، والحويرث بن نقيد، وهلال بن عبد الله بن خطل؛ فأمّا عكرمة، فإنه هرب ثم أسلم، وهرب هبار بن الأسود ثم أسلم بعد ذلك، وكذلك عبد الله بن أبي سرح، وأمّا مقيس بن صبابة فقتله غَيْلة، وأما الحويرث فهرب فلقيه عليّ بن أبي طالب فقتله، وأمّا هلال بن عبد الله بن خطل فقتله عمار بن ياسر بين الرُّكن والمقام. وأمّا النّساء، فهند بنت عتبة، وسارية مولاة عمرو بن هشام، وقينتا هلال بن عبد الله بن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ؛ فأمّا هند فأسلمت، وأما سارية فقتلها عليّ رضي الله عنه، وأمّا قينتا هلال فقُتِلَت إحداهما وأسلمت الأخرى.

وقَدِم أُناس من عرينة على رسول الله ﷺ المدينة فأسلموا، وكانوا في الصفة، فقطنوا المدينة، فسقمت أجسادهم، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتشربون من ألبانها وأبوالها»؟ قالوا: بلى، فخرجوا فشربوا الألبان والأبوال فصحوا، فلما صحوا قتلوا الرّاعي وارتدّوا عن الإسلام واستاقوا الإبل، فجاء الصريخ إلى رسول الله ﷺ فبعث في إثرهم، فما ترحّل النهار حتى أتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمّل أعْينهم وتركهم في الحرّة حتى ماتوا[١].

(١) أخرجه البخاري في الحدود باب ١٥ (المحاربين باب ١)، ومسلم في القسامة حديث ٩، ١٤.

وكان عمرو بن هند من أشدّ ملوك العرب بأسًا وأسوأهم قدرة وأعظمهم جراءة يُذْكر عنه أنّه لما قتلت بنو تميم أخاه سعدًا غضب وآلى على نفسه أنه متى ظفر بهم قتل رجالهم وسبى حريمهم، فلمّا ظفر بهم أحْمى لهم الصفا ومشى عليه مِنْ رجالهم مَنْ بلغ أجله، فأُتي بشابٍّ ليمشي عليه كما فعل أصحابه وأقبلت أمّه معه، فلما رأت الصّفا وشدّة وهجه قطعت ثدييها ورمَت بهما على الصّفا، وقالت: يا بني قِ بثديّي قدمك، وأقلِلْ بوطئهما ألمك؛ ثم أنشدت: [الكامل]

ابني لو قُبِل الفداء لجدت بالـ ـكبد التي أضحت عليك تقطعُ
يا ليت حرّ النار باشر مُهْجتي أوْ لَيْت خدّي فوق خدِّك يَلذعُ

فرقّ لها عمرو وأمر بإطلاق ولدها، وإطلاق مَنْ بَقِي مِنْ قومها. وروى ابن الكلبي عن أبيه، قال: أوّل مَنْ خرج من الحرم بعض إياد وتغلب، وانتشر في أرض نجدٍ، فبعث إليهم الملك زيد بن برعش فغزاهم فأبلى فيهم وأسر وسبى، فلمّا قَدِم على الملك عرض الأسرى على السيف، فقرّب شابًا من إياد ليُقتل، فأقبلت أمّه، وهي تقول: [الكامل]

يا أيها الملك المُغِيث القاهرُ الحُلم يلزم حين يعفو القادرُ
هذا عبيدك مسلم بجريرة بادي الضّراعة أو منيق عاثرُ
إن تسط تسط محكمًا أو تعفونْ فالذّنب يغفره المليك الغافرُ
لاذوا بعفوك مِنْ عقابك بعدما جرّدت لها منظومة وخناجرُ
فاصرف إلى الإبقاء عزمك فيهم طولًا فليس لهم مُجيرٌ ناصرُ

فرقّ لها الملك وقال لها: لك ما لائه خمارك منهم، فأقبلت تخطّ خمارها شققًا وتصل بعضها ببعض حتى ضمّ طرفاه مائة رجل أو أكثر، فاستضحك الملك وأمر بإطلاقهم وقتل الباقين.

ومن الحقد المستبشع والتشفّي المستشنع

ما ذكره ابن حمدون في تذكرته عن عبد الله بن الزبير حين ظفر بأخيه عمرو، وكان يشايع بني أُمية وهدم دور قوم بالمدينة في هواهم، فلما ولي أخوه عبد الله الخلافة أخذه وأقامه للناس ليقتصّوا منه، فبالغ كل ذي حقدٍ عليه في الاقتصاص، وكان عبد الله لا يسأل أحدًا ادّعى عليه شيئًا بيِّنة ولا حُجّة، وكان

أرباب الحقوق يدخلون عليه السّجن يضربونه والقَيْح ينضح مِنْ ظهره على الأرض والحائط، فلمّا لم يَبْقَ أحد من ذوي الحقوق أمر أن يُرْسل عليه الجعلان، فكانت تدبّ عليه فتنقب لحمه، وهو معقول لا يستطيع حركة حتى مات، فدخل الموكل به على عبد الله وفي يده عسّ لبن يريد أن يسخر به وهو يبكي، قال له: أمات؟ قال: نعم، قال: أبعده، ثم تناول العِسّ فشرب ما فيه، وقال: لا تغسلوه ولا تُكفّنوه وادفنوه في مقابر المشركين، فدُفِن بها.

وكان الحجّاج شديد الوطأة على الجُناة، ذكر أهل التاريخ أنّه لمّا مات أحصى مَنْ قتل صبرًا سوى مَنْ قُتِل في حروبه وسراياه، فوجدوا مائة ألف وعشرين ألفًا ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهنّ ستّ آلاف مخدّرات، وكان يحبس الرّجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يَقِيهم الحرّ والبّرد، وكان الحرّاس يحصبونهم إذا استظلّوا مِنْ وهج الشمس، وزمهرير البرد، ولمّا أُخرجوا بعد موته كان فيهم أعرابيّ، فقيل له: كم كان لك في السِّجن؟ قال: اثنتا عشرة سنة، قيل له: فما ذنبك؟ قال: بلت في ربض واسط، ولمّا أُطلق جعل يعدو، وهو يقول: [الطويل]

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرينا وبِلْنا لا نخاف عقابا

وذكر أهل التاريخ أيضًا أنه ركب يوم جمعة يريد الجامع، فسمع ضجّة عظيمة فقال: ما هذا؟ قالوا: أهل السّجن يشكون ما هم فيه، فالتفت إلى ناحيتهم، وقال: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، فيقال: إنه مات في تلك الجمعة بواسط سنة خمس وتسعين، وهو ابن أربع وخمسين سنة. وآخر كلام سمع منه: اللّهمّ اغفر لي، فإنّ عبادك يظنون أنْ لا تفعل. وكانت مدّة إمرته على الناس عشرين سنة، وفي الشهر الذي مات فيه وُلد أبو جعفر المنصور، وولي الخلافة في ذي الحجّة أيضًا سنة ستّ وثلاثين ومائة، ومات في الشهر المذكور سنة ثمان وخمسين، فكانت مدّة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلّا سبعة أيّام.

ولمّا التقى مصعب بن الزبير بالمختار بن أبي عبيد الثقفيّ هزمه وأسر مِنْ عسكره ستّة آلاف وثمانمائة رجل، فقتلهم صبرًا بين يديه في يوم واحد وهو ينظر إليهم، وكانوا ألفًا وثمانمائة مِنْ أشراف العرب، وخمسة آلاف مِنَ الموالي. وكان أبو مسلم الخراساني ممّن حذاه في الفعل حذو النّعْل بالنّعْل أحصى مَنْ قتل، فكان

ستّمائة ألف نفس، وقد ذكرنا قتله فيما سبق مِنَ الكتاب، وفيه يقول أبو جعفر حين قُتِل، وقد وضعت رأسه بين يديه[١]: [السريع]

زعمت أنّ الدّين لا يقتضي   دونك فاستَوْفِ أبا مجرمِ
فاشرب بكأسٍ كنت تسقي بها   أمرّ في الحلق مِنَ العَلْقمِ

ولمّا أسرف في القتل وجد رقعة على المنبر فقرأها، فإذا فيها: اقتل ما عسى أن تقتل، فلست تقدر أن تقتل قاتلك؛ فكفّ.

وبابك الخرمي قتل في حروبه التي كانت بينه وبين الأُمويّين مائتي ألف ألف وخمسمائة ألف وخمسًا وخمسين ألفًا، وكان ظهوره سنة إحدى ومائتين في خلافة المأمون، واستمرّت فتنته إلى أيّام المعتصم، فأرسل إليه العساكر، فكانت الحرب بينه وبينهم دُوَلًا إلى أن كانت الدائرة عليه، فهُزِم عسكره وأسروه وفُتِحت مدينته التي بناها ودخلها المسلمون واستباحوها في أيّام المعتصم سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وفيها فُتِحت عمّورية وأُحضر بين يدي المعتصم، فأمر بقطع يديه ورجليه، فلمّا قُطِعَت لطّخ بدمه وجهه حتى لا يرى في وجهه أثر الجزع، ثم أمر به فضُرِبت رقبته وصُلِب، وفي قتله يقول أبو عُبادة البحتريّ مِنْ أبيات[٢]: [الكامل]

لم يَبْقَ فيه خوف بأسك مطمعًا   للظنّ في إخفا ولا إبداءِ
أُخْلَيت منه البيد وهي قراره   ونصبته علمًا بسامرّاءِ
فتراه مطّردًا على أعواده   مثل اطّراد كواكب الجوزاءِ
مستشرفًا للشمس منتصبًا لها   في أُخريات الجذعه كالحِرْباءِ

وكان بِشر بن مروان شديدًا على الجُناة، وكان إذا ظفر بجانٍ أقامه على كرسي وسَمّر كفّيه في الحائط، ونزع الكرسي من تحت رِجْليه، فلا يزال يضطرب حتى يموت. وقال الشعبيّ: ما رأيت في العُمّال مثل عبد الله التميمي، كان لا يعاقب إلّا في دين الله، وكان إذا أُتي برجل نبّاش حفر له قبرًا ودفنه فيه حيًا، وإذا

---

(١) البيتان لأبي جعفر المنصور في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢/ ٢٥٠.
(٢) الأبيات في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:
زعم الغراب منبّىء الأنباءِ   أن الأحبّة آذنوا بتناءِ

أُتِي برجل نقب في قوم جعل منقبته في صدره حتى تخرج مِنْ صدره، وإذا أُتي برجل شهر سلاحًا قطع يده؛ فربَّما أقام أربعين لا يؤتى إليه بجانٍ خوفًا من سطواته. ودخل شبل بن عبد الله على عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس السفّاح بعدما وَلِي الخلافة، ووليها وهو ابن أربع وعشرين سنة في ربيع الآخر سنة اثنين وثلاثين ومائة، وعنده مائتا رجل من بني أمية وهم جلوس معه على المائدة، فقام مولى لبني العباس، فأنشده(١): [الخفيف]

أصبح الملك ثابتًا في أساس ... بالبهاليل من بني العبّاسِ
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل مِنَ الزّمان وياسِ
يا كريم المطهّرين مِنَ الرّجـ ... ـس ويا رأس كل طودٍ وراسِ
لا تقيلنّ عبد شمس عثارًا ... واقطعن كلّ رقلة وغراسِ
دلّها أظهر التودّد مِنْها ... وبها منكم كحزّ المواسِ
أقصِهم أيها الخليفة واقطع ... عنك بالسيف شأفة الأرجاسِ
ولقد غاظني وغاظ سوايا ... قُرْبهم من نَمارقٍ وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها اللّـ ... ـه بدار الهَوان والإتعاسِ
واذكروا مصرع الحُسَيْن وزيد ... وقتيلًا بجانب المِهْراسِ
والقتيل الذي بحرّان أضحى ... ثاويًا بين غربة وتناسي

وهما حمزة بن عبد المطلب وإبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المَنْعوت بالإمام، فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعُمُد وبسطت البُسْط عليهم، وجلس عليها ودعا بالطعام وإنه ليسمع أنينهم وعويلهم، فلما فرغ من طعامه قال: ما أكلت أكلة قطّ هي أهْنأ ولا أمرأ ولا أطيب في نفسي مِنْ هذه؛ ثم أخرج عمّه عبد الصّمد بن عليّ في طلب بني أُميّة في أقطار الأرض إن وُجد حيًّا قتله، وإن وُجد مقبورًا نبشه وأحرق مَنْ فيه حتى أتى دمشق وقتل في جامعها يوم جمعة في شهر رمضان خمسين ألفًا مِنْ بني أُميّة ومواليهم كانوا قد استجاروا بالجامع فلم يُجرهم، ولمّا وصل إلى الرصافة أخرج هشامًا من قبره فضرب مائة سوط وعشرين سوطًا حتى تناثر لحمه، وقال: إنه ضرب أبي ستّين سوطًا ظُلْمًا. وذكر الدَّوْحي

(١) الأبيات لسديف بن ميمون في طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص ٣٦؛ ونضرة الإغريض، للمظفر العلوي، ص ٣١٢.

في كتابه بُلْغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء سبب ذلك أنّ هشامًا اتّهمه بقتل سليط المنتسب إلى أبيه عبد الله، ففعل به ذلك. وقد رأينا صوابًا أن نذكر مقتل زيد المشار إليه في الأبيات المتقدّم ذكرها، فالشيء بالشيء يُذكر، وإنْ كان غير داخل فيما ترجمنا عليه في هذا الفصل، وكان ظهوره في سنة اثنتين وعشرين ومائة بالكوفة، وأرسل هشام إلى محاربته يوسف بن عمر الثقفيّ، فلمّا قامت الحرب بينهم على ساقها انهزم أصحاب زيد وبقي جماعة يسيرة، فقاتل أشدّ قتال، وهو يقول[1]: [المتقارب]

وذلّ الحياة وذلّ الممات وكلّاً أراه طعامًا وَبِيلا
فإنْ كان لا بدّ مِنْ واحدٍ فسِيروا إلى الموت سيرًا جميلا

ولم يزل يُقاتل حتى أصابه سهمٌ في جبهته فمات مقتولًا منه فدفنه أصحابه، ثم دلّ يوسف على قبره فأخرجه وقطع رأسه وأرسله إلى دمشق، فعلّق وصلب جثته عارية فتدلّت سرّته حتى سترت سوأته، وذلك في السنة التي ظهر فيها، ولم يزل كذلك إلى أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فأمر بها فأُحرقت؛ وفيه يقول حكيم بن عياش الكلبي يخاطب آل بني طالب مِنْ أبيات[2]: [الطويل]

صلبنا لكم زيدًا على جذع نخلةٍ ولم أرَ مهديًا على الجذع يُصْلبُ
وقستم بعثمان عَليًا سفاهة وعثمان خيرٌ مِنْ عليٍّ وأطْيَبُ

ومات هشام سنة خمسٍ وعشرين ومائة في ربيع الأوّل، وله مِنَ العمر ستّ وخمسون سنة، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأشهرًا وأيامًا. والقتيل بجانب المِهْراس هو حمزة بن عبد المطلب، وإنما نُسِب قتله لبني أُميّة لأنّ أبا سفيان قاد الجُيوش يوم أُحد لقتال المسلمين، والمِهْراس ماء بأُحد. قال المبرّد: وفي الحديث أنّ النبيّ ﷺ عطش في يوم أُحد، فجاءه عليّ رضي الله عنه في درقته بماء، فعافه وغسل به الدّم عن وجهه.

ولمّا زالت دولة بني أُميّة كان آخرهم مروان بن الحكم المكنّى بالحمار وهرب، فتبعه صالح بن عليّ إلى بلاد مصر، فقتله بقرية من قُراها تسمّى بوصير.

---

(١) البيتان لبشامة بن الغدير المري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

هجرت أمامة هجرًا طويلاً وحمّلك النأي عبئًا ثقيلاً

(٢) البيتان في ديوان حكيم بن عياش، وهما بيتان منفردان.

ويُحكى أنّه لما قُتل قدّم رأسه بين يدي صالح، فنقب فمه فسقط لسانه فأخذه هر، فقال صالح: والله لو لم يرنا الدّهر من عجائبه إلّا لسان مروان في فم هر لكفانا معتبرًا؛ ثم أدخل عليه ابنتان لمروان فقالت كُبْراهما: السّلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: لست بأمير المؤمنين، قالت: السلام عليك أيها الأمير، فقال: وعليك والسلام، فقالت: لقد وسعنا عدلكم، فقال: إذًا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد، إنكم بدأتم بلعن عليّ بن أبي طالب على مَنابركم فاستوجبتم اللّعنة مِنَ الله وقتلتم الحُسَيْن بن عليّ وسرتم برأسه في الآفاق، وقتلتم زيد بن عليّ ونبشتموه وأحرقتموه بالنار، وصلبتم يحيىٰ بن زيد وأمرتم مَنْ بال على وجهه، وقتلتم إبراهيم بن محمد الإمام وهو أسير في أيديكم ظلمًا وعدوانًا، قالت: أيها الأمير فليسعنا عفوكم، قال: أمّا هذا فنعم؛ ثم أمر فردّ عليها ما ذكرت أنه أخذ لها وخلّى سبيلها. وأنشد المهديّ قول بشار بن بُرْد فيه لما أنفق الأموال التي جمعها المنصور في اللذّات والشُّرب والغناء[1]: [البسيط]

بني أُميـة هبّـوا طال نومكـمُ ... إن الخليفة يعقوب بنُ داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين النّاي والعودِ

فخرج المهديّ إلى البصرة وما يريد غيره، لمّا صار بالبطائح من همذان مرّ بدارٍ كان بشار على سطحها قائمًا فلما أحسّ بمرور المهديّ عليه خاف أن يعرفه، فاندفع بشار يؤذّن، فقال المهديّ: مَنْ هذا الذي يؤذّن في غير الوقت؟ فقالوا: بشار، فقال: عليّ به؛ فلمّا مثل بين يديه قال له: يا زنديق هذا من بذائك تؤذّن في غير الوقت، ثكلتك أمّك، فلو سكت لسانك ما عُرِف مكانك؛ ثم أمر بضربه بالسّياط، فضُرِب حتى مات فصلبه. وقال ابن عبدوس في كتابه الذي صنّفه في أخبار الوزراء في سبب قتله أنه هجا يعقوب بن داود وزير المهدي، فصنعه يعقوب على لسانه هجاء للمهدي ودخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ هذا الأعمى

(١) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:
لا يأنسنّ فقيرٌ من غنىً أبدًا ... بعد الذي نال يعقوب بن داودِ
ورواية البيتين في الديوان:
يا أيها الناس قد ضاعت خلافتكم ... إنّ الخليفة يعقوب بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزقّ والعودِ

المُلْحد قد هجاك، قال: وما قال؟ قال: يعفيني أمير المؤمنين مِنْ إنشاد ذلك؛ فلم يزل به حتّى أنشده[١]: [السريع]

خليفة يزني بعمّاته … يلعب بالدفّ وبالصّولجانْ
أبدلنا الله به غيره … ودسّ موسى في حرّ الخيزرانْ

فقال له: وجّه مَنْ يحمله، فخاف يعقوب من أن يقدم على المهدي فيمدحه فيعفو عنه، فوجّه إليه مَنْ ألقاه في البطائح، وقيل: بل دسّ عليه مَنْ قتله في طريقه؛ وقيل: إنما قُتِل على الإلحاد، وكان يرى رأي الثنوية، وذلك في سنة ثمان وستّين ومائة. وفي المحرّم سنة تسع ومائتين مات المهدي، وله من العمر اثنان وأربعون سنة وخمسة عشر يومًا، وكانت مدّة خلافته عشر سنين وشهرًا واحدًا.

وممّن شفى غيظه من العدوّ المخالف ولم يغضّ له عن ذنبه السالف

الحجّاج: كان أيوب بن القرية قد خرج مع عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي كاتبًا لمّا خلع ربقة الطّاعة وادّعى الخلافة، فحاربه الحجاج دفعات، فكانت الدّائرة عليه، وأخذ أيوب مع مَنْ كان معه، فلمّا قدم على الحجّاج أسيرًا قال له: ما أعددت لهذا الموقف؟ قال: ثلاث حروف، كأنهنّ ركب صفوف: دنيا وأخرى ومعروف؛ فقال له الحجاج: بِئْس ما مَنّتك به نفسك يا ابن القرية أتراني ممّن ينخدع بكلامك، والله لأنت أقرب إلى الآخرة منك إلى موضع نعلي هذه، قال: أقِلْني عثرتي واسقني ريقي، فإنه لا بدّ للجواد من كَبْوة وللحليم مِنْ هفوة، فقال له: أنت إلى السّطوة أقرب منك إلى العفو عن الهفوة، ألست القائل وأنت تحرّض حزب الشيطان وعدوّ الرّحمٰن: تغدّوا بالحجّاج قبل أن يتعشّى بكم؛ ثم أمر بضرب عنقه فضُربت، وذلك في سنة أربع وثمانين.

ولمّا انهزم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث لحق سعيد بن جبير بمكّة، وكان قد خرج معه فأخذه خالد بن عبد الله القسريّ، فبعث به إلى الحجّاج، فلمّا دخل سعيد على الحجّاج قال له: سعيد؟ قال: نعم، قال: ألم أقدم العراق واتّهمت إن قام الموالي، فلمّا بلغني فقهك وحالك جعلتك إمام قومك ووجدت عطاءك أربعين دينارًا، فبلغت بك سبعين دينارًا؟ قال: بلى، قال: وسهّلت إذنك؟

---

(١) البيتان في ديوان بشار، وهما بيتان منفردان.

قال: بلى، واستقصيت أبا بردة مِنْ أبا موسى وهو فقيه ابن فقيه فجعلتك وزيره وكاتبه وأمرته أنْ لا يقطع أمرًا دونك؟ قال: بلى، قال: وأوفدت وفدًا إلى أمير المؤمنين فجعلتك مثلهم ولا يوفد مثلك، فاستعفيتني فأعفيتك ـ وذلك كلّه بغير غضب من الحجّاج ـ ثم قال: فما أخرجك عليّ؟ قال: كانت لابن الأشعث في عنقي بيعة، فاستوى جالسًا وقال: يا عدوّ الله، فبيعة أمير المؤمنين كانت في عنقك قبل بيعة عبد الرحمٰن، يا حرسي اضرب عنقه؛ فلمّا ضُرِبت عنقه التبس على الحجّاج عقله مكانه، فجعل يقول: قيود يا قيود، فظنّوا أنه يطلب القيود التي على سعيد، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود، وقد أورد القصاص هذه الحكاية على غير هذا النمط، والصحيح هو هذا، والله أعلم.

إيقاع الرشيد بالبرامكة: لمّا وُلّي الرشيد الخلافة، قال ليحيىٰ بن خالد: يا أبتِ قد قلّدتك أمر الرعيّة وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل مَنْ رأيت، وافرض لمن رأيت، واقطع من رأيت، فإنّي غير ناظر معك في شيء؛ ثم ولّي في سنة ستّ وسبعين ومائة جعفر بن يحيىٰ المغرب كلّه مِنَ الأنبار إلى أقصى بلاد إفريقية، وولّى الفضل المشرق كلّه من النّهروان إلى أقصى بلاد التّرك، وكان يحيىٰ يميل إلى الفضل والرّشيد يميل إلى جعفر، فكان يقول ليحيىٰ: أنت للفضل وأنا لجعفر، وكان الرشيد يسمّي جعفرًا بأخيه ويدخله معه في ثوبه. ولمّا وقع من جعفر الذّنب لم يحتمله الرشيد، ولا قدر على الإغضاء عنه، وجعل يتردّد في إعمال الحيلة على البرامكة ولا يرى منهم ذنبًا ظاهرًا بيّنًا يقتلهم به حتى لا يتوجّه عليه لوم مِنَ الناس في قتلهم لما كان بينه وبينهم من اتّحاد الودّ، فتكلّم الرشيد يومًا بكلمة نزع فيها جلساؤه كلّ منزع، منهم مَنْ يحكي في نوعها حكاية، ومنهم مَنْ يُنشد شعرًا؛ فأنشد بعضهم أبياتًا في غير المعنى الذي هم بصدده، فكان سببًا لإمضاء عزمه في الإيقاع بهم، يقول فيها[1]: [الرمل]

ليت هندًا أنجزتنا ما تَعِد ... وشفت أنفسنا مما نجدْ
واستبدّت مرّة واحدة ... إنّما العاجز مَنْ لا يستبدْ

فاستعاد الرّشيد الأبيات مرّات، فكان ذلك محرّضًا له على الإيقاع بهم.
وكان عندما تغيّر عليهم صرف الفضل عمّا كان بيده من ولاية الشرق أوّلًا فأوّلًا مِنْ

(١) تقدم الخبر والبيتان مع تخريجهما قبل قليل.

سنة ثمانين إلى سنة ثلاث وثمانين، ولم يزل جعفر مع الرشيد على الحالة المرضية إلى أن ركب في يوم الجمعة مستهلّ صفر سنة تسع وثمانين إلى الصّيد، وجعفر معه يسايره خاليًا به وانصرف متمسيًا إلى القصر الذي كان ينزل بالأنبار، فلمَّا وصل إليه ضمّه واعتنقه، وقال: لولا أنّي أريد الجلوس الليلة مع النساء لما فارقتك، وسار جعفر إلى منزله، وواصله الرشيد بالألطاف إلى وجه السَّحر، فبعث إليه مسرور الخادم ومعه سالم وابن عصمة، فهجموا عليه وأخذه مسرور وضرب عنقه، ولقي الرّشيد برأسه، فأنفذ الرشيد جثته إلى بغداد، وقطعت نصفين وصلبا على الجسرين. ولمّا انصرف الرشيد من الرقّة سنة تسع وثمانين إلى بغداد مرّ بالجسر، فرأى جثة جعفر، فقال: لَئِن مضى أثرك لقد بقي خبرك، ولئن حطّ قدرك لقد علا ذكرك، ثم أمر بها فأُحرقت. ولمّا قتل الرشيد جعفرًا رحل إلى الرقّة وحمل معه يحيىٰ وولده الفضل، فحبسهما فيها بعد أن ضرب الفضل مائتي سوط، ولم يجد ليحيىٰ إلا خمسة آلاف دينار وللفضل إلّا أربعين ألف درهم، ولم يجد لجعفر ولا لأخيه موسى شيئًا، ووجد لمحمد بن يحيىٰ سبعمائة ألف درهم، ويقال: إنه وجد لجعفر في قصره سركة فيها أربعة آلاف دينار وزن كل دينار مائة دينار مكتوب على أحد جانبي الدِّينار: [المتقارب]

وأصفر من ضرب دار الملوك ... يلوح على وجهه جعفرا

وعلى الوجه الآخر: [المتقارب]

يزيد على مائة واحدًا ... إذا ناله مُعسر يسّرا

ولمّا أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفرًا، وحبس يحيىٰ أباه، والفضل أخاه كتب يحيىٰ إليه من السّجن: مِنْ عبدٍ أسْلمته ذنوبه، وأوْبقته عيوبه، وخذله رفيقه، ورفضه صديقه، فحَلّ في الضيق بعد السّعة، وعالج البُؤس بعد الدّعة، فساعته شهر وليلته دهر، قد عاين الموت وقارب الفوت، فتذكّر يا أمير المؤمنين كبر سنّي وضعف قوّتي، وارحم شَيْبتي وهِبْ لي رضاك بعفو ذنب إنْ كان فإنّ مِنْ مثلي الزّلل، ومن مثلك الإقالة، وليس أعتذر إلّا بإقراري حتى ترضى عنّي، فإن رضيت رجوت أن يظهر لك مِنْ عُذْري وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمك ما مَنَنْت به عليّ مِنْ رأفتك ورحمتك، زاد الله في عمرك وجعل يومي قبل يومك.

فردَّ عليه الرشيد مِنْ كتاب: إنّ أمير المؤمنين لم يأتِ على ولدك اللّعين ومن رأيه ترك الباقين، ولم يأمر بحبسك وهو يريد بقاء نفسك، إنما أخّرك وإيّاهم لتعالج البُؤس بعد النّعيم، ثم تصير إلى العذاب الأليم، فأبشر أيّها المخادع الزّنديق، والمخالف الفسّيق، بما أعدّ لك أمير المؤمنين من تبديد شملك وخمول ذكرك وإطفاء أمرك، فتوقّعه صباحًا ومساءً.

ووقّع الرشيد عليه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: الآية ١١٢]، ثم شاء هو وابنه الفضل في سجن الرقّة حتى ماتا فيه، فمات يحيىٰ في المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من غير عِلّة وعمره أربع وستون سنة، ومات الفضل في شهر رمضان سنة اثنين وتسعين ومائة، ولمّا بلغ الرّشيد موته قال: أمري قريب من أمره، وكذا كان؛ فإنه توفي بعده بخمسة أشهر في المحرم سنة ثلاث وتسعين وقد بلغ من العمر سبعًا وأربعين سنة، وكانت ولايته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين وأيّامًا، فإنه ولي سنة سبعين ومائة. وكان الفضل ترب الرشيد ورضيعه أرضعته أمّ الفضل، وأرضعت الفضل أُم الرشيد. وذُكِرَ أن الرّشيد أقام يتردّد في قتل جعفر سنين لا تُطاوعه نفسه في قتله، قال حسين الخادم: أشهد بالله لقد رأيت الرشيد متعلّقًا بأستار الكعبة قائلًا في مناجاته: اللّهمّ إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيىٰ.

ورثاهم بعد موتهم من عامّة الشعراء وغيرهم جمّ غفير، وقد اخترنا أبياتًا مِنْ أحاسن قصائدهم، أردنا أن نبيّن فيها محاسن مقاصدهم؛ فمن ذلك أبيات لأشجع السلمي[1]: [السريع]

ولّى عن الدنيا بنو برمكٍ ... ولو تولى الخلق ما زادا
كأنما أيامهم كلّها ... كانت لأهل الأرض أعيادا

آخر[2]: [البسيط]

كأنّ أيامهم من حُسْن بهجتها ... مواسم الحجّ والأعياد والجُمَع

(١) البيتان في ديوان أشجع السلمي، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيت لأشجع السلمي في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة جعفر البرمكي، وليس في ديوانه.

آخر[1]: [الرمل]

يا بني برمك واهًا لكم ... ولأيامكمُ المنتقلَهْ
كانت الدنيا عروسًا بكم ... فهي اليوم ثكول أرملة

وفيهم يقول الضّيف بن إبراهيم مِنْ أبيات[2]: [الطويل]

هَوَتْ أنجم الجدوى وشلّت يد النّدى ... وغارت بحور الجود بعد البرامكِ
هَوَتْ أنجمٌ كانت لأبناء برمكٍ ... بها يُعْرف السّاري وجوه المسالكِ

وللرقاشيّ[3]: [الطويل]

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك مَنْ يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أرحت مِنَ السّرى ... وطي الفيافي فدفدًا بعد فدفد
وقل للمَنايا قد ظفرت بجعفرٍ ... ولم تظفري من بعده بمسوّد
وقل للعطايا بعد فضل تعطّلي ... وقل للرّزايا كلّ يوم تجدّدي

ويقال: إنّ الذي سعى بهم هو عليّ بن عيسى بن ماهان، وذكر بعض المؤرخين أنه وجد على باب عليّ بن عيسى المذكور بعد قتل جعفر هذان البيتان، ولا يُعلم مَنْ كتبهما ولا مَنْ قائلهما: [السريع]

إنّ المساكين بنو برمك ... صبّت عليهم نُوَب الدّهرِ
إنّ لنا في أمرهم عِبْرةً ... فليعتبر صاحب ذا القَصْرِ

وكانت نكبته قريبًا من نكبتهم، كان الإيقاع بهم بعد رجوع الرّشيد من الحجّ في المحرم سنة تسع وثمانين ومائة، وعمر جعفر يومئذ خمس وأربعون سنة. وكانت مدّة دولتهم سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وأيّامًا، ولله درّ أبي كلثوم بن عمرو العتابي، حيث قال يعرّض بالبرامكة، ويذكر عاقبة صحبة السلطان، وأنّ ما للمتعلق بها من غدر الزّمان أمان[4]: [الطويل]

تلوم على ترك الغنى باهليّة ... طوى الدّهر عنها كل طرف وتالدِ

---

(١) البيتان بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة جعفر البرمكي.
(٢) البيتان لسلم الخاسر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) الأبيات لأشجع السلمي في ديوانه، وهي أربعة أبيات منفردة.
(٤) الأبيات للكاتب العتابي في البديع، لأسامة بن منقذ، ص ١٢٤؛ ولكلثوم بن عمرو العتابي في البيان والتبيين، للجاحظ ٢/ ٢٤٠.

رأتْ حولها النّسوان يرفلن في الكسا مقلّدة أجيادها بالقلائدِ
أسرّك أنّي نلت ما نال جعفر من الملك أو ما نال يحيىٰ بن خالدِ
وأنّ أمير المؤمنين أغصني معصمها بالمرهفات البواردِ
ذريني تجيني ميتة مطمئنة ولم تجِ أهوال بتلك المواردِ
فإن كريمات المعالي مشوبة بمستودعات مِنْ بطون الأساودِ
وأن الذي يرقى من المجد والعُلا مُلقّى بأنواع الأذى والمكايد

ولله درّ المأمون إذ قال وكأنه يعتذر عن إيقاع أبيه بالبرامكة، وإن لم يقصده: لا يستطيع الناس أن يُنصفوا الملوك من وزرائهم ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين ملوكهم وحُماتهم وكفاتهم؛ وذلك أنّهم يرون ظاهر حُرْمتهم وخدمتهم ونصيحتهم، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرًا، ولا يزال الرجل يقول في ذلك ما أوقع به إلّا رغْبه فيما لا تجود النفوس به أو الحسد أو الملالة وشهوة الاستبداد، لا والله ما هو هذا، وإنما هي الجنايات في صُلْب الملك أو في تعرّض الحرم، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامّة موضع العورة ويحتجّ لتلك العقوبة بما يستحقّ ذلك الذّنب، فلا يستطيع الملك ترك عقابه لِمَا في ذلك من الفساد مع عِلْمه بأنّ عذره غير مبسوط للعامّة ولا معروف عند أكثر الخاصّة.

ومن التشفّي الشنيع ما حُكِي أنّ سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب كان يطعن على عبد الله بن المقفع أشياء كثيرة، منها أنه كان يهزأ به ويسأله عن الشيء بعد الشيءِ تعنّتًا، فإذا أجابه قال له: أخطأت، ويضحك منه؛ فلمّا كَثُر ذلك عليه غضب وافترى عليه، فقال له ابن المقفع: يا ابن المغتلمة، والله ما اكتفت أمّك برجال العراق حتى نفذتهم إلى رجال أهل الشام؛ فحقدها عليه فآلى على نفسه إن أمكنه الله منه ليقتلنّه شرّ قتلة، فاتّفق أنّ عيسى بن عليّ أمر ابن المقفّع أن ينطلق إلى سفيان، وكان إذ ذاك على شرطة بغداد برسالة كان المنصور أمره بها، فقال له: إني لا آمن سفيان، فقال له: انطلق إليه ولا تخف، فإنّه لم يكن ليعرض ذلك وهو يعلم مكانك منّي؛ فلم يجد ابن المقفّع بدًّا من امتثال أمر عيسى، فذهب حتى أتى باب سفيان، فاستأذن فأذن له وكان في مجلسه العامّ فعدل به إلى مقصورة، ثم قام سفيان مِنْ مجلسه إلى المقصورة، فلمّا رأى ابن المقفّع قال له: وقعت والله، فقال له: أنشدك بالله تعالى، فقال: أُمّي مغتلمة كما قلت، وإن لم أقتلك قتلة لم

يُقتل بها أحدٌ قبلك؛ وأمر بتنّور فسُجّر، ثم أمر به فقطع عضوًا عضوًا ويُلْقى في التنّور وهو ينظر حتى لم يَبْقَ منه عضو متّصلٍ بعضو، ثم قال: يا ابن الزّنديقة لأحرقنّك بنار الدنيا قبل نار الآخرة، ثم أمر به فأحرق بعد ذلك.

وكان رافع بن اللّيث خلع هارون الرشيد ولبس البياض وتغلّب على بلاد ما وراء النهر، وذلك في سنة تسعين ومائة، وكان عليّ بن عيسى إذ ذاك على خراسان، فحاربه فلم يقدر عليه، فخرج الرّشيد إليه مِنْ بغداد سنة ثلاث وتسعين، فلمّا بلغ طوس مرض واشتدّ به المرض، فلمّا كان يوم موته أخذ المرآة بيده فنظر فيها وجهه فرأى عليه غبرة الموت، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فبينما هو في تلك الحالة إذ دخل عليه أخو رافع بن الليث أسيرًا، فلمّا مثل بين يديه قال: إني لأرجو إذ لم تفتني أن لا يفوتني أخوك، والله لو لم يبق مِنْ عمري إلّا أن أُحرّك شفتيّ بقتلك لقلت اقتلوه؛ ثم دعا بقصّاب وقال له: لا تشحذ مِدْيتك وفصّله عضوًا عضوًا وعجّل لئلّا يحضرني أجلي وعضوٌ مِنْ أعضائه في جسده؛ ففصله، ثم جعله أشلاء ثم قال له: اعدد ما فصّلت منه، فإذا هو أربعة عشر عضوًا، فرفع يديه وقال: اللّهمّ كما أمكنتني منه، فمكّني مِنْ أخيه، ثم مات مِنْ ساعته.

وكتب رجل كان في حبس المأمون إليه لمّا طال حبسه: أغفلت يا أمير المؤمنين أمري، وتناسَيْت ذكري ولم تتأمّل حجّتي وعُذْري، وقد ملّ مِنْ صبري الصَّبْر، ومسّني مِنْ حبسك الضُّرّ؛ فأجابه المأمون: ركوبك مطيّة الجهل صيّرك أهلًا للقتل، وبَغْيك عليّ وعلى نفسك نقلك عن سِعَة الدنيا إلى قبرٍ من قبور الأحياء، ومَنْ جهل الشكر على المِنَن قلّ صبره على المِحَن، فاصبر على عواقب هفواتك ومُوبِقات زلّاتك، على قدر صبرك على كثير جناياتك، فإن حصل في نفسك كفّ عن معصيتي وعزمٌ على طاعتي وندمٌ على مخالفتي، فلن تُعْدم مع ذلك جميلًا مِنْ نيّتي.

ولمّا ظفر أبو جعفر المنصور بعبد الله بن حسن قيّده وحبسه في داره، فلمّا أراد المنصور خروجه إلى الجيش جلست ابنة لعبد الله تسمّى فاطمة على طريقه، فلما بَصُرَتْ به أنشدت[1]: [الكامل]

ارحم كبيرًا سنّه متهدّمًا ... في السّجن بين سلاسلٍ وقيودِ

---

(١) الأبيات للحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب العلوي في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

وارحم صغار بني يزيد إنّهم   نقموا لفقدك لا لفقد يزيدِ
إن جُدْت بالرَّحم القريبة بيننا   ما جدّنا من جدّكم ببعيدِ

فلمّا سمع المنصور أبياتها، قال: أدركتنيه؛ ثم أمر به فحُدِر في المطبق، فكان آخر العهد به. ويزيد المذكور في شعر فاطمة هو أخو عبد الله بن حسن، وأخذ عبد الله لأجل ولديه محمّد وإبراهيم، وكانا قد خرجا على المنصور وغلبا على المدينة ومكّة والبصرة، فبعث المنصور إليهما عيسى بن موسى، فقُتِل محمد بالمدينة، وكان قتل إبراهيم ومحمد بين البصرة والكوفة في رمضان سنة خمس وأربعين ومائة. وقال أبو بكر الخطيب: مات عبد الله بحبس الكوفة يوم الأضحى سنة خمس وأربعين ومائة، وهو ابن ستّ وأربعين سنة. وكان المنصور قلّ ما يظفر بأحد إلّا قتله، سواء كان مستوجبًا للقتل أو غير مستوجب، وهذا كان في أوّل خلافته، فقال له عبد الصّمد بن عليّ: قد ضخمت في القتل والعقوبة حتى كأنّ لم يسمع بالعفو، فقال: إنّ بني أُمية لم تَبْلَ رُممهم، وآل أبي طالب لم تُغْمد سيوفهم، ونحن قوم رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء، ولا تتمهّد الهَيْبة في صدورهم إلّا باطّراح العفو عنهم واستعمال العقوبة فيهم.

ومِنْ عجائب الظفر ما حكاه الصوليّ أنّ المتوكّل قال: ركبت إلى دار الواثق أزوره في مرضه في اليوم الذي مات فيه، ولم أدرِ بذلك، فدخلت الدار وجلست في الدّهليز ليُؤذن لي، فسمعت بكاء نادبة بناحية تُشْعر بموته، فتجسّست وإذا إيتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيّات يأتمران فيّ، فقال محمد: نُلْقيه في التنور، وقال إيتاخ: بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يُرَى عليه أثر القتل؛ فبينما هما كذلك إذ جاء أحمد بن أبي دؤاد، وكان القاضي يومئذ، فمنعه الخدّام الدخول، دافعهم حتى دخل، فجعل يحدّثهما بما لا أعقله لِمَا داخلني من الخوف وإشغال القلب بإعمال الحيلة في الهرب والخلاص مما ائتمرا به فيّ، فبينا أنا كذلك إذ خرج الغلمان يتعادون إليّ، ويقولون: انهض يا مولانا، فما شككت أني أدخل وأُبايع ولد الواثق وينفذ فيّ ما قرّر، فدخلت فلقيني ابن أبي دؤاد فقبّل يدي وأمسكها إلى أن صار بي إلى السرير، وقال: اصعد إلى المكان الذي أهّلك الله له، فلمّا صعدت وجلست سلّم عليّ بالخلافة، وجاء محمد بن عبد الملك الزيّات وإيتاخ، فسلّما عليّ أيضًا ثم استدعوا القوّاد فسلّموا عليّ، ثم الناس على طبقاتهم، فلمّا انقضت المبايعة بقيت متعجّبًا مما اتّفق مع ما سمعته مِنْ كلام ابن الزيّات

وإيتاخ، فسألت عن الحال، وكيف جرت؟ فقيل لي: بَيْنا محمد بن عبد الملك الزيّات وإيتاخ في تقرير ما سمعته إذ دخل عليهما ابن أبي دؤاد فسلّم عليهما وعزّاهما، وقال: أنا رسول المسلمين إليكما وهم يقرؤون السلام عليكم ويقولون لكما: قد بلغنا وفاة إمامنا وعند الله نحتسبه وأنتما المنظور إليكما في هذا الأمر فمن اخترتما لإمامتنا؟ فقالا: ابنه محمد، فقال: بخ بخ ابن أمير المؤمنين إلّا أنه صغير لا يَصْلُح للإمامة، فمن غيره؟ قالا: فلان وفلان، وعدّا جماعة إلى أن قالا: وجعفر بن المعتصم، فقال: رضي المسلمون، اصفقا على يديّ فصفقا، ثم أرسل إلى أمير المؤمنين فكان ما رأى. قال المتوكّل: فبقي ما قاله إيتاخ وابن الزيات في نفسي فقتلتهما بما احتزما عليه من قتلي، فقتلت ابن الزيّات في التنّور، وإيتاخًا بالماء البارد. وكان ابن الزيّات قد اتّخذ التنّور لابن أسباط المصريّ، وهو صورة خابية مدوّرة، وجعل لباطن جوانبه مسامير أطرافها إلى داخل، فإذا وقف فيه الواقف لا يستطيع الحركة إلى جهة أخرى من جهاته إلّا ضربته المسامير، فلا يزال قائمًا فيه حتى يموت؛ فلمّا أُلقي فيه ابن الزيّات مرّ به عبادة المخنّث، فقال: يا ابن الزيّات أردت تخبز في التنّور فخُبِزت فيه. قال المسعوديّ: أقام ابن الزيّات في التنّور أربعين يومًا إلى أنْ مات، وكانت مدّة وزارته للمتوكّل أربعين يومًا.

وذُكِر أنّ الجاحظ كان من خواص ابن الزيّات، فلما قُبِض عليه هرب إلى البصرة، فقيل له: لِمَ هربت؟ قال: خفت أن يقال لي ثاني اثنين إذ هما في التنّور. قُتِل ابن الزيّات في الرابع من صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وكان قد وزر لثلاث خلفاء: المعتصم والواثق والمتوكّل، ولمّا قبض عليه قال: يا نفس ألم يكفك التجارة واليسار والرّغد مِنَ العيش حتى طلبت الوزارة وتعرّضت للسّباع في غيلها، ذوقي الآن ما جنيت على نفسك. ومات الواثق بسُرّ مَنْ رأى سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وله من العمر ستّة وثلاثين سنة، وكانت مدّة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وأيّامًا.

أُتي الإسكندر بسارق فأمر بصلبه، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت وأنا كاره، قال: وتُصْلَب أيضًا وأنت كاره.

مَن راقب في العقوبة رجاء الخلاص يوم الجزاء بالأعمال والقصاص

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٢]، قال بعض المفسّرين: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عديّ بن أرطاة: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أنّ لك عند الله ما لرعيّتك عندك. وقال بعض الحُكماء: اذكر عند القدرة قدرة الله عليك، وعند الظُّلم عدل الله فيك. وفي المثل: كما تُدِين تُدان. وقالوا: لا يَنْدمل مِنَ المظلوم جراحه، حتى ينكسر مِنَ الظالم جناحه. وقال أعرابيّ لِمَنْ جار عليه: لئن هملجت إلى الباطل إنك لعطوف عن الحقّ. وقال عُبَيْدة بن أبي لبابة: مَنْ طلب عِزًّا بباطل وجور أورثه الله ذلّاً بإنصافٍ وعدل. وقال الشاعر: [الخفيف]

لا تُعالج ذا الذَّنب بالانتقام واحترس مِنْ تباعة الآثام
فكرام الأنام سيماهم العفـ ـو قديمًا عن الذُّنوب العِظامِ

أُتي سليمان بن عبد الملك برجلٍ جنى جناية يجب عليه فيها التعزير لا غير، فأمر بقتله، فقال: يا أمير المؤمنين اذكر يوم الأذان، قال: وما يوم الأذان؟ قال: اليوم الذي قال الله فيه: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٤]، فبكى سليمان وأمر بإطلاقه.

أُتي الرشيد ببعض مَنْ خرج عليه، فلما مثل بين يديه، قال: ما تريد أن أصنع بك؟ قال: الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه أذلّ منّي بين يديك؛ فأطرق الرشيد مليًا، ثم رفع رأسه وقال: اذهب حيث شئت، فلمّا خرج قال بعض مَنْ حضر: يا أمير المؤمنين تُفْني مالك وتقتل رجالك حتى تظفر بمثل هذا الباغي وتُطْلقه بكلمة واحدة، إنّا لا نأمن مِنْ أن تتسلّط عليك الأشرار بالإحسان إليهم؛ فأمر بردّه، فلمّا مثُل بين يديه علم أنه قد أُغري به، فقال: يا أمير المؤمنين لا تُطِعْهم فيّ، فلو أطاع الله فيك خلقه ما استخلفك عليهم ساعة واحدة؛ فأمر بإطلاقه.

أخذ الحجّاج محمد ابن الحنفية بعدما قتل عبد الله بن الزبير، فقال: بايع أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، قال: إذا اجتمع الناس عليه كنت كأحدهم، قال: والله لأقتلنّك، قال: لعلّك لا تدري، قال: ما لي لا أدري؟ قال محمّد: حدّثني أبي أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ لله في كل يوم ثلاثمائة وستّين لحظة يقضي في كل لحظة ثلاثمائة وستين قضية»[1]، فلعلّه أن يكفيك في قضية مِنْ قضاياه؛

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٢٩٧.

فانتفض الحجّاج وقال: لقد لحظك الله، فاذهب حيث شِئْت، وخلّى سبيله. وكتب الحجّاج بهذا الكلام إلى عبد الملك بن مروان، ووافق ذلك كتاب ملك الروم إلى عبد الملك يتوعّده ويهدّده، فكتب إليه عبد الملك بهذا الكلام، فكتب ملك الروم إليه: ما أنت بأبي عذرة، هذا الكلام ما هذا إلّا كلام مِنْ أهل بيت نبوّة.

وقال رجل لأمير غضب عليه: أسألك بالذي أنت بين يديه غدًا أذلّ منّي بين يديك اليوم، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلّا نظرت في أمري نظر مَنْ يرى برئي أحبّ إليه مِنْ سقمي، وعدله فيّ أوْلى به مِنْ ظلمي؛ فعفا عنه وأطلقه. ولمّا هجم ابن حمران على مصر في أيّام المستنصر بالله وأحرق دار الزّيت وتخطّف عسكره اجتمع الناس إلى أبي الفضل الجوهري الواعظ فشكوا حالهم إليه، فكتب إلى المستنصر: إنْ كنت خالقًا فارحم خلقك، وإن كنت مخلوقًا فخَفْ خالقك، والسلام؛ فرفع ذلك عنهم.

غضب محمد بن سليمان على رجل فأمر بطرحه في القصر، فقال له رجل: اتّق الله فيّ، فقال: خلّوا سبيله، فإنّي كرهت أن أكون كالذي إذا قيل له: اتّق الله أخذته العِزّة بالإثم، فحسبه جهنّم. قدّم إلى أحمد بن نصير مجوسي جنى جناية فأمر بضربه، فقال: أيّها الأمير اضرب بقدر ما تقوى عليه ـ يريد بذلك القصاص في الآخرة ـ فتركه وترك العمل. وأخذ مصعب رجلًا مِنْ أصحاب المختار بن أبي عُبيدة، فأمر بضرب عنقه، فقال: أيّها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك الذي يُسْتضاء به وأتعلق بأطرافك، وأقول: ربّ سل مُصْعبًا فِيمَ قتلني؟ قال: أطلقوه، فقال: أيّها الأمير اجعل ما وهبت من حياتي في خفض عيش، قال: أعطوه مائة ألف درهم، فقال: أيّها الأمير أشهد أنّ لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفًا، قال: ولِمَ؟ قال: لقوله فيك[1]: [الخفيف]

إنما مصعب شهاب من اللّـ ـه تجلّت عن وجهه الظّلماءُ
ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت كلّا ولا كبرياءُ
يتّقي الله في الأُمور وقد أفـ ـلح مَنْ كان همّه الاتّقاءُ

---

(١) الأبيات في ديوان عبيد الله بن قيس الرقيّات، من قصيدة مطلعها:

أقفرت بعد عبد شمس كداءُ فكدَيٌ فالركن فالبطحاءُ

فتبسّم مُصعب، وقال: إنّ فيك لموضعًا للصنيعة، وأمر بملازمة جنابه، فلم يزل معه حتى قُتِل في جمادى الأُولى سنة اثنتين وتسعين، وقُتل أخوه عبد الله في جمادى الأُولى، وكانت مدّة خلافته تسع سنين واثنين وعشرين يومًا، وماتت أمّه أسماء بعده بخمسة أيام لم تشب ولم يقع لها سنّ ولها مِنَ العمر مائة سنة. واسمه ابن قيس الرقيات عبد الله، وإنّما عُرِف أبوه قيس الرقيّات لأنه تشبّب في شعره بثلاث نسوة اسم كل واحدة منهم رقية، وقيل: اجتمع في جدّاته ثلاث رقيات، وعلى القول الأول يقال الرُّقيات ـ بالضم ـ على الصفة، وقيس ـ بالتنوين ـ وعلى الثاني يقال: قيس الرقيات ـ بالكسر ـ على الجدّات، وأمّا الرقيات اللاتي شبّب بهن، فمنهنّ رقية بنت عبد الله بن جعفر، وفيها يقول(١): [الخفيف]

زوّدتـنـا رقـيـة الأحـزانـا   يوم حازت حمولها سكرانا

ورقية بنت عبد الواحد بن قيس، وفيها يقول(٢): [الكامل الأحذ]

أمسـت رقية دونـها العـمرُ   فـالـرّقة الـسـوداء فـالـبـشـرُ

ورقية بنت الحسن، وهي ابنة عمّ رقية بنت عبد الواحد، وفيها يقول(٣): [الوافر]

أتـكـنـي عـن رقـيـة أم تـبـوحُ   ومن تبع الهوى حينًا فضوحُ

الفصل الثالث من الباب الرابع عشر

في أن الانتقام بحدود الله خير فعلات من حكمه الله وولّاه

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٩].

وروى أبو داود في مراسيله التي أخرجها في سننه عن مكحول عن عُبادة بن الصّامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «أقِيمُوا الحدود في السّفر والحضر، على

(١) البيت في ديوان ابن قيس الرقيّات، وهو مطلع القصيدة.

(٢) البيت في ديوان ابن قيس الرقيات، من بيتين، وروايتهما فيه:

أضحـت رقـيّـة دونـهـا الـبـشـرُ   فـالـرقّـة الـسـوداءُ فـالـغـمـرُ
يـا لـيـت شـعـري كـيـف مـرّ بـهـا   وبـأهـلـهـا الأيـامُ والـدهـرُ

(٣) البيت في ديوان ابن قيس الرقيات، وهو مطلع القصيدة.

البعيد والقريب، ولا تُبالوا في الله لومة لائم»[(١)]. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حدٌّ يُقام في الأرض خيرٌ لأهلها مِنْ مطر أربعين صباحًا»[(٢)]. وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إنّ الله تعالى أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، وأنزل القصاص حياةً لعباده، فاقتصّوا وحدّوا ولا تخافوا في الله لومة لائم، ولا يحلّ لأحد أن يشفع في إسقاط حدٍّ مِنْ حدود الله تعالى، ولا يجوز للمشفوع إليه أن يشفع فيه لما روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ حالت شفاعته دون حدٍّ مِنْ حدود الله تعالى فقد ضادَّ الله تعالى»[(٣)]؛ فممّا ورد عن ذوي البصائر والأحلام في كنه مشروع الإيقاع والإيلام، قال رسول الله ﷺ: «لا جلد فوق عشر جلدات إلّا في حدٍّ مِنْ حدود الله عزّ وجلّ»[(٤)]، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «ادرؤوا الحدود بالشبهات»[(٥)]. قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: أوقفوا الحدود ما وجدتم موقفًا؛ ولأن يخطىء الإمام في العفو خيرٌ مِنْ أن يُخطىء في العقوبة، فإذا وجدتم مخرجًا للمسلم فادرؤوا عنه الحدود. وقال بعض الحُكماء: رُبَّ ذنب مقدار العقوبة فيه إعلام المذنب بما جنى لا يتجاوز حدّ الارتفاع إلى حدّ الإيقاع. وقيل لحممة بن رافع الدّوسي: مَنْ أعدل الناس؟ قال مَنْ عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم يُطْفِهِ غير الظفر. ويُحْكى أنّ جعفر بن محمد الصّادق قال لأبي جعفر المنصور وقد غضب على رجل فأسرف في عقوبته: أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تغضب لله سبحانه بأكثر مما غضب به لنفسه، إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة للمنتقم فوق حقّه: لِمَ عاقبت عبدي بأكثر مما حددته؟ فيقول: يا ربّ إنما غضبت لك، فيقول الله سبحانه: أكان غضبك أن يكون فوق غضبي. وقال أبو الدّرداء لرجل: اسمع كلامًا يا هذا لا تغرقنّ في سبّنا ودع للصلح

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٦٢، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٣٣٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢١٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ١٦٧، والمتقي الهندي في كنز العمّال ١٤٦٢١.

(٣) أخرجه أبو داود حديث ٣٥٩٧، وأحمد في المسند ٢/ ٧٠، ٨٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨٢، ٨/ ٣٣٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٧، ٤/ ٣٨٣.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٦٦.

(٥) أخرجه الزيلعي في نصب الراية ٣/ ٣٣٣، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٧٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٩٥٧، ١٢٩٧٢.

موضعًا، فإنّا لا نكافىء مَنْ عصا الله فينا بأكثر مِنْ أن نطيع الله فيه. وقال بعض الحكماء: إنّ الحقّ ثقيل؛ فمن قصّر فيه عجز، ومَنْ جاوزه ظلم، ومن انتهى إليه اكتفى. أُتي المأمون برجل وجب عليه حدّ، فأمر بضربه، فقال: يا أمير المؤمنين قتلتني؟ قال: الحقّ قتلك، قال: ارحمني، قال: ما أنا بأرحم مِنَ الذي أوجب الحدّ عليك. وقالوا: جماع الخير كلّه في القيام بحدود الله. تقدمت امرأة إلى ابن الزيّات وكان قد حُبِس ابنها في دم، فاستغاثت فنهرها وزوى وجهه عنها، فقال بعض مَنْ حضر: ارحمها أيّها الوزير، إنها أُمّه! قال: أفلا أرحم أمّ المقتول. شاعر[1]: [السريع]

إذا عفا لم يَكُ في عفوه مَنٌّ به كدّر نعماه
وإن سطا عاقب ذا زلّة بقدره لا يتعدّاه

وقال أكثم بن صيفيّ: لا تعاقب على الذُنوب فوق عقوبتها، فإنّ الله تعالى أقْدَر منك على عدوّك. وقال سرى السقطيّ: خصلة مِنْ أعلام الإسلام وقواعد الإيمان: مَنْ إذا قدر لم يتناول ما ليس له. وقالوا: العفو احتمال الذَّنب الذي لا يكون عن عمدٍ، ولا يُفضي إلى حدٍّ، ولا ينقض سنّة ولا يُولد جرأة؛ فأمّا الذي يرتكب عمدًا ويوجب حدًّا، فالاحتمال له ترخيص في الذُّنوب، والتجاوز عنه إبطالٌ للحدود، وذلك ما لا تحتمله السياسة ولا تطلقه الشريعة؛ فمن عفا عمّن يستوجب الحدّ كان كمن عاقب مَنْ يستحق المثوبة.

ذكر الحدود التي أوجبها الله تعالى على مَنْ افرط في ارتكاب الفواحش وتغالى

الحدود وضعها الله سبحانه للرّدع عن ارتكاب ما حظر، وترك ما أمر؛ فلا تُقام إلّا بعد سماع بيّنة أو إقرار، فإن لم تكن بيّنة أُحلف الخصم، وذلك في حقوق الآدميين، وهي نوعان: حدٌّ وتعزير، والحدّ أنواع: حدّ زنا، وحدّ سكر، وحدّ سرقة، وحدّ قذف.

فحدّ الزّنا، وهو أكبر الكبائر يثبت بأحد أمرين: إمّا بإقرار أو بيّنة، والبيّنة أربعة شهداء يشترط في قبول شهادتهم رأي العين للمباضعة، وفي جواز تعمّد النظر

(١) البيتان للحارثي في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٧٧٣.

خلاف، وحدّ الرؤية أن يرى مَنْ شهد تغييب البالغ العاقل حشفة ذكره في أحد الفرجين لا عصمة بينهما ولا شبهة.

والزّاني نوعان: بكر ومحصن، ويُجلد الفاعل في البكر إن كان حُرًا بالغًا عاقلًا عالمًا بالتحريم مائة سوط على سائر أعضائه، دون الوجه والرأس والخاصرة وسائر الأعضاء المخوفة ويغرّبان كلاهما، وقال مالك بتغريب الرجل دون المرأة، وقال أبو حنيفة: لا يُغرّب، والتغريب عام مسافة القصر، وحدّ الكافر غير الحربيّ والمسلم في الجلد والتغريب سواء، وحدّ العبد على النّصف مِنْ حدّ الحرّ، ويغرب نصف عام في أحد القولين، وقال مالك: لا يغرّب لِمَا في تغريبه من الإضرار بسيّده. فأمّا المحصن، فهو الذي أصاب وطأ محرمًا بعد نكاح وحدّه الرجم بالحجارة حتى يموت، ولا يلزم الراجم توقّي مقاتله بالرجم حتى الموت، وإن رجم بإقراره لم يحفر له وإن هرب لم يتبع، وإذا تاب الزّاني بعد القدرة عليه لم يسقط عنه الحدّ.

حدّ السرقة: والسرقة أخذ مال من حِرْز بلغت قيمته نصابًا إذا سرقه بالغ عاقل مختار لا شُبْهة له في المال ولا حرزه، فحدّه قطع يده اليُمْنى من مفصل الكوع، والنّصاب ربع دينار أو ما قيمته ربع دينار، وهو عشرة دراهم عند الشافعي وثلاثة دراهم عند مالك، والإحراز يختلف باختلاف الأموال، وإذا قطع السارق والمال باقٍ ردّ على مالكه، وإن سرقه ثانية قُطِع، وقال أبو حنيفة: لا يُقطع في مالٍ مرّتين، وإنْ عفا ربّ المال عن القطع لم يبطل، ويستوي في قطع السّرقة الرجل والمرأة والحرّ والعبد والمسلم والكافر. وإذا سرق ثانيًا قُطِعت رجله اليسرى، فإن سرق ثالثًا قُطِعت يده اليسرى، فإن سرق رابعًا قُطِعت رجله اليُمْنى، وإنْ سرق خامسًا لم يقتل بل يُعزر؛ لأنها معصية ليس فيها حدّ ولا كفّارة. وإذا تلف المسروق في يد السارق ضمن بدله وقُطِع؛ لأن الضمان يجب بحقّ الآدميّ، والقطع يجب لله، فلا يمنع أحدهما الآخر؛ كالديّة والكفارة، ولا يقطع صبيّ ولا مجنون ولا عبد سرق مِنْ مال سيّده ولا والد سرق من مال ولده ولا ولد سرق من مال والده أو جدّه؛ لأنّ لكل واحد منهما شبهة في مال الآخر.

حدّ الخمر: كلّ ما أُسكر كثيره من خمرٍ أو نبيد حُدَّ شاربه، سواء أسكر أو لم يسكر إذا كان مكلّفًا. والسكر ما زال معه العقل حتى لا يفرّق بين السماء

والأرض، ولا بين الطول والعرض، هذا قول أبي حنيفة. وقيل: هو أن يجمع بين اضطراب الكلام فهمًا وإفهامًا، وبين اضطراب الحركة مشيًا وقيامًا. ويُحكى أنه لمّا جلس أبو بكر محمد بن أبي داود الأصفهانيّ الظاهريّ بعد أبيه يفتي استصغروه فدسّوا إليه رجلًا، وقالوا له: سَلْه متى يكون الشارب سكران؟ فسأله الرجل فقال: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم؛ فعُلِم بهذا الجواب موضعه من العلم.
وقال آدم بن عبد العزيز في حدّه: [الطويل]

شربنا الشراب الصِّرف حتى كأنّنا نرى الأرض تمشي والجبال تسيرُ
إذا مرّ كلب قلت قد مرّ فارسٌ وإن مرّ هرٌّ قلت ذاك بعيرُ
تسايرنا الحيطان من كلّ جانبٍ نرى الشخص كالشخصين وهو صغيرُ

والحدّ في حقّ الحرّ أن يُجلد أربعين بالأيدي أو بأطراف الأكمام أو بالسوط، ويبكت بالقول الممض والكلام الرّادع، وحدّ العبد على النصف من حدّ الحرّ، كذا جلد رسول الله ﷺ وأبو بكر وصدرًا من خلافة عمر، فقال للصحابة: أرى الناس قد انتهكوا في شُرْب الخمر، فما ترون؟ فقال عليّ رضي الله عنه: أرى أن يُجلد الحرّ ثمانين والعبد أربعين، ففعل ذلك، فلمّا لم يكن بدٌّ مِن اتّباع سنّة رسول الله ﷺ جعل الفقهاء الأربعين الأولى حدًّا، والثانية تعزيرًا لأجل الافتراء؛ لأنّ الشارب إذا سكر عربد، وإذا عربد افترى، وإذا افترى استحقّ التعزير، فإن مات في الأربعين كانت نفسه هدرًا، وإنْ مات في الثمانين ففيه قولان، أحدهما: جميع الدية لتجاوزه النصّ في حدّه، وهو الأربعون. والثاني: نصف الديّة؛ لأنّ نصف حدّه نصّ، والآخر مزيد.

وحدّ القذف: ثمانون جلدة إجماعًا، وهو من حقوق الآدميين يستحق بالطلب ويسقط بالعفو، ويُعتبر في المقذوف خمس شروط: البلوغ، والحرّية، والعقل، والإسلام، والعِفّة؛ وإنْ كان غير ذلك لا يحدّ قاذفه، بل يُعْذر لأجل الأذى. وشرط القاذف أن يكون بالغًا عاقلًا حُرًا، وإنْ كان صغيرًا أو مجنونًا فلا يحدّ ولا يُعْزر، وإنْ كان عبدًا حُدّ أربعين لنقصه بالرقّ، ويستوي في الحدّ المسلم والكافر والمرأة، ولا يحدّ القاذف بالسرقة والكفر، بل يُعزر لأجل الأذى. والقذف بالزّنا ما كان بالتصريح لا بالتعريض، وقيل: بالتصريح والتعريض، وهو مذهب مالك، وقيل: لا حدّ في التعريض، وهو مذهب الشافعي.

والتعزير هو تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ولا يبلغ به أدنى الحدّ، فلا يبلغ به في الحرّ إلى الأربعين، ولا في العبد إلى العشرين، فالذي لم تشرع فيه الحدود كمباضعة الأجنبية فيما دون الفرج وسرقة ما دون النّصاب، والسرقة من غير حِرز، والقَذف بغير الزّنا، أو الجناية التي لا قَصاص فيها. ويجوز أن يكون التعزير بالعصا والسّوط، وهو على حسب ما يراه الإمام، ويختلف باختلاف الذّنب وحال فاعله؛ كقوله عليه الصّلاة والسلام: «أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم»[1]، إلّا في الحدود، فيُعزر مَنْ جُلّ قدره بالإعراض عنه، ويُعْزر مَنْ دونه بالتعنيف، ويُعْزر مَنْ دونه بزواجر الكلام، ويُعْزر مَنْ دونه بالضرب؛ وحالهم في الحبس كذلك مِنْ يوم إلى غاية غير مقدورة. ويجوز في التعزير العفو عنه إذا لم يتعلّق به حقٌّ لآدميّ؛ كالشّتم والضرب، وإن عفا المشتوم أو المضروب كان وليّ الأمر مخيّر بين التعزير تقويمًا أو العفو صفحًا، وإن تعافوا قبل الترافع إليه كان وليّ الأمر مخيّرًا.

والجنايات هي قود وعقل. والجنايات على النفوس ثلاثة: عمد محض، وخطأ وشبه عمد.

أمّا العمد المحض، فهو أن يتعمّد رجل قتل إنسان بما يقتل غالبًا؛ ففيه القود أو الديّة. والقود أن يُقتل القاتل بمثل ما قُتِل به المقتول، إذا قُتل بالسيف لم يُقْتصّ منه إلّا بالسيف، وإن أحرقه أو أغرقه أو رماه بحجر أو رماه من شاهق أو ضربه بخشبة أو حبسه ومنعه الطعام والشراب فمات، فللولي أن يقتصّ بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١٢٦].

والدّية في هذا القتل مائة مِنَ الإبل في مال القاتل حالة، فإن أُعوزت الإبل وجب قيمتها بلغت ما بلغت، وقيل: ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم، وأوّل مَنْ سنّ الدية مائة من الإبل عبد المطلب. وحُكم القود فيه أن يفضل القاتل على المقتول بحرّية أو إسلام، بحرّية أو إسلام، فلا يُقتل حرٌّ بعبد، ولا ذكر بأُنثى، ولا مسلم بكافر، وهو مذهب مالك والشافعي؛ فإن قتل حرٌّ عبدًا فلا قود، وكذا لو قتل مسلم كافرًا، وقال أبو حنيفة: يُقتل المسلم بالكافر والحرّ بالعبد، كما يُقتل العبد بالحرّ والكافر بالمسلم، ويُقاد الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل والكبير بالصغير

(١) أخرجه بنحوه أبو داود حديث ٤٣٧٥، وأحمد في المسند ٦/ ١٨١، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٦٧، ٣٣، والدارقطني في سننه ٣/ ٢٠٧.

والعاقل بالمجنون مراعاةً لقول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]، وقال المخالف له: هذه الآية واردة بحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، والذي خُوطب به المسلمون: «كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ولا يقاد والد بولد ويقاد الولد بالوالد والأخ بالأخ».

وأمّا الخطأ الظاهر، فهو أن ينسب إليه الفعل مِنْ غير قصد لإيقاع الفعل بالمقتول؛ كرجل رمى هدفًا فأصاب إنسانًا أو ركب دابة فرمحت بإنسان فمات، فهذا وما أشبهه إذا حدث عنه القتل قيل فيه خطأ محض تجب فيه الديّة دون القود على عاقلة الجاني في ماله مؤجلة تُؤخذ من حين يموت المقتول في ثلاث سنين أخماسًا عشرون خلفه، وهي التي مضى عليها سنة وخلفت عن أُمّهاتها، وعشرون بنت مخاض وهي التي مضى لها من العمر سنتان، وعشرون بنت لبون، وهي التي مضى لها من العمر ثلاث سنين، وعشرون حقّة وهي التي مضى لها من العمر أربع سنين، وسمّيت حقّة لأنها استحقّت أن يحمل عليها عشرون جذعة، وهي التي مضى لها من العمر خمس سنين، ولا يتحمّل القاتل مع العاقلة شيئًا مِنَ الدّية ولا يتحمّلها الأب وإن علا، ولا ابن وإن سفل؛ لأنهما ليسا مِنَ العاقلة.

وعلى القاتل خطأ مع الدية عتق رقبة مؤمنة سليمة مِنَ العيوب، فإنه لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قَيْد الرقّ كإحيائها مِنْ قتل؛ لأن الرقيق ممنوع من تصرّف الأحرار، ومَنْ لم يجد رقبة ولا ما يتوصّل به إليها فعليه صيام شهرين متتابعين.

وديّة نفس الحرّ المسلم ألف دينار، وإن كانت ورقًا اثنا عشر ألف درهم، وإن كانت إبلًا بمائة من الإبل، وهي أصل الديّة. وديّة المرأة على النصف من ديّة الرجل في النفس والأطراف، وديّة اليهودي والنصراني ثلث ديّة المسلم، وقال مالك: نصفها، وديّة المجوسي ثلثا عشر دية المسلم، وديّة العبد قيمته وإن زادت على الحرّ أضعافًا.

وأمّا شبه العمد، فهو أن يكون عامدًا في الفعل غير قاصد للقتل؛ كمعلم أدب صبيًا فمات أو عزر السلطان رجلًا على ذنب فتلف، فلا قود في القتل وفيه الديّة على العاقلة، وهو أن يزاد عليها ثلثها تؤخذ فيها ثلاثون حقّة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة. والعاقلة هم العصبات الذين يرثون بالنَّسَب والولاء، وإذا اشترك

جماعة في قتل رجل واحد وجب القود على جميعهم، وإن كثروا؛ ولوليّ الدم أن يعفو عمَّن شاء منهم ويقتل باقيهم، وإن عفى عن جميعهم فعليهم ديّة واحدة تقسط عليهم بالسويّة، وإن كان بعضهم جارحًا وبعضهم ذابحًا، فالقود في النفس على الذابح المُوفَى، والجارح مأخوذ بجراحته. وإذا قتل الواحد جماعة قُتِل بالأوّل ولزمه القود في الباقين، وتؤخذ ديّاتهم مِنْ ماله. والقود في الأطراف كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]، ولا تُقاد يمنى بيسرى، ولا صحيحة بشلّاء، ولا ضرس بسنّ، ولا ثنيّة برباعيّة ولا لسان ناطق بلسان أخرس؛ لأنه أكثر من حقه، ويؤخذ الأخرس بالنّاطق وما انقسم إلى أعلى وأسفل لم يؤخذ الأعلى بالأسفل، ويقاد الشريف بالدّنيء.

ما الدية فيه كاملة من جوارح الإنسان وحواسه

العقل، الأذنان، السمع على حياله، العينان، البصر على حياله، الأجفان، الأهداب على حيالها، الأنف الشمّ على حياله، الشفتان، النطق على حياله، الأسنان، اللّسان، الذوق على حياله، اللّحيان، اليدان، الأصابع على حيالها، الصلب، قوة الإمناء، الإليتان، الذَّكر، الأُنثيان، إبطال شهوة الجماع على حيالها، الرجلان منفعة المشي، والبطش من غير قطع اليدين، والرجلين سلخ جميع الوجه، نزع لحم الأكتاف، نزع جميع اللّحم النابت على الظهر.

ما تختص به المرأة دون الرجل

الثديان ـ وفي الرجل خلاف ـ الشفران، الإفضاء. وجب في كلّ جفن ربع الديّة، وفي كل سنّ خمس من الإبل، وكذلك في الأضراس والرباعيات وفي كل أصبع من اليد أو الرجل عشر الدية لا يفضّل أصبع على أصبع، وفي كل أنملة ثلث عشر الدية ما خلا الإبهام، فإنّ في كل أنملة منه نصف العشر. وإذا وجب القود في نفس أو طرف لم يكن لوليّه أن ينفرد باستيفائه إلّا بإذن السلطان، وإنْ صار إلى حقّه مِنْ غير إذن السلطان فلا شيء عليه، وإذا تعذّر وخاف فوات القاتل فالوليّ مُخيّر بين أن يعفو أو يقتل أو يأخذ الديّة، وذلك مما خصّ الله به هذه الأمّة؛ وذلك أنّ الله كتب على أهل التوراة القصاص وحرّم عليهم العفو وأخذ الديّة، وأوجب على أهل الإنجيل العفو وحرّم عليهم القصاص وأخذ الدية.

المحاربون، وهو اجتماع جماعة على شهر السلاح وقطع الطريق وأخذ الأموال ومنع السابلة، فالحكم فيها كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: الآية ٣٣]، وحُكم هذه الآية أنها مرتبة باختلاف أفعالهم لا باختلاف صفاتهم؛ فمن قتل وأخذ المال قُتِل وصُلِب، ومذهب مالك وأبي حنيفة أن يُصْلب حيًا ثم يُطْعن بالرّماح حتى يموت، ولا بأس أن يطعم ويسقى ولا يجوز العفو عن هذا القتل، وإن عفا وليّ الدّم؛ ومَنْ قتل ولم يأخذ المال قُتِل ولم يُصْلب، ومَنْ أخذ المال ولم يقتل قُطِعت يده اليمنى لسرقة ورجله اليسرى للمجاهرة بإخافة السَّبيل، ومَنْ هِيب ولم يقتل ولم يأخذ المال عُزر لا غير ونُفِي.

والنَّفْي هو الحبس، وهو قول مالك وأبي حنيفة، وقال الشافعيّ: هو أن يطلبوا لإقامة الحدود فيبعدوا، فإن تابوا سقطت عنهم الحدود. وقيل: الإمام مخيّر بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق مِنْ غير تفصيل. وتوبة المحارب قبل القدرة عليه، فإن لم يكن في مِنْعة وضع عنه الحدّ الإلٰهي ولا يسقط عنه حدّ الآدمي، وقال مالك: توبة المحارب قبل القدرة عليه تضع عنه جميع الحدود والحقوق لا الدِّماء، والله أعلم.

الباب الخامس عشر
في الأخوة

وفيه ثلاث فصول:

الفصل الأوّل من هذا الباب
في مدح اتّخاذ الإخوان فإنهم العدد والأعوان

قال الله تعالى حكايةً عن قول الكفّار في دركات النار في طلبهم الإغاثة من الصديق على إزالة ما مسّهم من عذاب الحريق أو تخفيف ما نالهم من العذاب الأليم، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٠٠، ١٠١].

قيل: إنما سُمّي الصدّيق صديقًا لصدقه فيما يدّعيه من المودّة، وسمّي العدوّ عدوًا لِعَدْوِهِ عليك إذا ظفر بك. وقال رسول الله ﷺ: «أكثروا من الإخوان، فإنّ الله حييٌّ كريم يستحي أن يعذّب عبده بين إخوانه»[(١)].

وقال عليه الصّلاة والسّلام: «المرء كثير بأخيه»[(٢)]، وقال: «عليكم بإخوان الصّدق، فإنهم معونة على حوادث الزمان، وشركاء في السرّاء والضرّاء»[(٣)]، وما أحسن قول مَنْ قال[(٤)]: [السريع]

ما دامت النفس على شهوة ... ألذ من وذ صديقٍ أمين
مَنْ فاته وُدّ أخ صالحٍ ... فذلك المقطوع منه الوَتِينُ

---

(١) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة ٥٥١، بلفظ: «أكثروا من الأصدقاء...».

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٦٨٣، والشوكاني في الفوائد المجموعة ٢٦٠.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) البيتان لمحمد بن أبي أمية الكاتب في كتاب الديارات، للشابشتي، ص ٣٥؛ وبلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٩١١.

وقيل لحكيم: ما أحسن العيش؟ قال: إقبال الزّمان، وعِشْرة السُّلطان، وكثرة الإخوان. [السريع]

ما ضاع مَنْ كان له صاحبٌ يقدر أن يرفع مِنْ شانِهِ
وإنّما الدُّنيا بسكّانها وإنما المَرْء بإخوانِهِ

ولعليّ كرّم الله وجهه في معناه[1]: [الطويل]

عليك بإخوان الصفاء فإنّهم عماد إذا استنجدتهم وظهورُ
وليس كثير ألف خلّ وصاحب وإنّ عدوًا واحدًا لكثيرُ

وقال المغيرة بن شعبة: التارك للإخوان متروك. ويقال: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين. وقال الشاعر[2]: [المتقارب]

وما المَرْء إلّا بإخوانه كما يقبض الكفّ بالمعصمِ
ولا خير في الكفّ مقطوعة ولا خير في السّاعد الأجذمِ

وقالوا: مَنْ لم يرغب في الإخوان، بلي بالعداوة والخذلان. وقالوا: اتّخاذ الإخوان مسلاة للأحزان. وقالوا: مثل الصديق كاليد تُوصل باليد، والعين تستعين بالعين. الثعالبي: الحاجة إلى الأخ المعين كالحاجة إلى الماء المَعِين. وقال: الصديق ثاني النفس وثالث العينين. وقال: في لقاء الإخوان روح الجِنان، وراحة الجبان. وقال: لا فاكهة طيب مِنْ مفاكهة الإخوان، ولا نسيم أرْوَح من مناسمة الخلّان. وقيل لبعضهم: أيّما أعزّ عليك شقيقك أم صديقك؟ قال: شقيقي إذا كان صديقي. وقالوا: الأخ الصالح خيرٌ لك من نفسك؛ لأنّ النفس أمّارة بالسوء، والأخ الصالح لا يأمرك إلّا بخير. ولم يقل في احتياج الإنسان إلى صديق يزينه في المشاهد ويُعينه على بلوغ المقاصد مثل قول الفقيه المنصور[3]: [مخلّع البسيط]

لولا صدود الصديق عنّي ما نال واشٍ مُناه منّي
ولا أدمت البكاء حتى قرح فَيْض الدُّموع جفني
وما جفاه الصديق إلّا هجوم خوف عقيب أمنِ

(١) البيتان في ديوان عليّ بن أبي طالب، وهما بيتان منفردان.
(٢) البيتان بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٩٢.
(٣) الأبيات في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

وقالوا: اْصْطَفِ مِنَ الإخوان مَنْ كان ذا عقل موفور يُهتدى به إلى مراشد الأمور، فإنّ الأحمق لا يثبت له وصال، ولا يدوم لصاحبه على حال. وقالوا: اصطف مِنَ الإخوان ذا الدِّين والحسب، والرَّأي والأدب، فإنه رِدْء لك عند حاجتك، وركنٌ عند نائبتك، وأنس عند وحشتك، وزين عند عاقبتك.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه(١): [الوافر]

أخلّاء الرجال همو كثير ... ولكن في البلاء همو قليلُ
فلا يغررك خلّة مَنْ تصافي ... فما لك عند نائبة خليلُ
وكم خلٍّ يقول أنا وفيّ ... ولكن ليس يفعل ما يقولُ
سوى خلّ له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعولُ

وقد صرّح الشاعر في اعتبار الأخلاق واختيار الأعراق، بقوله: [الكامل]

وإذا جهلت مِن امرىء أعراقه ... وذكرتها فانظر إلى ما يصنعُ
إنّ النّبات إذا استدام به الثّرى ... مرج النبات به فطاب المرتعُ

آخر: [الكامل]

صافي الكريم فخيرُ مَنْ صافيته ... مَنْ كان ذا شرف وكان عفيفا
إنّ الكريم إذا تضعضع حاله ... فالخلق منه لا يزال شريفا

وقال عليّ رضي الله عنه: الأخ رقعة في ثوبك، فانظر بِمَ ترقعه. وقال العتابيّ: لا تستكثرن من الإخوان إلّا إن كانوا أخيارًا، فإنّ الإخوان غير الأخيار بمنزلة النار قليلها متاع وكثيرها بوار؛ وقد قال الشاعر: [البسيط]

لا تركننّ إلى أهل الزّمان ولا ... تأمن إلى أحدٍ واستشعر الحذرا
فإن شككت فجرّب مَنْ تعاشره ... حتى يقول لك التجريب كيف ترى

آخر(٢): [الطويل]

تخيّر مِنَ الإخوان كلّ ابن حرّة ... يسرّك عند النّائبات بلاؤه
وقارِنْ إذا قارنت حرًا فإنّما ... يزين ويزري بالفتى قرناؤه

---

(١) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

عديّ بن زيد[١]: [الطويل]

إذا كنت في قوم فصاحب خِيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الرَّدي
عن المَرْءِ لا تسأل وسَلْ عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدي

آخر: [السريع]

لا تَكُ للجاهل خدنًا فقد يُغتبر الصاحب بالصَّاحبِ
علامةُ الإنسان في خدنه تبين للشاهد والغائبِ

ولبعضهم: [الطويل]

إذا اخترت أن يبقى لك الدّهر صاحبًا فمِنْ قبل أن يَصْفو لك الودّ فأغضبُهْ
فإن كان في حال التباغض راضيًا وإلّا فقد جرّبته فتجنَّبُهْ

قال ابن مسعود: ما شيء أدلّ على شيءٍ ولا الدخان على النار مِنَ الصَّاحب على الصاحب. وقال حكيم: كلّ إنسان يأنس إلى شكله، كما أنّ كل طير يطير مع جنسه.

ومِنَ النوادر: أنَّ حكيمًا رأى غرابًا مع حمامة، فعجب من تآلفهما مع مباينتهما في الجنس، فأثارهما، فإذا كل منهما مكسور الجناح، فقال: إنما جمع بينهما العلّة. وقالت الحكماء: الأضداد لا تتفق، والأشكال لا تفترق. وقالوا: على قدر تشاكل الأجناس تتألف قلوب الناس، وأقربهما مشاكلة أحسنهما مواصلة، وأكثرها تنافرًا أطولها تهاجرًا. وحُكِي أنّ عبد الله بن جعفر جاء مكّة ليلًا فبات خارجها، فلمّا أصبح دخلها، فقال: يا أهل مكة عرفنا أخياركم مِنْ أشراركم في ليلةٍ واحدة، نزلنا ومعنا أخيار وأشرار، فنزل أخيارنا على أخياركم وأشرارنا على أشراركم؛ وقد نظم المتنبّي هذا القول في بيتٍ واحد، فقال[٢]: [الوافر]

وشبه الشيء منجذبٌ إليه وأشبهنا بدنيانا الطّغامُ

---

(١) البيت الثاني في ديوان عدي بن زيد، من قصيدة مطلعها:
أتعرف رسم الدار من أُمّ معبدِ نعم ورماك الشوق قبل التجلّدِ
(٢) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
فؤادٌ ما تسلّيه المدام وعمرٌ مثل ما تهبُ اللّئامُ

ولغيره: [الطويل]

لكل امرىء شكل من الناس مثله وأكثرهم شكلًا أقلُّهم عقلا
وكلّ أناس يألفون لشكلهم وأكثرهم عقلًا أقلّهمو شكلا
لأنّ كثير العقل ليس بواحدٍ له في فريق كلّ حين له مثلا

آخر(١): [السريع]

وقائل كيف تهاجرتما فقلت قولًا فيه إنصافُ
لم يكُ من شكلي ففارقته والناس أشكال وألّافُ

وقال الجاحظ: مِنْ شأن الأجناس أن تتواصل، ومِنْ عادة الأشكال أن تتقاوم، والشيء يتغلغل إلى معدنه، ويحنّ إلى عنصره، إذا صادف منبته ولاقى عنصره وشج بعروقه وسبق بفروعه، وتمكّن على الإقامة وثبت ثبات الطّينة.

وقال حاتم(٢): [الطويل]

وإني وحيد الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وشكلي شكل لا يقوم بمثله مِنَ الناس إلّا كل ذي ثقة مثلي
ولي ملح في المجد والبذل لم يكن تأنّقها فيما مضى أحد قبلي
وأجعل مالي دون عِرْضي جنّة لنفسي وأستغني بما كان مِنْ فضلي

أبو سليمان الخطابيّ(٣): [الطويل]

وما غُرْبة الإنسان في شقّة النّوى ولكنّها والله في عدم الشَّكلِ
وإني غريبٌ بين بست وأهلها وإنْ كان فيها أسرتي وبها أهلي

---

(١) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:
وقائل كيف بها جزتما

(٢) الأبيات في ديوان حاتم الطائي، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:
وإني لعفّ الفقر مشترك الغنى

(٣) البيتان لأبي سليمان الخطابي (أحمد بن محمد بن إبراهيم) في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته؛ والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

ويقال: المودة نسبة مِنْ غير رحم، وصِلَة مِنْ غير قرابة. شاعر[(١)]: [الكامل]

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم ... وبلوت ما وصلوا مِنَ الأسبابِ
فإذا القرابة لا تقرّب نائيًا ... وإذا المودّة أقرب الأنسابِ

آخر: [البسيط]

ما القرب إلّا لمن صحّت مودته ... ولم يَخُنْك وليس القرب بالنّسبِ
كم من قريبٍ بعيد الودّ مطعن ... ومن بعيد سليم الودّ مقتربِ

فنون شروط الإخاء وحقوقه الواجبة على كل أحد لصديقه

والقول الجامع لحقوق الصديق ما روي عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «للمسلم على المسلم ستّ خصال واجبات، فمن ترك واحدة منها فقد ترك حقًّا واجبًا لأخيه عليه: أن يُسلّم عليه إذا لَقِيه، ويشمّته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويُجيبه إذا دعاه، وينصحه إذا غاب، ويشيّعه إذا مات»[(٢)]. وقال عمر بن الخطّاب: ثلاث يصفو بها ودّ أخيك: تسلّم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحبّ أسمائه إليه. نظم بعض الشعراء هذه الكلمات: [الطويل]

ثلاث بها تصفو بودّ أخيكا ... إذا اجتمعت بعد الإخوة فيكا
تسلّم عليه ضاحكًا متحبّبًا ... إليه إذا لاقيته ولقيكا
ويوسع له بالودّ في كلّ مجلسٍ ... كما كنت يومًا موسّعًا لأبيكا
وتدعوه مِنْ أسمائه بأحبّها ... إليه تكن بالودّ منه وشيكا
وداوم عليها مع أخيك فإنه ... من السوء عند النائبات يقيكا

وسُئِل عبد الله بن عمر: ما حقّ الصديق على صديقه؟ قال: لا تشبع ويجوع، وتلبس ويعرى، وأن تواسيه بالبيضاء والصفراء. نظم شاعر هذه الكلمات

(١) البيتان ليحيى بن زياد الحارثي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت الأول في الديوان:
ولقد عرفت القائلين وقولهم ... وفهمت ما ذكروا من الأسبابِ

(٢) أخرجه بلفظ: «للمسلم على المسلم ستّ بالمعروف...»، الترمذي حديث ٢٧٣٩، وابن ماجه حديث ١٤٣٣، وأخرجه بلفظ: «للمسلم على المسلم ستّ خصال»، الطبراني في المعجم الكبير ٤/ ٢١٦، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٨٣٩.

فقال: [الخفيف]

لخليلي عليّ مني ثلاث واجبات أخصّها إخواني
حفظه في المغيب إن غاب عنّي ولقياه بالبشر إنْ لاقاني
ثم بذلي بما حوته يميني مشفقًا في الخطوب إنْ ما دعاني

فمما يعتمد من شرائط الإخاء والمودّة رعاية الأخ أخاه في الرَّخاء والشدّة

قال عليّ رضي الله عنه: لا يكون الصديق صديقًا حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وغيبته ووفاته. وقال طاوس اليماني: لا تواخين إلّا الكريم الأُبوّة الكامل المروّة، الذي إن بعدت عنه خلفك، وإن قُربت إليه كنفك. وقال الثعالبي: ينبغي أن يكون الصديق لصديقه أسمع مِنْ خادم، وأطْوَع من حاتم. وقيل لابن السمّاك، واسمه محمد بن صبيح: أيّ الإخوان أخلق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملك على القُرب، ولا ينساك عند البُعْد، إن دنوت منه دعاك، وإن بعدت عنه رعاك، لا يقبضه عنك يسر، ولا يقطعه عنك عسر، إنِ استعنته عضدك، وإن احتجت له رفدك، وتكون مودّة فعله أكثر من مودة قوله، يستقل كثير المعروف مِنْ نفسه، ويستكثر قليل المودّة مِنْ صديقه. وقال جعفر الصّادق رضي الله عنه: للصداقة خمس شروط فمن كانت فيه فانسبوه إليها، ومَنْ لم تكن فيه فلا تنسبوه إلى شيءٍ منها، وهي أن يكون زين صديقه زينه، وسريرته له كعلانيته، وأن لا يغيّره عليه مال، وأن يراه أهلًا لجميع مودّته، ولا يسلمه عند النكبات. وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: إذا انقطع شسع نعل أخيك ولم تُواسه في الحفاء، فقد مِلْت إلى جانبٍ مِنَ الجفاء. ومِنْ حقّ الصداقة: حفظ العهد، وبذل المال، وإخلاص المودّة، ورعاية الغيب، وتوقير المشهد، ورفض الوحدة، وكَظْم الغَيْظ، واستعمال الحلم، ومجانبة الخلاف، واحتمال الكَلّ، وطلاقة الوجه، وصدق اللّسان، والمشاركة في البأساء.

ولقد كرم نجار مَنْ قال في معرض الافتخار: [البسيط]

لم يبق مني على الأيام باقية إلّا انقضت غير حفظ العهد والذِّممِ
هذان خلقان أيام الحياة معي لا يبرحان على الإكثار والعدمِ

أبو العتاهية[1]: [الطويل]

أُحبّ مِنَ الإخوان كل مؤاتي وكل غضيض الطّرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمرٍ أريده ويحفظني حيًّا وبعد مماتي
ومَنْ لي بهذا ليت أني وجدته فقاسمته ما لي مِنَ الحسناتِ

وقالوا: خير الإخوان مَنْ يستر ذنبك فلم يُقرعك به، ويخفي معروفه عندك فلم يمنّ به عليك. وقال أعرابيّ: اصحب مَنْ ينسى معروفه عندك، ويذكر حقوقك عليه. وقال آخر: اصحب مَنْ إذا صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتك خصاصة مانك، وإن رأى منك حسنة عدَّها، إن عَثر على سيّئة سدَّها، لا تخاف بوائقه، ولا تختلف عليك طرائقه. أبو نصر المِيكالي: [مجزوء الرجز]

أخوك مَنْ إنْ كنت في نعمى وبُؤسى عاد لك
وإنْ بدا لك نقمة البرّ منه عاد لك

آخر[2]: [الخفيف]

خير إخوانك المشارك في الأمـ ـرّ وأين الشريك في الأمر أينا
الذي إن حضرت زانك في الحـ ـيّ وإن غبت كان أذنًا وعينا

آخر: [الطويل]

لعمرك ما زان الفتى في أُموره ولا شانه إلا طباع الخلائقُ
ولا صاحب الأقوام في كل حالةٍ كحرٌ كريم أو خليلٍ موافقُ
يواسيك في البلوى ويمنحك الهوى ويصفيك ودًّا ما خضا غير ماذقُ
يكون إذا نابَتْك يومًا عظيمة سنانًا لدى الهَيْجاء في كلّ مارقُ

آخر[3]: [الرجز]

إن أخاك الصّدق مَنْ كان معكْ ومن يضرّ نفسه لينفعكْ
ومن إذا ريب الزّمان صدعكْ شتّت فيك شمله ليجمعكْ

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٢) البيتان لكُثيّر عَزّة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة؛ ولبشار بن برد في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) الرجز لعليّ بن أبي طالب في ديوانه، والشطر الأول مطلع القصيدة.

وقيل لخالد بن صفوان: أيّ إخوانك أوجب عليك حقًّا؟ قال: الذي يسدّ خَلَلي، ويغفر زَلَلي، ويقبل عِلَلي، ويبسط عنده أملي. وقال الثعالبي: صديقك مَنْ يرضى خلّتك ويسدّ خلّتك. وقال الحجاج لابن القرية: ما الكرم؟ قال: صِدْقُ الإخاء في الشدّة والرَّخاء. ويقال: صديقك مَنْ ساعفك في أطوارك، وقدَّم سعيه في قضاء أوطارك. أبو تمام حبيب(١): [الكامل]

مَـنْ لـي بـإنـسـانٍ إذا أغـضـبـتـه ... وجـهـلت كـان الـجـهـل ردّ جـوابِـه
وإذا صبوت إلى المدام شربت من ... أخـلاقـه وسـكـرت مِـنْ آدابِـه
وتـراه يـصـغـي لـلـحـديـث بـطـرفـه ... وبـقـلـبـه ولـعـلّـه أدرى بِـه

وقال الخليل بن أحمد: يجب على الصديق مع صديقه استعمال أربع خصال: الصفح قبل الاستقالة، وتقديم حُسْن الظنّ قبل التُّهمة، والبَذْل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب. وقال رجل لمطيع بن إياس: جئتك خاطبًا لمودّتك، قال: قد زوّجتكها على شرط أن تجعل صداقها أنْ لا تسمع فيّ مقالة الناس. وقالوا: السّتر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت. شاعر: [الطويل]

إذا شئت أن تُدْعى كريمًا مهذّبًا ... حليمًا ظريفًا ماجدًا فَطِنًا حُرًّا
فإنْ ما بدت مِنْ صاحب لك زلّة ... فكُنْ أنت محتالًا لزلّته عذرا

وقيل لبعض الأُدباء: مَنْ الرفيق؟ قال: مَنْ أحسن شغله، وأوكد فرضه ونفله، فقيل له: مَنْ الشفيق؟ قال: مَنْ إنْ دهمتك محنة قذيت عينه لك، وإن شملتك منحة قرّت عينه بك، فقيل له: فمَنِ الوفيّ؟ قال: مَنْ يحكي بالقصد كمالك ويرعى بلحظه جمالك، قيل له: فمَنِ الصَّاحب؟ قال: الذي مَنْ إذا نأى ذكرك عند الناس، وإنْ دنا خدمك في الكناس. وقال بعض البُلغاء: إذا جادلك أخوك بماله فقد جادلك بنفسه؛ لأنه قد بذل لك ما لا قِوام لنفسه إلّا به، وإذا بخل عليك برفده، فلا تصدّقه في ودّه. ولله درّ القائل: [المتقارب]

إذا صـاح بـي صـاحـبـي يـا أخـي ... وقـد عـضّـه الـدّهـر لـبّـيْـتَـهْ
أعـلـل بـالـوصـل عـرس الإخـاء ... لـيـزكـو مـا كـنـت ربَّـيْـتَـهْ
لـه الـصَّـفـو مـمـا حـوتـه يـدي ... وبـيـتـي إذا زارنـي بـيْـتَـهْ

(١) الأبيات لأبي تمام في المستطرف، للأبشيهي، ص ٥٧٤، ولم أجدها في ديوانه.

آخر(١): [الوافر]

أميل مع الصديق على ابن أمّي وآخذ للصديق مِنَ الشقيقِ
فإن بصرتني حُرًّا مُطاعًا فإنك واجدي عند الصديقِ

وقالوا: لتكن معاونتك أخاك بمهجتك عند البلاء أكثر مِنْ معاونتك إيّاه عند الرّخاء. وقالوا: اجعل حسنات أخيك له محسوبة، وسيّئاته إلى الزمان منسوبة. وقالوا: مِنْ علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا، ولعدوّ صديقه عدوًّا. وقالوا: ليس من الحبّ أن تحبّ ما يبغض حبيبك. السريّ الرفاء(٢): [الطويل]

وليس يكون المَرْء سلم صديقه إذا لم يكن حرب العدوّ المخالفِ

آخر(٣): [الطويل]

صديق عدوّي داخل في عداوتي وإني لمن ودّ الصديق ودودُ

آخر(٤): [الطويل]

تودّ عدوّي ثم تزعم أنني صديقك أنّ الرأي منك لعازبُ

آخر مِنْ أبيات(٥): [الوافر]

إذا صافى صديقك مَنْ تعادي فقد عاداك وانقطع الكلامُ

وقالوا: يجب على الصديق أن يحتمل لصديقه ثلاث مظالم: ظلم الغضب، وظلم الدالّة، وظلم الهفوة. وقالوا: إذا صحّ الودّ سقطت شروط الأدب. ويقال:

---

(١) البيتان لعلي بن الجهم في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:

أميل مع الذمام على ابن أمّي

(٢) البيت في ديوان السريّ الرفّاء، من قصيدة مطلعها:

قضى بوقوف الركب حقّ المواقف فروّى صداها بالدموع الزوارفِ

(٣) البيت لعلي بن أبي طالب في ديوانه، من بيتين، والبيت الثاني:

فلا تقربا مني وأنت صديقه فإنّ الذي من القلوب بعيدُ

(٤) البيت للنابغة الشيباني في ديوانه، من بيتين، والبيت الثاني:

وليس أخي من ودّني بلسانه ولكن أخي من ودّني وهو غائبُ

(٥) البيت بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٩٣٩؛ وسلافة العصر، لابن معصوم، ص ٣٩٢.

إذا صحّ الاعتقاد ذهب الانتقاد. وقال المأمون: أحبّ الإخوان إليّ مَنْ يكفيني مُؤْنة التحفّظ.

ومما يجب عليه من حسن الصنيع رفض العتاب واجتناب التقريع

قال عيسى عليه السلام: الصّبر على أخٍ بعيب فيه خير مِنْ أخ تستأنف مودّته. وقيل: مَنْ عاتب في كل ذنب أخاه، فحقيق أن يملّه ويقلاه. وقالوا: قديم الحرمة وحديث التوبة يمحوان ما بينهما مِنَ الإساءة. شاعر: [الكامل]

زيّن أخاك بحسن وصفك فضله ... واثبت لما يأتي مِنَ الحسناتِ

وتجاف مِنْ عثراته واساته ... مَنْ ذا الذي ينجو مِنَ العثراتِ

وقالوا: العفو الذي يقوم مقام العتق ما سلم مِنْ تعداد السّقطات، وخَلُص مِنْ تذكار الفرطات. وقالوا: ليس مِنَ العدل سرعة العذل. ويقال: العِتاب داعية الاجتناب. وقالوا: عتاب الأحباب داعية الهجر والسّباب. وقالوا: العتاب آكد دواعي القطيعة بين الأحباب. شاعر[1]: [الكامل]

لولا كراهية السّباب وإنني ... أخشى القطيعة إن ذكرت عتابا

لذكرت مِنْ عثراتكم وذنوبكم ... ما لو يمرّ على الفطيم لشابا

آخر: [الوافر]

تحمل من صديقك كلّ ذنبٍ ... وعُدّ خطاه مِنْ نمط الصّوابِ

ولا تعتب على ذنبٍ حبيبا ... فكم هجرٍ تولّد مِن عتابِ

أحمد بن يوسف: [الوافر]

وكم قد قلتمو قولًا لدينا ... له لولا مهابتكم جوابُ

تركت عتابكم وعفوت إنّي ... رأيت الهجر مبدؤه العتابُ

---

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٢٨٢.

آخر[1]: [الوافر]

إذا اعتذر الصديق إليك يومًا   مِنَ التقصير عذر أخٍ مقرّ
فصُنْه عن عتابك واعفُ عنه   فإنّ العفو شيمة كل حرّ

آخر[2]: [الكامل]

لا تجفونّ أخًا وإن أبصرته   لك جافيًا ولما تحب منافيا
فالغصن يذبل ثم يصبح ناضرًا   والما يكدر ثم يرجع صافيا

آخر: [الرمل]

أخلص الودّ لمن آخيته   واغفر العشرة منه إنْ عثرْ
وإذا زلّت به النعل فلا   تلبسن مِنْ أجله جلد النَّمِرْ
عُذْ بحلم منك يطفي جهله   إنّما الجهل كنار تستعرْ

آخر[3]: [الطويل]

إذا أنت عاتبت الملوك فإنّما   تخطّ على جارٍ مِنَ الماء أحرفا
وهِبْه ارعوى بعد العتاب ولم تكن   مودّته طبعًا فصارت تكلّفا

آخر[4]: [الوافر]

وكم مِنْ قائلٍ قد قال دعه   فلم يَكُ ودّه لك بالسَّليمِ
فقلت إذا جزيت الغدر غدرًا   فما فَضْل الكريم على اللّئيمِ
وأين الألف يعطفني عليه   وأين رعاية الحقّ القديمِ

ويقال: إذا انبسطت المكاتبة انقبضت المصاحبة. وقال أبو بكر الخوارزمي: لا خير في حبٍّ لا تحتمل أقذاؤه، ولا يشرب على الكدر ماؤه، وإنما العِشرة مجاملة، والمجاملة لا تسع الاستقصاء، والكشف لا يحتمل الحساب والصّرف.

---

(١) البيتان بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٣٧٣.
(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان بلا نسبة في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٢٥٦.
(٤) الأبيات بلا نسبة في المذاكرة في ألقاب الشعراء، للنشابي الإربلّي، ص ٢٩٩.

محمود الورّاق[(١)]: [الكامل الأحذ]

إنّ التجنّي قاطع الرّفد — والغَيْظ يخرج كامن الحقدِ
فاقبل أخاك على تغيّره — وازع الذي قد كان مِنْ عهدِ

آخر[(٢)]: [الطويل]

ومَنْ لم يغمّض عينه عن صديقه — وعن بعض ما فيه يمتْ وهْو عاتبُ
ومن يتتبع جاهدًا كلّ عثرة — يجدها ولا يسلم له الدّهر صاحبُ

بشار بن بُرْد[(٣)]: [الطويل]

إذا كنت في كلّ الأمور مُعاتبًا — خليلك لم تلق الذي لا تُعاتبُهْ
وإنْ أنت لم تشرب مرارًا على القَذى — ظَمِئت وأيّ الناس تصفو مشاربُهْ
فصُنْ واحدًا أو صُن أخاك فإنّه — مقارفٌ ذنب مرّة ومجانبُهْ
ومَنْ ذا الذي ترضى سجاياه كلّها — كفى المرء نبلًا أن تعدّ معايبُهْ

آخر[(٤)]: [المنسرح]

ارضَ مِنَ المَرْء في مودّته — بما يودى إليك ظاهرهُ
من يكشف الناس لم يجد أحدًا — تصحّ منهم له سرائرهُ
يوشك أن لا يتمّ وصلُ أخ — في كلّ زلّاته تنافرهُ

ابن الرومي[(٥)]: [الطويل]

هم الناس في الدنيا فلا بدّ من قذى — يلمّ بعين أو يكدّر مشربا
ومن قلّة الإنصاف أنك تبتغي الـ — ـمهذب في الدنيا ولست المهذّبا

---

(١) البيتان في ديوان محمود الورّاق، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لكُثَيّر عَزّة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أشاقك برقٌ آخر الليل واصبٌ — تضمّنه فرشُ الجبا فالمساربُ

(٣) الأبيات في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

جفا ودّ فازورّ أو ملّ صاحبُه — وأزرى به أن لا يزال يعاتبُه

(٤) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٥) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، وهما بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٤٣٩.

العباس بن الأحنف[١]: [الخفيف]

إنّ بعض العتاب يدعو إلى الهجـ ـر ويؤذي به المحبّ الحبيبا
وإذا ما القلوب لم تضمر الو دّ فلن يعطف العتاب القلوبا

وقالوا: الاستقصاء أوّل الزهد، وآخر الودّ. ومِنْ أمثالهم: ربّ خطرة صغيرة عادت همّة كبيرة. وقال الشاعر[٢]: [البسيط]

هذي مخايل برق خلفها مطر جود وورى زناد خلفه لهبُ
وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه وأوّل الغيث قطر ثم ينسكبُ

نصر بن سيّار[٣]: [الوافر]

أرى خَلَل الرّماد وميض جمر ويُوشك أن يكون لها ضرامُ
فإنّ النار بالعودين تذكو وإنّ الحرب أوّلها كلامُ
فإن لم يُطْفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهامُ

عبد الله بن طاهر[٤]: [الطويل]

إذا ما صديقي ضرّني سوء فعله ولم يَكُ عمّا ساءني بمفيقِ
صبرت على أشياءٍ منه تريبني مخافة أن أبقى بغير صديقِ

ومنه قول الآخر[٥]: [الوافر]

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وأشرفني على حنقٍ بريقي
غفرت ذنوبه وعفوت عنه مخافة أن أعيش بلا صديقِ

---

(١) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف، من قصيدة مطلعها:
وجد الناس ساطع المسك من دجـ ـلة قد أوسع المشارعَ طيبا
(٢) البيتان للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
نحن الفراء فمأخوذٌ ومرتقبٌ ينوب عنك إذا همّت بك النوبُ
(٣) الأبيات في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٥٩١، والحماسة البصرية، للبصري، ص ٢٦٨.
(٤) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٩١٣.
(٥) البيتان لأبي زبيد الطائي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
إذا نلت الوزارة فاسم فيها إلى العلياء بالحسب الوثيقِ
ولكثير عزّة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
صديقك حين تستغني كثيرٌ وما لك عند فقرك من صديقِ

ومنهم مَن استحسن عتاب الأصحاب
فربما كان حضًّا على اكتساب المحابّ

قالوا: معاتبة الأخ الصديق خيرٌ مِنْ فَقْده، فلعلّها تكون سببًا إلى صلاحه ورُشْده. وقالوا: ترك المعاتبة مِنْ علامات الإهمال، والتواطؤ على منهيّات الأعمال. وقالوا: شرّ الأصحاب مَنْ لم ينجع فيه العتاب. وقال عليّ رضي الله عنه: عاتِبْ أخاك بالإحسان إليه، وازْدُد شرّه بالإفضال عليه. وقال عليّ بن عبيدة الزنجاني: العتاب حدائق الأحباب، وثمار الودّ ودليل الظّفر وحركات الشوق، وراحة الواجد ولسان المُشفق. وقالوا: العتاب يداوي القلوب ويترجم عن خفيّات العيوب. وما أحسن قول مَنْ قال[١]: [الوافر]

تواقف عاشقان على ارتعاب ... أراد الوصل من بعد اجتنابِ
فلا هذا يملّ عتاب هذا ... ولا هذا يملّ من الجوابِ
فلا عيش كوصل بعد هجر ... ولا شيء ألذّ مِنَ العتابِ

آخر[٢]: [الطويل]

أُعاتب مَنْ أهواه في كلّ حالةٍ ... ليجتنب الأمر الذي معه الذَّنبُ
فإني أرى التّأنيب عند حدوثه ... بمنزلة الغيث الذي قبله الجدبُ

ومن مستحسنات المعاتبات قول القائل: [البسيط]

لا غَرْو إنْ كان مَنْ دوني يسرّكم ... وأُنثنى عنكمو بالويل والحربِ
يدنو الأراك فيمسي وهو ملتثم ... ثغر الفتاة ويلقى العود في اللّهبِ

ولبعضهم: [الطويل]

سأنسيك نفسي إن نسيت مودّتي ... كأنك لم تخطر ببالي ولا وهمي
وأكفيك إذا لم تبغ حمد مذمّتي ... فتبرأ من حمدي وتبرأ من ذمّي
وأنساك نسيان القرون التي مضت ... عليها اللّيالي من جديس ومن طسمِ
فإن قيل لي أين الذي كان بينكم ... رددت عليه أنه كان في الحلمِ

---

(١) الأبيات بلا نسبة في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٢٧٤.
(٢) الأبيات بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٣١٨.

جرير(١): [الوافر]

فإن تَكُ قد مَللت الآن منّي فسوف ترى مجانبتي وبُعْدي
وسوف تلوم نفسك إن بقينا وتبلو الناس والإخوان بعدي
فلا والله لا أنساك حتّى أوسد مضجعي وأزور لحدي

ابن الروميّ(٢): [الطويل]

تخذتكمو حصنًا منيعًا لتدفعوا نبال العدا عنّي فكنتم نصالَها
إذا كنتم لا تدفعون ملمّةً عن النّفس كونوا لا عليها ولا لَها

إبراهيم بن العباس رحمه الله تعالى(٣): [المتقارب]

وكنت أخي يا أخيّ الزمان فلما نبا صرت حربًا عوانا
وكنت أعدّك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا
وكنت أذمّ إليك الزّمان فها أنا أطلب فيك الزّمانا

وقال بعض الأُمويّين يعاتب عيسى بن موسى(٤): [الخفيف]

إن تكلّمت لم يكن لكلامي موقع والسكوت ليس بمُجْدي
وأراني إذا تأمّلت أمري ناقص الحظّ في دنوّي وبُعْدي
فأبِنْ لي أكل هذا التواني في جميع الإخوان أمْ لي وحدي
أم ترى ما اصطنعته عند غيري واجبًا أن أعدّه لك عندي
قد لعمري أيِسْت منك حياتي ومُحالٌ أني أُرجيك بعدي

وينبغي للفَطِن اللّبيب أن يُوغل في عتاب الحبيب، فإنّهم قالوا في كلام بعض الحكماء: بعض المعاتبة حزم، وكلّها عزم؛ كالخشبة المنصوبة في الشمس تُمال، فيزيد ظلّها وتفرط في الإمالة فتنقصه. وقالوا: الجواد إذا ضرب في غير وقته كبًا، والحُسام إذا استُكْره نبا. ولهذا قال بعض الأعراب: أقلّ الناس عقلًا مَنْ أفرط في

---

(١) الأبيات ليست في ديوان جرير، وهي للوليد بن يزيد في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) البيتان في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:
تخذتكم درعًا وترسًا لتدفعوا
(٣) الأبيات في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٤) الأبيات بلا نسبة في كتاب مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي، ص ٩٢.

اكتساب الإخوان، وأقلّ عقلًا منه مَنْ ضيّع من ظفر به منهم. ويقال: قارب الإخوان، فإنّ المقاربة أقرب الأنساب ولا تتقصّ عليهم، فإنّ التقصّي أقطع الأشياء للأسباب. ويقال: بدقيق العتب على الأحباب تنفر وحشيات الخواطر والألباب. وليعمل الصاحب في مصاحبة أخيه بقول القائل[1]: [الكامل]

صافِ الصّديق وأصفه صفو الصَّفا   واخصُص صديقكَ بالصداقة تخصصِ

أو بقول الآخر، وهو أليق بمن حَسُنت أخلاقه وكَرُمت أعراقه: [البسيط]

خُذْ من صديقك مرأى غير مستمع   لا تعدونّ عيان المرء للخبرِ
إنْ كنت لا تصطفي ممن ترى أحدًا   فاخلق لنفسك إخوانًا على قدرِ

وقالوا: كثرة العتاب تحيي موذّات الضغائن، وتثير كوامن الدفائن. شاعر: [الطويل]

كثر العتاب فقلت إن عاتبتها   كان العتاب لوصلها اسْتِهلاكا
ورجوت أن تبقي المودّة بيننا   موقوفة فتركت ذاك لذاكا

وما أظرف مَنْ قال[2]: [الطويل]

أخ كأيام الحياة إخاؤه   تلوّن ألوانًا عليّ خطوبها
إذا عِبْت منه خلّة فكرهتها   دَعَتْني إليه خلّة لا أُعيبها

وكتب يزيد بن معاوية لسالم بن زياد: قليل العتاب يؤكّد أواخي الأسباب، وكثيره يقطع وصائل الأنساب. [الكامل الأحذ]

لا تكثرنْ في كل حادثة   عتب الصديق فإنه يهفُو
هِبْ مشربًا يصفو فتحمده   أترى المشارب كلّها تصفو

آخر: [الكامل]

لا يُؤيسنْك من صديقك نبوَةٌ   ينبو الفتى وهو الجواد الخضرمُ
فإذا نبا فاستبقه وتأنّه   حتى يفيء به الطّباع الأكرمُ

---

(١) البيت بلا نسبة في كتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١٣٥٢.

(٢) البيتان للسعدي في رسائل الجاحظ، ص ٧٠٦؛ وبلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٣٩.

آخر[(١)]: [الكامل]

دار الصديق إذا استشاط تغيّظًا فالغَيْظ يُخْرج كامِنَ الأحقادِ
ولربّما كان التغيّظ باعثًا لتناول الآباء والأجدادِ

آخر: [الكامل]

كافِ الخليل على الجميل بمثله فإذا ساء فكافه بعتابِهِ
وإذا عتبت على امرئٍ آخيته فتوقّ طائر عتبه وسبابِهِ
وألِنْ جناحك ما استلان مودّة وأجِبْ دعاه إذا دعا بجوابِهِ

ومِنْ ذوي الأنفة مَنْ أطاع أمر عقله، فكافأ المتكلّف للهوى على فعله بمثله؛ كقول الشاعر[(٢)]: [الوافر]

إذا تاه الصديق عليك كبرًا فَتُهْ كبرًا على ذاك الصّديقِ
وإن سلك الغرام به طريقًا فخُذْ عرضًا سوى ذاك الطّريقِ
فإيجاب الحقوق بغير راعٍ حقوقك رأس تضييع الحقوقِ

آخر: [الكامل]

وإذا الصديق نأى بجانب نفعه وحَماك صوب غمامه المتدفّقِ
وازورّ عنك بجاهه وبماله وببِشْره وجنى ولم يتخلّقِ
فاعدده في الموتى فلا معنى له وارمي به الغرض البعيد وحلّقِ
إن ظنّني للنار منه شفاعة يوم القيامة ساء ظنّ الأحمقِ

الكميت[(٣)]: [الطويل]

ولست إذا ولى الصديق بودّه بمكتئب أبكي عليه وأندبُ

---

(١) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ١٩٤٢ ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٨٨٨.
(٢) الأبيات بلا نسبة في محاضرات الأدباء، ص ٨٤٣.
(٣) البيت الأول ليس في ديوان الكميت، والبيتان الثاني والثالث في ديوان الكميت بن معروف الأسدي، من ثلاثة أبيات، أوّلها:

وما أنا بالنكس الدّنيء ولا الذي إذا صدّ عنه ذو المودّة يقربُ

ولـكـنـه إنْ دام دمـت وإنْ يـكـن ... له مذهب عنّي فلي عنه مذهبُ
إلّا أنّ خـيـر الـودّ ودٌّ تـطـوّعـت ... به النفس لا ودّ أتى وهو متعبُ

أبو العتاهية[1]: [مخلع البسيط]

مـا أنـا إلّا كـمـن عـنـانـي ... أرى خـلـيـلـي كـمـا يـرانـي
لـسـت أرى مـا مـلـكـت طـرًّا ... مـكـان مَـنْ لا يـرى مـكـانـي
مَـنْ ذا الـذي يـرتـضـي الأقـاصـي ... إن لـم يـنـل خـيـره الأدانـي

آخر[2]: [الطويل]

ومِنْ شيمتي أني إذا المرء ملّني ... وأظهر إعراضًا ومال إلى الغدرِ
أطـلـت لـه فـيـمـا يـجـب عـنـانـه ... وتاركته في جسّ مسّ وفي سرّ
فـإن عـاد فـي ودّي رجـعـت لـودّه ... وإن لم يعد ألغيت ذاك إلى الحشرِ

محمد بن حازم[3]: [الطويل]

تمادى به الهجران واستحسن الغدرا ... وإلى يـمـيـنًـا لا يـكـلّمـنـي الـدّهـرا
فـوالله مـا اسـتـسـنـنـت بـعـد مـودّة ... صـديـقًـا ولا أرهـقـت ذا زلّة عـسـرا
فـإن عـاد فـي ودّي رجـعـت لـودّه ... وإلّا فـإنّـي لا أحـمّـلـه إصـرا
وإنْ مـال عـنّـي خـائـبًـا نـحـو عـذره ... تـسـلّيـت عنه واستعرت له صبرا
أعـدّ لـمـن أبـدى الـعـداوة مـثـلـهـا ... وأُجزي على الإحسان واحدة عشرا

سعيد[4]: [السريع]

أشـكـو إلـى الله حـيـاء امـرىءٍ ... مـا كـان بـالـجـافـي ولا بـالـمَـلُـولْ
كـان وصـولًا دائـمًـا عـهـده ... خـيـر الأخـلّاء الـودود الـوصـولْ
ثـم ثـنـاه الـدّهـر عـن رأيـه ... فـحـال والـدّهـر لـقـوم يَـحُـولْ
فـإن يـعـد أشـكـو لـه ودّه ... وإن يَـطُـل هـجـرًا فـإنـي حَـمُـولْ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٢) الأبيات بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٦١.
(٣) الأبيات في ديوان محمد بن حازم الباهلي، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٤) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ١٤٧؛ ولسعيد بن حميد في لباب الآداب، لأسامة بن منقذ، ص ٤٩٥.

آخر: [السريع]

فـي سِـعَـةِ الأرض وفـي أهـلهـا ... مـسـتـبـدل بـالـخـلّ والـجـارِ
فـمـن دنـا مـنـك فـأهـلًا بـه ... ومَـنْ تـولّى فـإلـى الـنـارِ

مُلَح من مدح الأخلّاء الأصفياء وصفات مودّات الأصدقاء الأولياء

مدح الصاحب بن عباد صديقًا له، فقال: تصفّحت أوطار القلوب فلم أجد أحسن من قربه، وتأمّلت أشخاص الخطوب فلم أرع بأفظع مِنْ بعْده، محاسنه أنوار لم تحجب بسجوف، ومباسمه شموس لم تتّصل بكسوف، وألفاظه تذكّرني بالشباب وريعانه، بل بأفنان الصّبا وفتيانه. ومدح أعرابيّ صديقًا له، فقال: مجالسته غنيمة، وصُحْبته سليمة، ومؤاخاته كريمة، هو كالمِسْك إن بعْته نفق، وإن تركته عَبق. شاعر يصف أخًا له[1]: [الطويل]

أخٌ وأبٌ وابـنٌ وأمٌّ شـفـيـقـة ... تفرّق في الأحباب ما هو جامعُهْ
سَلَوْت بـه عـن كـلّ مَنْ كـان قـبـله ... وأذهـلني عـن كـلّ مـا هـو تـابـعُهْ

آخر: [الطويل]

ولـي صـاحـب أصـفـيـه ودّي وإنـه ... لـيـنـصـفـنـي فـي ودّه ويـزيـدُ
أمِنْت صـروف الـدّهـر بيني وبينه ... إذا دبّ بـيـن الـصـاحـبـيـن حـسـودُ

وصف المأمون ثمامة بن أشرس، فقال: إنه كان يتصرّف في القلوب تصرّف السّحاب مع الجنوب. شاعر، ولقد أحسن في وصفه لصديقه[2]: [الكامل]

خـلّ بـلـغـت بـرأيـه شـرف الـعُـلا ... وأخٌ غـنـيـت بـه عـن الإخـوانِ
ومتى طلبت عليه طالب حاجة ... كـفـلـت يـداه بـذمّـتـي وضـمـانـي

---

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني، ص ٢٤٣٤.

(٢) البيتان للبحتري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا شـعـرت بـرحـلـة الأظـعـانِ ... فـيـكـون شـأنـهـم بـرامـة شـانـي

آخر[1]: [البسيط]

موفق لسبيل الرّشد متبّعٌ ... يزيّنه كل ما يأتي ويجتنبُ
له خلائق بيض لا يغيرها ... صرف الزّمان كما لا يصدأ الذهبُ

ومِنْ كلام الثّعالبي يصف صديقًا له: فلان كريم مِلْء لباسه، موفّق مدد أنفاسه، ذو جدّ كعلوّ الجدّ، وهدى كحديقة الورد، عِشْرته ألطف مِنْ نسيم الشّمال، على صفحات الماء الزُّلال، وألصق بالقلب مِنْ علائق الحبّ: [الطويل]

فتى قَدْ قدُّ السيف ما ناء عوده ... ولا وهنت أعضاؤه ومفاصلُهْ
إذا جدّ عنك الجدّ ألهاك جدّه ... وذو باطل إن شئت ألهاك باطلُهْ

آخر: [الوافر]

أخ لي لم يلده أبي وأمّي ... تراه الدّهر مغمومًا لغمّي
يشاطرني سروري في ابتهاجي ... ويأخذ عند همّي شطر همّي
يبصّرني عيوبي حين تبدو ... مخافة كاشح لهج بذمّي
ويصفي الودّ منه أهل ودّي ... ويمنع من معاداتي وظُلْمي
وينفذ حكمه في كلّ مالي ... كما في ماله يرضى بحُكْمي
فلو أحد من المحذور يفدى ... إذًا لفدَيْته بدمي ولحمي

آخر: [الخفيف]

لي صديقٌ إذا نَبَا بي صديقي ... نبوّة الدّهر كان خير صديقِ
حقّه واجبٌ عليّ مقيمٌ ... لا يؤدي وقد قضى لي حقوقي
صادق الود والإخاء وما كلّ ... صديقٌ في ودّه بصدوقِ
فهو كالأم في اللّطافة واللّيـ ... ـن وكالوالد الشفيق الرّفيقِ
والشقيق الوصول والبر إنْ كا ... ن بعيدًا منّي وفوق الشفيقِ
قد جرى في مفاصل الحُبّ منه ... حث لا يهتدي مجاري العروقِ
خفّ ثقلي على صديق مُذْ أصـ ... ـبح دون الإخوان وهو صديقي
هو جاري إن جار دهرٌ وإن عقّ ... زمان فما له من عقوقِ

(١) البيتان لمروان بن أبي حفصة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

الفصل الثاني من الباب الخامس عشر

فيما يدين به أهل المحبّة من شرائع العوائد المستحبّة

اعلم أنّ أوّل ما ينبغي أن نبدأ به ما يجب من الأدب على الجليس في مُصاحبة الرئيس؛ فمن واجب أدبه أنّ الداخل على الرئيس أحد رجلين: إمّا خصيص به أو أجنبيّ عنه، فإنْ كان أجنبيًا فينبغي له إذا أذن له في الدخول إليه أن يقف حيث يراه، وأن يبدأ بالسلام إذا دخل عليه، وينظر بعين الإكبار إليه، فإن استدناه دنا، وإن أذن له في الجلوس فليجلس حيث انتهى به المجلس حتى يُدْنيه إن أراد كرامه، فإنّ في ذلك تبجيلًا لقدره، وتأثيلًا لتحسين ذكره. قال الأحنف بن قيس: لأَنْ أُدعى من بُعد أحبّ إليّ من أن أُبعد من قرب، وإنْ كان خصّيصًا به ممن يجلس إلى جانبه، ويفشي إليه من سرّه ما يكتمه عن غيره، فينبغي له وقت جلوسه أن يكون بينه وبين الرئيس فرجة لاحتمال أن يجيء مَنْ يجب عليه إكرامه ويرفع منزلته، فيجلس في تلك الفُرْجة. ومِنْ أدب الرّئيس: قلّة الخلاف والمعاملة بالإنصاف، وترك الجواب على فاحش الخطاب وسَتْر العيب وحفظ الغَيْب، وأن يحسن الحديث إذا حُدّث، ويُحسن الاستماع إذا حُدِّث، وليكن حرمة مجلسه إذا غاب كحرمته إذا حضر. وقالوا: إذا كلّمك رئيسك فاصغِ إليه بسمعك، وأقبِل عليه بوجهك، ووكّل بشفتيه ناظريك، وأشغل بحديثه خاطرك، وأسمعه سماع مستبشر به مستظرف له، وإن أحكمته علمًا وأتقنته فهمًا، وأن لا تفرط في الدّلالة عليه، ربّما ساقت الانقباض إليه. وفي كلام بعض الحكماء: الاستماع بالعين، فإذا رأيت عين مَنْ تحدّثه مقبلة على غيرك، فاصرف حديثك إلى غيره. شاعر في بني العبّاس: [الطويل]

إذا حدّثوا لم يُخشَ سوء استماعهم وإن حدّثوا أبدوا بحُسْن بيانِ

وما أحسن قول مَنْ قال: [الوافر]

إذا ما سيّد أدناك فاعلم بأن عليك عين الانتقادِ

فكُنْ عفّ الجوارح ذا حفاظ فعين الانتقاد بلا رقادِ

وقال العباس لولده عبد الله: إنّ هذا الرجل - يعني عمر بن الخطّاب رضي الله عنه -، يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الأكابر مِنَ الصحابة، وإني أوصيك

بخمس خِلال: لا تُفشينّ له سرًا، ولا تغتابنّ عنده أحدًا، ولا تجرينّ عليه كذبًا، ولا تعصينّ له أمرًا، ولا تطلعنّه منك على خيانة. وقالوا: مَنْ دخل على السلطان، فعليه بتخفيف السلام وتقليل الكلام وتعجيل القيام. ومِنْ أدبه أن يكون مع رئيسه كما كان حارثة بن بدر مع زياد. حُكِي أنّ زياد أُلِيم على استنثاره حارثة بن بدر، فقال: كيف أطرح رجلًا هو يسايرني منذ دخلت العراق لم يصكك ركابه ركابي ولا تقدّمني فنظرت إلى قفاه، ولا تأخّر عني فلويت عنقي إليه، ولا أخذ عليّ الشمس في شتاء ولا الروح في صيف، ولا سألته عن شيءٍ مِنَ العلوم إلّا حسبت أنه لا يحسن غيره. وقالوا: لا يقدر على صحبة الملوك إلّا مَنْ لا يستقل ما جمّلوه به ولا يغترّ بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغيّر لهم إذا سخطوا عليه، ولا يطغى إذا سلطوه، ولا يبطر إذا أكرموه، ولا يلحف إذا سألوه. وقالوا: اصحب الملوك بالحرمة والصديق بالتواضع والعدوّ بالحجّة والعامّة بحسن الخلق. وقالوا: مَنْ استخفّ بالإخوان أفسد مروءته، ومَنِ استخفّ بالعلماء أفسد دينه، ومَن استخفّ بالملوك أفسد دنياه. وقال عبد الملك بن صالح لعبد الرحمٰن بن وهب الحمصي مؤدّب ولده بعد أن استخلصه وأنزله فوق منزلته: يا عبد الرحمٰن إنّي جعلتك جليسًا مقرّبًا بعد أن كنت تابعًا مُبعدًا، ومَنْ لم يعرف نقصان ما خرج منه لم يعرف رجحان ما دخل فيه لا تطريني في وجهي، فأنا أعلم بنفسي منك، ولا تساعدني على شيءٍ يقبح وإن لجّ بي الغضب، فإنّ مرآة الرّضا ترغبني عنه، فينقص عندي دينك بالمساعدة عليه، وكُنْ على التماس الحظّ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، فقد قيل إذا أعجبك الصّمت فتكلّم، ولا تردنّ عليَّ في محفل، وكلّمني بقدر ما استطعمك، واعلم أنّ الاستماع أحسن مِنَ القول، وإذا حدّثتك حديثًا فلا يفوتك منه شيء، فإنّ قلّة التفهّم مِنَ القائل وَضْعٌ له، وأرني فهمك في طرفك، فرُبّ طرف أنطق من لسان.

ويجب على الرئيس في معاشرة الجليس الاقتداء برسول الله ﷺ في أدبه

قال أنس بن مالك: ما بسط رسول الله ﷺ ركبتيه بين يديّ جليس قطّ، ولا جلس إليه أحد فقام من عنده حتى يكون الرجل هو الذي يقوم، ولا صافحه أحد قطّ فأخذ يده منه حتى يكون الرجل هو الذي يأخذ يده، ولا رأيته قام مع أحد

فانصرف عنه حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف، وكان يُكرم مَنْ يدخل إليه وربما بسط له ثوبه، ويُؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه بالجلوس عليها، ويُكنّي أصحابه ويدعوهم بأحبّ أسمائهم إليهم ولا يقطع على أحدٍ حديثه، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلّي إلّا خفّف مِنْ صلاته وسأله عن حاجته.

وقال سعيد بن العاص رضي الله عنه: لجليسي عليّ ثلاث: إذا دنا رحّبت به، وإذا جلس وسّعت له، وإذا حدّث أقبلت عليه. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: ثلاث تثبت لك المحبة في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتوسّع له في المجلس، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه. وقال يحيىٰ بن خالد لولده جعفر: يا بنيّ إذا حدّثك جليسك فأقبل عليه واصْغِ إليه، ولا تقل قد سمعناه، وإن كنت أحفظ له منه حتى كأنك لم تسمعه إلّا منه، فإنّ ذلك مما يكسبه المحبّة والميل إليك، ولا تستخدمه إذا جلس إلى مؤانستك، فقد حُكِي أنّ هشام بن عبد الملك كان يعتمّ، فقام إليه سعيد بن الوليد المعروف بالأبرش ليسوّي عمامته، فقال له: مَهْ إنّا لا نتّخذ الإخوان خولًا.

وقام عمر بن عبد العزيز وأصلح السّراج لجلسائه، فقال أحدهم: ألا أمرتني يا أمير المؤمنين، فكنت أكفيك إصلاحه؟ فقال: ليس مِنَ المروءة أن يستخدم المرء جليسه، قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

ومما يثني عطف الصديق إلى التالف زيارته صديقه من غير انقطاع ولا تكلّف

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عاد مريضًا أو زار أخًا نادى منادٍ: أنْ طبت وطاب ممشاك تبوّأت من الجنّة منزلًا»[1]. وأحسن ما يقال: امْشِ ميلًا وعُدْ أخًا، وامْشِ ميلين وأصلح بين اثنين، وامْشِ ثلاثًا وزُرْ أخًا في الله. وقالوا: المودّة جسم روحها الزيارة. وقالوا: المحبة شجرة ثمرتها المقة، وأصلها الزيارة. شاعر[2]: [الطويل]

رأيت أخا الدُّنيا وإن بات آمِنًا ... على سفرٍ يسعى به وهو لا يدري
تثاقلت إلّا عن يدٍ أستفيدها ... وزورة ذي ودّ أشدّ به أزري

---

(١) أخرجه الترمذي حديث ٢٠٠٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٣٦٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ١٧٦، ٢٩٦.

(٢) البيتان بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٦٤.

وعلى الزائر في الزيارة الإغباب فإنه به يؤمَنْ مِنْ تجافي الأحباب

قال عليه الصّلاة والسّلام: «زُرْ غبًا تزدَدْ حُبًّا»[(١)]. وقالوا: ربما كان التقالي في كثرة التلاقي. وما أحسن قول عبد المنعم بن غلبون المقري: [الطويل]

عليك بإغباب الزيارة إنها ... إذا كَثُرت كانت إلى العيّ مسلكا
ألم تر أنّ الغيث يسأم دائمًا ... ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

وقالوا: قلّة الزيارة أمان مِنَ المَلالة. وقالوا: كثرة التعاهد سبب التباعد. شاعر[(٢)]: [الخفيف]

زُرْ قليلًا لمن يودّك غبًّا ... فدوام الوصال داعي الملال

اعتذار مَنْ لم يزر:

أظرف ما كُتِب في ذلك قول عليّ بن الجهم[(٣)]: [البسيط]

أبلغ أخانا تولّى الله صحبته ... إني وإنْ كنت لا ألقاه ألقاهُ
وإنّ طرفي موصول برؤيته ... وإن تباعد عن مثواي مثواهُ
الله يعلم أنّي لست أذكرهُ ... وكيف يذكره مَنْ ليس ينساه

مكاتبات في استدعاء الزيارة:

كتب بعضهم إلى صديقٍ له: طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند التّلاقي، وقد جعلك الله للسرور نظامًا، وللأُنس تمامًا، فاطّلع في فلك عيني شمسًا، وفي سماء قلبي دُرًا، فإمضاء العَزْم بالحرّ أحرى. وكتب سعيد بن حميد لبعض أصدقائه: قد طلعت الكواكب تنتظر بدرها، فرأيتك في الطلوع قبل غروبها. شاعر: [الطويل]

ولمّا نزلنا منزلًا جله النّدى ... أنيقًا وبستانًا مِنَ النُّور جاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه ... منّي فتمنينا فكنت الأمانيا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٤٧، ٤/ ٣٣٠، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٧٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٣٦٦، وابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٤٩٨.
(٢) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ١٤٤.
(٣) الأبيات في ديوان علي بن الجهم، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

آخر: [الخفيف]

لو تفضّلت بالمجيء إلينا لقرَرْنا بقرّة العين عينا

وكتب آخر: يومنا أعزّك الله رقيق الحواشي، ليّن النّواحي، ذو سماء قد رعدت وبرقت، وأنت موضع السّرور ونظام العيش والحبور، فأقبل إلينا تنعم ولا تتأخر عنّا تندم، وإنك بطاعتنا تسعد، وبمخالفتنا لا تُرْشد. كتب بعضهم إلى صديقٍ له يستزيره بأبياتٍ منها: [السريع]

والإلف لا يصبر عن إلْفِهِ أكثر مِنْ يومٍ ويوميْنِ
وقد صبرنا عنكم جمعة ما هكذا فعل المحبّينِ

وكتب حميد بن مهران إلى أبي أيوب الهاشمي يستدعيه[1]: [المتقارب]

أقِيكَ الرّدى يا بديع الوَرى ومِنْ حلّ مَنْ هاشم في الذُّرى
ويفديك من ودّه في المغيب إذا امتحن الودّ واهي العُرى
وصالك بعدل صدق الرّجا وصفو المدام وطِيب الكرى
وقد تاقت النفس من وامِقٍ إلى أن تراك فماذا ترى

آخر: [الوافر]

جُعِلْت فداك في رأسي خمار وليس دواؤه إلّا العُقارُ
وعندي مَنْ تحبّ فَدَتْك نفسي وأقداح وأكواب تُدارُ
فبادِرْ غير مأمور سريعًا فإنّ بنا لموردك انتظارُ

ومِنْ أظرف الاستدعاوات ما كتب به الرشيد هارون إلى جعفر بن يحيىٰ: [الخفيف]

سَلْ عن الصّارم ابن يحيىٰ تجده راحلًا نحونا مِنَ النّهْروانِ
ليصون المدام سهدًا ويغشى الـ ـهجر بين الأصوات والعيدانِ
فَأْتِنا نصطبح ونلتذّ جمعًا لثلاثٍ بقين مِنْ شعبانِ

(١) الأبيات في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمة علي بن جعفر الكاتب.

فقام إليه وقدَّم بين يديه رقعة مكتوبًا فيها: [الخفيف]

إنّ يومًا كتبت فيه إلى عبـ ـدك يوم يسود كلّ زمانِ
يوم لهو كأنه طلعة الكأ س إذا قابلت خدود القِيانِ
فاصطبح واغتبق فداؤك نفسي مِنْ جميع الآلام والحدثانِ

آخر: [مجزوء الرمل]

عندَنا جَدْيٌ رضيع ودنين غير فارغْ
وطفيلي مليح واغل في الكأس والغْ
وغزال من بني الديـ ـلم يحكي البدر بازغْ
ما له عندك عيبٌ غير أنْ ليس ببالغْ
والزُّلال العذب مع بعـ ـدك ملح غير سائغْ
فتحشم واركب الهمـ ـلاج واحضر لا تراوغْ

وكتب بعض المجانّ: [مجزوء الرمل]

عندنا قدر فريك ليس للقدر شريكْ
ونبيذ في رطيل وغلام مستنيك
فتعالوا نتغدّى ثم نشرب وننيك

وما أحسن قول المعتمد بن عباد يستدعي ندماءه من الزهراء إلى قصره بقرطبة[(١)]: [الخفيف]

حسد القصر فيكم الزهراء ولعمي وعمركم ما أساؤوا
قد طلعتم بها شموسًا صباحًا فاطّلعوا عندنا بدورًا مساءْ

ولآخر: [الطويل]

وماذا عليكم لو مَنَنْتم بزورة فأوجبتم فيها علينا التفضّلا
فإنْ لم تكونوا مثلنا في اشتياقنا فكونوا أناسًا تحسنون التجمّلا

(١) البيتان في ديوان المعتمد بن عباد، وهما بيتان منفردان.

اعتذار مَنْ لم يزر:

أبو إسحٰق الصابي: [الهزج]

عـرانـي عـنـك يـا مـولا ي عـــذر أيـــمـــا عـــذرِ
عـصـوف الـرّيـح مـع مـدّ عـظـيـم زاخـر يـجـري
فـلـم أقـدم عـلـى الـمـاء ولـم أجـسـر عـلى الـجـسـرِ
ولـــم أســـمـــع إلـــى الآن عـلـى مـا مـدّ مِـنْ عـمـري
بـريـح حـجـبـت روحًـا وبـحـر صـدّ عـن بـحـرِ

وهو مأخوذ من قول الحسن بن وهب، وقد اعتذر عن تأخّره عن زيارة محمد بن عبد الملك الزيّات لمطرٍ عاقه عن زيارته[1]: [الخفيف]

أوجب الـعـذر فـي تـراخـي الـلّقـاء مـا تـوالـى مِـنْ هـذه الأنــواءِ
لـسـت أدري مـاذا أذمّ وأشـكـو مـن سـمـاء تـعـوقـنـي عـن سـمـاءِ
غير أنّي أدعو على تلك بالصحـ ـو وأدعـو لـهـذه بـالـبـقـاءِ
فـسـلام الإلٰـه أهـديـه مـنّـي كـلّ يـوم لـسـيّـد الـوزراءِ

كتب بعض ظرفاء المحبّين إلى محبوبه يستدعيه لزيارته، فلم يُجِبْه بما أحبّ: [الوافر]

كـتـبـت إلـيـك مـن شـوقـي بـدمـعـي وحـرمـة وجـهـك الـحـسـن الـجـمـيـلِ
لـقـد سـهـرتـنـي وأطـلـت لـيـلـي وأضـحـكـت الـعـواذل مـن عـويـلـي

فكان جوابه لما قرأه: [الوافر]

لـقـد أثـقـلـت فـي عـتـبٍ طـويـلٍ وقـد أكـثـرت مِـنْ قـالٍ وقـيـلِ
فـأمّـا مـا ذكـرت فـقـد فـهـمـنـا ولـيـس إلـى الـزّيـارة مِـنْ سـبـيـلِ

ومن أحسن ما أوجبه الوداد وافترض
عيادة الأخ أخاه في حال المرض

قال رسول الله ﷺ: «إنّ المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في حديقة الجنّة حتى يرجع»، قيل: يا رسول الله، وما حديقة الجنّة؟ قال:

---

(١) الأبيات في ديوان الحسن بن وهب، وهي أربعة أبيات منفردة.

«جنّاتها»[١]. حُكِي أنّ المسور بن مخرمة اعتلّ، فجاءه ابن عباس نصف النّهار، فقال له المسور: يا ابن عبّاس إنّ أحبّ الساعات إليّ ساعة أؤدّي فيها حقّ الصّديق. دخل بعضهم على محمود الورّاق يعوده، فأنشده[٢]: [الطويل]

فإنْ تكُ حُمّى الغبّ شفك وردها ... فعقباك منها أن يطول لك العمرُ
وقيناك لو يعطى الهوى فيك والمنى ... لكانت بنا الشّكوى وكان لك الأجرُ

وكتب أبو تمّام حبيب بن أوْس الطائي إلى الحسن بن وهب يتوجّه له مِنْ حُمّى أصابته[٣]: [الخفيف]

يا حليف النّدى ويا توأم الجو ... د ويا خير مَنْ حَبَوْت القريضا
ليت حماك لي وكان لك الأجـ ... ـر فلا تشتكي وكنت المَريضا

وكتب أبو الفتح بن خاقان يتوجّع للمتوكّل من رمدٍ اعتراه: [البسيط]

عيناي أجمل مِنْ عينيك للرّمد ... فاسلم وُقِيت الرّدى في آخر الأبدِ
من ضنّ عنك بعينيه ومُهجته ... فلا رأى الخير في مالٍ ولا ولدِ

ويجب على اللّطيف الظريف في عيادة المريض الضعيف: تخفيف السلام، وتقليل الكلام، وتعجيل القيام. ويقال: جلسة العيادة خِلْسة. وقالوا: التخفيف خيرُ عادة في العيادة، فإنّ حاله كما قال عمرو بن العلاء وقد عاده صديق في مرضٍ ألَمّ به فأبطأ عنده، فقال له: ما يُبطئك؟ قال: أُريد أن أُسامرك، قال: أنت مُعافى وأنا مُبْتلى، والعافية لا تدعك تسهر والبلاء لا يدعني أنام، والله أسأل أن يسوق لأهل العافية الشُكر، وإلى أهل البلاء الصّبر. ومِنْ آدابه: الإغباب؛ فإنه جاء أنْ رسول الله ﷺ قال: «أغبُوا في زيارة المريض، وأربعوا إلّا أن يكون مغلوبًا»[٤]. وحكى سلمة قال: دخلت على الفراء أعوده فأطلت وألحفت في السُّؤال، فقال

---

(١) روي الحديث بلفظ: «إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في مخرفة الجنة حتى يرجع»، أخرجه مسلم في البر حديث ٣٩، وأحمد في المسند ٥/ ٢٧٦، ٢٧٩.
(٢) البيتان في ديوان محمود الورّاق، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) أخرجه ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ١٢٤.

لي: أَدْنُ، فدنوت فأنشدني[١]: [البسيط]

حقّ العيادة يومٌ بعد يومين ولحظة مثل لحظ العين بالعينِ
لا تبرمنّ مريضًا في مساءلة يكفيك مِنْ ذاك تسأل بحرفينِ

آخر: [الكامل]

أدب العيادة أن تكون مسلّمًا وتكون في إثر السلام مودّعا
فإذا نظرت إلى العليل فلا تكن متخشّعًا في اللّمح أو متوجّعا
بل كُنْ إذا بدى الحراك مسكّتًا منه وعند الخوف منه مشجّعا
واحذر بأن تنعى إليه ميّتًا أو أن تكره لميت مصرعا
وإذا وجدت عليه إشفاقًا فقم مِنْ غير أن ترأى بذلك مسرعا
وتوقّ شرّ العائدين فشرّهم مَنْ كان منهم مُوهِمًا ومروّعا

دخل عليّ بن إبراهيم العلويّ المعروف بالأعرج على عليّ بن عيسى عائدًا، فأنشده[٢]: [المنسرح]

كم لوعة للنّدى عليك وكم من قلق للمجود مِنْ قلقِكْ
ألبسك الله ثوب عافية في نومك المعتري وفي أرقِكْ
ينزع مِنْ جسمك السّقام كما نزعت حبل الملام مِنْ عنقِكْ

آخر[٣]: [الوافر]

تلقّيت السلامة من مريضٍ توقّى كلّ نائبة تَنُوبُ
فإنك ما اعتللت بل المعالي وإنك ما مرضت بل القلوبُ

---

(١) البيتان للصاحب بن عباد في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت الأول في الديوان:
حقّ العيادة يوم بعد يومين وجلسة مثل ردّ الطرف بالعينِ

(٢) الأبيات لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
كانت صروف الزمان من فرقك واكتنّ أهل الإعلام في ورقكْ
ورواية الأبيات في الديوان:
كم لوعة للندى وكم قلقٍ للمجدِ والمكرمات في قلقكْ
ألبسك الله ثوب عافية في نومك المعتري وفي أرقكْ
يخرج من جسمك السقام كما أخرج ذمّ الفعال من عنقكْ

(٣) البيتان لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
وقتك يد الإله أبا عليّ ولا جنحت بساحتك الخطوبُ

آخر[١]: [المتقارب]

ولمّا اشتكيت اشتكى كلّ ما ... على الأرض واعتلّ شرقٌ وغربُ
لأنك قلب لهذا الزمان ... وما صحّ جسمٌ إذا اعتلّ قلبُ

البسامي[٢]: [الطويل]

إذا ما صديق لي تأوّه واشتكى ... عدمت سروري ما أشتكي ورقادي
وحرمت شرب الرّاح ما دام شاكيًا ... ولم أُخله مِنْ طارفي وتلادي

اعتذار من لم يَعُد[٣]: [الكامل]

إن كنت في ترك العيادة تاركًا ... حظّي فإنّي في الدعاء لجاهدُ
فلربّما ترك العيادة مشفقٌ ... وأتى على غلّ الضمير الحاسدُ

ولآخر[٤]: [الخفيف]

كحلت مقلتي بشوك القتاد ... لم أذُقْ مُذْ حممت طعم الرقادِ
يا أخي الحافظ الأخوّة والنا ... زل مِنْ مقلتي مكان السّوادِ
منعتني عليك رقّة قلبي ... مِنْ دخولي عليك في العُوّادِ
لو بأذني سمعت منك أنينًا ... لتفتّت من الأنين فؤادي

ولآخر يعتذر بكونه لم يعلم[٥]: [الخفيف]

دفع الله عنك نائبة السو ... ء وحاشاك أن تكون عليلا
أشهد الله ما علمت وما ذا ... ك مِنَ العذر جائزًا مقبولا
ولعمري أنْ لو علمت لقاسمـ ... ـتك نصفًا وكان ذاك قليلا

= ورواية البيت الأول في الديوان:

ولقيت الإقالة من قريبٍ ... موقّى كل نائبة تنوبُ

(١) البيتان لابن مسهر الموصلي (علي بن سعد بن علي) في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته، ووفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

(٢) البيتان في ديوان ابن بسام البغدادي، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٣٤٣؛ وحماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٧٦.

(٤) الأبيات بلا نسبة في كتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٣٢٧.

(٥) الأبيات لمحمد بن عبد الملك الزيات في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

فاجعلن لي إلى التعلّق بالعذ ... ر سبيلًا ألم أجد لي سبيلا
فقديمًا ما جاد ذو الودّ بالو ... دّ وما سامح الخليل الخليلا

الشريف أبو علي بن الهبارية: [الكامل]

العذر في تركي عيادة سيّدي ... أني له فيما اعتراه مقاسم
لا بل نصيبي منه فوق نصيبه ... وعليه فيما أدّعيه مياسم
فلئن تألّم جسمه أفديه مِنْ ... داء يخامره وقلبي يألم
وأنا أحقّ بأن أعاد وإنّما ... يدعي لخدمته الصحيح السالم

حكى محمد بن داود الظاهري في كتاب الزهرة: أنّ الرّشيد لمّا بلغه أنّ الفضل بن الربيع عليل، كتب إليه معتذرًا عن تأخّره عن العِيادة[1]: [الكامل]

أعزز عليّ بأنْ تكون عليلًا ... أو أن يكون بك السّقام نزيلا
ولئِن سُئِلت أُجيب عنك بِلَوْعَةٍ ... إذ قيل أوعك أو أحسّ غليلا
فوددت أنّي مالكٌ لسلامتي ... فأُعيرها لك بكرةً وأصيلا
هذا أخٌ لك يشتكي ما تشتكي ... وكذا المحبّ إذا أحبّ خليلا

أنشدني الشيخ الإمام الفقيه المفيد أمين الدين محمد بن عليّ المحلّي النحويّ لنفسه يعتذر مِنْ تركه لعيادة بعض الرُّؤساء[2]: [الكامل]

إنْ جِئت نِلْت ببابك التّشريفا ... وإنِ انقطعت فأوثر التّخفيفا
فوحقّ حبّي فيك قدمًا أنّني ... عُوفيت أكره أن أراك ضعيفا

ومما يورد كمن المحبة أعذب الموارد هدية يستعطف بها القلب الشارد

قال رسول الله ﷺ: «تهادوا تحابُّوا وتذهب الشّحناء»[3]. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «تهادوا، فإنّ الهدية تذهب وغر الصدور»[4]. وكان ﷺ يقبل الهدية

(١) الأبيات في كتاب الزهرة، ص ٩٨٠.
(٢) البيتان في ذيل مرآة الزمان، لليونيني، في ترجمة أمين الدين المحلي (محمد بن علي بن موسى).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٦٩، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٤٦.
(٤) أخرجه الترمذي حديث ٢١٣٠، وأحمد في المسند ٢/ ٤٠٥.

ويُثِيب عليها، وقال: «لو أُهدي إليّ ذراع لقبلت، ولو دُعِيت إلى كراع لأجبت»[١]. وقالت عائشة رضي الله عنها: اللّطفة عطفة تزرع في القلوب المحبّة والإلفة. وفي الأثر: الهدية تجلب إلى المودّة القلب والسّمع والبصر. شاعر[٢]: [مجزوء الكامل]

إنّ الهديـة حلـوة كالسّحر تجتلب القلوبا
تُدْني البغيض مِنَ الهوى حتى تصيّره حبيبا
وتُعيد مظطغن العدا وة في تباعده قريبا

ومِنْ أمثالهم: إذا قدمت من سفر، فأهدْ لأهلك ولو حجر. وقال الجاحظ: ما اسْتُعطف السّلطان، ولا استُرْضي الغضبان، ولا أُزيلت السخائم، ولا استُدْفعت المغارم بمثل الهدايا. وقالوا: في نشر المهاداة طيّ المُعاداة. وقال ضياء الدين بن الأثير في رسالة يذكر فيها الهديّة: الهدية رسول يخاطب عن مرسله بغير لِسان، ويدخل على القلوب مِنْ غير استئذان. وبهدية المرء يُستدلّ على عقله، كما ذكر أنّ رجلًا أهدى إلى قتادة نعلًا رقيقة، فجعل النّعمان يرزنها بيده ويقول: يعرف قدر الرجل في سخف هديّته، اللّهمّ إلّا أن يهدي شيئًا سخيفًا حقيرًا فيصيره بالاعتذار عنه شريفًا خطيرًا، كما فعل أبو العتاهية، فإنه أهدى إلى الفضل بن الربيع نعلًا وكتب له معها[٣]: [الكامل الأحذ]

نعلًا بعثت بها لتلبسها قدم تسير بها إلى المجدِ
لو كان يحسن أن أشركها جلدي جعلت شراكها خدّي

وأهدى الأُخيطل الأهوازي إلى ابن حجر في يوم نوروز طبقًا فيه وردة وسهم ودينار ودرهم، وكتب معه: [الرجز]

قل لابن حجر ذي السماح الخضرم لا زلت كالورد نضير المبسمِ
ونافذًا مثل نفاذ الأسهم في عزّ دينار ونحج درهمِ

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة باب ٢، والنكاح باب ٧٣، ومسلم في النكاح حديث ١٠٤، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٤، ٤٧٩، ٤٨١، ٥١٢.

(٢) الأبيات بلا نسبة في عيون الأخبار لابن قتيبة، ص ١٨٣٣.

(٣) البيتان في ديوان أبي العتاهية، وهما بيتان منفردان.

وقال بعضهم: مَنِ امتنع مِنْ إهداء القليل لجلالة قدر المهدي إليه انقطعت سبل المودّة بينه وبين إخوانه، ولزمه الجفاء مِنْ حيث التمس الأخاء. أبو العتاهية(١): [الوافر]

هدايا الناس بعضهم لبعض تولّد في قلوبهم الوِصالا
وتزرع في القلوب هوًى ووُدًّا وتكسوهم إذا حضروا جمالا

آخر(٢): [البسيط]

ما من صديقٍ وإن تمّت صداقته يومًا بأنجح في الحاجات مِنْ طبقِ
إذا تلثّم بالمنديل منطلقًا لم يَخْشَ نبوّة بوّاب ولا غلقِ
لا تكذبنّ فإنّ الناس مُذْ خلقوا لرغبة يكرمون الناس أو فرقِ

وبالجملة، إذا كانت من الصغير إلى الكبير فلطفت ودقّت كان أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فعظمت وجُلّت كان أوقع لها وأنجع. أهدى يعقوب الكنديّ إلى بعض إخوانه سيفًا، وكتب معه: الحمد لله الذي خصّك بمنافع ما أهدى إليك، فجعلك تهتزّ للمكارم اهتزاز الصارم، وتمضي في الأُمور مضاء المَأْثور، وتصون عرضك بالإرفاد كما تُصان السيوف في الأغماد، ويظهر دم الحياء في صفحة خدّك المشروف، كما يشفّ الرّوْنق في صفحات السيوف، وتصقل شرفك بالعطيّات، كما تصقل متون المشرفيّات. وأهدى الصابيّ دواة ومرفعًا وكتب معهما: قد خدمت مجلس مولانا بدواة يداوي بها مرض عفاته، ويروي بها قلوب عداته على مرفع يؤذن بدوام رفعته، وارتفاع النّوائب عن ساحته. وأهدى أيضًا إلى بعض الأصحاب فرسًا، وكتب معه: قد قدّمت إليك فرسًا والله تعالى يبارك لك فيه، ويجعل الخير معقودًا بنواصيه، والإقبال غرّة وجهه ونيل الأماني طلق شدّه، وفتح الفتوح غاية شأوه وإدراك المطالب تحجيل قوائمه، وسلامة العواقب منتهى عنانه، والسلام.

(١) البيتان في ديوان أبي العتاهية، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في المثل السائر، لابن الأثير الكاتب، ص ١٦١٢؛ وبهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٣٧٣.

من أهدى هدية حقيرة واعتذر عنها:

كتب بعضهم مع هدية حقيرة: [المتقارب]

قبول الهدية أكرومة وحاشاك مِنْ أن ترد الكرمْ
فإنَّ الملوك على قدرها لتقبل نشابة أو قلمْ

ابن التعاويذي(١): [البسيط]

هدية المَرْء تنبي عن مروءته وعن حقارة مُهْديها وخِسّته
وما يحطّ من المهديّ إليه إذا كانت محقرة عن قدر رتبته
فاغفر جريمة مَنْ خسّت هديته وتلك منه على مدار قدرته

وكتب آخر مع هدية أهداها ليلاً(٢): [المتقارب]

بعثت عشيًا إلى سيّد بما هو من خلقه مقتبسْ
هدية خلّ صحيح الأخاء جرى منه ذكرك مجرى النفسْ
فجُدْ بالقبول وأيقن بأن لفرط الحياء أتت في الغلسْ

آخر: [مجزوء الكامل]

يا أيها المولى الذي عمّت أياديه الجميلَه
اقبل هدية مَنْ يرى في حقّك الدنيا قليلَه

آخر(٣): [الخفيف]

قد بعثنا إليك أيدك اللّـ ـه بشيء فكُنْ له ذا قبولِ
لا تُقِسه إلى ندى كفّك الغمـ ـر ولا نيلك الكثير الجليلِ
فاغتفر قلّة الهديّة منّي إنّ جهد المقلّ غير قليلِ

ومن ظرائف الهدايا التي هي مِنْ أحسن ما يسطر في الصُحف ويذكر ما يُرْوى أنّ يحيىٰ بن خالد بن برمك عزم على ختان ولده، فأهدى إليه وجوه الدّولة

---

(١) الأبيات لسبط ابن التعاويذ في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) الأبيات للقاضي الجليس أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجباب الأغلبي، في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

(٣) الأبيات لسعيد بن حميد في المتحل، للثعالبي، ص ٤٤.

كلّ منهم بحسب حاله وقدرته، فصنع بعض المتجمّلين العاجزين خريطتين وملأ إحداهما ملحًا مطيّبًا وملأ الأخرى سعدًا مُعطّرًا، وكتب معهما رقعة فيها: لو تمت الإرادة لأسعفت العادة، ولو ساعدت القدرة على بلوغ النعمة لتقدّمت السابقين إلى خدمتك، وأتعبت المجتهدين في كرامتك، لكن قعدت بي القدرة عن مساواة أهل النِّعمة، وقَصُرت بي الجدّة عن مُباهاة أهل المكنة، وخشيت أن تُطوى صحيفة البرّ، وليس لي فيها ذكر، فأنفذت المفتتح بيمنه وبركته وهو الملح، والمختتم بطيبه ونظافته وهو السعد، باسطًا يد المعذرة صابرًا على ألم التقصير، متجرّعًا قصص الاقتصار على اليسير، والقائم بعُذْري في ذلك ليس على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج، والخادم ضارع في الامتنان عليه بقبول خدمته ومعذرته، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته، والرأي أسمى؛ ثم دخل دار يحيئ ووضع الخريطتين والرقعة بين يديه، فلمّا قرأ الرقعة أمر أن تفرغا وتملأ إحداهما دنانير والأخرى دراهم.

ومِنَ الحكايات المستظرفة ما يُحْكى أنّ بعض القيان افتصدت، فأهدى لها محبّوها هدايا، فكان من جملتهم مَنْ أهدى ثلاث سِلال مخيطة، ففتحت سلّة منها فوجدتها مملوءة ماشًا، وفيها رقعة مكتوب فيها: ماش خير من لاش، وفتحت الأخرى فإذا هي مملوءة عصافير فطاروا، وفيها رقعة مكتوب فيها هذه: أعتقتها لوجه الله تعالى شكرًا له على سلامتك من فصدك، وفتحت الأخرى فإذا هي فارغة لا شيء فيها إلّا رقعة مكتوب فيها: لو كان لنا شيء لأهديناه؛ فضحك مَنْ كان حاضرًا ولم تدع القَيْنة شيئًا مما أُهدي إليها إلّا أَعطته منه.

اعتذار مَن لم يهد شيئًا[(١)]: [الوافر]

تـأنّـق فـي الـهـديـة كـل قـوم … إلـيـك غـداة شـربـك لـلـدّواء
فـلـمّـا أن هـمَـمْـت بـهـا مـدلّا … لموضع حرمتي بك والإخاء
رأيت كـثـيـر مـا أهـدى قـلـيـلًا … لديكم فاقتصرت على الدّواء

آخر[(٢)]: [الكامل الأحذ]

إن أهدِ نفسي فهو مالكها … ولـهـا أصـون كـرائـم الـذُّخـرِ

(١) الأبيات بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٥٣.
(٢) الأبيات بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٩٨.

أو أهد مالًا فهو واهبه ... وأنا الحقيق عليه بالشكرِ
أو أهد شكرًا فهو مرتهن ... بجميل فِعلك آخر الدّهرِ

آخر[1]: [الخفيف]

وافق المهرجان حاشاك منّي ... رفعة الحال وهي داء الكرامِ
فاقتصرنا على الدُّعاء وفيه ... عون صدق على قضاء الزّمامِ

آخر[2]: [السريع]

هديّتي تقصر عن هِمّتي ... وهمّتي تفضل عن مالي
فخالص الودّ ومَحْض الولا ... أحقّ ما يهديه أمثالي

ومن واجبات شيم الأحرار حفظ ما أودعوه مِنَ الأسرار

وبما أن السرّ مما يجب على الإخوان أن يأخذوا أنفسهم ويروّضوا به طباعهم لما فيه مِنَ الفضل وتمام الطبيعة والعقل. يُحْكى أنّ رجلًا أراد صحبة إنسان، فسأل بعض أصدقائه عنه، فأنشده[3]: [الطويل]

كريم يميت السرّ حتى كأنّه ... إذا استنطقته عن حديثك جاهلُه
ويُبْدي لكم حبًا شديدًا وهَيْبة ... وللناس أشغال وحبّك شاغلُه

فقال: مثل هذا ينبغي أن يُناط بمحبته القلوب، ويطّلع على خفايا السّرائر والغيوب؛ وهذان البيتان لكثير عزة مِنْ أبيات. وأسرّ رجل إلى صديقه حديثًا، فلمّا فرغ منه قال: حفظته؟ قال: بل نسيته. وقيل لعمرو بن ربيعة: كيف كتمانك للسرّ؟ فقال: أجعله عوضًا مِنْ قلبي وشعبة من نفسي، فيكون بخروجه خروجها. وقيل لأعرابيّ: ما بلغ مِنْ حفظك للسرّ؟ قال: أفرّقه تحت شغاف قلبي ثم لا أجمعه، وأنساه كأنّني لم أسمعه. وقالوا: قلوب العقلاء حصون الأسرار. وقالوا: صدور

(١) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ١٤٥٥.
(٢) البيتان لمحمد بن مهدي العكبري، في معجم الشعراء، للمرزباني، في ترجمته.
(٣) البيتان لكُثَيِّر عَزّة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
أمن طللٍ أقوى من الحيّ مائلُه ... تهيّج أحزان الطروب منازلُهْ

الأحرار قبور الأسرار. شاعر[1]: [الكامل]

ولها سرائر في الضمير طويتها ينسى الضمير بأنها في طيِّهِ

وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسرّ؟ قال: أكتم الخبر، وأحلف للمستخبر؟ وما أحسن قول المرتضى وقد سأله الصابيّ: كيف كتمانك للسرّ في محاورة جرت بينهما: [الطويل]

لسرّ صديقي بين جنبيّ معقل مداه على المستبطنين طويلُ
إذا لحقت أذني به مِنْ لسانه فليس عليها للمخاض سبيلُ

وكتب إليه أيضًا[2]: [الطويل]

وللسرّ مِنْ بين جنبيّ ممكنٌ خفيّ قصيّ عن مدارج أنفاسي
أضنّ به ضنّي بموضع حفظه فأحميه عن إحساس غيري وإحساسي
كأني مِنْ فرط احتفاظي أضعته فبعضي له واعٍ وبعضي له ناسي

آخر[3]: [البسيط]

لا يكتم السرّ إلّا مَنْ له حسبٌ فالسرّ عند كِرام الناس مكتومُ
والسرّ عندي في بيتٍ له غلقٌ قد ضاع مفتاحه والبيت مختومُ

مجنون ليلى[4]: [الطويل]

ومُسْتخبرٍ عن سرّ ليلى رددْته بعمياء من ليلى بغير يقينِ
يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا إن خبرتهم بأمينِ

يُرْوى أنّ عليًا رضي الله عنه قال لأبي الأسود الدُّؤلي: أريد رجلًا مخدانًا، قال: يا أمير المؤمنين ألست كذلك؟ قال: بلى، ولكن أريد رجلًا أستريح منك إليه ومنه إليك، وليكن كتومًا للسرّ، فإنّ الرجل إذا أنس بالرجل ألقى إليه عجره

---

(١) البيت بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٩٦٦.
(٢) الأبيات للصابي في التذكرة الحمدونية، ص ١٦٩٠.
(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتا منفردان، ورواية البيت الأول في الديوان:
لا تودع السر إلا عند ذي كرم والسرّ عند كرام الناس مكتومُ
(٤) البيتان ليسا في ديوان مجنون ليلى، والبيت الأول للأحوص الأنصاري في ديوانه، وهو بيت منفرد.

وبجره. وقال الشاعر(١): [الكامل]

نصل الصديق إذا أراد وصالنا ... ونعيد بعد صدودنا أحيانا
لا مظهر عند القطيعة سرّه ... بل حافظ مِنْ ذاك ما استرعانا

آخر(٢): [البسيط]

إنّ الكريم الذي تبقى مودّته ... وحفظ السرّ إن صافى وإن صرما
ليس الكريم الذي إنْ غاب صاحبه ... بثّ الذي كان مِنْ أسراره علما

سالم اليشكري(٣): [الطويل]

إذا ما غفرت الذنب يومًا لصاحبٍ ... فلست معيدًا ما حييت له ذكرا
ولست إذا ما حال عن حفظ ودّه ... وعندي له سرّ مذيعًا له سرّا

ناقضه آخر، فقال(٤): [الطويل]

ولا أكتم الأسرار لكن أُذيعها ... ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي
فإن سخين العين مَنْ بات ليلة ... تقلّبه الأسرار جنبًا إلى جنبِ

ومما يفصم بين عُرا المتحابين وعُرا المجاورة التزام ما يجب مِنْ حقوق المجاورة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: الآية ٣٦]، فذو القربى الجار المُلاصق، والجار الجنب البعيد عن الملاصقة، والصاحب بالجنب الرّفيق في السفر. وكان يقال: ليس حسن الجوار كفّ الأذى، ولكنه الصبر على الأذى. وأدنى حقوق الجار أن لا تُؤذيه بقتار قدرك وأن تؤمنه

---

(١) البيت الثاني لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، من بيتين منفردين، وروايتهما في الديوان:

إن صد عنّي كنت أكرم معرضٍ ... ووجدت عنه مرحلاً ومكانا
لا مفشيًا عند القطيعة سرّهُ ... بل حافظ من ذاك ما استرعانا

(٢) البيتان لأبي بكر بن عياش بن سالم الكوفي الحناط، في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٣) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ١٩٦٩؛ وحماسة القرشي، ص ١٧٥.

(٤) البيتان بلا نسبة في الجليس الصالح، للمعافى بن زكريا، ص ١٨٩؛ والحماسة المغربية، للجراوي، ص ٧٢٥.

من حسدك وشرّك. وقال جابر بن عبد الله: الجيران ثلاثة: فجار له حقّ واحد، وجار له حقّان، وجار له ثلاثة حقوق؛ فأمّا الذي له حقٌّ واحد، فجار مشرك لا رحم له فله حقّ الجوار، وأمّا الذي له حقّان، فجار مسلم لا رحم له، له حق الإسلام وحقّ الجوار، وأمّا الذي له ثلاثة حقوق، فجار مسلم ذو رحم له حقّ الإسلام وحقّ الرّحم وحقّ الجوار.

وقال رسول الله ﷺ لأبي ذرّ: «يا أبا ذرّ إذا طبخت اللحم فأكثِر المَرَق وتعاهد جيرانك»[1]. وكان يُقال: مَنْ نال مِنْ جاره حُرِم بركة داره. وقد ورد عنه عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: «مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرم ضيفه ولا يؤذي جاره، ولا يخيب مَنْ قصده»[2].

وكان عبد الله بن أبي بكرة ينفق على أربعين دارًا مِنْ جيرانه من سائر جهات داره الأربع في كل سنة أربعين ألف دينار، وكان يبعث إليهم الأضاحي والكسوة في الأعياد والمواسم. وأعطى أبو الجهم العدويّ في داره بالبصرة مائة ألف درهم، فقال لهم: وبكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل رأيت جوارًا يُشترى قطّ؟ قال: والله لا بِعْت دارًا تجاور رجلًا إن غبت عنه سأل عني وحفظني في أهلي، وإنْ رآني رحّب بي وقرّبني، وإن سألته قضى حاجتي وحيّاني، وإنْ لم أسأل عنه عطف عليّ وبدّاني، والله لو أُعطيت فيها ملأها ذهبًا ما اخترته عليه ولا نظرت إليه؛ فبلغ ذلك سعيدًا فبعث إليه بمائة ألف درهم. وقال جعفر بن أبي طالب لأبيه: يا أبتِ إني لا أستحي أن أطعم طعامًا وجيراني لا يقدرون على مثله، فقال له أبوه: إنّي لأرجو أن يكون فيك خلف مِنْ عبد المطّلب. وقال الحسن البصري: ليس حُسْن الجوار كفّ الأذى ولكنّه الصّبر على الأذى. وقالوا: الإحسان إلى الجار يعمر الدّيار، ويزيد في الأعمار. شاعر[3]: [الكامل]

إنّي لأحسد جاركم بجواركم ... طوبى لمن أضحى لدارك جارا
يا ليت جارك باعني من داره ... شبرًا فأعطيه بشبر دارا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٤٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٨٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان باب ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، وأبو داود حديث ٣٧٤٨، والترمذي حديث ١٩٦٧، ٢٥٠٠، وأحمد في المسند ١/ ٢٠، ٢/ ١٧٤، ٢٦٧.

(٣) البيتان بلا نسبة في المنتحل، للثعالبي، ص ٤٦٠.

وقال بعض حكماء العجم: حُسْن الجوار خير قرين، وعلى استخلاص المودّة خير مُعِين. مسكين الدّارمي[1]: [الكامل الأحذّ]

ناري ونار الجار واحدة فإليه قبلي ينزل القدرُ
ما ضرّ جار لي أجاوره أن لا يكون لبابه سترُ
أعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يُواري جسمها السّتْرُ

آخر: [الطويل]

أجود وأرعى حُرْمة الجار إنّني كريمٌ بمالي كلّ عرق مهذبِ
وأمنع جيراني مِنَ الضَّيْم والأذى وأركب من إكرامهم كلّ مركبِ

ومن النوادر المحكية في إكرام الجار:

ما حُكِي أنّ يهوديًا عطّارًا نزل ببعض أحياء العرب يبيع لهم مِنْ بضاعته العطرية، فمات عندهم، فأتوا شيخًا لهم لم يكن يقطع في الحيّ أمر دونه، فأعلموه بخبر اليهودي، فجاء وغسّله وكفّنه وتقدّم وأقام الناس خلفه، وقال: اللّهمَّ إنّ هذا لنا جار وله علينا ذِمام، فإذا قضينا ذمامه وصار إليك فلك الخيار أن تفعل به ما هو له أهل، أو تفعل به ما أنت له أهل، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة. شاعر: [السريع]

راعِ حقوق الجار في كلّ ما حــذّده الله وأوصــى بِــهِ
وزُرْه في الصّحة مستبشرًا وعِدْه في السّقْم وأوصابِهِ
ولا تــغــيّــرك لــه حــالــة تبدو كشهد القول أوصابِهِ

وهذه ظرف تكون لما ذكرناه ختامًا ولنفس المتأمّل وقلبه شركًا وزمامًا فيما يلزم الأصدقاء من تمازج الأرواح امتزاج الصّهباء بالماء القراح

قيل لبعضهم: صِفْ لنا الصديق؟ قال: أنت هو وهو أنت، إلّا أنكما جسمان بينكما روح. وقيل لأسباط الشّيباني: صِفْ لنا الأخوّة وأوجز، فقال: أغصانٌ

(١) الأبيات في ديوان مسكين الدارمي، من قصيدة مطلعها:
إن أدع مسكينًا فما قصرت قدري بيوت الحيّ والجدرُ

تُغرس في القلوب، فتُثمر على قدر العقول. وقيل لأفلاطون: ما معنى الصديق؟ قال: هو أنت إلّا أنه غيرك. وقيل لبعضهم: ما الأصدقاء؟ قال: نفسٌ واحدة وأجساد متفرّقة. وقال ابن المقفّع: الأخ نسيب الجسم، والصديق نسيب الرّوح. وقيل لأرسطوطاليس، وقد سئِل عن الصديق ما معناه؟ فقال: قلب تضمّنه جسمان. نظمه بعض الشعراء، فقال: [الطويل]

بنفسي أخٌ لي في الأُمور مساعدٌ فلي وله جسمان والقلبُ واحد
إذا غاب عنّي لم أجد طعم لذّة لأنّ فؤادي شطره متباعد

لآخر[(١)]: [الرمل]

بأبي مَنْ هو منّي في الحشا ليته يومًا على عيني مشى
روحه روحي وروحي روحه إن يشا شئت وإن شئت يشا

ولقد تتبّعت ما قاله الناس في الاتّحاد، فما رأيت ولا سمعت أحسن مِنْ قول أبي الحسين الحلّاج في ذلك[(٢)]: [الرمل]

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا نحن روحان حَلَلْنا بَدَنا
نحن مُذْ كنا على عهد الهوى تضرب الأمثال في الناس بنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته قلت أنا

وله[(٣)]: [الرمل]

جبلت روحك مِنْ روحي كما يُجْبل العنبر بالمِسْك العبِقْ
فإذا مَسَّك شيء مسّني فإذا أنت أنا لا نفترقْ

وله[(٤)]: [الرمل]

مزجت روحك مِنْ روحي كما تمزج القهوة بالماء الزُّلالِ
فإذا مسّك شيء مسّني فإذا أنت أنا في كلّ حالِ

---

(١) البيتان الثاني والثالث للحلاج في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أوّلها:
يا نسيم الروح قولي للرشا لم يزدني الورد عطشا
(٢) الأبيات في ديوان الحلاج، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٣) البيتان في ديوان الحلاج، وهما بيتان منفردان.
(٤) انظر الحاشية السابقة.

وهذا غاية ما بلغه عِلمي، وأدركه فهمي، وتصرّف الناس في حُسْن الاختيار معدود من المواهب، وللناس فيما يعشقون مذاهب. وقد أحسن الشريف الرضيّ في قوله يخاطب أبا إسحٰق الصابيّ(١): [البسيط]

أنت الكَرى مُؤْنس طرفي وبعضهم   مثل القذَى مانعٌ طرفي من الوسنِ
لقد تمازج قلبانا كأنهما   تراضعا بدم الأحشاء لا اللَّبنِ

ويقال: كاتب صديقك كما تكاتب حبيبك، فإنّ عذل الصداقة أرقّ مِنْ عذل العلاقة، والنّفس بالصديق آنس منها بالعشيق. ويقال: إذا كاتبت أخاك فليكن المداد مِنْ سواد الفؤاد، والقرطاس من بياض الوِداد، فإنّ مَنْ كَرُمَت خصاله وجب وصاله.

الفصل الثالث من الباب الخامس عشر

في ذمّ الثقيل والبغيض بما استحسن من النّثر والقريض

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣]؛ قالت عائشة رضي الله عنها: هذه الآية نزلت في الثقلاء. وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا استثقل رجلًا يقول: اللّهمّ اغفر له وأرِحْنا منه. وكان الأعمش واسمه سليمان بن مهران إذا رأى ثقيلًا قال: ربّنا إكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون. ورُوِي عنه أنّه قال: مَنْ فاتته ركعتا الفجر، فليلعن الثُّقلاء. وقيل له: لِمَ عَمِشَت عينك؟ قال: مِنْ نظري إلى الثقلاء، فإني ما رأيت ثقيلًا قطّ إلّا وأعمشت عينيّ. وكان يقول: إذا كان عن يسارك ثقيل في الصلاة، فتسليمة واحدة تكفيك. وكان بعضهم إذا رأى ثقيلًا قال: استراح العُمْيان مِنَ النّظر. وقيل لأرسطوطاليس: لِمَ صار الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ قال: لأنّ الحمل تشترك الجوارح في حمله، والثقيل ينفرد القلب بثقله. شاعر: [الكامل]

إنّ الثقيل وإن تخفّف جهده   كان الثقيل على الفؤاد ثقيلا

---

(١) البيتان في ديوان الشريف الرضيّ، من قصيدة مطلعها:

دع من دموعك بعد البين للدمنِ   غدًا لدارهم واليوم للظعنِ

وقال بعض الملوك لطبيب: جسّ نبضي، فجسّه وقال: مزاجٌ معتدل إلّا أني أرى فيه تكديرًا، فهل جالسك اليوم ثقيل؟ قال: نعم، فقال: هذا مِنْ ذاك. وقال بختيشوع للمأمون: لا تجالس الثقلاء، فإنّ الفلاسفة قالوا: مجالسة الثُّقلاء حُمّى الروح. وقيل لمحمد بن زكريا الرازي: أيّما أَمَرّ: الثقيل المبرم أو شرب الدَّواء الكريه الرائحة المرّ الطّعم؟ فقال: ليس ما أكسب الدّاء كما أعقب الشّفاء، إنّ مجالسة الثقيل تجلب الأسقام، وتُنحل الأجسام، وتُورث الأحزان، وتُؤلم الأبدان، وتهدّ الأركان، وشُرْب الدَّواء يجلو الأجسام، ويحل الأسقام، ويشحذ الأفهام، ويدفع الأحزان، وينشط الكسلان، ويقوّي الإمكان. وقال أرسطاطاليس للإسكندر: إيّاك ومجالسة الثقيل، فإنّ منها ذبول الروح، وذهول العقل، وموت الفزع. وقال الأصمعيّ: ستّة يضنين وربما قتلن: انتظار المائدة، ودمدمة الخادم، والسّراج المظلم، وبكاء الأطفال، وخلاف مَنْ تحب، ورؤية الثقيل.

ومما آثار بطلعته كوامن البغضاء فكشفت عن مساويه ستور الأعضاء

عاد الأعمش أبو حنيفة، فقال له بعدما أبرم في جلوسه: يا أبا محمّد، ما أشدّ شيء مرّ بك في علّتك؟ قال: جلوسك عندي، قال: ما تشتهي؟ قال: أشتهي أن لا أراك. ويُحكى أنه قال له: يا أبا محمد لولا ما أخاف مِنَ التثقيل عليك لأتيتك في كلّ وقت، فقال: إنك لتثقل عليّ وأنت في بيتك، فكيف إذا جئتني. وقال رجل لأبي العَيْناء: إن الله لم يأخذ من عبدٍ كريمتيه إلّا عوّضه الله خيرًا منهما، فما الذي عوّضك؟ قال: أنْ لا أرى ثقيلًا مثلك. واعتذر رجل إلى آخر في تقليل زيارته، فقال: ما رأيت إحسانًا يُعْتذر منه إلّا هذا. صلّى إمام بقوم فأطال، فلمّا سلّم لَامَه بعض مَنْ صلّى خلفه مِنَ الظُّرفاء، فقال: وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين، فقال: أنا رسول الخاشعين إليك بأنك ثقيل، فإنهم لا يُطيقون الصبر على احتمال بَرْدك. وقد نظم أبو الحسن عليّ بن أبي الطيّب الباخرزي أبياتًا يهجو بها إمامًا ثقيلًا ويذكر ما وجد من جوره في تطويله مقيلًا ذِكْرها في هذا الموضع لائق لِمَا جمعت من المعنى البديع واللّفظ الرّائق: [الطويل]

وأثقل روحًا مِنْ عقاب عقنقل   أخفّ دماغًا مِنْ جنوب وشمأل
يؤمّ بنا في القطع قطع خميسة   وأمّ بصخر حطّه السّيْل مِنْ علِ

يطيل قيامًا في المقام كأنه ... منارة قسّ راهب متبتّل
ويفحش في القرآن لحنًا كأنّما ... يشدّ بأمراسٍ إلى صمّ جندل
فقلت له لمّا تمطّى بصُلْبه ... وأردف أعجازًا وناءَ بكَلْكَل
وزاد برغمي ركعةً في صلاته ... ألم يكن التسليم منك بأمْثَلِ

دخل ثقيل على الصّاحب بن عباد، فأطال الجلوس وأبرم في المحادثة، فكتب الصّاحب رقعة وأعطاه إيّاها فقرأها فإذا فيها: [البسيط]

إن كنت تزعم أنّ الدار تملكها ... حتى نقوم فنبغي غيرها دارا
أو كنت تعلم أنّ الدار أملكها ... فقم لكي تذهب الأشجان والعارا

ولمّا قدم محمّد بن المكرم مِنَ الجبل قال له أبو العيناء: ما لك لم تهدِ لنا شيئًا؟ فقال: والله ما جئت إلّا في خفٍّ، قال: كَذِبت، لو قدمت في خفٍّ خلفت روحك، يا عجبًا مِنْ جسم كالخيال وروح كالجبال. وقال رجل لبعض المغنّين في مشاجرة جرت بينهما: والله ما تعرف الثقيل الأوّل ولا الثقيل الثاني، فقال: كيف لا أعرفهما وأنا أعرفك وأعرف أباك. ألمّ بهذا بعض الشعراء، فقال: [الطويل]

ثقيلًا براه الله وابن ثقيلة ... أرى الثقل طبعًا في أبيك وفيكا
أبوك إمام الناس في الثقل كلّهم ... وأنت وليّ العهد بعد أبيكا

آخر[1]: [البسيط]

يا من تبرّمت الدنيا بطلعته ... كما تبرّمت الأجفان بالسُّهدِ
يمشي على الأرض مُختالًا فأحسبه ... مِنْ بغض طلعته يمشي على كَبِدي
لو أنّ في الناس جزأ من سماجته ... لم يقدم الموت إشفاقًا على أحدِ

قصد حماد الراوية دار مطيع بن إياس فحُجِب، فكتب إليه يسأله الدخول عليه: [الخفيف]

هل لذي حاجةٍ إليك سبيل ... لا نطيل الجلوس فيمن يطيلُ

فلمّا قرأ البيت أجابه: [الخفيف]

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل ... وكثيرٌ من الثقيل القليلُ

---

(١) الأبيات بلا نسبة في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمة الصاحب بن عباد.

وقال محمد بن عرفة النحويّ المعروف بنفطويه يهجو ثقيلًا[١]: [الخفيف]

يا ثقيلًا على القلوب إذا عـ ـنّ فقد أيقنت بطول السُّهادِ
يا قذًى في العيون ما بين ألف يا غريمًا أتى على ميعادِ
يا ركودًا في يوم غيم وصيف يا وجوه التجار يوم الكسادِ
خلّ عنّا فإنّما كنت فينا واو عمرو وكالحديث المزادِ

الناجم يذمّ ثقيلًا[٢]: [الرجز]

يا قوّة الناس ويا ضعف الأملْ يا حيرة المملق أعْيَته الحِيَلْ
يا زحل الدهر ومرّيخ الدولْ

ومما استجدته من مذامّ الثقلاء الشافية محاسنها أفهام العقلاء

قال بعض البُلغاء مُحذِّرًا مِنْ مجالسة الثقيل: إذا وافاك ثقيلٌ فأرِهِ مِنْ خلقك التصرّم، ومن طبعك التبرّم، ولا تُوسعه ترحيبًا، ولا تحفل به تقريبًا، ولا تُقْبل إليه بوجهك، ولا تبخل عليه بنهجك، وأوحشه عند استئناسه، وتهجّم له بين جلّاسه، وأبْعِده ما استطعت، واقطعه فيمن قطعت، فبُعْده راحة لنفسك ومَجْلبة لأنسك، فإنك إن أدْنَيْته إليك، وأذْلَلْته عليك ضنى به جسدك وكبدك وزاد به نكدك وكمدك.

أبو بكر الخوارزمي: فلان أثقل من موت الخناق، وكتاب الطلاق، وفقد الحبيب، وطلعة الرقيب، وقدح اللبلاب في كفّ المريض، وأشدّ من خراج بلا غلّة، ودواء بلا علّة، ورؤية الموت عند الكافر، وقد ختم أعماله بالكبائر؛ فلان وخزٌ في الأكباد، وسقم في الأجساد. وصف العباس بن الأحنف ثقيلًا، فقال: والله ما الحمام مع الإصرار، وكثرة الذنوب مع الإقتار، وشدّة السقم في الأسفار بآلم من لقائه. أبو نوّاس الحسن بن هانىء الحكميّ يذمّ

---

(١) الأبيات للبحتري في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، وفي الديوان: «بطول الجهادِ»، بدل: «بطول السهادِ».

(٢) الرجز للناجم في التشبيهات، لابن أبي عون، ص ٤٧٥.

ثقيلًا[١]: [المتقارب]

ثـقـيـل يُـطـالـعـنـا مـن أمـم　　إذا سـرّه رغـم أنـفـي ألـمْ
لـطـلـعـتـه وخـزة فـي الـفـؤاد　　كـوخـز الـمشارط في المحتجمْ
أقـول لـه إذ أتـى لا أتـى　　ولا نـقـلـتـه إلـيـنـا قـدمْ
فـقـدت خـيـالـك لا مِنْ عـمًى　　وصـوت كـلامـك لا مـن صـممْ

وصف بعضهم ثقيلًا، فقال: لا أدري كيف لم تحمل الأمانة أرض حملته، وكيف احتاجت إلى الجبال بعدما أقلّته؟ كأنما قربه فقد الحبائب وسوء العواقب، وكأنما وصله عدم الحياة وموت الفجاة. شاعر[٢]: [الوافر]

يـطـول بـقـربـك الـيـوم الـقـصـيـر　　ويـرحـل إن مـررت بـنـا الـسـرورُ
لـقـاؤك لـلـمـبـكـر فـأل سـوء　　ووجـهـك أربـعـاء لا تـدورُ

آخر[٣]: [الطويل]

إذا مـا تـبـدّى طـالـعًـا فـكـأنـه　　حـضـور غـريـم أو طـلـوع رقـيـبِ
وإن جـاء نـحـوي قـاصـدًا فـكـأنـه　　كـتـاب بـعـزل أو فـراق حـبـيـبِ

آخر: [الخفيف]

وثـقـيـل أشـدّ مـن غـصـص الـمـو　　ت ومـن كـيـده الـعـذاب الألـيـمِ
لـو عـصـت ربـهـا الـجـحـيـم لـمـا كـا　　ن سـواه عـقـوبـة لـلـجـحـيـمِ

حسام الدين البخاري: [الخفيف]

خـلـق الـنـاس مـن مـنـيّ وهـذا الـ　　ـولـد الـنـحـس مـن رجـيـع أبـيـه
فـفـشـا لا فـشـا ثـقـيـلًا مـقـيـتًـا　　لـيـس فـيـه خـيـر لـمـن يـرتـجـيـه

---

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة، والبيتان الأولان لابن بسام البغدادي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وروايتهما في الديوان:

ثـقـيـل يـطـالـعـنـا مـن أمـم　　إذا سـرّه رغـم أنـفـي ألـمّ
لـنـظـرتـه وخـزة فـي الـحـشـى　　كـوخـز المحاجم في الملتزمْ

(٢) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي في كتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١١٠٣.
(٣) البيتان لعلي بن الرومي في المنتحل، للثعالبي، ص ٣١٢، وليسا في ديوان ابن الرومي.

لم يكن منهما نكاح ولكن فتحت فرجها فأحدث فيه
نتهيّا لناظري ولقلبي حرجًا كلما نظرت إليه

نادرة: دخل أعرابيّ على ثلاثة يشربون واغلًا، فقال أحدهم: [الخفيف]

أيها الداخل الذي جاء يطوي حين لذّ الحديث لي ولصحبي

فقال الثاني: [الخفيف]

خف عنا فأنت أثقل والـلّـ ـه علينا من فرسخي دبر كعبِ

وقال الثالث: [الخفيف]

ومِنَ الناس من يخف وفيهم كرحى البزر دائر فوق قطبِ

فقال الأعرابيّ: [الخفيف]

لست بالبارح العشية والـلّـ ـه لشتم ولا لشدّة ضربِ
أو تميلوا بالكبر فورًا علينا ثم تعلوا من فوق ذاك بقعبِ

فاستظرفوه وخلطوه بهم.

ومما يكون لنفس المتأمّل قوتًا ذمّ مَنْ كان بغيضًا ممقوتًا

سُئِل جعفر الصادق رضي الله عنه: هل يكون المؤمن بغيضًا؟ قال: لا، ولا يكون ثقيلًا. وذكر أنوشروان أنه لمّا أراد أن يصير ولده هرمز وليّ عهده استشار أولياءه في ذلك، فكلّ ذكر عيبًا يستحقّ به الملك؛ فمن قائل: لا يصلح للملك لأنه قصير، وذلك مما يذهب ببهاء الملك، فقال أنوشروان محتجًا له: إنه لا يكاد يرى إلّا راكبًا أو جالسًا على سرير، فلا يبين عليه ذلك؛ ومِنْ قائل: إنه ابن رومية والملك إذا كان ابن أمة نقصه ذلك مِنْ أعين الناس، فقال أنوشروان محتجًا له: إنّ الأبناء ينتسبون إلى الآباء ولا ينتسبون إلى الأمّهات، فلا يضرّه ما قلت؛ فقال الموبذان: إنّ فيه عيبًا وهو أنه مبغض إلى الناس، فقال أنوشروان عند ذلك: هذا هو العيب الذي لا مدح معه ولا عذر عنه، والدّاء الذي لا بُرْء له، فقد قيل: إنّ مَنْ كان فيه خير ولم يكن ذلك الخير للناس فلا خير فيه. وقالوا: فلان أوحش من ربع تحوّل سكانه، وتحمل أظعانه، وغارت نجومه، وعفّت رسومه. وقالوا: فلان أقْذَى للعين من ساعة داعية البَيْن بين المحبين. وقالوا: فلان لا تحبّه الناس حتى

تحبّ الأرض الدم، وذلك أنها تعاف الدم فلا تقبله. شاعر يهجو بغيضًا[1]:

[مجزوء الرمل]

يا بغيضًا زاد في البغـ ـضِ على كلّ بغيضِ
أنت عندي قدح اللبـ ـلاب في كفّ المريض

وقالوا: فلان أبغض مِنْ زوال النّعمى، وفوت المُنى، وطلعة الرّدى. وقالوا: مجالسة البغضاء تزيد الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتشدّ أُزر الكرب، وتكدح في النشاط، وتطوي بساط الانبساط.

(١) البيتان لابن بسام البغدادي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

الباب السادس عشر

في العزلة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذمّ الاستئناس بالناس لتلوّن الطّباع وتنافي الأجناس

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه الصّلاة والسّلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١]. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «أحبّ العباد إلى الله الأتقياء الأحفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يقرّبوا، أولئك أئمّة الهدى ومصابيح الظُّلَم»[1]. وقيل لبعض العباد: ما أصبرك على الوحدة؟ قال: أنا جليس الرب إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أُناجيه صلّيت له. وقال ذو النون المصري: الأُنس بالله نور ساطع، وأنس بالخلق غمٌّ قاطع. وقال رسول الله ﷺ: «نعم صومعة المؤمن بيته، يكفّ فيها نفسه وبصره ولسانه وفرجه»[2]. وقال الجُنيد للسريّ السقطي: أوْصِني، فقال: لا تكن مُصاحبًا للأشرار، ولا تشتغل باللّاهي عن الأخيار. وفي كتاب كليلة ودمنة: ينبغي لذي المروءة أن يكون إمّا مع الملوك مُبَجّلًا أو مع النُّسّاك متبتّلًا؛ كالفيل إمّا أن يكون مركبًا نبيلًا، أو في البرية مهيبًا جليلًا. وقال عليّ رضي الله عنه: مَنْ وجد في نفسه وحشة من الناس، فليعلم أنّ الله أحبّ أن يُؤنسه به. وقالوا: ما استغنى أحدٌ بالله إلّا وافتقر الناس إليه. وقال بعض الحكماء: الأُنس بالله من حبّه لك، فإنّ الله إذا أحبّ عبدًا أوحشه من خلقه. وقد قيل: من خلق التوحيد حبّ الوحدة. وقال الجُنَيْد: أطيب ساعاتي خلواتي، وألذّ طاعاتي في

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/٣٨٨، وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء ١/١٥.

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ٢/٤٤٦.

مناجاتي. ولله درّ مَنْ قال[١]: [السريع]

من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذمّ مَنْ يحمدُ
وصار بالوحدة مستأنسًا يوحشه الأقرب والأبعدُ

فممّا يكون عونًا للكريم على الانقطاع ذمّ ما الناس عليه من لُؤم الطباع

قال سفيان الثوري للحسن البصري: دلّني على مَنْ أجلس إليه، قال: تلك ضالّة لا تُوجد. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمّى، وحيوان غير موجود. الناشىء[٢]: [الوافر]

سمعنا بالصّديق ولا نراه على التحقيق يوجد في الأنامِ
وأحسَبه مُحالًا نمّقوه على وجه المجاز مِنَ الكلامِ

وقيل لبعضهم: مَنْ أبعد الناس سفرًا؟ قال: مَنْ كان في طلب صديق صدوق يكون عونًا له على مهمّاته، وغوثًا على ملمّاته. سمع المأمون أبا العتاهية يُنشد[٣]: [الطويل]

وإنّي لمحتاج إلى ظلّ صاحبٍ يروق ويصفو إن كدرت عليهِ

فقال: خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصّاحب، وقبل هذا البيت: [الطويل]

عذيري من الإخوان لا مِنْ جَفْوته صفا لي ولا من كنت طَوْع يديهِ

وقال بعضهم: إن كان في مخالطة الناس خير، فإنّ تركهم أسْلَم. وقال بعض الرُّهبان لرجل: إنِ استطعت أن يكون بينك وبين الناس سور مِنْ حديد فافعل، وإنْ كان الأُنس في الجماعة فإنّ السلامة في العُزْلة. وقال الشاعر: [مجزوء الرمل]

ليس في الناس وفاء لا ولا في الناس خير
قد بلوت الناس طرًّا فكسير وعوير

---

(١) البيتان بلا نسبة في الموشّى، للوشاء، ص ٤٢.
(٢) البيتان في ديوان الناشىء الأكبر، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان ليسا في ديوان أبي العتاهية، وهما بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٦١.

آخر[١]: [الطويل]

كُنْ لقعر البيت جلسًا ... وارضَ بالخلوة أُنسا
واغرس الناس بأرض الز ... هد مهما شِئْت غرسا
وليكن يأسك دون الطـ ... ـمع الكاذب تِرْسا
لست بالواحد حرًّا ... أو ترد اليوم أمسا

كتب بعضهم إلى صديقٍ له: أمّا بعد؛ فإنّي أحمد الله إلى الناس، وأذمّ الناس إليه. وقيل لبعضهم: ما تجد في الخلوة؟ قال: الراحة من مداراة الناس، والسلامة من شرّهم. وقال الشاعر: [الطويل]

وقالوا لقاء الناس أُنسٌ وراحة ... ولو كنت أرضى الناس ما عشت مفردا

وكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أخيه من مدينة السلام، وكان أخوه بخراسان يشكو إليه قلة وفاء الرئيس وتأذّبه بحضرة الجليس، فكتب إليه جوابًا[٢]: [مجزوء الرمل]

طِبْ عن الأُمّة نفسًا ... وارضَ بالوحدة أُنسًا
ما رأينا أحدًا سا ... وى على الخبرة فِلْسا

آخر[٣]: [مجزوء الرمل]

قد بلوت الناس طرًّا ... لم أجد في الناس حُرًّا
صار أحلى الناس في العيـ ... ـن إذا ما ذيق مُرًّا

أبو حامد الغزالي: [الكامل]

لا تَجْزعنّ لوحدة وتفرّدِ ... ومن التفرّد في زمانك فازْدَدِ
ذهب الإخاء فليس ثمّ أخوّة ... إلّا التملّق باللّسان وباليدِ
فإذا كشفت ضمير ما بصدورهم ... أبصرت ثمّ نقيع سمّ الأسودِ

---

(١) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ١٣٠.
(٢) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ١٣٠.
(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٩٣٠.

آخر[١]: [المتقارب]

إذا مـا طـلـبـت أخـا مـخـلـصًـا فـهـيـهـات مـنـك الـذي تـطـلـبُ
فـكُـن بـانـفـرادك ذا غـبـطـةٍ فـمـا فـي زمـانـك مـن تـصـحـبُ

آخر[٢]: [المتقارب]

بـلـوت الأُنـاس وأهـل الـزّمـان وكـلّ بـهـجـر ولـؤم خـلـيـقُ
وأوحـشـنـي مـن عـدوّي الـزّمـان وآنـسـنـي بـالـعـدوّ الـصـديـقُ

آخر: [الوافر]

بـلـوت الـنـاس مـن غـربٍ وشـرقٍ فـلـم تـظـفـر يـدي بـصـديـق صـدق
فـقـلـت مـجـانـبًـا لـلـخـلـق طـرًّا يـبـيـت مـنـادمـي قـدحـي وزقّـي
وفـي الآداب لـي ألـف وأنـس وفـضـل الله يـأتـيـنـي بـرزقـي

آخر: [المنسرح]

مـا أعـجـب الـنـاس فـي تـقـلّـبـهـم ذا شـهـد طـعـمـه وذا صـبـرُ
ترضى على الشخص حين تبصره ويـسـخـط الـعـقـل حـيـن يـخـتـبـرُ

وقال بعض الحكماء: الوحشة من الناس على قدر المعرفة بهم. منه قول عليّ رضي الله عنه: أخبر تقله. وقال المأمون: لولا أنّ كلام عليّ فرع من كلام النبوّة لعكسته، وقلت: أقلّه تخبر. وقال وهيب بن الورد: صحبت الناس منذ خمسين سنة، فما وجدت رجلًا غفر لي زلّة، ولا أزاح لي علّة، ولا أقالني عثرة، ولا ستر لي عورة. وقال عليّ رضي الله عنه: إذا كان الغدر طباعًا، فالثقة بكل أحد عجز.

شاعر: [البسيط]

أمـا الـوفـاء فـشـيء قـد سـمـعـت بـه ومـا وجـدت لـه عـيـنًـا ولا أثـرا
فـمـن تـوهّـم فـي الـدنـيـا أخـا ثـقـةٍ فـإنـه بـشـر لا يـعـرف الـبـشـرا

---

(١) البيتان لمحمد بن ولاد، أبي الحسين التميمي النحوي، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٢) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

آخر[١]: [الكامل]

ذهب الوفاء ذهاب أمسِ الذّاهب فالناس بين مُخاتل ومُوارِبِ
يفشون بينهم المودّة والصّفا وقلوبهم محشوّة بعقارب

آخر: [الطويل]

لك الخير فاعلم ليس في الناس مُنصِفٌ
وكل وداد فهو منهم تكلّف
وكل إذا عاهدته فهو ناقض
لعهدك أو واعدته فهو مخلف
وأبناء هذا الدّهر كالدهر لم يثق
به ويهم إلّا جهول مسوّف

آخر: [مجزوء الكامل]

ذهب الوفاء فلا وفا ء ولا حياء ولا مروّة
إلّا التواصل باللّسا ن من النفوس بلا إخوّة

عبد المحسن الصوريّ[٢]: [الخفيف]

نزع الدّهر خلّتين من النا س وفاء الإخا وصدقُ الصّديق

ويقال: العُزْلة عن الناس توفّر العرض، وتبقي الجلالة، وتستر الفاقة، وتدفع مؤنة المكافأة في الحقوق. لمّا وقع الاختلاف في المدينة خرج عروة بن الزبير إلى العقيق واعتزل الناس، فعاتبه بعض إخوانه، فقال: رأيت ألسنتهم لاغية، وقلوبهم لاغية، وأديانهم واهية، فخفت أن تلحقني معهم الدّاهية. شاعر[٣]: [الوافر]

أُلام على التفرّد كلّ وقتٍ ولي فيما أُلام عليه عذرُ
وكل أذى فمصبورٌ عليه وليس على قرين السُّوء صبرُ

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت في ديوان ابن غلبون الصوري، من قصيدة مطلعها:

سر مع الوجد والأسى في طريق فقليل سلوكها للمشوقِ

(٣) البيتان بلا نسبة في المحاضرات في الأدب، لليوسي، ص ٤١٠.

آخر[(١)]: [الوافر]

وأفردني عن الإخوان علمي بهم فبقيت مهجور النَّواحي
فكم ذمّ لهم في جنب مدحٍ وجدّ بين أثناء المزاحِ

الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه[(٢)]: [الطويل]

إذا لم أجد خلاًّ تقيًّا فوحدتي ألذّ وأشهى من غويّ أُعاشِرُهْ
وأجلس وحدي للشفاهة آمنًا أقرّ لعيني من جليسٍ أُحاذِرُهْ

وقال جعفر الصّادق: العُزْلة أسكن للفؤاد، وأبعد مِنَ الفساد، وأغود للمعاد. الثعالبي: إذا كان الصديق المجانس متعذّرًا، وصحيح الإخاء لا يكاد يرى؛ فالثقة بغير الله منفصمة العُرى. وقالوا: إذا أنس اللّبيب بالوحدة دون المصاحب ونزّه نفسه بإكرامها عند تغيّر الأخ والصاحب، وتزيّن بالدّين، وتحلّى بحلية المؤمنين، وألزم نفسه الرياضة بالآداب، وأعتق رقّها مِنْ أليم العذاب، فقد استراح وأراح ووجد في كل قطر المطار والمراح. وأنشد لعليّ بن عبد العزيز الجرجاني[(٣)]: [الخفيف]

ما تطعمت لذّة العيش حتى صرت في وحدتي لكتبي جليسا
ليس شيءٌ ألذّ عندي من نفـ ـسي فلم أبتغي سواها أنيسا
إنما الذُّلّ في مداخلة النا س فدعها وعِشْ كريمًا رئيسا

وما أحسن قول بعضهم في المعنى: [المتقارب]

إذا ما خلوت من المؤنسين جعلت المؤانس لي دفتري
فلم أخلُ من شاعر مُحسن ومن مضحك طيب مندرِ
ومن حكم بين أثنائها فوائد للناظر المفكّرِ
فإن ضاق صدري بأسراره وأودعته السرّ لم يظهرِ
فلست أرى مؤثرًا ما حييت عليه نديمًا إلى المحشرِ

---

(١) البيتان لابن المعتزّ في ديوانه، من قصيدة مطلعها:
لمن دار وربع قد تعفّى بنهر الكرخ مهجورُ النواحِ
(٢) البيتان في ديوان الإمام الشافعي، وهما بيتان منفردان.
(٣) الأبيات في كتاب تحسين القبيح وتقبيح الحسن، للثعالبي، ص ٢٤.

ولآخر[١]: [الوافر]

وما ظفرت يدي بصديق صِدْقٍ أخاف عليه إلَّا خفت منه
ولم تدع التجارب لي صديقًا أميل إليه إلَّا مِلْتُ عنه
أنست بوحدتي حتى لو أنّي رأيت الأُنس لاستوحشت منه

أبو فراس[٢]: [الطويل]

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحرّ الكريم صحاب

ومما اخترت من كلام الحكماء الأجلَّاء في التحذير من اتخاذ الأصدقاء والأخلَّاء

قال بعض الزهّاد: لو أنّ الدنيا مُلِئت سباعًا ما خِفْتها، ولو بقي واحد من الناس لخفته. وقالوا: استعذ من شِرار الناس وكُنْ من خيارهم على حذر. وقال آخر: ما بقي في الناس إلّا حمار رامح، أو كلب نابح، أو أخٌ فاضح. وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقًا لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا ورق فيه. وقال سلمان: الناس أربعة أصناف: آساد وذئاب وثعالب وضأن، فالآساد الملوك، والذّئاب التجّار، والثعالب القراء المخادعون، والضأن المؤمن ينهشه كل مَنْ يراه. شاعر: [البسيط]

الناس أخلاقهم شتّى وإن جُبِلُوا على تشابه أفراد وأزواجِ

وقال بعض الحكماء: احذروا الناس فما ركبوا سنام بعير إلّا أدبروه، ولا ظهر جواد إلّا عقروه، ولا قلب مؤمن إلّا أخربوه. وقال خالد بن صفوان: الناس أجياف، فمنهم كاكلب لا تراه الدّهر إلّا هرارًا على الناس، ومنهم كالقرد يضحك من نفسه. وقال عبد الحميد الكاتب: الناس أجياف مختلفون، وأطوار متباينون؛ فمنهم مَنْ علق مظنّة لا تباع، ومنهم من غلّ مظنة لا تبتاع. وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلِلْ مِنْ معرفة الناس وأنكر مَنْ عرفتَ منهم، وإنْ لك مائة

(١) الأبيات للوزير المغربي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة. وفي الديوان البيت الثالث هو أول الأبيات.

(٢) البيت في ديوان أبي فراس الحمداني، من قصيدة مطلعها:

أما لجميلٍ عندكنّ ثوابُ ولا لمسيءٍ عندكن متابُ

صديق، فاطرح منهم تسعة وتسعين، وكُنْ مِنَ الواحدِ على حذر. وقال بعض البُلَغاء: بلوت الناس طرًا فلم أجد إلّا مَنْ يرى الحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، واللّئيم مرفوعًا، والكريم مُلْقًى، والنُصْح غشًا، والغشّ نصحًا، والمدح هجاء، والهجاء مدحًا. العتابي في مثل ذلك[١]: [الوافر]

تساوى أهل دهرك في المساوي ... فما يستحسنون سوى القبيحِ
وصار الناس كلّهم غثاء ... فما يرجون للأمر النجيحِ
وأضحى الجود عندهم جنونًا ... فما يستعقلون سوى الشحيحِ
وكانوا يغضبون مِنَ الأهَاجِي ... فصاروا يغضبون من المديحِ

وقال حكيم: مُصاحبة الناس خطر، فمن صبر على صحبتهم فقد بالَغ في العذر، إنما هو كراكب بحر إنْ سلم بدنه مِنَ الغرق، لم يسلم قلبه من الفَرَق. شاعر[٢]: [الطويل]

تجنّب قرين السّوء واصرم حباله ... وإنْ لم تجد عنه محيصًا فَدَارِهِ
ومَنْ يطلب المعروف في غير أهله ... تجده وراء البحر أو في قراره

وصف بعض البلغاء أهل زمانه، فقال: أحظى الناس لديهم مَنْ أحسن إليهم، فإن قَصُر عنهم رفضوه، وأبغضوه ووتروه، ولم يعذروه، إن حضروا داهنوا، وإن غابوا شاحنوا، ينطوُون على الإحَن، ولا يرثون للممتحن، غنيّهم شحيح، وفقيرهم مجيح، إن رأوا خيرًا دفنوه، وإن ظنّوا شرًّا أعلنوه، الواثق منهم على غرر، والمتمسّك منهم على خطر، هم بين طاعن ثالب، ومتقوّل كاذب، وحسود مُوارب، إن اختبرتهم تكشّفوا، وإن اعتبرتهم تزيّفوا؛ وأنشد[٣]: [البسيط]

إن يسمعوا الخير يخفوه وإنْ سمعوا ... شرًّا أُذيع وإن لم يسموا كذبوا

---

(١) الأبيات ليست في ديوان العتابي، ولجحظة البرمكي ثلاثة أبيات شبيهة بها، وهي:
تساوى الناس في فعل المساوي ... فما يستحسنون سوى القبيحِ
وصار الجود عندهم جنونًا ... فما يستعقلون سوى الشحيحِ
وكان يهربون من الأهاجي ... فصاروا يهربون من المديحِ

(٢) البيتان لأبي الشمردل وقاص بن مجامع الكندي، في الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار، للسيوطي ص ٦٥.

(٣) البيت بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ١٢٣، ورواية البيت فيه:
إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا ... شرًا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبُوا

ولقد أحسن في التحذير مَنْ قال: [البسيط]

إيّاك أن تصطفي ممّن ترى أحدًا ولا تثق بامرىءٍ في حالة أبدا
مَنْ عاش منفردًا لم يأتِهِ ندمٌ على اتّخاذ صديقٍ في الأنام غدا

ومما يكون مماثلًا لهذا القول ومعالًا
التحذير من صحبة السلطان وإن كان عادلًا

قال الأعمش: صحبة السلطان خطر إنْ أطعته خاطرت بدينك، وإن أغضبته خاطرت بنفسك، والسلامة منه أنْ لا تعرفه. وقال ابن مسعود: إنّ الرجل ليدخل إلى ذي السلطان ومعه دينه، ويخرج وليس معه منه شيء. وقال عبد الله بن عمر: ما ازداد رجل من ذي سلطان قربًا إلّا ازداد من الله بُعْدًا. وقال الفضيل بن عياض: كنا نتعلّم اجتناب السلطان كما نتعلّم السورة من القرآن. وقال أيضًا: لأنْ يدنو الرجل إلى حتفه ومنيّته خيرٌ له مِنْ أن يدنو إلى ذي سلطان. وقال أيضًا: ما أقبح بالعالم أنْ يقال أين هو؟ فيقال: هو في بيت الأمير، وكتب أبو بكر بن عياش إلى عبد الله بن المبارك: إنْ كان الفضيل بن موسى لا يجالس السلطان فأقرئه منّي السلام. أبو الفتح البستيّ[1]: [البسيط]

يا مَنْ يرى خدمة السلطان عدّته ما أرش ذلك إلّا الذلّ والندمُ
فجسمه تعبٌ والنفس خائفةٌ وعرضه غرض والدِّين منثلمُ
هذا إذا شرفت أيام دولته نعوذ بالله إن زلّت به القدمُ

وقال زياد بن أبي سفيان يومًا لجُلسائه: مَنْ أنعم الناس عيشًا؟ قالوا: أمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ قال: فكيف بثغوره وأموره، إنّ لأعواد المنبر لهَيْبة، ولقرع لجام البريد لروعة؟ قال: فمن؟ قالوا: فأنت، قال: فكيف بجنودي وخراجي ومداراة الناس؟ قالوا: فمن إذًا؟ قال: رجل له دار يسكنها وزوجة صالحة يأوي إليها وخادم وكفاف من العيش لا يعرفنا ولا نعرفه، فإنّه إنْ عرفنا وعرفناه

(١) البيتان الثاني والثالث لأبي الفتح البستي في ديوانه، من ثلاثة أبيات؛ أوّلها:
إني أرى صاحب السلطان في ظلمٍ ما مثلهنّ إذا قاسى الفتى ظُلَمُ

أفسدنا آخرته ودُنْياه. شاعر: [السريع]

وصاحب السّلطان في محنةٍ ... في آجل الأمر وفي حينِهِ
إن ساءه خاف على نفسه ... أو سرَّه خاف على دينِهِ

آخر: [البسيط]

إنَّ الملوك بلاء حيثما رحلوا ... فلا يَكُنْ لك في أكتافهم ظلُّ
ماذا تريد بقومٍ إنْ هم غضبوا ... جاروا عليك وإنْ أرْضَيْتَهُمْ ماتوا
فإن أتيتهم تبغي نوالهم ... رجعت منقبضًا من دينك الكلُّ
فاستغنِ بالله عن أبوابهم كرمًا ... إنَّ الوقوف على أبوابهم ذلُّ

الفصل الثاني من الباب السادس عشر

فيما يحضّ على الاعتزال من ذميم الخلائق والخِلال

فأهمّ ما نبدأ به منها، ولا يمكننا الإعراض عنها ترفّع مَنْ سوّغته الأقدار منصبًا أو مالًا على صديقٍ ما برح في ودّه يتغالى. قال بعضهم: [الطويل]

تغيّر عنّي حين ولّوه منصبًا ... وعهدي به من قبل ذا وهو صاحبُ
وما هو في الدنيا بأوّل صاحبٍ ... وأوّل رجلٍ غيّرته المناصبُ

آخر: [البسيط]

إنّ الولاية معيار العقول بها ... يبين مَنْ فيه نقص أو به عور
فكم أصمت سميعًا كان ذا أُذُنٌ ... قبل التولّي وأعْمَتْ مَنْ له بصر

ويُرْوى عن محمد بن إدريس الشافعي أنّه قال: أظلم الناس لنفسه اللّئيم، فإنه إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخفّ بالأشراف، وتكبّر على ذوي الفضل. شاعر: [البسيط]

ليس الكريم الذي إنْ نال منزلةً ... فضلًا وطولًا على إخوانه تاها
الحرّ يزداد للإخوان مكرمة ... إن نال حظًّا من السلطان أو جاها

أبو بكر الخوارزمي: [الطويل]

كفى حُزْنًا أنْ لا صديقَ ولا أخٍ ... يفيد غنى إلّا يداخله كِبْرُ

فلا نال فوق القوت مثقال ذرّة صديق ولا أوفى على عُسْره يسرُ
وما ذاك إلّا رغبةً في وصالهِ والإحذار إنْ لم يلمّ به العذرُ

ولبعضهم يعاتب صديقًا له ولّى حين ولي: [الوافر]

ولما صرّفتك يد الليالي حكمك الزّمان على بنيهِ
عدلت عن الوداد وكنت قدمًا لدينا تبتغيه وترتضيهِ

آخر: [الوافر]

دعوت الله أن تعلو محلًّا علوّ البدر في أُفق السماءِ
فلمّا أنْ علوتَ علوتَ عنّي فكان إذًا على نفسي دعائي

آخر: [الكامل]

إنّ الولاية غيّرت أصحابنا فلووا وجوههم عنّا وتبدّلُوا
فاصبر على جور اللّيالي منهم واترك عناءهم إلى أن يُعْزلوا

آخر: [السريع]

قل لعبيد الله ذاك الذي قد غيّر السلطان أطباعه
ابتاع ودّي وهو ذو عسرة حتى ذا نال الغِنى باعه

آخر: [البسيط]

وربّ ذي ثقة قد كان لي سكنًا وكنت منه مكان العين في الراسِ
ولّى وأعرض عني إذ أفاد غنًى وخانه سوء بنيان وآساس
حتى إذا ما قضى مِنْ ماله وطرًا فيما أحبّ من اللذّات والكاسِ
غدا إليّ بوجهٍ ضاحكٍ طلقٍ وعاد في ودّهِ من بعد إفلاسِ

آخر: [المنسرح]

تاه علينا وزاد إطراقُهْ وخاننا عهده وميثاقه
وكلّ مَنْ نال فوق رتبته تغيّرت للصديق أخلاقه

وقال عبد الصمد بن بابك يشكو صديقًا مال حين اكتسب المال، وحال عندما صَلُح منه الحال[١]: [البسيط]

أشكو إليك زمانًا ظلّ يعركني ... عرك الأديم ومَنْ يُفْدى مِنَ الزّمنِ
وصاحبًا لست مغبوطًا بصحبته ... دهرًا فغادرني فردًا بلا سكنِ
هبّت له ريح إقبال فطار بها ... نحو السرور وألجأني إلى الحزنِ
نأى بجانبه عنّي وصيّرني ... مع الأسى ودواعي البَيْن في قرنِ
وباع صفو وداد كنت أقصره ... عليه مجتهدًا في السرّ والعلنِ
وكان غالى به حينًا فأرخصه ... يا مَنْ رأى صفو ودّ بيع بالثمنِ
فليس في الأرض مغبون بصفقته ... إن لم يكن ذاك منسوبًا إلى الغبنِ
كأنه كان مطويًا على إحنٍ ... ولم يكن من عيون الشّعر أنشدني
إنّ الكرامَ إذا ما أسهلوا ذكروا ... مَنْ كان يألفهم في المنزل الخَشنِ

وقال آخر يعاتب صديقًا تغيّر عليه، عندما نظر الزّمان بعين المَقْت إليه: [الطويل]

وكنت أخي أيام عودك يابس ... فلمّا اكتسى واخضرّ صرت مع النّسرِ
لعمرك لو ذوّقتني ثمر الغنى ... أذَقْتُك ما يُرضيك من ثمر الشكرِ
فلو نِلْت ما يُغْني بك اليوم أو غدًا ... أنَلْتك ما يبقى إلى آخر الدّهرِ
ألم ترَ أنّ الفقيرَ يُرْجى له الغنى ... وأنّ الغني يُخْشى عليهِ مِنِ الكُفْرِ

آخر: [المتقارب]

ألم ترَ أنّ ثقاتَ الرجال ... إذا الدّهر ساعدهم ساعدوا
وإنْ خانه دهره أسلموه ... فلم يبق منهم له واحدُ
ولو علم الناس أنّ المريض ... يموت لما عاده عائدُ

آخر[٢]: [البسيط]

كم من صديقٍ لنا أيام دولتنا ... قد كان يمدحنا فصار يهجُونا

---

(١) الأبيات للصاحب بن عباد في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.
(٢) الأبيات بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٥٣.

لم نَدْرِ إذا ما انقضت عنّا إمارتنا مَنْ كان ينصح ممّن كان يغوينا
ما إن يلاطفنا مَنْ كان يصحبنا إلّا ليخدعنا عمّا بأيدينا

آخر(١): [الوافر]

صديقك حين تستغني كثير وما لك عند فقرك من صديقِ
فلا تغضب على أحدٍ إذا ما طوى عنك المودّة عند ضيقِ

آخر(٢): [الوافر]

أرى قومًا وجوههم حسان إذا كانت حوائجهم إلينا
وإن كانت حوائجنا إليهم تغيّر حسن وجههم علينا
ومنهم مَنْ يمنع ما لديه ويغضب حين نمنع ما لدينا
فإن يكُ سمجًا وفعلي قبيحًا مثله فقد استوينا

ومما يدلّ على صغر الهمّة والنفس التلوّن على الصديقِ المصاحب بالأمس

قال بعضهم: لأن أُبتلى بألف جموح لجوج أحبّ إليَّ مِنْ أن أُبتلى بمتلوّن. وقال آخر: إذا كان صديقٌ فلا تتمنَّ له رفعة، فبقدر ارتفاعه يكون انحطاطك من عينه، ولا تلتفت إلى قول حبيب بن أوس الطائيّ(٣): [البسيط]

إنّ الكرامَ إذا ما أسهلو ذَكَروا مَنْ كانَ يألفهم في المنزلِ الخَشِنِ

فليس كما قال، فإنه بالرتبة يشمخ أنفه بعد الخسّة والضَّعة، ويفرد صديقه بالبؤس، وإنْ كان مِنْ قبل شريكه وقسيمه في الدِّعة، ويقابل إقباله في الزّيارة بالمَلالة، ويعدّ معرفته له عثرة لا يُرْجى لها إقالة، فإنْ وقف ببابه حَجَبه، وإن دخل في غِمار الناس ازدراه، ومن تبرّم به أعجبه، وأخذ بما قال الفقيه منصور بن

---

(١) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ٣٨٥.
(٢) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ٥١٤، وهي لأبي العتاهية في ديوانه، الأبيات الثلاثة الأولى فقط.
(٣) البيت ليس في ديوان أبي تمام، وهو لإبراهيم بن العباس الصولي في ديوانه، من بيتين، أوّلهما:
أولى البرية طرًا أن تواسيه عند السرور الذي واساك في الحزن
والبيتان أيضًا لدعبل الخزاعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

إسمٰعيل بن المقريّ(١): [البسيط]

إذ ما رأيت امرأ في حال عسرته ... بادي الصداقة ما في ودّه غلُ
فلا تمنّ له حالًا يسرّ بها ... فإنه بانتقال الحال ينتقلُ

وكأنّ منصور ألمّ بقول بعض البلغاء: لا تطلبنّ لأخيك رتبة هي أرفع من رتبته التي هو مساويك فيها، فإنّه ينتقل عنك في أحوال ثلاثة يكون صديقك عند حاجته إليك، ومعرفتك عند استغنائه عنك، وعدوّك حال احتياجك إليه. وقال بعض الأعراب يذكّر صديقًا تلوّن عليه: صفّرت عياب الودّ بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرّت سوالف وجوه المسرّات وكانت نضرة بمائها، فأدبر ما كان بيني وبينه مُقْبلًا، وأقبل ما كان مُدْبرًا، وصارت مودّته متنقّلة، كتنقّل الأفياء وأخوّته متلوّنة كتلوّن الحرباء. وقال بعضهم: المتلوّن إن ودّك لشيء ملك عند انقضائه. ويقال: إيّاك ومن مودّته على قدر حاجته إليك، فعند ذهاب الحاجة ذهاب المودّة. وقال بعض الأعراب لولده: يا بنيّ لا تصحب مَنْ إذا أيِسَ مِنْ خَيْرك مال إلى غيرك. وقالوا: إذا انقطع مِنْ صديقك رجاؤك، فألحقه بعدوّك. وما أحسن قول بعضهم(٢): [الوافر]

إذا تاه الصديق عليك كبرا ... فتُهْ زُهْدًا على ذاك الصديقِ
وإن سلك الغرام به طريقًا ... فخُذْ عرضًا سوى ذاك الطّريقِ
فإيجاب الحقوق لغير راعٍ ... حقوقك رأس تضييع الحقوقِ

ولبشّار بن بُرْد(٣): [الطويل]

إذا كان ذوّاقًا أخوك مِنَ الهوى ... موجّهة في كل أوْب ركائبُه
فخلّ له وجه الفراق ولا تكن ... مطيّة رحال كثير مذاهبُه

---

(١) البيتان في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٨٤٣؛ وربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٤٦٥.

(٣) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

جفا ودّه فازورّ أو ملّ صاحبُه ... وأزرى به أن لا يزال يعاتبُه

الكميت بن زيد: ولقد أحسن في الأنفة إذا عطس بأنف شامخ، وأبان عن أنفٍ في الكرم راسخ؛ مِنْ أبياتٍ يفتخر[١]: [الطويل]

وما أنا بالنِّكس الدنيّ ولا الذي ... إذا صدَّ عنه ذو المروءة يقربُ
ولكنه إن دام دُمتُ وإنْ يكن ... له مذهب عنّي فلي عنه مذهبُ
ألا إنّ خير الودّ ودّ تطوّعت ... به النفس لا ودّ أتى وهو مُتْعبُ

وقيل لبعض الوُلاة: كم لك مِنْ صديق؟ فقال: أمّا في حال الولاية فكثير؛ ثم أنشد[٢]: [البسيط]

الناس إخوانُ مَنْ دامت له نِعَمٌ ... والويل للحرّ إن زلّت به القدم

آخر[٣]: [الطويل]

تلوّنت حتى لست أدري من العمى ... أريح جنوب أنت أم ريحٌ عاصفُ
قريبٌ بعيدٌ جاهلٌ متبصّرٌ ... سخيٌّ بخيلٌ مستقيمٌ مخالفُ
صدوقٌ كذوب لست أدري خليله ... أيَجفوه مِنْ تلوينه أم يلاطفُ
ولست بذي غشّ ولست بناصحٍ ... وإني مِنْ عجبي لشأنك واقفُ
كذاك لساني شاتمٌ لك مادحٌ ... كما أن قلبي جاهلٌ بك عارفُ

كتب بعضهم إلى صديقٍ له تلوّن عليه: أمّا بعد؛ فقد عافني الشكّ في أمرك عن عزيمة الأمر فيك، لأنك بدأتني بلطف من غير جراءة، ثم أعقبتني جفاء من غير جريمة، فأطمعني أوّلك في إخائك، وآيسني آخرك من وفائك؛ فسبحان مَنْ لو شاء لكشف بإيضاح الرأي في أمرك عن ظلمة الشكّ فيك، فأقمنا على ائتِلاف وافترقنا على اختلاف، والسلام. وكتب آخر[٤]: [البسيط]

قل للّذي لست أدري مِنْ تلوُّنه ... أناصحٌ أم على غُشٍّ يداجيني
إني لأكثر مما شمته عجبًا ... يدٌ تشجّ وأخرى منك تواسيني

(١) الأبيات للكميت بن معروف الأسدي (وليس للكميت بن زيد) في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.
(٢) البيت لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.
(٣) البيت الأول بلا نسبة في كتاب المنتحل، للثعالبي، ص ٣٦٧.
(٤) البيتان لصالح بن عبد القدوس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

ولمّا نكب عليّ بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدًا مِنْ أصحابه وآله وإخوانه الذين كانوا مُلازمين له في حال تصرّفه واشتغاله، فلمّا ردّت إليه الوزارة اجتمعوا إليه وعطفوا عليه، وجعل كل منهم يأخذ في السَّبْق لِلُقْياه، والنظر إلى مُحيّاه، فحين رآهم كذلك أنشد(١): [البسيط]

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها ... فكيف ما انقلبت يومًا به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت ... عليه يومًا بما يشتهي وثَبُوا
لا يحلبون لحيّ درّ لقحته ... حتى يكون لهم شطر الذي حلبوا

عادى الزمان بعض الوزراء فنظر بعين المَقْت إليه، وقبض عنه المسار بيد القبض عليه، ثم عاد فألبسه مِنَ الإقبال حُلَلًا أجرّه أذيالها، وصرف لخدمته بأزمّة الانقياد، فحمله أعباء المِنَن وأثقالها، فقال يعاتب مَنِ انقطع عنه في حال خموله، ويُشعره بأن نجم سعده طلع بعد أُفوله: [مخلّع البسيط]

عادانيَ الدّهر بعض شهر ... فأعرض الناس ثم بانوا
يا أيها المعرضون عنّي ... عودوا فقد عاود الزّمانُ

ومن ذميم فعلات الإخوان الخوّان
اغتياب مَنْ غاب مِنَ الإخوانُ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: الآية ١٢]. وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله حرّم مِنَ المسلم دينه وعرضه وأن يظنّ به السوء».(٢) وقالوا: الأخ الصادق مَنْ أهدى إلى أخيه عَيْبه وحفظ له غيبه. وقالوا: الغيبة جهد العاجز. وقالوا: إيّاك وصحبة مَنْ إذا حضر أثنى ومدح، وإذا غاب عاب وقدح. وقالوا: اللّئيم إذا غاب عاب، وإذا حضر اغْتاب. وقالوا: الرّيْبة عار، والغَيْبة نار. ويُقال: مَنْ عَفّ عن الرّيبة كفّ عن الغَيْبة. وقال العتابي: شرّ الإخوان مَنْ إذا وجد مادحًا مدح، وإن وجد قادحًا

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لكل أمرٍ جرى فيه القضا سببُ ... والدهر فيه وفي تصريفه عَجَبُ

(٢) أخرجه بنحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٥٢، والقرطبي في تفسيره ١٦/ ٣٣٢.

قدح، وإن استودع سرًا فضح. الشريف الرضيّ(١): [الطويل]

إذا أنت فتّشت القلوب وجدتها قلوب أعادٍ في جسوم الأصادق

ابن المعتز(٢): [المتقارب]

بلوت أخلّاء هذا الزّمان وأقللت بالهجر منهم نصيبي
وكلّهم إن تصفّحتهم صديق العيان عدوّ المغيبِ

وقال: مَنْ أكل خبزه بلحوم الناس لم يَصُنْ نفسه مِنَ الأدناس. ومرّ عمرو بن العاص على جيفة مُلْقاه، فقال لأصحابه: والله لأنْ يأكل أحدكم مِنْ هذه حتى يمرّ به خيرٌ له مِنْ أن يأكل لحم أخيه. وكان أبو الطيّب الظاهري يهجو بني ساسان، فقال له نصر بن أحمد: إلى متى تأكل خبزك بلحوم الناس؟ فخجل ولم يعد. وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام مَنْ مات مُصرًا على الغيبة فهو أوّل مَنْ يدخل النّار، ومَنْ مات تائبًا فهو آخر مَنْ يدخل الجنّة. وقال عليّ بن الحسين لرجل: إيّاك والغيبة، فإنّها أدام كلاب الناس. اغْتاب رجل رجلًا عند مسلم بن قتيبة، فقال له: مَهْ، فلقد تلمظت بمضغة طالما عافتها الكرام. ويُحْكى عنه أنه ذُكِر عنده رجل فتكلّم فيه بعض أهل المجلس، فقال له مسلم: قد أوحشتنا مِنْ نفسك ومودّتك ودللتنا على عَورتك. وما أشدّ نصح مَنْ قال: لا يكن لسانك رطبًا بعيوب أصدقائك تزيدهم في أعدائك. أضاف إبراهيم بن أدهم أُناسًا، فلما قعدوا للطعام: أخذوا في الغيبة، فقال لهم إبراهيم: إنّ مَنْ قبلنا كانوا يأكلون الخبز قبل اللّحم، وأنتم أكلتم اللّحم قبل الخبز. أبو تمام(٣): [الخفيف]

قبّح الله صاحبًا قطف الصحـ ـبة حرب المغيب سلْم التلاقي

الصاحب بن عباد(٤): [مجزوء الرمل]

احذر الغيبة فهي الـ ـفسق لا رخصة فيه
إنما المُغْتاب كالآ كل مِنْ لحم أخيه

---

(١) البيت في ديوان الشريف الرضيّ، من قصيدة مطلعها:
بوذ الرزايا أنها في السوابقِ وكم للعلى من طالب غير لاحقِ
(٢) البيتان في ديوان ابن المعتز، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيت ليس في ديوان أبي تمام، ولم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان في ديوان الصاحب بن عباد، وهما بيتان منفردان.

الوزير المغربيّ[(١)]: [الخفيف]

أيّ شـيء يـكـون أقـبـح مـرأى ... مِـنْ صـديـقٍ يـكـون ذا وجـهـيـن
مِـنْ ورائـي يـكـون مـثـل عـدوّي ... وإذا يـلـقـنـي يـقـبـل عـيـنـي

ابن المعتزّ[(٢)]: [الطويل]

أخٌ ليَ يعطيني الرّضا في حضوره ... ويمنعني بعض الرّضا وهو بائنُ
إذا ما التقينا سرّني منه ظاهر ... وإن غاب عنّي ساءني منه باطنُ
على غير ذنبٍ غير أنّ مساوئًا ... له علّمتني كيف تأتي المحاسنُ

ولبعضهم يهجو: [الطويل]

صديقك لا يُثْني عليك بطائلٍ ... فماذا به عنك العدوّ يقول
وحسبك مِنْ لُؤم وخبث طويّة ... بأنك عن عَيْب الصديق سؤول

آخر: [الطويل]

يُضاحكني فوه إذا ما لقيته ... ويرشقني إن غبت عنه بأسهم
وكم من صديقٍ ودّه في لسانه ... وفي قلبه إن غبت صاب وعلقم

آخر: [الكامل]

لي صاحبٌ جعل المساوىء دأبه ... تصوير معناها وصيغة لفظها
فكأنه ملك الشمال موكل ... أبدًا بكتب السيّئات وحفظها

آخر: [الطويل]

وما صاحبي عند الرّخاء بصاحبٍ ... إذا لم يكن عند الأُمور الصّعائبِ
إذا ما رأى وجهي فأهلًا ومرحبًا ... ويرمي ورائي بالسّهام القواضبِ

آخر[(٣)]: [الطويل]

إذا انتقد الناس الكرام رأيتهم ... يطنّوا طنين الزيف في كفّ ناقدِ

---

(١) البيتان في ديوان الوزير المغربي، وهما بيتان منفردان.
(٢) الأبيات ليست في ديوان ابن المعتز، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٣) البيت بلا نسبة في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٧٨٩.

كُثَيِّر عَزَّة[1]: [الخفيف]

أنت في معشرٍ إذا غبت عنهم   بدّلوا كلّ ما يزينك شينا
وإذا ما رأوك قالوا جميعًا   أنت مِنْ أكرم الرّجال علينا

ولله درّ مَنْ قال[2]: [البسيط]

شرّ السّباع الضّواري كونه وزرًا   والناس شرّهم ما دونه وِزْرُ
كم معشر سلّموا لم يُؤْذهم سبع   وما ترى بشرًا لم يؤذه بشرُ

ومما يرغب الوحيد في انفراده
حسد أهل الصّفوة مِنْ وداده

الحسد داء دويّ، وخلق رديّ، يدلّ على فساد الدّين، وقلّة اليقين، وما زال صاحبه حليف هموم، وأليف غموم، وظالمًا في زيِّ مظلوم، وأيّ خيرٍ عند مَنْ جُبِلَتْ على الحقد طباعه، وحنيت على الغلّ أضلاعه، وأمر بالاستعاذة بالله من شرّه، وحضّ على الاحتراس مِنْ ضرّه. قيل لعبد الله بن عبدة: كيف لزمت البدو وتركت قومك؟ قال: وهل بقي في الناس إلّا مَنْ إذا رأى نعمة بهت، وإذا رأى عثرة شمت؛ ثم أنشد: [البسيط]

عينُ الحسود إليك الدّهر ناظرة   تُبْدي المساوىء والإحسان تُخْفيهِ
يلقاك بالبِشْر يبديه مكاشرة   والقلب ملتئم فيه الذي فيهِ

وقال معاوية بن أبي سفيان: كل الناس قادر أن أُرضيه إلّا حاسد نعمة لا يرضيه إلّا زوالها. وقالوا: الحسد داء يفعل في الحاسد أكثر مِنْ فعله في المحسود. نظم هذه الكلمات محمود الورّاق، فقال[3]: [الكامل]

أعطيت كل الناس من نفسي الرّضا   إلّا الحسود فإنّه أعياني

---

(١) البيتان في ديوان كثير عزّة، من قصيدة مطلعها:
خير إخوانك المشارك في الأمـ   ـرِ وأين الشريك في الأمرِ أينا
(٢) البيتان لأبي سليمان الخطابي (أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب) في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.
(٣) الأبيات في ديوان محمود الورّاق، والبيت الأول مطلع القصيدة.

لا أنّ لي ذنبًا إليه عَلِمته إلّا تظاهر نعمة الرحمٰنِ
يطوي على حسدٍ حشاه لأن يرى مِنْ حال مالي أو لفضل بياني
ما إن أرى يرضيه إلّا ذلّتي وذهاب أموالي وقطع لساني

ونظمه آخر، فقال: [البسيط]

قل للّذي بات محسودًا على نعمٍ دَعِ الحسود فقد قطعته قطعا
لو كنت تملك ما يريد منك لما صنعت معه كمعشار الذي صنعا

وقال بعض البلغاء: الحسد شؤم، واعتباره لؤم، يقضي الأشباح، ويُضْني الأرواح، ويُورث الأرق، ويُحدث القلق، ويكدّر غدران رفاهية العيش، ويُشعل نيران السّفاهة والطّيْش، وأنّ الحسود مجروح في جلده، متألّم مظلوم في برده، ظالمٌ معارض لله في مشيئته، معترضٌ عليه في قضيّته، يعيش محرومًا ويبيت مغمومًا، مدفوعٌ في الدنيا إلى الكرب والتّلف، وممنوعٌ في العُقْبى من القُرْبى والزّلف، لا تعمل شُعْلة القابس في الحطب اليابس. ما يعمله الحسد بجسد صاحبه، وبدن راكبه، يشرب دمه، ويأكل لحمه، ويمشمس عظمه، ويجعله معرّضًا للكروب، ومُبْغضًا إلى القلوب؛ فجدير بالإنسان أن يفرّ مِنَ الحسد، فوق فراره من الأسد.

وقالوا: أسد يؤاتيك خيرٌ مِنْ حسود يراقبك. وقال بعض السلف: إذا أراد الله أن يسلّط على عبده مَنْ لا يرحمه سلّط عليه حاسدًا يحسده. وقال أردشير: كلّ خلّة رديئة فهي دون الحسد؛ لأنّ الحاسد يسعى بمن أحسن إليه، ويتمنّى الغوائل لمن أنعم عليه. أبو الطيّب المتنبّي(١): [الطويل]

يريد بك الحسّاد ما الله دافع وسُمْر العوالي والحديد المدرّبُ

وله(٢): [الطويل]

وأظلم خلق الله مَنْ كان حاسدًا لِمَنْ بات في نعمائه يتقلّبُ

---

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
أغالب فيك الشوق والشوق أغلبُ وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجبُ
(٢) البيت في ديوان المتنبي، من القصيدة نفسها المتقدمة.

وله[١]: [الطويل]

سوى وجع الحسّاد داوِ فإنّه إذا حلّ في قلبٍ فليس يَحُولُ
فلا تطمعنّ مِنْ حاسدٍ في مودّةٍ وإنْ كنت تبديها له وتنيلُ

وقال ابن المعتزّ: الحاسد مُغتاظ على مَنْ لا ذنب له، ويبخل بما لا يملكه، ويطلب ما لا يجده. وقال حكيم: الحسد يُبْدي نقص الحاسد، ويدلّ على كمال المحسود. وما أحسن قول المعافى بن زكريّا النهروانيّ[٢]: [المتقارب]

ألَا قل لِمَن كان لي حاسدًا أتدري على مَنْ أسأت الأدبْ
أسأت على الله في فعله لأنك لم تَرْضَ لي ما وهبْ
فجازاك عنه بأنْ زادني وسدّ عليك وجوه الطّلبْ

أبو فراس[٣]: [الطويل]

لِمَن جاهد الحسّاد أجر المجاهد وأعجز ما حاولت إرضاء حاسدِ
ولم أرَ مثل اليوم أكثر حاسدًا كأنّ قلوب الناس لي قلب واحدِ

وقالوا: لا تندمل مِنَ الحسود جراحه حتى ينقص من المحسود جناحه. وقالوا: حَسْب الحسود ما يَلْقى مِنْ صغر الهمّة في حزنه لسرور صاحب النّعمة. وقالوا: مِنْ عادات الأغبياء مُعاداة الأغنياء. وقال عبد الله بن مسعود: لا تعادوا نِعَم الله، قيل له: ومَنْ يُعادي نِعَم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله مِنْ فضله، يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزّلة: الحسود عدوّ نعمتي، ومتسخّط لقضائي، غير راضٍ بنعمتي. ولم أسمع بأحسد مِنْ حمزة بن بيض في قوله وقد مرّ بوادٍ مملوء بلًا وشاء وزرعًا ورعاء: [الكامل]

الزّارعون وليس لي زرع بها والحالبون وليس لي ما أحلبُ
فلعلّ ذاك الزّرْع يُؤذي أهله ولعلّ ذاك الشاء يومًا تجربُ
ولعلّ طاعونًا يُصيب علوجها ويصيب ساكنها الزّمان فتخربُ

---

(١) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:
ليالِيّ بعد الظاعنين شكولُ طوال وليل العاشقين طويلُ
(٢) البيتان الأول والثاني لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان منفردان.
(٣) البيتان في ديوان أبي فراس الحمداني، والبيت الأول مطلع القصيدة.

قال المرزباني صاحب الاتّفاق: فلم يكن إلّا أيام قلائل حتى أصابهم جميع ما تمنّى لهم. وأظرف مِنْ هذا ما حُكِي أنّ ثلاثة من الحسّاد اجتمعوا، قال أحدهم لأحد صاحبيه: ما بلغ من حسدك؟ قال: ما اشتهيت أن أفعل بأحدٍ خيرًا قطّ لئلّا أرى أثر ذلك عليه، فقال له: أنت رجل صالح لكني ما اشتهيت أن يفعل بأحدٍ خير قطّ لئلّا تشير الأصابع بالشكر إليه، فقال الثالث: ما في الأرض خير منكما لكني ما اشتهيت أن يفعل بي أحد خيرًا قطّ، قالا: ولِمَ؟ قال: لأني أحسد نفسي على ذلك، فقالا له: أنت ألأمنا جسدًا، وأكثرنا حسدًا. وقالوا: الحسود عدوّ مُهين لا يُدْرك وتره إلّا بالتمنّي. شاعر: [الكامل]

إيّاك والحسد الذي هو آفة ... فتوقّهُ وتوقَّ غرّة مِنْ حَسَدْ
إنّ الحسود وإن أراك مودّة ... بالقول فهو لك العدوّ المجتهد

وقال عليّ رضي الله عنه: لله درّ الحسد ما أعْدَلَه، بدأ بصاحبه فقتله. وقيل للعتابي في مرضٍ أصابه: ما تشتهي؟ قال: أكباد الحسّاد وأعين الرقباء وألسن الوشاة. وقال بعضهم لولده: إيّاك والحسد، فإنه يبين عليك ولا يبين على عدوّك. وكان يقال: الحريص محروم، والبخيل مذموم، والحاسد مغموم. ذمّ أبو بكر الخوارزمي حاسدًا، فقال: وأمّا فلان فمعجون من طينة الحسد والمنافسة، ومضروب في قالب الضّيق والمناقشة، يحمي من رزق الله مباحًا ويحرّم ما ليس فيه جناحًا، ويتحجّر من رحمته جمًّا واسعًا ويغار على البحر ممن يسبح فيه، وعلى البدر ممن يستضيء به وعلى الشمس ممن طلعت عليه وعلى نسيم الهواء ممّن وصل إليه لو ملك السماء لنهاها عن الأمطار، ولو أطاعته الأرض لمنعها من تغذية النبات والأشجار، ولو سخرت له الأشجار لحال بينها وبين الأثمار، كأنّ كل رغيف يعطى من قوته وقوت عياله، وكأنّ كل درهم يُنْفق من ماله ومال أطفاله، على أنه يبخل على نفسه بالهواء، ويُحاسب أعضاءه على الغداء والعشاء. وقال شاعر[(١)]: [السريع]

لا مات حُسّادك بل خُلّدوا ... حتى يروا منك الذي يكمدُ
ولا خلاك الدهر مِنْ حاسدٍ ... فإنّ خير الناس مَنْ يحسدُ

---

(١) البيتان بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٣٢.

أبو تمام(١): [البسيط]

أن يحسدوني فإني لا ألومهم قبلي مِنَ الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وبهم ومات أطولنا همًّا بما يجدُ

وله(٢): [الكامل]

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيت أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتغال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العودِ

والمشهور(٣): [الكامل]

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سَعْيه فالناس أعداء له وخصومُ
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدًا وبغيًا إنه لدميمُ

ابن المعتز(٤): [الطويل]

ومِنْ عجبِ الأيام بغي معاشر غضاب على سبقي إذا أنا جاريتُ
يغيظهم فضلي عليهم ونقصهم كأني قاسمت الحظوظ فأحظيتُ

آخر: [البسيط]

إنّي حسدت فزاد الله في حسدي لا عاش مَنْ كان يومًا غير محسود
لا يحسد المرء إلا من فضائله بالعلم والحلم أو بالفضل والجود

ومما يؤمر الكريم باجتنابه جارُ سوء ملاصق لجنابه

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله مِنْ جار سوء في دار مقامه، فإنَّ البادي يتحوّل»(٥). وكان عمر رضي الله عنه يقول:

---

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام، وهما لبشار بن برد في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، وللكميت بن معروف الأسدي في ديوانه.

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:
أرأيت أي سوالف وخدودِ غنت لنا بين اللوى فزرودِ

(٣) البيتان لأبي الأسود الدُؤلي في ديوانه، والبيت الأوّل مطلع القصيدة.

(٤) البيتان في ديوان ابن المعتزّ، من قصيدة مطلعها:
ألا علّلاني قبل أن يأتي الموتُ ويُبنى لجثماني بدار البلى بيتُ

(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

ثلاث كلهنّ فواقر: صديقٌ إنْ أسديت إليه عارفة لم يشكرها، وإنْ سمع كلمة لم يغفرها، وجارٌ إن رأى حسنة أخفاها، وإن عثر على سيّئة أفشاها، وامرأة إن أقمت عندها آذتك، وإن غِبْت عنها خانَتْك. وكان يقال: من جهد البلاء جار سوء معك في دار مقامة، يلبس لك من البَغْضاء لامة، لا ينجع فيه عتب ولا يرعوي لملامة. ومن دعاء الأعمش: اللّهمّ إنّي أعوذ بك مِنْ جار تراني عيناه وترعاني أُذناه، إنْ رأى خيرًا دفنه، وإن سمع شرًّا أغلنه. وقال لقمان لابنه: يا بني حملت الحجارة والحديد فلم أرَ شيئًا أثقل من جار سوء في دار مقامة. شاعر، وقد عرض داره للبيع كراهة في جاره: [الوافر]

أَلَا مَـنْ يـشـتـري دارًا بـرخـص كـراهـة بـعـض جـيـرتـهـا تُـبـاعُ

ولآخر(١): [الطويل]

يلومونني إن بعت بالرخص منزلي ولـم يـعـلـموا جارًا هـنـاك يـنـغـصُ
فـقـلـت لـهـم كـفّـوا الـمـلام فـإنّـمـا بـجـيـرتـهـا تـغـلو الـديـار وتـرخـصُ

وقال رجل لسعيد بن العاص: والله إني لا أحبك، قال: ولِمَ لا تحبّني ولست لي بجارٍ ولا ابن عمّ! ويقال في التوراة: أحسد الناس للعالم وأبْغاهم عليه أقاربه وجيرانه. وقالوا: ألأم الناس سعيدٌ لا تسعد به جيرانه، ولا تَسْلم منه إخوانه. استعرض أبو مسلم الخراسانيّ فرسًا أُهدي له، فقال لأصحابه: لم يصلح هذا؛ فكلٌ قال شيئًا، فبعضهم قال: لأن ينفى به العار بأخذ الوتر والثأر، وآخر يقول: يصلح لمنازلة الأقيال، ومناضلة الأبطال، وآخر يقول: يُصان عن أن يذال بالأحداق ليوم يُحرز به قصب السّباق، فقال أبو مسلم: كلّكم أخطأت إسته الحفرة، وزاف نقده عند الامتحان والخبرة، فقالوا: ولماذا يصلح أيّها الأمير؟ فقال: لمن يجدّ في الهرب والفرار من جارِ سوء يعدم بمساكنته السكون والقرار. وقيل لأبي الأسود الدُؤلي: لِمَ بِعْت دارك؟ فقال: ما بعت داري، وإنما بعت جِواري. أنشدني أفضل الأماثل، وأنبل الأفاضل، وذو العِلْم والعلم، واللّسان والقلم، إنسان عين الأعيان، وزين أرباب البيان، الأمير ناصر الدين حسن، عُرِف بابن النّقيب الكناني لنفسه يذمّ جارًا له: [مجزوء الرمل]

لـي جـارٌ شـخـصـه إكـسـيـر أوصـاف الـمـعـايـبْ

(١) البيتان بلا نسبة في المحاضرات في الأدب واللغة، لليوسي، ص ٥٢٧.

حسد الجيرة فيه وعداوات الأقاربْ
ليته لم يعنني لم يكن عون النّوائبْ

الفصل الثالث من الباب السادس عشر

فيما نختم به الكتاب من دعاء نرجو أن يسمع ويُجاب

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: الآية ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخُ العبادة»(١)، وقال عليه الصّلاة والسلام: «استقبلوا أمواج البلاء بالدُّعاء»(٢)، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ الدعاء ينفع مما نزل وممّا لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»(٣).

ولمّا كان الدعاء في الفضيلة بهذه المثابة استحبّ لمن وضع كتابًا أن يختم به كما بدأ بالتّحميد كتابه، فاستخرت الله تعالى، وانتخبت من الأدعية التي صدرت عن صدور أهل الإنابة، ورَوَتْ نفوس العباد منهل الإجابة، وحذفت خوف التطويل أسانيدها، ليسهل على الرّاغب فيها أن يُبْديها متى أحبّ ويعيدها.

وأشرف الأوقات التي يتكفّل النّجح فيها بإجابة الدّعوات أوقات اختارها الله لأداء ما افترض مِنَ الصلوات، فإذا أراد امرؤ طلبته فليتضرّع عقيب صلواته، وتلو مناجاته لله بالاستكانة والخضوع، ليرجع من توجّهه وعرف القبول منه يضوع، وليقل: اللّهمّ ارزقني موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كلّ برّ والسلامة مِنْ كل إثم، والفوز بالجنّة والنجاة مِنَ النار، اللّهمّ لا تدع لي ذنبًا إلّا غفرته، ولا عَيْبًا إلّا سترته، ولا ضُرًا إلّا كشفته، ولا سقمًا إلّا شفيته، ولا رزقًا إلّا بسطته ولا خوفًا إلّا أمنته، ولا سوءًا إلّا صرفته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا، ولي فيها صلاح إلّا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(١) أخرجه الترمذي حديث ٣٣٧١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٨٤، ٥/ ٢٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١١٤.

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٥٢٠.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٤٦، وابن حجر في فتح الباري ١١/ ٩٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٥٢، والعجلوني في كشف الخفاء.

اللّهمّ إنّي أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، ومِنْ عاجل يمنع خير الآجل، ومِنْ حياة تمنع خير الممات، ومِنْ أمل يمنع خير العمل، وأسألك الظّفر والسلامة ودخول دار المقامة.

اللّهمّ لا تحرمني سِعَة مغفرتك وسبوغ نِعْمتك وشمول عافيتك وجزيل عطائك ومنح مواهبك لسوء ما عندي، ولا تخذلني بقبيح عملي ولا تصرف وجهك الكريم عنّي.

اللّهمّ لا تحرمني وأنا أدعوك، ولا تخيّبني وأنا أرجوك. اللّهمّ إنك تمحو ما تشاء وتُثْبت، وعندك أمّ الكتاب. اللّهمّ إن كنت كتبتني عندك في أمّ الكتاب شقيًا محرومًا مقتّرًا عليّ في الرزق فامْح مِن أُمّ الكتاب شقائي وإقتار رزقي، وأثبتني عندك سعيدًا مرزوقًا، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبت وعندك أمّ الكتاب.

اللّهمّ هذا مقام اللّائذ بجنابك، العائذ بك من النار، يا فارج الهمّ، يا كاشف الغمّ، يا مجيب دعوة المضطر يا رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما ارحمني رحمةً تُغْنِيني بها عمَّن سواك. اللّهمّ إني أدعوك بما دعاك به عبدك ذو النُّون إذ ذهب مغاضبًا، فظنّ أنْ لن تقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إلٰه إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، فاستجبت له ونجّيته من ظلمات ثلاثة: ظلمة الخطيئة وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، فإنه دعاك وهو عبدك وسألك وهو عبدك، وأنا أسألك وأنا عبدك وأدعوك وأنا عبدك أن تصلّي على سيّدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وأن تستجيب لي كما استجبت له، وأدعوك بما دعاك به عبدك أيوب إذ قال: مسّني الضرّ وأنت أرحم الرّاحمين، فاستجبت له وكشفت ما به من ضرّ وآتيته أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندك، فإنه دعاك وهو عبدك وسألك وهو عبدك، وأنا أسألك وأنا عبدك وأدعوك وأنا عبدك أن تصلّي على سيّدنا محمد وعلى آل سيّدنا محمد وأن تفرج عنّي كما فرّجت عنه، وأن تستجيب لي كما استجبت له إنك سميع الدُّعاء.

اللّهمّ إني أعوذ بك من نفسٍ لا تشبع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وعين لا تدمع، وصلاة لا تُرفع. اللّهمّ إني أسألك في صلاتي وفي دعائي براءة تطهّر بها قلبي وتؤمن بها روحي، وتكشف بها كربي، وتفرّج بها ذنبي، وتصلح بها أمري، وتُغْني بها فقري، وتذهب بها ضرّي، وتفرّج بها غمّي،

وتسلّي بها همي، وتشفي بها سَقمي، وتقضي بها دَيْني، وتجلو بها حزني، وتجمع بها شملي، وتبيّض بها وجهي، واجعل ما عندك خيرًا لي.

اللّهمّ أصبح ظلمي مستجيرًا بعفوك، وذنبي مستجيرًا بمغفرتك، وخوفي مُستجيرًا بأمنك، وفقري مستجيرًا بغناك، وضعفي مستجيرًا بقوّتك، وذلّي مستجيرًا بعزّك، ووجهي الفاني البالي مُستجيرًا بوجهك الدّائم الباقي. اللّهمّ مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني وهِبْ لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب.

اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمد وعلى آل سيّدنا محمد واجعلني في حفظك وكلاءتك وودائعك التي لا تضيع واحفظني مِنْ كل سوء ومِنْ كل ذي شرّ واحرسني من شرّ الشيطان الرّجيم والسلطان المليم إنك أشدّ بأسًا وأشدّ تنكيلًا.

اللّهمّ إن كنت مُنزِلًا بأسًا مِنْ بأسك أو نقمةً من نقمك على أهل معصيتك بياتًا وهم نائمون أو ضحًى وهم يلعبون، فصلّ على سيّدنا محمد وعلى آل سيّدنا محمد، واجعلني وأهلي في كنفك ومنعك وحِرْزك. اللّهمّ إنّ هذين اللّيل والنهار خلقان مِنْ خلقك، فاعصمني فيهما بحولك وقوّتك ولا ترهما مني جراءة على معصيتك، ولا ركونًا إلى مخالفتك، واجعل عملي فيهما مقبولًا وسعيي مشكورًا وسهّل لي ما أخاف عسره، وصعب عليّ أمره واقضِ لي فيهما الحُسنى وأمنّي مكرك، ولا تهتك عنّي سترك ولا تُنْسِني ذكرك. اللّهمّ صلّ وسلّم على سيّدنا محمد وآله وافتح مسامع قلبي لذكرك حتى أعِي وحيك وأتّبع كتابك وأصدّق رسلك وأومن بوعدك وأخاف وعيدك وأوفي بعهدك وآخذ بأمرك ولا أجترىء على نَهْيك. اللّهمّ إني أستودعك نفسي وديني ومالي وأهلي وكلّ نعمة أنعمت بها عليّ، فاجعلني اللّهمّ في كنفك وأمنك وكفايتك وكلاءتك وحفظك ورعايتك ووديعتك، يا مَنْ لا تضيع ودائعه ولا يخيّب سائله ولا ينفد ما عنده.

اللّهمّ إني أدرأ بك في نحور أعدائي وكَيْد مَنْ كادني وبغى عليّ. اللّهمّ إني أسألك رحمةً مِنْ عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شتات أمري، وتلمّ بها شعثي، وتحفظ بها غائبي، وتصلح بها شاهدي، وتزكّي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها مِنْ كل سوء. اللّهمّ وما قصّرت عنه مسألتي، ولم تبلغه أمنيتي من خير وعدته أحدًا من خلقك، فإني أرغب إليك فيه.

اللّهمّ يا أبصر الناظرين، ويا أسمع السامعين، ويا أسرع الحاسبين أغْنِني بالعلم، وزيّني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجمّلني بالعافية. اللّهمّ إني أسألك حُسْن الظنّ بك، والصّدق في التوكّل عليك، وأعوذ بك أن تبتليني ببلية تحملني ضرورتها على العبث بمعاصيك، وأعوذ بك أن أقول قولًا حقًّا مِنْ طاعتك ألتمس به سواك، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري، وأعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما آتيتني منّي، وأعوذ بك أن أتكلّف طلب ما لم تقسمه لي وما قسمت لي من قسم أو رزقتني فأتني به في يسر وعافية حلالًا طيّبًا، وأعوذ بك من كلّ شيء يزحزحني عن بابك ويباعد بيني وبينك أو ينقص حظّي عندك أو يصرف وجهك الكريم عنّي.

اللّهمّ دعاك الدّاعون ودعوتك، وسألك السائلون وسألتك، وطلبك الطالبون وطلبتك. اللّهمّ أنت الثقة والرجاء وإليك مُنْتهى الرّغبة والدعاء والشدّة والرّخاء. اللّهمّ وصلّ وسلّم على سيّدنا محمد وآله، واجعل اليقين في قلبي والنور في بصري، والنصيحة في صدري، وذِكْرك على لساني. اللّهمّ أنت العاصم والمانع، والواقي الدافع مِنْ كل سوء، أسألك الرفاهية في معيشتي بما أقوى به على طاعتك، وأبلغ به رضوانك وأصير به منك إلى دار السّلام غدًا. اللّهمّ لا ترزقني رزقًا يطغيني ولا تبتليني بفقر يضنيني، وأعْطِني في الآخرة حظًّا وافرًا وفي الدنيا معاشًا واسعًا. اللّهمّ إليك مددت يدي، وفيما عندك عَظُمت رغبتي، فاقبل توبتي، وارحم ضعف قوّتي، واغفر خطيئتي، واجعل لي في كل خير نصيبًا، وإلى كل برّ سبيلًا. اللّهمّ اغفر لي كلّ ما سلف مِنْ ذنوبي واعصمني فيما بقي من عمري واردُدْ عليّ أسباب طاعتك واستعملني بها واصرف عني أسباب معصيتك وحِلْ بيني وبينها. اللّهمّ أنت متعالي الشأن عظيم الجبروت شديد المُحال ذو الكبرياء قادر قاهر قريب الرحمة سامع الصوت صادق الوعد، وفيّ العهد، مُجيب المضطر، قابل التوب، مُخصِص لما خلقت، تُدْرك ما طلبت، شكور إن شكرت، ذاكر إن ذكّرت، أسألك يا إلٰهي محتاجًا، وأرغب إليك فقيرًا، وألجأ إليك خائفًا، وأرجوك ناصرًا، اللّهمّ ضعفت فلا قوّة لي، اللّهمّ جئتك مُسْرفًا على نفسي مقرًّا بسوء عملي. اللّهمّ خلقتني وأمرتني ونهيتني ورغّبتني في ثواب ما به أمرتني، ورهّبتني عقاب ما عنه نهيتني، وجعلت لي عدوًّا يكيدني وسلّطته عليّ فأسكنته صدري، وأجريته مجرى الدّم منّي، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إنْ نسيت، يؤمنني عقابك، ويخوّفني غيرك، إن هممت بفاحشة شجّعني، وإن أردت صلاحًا ثبطني،

ينصب لي حبائل الشهوات، إن وعدني كذبني، وإن اتبعت هواه أضلّني، إنْ لم تصرف عنّي كَيْده يستزلّني، وإن لم تفلتني من حبائله يصدّني، وإنْ لم تعصمني منه يضلّني، اللّهمّ صلّ وسلّم على سيّدنا محمد وعلى آل سيّدنا محمد، واقهر سلطانه عنّي بسلطانك عليه، فأفوز مع المعصومين منه.

اللّهمّ لا هادي لمن أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا مانع لِما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا مقدّم لما أخّرت، ولا مؤخّر لما قدّمت. اللّهمّ أنت العليم فلا يجهل، وأنت الحليم فلا يعجل، وأنت الكريم فلا يبخل، وأنت العزيز فلا يذلّ، وأنت المنيع فلا يُرام، وأنت المُجير فلا يُضام، اغفر لي ما قدّمت، وما أخّرت وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منّي، أنت المقدّم وأنت المؤخّر، وأنت على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير، لا إلـه إلّا أنت.

قال المقيد لشوارد فوائد ما ذكر من الأضداد والمؤلّف مِنْ غرائبها بين الأشباه والأنداد، وعندما تمّ كتابنا واتّسق قمر محاسنه بعد السّرار، وكاد سنا حسنه يعلّق البصائر دون الأبصار، وتفجّرت من خلال سطوره ينابيع الحكم وهمّ عبابها أن يفهق فينمّ بما كتم، وسفرت ألفاظه عن معانٍ كأحسن ما ينشقّ عنه الكمائم، وقامت نفثات بدائعه لصريع الهموم مقام الرقيّ والتمائم، تقاضاني بوعدي إيّاه عند ابتدائه بأنْ أطلعه باهر العقول أوليائه وأعدائه، فاستخرت الله تعالى الكريم وأمسكت مِنْ عنان القلم في مضمار الإطناب، وقصرت خطوه لعلمي أن السآمة مقرونة بالإكثار والإسهاب، وجلوته في حُلَل فنونه وفاء بعهده، وإنجازًا لما سبق من وعده، مادًا من صحائفه كفًا يسأل بها التغديق، عن سوء التلفيق، ويدرأ بها شبهات مَنْ يرى أنّ بيده زمام التوفيق، فهو يتصرّف به على حكم اختياره ومراده ويبلغ غاية أمله بجياد سعيه واجتهاده، وإلى الله أبرأ مِنَ الحول والقوّة، وسأله أن يزحزحني عن الوقوع في هذه الهوّة، وأن يجعل هذا الكتاب للنفوس يعجب ويروق، ويجريه بالمحبة مجرى الدّم في العروق، وأن يُدْخلني جنّات يجلّ وصفها وتفوق، إنه من راجيه قريب، ولداعيه سميع مُجيب، آمين.

الفهارس العامَّة

فهرس الآيات القرآنية

رقم الآية	الآية	الصفحة
	سورة النِّساء	
٣	﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾	٢٨٦
٣٦	﴿وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾	٥٧٢
٧١	﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾	٤٣٥
	سورة المَائدة	
٣٣	﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا أَوْ يُصَلَّبُوٓا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾	٥٣٣
٣٨	﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾	٢٨٦
١٠١	﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾	٢٦٣
	﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ﴾	٢٦٣
	سورة الأعرَاف	
١٤٦	﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾	٨٨
١٩٩	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ (١٩٩)﴾	٢٣
٢٠١	﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾	٥٠١
	سورة الأنفَال	
٦٠	﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾	١٦٧
	سورة التّوبَة	
٣٤-٣٥	﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ	

فهرس الأحاديث النبويَّة

باب الألف

باب الباء

باب التاء

باب الجيم

باب الحاء

باب الميم

باب النون

باب الهاء

باب الواو

باب الياء

فهرس الآثار عن الصحابة والتَّابِعِين

باب الألف

باب الباء

باب التاء

باب الثاء

باب الجيم

باب الحاء

باب الخاء

باب الدال

باب الراء

باب الزاي

باب السين

باب الصاد

باب العين

باب الفاء

باب القاف

باب الكاف

باب اللام

باب الميم

باب النون

باب الهاء

باب الواو

باب الياء

فهرس القوافي

الباء المكسورة

قافية التاء

التاء المفتوحة

التاء المضمومة

قافية الثاء

الثاء المكسورة

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة

قافية الجيم

الجيم المضمومة

الجيم المكسورة

قافية الحاء

الحاء المفتوحة

الحاء المضمومة

الحاء المكسورة

قافية الدال

الدال الساكنة

الدال المفتوحة

الدال المضمومة

الدال المكسورة

الراء المضمومة

قافية الزاي

الزاي المكسورة

قافية السين

السين الساكنة

السين المفتوحة

السين المضمومة

العين المكسورة

القاف المكسورة

قافية الكاف

الكاف الساكنة

الكاف المفتوحة

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
نصالَها	ابن الرومي	الطويل	٢	٥٤٩
الوصالا	أبو العتاهية	الوافر	٢	٥٦٧
قالَها	ـ	الكامل	٤	٣٢٠
فقالا	ـ	الكامل	٧	٤٠٠
مثلا	المتنبي	البسيط	١	٢٨٩
رجلا	المتنبي	البسيط	١	٤٥٠، ٤٦١
تتعجّلا	عيسى بن علي	الطويل	٢	١٢٦
معجّلا	أبو الشمقمق	الكامل	٢	٢٥٥
عادلا	السري الرفاء	الكامل	٤	٢٤٦
نزلا	ـ	الخفيف	٢	٩٣
النذلا	ـ	الطويل	٢	٢٣٧
منازلا	مالك بن الريب	الطويل	١	٤٣٠
مناصلا	السريّ الرفاء	الكامل	٦	٢٤٨
فصلا	حسان بن ثابت	الطويل	٢	١٩١
فاضلا	ـ	الطويل	١	١٥٧
فضلَهْ	ـ	الخفيف	٣	٣٨٦
التفضّلا	ـ	الطويل	٢	٥٦٠
مشتغلا	ـ	البسيط	٣	١٥٧
المتقلَهْ	ـ	الرَّمَل	٢	٥١٨
عقلا	ـ	الطويل	٣	٥٣٨
مشكلا	أبو تمام	الطويل	١	٢٥٢
مهلا	ـ	الطويل	١	٣٦١
مسؤولا	ابن دريد	الكامل	٢	٣٠٢
عقولا	المتنبي	الكامل	١	١٩٠
المأمولا	ـ	الكامل	٣	٤٨٩
وبيلا	بشامة بن الغدير	المتقارب	٢	٥١٢
حيلَهْ	محمود بن مروان	مجزوء الكامل	٢	٦٩
البخيلا	ـ	المتقارب	٢	٣٠٤، ٣٢٦
قنديلا	بكر بن النطاح	الكامل	٥	٤٠٩
هديلا	جرير	الكامل	٧	٤١٧

اللام المكسورة

قافية الميم

الميم الساكنة

الميم المكسورة

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بالمعصمِ	ـ	المتقارب	٢	٥٣٥
نِعِم	الحمدوي	البسيط	٣	٢٠٨
نعمِّي	ـ	الوافر	٦	٥٥٤
منعمِ	المتنبي	الطويل	٣	٣٠١
فمِ	أبو بكر الخوارزمي	مجزوء الرجز	٢	٧٧
حشو فمي	ديك الجن الحمصي	البسيط	١	٣٢
محكمِ	ابن هانىء الأندلسي	الطويل	٢	٤٤١
بسالمِ	المتنبي	الطويل	٣	٤٣٣
المظالمِ	المتنبي	الطويل	١	٤٩٤
العالمِ	ابن المعتز	المتقارب	٢	٣٩٨
احلمِ	مهيار الديلمي	الكامل	٣	٤٧٤
يتحلَّمِ	ـ	الطويل	٢	٤٦٨
تسلمِ	أبو العتاهية	السريع	٢	١٣٩
بالظلمِ	ابن قادوس	البسيط	١	٧٤
يُظلمِ	زهير بن أبي سلمى	الطويل	١	٨٤
علِمِهِ	ـ	السريع	٢	٤٧٤
علمي	عامر العدواني، ومحمود الوزاق	الكامل الأحذ	٢	٤٧١
تُعلمِ	زهير بن أبي سلمى	الطويل	١	٥٧
والقلمِ	خالد الكاتب	البسيط	٣	٣٥٣
الكلمِ	الحماني الكوفي	البسيط	١	٢١٩
الأممِ	ـ	البسيط	٣	٣٤٩
الأممِ	الشريف الرضي	البسيط	٢	٣٠٢
الأممِ	بنت عقيل بن أبي طالب	البسيط	٣	٤٢٧
والذممِ	ـ	البسيط	٢	٥٤٠
هممي	أبو العبر الهاشمي	المديد	٤	٣٩٧
الغنمِ	ـ	الطويل	٨	٤٩٧
ينمِ	جرير	المتقارب	٢	٣٦٥
الهمِّ	ـ	الكامل	٢	٢٥٥
الدرهمِ	ـ	الكامل	٢	٤٠٠
سهمي	ـ	الكامل الأحذ	٢	٤٨٦

النون المضمومة

النون المكسورة

القافية	الشـاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
العينِ	ـ	الهزج	٢	٤٨٠
بالعينِ	الصاحب بن عباد	البسيط	٢	٥٦٣
الخافقينِ	ـ	الخفيف	١	٢٥٦
يقينِ	مجنون ليلى، والأحوص الأنصاري	الطويل	٢	٥٧١
مسكينِ	أبو العتاهية	البسيط	٢	٥١
ويومينِ	ـ	السريع	٢	٥٥٩
وجهينِ	الوزير المغربي	الخفيف	٢	٦٠٠

قافية الهاء

الهاء الساكنة

القافية	الشـاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
المشتبهْ	محمود الوراق	المتقارب	٣	٦٦
مرّهْ	منصور الفقيه	مجزوء الكامل	٢	٢٣٥
الوراقهْ	ـ	الوافر	٢	٢٠٩
منّهْ	الشافعي	مجزوء الكامل	٣	٣٢٥

الهاء المفتوحة

القافية	الشـاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
تاها	ـ	البسيط	٢	٥٩٢
يرزاها	ابن هرمة	المنسرح	١	٢٢٣
سواها	العباس بن مرداس	الوافر	١	٤٠٨
إلا بِها	ابن المعتز	المتقارب	٢	٤١٣
لفظها	ـ	الكامل	٢	٦٠٠
حياكها	ـ	الكامل	٢	١٣٧
وهاشمها	ـ	المنسرح	٢	٢٥٨
مساحيها	جرير	البسيط	٤	٤٥١
أدريها	ـ	البسيط	٣	٥٨
يداويها	ـ	البسيط	١	١٥٤

الهاء المضمومة

القافية	الشـاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
ألقاهُ	علي بن الجهم	البسيط	٣	٥٥٨
نعماهُ	الحارثي	السريع	٢	٥٢٧
عيناهُ	بهلول المجنون	البسيط	٢	٢٩٣

فهرس أنصاف وأجزاء الأبيات

فهرس الأرجاز

اللام المكسورة

قافية الميم

الميم الساكنة

الميم المفتوحة

فهرس المحتويات

الباب الثاني
في اللؤم

الباب الرابع
في الحمق

الباب الخامس
في الفصاحة

الباب السادس
في العيّ

الباب السابع
في الذكاء

الباب الثامن
في التغفّـل

الباب التاسع
في السخاء

الباب الحادي عشر
في الشجاعة

الباب الثاني عشر
في الجبن

الباب الثالث عشر
في العفو

الباب الرابع عشر
في الانتقام

الباب السادس عشر
في العزلة

الفهارس العامّة

ǦURAR AL-ḪAṢĀʾIṢ AL-WĀḌIḤAH WAʿURAR AL-NAQĀʾIṢ AL-FĀḌIḤAH

(A book in letters and wisdom)

by

Jamāluddīn al-Waṭwāṭ

Edited by

Ibrāhīm Šamseddīn

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon